STEER FORTH PRESS

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

هوغو

قصة هوغو تشافيز من الكوخ الطيني إلى الثورة المستمرة

بارت جونز

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

iHUGO

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Steerforth Press

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2007 by Bart Jones

All rights reserved

Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

هوغو

قصة هوغو تشافيز

من الكوخ الطيني إلى الثورة المستمرة

تأليف

بارت جونز

ترجمة

بسام شيحا و أمين الأيوبي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-523-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

«أميركا عصية على الحكم.
إنهم يحرثون البحر، أولئك الذين
يخدمون الثورة. الشيء الوحيد الذي يمكن
فعله في أميركا هو الهجرة»

سيمون بوليفار

«أولئك الذين يجعلون
التغيير السلمي أمراً مستحيلاً
سيجعلون من التغيير العنفي أمراً حتمياً»

جون. أف. كنيدي

المحتويات

الفصل الأول: إعصار هوغو 13

الفصل الثاني: جذور التمرد 33

الفصل الثالث: ولادة ثائر 51

الفصل الرابع: اختبار المياه 67

الفصل الخامس: قَسَم مقدس 79

الفصل السادس: اتساع المؤامرة 95

الفصل السابع: أولى الخيانات 109

الفصل الثامن: المذبحة 121

الفصل التاسع: الانتظار خلف الكواليس 135

الفصل العاشر: الثورة 141

الفصل الحادي عشر: السجن 169

الفصل الثاني عشر: وداع القائد السري 185

الفصل الثالث عشر: على الطريق 195

الفصل الرابع عشر: الحسناء والوحش 213

الفصل الخامس عشر: إلى السلطة 233

الفصل السادس عشر: ولادة ومأساة 255

الفصل السابع عشر: أولى الانشقاقات 267

الفصل الثامن عشر: رجل النفط 283

الفصل التاسع عشر: أولى الثورات وعودة فريق إيران – كونترا 297

الفصل العشرون: الانقلاب 319

الفصل الحادي والعشرون: الرئيس مفقود 351

الفصل الثاني والعشرون: ما بعد الانقلاب 377

الفصل الثالث والعشرون: إضراب عمال النفط 383

الفصل الرابع والعشرون: المهمات الاجتماعية 401

الفصل الخامس والعشرون: الاستفتاء 417

الفصل السادس والعشرون: الرّد المعاكس 433

الفصل السابع والعشرون: اشتراكية القرن الحادي والعشرين 449

كلمة ختامية 473

مُقَــدِّمـَـــة

كنـت وهوغـو تشافيـز نجلس بمفردنـا في الطابق الثاني من قصـر ميرافلوريس الرئاسي في كاراكاس، فنزويلا، وكانت الساعة عندها تقارب منتصف الليل من يوم 30 نيسان 2007. كانت فنزويلا على بعد دقائق فقط من وقوع حدث تاريخي يتمثل بانتزاع ملكية الأغلبية في شركات دولية عملاقة، من بينها إكسون موبل وتشيفرون وكونوكو وتوتـال، تقـوم علـى إنجـاز أربعة مشاريع نفطية تُقدَّر قيمتها بمليارات الدولارات في الحوض الشرقي لنهر أورينوكو.

كان تشافيـز يشـرف علـى عمليـة الاستيلاء من خلف طاولـة موضوعة في باحة خارجيـة نصـف مغلقـة ذات سقـف مغطى بالقش تتدلى منه عدة أقفاص تحوي بداخلها طيوراً تشق سكون الليل بزقزقاتها من حين لآخر. كان الجو هادئاً هنا، لكنه لم يكن كذلك أبداً في ولاية أنزواتيغي الشرقية، حيث كان يُفترَض بالعمال والمديرين التنفيذيين في شركة النفط الحكومية، بيتروليوس دو فنزويلا (PDVSA)، الاستيلاء على مواقع شركات النفط الخاصة حالما تدق الساعة الثانية عشرة ليلاً معلنة بدء اليوم الأول من أيار، ذكرى العمال العالمية. بعد ذلك، سيرفع العمال الأعلام الفنزويلية، ويغيرون أسمـاء الشـركات، ليصبـح اسم شركة سينكور، على سبيل المثال، بيتروجونين، تيمُّناً باسم معركة شهيرة جرت في البيرو تحت قيادة بطل تشافيز، سيمون بوليفار.

أثـارت عمليـة السيطـرة النفطيـة هذه جدلاً واسعاً، شأنها في ذلك شأن العديد من خطوات تشافيز، حيث ادَّعى منتقدوه أنها كانت مجرد خطوة أخرى على طريق تأسيس ديكتاتوريـة شموليـة علـى غرار ديكتاتورية معلّمه ومثلـه الأعلى، فيدل كاسترو، فيما رد مؤيدوه بالقول إنه كان يعيد ترسيخ السيادة الوطنية على مورد طبيعي تستغله منذ سنوات طويلة شركات أجنبية تتمتع عملياً بإعفاء ضريبي كامل.

كنـا لوحدنـا فـي الباحـة من الساعة 11:10 ليلاً حتـى الساعة 1:30 بعد منتصف الليل – فتـرة ذروة انشغـال الرئيس – ممـا منحنـي فرصة مميزة للاطلاع على تفاصيل هذا الحدث الهام. وكانت هذه مقابلتي الثانية معه في ظرف يومين فقط، وهي فرصة نادرة بحق أن تقضي وقتاً مع رجل تتدفق عليه طلبات إجراء المقابلات من كل حدب وصوب.

لـم يقطـع أحـد خلوتنـا تلـك إلا خادم يرتدي ثياباً رثة كان يدخل من وقت لآخر ليسألنا إذا كنا بحاجة لفنجان من القهوة أو كوب من الماء.

في الليلة السابقة، كنت قد عدت مع تشافيز على متن الطائرة الرئاسية من مدينة

باركويزيميتو إلى كاراكاس، وأجريت المقابلة معه في مكتبه الخاص في الطائرة. ثم دعاني لمرافقته إلى كاراكاس في سيارته، وأخيراً أخذني في نزهة قصيرة على الأقدام خارج ميرافلوريس.

قبل منتصف الليل بقليل، تحدث تشافيز مع رئيس شركة بيترولیوس دو فنزويلا، رافائيل راميريز، على هاتفه الخلوي. كان الرئيس يريد أن يعرف أي الشركات لم توقِّع على عقود الموافقة على تسليم القيادة إلى فنزويلا، فأخبره راميريز أن كونوكو هي الشركة الوحيدة التي رفضت التوقيع.

بينما كان يتحدث مع راميريز، كان تشافيز يبقي إحدى عينيه مثبتة على تلفزيون صغير موصول بسقف القش، حيث كان يعرض رئيس الشبكة التلفزيونية الحكومية وهو يتحدث على الهواء مباشرة من أنزواتيغي، معلناً أن البلد كان على وشك أن يشهد لحظة تاريخية. عندئذ قال تشافيز لراميريز: «سيكون أمراً جيداً لو أمكنك الإدلاء ببيان موجَّه إلى البلد في الساعة الثانية عشرة بالضبط، ربما في **كادينا** [أي في بث تنقله جميع الشبكات]» مستخدماً الكلمة التي ينبغي على كل الشبكات التلفزيونية المرخصة قانونياً أن تفهمها. «اتصلْ بويليام لارا [وزير الاتصالات]. لا، أنا سأتصل به في الحال. دعوني آمر **بكادينا** من هنا. لا تتحدث طويلاً». ثم أعقب ممازحاً: «ليس مثل تشافيز».

بعد بضع دقائق فقط كان راميريز يتحدث مباشرة على المحطات التلفزيونية كلّها تقريباً في البلد. راح تشافيز يقلّب بين المحطات للتأكد من امتثالها جميعاً للأمر، وعندما وصل إلى القناة RCTV، توقف لبرهة. كانت هذه القناة مهددة بخسارة رخصتها للبث في 27 أيار بسبب اشتراكها في حملة دولية شرسة تندد بالرئيس تشافيز لسحقه حرية الكلام، والحكومة تصر على أن RCTV لعبت دوراً فاعلاً في انقلاب 2002 ضد الرئيس، وأن سلوكها – مثل تصريحات الصحفيين والسياسيين على التلفزيون بوجوب الإطاحة بالرئيس – لا يُسمَح به أبداً حتى في الولايات المتحدة (كانت لجنة الاتصالات الفدرالية FCC ستغلقها على الفور). على أي حال، عندما أُغلقت قناة RCTV لاحقاً بعد رفض الحكومة تجديد رخصتها، تعرَّض تشافيز لهجوم عنيف من مختلف أنحاء المعمورة؛ الجميع من وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس والرئيس جورج دبليو بوش إلى منظمات حقوق الإنسان وحرية الصحافة.

انفرجت أسارير تشافيز عندما رأى أن RCTV قد امتثلت لأمره بالكادينا. ثم قال ضاحكاً وهو يتخيل ردّ فعل المديرين التنفيذيين في RCTV وهم يُرغَمون على الامتثال للبث الجماعي: «كي يزداد غضبهم».

كان راميريز يتحدث عبر شاشة التلفزيون، وكان كل شيء يبدو أنه يسير على خير ما يرام. حيث قدَّم رئيس شركة بيترولیوس دو فنزويلا بصورة احتفالية لأحد عمال النفط خوذة حمراء – لون الثورة الفنزويلية – بدلاً من خوذته الزرقاء، فابتهج

الحشد المتجمع في أنزواتيغي وعلت أصواتهم فرحاً.

○●○

إن الحصول على فرصة الجلوس إلى جانب تشافيز وهو يدير عملية الاستيلاء هذه لـم يكـن بالأمـر السهـل. فقد أخبرني مساعـدوه في نيسان 2007 أنهم تلقوا منذ كانون الثانـي أكثـر مـن ألـف طلب لإجراء مقابلة مع الرئيس. وبعضهم قال لي إن أفضل ما يمكـن أن آمـل بـه هـو طـرح بضعـة أسئلة سريعة في ممر ما مـن مكان ما. بالفعل، ففـي سيـاق عملـي علـى إنجاز هذا الكتاب، أمضيت نحو سنتين في محاولة التأثير على المسؤوليـن مـن أجـل الجلوس مع تشافيز لمناقشة حياتـه ورئاسته. والكثير منهم قالوا إنهم سيفعلون ما بوسعهم، ولكن من دون جدوى.

في الواقع، لقد تغيرت الأمور كثيراً منذ انقضاء تلك الفترة التي عشتها في البلد بين عامي 1992 و2000، عندما كنت أعمل على تغطية مراحل ارتقاء تشافيز إلى السلطة، الجيدة منها والسيئة. ففي تلك الفترة تمكنت من إجراء عدة مقابلات مع تشافيز، حتى إنني كنت أقف على تَرّاس خارجي في الليلة نفسها التي فاز فيها بالانتخابات الرئاسية فـي 1998. بـل أكثـر مـن ذلك، فقد كان تشافيز قبل فوزه بالرئاسة يضطر في بعض الأحيـان إلـى التوسـل مـن أجل الحصول على تغطية إعلاميـة، وفي إحدى المرات، وبعـد عودتـه مـن رحلـة إلـى كولومبيا، دعا تشافيز لعقد مؤتمر صحافي فإذا به يتفاجأ بحضور بضعة مراسلين فقط.

على أي حال، أخيراً، جاءت فرصتي في أوائل نيسان 2007؛ أو هكذا بدا لي حينئـذ. حيـث اتصـل بي مسؤولون فنزويليون إلى نيويورك ليخبروني أن المقابلة مع الرئيس قد حُدِّد موعدها يوم الأربعاء 25 نيسان.

قبل يومين من الموعد، طرت إلى فنزويلا، وذهبت إلى القصر في اليوم المحدد، لكـن المسؤوليـن قالـوا لـي: «*Se complico la cosa*»؛ لقد تعقدت الأمور، والرئيس لا يستطيع إجراء المقابلة الآن.

أحسسـت بخيبـة أمـل وانزعـاج شديدين، لكنني قررت أن أستفيد من يوم العطلة بمقابلـة الرجليـن الأكثـر نفـوذاً فـي الحكومـة إلى جانـب تشافيز – أخـوه أدان ونائب الرئيـس منـذ فتـرة طويلة خوسيه فيسينته رانجل، الذي تنحى عن منصبه مؤخراً – مع أن المسؤوليـن أكـدوا لـي أنهـم سيبذلون أقصى جهدهـم لتمكيني من رؤية الرئيس في اليوم التالي.

لـم يحـدث أي شـيء فـي اليوم التالي، على الأقل، ليـس قبل الساعة الثالثة من بعـد الظهـر. كنـت قد فقـدت الأمل في ذلك الوقت، وبدأت أحضر نفسي ذهنياً للعودة إلى نيويورك في اليوم التالي كما هو مقرر. فإذا بأحد المساعدين في القصر الرئاسي يتصـل بـي، ويخبرنـي أن تشافيـز يريدنـي أن أرافقه على متن الطائـرة الرئاسية في

رحلته إلى باركويزيميتو من أجل الاجتماع مع الرئيس البوليفي إيفو موراليس والرئيس النيكاراغوي دانييل أورتيغا وآخرين غيرهما. وهكذا أصبح بإمكاني إجراء المقابلة مع الرئيس يوم الأحد في الطائرة في طريق عودتنا أو صباح الاثنين في القصر.

صباح يوم السبت توجهنا إلى باركويزيميتو على متن الطائرة الرئاسية، التي كانت تحمل بعض وزراء تشافيز وبعض الإعلاميين ومسؤولين أمنيين وأنا، ولكن من دون الرئيس؛ لقد تأخر عن الرحلة التي تنفذها طائرته الخاصة. لكن الطائرة استدارت وعادت ثانية إلى كاراكاس وأقلّت الرئيس. لم أتحدث إلى تشافيز خلال عطلة نهاية الأسبوع تلك لأنه كان مشغولاً بموراليس وأورتيغا، وآخرين.

أخيراً استُدعيت إلى مكتب الرئيس الخاص في طائرة الإيرباص 319 في طريق عودتنا إلى كاراكاس في ليلة الأحد. كانت فرصة نادرة بحق أن أتمكن من قضاء وقت مطول لوحدي مع الرجل الذي كان يحدث تغييرات كبرى في فنزويلا ويحاول نشر ثورته البوليفارية في العالم.

بعد خمس عشرة دقيقة من هبوطنا في كاراكاس تحدثت وتشافيز في سيارته طوال عشرين دقيقة وهي المدة التي استغرقها وصولنا إلى القصر، ومن ثم تحدثنا أكثر في ميرافلوريس. وفي النهاية، تمنينا لبعضنا ليلة سعيدة، بعد أن وعدني برؤيتي في اليوم التالي حوالى الظهر من أجل استكمال المقابلة. في الواقع، لم أكن متأكداً من أن ذلك سيحدث، لأنه سبق وقضى معي وقتاً أطول بكثير مما قضاه مع معظم الصحفيين الآخرين، بالإضافة إلى منحي فرصة استثنائية على متن الطائرة وفي سيارته. ولكن، هناك سبب آخر لارتيابي، ألا وهو أن الفنزويليين مشهورون بتقديم وعود لا يفون بها أبداً.

حلّ الظهر وانتهى، ولم يأت خبر من ميرافلوريس، وقرابة الساعة الثالثة من بعد الظهر بدأت بالاستعداد للعودة إلى نيويورك في الصباح التالي. لكن هاتفي الجوال رن عند الساعة الثالثة والربع، والاتصال كان من القصر: كنْ هناك في الساعة الثامنة مساء. سيقابلك الرئيس.

جئت إلى القصر في الساعة المحددة، ثم انتظرت لثلاث ساعات كاملة استُدعيت بعدها إلى الطابق العلوي لمقابلة الرئيس، وكانت الساعة قد تخطت الحادية عشرة بقليل.

تحدثنا في مقابلة تلك الليلة والليلة التي سبقتها لمدة أربع ساعات تقريباً، غطينا فيها مساحة واسعة من حياته، من طفولته الفقيرة إلى انقلاب العام 2002 الذي كاد أن يُقتَل فيه... بالإضافة إلى موضوع حساس واحد على الأقل لم يتحدث عنه بشكل علني أبداً من قبل، وعندها خشيت أن ذلك قد ينهي المقابلة بشكل مفاجئ.

الفصل الأول

إعصار هوغو

كانـت الرئاسـة تنزلـق مـن بين يدي تشافيز. ففي 11 نيسان 2002، نزل مئات الآلاف مـن المتظاهريـن إلـى الشوارع، وتوجهوا إلى قصر ميرافلوريس الرئاسي في كاراكاس مطالبيـن باستقالـة تشافيـز. ومـن بين الشعارات التي كانـت تُسمَع في تلك المظاهـرة الحاشـدة: «اخـرج يا تشافيز الخائـن!». «سوف نسقط الحكومة!». «تشافيز سيدفع الثمن!». كانت واحدة من أكبر المسيرات الاحتجاجية في تاريخ فنزويلا، تحالفٌ متنوع من الرجال والنساء والأطفال يلوّحون بالأعلام، ويطلقون الصفير، ويقرعون على القدور. والكثيرون منهم دهنوا وجوههم بالأصفر والأحمر والأزرق، وهي ألوان العلم الفنزويلي.

بعـد ثـلاث سنـوات مـن بدء رئاسته، أصبح تشافيز رجلاً مكروهاً من قبل بعض الفنزويليين الذين كانوا يرونه كديماغوجي مدَّع، فيدل كاسترو آخر يدمر البلد بتجربته نصف الناضجة في الشيوعية. لقد اعتقد المتظاهرون أن تشافيز قسَّم فنزويلا إلى أغنياء وفقراء، دافعاً بذلك تلك الأمة المسالمة إلى حافة حرب أهلية. كان تشافيز ينعت النخبة الثريـة التـي كانـت تقـود المعارضة بالخنازير الزاعقة والنخبـة العفنة والنخبة القذرة. لكنه كان بالنسبة إلى المتظاهرين مجرد ديكتاتور غريب الأطوار يحث على الصراع الطبقي، ويدخل البلد في فوضى اقتصادية. كان يُشعرهم بالخزي والعار.

لكـن، عندمـا انتشـر الخبـر في الأحياء المكتظة الواقعـة على المنحدر الجبلي من العاصمـة بـأن المتظاهريـن غيروا مسارهم بشـكل غير قانوني في الدقيقة الأخيرة بغية التجمع بالقرب من ميرافلوريس، وثب عدة آلاف من مناصري تشافيز على دراجاتهم الناريـة والباصـات العامـة وتوجهـوا إلى القصر عاقدي العزم على الدفاع عن الرئيس حتـى المـوت. كان تشافيـز بالنسبـة إليهـم المخلصـ، لأنه الرئيـس الأول في تاريخ فنزويلا الذي دافع عن مصالح ملايين الفقراء الذين يشكلون الغالبية العظمى من الشعب الفنزويلـي. فعلـى الرغـم مـن أن فنزويلا تملك أكبـر احتياطي نفطي في العالم خارج منطقة الشرق الأوسط، وإحدى أكبر الدول الأجنبية المزوِّدة بالنفط للولايات المتحدة، إلا أن معظم سكانها كانوا يعيشون في فقر مدقع. والكثيرون منهم كانوا يحمِّلون النخبة الحاكمـة الفاسـدة مسؤوليـة سرقة النفط وتكديس الثروات الخاصة. وبالفعل، ففي حين كان سائقو الحافلات وفنيو الكهرباء ومعلمو المدارس يعيشون في الأكواخ المهترئة، كانـت النخبـة الثريـة تعيشـ في قصـور مترفة مسوَّرة وتقضـي عطلاتها في منتجعات

أوروبا والولايات المتحدة الفاخرة.

تجمَّع عدة مئات من مناصري تشافيز فوق جسر قريب من ميرافلوريس يُدعى جسر لاغونو. ولتمييز أنفسهم عن المتظاهرين، قام العديد منهم بطلي وجوههم باللون الأحمر، لون تشافيز المفضل. وفي الطرقات حاولت بعض الصفوف القليلة من شرطة العاصمة والحرس الوطني إبقاء المجموعتين منفصلتين. أغلقت متاجر الألبسة وأماكن بيع القهوة والمطاعم التي تبيع خبز الذرة، وأنزلت واقياتها المعدنية لحماية الواجهات الزجاجية. كانت الشمس الكاريبية تنشر أشعتها الساخنة فوق المدينة والغاز المسيل للدموع يخنق الهواء.

قرابة الساعة 3:20 من بعد الظهر، كان أريستوتليس أرانغورين، أحد المتظاهرين المعارضين لتشافيز، يقف على طريق بارالت العريض الذي يبعد عدة شوارع من القصر عندما دوت الطلقات الأولى. لم يكن متأكداً من مكان انطلاقها لكنه افترض أنهم مناصرو تشافيز. أجفل الجندي السابق ومعلِّم الصف الخامس ذو الوجه المنمَّش، واختبأ بسرعة خلف عربة أشبه بدبابة تُسمى **الحوت** (تملكها شرطة العاصمة) كانت قد دخلت فجأة إلى طريق بارالت من شارع جانبي. انتظر أرانغورين قليلاً، ثم انطلق يعدو بالاتجاه المعاكس، لكنه ما إن قطع بضع خطوات حتى سمع امرأة تصرخ من نافذة في الطابق السابع من مبنى مجاور مخصص للمكاتب: «انتظر! إنهم يجلبون شخصاً جريحاً!»، جاء بعض الرجال وهم يركضون حاملين معهم من الذراعين والساقين رجلاً تغطي الدماء جسده. كاد الرجل أن ينزلق من بين أيديهم فتوقفوا لبرهة ليمسكوا به بشكل أفضل.

هرع أرانغورين ليرى إذا كان بوسعه المساعدة ببعض تقنيات الإسعافات الأولية التي تعلَّمها في الجيش. كان الرجل في العشرين من عمره تقريباً، يرتدي قميصاً وسترة وبنطالاً خشناً كلها سوداء اللون. كان جسده رخواً ورأسه متدلياً إلى أحد جانبيه. لقد اخترقت رصاصة رأسه من الجهة اليسرى فوق الأذن تماماً، وخرجت من الجهة اليمنى مخلِّفةً فجوة بقطر إنش استطاع أرانغورين أن يرى من خلالها جزءاً من دماغ الرجل الرمادي المدمى. وكان أحد المنقذين يحمل في يده الحرة كتلة رمادية مدماة بدت وكأنها جزء آخر من دماغ الشاب. كان مؤخر رأسه منقوعاً بالدماء التي حوَّلت شعره إلى كتل مجدلة مخضبة باللون الأحمر.

أحس أرانغورين بالغضب لرؤية منظر هذا الشاب الذي بدا وكأنه قد فارق الحياة. فالمتظاهرون جاؤوا للمطالبة باستقالة تشافيز بشكل سلمي، ولم يتخيل أرانغورين أبداً أن المسيرة ستصبح دموية. كان يتوقع ربما بعض الغاز المسيل للدموع من الشرطة وبعض العراك بالأيدي مع مناصري تشافيز، لكنه لم يكن يتوقع أبداً حدوث إطلاق نار.

تراجع أرانغورين، وهو ينظر بحذر إلى الجسر، عشرين يارد أخرى باتجاه

الجنوب على طريق بارالت. سمع دوي عدة عيارات نارية أخرى، فعرف أنها مرت بالقرب من مطعم ماكدونالد لأنه استطاع رؤية الأوراق وهي تهتز على شجرة قبالة المطعم. وعند زاوية شارع الجامعة صادف منظراً ثانياً مثيراً للاشمئزاز: رجل فاقد للوعي ممدّد على بطنه على الرصيف. لقد خلّفت رصاصة جرحاً واسعاً في الجهة اليسرى من رأسه. كان هناك خمسة متظاهرين يتحلقون حوله صامتين من هول الصدمة، وكان أحدهم يرفع رأس الضحية برفق عن الأرض، ويضغط بمنديل على الجرح محاولاً إيقاف النزيف لكن من دون جدوى. كانت ثياب الضحية مخضبة بالدماء.

تفحص أرانغورين بسرعة ذاك المنظر المقزز فصعقته فكرة مرعبة. كلا الرجلين قُتلا برصاصة واحدة في الرأس. هل كان هناك قناصون يقتلون الناس؟ لقد تلقى في الجيش تدريباً حول كيفية تجنب القناصين، وهذا الوضع كان يبدو مناسباً لمثل ذلك الغرض. مسح بنظره أسطح الأبنية الملاصقة للشارع فلم يرَ أي شيء غير اعتيادي، ثم انطلق يعدو مسرعاً بعكس الجسر وهو يصرخ في الحشد: «هناك قناصة! تراجعوا! قُتل شخصان حتى الآن!».

لم يكد يقطع ثلاثين ياردة حتى رأى رأس رجل يركض بموازاته على الجانب الآخر من الشارع ينتفض إلى الأمام بشكل مفاجئ وكأن شخصاً دفعه من الخلف. سقط الرجل بعدها على الأرض ككتلة من اللحم الميت. كان نحيلاً قصير الشعر ولا يرتدي قميصاً. لقد أصيب بطلقة في الرأس أيضاً. كان مستلقياً على جانبه الأيمن على الرصيف من دون حراك. إنه ثالث شخص يراه أرانغورين مصاباً بطلقة بالرأس ولم يكن قد مضى على بدء إطلاق النار سوى دقيقة فقط.

كانت الأعيرة النارية ما تزال تنهمر على الحشد. وكان هناك نحو خمسين شخصاً متجمعين حول أرانغورين، ستة منهم تقريباً أصيبوا بطلقات في أقدامهم أو أرجلهم أو جذوعهم أو أذرعهم. بعضهم كان يمشي، وبعضهم يهرول، وبعضهم الآخر كان يعدو بأقصى سرعته، كل في اتجاه. بينما كان هناك أشخاص آخرون متسمّرين في أمكنتهم معقودي اللسان من شدة الصدمة. لم يكن أحد منهم يعرف من أين تأتي الطلقات أو ماذا كان يحدث.

لم يتوقف أرانغورين بل تابع الركض معيداً بصره ثانية إلى الشارع أمامه، وعلى بعد عشرة ياردات تقريباً رأى رجلاً آخر ممدداً على ظهره فوق الرصيف قبالة محل للألبسة الرجالية. وكان هناك متظاهر يجري أمام أرانغورين انتبه إلى الرجل في اللحظة الأخيرة فقفز فوق جسده الممدد بلا حراك باستثناء الجزء الأسفل من ذراعه اليسرى. كان الرجل يلوّح بها إلى الأمام والخلف بحركة ضعيفة. وما إن وصل أرانغورين إليه حتى سقطت ذراعه على الأرض وتوقفت عن الحركة.

توقف أرانغورين أمام الرجل ونظر إليه. كان في العقد الرابع من عمره تقريباً،

أسـود الشعـر، يرتـدي قميصاً (تي شيـرت) أبيض وبنطالاً من الجينز الأزرق وينتعل حذاء رياضياً أبيض. كان وجهه ينضح بالعرق من جراء العدو في ذلك الجو الاستوائي الحـار، وعلـى الجانـب الأيسـر من رقبته كانت هناك فجـوة واسعة تتدفق منها الدماء بغـزارة. لـم يكـن يبـدو بأنه سيبقى طويلاً على قيد الحيـاة، لأن شفتيه كانتا بيضاوين وعينيه شبه مغلقتين ورأسه يتحرك ببطء من جانب إلى آخر.

جـزء مـن أرانغوريـن كان يريـد ترك الرجل والهـرب، لأن حياته نفسها كانت في خطر. لكنه رأى ذراعه تتحرك قبل لحظة واعتقد أنه قد يكون ما يزال على قيد الحياة. فلم يكن باستطاعته التخلي عنه.

جثـا أرانغوريـن علـى الأرض وباعد بين ساقي الرجـل، ثم فعل الشيء الوحيد الـذي خطـر ببالـه مـن أجـل إيقاف النزف: أدخل إصبع يـده اليمنى في الجرح الزلق الساخـن، الـذي ابتلـع الإصبـع بأكمله. خف النزف قليلاً لكنه لم يتوقف. كان الجرح قريباً من الشريان، لأن أرانغورين استطاع أن يشعر بنبض دمه من خلال إصبعه. لربمـا كانـت هنـاك فرصـة لإنقـاذ الرجـل على الرّغم من كل شيء، هـذا ما فكّر فيه أرانغوريـن. وفـي تلـك اللحظـة، اقترب متظاهر آخر منهما ثم جلس القرفصاء بجانب أرانغورين وقال: «كيف حاله؟ هل ما يزال حياً؟».

فأجابه أرانغورين: «أعتقد ذلك. اتصل بالإسعاف. اتصل بالدفاع المدني».

لحسن الحظ كان هناك بعض رجال الإسعاف في المنطقة تحسباً لتحول التظاهرة إلى العنف. فجاء اثنان منهم بسرعة على دراجة آلية من جنوب طريق بارالت، حيث يتجمـع معظـم المتظاهريـن. وثب أحدهما عن الدراجة بسرعة وصاح في أرانغورين: «لا تخـرجْ إصبعـك! انتظـر لحظـة!». كان المسعف في أواسط العقد الثالث من عمره يرتدي سترة كبيرة استعاض بها عن حمل حقيبة أدواته الطبية، لأن جيوبها كانت ملأى بالضمادات والإبر وخيوط التقطيب والقفازات المطاطية والجبائر والشاش والزجاجات الصغيرة الممتلئة بالأدوية السائلة. كان غرفة طوارئ متحركة.

جلس القرفصاء المسعف بالقرب من الرجل فوق الرصيف، وأخرج إبرة وزجاجة دواء صغيرة وقال لأرانغورين إنه سيحقن الرجل بها، فإذا كان ما يزال حياً، فسيبدي استجابة ما. غرز المسعف الإبرة في ذراع الرجل اليمنى وضغط على جزئها المتحرك ثم أخرجها. ثم فتح جفون الرجل ونظر في عينيه، فلم يرَ شيئاً. فقال المسعف: «سأغرز حقنـة أخـرى فـي ذراعـه، فإذا استجاب فسيكون حيـاً، وإن لم يستجب فسيكون ميتاً. وبعدها سيتوجب عليّ أن أذهب إلى ضحية أخرى قد تحتاج إلى المساعدة».

اعترضـ أرانغوريـن قائـلاً: «لكنه حي. يمكنني أن أشعر بنبضه. عليك أن تفعل شيئـاً». ثـم أخبـر المسعـف أنـه يريد فقط أن يحمله بعيداً عـن المكان، بعيداً عن خط النار، إلى مكان آمن حيث يمكن معالجته.

فسر المسعف الأمر بأن أرانغورين قد يكون ببساطة يشعر بنزف الدم من دماغ

الرجل. لكنه على أي حال حقن الرجل مرة أخرى ثم نظر في عينيه فلم يلحظ أي استجابة، ثم قال: «لا يمكن إنقاذ هذا الرجل. إنه ميت عملياً».

انفجر أرانغورين غاضباً، وصاح في وجه المسعف: «كيف يمكن أنك لا تستطيع فعل أي شيء؟». تبادل الرجلان الصراخ قليلاً، ثم أمر المسعف أرانغورين أن يتنحى جانباً كي ينظر إلى الجرح، ثم دفعه في صدره، لكن أرانغورين بدلاً من التنحي سحب إصبعه من الجرح ووقف على قدميه.

وما إن انتصب على ساقيه حتى شعر بشيء ما يضرب مؤخر ساقه اليمنى. التفت إلى الوراء ليرى إذا كان هناك أحد يطلق النار من الخلف فلم يجد أحداً. لم يكن متأكداً إذا كان ما أصابه هو عيار ناري أو مجرد حجر، لأن الألم لم يكن كبيراً. لكنه عندما أدار رأسه ليتحرى الأمر، وجد بنطاله ممزقاً والدم ينزف من ساقه تحت المؤخرة بقليل. فعرف أنه أصيب بعيار ناري. وعندئذ أدرك والرعب يتملكه أن المنطقة التي أصيب فيها هي المكان نفسه الذي كان يحتله رأسه قبل لحظة فقط، قبل أن يدفعه المسعف. أي أن الرصاصة كانت موجهة إلى رأسه.

ومن شدة ذعره، انطلق أرانغورين يركض في شارع بارالت. وقد قرر أن يذهب إلى فندق بلازا كاراكاس، الذي يبتعد مسافة تقارب طول ملعب كرة قدم، لاعتقاده أنه هناك قد يصبح بعيداً عن مرمى القناصة. كان يركض بشكل قطري عبر الشارع محاولاً بلوغ البلازا بكل ما أوتي من عزم. لكنه بينما كان يعدو أحس بالخدر يصيب مكان الطلقة في ساقه اليسرى، التي بدأ يشعر بصعوبة في تحريكها، وكأن ثقلاً ما كان مربوطاً بها. وبعد ذلك، بدأ الجزء المخدر يتورم بشكل تدريجي، وعندها أصبح عملياً يجر ساقه اليسرى وراءه جراً. نجح أرانغورين في قطع منتصف المسافة التي تفصله عن البلازا قبل أن ينهار ويسقط على الرصيف. ولخشيته من أن يصيبه القناصون وهو ممدد هناك بشكل مكشوف، بدأ بالصراخ طلباً للنجدة: «لقد أصبت! أخرجوني من خط النار لأن هناك قناصين!».

لم يكن قد مضى على إطلاق أولى الأعيرة النارية سوى بضع دقائق فقط.

○ ● ○

استمر إطلاق النار عدة ساعات، وقبل أن يمضي وقت طويل، كانت إحدى الشبكات التلفزيونية، التي يملكها الملياردير غوستافو سيسنيروس، أغنى رجل في فنزويلا وأحد أغنى الرجال في العالم، تعرض شريطاً مصوراً يظهر مناصري تشافيز وهم يطلقون النار من جسر لاغونو على مسيرة المتظاهرين. لكنهم في الواقع كانوا يستهدفون شرطة العاصمة التي يسيطر عليها أحد معارضي تشافيز، وليس المتظاهرون، الذين كانوا بعيدين عن مرمى مسدساتهم. غير أن ذلك لم يكن مهماً، على أي حال، لأن العالم سرعان ما حمّل هوغو تشافيز وحده مسؤولية **مجزرة إل سيلينسيو**.

صرَّح ضباط في الجيش عبر التلفزيون بأنهم لم يعودوا يعترفون بتشافيز كرئيس للدولة. وتبعهم القادة السياسيون ورجال الأعمال المعارضون الذين نعتوا تشافيز **بالقاتل**. وفي النهاية أذعن تشافيز لتهديدات المتمردين العسكريين بقصف قصر ميرافلوريس، فسلَّم نفسه إليهم بينما أعلن أحد الجنرالات للعالم أنه استقال من منصبه. بعد ذلك، اختفى تشافيز لمدة يومين. لم يكن أحد من الشعب يعلم بمكانه. لكنه في الواقع كان يُنقَل بين أربعة مواقع مختلفة، من بينها جزيرة كاريبية نائية. وفي ساعة معينة من الليل، أخذه آسروه إلى طريق مظلم معزول في محاولة بدت وكأنهم يريدون إعدامه.

بعد سبع وأربعين ساعة من اختفائه، عاد تشافيز إلى السلطة عندما نزل عشرات الآلاف من أنصاره الغاضبين إلى الشوارع، وقام ضباط الجيش الموالون له بانقلاب مضاد بغية إنقاذه وإرجاعه إلى القصر. كان ذلك الانقلاب الذي دام يومين واحداً من أكثر الفصول دراماتيكيّة في حياة هوغو تشافيز، والتي شهدت الانعطافات الحاسمة الواحدة تلو الأخرى، لكنه، في الوقت نفسه، حوَّله إلى شخص بارز ومؤثر في تاريخ أميركا اللاتينية الحديث؛ إنه ومن دون أدنى شك أكثر زعماء المنطقة إثارة للجدل والاهتمام منذ بزوغ نجم فيدل كاسترو.

في الحقيقة، تصلح قصة حياة تشافيز لأن تكون مادة لفيلم هوليوودي؛ ارتقاء يشبه ارتقاء أبراهام لينكولن من الفقر إلى السلطة... مع نكهة فنزويلية. وُلد تشافيز في كوخ طيني فوق سهول فنزويلا الكبرى على يد قابلة قانونية بسبب ندرة وجود الأطباء في تلك المنطقة الريفية المعدمة. وفي مرحلة الطفولة، باع تشافيز الحلوى في المدرسة والشوارع من أجل مساعدة عائلته على العيش. وفي السابعة عشرة من عمره انتسب إلى الأكاديمية العسكرية الرفيعة المستوى في البلد (نسخة فنزويلا لأكاديمية ويست بوينت في أميركا) بهدف اللعب في فريق كرة القاعدة فيها، وتحقيق حلمه برمي الكرة في البطولات الكبرى.

لكن الطريق إلى احتراف كرة القاعدة أخذ منعطفاً كبيراً في الأكاديمية عندما اكتشف تشافيز بطل الاستقلال في أميركا الجنوبية وابن السكان الفنزويليين الأصليين، سيمون بوليفار، ووضع نصب عينيه تغيير مصير بلده. ونظَّم بعد ذلك مجموعة سرية من زملائه الجنود المستائين من الفساد المتفشي والانحلال الخلقي في البلد، وأنشأ خلية سرية كرست نفسها لدراسة تعاليم المحرِّر. في تلك السنوات، كان تشافيز يقابل بعض الزعماء الثائرين السابقين، من أمثال دوغلاس برافو، الذين كانوا يأتون من أجل حضور اجتماعات سرية في موقع سري في كاراكاس أصبح بمثابة **بيت للثوار**. كما رعى مجموعة سرية من الأنصار القوميين والتقدّميين المدنيين الذين أرادوا تحقيق حلمه إلى جانبه، وكان طوال ذلك الوقت يعمل تحت سمع وبصر رؤسائه الضباط الذين أخفقوا في إيقاف حركته المتنامية.

فـي العـام 1992، انكشفـت مؤامـرة تشافيـز للعلـن عندما قاد انقلابـاً فاشلاً ضد الرئيسـ كارلوسـ أندرياسـ بيريز. كان المظليـون وحلفاء تشافيز غاضبين من بيريز لأنـه أمـر القـوات المسلحـة قبل ثلاث سنوات بإخضاع عـدة مئات من الأشخاص في نهايـة اضطرابـات الغـذاء التي أشعلـت فتيلها صفقة اقتصادية (shock package) عاجلة صـادق عليهـا صنـدوق النقـد الدولي، فانتهى الأمر بواحدة من أكبر المذابح في تاريخ أميركا اللاتينية الحديث؛ تضاهي مذبحة تيانان مين بعدد القتلى.

دخـل تشافيـز السجـن لمـدة سنتين، لكنه أصبح بطلاً بالنسبـة لملايين الفنزويليين الفقـراء بسبـب وقوفـه في وجـه النخبة الحاكمة الفاسدة. في حين كان منتقدوه يصفونه بأنه مجرد ديماغوجي رخيص يثير الحقد الطبقي، ويروِّج لسياسات اقتصادية ماركسية من حقبة الستينيات أكل عليها الزمان وشرب.

بعد خروجه من السجن، أمضى تشافيز عدة سنوات يجوب البلد طولاً وعرضاً في مهمة لم يكن حتى هو متأكداً من غايتها النهائية، معتمداً على أصدقائه ومناصريه للحصول على الغذاء والمبيت. في تلك الأثناء، فقدت وسائل الإعلام اهتمامها به - لأنه أصبح بنظرها عديم القيمة - حيث اختفى تقريباً من الصحافة المحلية والعالمية. لكنه في الواقـع كان مـا يـزال يخطـط في الخفاء لمحاولة انقلابية أخرى في فنزويلا التي كانت تعتبرهـا الولايـات المتحـدة ودول أخرى غيرها دولـة ديمقراطية نموذجية، باعتبارها كانـت تمثـل جزيـرة مستقرة خلال حقبة الستينيات والسبعينيات والثمانينيات من القرن الماضـي فـي وقـت كانـت الحروب الأهلية تعصف في تلـك المنطقة التي تسيطر عليها أنظمة ديكتاتورية متوحشة. لكن تشافيز كان مقتنعاً بأن تلك الديمقراطية النموذجية لم تكـن فـي الحقيقـة سـوى ديمقراطية مزيفة تهيمن عليها طبقة حاكمة فاسدة، وكان متيقناً من أنها لن تسمح لشخص ثوري مثله بالوصول إلى السلطة عبر الانتخابات.

بيـد أن تشافيـز غيَّـر رأيـه فـي العام 1997، بعد فـوز زميله في قيادة الانقلاب فرانشيسكـو أريـاسـ كارديناسـ بمنصب المحافظ في ولاية زوليا الغنية بالنفط، فشرع في الإعداد لحملة للفوز بالرئاسة. في الواقع، كانت حظوظه بالفوز ضئيلة جداً؛ لأنه ببساطـة الرجـل الـذي حاول إسقـاط النظام من خلال ذلك الانقلاب الفاشل. في حين أن معظـم اهتمـام الأمـة كان منصبـاً على منافسته، ملكة جمال العالم السابقة، الشقراء الفاتنة التي يبلغ طولها متراً وخمسة وثمانين سنتمتراً، آيرين ساييز (قبل تشافيز، كانت فنزويلا مشهورة بأمرين اثنين: ملكات الجمال والنفط). ولكونها رئيسة بلدية ناجحة في كاراكاس الغنية، كانت آيرين - كما كانت تُعرَف عالمياً - تتقدَّم استطلاعات الرأي.

لكن حنلوظ المنافسة بين الحسناء والوحش، كما لُقِّبت تلك الحملة، تغيرت كثيراً عندمـا كشفـت تصريحـات آيرين الفارغة والمفرطة في عذوبتها عن خواء مثير للقلق، فـي الوقـت الـذي أسـرت خطب تشافيز النارية عقول ملاييـن الفنزويليين القاطنين في مـدن الأكـواخ الفقيـرة والغاضبيـن بسبب تلك الفجوة الواسعة بين الفقراء والأغنياء في

البلـد. وفـي النهايـة، فـاز تشافيز في انتخاب كانون الثانـي 1998 بفارق واضح: 56 مقابل 40 بالمئة.

بـدأ تشافيـز رئاسته بمحاولـة السيطـرة على شركـة النفط الحكوميـة العملاقة، بيتروليوس دو فنزويلا، التي وصفها بأنها «دولة مستقلة ضمن الدولة» تخدم مصالح النخبة الثرية بدلاً من الأغلبية الفقيرة في البلد. كما لعب دوراً ريادياً في إعادة إحياء منظمـة الـدول المصـدرة للنفط (أوبك) شبه الميتة، وذلك من خلال استضافة أول قمة لقـادة دول الأوبـك خـلال خمسـة وعشريـن عاماً. وبفضل مساعدته فـي رفع أسعار النفـط العالميـة مـن أدنى مستوياتها، عندمـا استلم منصبه، إلى مستويات قياسية، رفع تشافيز الدخل القومي الفنزويلي من 14 مليار دولار في 1998 إلى 40 مليار دولار في 2006.

فـي سنتـه الرئاسيـة الأولـى، دعا تشافيز لعقد اجتماع دستوري وساعد بنفسه في إعادة كتابة الدستور ثم راقب المصوّتين وهم يوافقون عليه بنسبة 72 مقابل 28 بالمئة. وفي اليوم نفسه، أدت موجة هائلة من الأمطار الغزيرة إلى مسح مئات القرى المنتشرة فـي المنحـدرات الجبليـة الكاريبيـة لفنزويلا من الخارطة، دافنة معها آلاف الفنزويليين تحـت الطيـن أو جارفـة إياهـم إلى البحر. كانت أكبر كارثة طبيعية تحدث في فنزويلا خلال مئة سنة على الأقل، موقعة الجزء الأعظم من ضحاياها بين صفوف الفقراء.

لم يمض وقت طويل حتى بدأت سياسات تشافيز تثير موجة عاصفة من الغضب والخوف والاستياء بين النخب المتنفذة في فنزويلا وحلفائهم في الولايات المتحدة، الأمر الـذي ولّـد مسيـرات حاشدة في الشوارع ومقـالات لاهبة في الصحف وأخيراً محاولة انقلابية في نيسان 2002. وبعد ثمانية أشهر، حدثت أكثر الإضرابات تدميراً في تاريخ أميركا اللاتينية الحديث، عندما أغلق المعارضون شركة بيتروليوس دو فنزويلا طوال شهريـن، فأوشـك الإقتصـاد على الانهيار، وأصبحـت المواد الغذائية والبنزين نادرة، وبـات تشافيـز علـى حافـة إرغامه على الاستقالة. لكنـه، بطريقة ما، تمكّن من النجاة مرة أخرى.

عندما ضعفت قوة المعارضة وتشوهت سمعتها، أصبح تشافيز قادراً على التركيز على الحكم. فأسس سلسلة مؤسسات اجتماعية - على طريقة سياسات روزفلت الإصلاحية (*New Deal*) - أصبحت العلامة الفارقة لفترته الرئاسية الأولى. قامت هذه المؤسسات بتعليـم مليـون ونصـف أمّـي فنزويلي مبادئ القراءة والكتابة، وقدمت المعونات المالية للأسواق الغذائية، وفتحت مطابخ مجانية لإطعام الفقراء، ودعت 12 ألف طبيب كوبي للعيش والعمل في الأحياء الأشد فقراً في البلاد.

كمـا سعـى تشافيـز لتحقيـق حلم بوليفار بتوحيد أميـركا اللاتينية، حيث أنشأ شبكة تلفزيونية للأخبار تغطي المنطقة بكاملها، وباع النفط بسعر رخيص لجيرانه، واقترح تأسيس اتحاد نفطي قاري؛ أوبك لاتينية. وتصوَّر بناء خط أنابيب لنقل الغاز الطبيعي

بطول 600 ميل وكلفة 20 مليار دولار يمتد من شرق فنزويلا مروراً بغابات الأمازون في البرازيل وانتهاء بالأرجنتين، مع خطوط لعبور الشاحنات إلى البيرو وبوليفيا وتشيلي. كما اقترح تأسيس نسخة أميركية لاتينية عن وكالة الفضاء الأميركية ناسا وإرسال اللاتينيين إلى الفضاء. بالطبع، بدا كل ذلك بالنسبة لمعارضيه جنوناً محضاً، في حين أن مناصريه كانوا يرون هوغو كحالم يعمل على تحويل أحلامه إلى حقائق واقعية.

يُعتبر تشافيز اليوم واحداً من أكثر الشخصيات سحراً وإثارة للاهتمام والجدل على الساحة العالمية. وعلى الرغم من أن الكثير من وسائل الإعلام العالمية تصور تشافيز كوحش، ديكتاتور شيوعي آخذ بالتشكل يدمر الاقتصاد الفنزويلي ويثير صراعاً طبقياً ويدوس على حقوق الإنسان ويهاجم الصحافة الحرة ويقوض الديمقراطية، إلا أن حقيقة تشافيز أشد تعقيداً من ذلك بكثير. فوسائل الإعلام تلك تغفل الحديث عن أسباب شعبية تشافيز الواسعة لدى الفنزويليين، كما تصوِّر فنزويلا بشكل أساسي بحسب ما تراها أعين النخبة ذات البشرة البيضاء، وبذلك فإنها تنقل القصة منقوصة في كثير من جوانبها. ويعبِّر عن هذا الأمر العالم السياسي الفنزويلي، إدغاردو لاندر، بقوله إن وسائل الإعلام العالمية «تقدم يومياً قصصاً محرَّفة على نحو غريب عما يحدث في فنزويلا».

فاز تشافيز بفارق واضح في استفتاء آب 2004 (59 إلى 41 بالمئة) في تصويت حر ونزيه امتلك فيه المقترعون فرصة غير عادية لخلعه عن منصبه قبل انتهاء مدة ولايته الدستورية. وأتبع ذلك بنصر كبير آخر في انتخاب كانون الثاني 2006 الذي منحه ست سنوات أخرى كرئيس لفنزويلا. كان هذا النصر الانتخابي العاشر لتشافيز خلال ثماني سنوات، من بينها عدد وافر من الاستفتاءات، وانتخابات إعادة تثبيت الشرعية، وانتخابات قومية ومحلية. وعلى الرغم من أن هناك من ينتقد حكم تشافيز، كما يحدث في أنحاء العالم كلّها، إلا أن الملايين من سكان الأحياء الفقيرة في فنزويلا وعدداً متزايداً من الإصلاحيين والتقدّميين في مختلف أنحاء العالم يعتقدون أن تشافيز يقوم بعملية تحويل اشتراكي هي الأكثر جذرية في أميركا اللاتينية، على الأقل منذ الثورة الساندينية في نيكاراغوا في بداية الثمانينيات.

هكذا أصبحت فنزويلا اليوم - بعد أن كانت منذ عقود دولة أميركية لاتينية راكدة ومنسية - قبلة للسائحين الثوريين الذين يقصدونها من الولايات المتحدة وأوروبا وبلاد أخرى ليروا بأم العين تطور الثورة البوليفارية وتبلورها. كما يحظى تشافيز بتقدير كبير عند أصدقائه الزعماء الأميركيين ذوي الأصول الأفريقية، مثل هاري بيلافونت وداني غلوفر وجيسي جاكسون، الذين يرون تشابهاً بين ثورته، المستلهمة من أفكار سيمون بوليفار، للدفاع عن الغالبية الفنزويلية الفقيرة ذات البشرة الداكنة وبين نضال

الأميركيين السود، المستلهم من أفكار مارتن لوثر كينغ الابن، من أجل تحقيق العدالة الاجتماعيــة والاقتصاديــة فــي الولايات المتحدة. ويقــدم الزعيم الفنزويلي وقود التدفئة المنزلية بسعر مخفَّض للأحياء الفقيرة في هارلم والبرونكس، وحتى ألاسكا، كي تستفيد القبائل الهندية من الصفقة. وعندما زار نيويورك في أيلول 2006، توجَّه إلى هارلم وخطب في معهد كوبر يونيون في حي إيست فيليج، ليصبح أول رئيس أجنبي يخطب في القاعة التي خطب فيها ثمانية رؤساء أميركيين، من بينهم لينكولن. وليس هذا فقط، بل كانت مجلة تايم قد صنَّفته قبل أشهر قليلة من ذلك الحدث من بين مئة شخص هم الأكثر تأثيراً في العالم.

غير أن تشافيز، في الوقت نفسه، ليس محبوباً من العالم كلّه، إذ إن أفعاله ولّدت الكثير من العداوة في الداخل والخارج على حدّ سواء، وأعداؤه يرونه تجسيداً لمعلمه فيدل كاسترو في كوبا، أو كما يحب البعض أن يصفه كاسترو مع نفط، على الرّغم مــن وجــود فــوارق كبيرة بيــن الرجلين، في الواقع. ومن أكثر معارضي تشافيز قوة ونفــوذاً هــو الإمبراطور الإعلامي والمهاجر الكوبي غوستافو سيسنيروس، الذي يحتل المرتبــة 114 فــي لائحــة أغنــى الأشخاص في العالم بثروته البالغة 5 مليارات دولار، بحســب مجلــة فوربــس. وسيسنيروســس هذا صديق للرئيــس السابق جورج بوش الأب الــذي ذهــب معــه فــي عدة رحلات صيد إلى فنزويــلا. وتشافيز مكروه أيضاً من قبل معظــم الطبقــة الثريــة فــي فنزويلا والنخب المتنفذة الأخرى التي اعتادت السيطرة على فنزويــلا. ويشمــل هؤلاء الكثيرين من رجــال الأعمال، ورؤساء الاتحادات، ومالكي وسائــل الإعــلام، ورؤســاء الأحزاب السياسيــة التقليدية التي فقدت تأثيرها بفعل سلسلة انتصــارات تشافيــز الانتخابيــة. وهنــاك أيضاً إدارة بوش - المتحالفــة مع النخبة الثرية فــي فنزويلا - التــي شجعــت بشــكل علني على إسقاط تشافيــز. في الحقيقة، إن صورة الديكتاتور اليساري المستبد التي ترسمها له وسائل الإعلام إلى جانب تصريحاته النارية الكثيــرة لعبتــا دوراً مهمــاً في دفع كبار الزعماء السياسيين الأميركيين من كلا الحزبين إلى احتقاره ونبذه.

أما بالنسبة لأنصار تشافيز، فهم يعتبرون أن الاعتراض عليه يرتكز بشكل أساسي على حقيقة جوهرية واحدة، ألا وهي انتزاع الفقراء للسلطة في فنزويلا للمرة الأولى في تاريخ البلد، وهذا ما لا تحبه الطبقات الثرية التي تعيش في قصور مسوَّرة، وتسافر إلــى ميامــي فــي عطــل نهاية الأسبــوع من أجل التبضّع والترفيه عــن نفسها. إذ تؤكد حكومــة تشافيــز وحلفــاؤه وعدد من المنظمــات أن الحياة تحسنت بالفعل بالنسبة للفقراء فــي فنزويــلا، حيــث أصبحوا أقل فقــراً وأقل عدداً، وامتلأوا بالأمل للمرة الأولى منذ عقــود. لقــد بســط تشافيــز سيطرة الدولة على صناعــة النفط، وسن قوانين تأخذ حصةً أكبــر مــن الأربــاح مــن الشركات الأجنبية، وقام بتحويل تاريخــي للعوائد إلى الغالبية الفقيــرة. وتعمــل المدارس البوليفاريــة المستحدثة الكثيرة والمؤسسات الاجتماعية اليوم

على منح الطبقات الدنيا فرصة جديدة في ميادين التعليم والصحة بالإضافة إلى إمكانية التمتع بالازدهار المتنامي في البلد. كما حفز نموذج الديمقراطية التشاركية الملايين من الفنزويليين مسلوبي الحقوق على الانضمام إلى العملية السياسية بطريقة تعد بإطالة عمر رئاسة القائد وامتداد هذا النموذج الديمقراطي إلى دول أخرى.

يقف تشافيز في طليعة موجة القادة اليساريين الذين يرتقون إلى السلطة في مختلف أنحاء أميركا اللاتينية بدعم واسع من الطبقات الاجتماعية الدنيا، من لويز إناسيو لولا داسيلفا في البرازيل إلى نيستور كيرشنير في الأرجنتين إلى إيفو موراليس في بوليفيا ورافائيل كوريا في الإكوادور. يقاوم هؤلاء الرجال بضراوة شديدة برامج اقتصاد السوق الحرّة النيو ليبرالية (التي تُعرَف أيضاً باتفاقية واشنطن) التي اجتاحت المنطقة في التسعينيات وما بعد العام 2000، والتي كان يُفترَض بها أن تبشّر بحدوث ارتفاع كبير في مستويات المعيشة وتقليص الفقر الجماعي. لكن أياً من ذلك لم يحدث بالطبع، فأميركا اللاتينية ما تزال تعاني من أسوأ توزيع للثروة في العالم؛ أو كما يسميها تشافيز «تمتلك أميركا اللاتينية ميداليات ذهبية في انعدام المساواة». وهذا ما أدى باليساريين والإصلاحيين والثوريين بقيادة تشافيز إلى البحث عن طريق جديد، شيء ما بين الرأسمالية المتوحشة والشيوعية الفاشلة، شيء يدعوه تشافيز اشتراكية من أجل القرن الواحد والعشرين.

ولا غرابة في أن برنامج تشافيز الإصلاحي يتعرض اليوم لهجوم من إدارة بوش، التي أعادت إلى السلطة عدة شخصيات لعبت دوراً محورياً في فضيحتي إيران كونترا والحروب القذرة في أميركا الوسطى خلال عهد ريغن. ويتضمن هؤلاء الأشخاص أوتو ريتش وإليوت أبرامز وجون نيغروبنتي الذين جلبوا معهم ما يعتبره التقدميون نظرة رجعية وسلبية عن أميركا اللاتينية واستعداداً لتحريف الحقائق وتقويض الحكومات المنتخبة ديمقراطياً إذا لم تخدم مصالح الولايات المتحدة كما يرونها هم.

منذ إعلان مبدأ مونرو في 1823، تنظر الولايات المتحدة إلى أميركا اللاتينية على أنها تمثل حديقتها الخلفية. وفي سبيل هذا الاعتقاد، قامت الولايات المتحدة بأمور كثيرة، من بينها التخطيط لانقلابات ودعم بعض الطغاة وتمويل حكومات متهمة بارتكاب جرائم واسعة تتعلق بحقوق الإنسان. حيث احتلت قوات مشاة البحرية الأميركية نيكاراغوا بين عامي 1912 و1933 من أجل قمع تمرد يساري، في حين قامت السي آي أيه بالتخطيط لانقلاب في غواتيمالا في 1954 أطاح برئيس منتخب ديمقراطياً وأطلق شرارة حرب أهلية دامت ثلاثين سنة خلّفت وراءها مئتي ألف قتيل. ومنذ بداية الستينيات، أطلقت السي آي أيه والحكومة الأميركية حملة لتقويض وإسقاط حكم فيدل كاسترو، وفي بعض الأحيان اغتياله أيضاً. وفي 1973، ساعدت السي آي أيه على التخطيط لانقلاب آخر في تشيلي وخلع الرئيس سلفادور أليندي، أول رئيس ماركسي منتخب ديمقراطياً في نصف الكرة الغربي، ونصَّب بدلاً منه الجنرال أوغوستو بينوشيه الذي أسس ديكتاتورية

دموية قامت بشكل منظَّم بقتل وتعذيب وإخفاء المواطنين التشيليين، تاركة وراءها ثلاثة آلاف قتيل. وفي الثمانينيات، أيضاً، ساندت الولايات المتحدة حكومة أشبه بفرقة موت في السلفادور قتلت بصورة روتينية القساوسة والراهبات والمزارعين والمعلمين، بل وقطعت رؤوس بعض الضحايا وعلّقتها على الأوتاد من أجل إرهاب السكان.

إن تاريخ التدخل الأميركي في أميركا اللاتينية هو - بحسب المقاييس كلّها - النقيض المشوَّه للمبادئ الديمقراطية التي تتبناها الولايات المتحدة. وهذه الحقيقة ليست خافية عن تشافيز ومناصريه الذين يعرفون هذا التاريخ أفضل من معظم الأميركيين، الذين لا يعرفون عن المنطقة إلا مناخها الغريب ومواقعها التاريخية الجذابة، مثل الغابة المطرية الأمازونية في البرازيل أو آثار حضارة الإنكا في البيرو.

على أي حال، مع حلول التسعينيات انتهت معظم الأنظمة الديكتاتورية في أميركا اللاتينية وغيَّرت الولايات المتحدة في عهد بيل كلينتون سياستها تجاه المنطقة، متبنّية توليفة من الأسواق الحرة والديمقراطية وتخفيف التدخل. لكن إدارة بوش عكست هذه السياسة، مشجعة بشكل صريح على إسقاط تشافيز. وعندما حدثت المحاولة الانقلابية الفاشلة في 2002، أيدتها إدارة بوش على الفور، بعكس غالبية الدول في ذلك الجزء من العالم. بل إن المسؤولين في هذه الإدارة - من أوتو ريتش إلى كوندوليزا رايس- كانوا يصفون تشافيز بشكل دائم بأنه يمثّل خطراً على الديمقراطية. كما ضخت بعض الوكالات الممولة من الولايات المتحدة، مثل مؤسسة المنحة الوطنية من أجل الديمقراطية (*NED*) والوكالة الأميركية للتنمية الدولية (*USAID*)، ملايين الدولارات إلى فنزويلا بهدف تعزيز الديمقراطية. ومعظم تلك الأموال ذهبت إلى معارضي تشافيز، بالطبع، بمن فيهم أولئك الذين دعموا الإسقاط العنيف للحكومة.

رد تشافيز بطريقته على الهجمات الأميركية، ناعتاً بوش بالأحمق والسكير والحمار. كما قام ببعض التصرفات الأخرى المثيرة للجدل، حيث هاجم الصحفيين بالاسم بسبب تغطيتهم المتحيزة والمعيبة، مشجعاً أنصاره على مهاجمة بعضهم جسدياً في الشوارع. كما تباهى بصداقته مع فيدل كاسترو، وزار صدام حسين في العراق، وتحالف مع رئيس إيران محمود أحمدي نجاد. وفي فنزويلا، انتُقد تشافيز بسبب فشله في القضاء على الجريمة والبطالة. واتهمه منتقدوه بإرهاب المعارضين وتسييس القضاء (في الواقع، كانت بعض البرامج الحكومية تشكو من سوء في التنظيم). كما أن مؤسساته الاجتماعية الواسعة الشهرة (على الرّغم من نجاحها في تلبية الاحتياجات القصيرة المدى لجماهير الفقراء في فنزويلا ودفعهم للعب دور فاعل في المجتمع) أثارت الشكوك حول قدرتها على النجاح على المدى الطويل، وخاصة إذا انخفضت أسعار النفط المرتفعة بشكل مفاجئ. وحتى بعض مناصريه أبدوا قلقهم من أن تؤدي البيئة الثورية الآخذة بالتشدد إلى إغلاق الجدل الداخلي الصحي حول أخطاء الحركة، وكذلك من إدارة تشافيز للبلد بمفرده، متسائلين ما إذا كانت الثورة البوليفارية ستنهار

من دونه.

لكن تشافيز يبقى بطلاً بالنسبة للملايين من الفنزويليين الذين يعيشون في الأحياء المحرومة والأرياف الفقيرة. فهو الرئيس الوحيد في تاريخ البلد الذي يدافع عنهم، ويتكلم لغتهم، بل ويبدو مثلهم ببشرته السمراء بلون القهوة وشعره المجعد. إنه يستخدم لغة الشارع عندما يظهر على شاشة التلفزيون الوطني (مصيباً الطبقة العليا بالهلع)، الأمر الذي يقرّبه من الطبقات الدنيا من المجتمع الفنزويلي، تلك الطبقات التي بالكاد تصدق أن واحداً منها يحكمْ البلد. إن الأمر يشبه إلى حدّ بعيد وصول رجل فقير من هارلم إلى البيت الأبيض.

في الحقيقة، لم تشهد البلد من قبل رئيساً يشبه تشافيز في ميرافلوريس لا من قريب ولا من بعيد. فبسبب حساسيته تجاه قواعد السلوك الدبلوماسي، يتصرف تشافيز كرئيس بالطريقة نفسها التي يمكن أن يتصرف فيها عندما يلعب الدومينو أو البوكسي في الحديقة الخلفية لمنزله في عصر يوم أحد. فعلى سبيل المثال، خاطب تشافيز زوجته في ذكرى الحب من على شاشة التلفزيون الوطني قائلاً لها: «ماري إيزابيل، الليلة ستحصلين على ما تملكينه». وبما أن الفنزويليين من أكثر شعوب العالم وداً ومرحاً وشغفاً بإطلاق النكات، وجدوا تعليق تشافيز هذا مضحكاً جداً، لكن دعاة المساواة بين الجنسين بالكاد تبسّموا.

لعب تشافيز دور المضيف في برنامج تلفزيوني وإذاعي أسبوعي يُدعى مرحباً أيها الرئيس. كان البرنامج الوحيد في أميركا اللاتينية، وربما في العالم بأسره، الذي يستطيع فيه المواطنون العاديون أن يتصلوا ويتحدثوا مع قائد أمتهم على الهواء مباشرة ومن مختلف أنحاء البلد (كان البرنامج يمتد لساعات، كشأن الكثير من خطاباته). وفي هذا البرنامج كان تشافيز يغني، ويسرد النكات، وينشد الشعر، ويتحدث عن ذكريات الطفولة، ويعلن عن تغييرات في الحكومة، ويطلق المبادرات السياسية، ويستشهد بالجميع من سيمون بوليفار إلى جون كينيث غالبرايث.

كما جاب تشافيز أطراف العالم أجمع. وقام برمي الرمية الأولى في مباراة لفريق نيويورك ميتز في كرة القاعدة مرتدياً سترة رياضية ملونة بألوان العلم الوطني الفنزويلي. وقرع الجرس في بورصة نيويورك. وركض فوق سور الصين العظيم. ولعب كرة القاعدة مع كاسترو في هافانا. وكسب مودة عدد من زعماء العالم، مثل فلاديمير بوتين، عندما اتخذ وضعية كاراتيه في أول مرة التقاه فيها ليظهر معرفته أن بوتين حاصل على الحزام الأسود.

لتشافيز موهبة فذة في التواصل مع الناس والتأثير بهم، موهبة دفعت سفير الولايات المتحدة السابق في فنزويلا مايكل سكول - مع أنه ليس من المعجبين بتشافيز - إلى الاعتراف بأنه «يملك شخصية جذابة وقدرة على التحدث والتأثير وإبداء التعاطف، الأمر الذي لم أجده في أي شخص آخر في أي مكان في أميركا اللاتينية، أو حتى

فــي الولايــات المتحــدة نفسها». إنه زوبعة متجسدة بهيئة رجل، (إعصار هوغو)، فهو بالكاد ينام بضع ساعات في الليل، ويعمل سبعة أيام في الأسبوع، ويحتسي أكثر من عشرين فنجاناً من قهوة إسبريسو القوية يومياً من أجل الحفاظ على تدفق الأدرينالين في جسده، ويقض مضجع مساعديه وحلفائه باتصالاته الهاتفية في الساعة الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل. بعبارة أخرى، إذا كانت نيويورك هي المدينة التي لا تنام أبداً، فإن تشافيز هو الرئيس الذي لا يرتاح أبداً.

لكــن، خلــف النــكات والمزاح والأغاني والتصريحــات العنيفة يكمن رجل جدي علــى نحــو عميــق جــداً. إنــه رجل يحمــل على عاتقه مهمة تغييــر فنزويلا والعالم من أجــل تحقيــق العدالــة الاجتماعية. وأعداؤه أنفسهــم لا يمكنهم الشك في صدق دوافعه، حتى لو كانوا يعتقدون فعلاً أن مقاربته ليست صحيحة. لقد أمضى سنوات في قراءة واستيعاب أفكار العديد من الثوار، من بوليفار إلى ماو إلى إيرنستو تشي غيفارا. في الحقيقة، ليس من السهل تعريف هذا الشحص، لأنه مزيج من أشياء كثيرة: رأسمالية واشتراكية، اقتصاد محافظ وبرامج اشتراكية ليبرالية. لكنه عندما سُئل ذات مرة كي يعرِّف بنفسه، قال ببساطة شديدة: «أنا ثائر».

قدّم تشافيز أداء تاريخياً لن يُنسَى في اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة في أيلول 2006، حين دعا الرئيس جورج دبليو بوش بالشيطان، متفوقاً بذلك على الظهور الشهير للرئيس الروسي نيكيتا خروتشيف في 1960 عندما ضرب بحذائه على المنضدة خلال أحد الخطب. اتَّهم تشافيز بوش بأنه «يتحدث وكأنه يمتلك العالم»، واقترح بأن يقوم محلل نفسي بتحليل خطابه الذي أدلاه في اليوم السابق. قال تشافيز: «البارحة، كان الشيطان هنا. هنا بالضبط. هنا بالضبط». فضجت قاعة الأمم المتحدة بالضحك، تلك القاعة التي تكون عادةً هادئة ورصينة. ثم تابع قائلاً: «وما تزال رائحة الكبريت تفــوح منهــا حتــى هــذا اليوم، هذه الطاولة التي أقــف خلفها الآن». عندها رسم إشارة الصليــب، وهــي عــادة شائعــة في فنزويلا ليس من أجل إظهار الدين الكاثوليكي للمرء فحسب، بل لطرد الأرواح الشريرة أيضاً، ثم شبك يديه معاً وكأنه كان يصلي ونظر إلــى السقــف. لكــن الرجــل الاستعراضي الأميركي الجنوبي لم يكن قد انتهى من حديثه بعــد: «فــي الأمــس، سيداتــي وسادتي، جاء إلى هذه المنصة رئيس الولايات المتحدة، الرجل الذي أشير إليه بالشيطان، جاء إلى هنا، وتحدث وكأنه يمتلك العالم».

فــي اليــوم التالــي، قصد تشافيز هارلم، مستحضــراً الزيارتين المظفرتين لمعلمه فيــدل كاستــرو فــي عامــي 1960 و1965. وألقى خطابــاً أمام مجموعة في المناصرين المهللين في كنيسة ماونت أوليفيت المعمدانية، معلناً أنه سيخفض السعر المخفَّض أساساً لبرنامجــه الخاصــ بتقديــم وقود التدفئة للأميركييــن المحتاجين بأكثر من الضعف. كما واصل مهاجمته لبوش، واصفاً إياه بالكحولي والرجل المريض الذي يتصرف كما لو

أنه جون واين. ثم قلّد ما سمّاها مشية راعي البقر المتعجرفة التي يمشيها بوش، نافخاً صدره وملوِّحاً بذراعيه كما يفعل الرئيس الأميركي، فانفجر الحشد ضاحكاً.

لكن، في حين كسب تشافيز مودة ذلك الحشد في هارلم، فإن تعليقاته أثارت الغضب في أمكنة أخرى من الولايات المتحدة. حيث لقيت تصريحاته اللاذعة وهجومه الشخصي - نقطة ضعفه وإحدى عاداته التي يعارضها حتى بعض مناصريه - انتقاداً شديداً من معارضيه الذين وصفوه بأنه ليس أكثر من مهرج؛ ديكتاتور مجنون من جمهورية الموز ليس لديه أدنى فكرة عن حدود اللياقة. فها هي كوندوليزا رايس تصف تصريحاته بأنها «لا تليق برئيس دولة». بينما نعت ممثل ولاية أوهايو وزعيم الأغلبية الجمهورية في الكونغرس، جون بوينر، تشافيز بالطاغية المتعطش للسلطة. أما السيناتور جون ماكين من أريزونا، فقد قال عنه بأنه ديكتاتور رخيص. كما سخر رئيس تحرير جريدة لوس أنجلوس تايمز من تشافيز واصفاً إياه بالرئيس المهرج وأمير كاراكاس المهرج. وبدورها نشرت صحيفة وول ستريت جورنال مقالة دعت تشافيز بالديكتاتور ثلاث مرات. كما وضعت صحيفة ذي نيويورك دايلي نيوز صورة لتشافيز على الصفحة الأولى بكاملها تحت عنوان يشير إلى مقالة لرئيس تحريرها في الداخل: «رسالة نيوز لزعيم فنزويلا المجنون».

لم يسلم تشافيز حتى من انتقادات الديمقراطيين الليبراليين ومنتقدي بوش أنفسهم. حيث قالت زعيمة الأقلية في الكونغرس نانسي بيلوسي: «يتخيل هوغو تشافيز نفسه وكأنه سيمون بوليفار هذا العصر لكنه ليس سوى مجرم عادي». وانضم الرئيس السابق بيل كلينتون إلى جوقة المنتقدين بقوله: «قال هوغو تشافيز شيئاً خاطئاً يوم أمس، شيئاً لا يليق برئيس دولة». وحتى الديمقراطي تشارلز رانجل، ممثل منطقة هارلم التي يُفترَض بأنها تمثل قاعدة نفوذ تشافيز على الأرض الأميركية - في إشارة إلى مدى الاستياء الذي أحدثه سلوك تشافيز في العديد من الأوساط - هاجمه بعنف، قائلاً: «إننا مستاؤون من حقيقة مجيئه إلى الولايات المتحدة وانتقاده الرئيس بوش... إياك أن تأتي إلى بلدي، إياك أن تأتي إلى دائرتي البرلمانية، وإياك أن تهين رئيسي».

كما صرَّح حاكم ولاية ماين بأن ولايته لن تقبل بعد الآن وقود تشافيز المخفَّض. وأعلن رجل أعمال في ألاباما مقاطعته لمحطات الوقود سيتغو التي تملكها فنزويلا في أميركا. كما طالب عضو في مجلس بلدية إحدى المدن في ولاية بوسطن بإسقاط إشارة سيتغو الضوئية الضخمة التي تُرى فوق سياج الحقل اليساري لملعب فينْوي بارك لكرة القاعدة والتي تُعتبر منذ عقود أحد معالم المدينة. وعلاوة على ذلك، صرَّحت سلسلة 7-Eleven، على أثر تلقيها سيلاً من المكالمات الغاضبة، انفصالها رسمياً عن سيتغو التي تزوِّد 2100 مخزن تابع لها بالبنزين، على الرّغم من أن القرار كان قد اتُّخذ قبل عدة أشهر من ذلك. كما انتقدت الشركة بشدة تعليقات تشافيز المهينة لبوش.

باختصار، تلقى الرئيس الفنزويلي ضربة سياسية ثقيلة في الولايات المتحدة بسبب

تهجمه على بوش، الأمر الذي تسبب بتخفيف تأثير الشهرة الإيجابية والطيبة التي اكتسبها بفضل برنامج وقود التدفئة المنزلية المخفّض السعر الذي أطلقه قبل نحو عام. غير أن تعليقاتــه، فــي الوقــت نفســه، لم تكن مجنونة أو متهورة بالنسبة لبقية العالم. ففي الأمم المتحــدة، حيــث تشــكل الــدول النامية أكثر من نصــف أعضائها، أثارت هذه التعليقات الكثير من الضحك والتهليل. وعندما أنهى خطابه الذي دام ثلاثاً وعشرين دقيقة، قوبل تشافيز بموجة عارمة من التصفيق فاقت كل المتحدثين الآخرين، حيث استمر التصفيق المدوي نحو أربع دقائق مما اضطر مسؤولو الأمم المتحدة إلى إيقافه.

خــلال خطابــه لــوَّح تشافيــز بنسخة من كتــاب للمفكر اليساري نعــوم تشومسكي **هيمنــة أم حفــاظ علــى الوجود: رغبة أميركا بالســيطرة علــى العالم**، الذي يهاجم بشــدة محاولــة بنــاء إمبراطورية أميركية. وحث الناس على قراءته، فارتفعت مبيعات الكتاب إلى السماء ليتربع بين ليلة وضحاها على قمة لائحة أمازون دوت كوم لأفضل الكتب مبيعاً.

فــي الواقــع، كان أداء تشافيــز فــي الأمــم المتحدة تجسيداً لطبيعتــه بالذات: مثير للجــدل، استفــزازي، تلقائــي، يفتقر إلى الدقــة الدبلوماسية، يكتسب الأعداء والمعجبين علــى حــدّ ســواء، يتوجــه إلى قاعدته ويرسل ما عداهم إلى الجحيم. كان يقول ما كان يؤمن به من دون اكتراث بما سيفكر فيه الآخرون. وعلى الرّغم من مشاعر الغضب التــي انتابــت بعضــ القــادة الأميركيين، إلا أن بينهم من كان يدرك أن تشافيز ببساطة تفوّه بما يفكر فيه الكثير من القادة الأجانب الذين يخافون الإفصاح عنه علناً. فهؤلاء القادة، مثل تشافيز، يشعرون بقلق متزايد من الحرب في العراق، ودور أميركا في إسرائيــل، وممارساتهــا التجاريــة غير العادلــة، وهيمنتها على العالم على طريقة رعاة البقر.

لكــن، لــو لــم ينعــت تشافيز بوشــ بالشيطان، فهل كان سينتبــه إليه وإلى حديثه هــذا القــدر مــن الناســ؟ هــذا ما أشار إليه الكاتب فــي صحيفة واشنطن بوست، يوجين روبنسون: «هل يمكن لأي شخص أن يسمّي آخر رئيس لفنزويلا، أو يتذكر متى أثار خطاب ما لأي رئيس فنزويلي مثل هذا الاهتمام؟». حتى بعض منتقدي تشافيز اعترفوا بأن ذلك الخطاب أكسبه المزيد من النقاط السياسية في مختلف أنحاء العالم، إن لم يكن في الولايات المتحدة نفسها، كما تؤكد كاتبة خطابات ريغن، بيغي نونان، في صحيفة وول ستريت جورنال: «لقد حقق خطاب تشافيز الكثير، ومن الغباء التظاهر بغير ذلك. فهو رفع من شأنه وأجبر العالم على الانتباه إليه. وهذا الأسبوع، سينهمك الجميع في مناقشة ما قاله، ما قاله حرفياً وكيف قاله. لقد غيَّر الكثير من !الأمور... ووسَّع قاعدته المزعومة... وادَّعى أن الجميع غير راضين عن العالم أحادي القطب».

ليســ هــذا فقــط، فقــد كان تشافيز في ذاك الخطاب الشهير أيضاً يقوم بحملة ضد الولايــات المتحــدة مــن أجــل مقعــد غير دائم في مجلس الأمن. ومع أنه فشل في نهاية

الأمر في هزيمة المرشحة الأميركية، غواتيمالا، إلا أن أياً من البلدين لم يتمكن من الحصول على ثلثي عدد الأصوات المطلوبة لتأمين المقعد. والبعض اعتبر هذه النتيجة خسارة فادحة لتشافيز ودليلاً على أن تصريحاته في الأمم المتحدة لم تكن مناسبة على الإطلاق. ولكن، ثمة وجهة نظر أخرى: أن تخرج دولة من العالم الثالث متعادلة في منافسة مع القوة العظمى الوحيدة الباقية في العالم ليست بالنتيجة السيئة على الإطلاق.

من جهة أخرى، مع أن تعليقات تشافيز صدمت الكثير من الأميركيين، ولكن ثمة قادة أميركيين آخرين رددوا في السابق إهانات مشابهة من دون أن تثير النوع نفسه من الغضب. رانجل نفسه، الديمقراطي من هارلم، دعا بوش ذات مرة بول كونور، مشيراً إلى قائد شرطة ألاباما في الستينيات سيئ الصيت الذي فتح خراطيم المياه في شاحنات الإطفاء وأطلق الكلاب على متظاهري حقوق الإنسان. وفي حالة أخرى، عندما كان المفتش المالي في ولاية نيويورك، ألان هيفيسي، يقدم السيناتور تشارلز شومر في حفل تخرج في إحدى الجامعات في 2006، قال هيفيسي بأن شومر سوف «يضع رصاصة بين عيني الرئيس إذ عرف أنه سيفلت من العقاب»؛ مع أن هيفيسي سرعان ما قدم اعتذاره، قائلاً بأن تعليقه كان «أكثر من غبي».

إذا كان تشافيز قد أعلنها حرباً مع بوش، وإذا لم يكن ينوي الاعتذار، فلديه أسبابه، بصرف النظر عن التكلفة السياسية في الولايات المتحدة. فإذا أردنا أن نكون منصفين، فإن تصريحاته لم تأتِ من فراغ، إذ إن الولايات المتحدة كانت الدولة الوحيدة في العالم تقريباً التي أيدت انقلاب العام 2002. ودعمها له كان فظاً إلى درجة أن السفير الأميركي في فنزويلا، تشارلز تشابيرو، تناول طعام الفطور مع بيدرو كارمونا في القصر الرئاسي في أول يوم له في منصبه، بعد أن حلّ البرلمان والمحكمة العليا وألغى الدستور وكل أثر للديمقراطية في البلد. لاحقاً، كشفت وثائق للاستخبارات المركزية الأميركية نُزع عنها صفة السرية أن إدارة بوش كانت تعلم مسبقاً بأمر الانقلاب لكنها كذبت بشأن ما حدث مدَّعية أنه لم يكن انقلاباً ومحمّلة تشافيز مسؤولية سقوطه. وكشفت الوثائق أيضاً أن مؤسسة المنحة الوطنية من أجل الديمقراطية» الممولة من الولايات المتحدة (تأسست في عهد ريغن) كانت ترسل نحو مليون دولار سنوياً إلى فنزويلا، وبشكل رئيسي إلى أشخاص دعموا أو شاركوا في ذلك الانقلاب. وليس هذا فقط، بل دخلت وكالات جديدة أخرى على الخط، مثل الوكالة الأميركية للتنمية الدولية (USAID) التي بدأت ترسل المزيد من الملايين، لكن الولايات المتحدة رفضت الكشف عن وجهة أموال دافعي الضرائب تلك.

بعد إخفاق الانقلاب وعودة تشافيز إلى منصبه، أطلقت كوندوليزا رايس تحذيراً بوجوب احترام المعايير الديمقراطية. لكن المثير للدهشة في الأمر هو أن تحذيرها لم يكن موجهاً للمعارضة التي حاولت خلعه من منصبه بشكل غير قانوني، بل إلى

تشافيـز نفسـه. ولهـذا السبـب، قال تشومسكي إن غضب تشافيز من بوش كان مفهوماً تمامـاً: «لقـد دعمـت الولايات المتحدة انقلاباً لإسقـاط حكومته. ولنفترض أن فنزويلا دعمت انقلاباً عسكرياً أسقط حكومة الولايات المتحدة الأميركية، هل سنعتقد أنها كانت مزحة؟». وأضافت رئيسة تحرير صحيفة ذي نايشن، كاترينا فاندن هوفل: «كي نكون منصفين، إن الكثير من الكياسة الدبلوماسية يدين بها تشافيز للرئيس الذي دعمت إدارته انقلاباً ضده».

إلى جانب دعم الانقلاب، تورطت الولايات المتحدة في حرب كلامية متواصلة مـع تشافيـز. ففـي 31 تمـوز 2006، قال بوشـ لشبكة فوكس نيوز في مقابلة له فيها: «إننـي أعتبـره خطـراً يهدد بتقويض الديمقراطيـة»، على الرّغم من أن تشافيز انتُخب وأعيد انتخابه بشكل حر من قبل الشعب الفنزويلي؛ بعكس حلفاء أميركا. كما كتب رجل بوشـ السابـق المسـؤول عن مواجهـة أميركا اللاتينية، أوتو ريتش، قصة الغلاف في مجلة ذي ناشيونال ريفيو في نيسان 2005 حول أسوأ رجلين في أميركا اللاتينية. كان الغـلاف يظهـر صـورة لتشافيـز وفيدل كاسترو وهما يتحدثان بشكل حميم تحت عنوان يقول: «محور الشر... نسخة النصف الغربي من الكرة الأرضية».

في شباط 2006، ذهب وزير الدفاع دونالد رامسفيلد أبعد من ذلك عندما قارن تشافيز بأدولف هتلر في حديث له مع نادي الصحافة الوطني: «لدينا تشافيز في فنزويلا الذي يملك الكثير من أموال النفط. إنه شخص انتُخب بصورة قانونية تماماً كما انتُخب أدولف هتلر بصورة قانونية وبعد ذلك قام بتعزيز سلطته». وقبل ستة أشهر من ذلك، دعا القس الإنجيلي بات روبرتسون، الذي يملك صلات وثيقة مع إدارة بوش، علناً لاغتيال تشافيز.

بعـد خطـاب تشافيـز، قـال السفير الأميركي في الأمـم المتحدة، جون بولتون، الـذي قاطـع الخطـاب: «كمـا تعلمون، إنه أمر عادي فـي الولايات المتحدة أن يتمكّن ليس فقط من قول تلك الأشياء في الجمعية العمومية، بل وأن يمشي إلى سنترال بارك ويمارس حقه في حرية الكلام في سنترال بارك أيضاً، وأن يقول كل ما يريد قوله. مـن المؤسـف أن الرئيـس تشافيـز لا يوفر حرية الكلام نفسها إلى الشعب الفنزويلي». وذهبت صحيفة دايلي نيوز أبعد من ذلك، بقولها: «في دياره، أي منتقد لتشافيز يجرؤ على التفوه بمثل هذه اللغة البذيئة عن الرئيس يخاطر بجعل نفسه عرضة لدخول السجن، أو أسوأ من ذلك، عرضة لتلقي رصاصة».

في الحقيقة، على الرّغم من أن لتشافيز - مثل أي زعيم آخر في العالم - أخطاءه، إلا أن اتهامه بإلغاء حرية الكلام في بلده كان سخيفاً قطعاً. فوسائل الإعلام في فنزويلا كانت معادية بشدة لتشافيز، وكانت المحطات التلفزيونية تبث حملة قدح وذم متواصلة ضـده، واصفـة إيـاه بـكل الأوصاف البشعة من الديكتاتور إلـى المجنون. كما دعمت معظم الصحف الكبرى انقلاب 2002 بشكل صريح. وعندما نظمت المعارضة السياسية

إضراباً، أضربت معها الصحف، رافضة النشر. واستبدلت المحطات التلفزيونية المعارضة برامجها الاعتيادية بتغطية متواصلة للإضراب. في تلك الأثناء، كان أعداء تشافيز يظهرون بشكل دائم على شاشات التلفزيون ويطالبون بإسقاطه، وفي بعض الأحيان كان مقدّمو البرامج الإخبارية يعربون عن هذه المشاعر بأنفسهم. كما نظّم منافسوه مظاهرات احتجاجية عارمة ضمت مئات الآلاف من المعارضين. فإذا كانت هذه ديكتاتورية، فإنها بالتأكيد نوع غريب من الديكتاتورية. لو دعا بعض الناس في الولايات المتحدة لانقلاب عسكري للإطاحة بجورج بوش، فإنهم كانوا سيُزَجون في السجون من دون أدنى شك. لكنهم ظلوا أحراراً في فنزويلا، حتى عندما لم يكتفوا بالتحدث عن إسقاط الرئيس بل حاولوا القيام بذلك فعلاً. في الواقع، ثمة فارق شاسع بين فنزويلا تشافيز وكوبا كاسترو.

على أي حال، لم يقتصر خطاب تشافيز في الأمم المتحدة على التهجم على بوش، بل تضمن أيضاً أموراً هامة أخرى اعتبر الكثيرون أنها تستحق الاهتمام، على الرّغم من تجاهلها من قِبَل وسائل الإعلام السائدة. فقد اقترح، على سبيل المثال، برنامجاً مبتكراً من أربع نقاط لإصلاح الأمم المتحدة. كما شرح بعضاً من أسباب غضبه من بوش وإدارته، حيث قال إن الولايات المتحدة منعت طبيبه الشخصي ورئيس أمنه من دخول البلد، وأبقتهما محتجزين داخل الطائرة الرئاسية.

الأخطر من ذلك هو إشارته إلى أن «أكبر إرهابي في هذه القارة»، الجاسوس السابق للسي آي أيه لويس بوسادا كاريليس (المنفي الكوبي سيّئ السمعة والمعادي لكاسترو)، كان في الولايات المتحدة، التي رفضت تسليمه إلى فنزويلا ليُحاكَم بتهمة التخطيط لتفجير طائرة كوبية كانت مغادرة من فنزويلا إلى كوبا في العام 1976 (التي لم ينجُ منها أحد).

قال تشافيز في الأمم المتحدة إن بوسادا أمضى بالفعل عدة سنوات في السجن في فنزويلا، لكنه بعد ذلك، «بفضل السي آي أيه وبعض المسؤولين الحكوميين في تلك الفترة، سُمح له بالهرب، وهو يعيش في هذا البلد الآن، وتحت حماية الحكومة. تملك الحكومة الأميركية معايير مزدوجة؛ إنها تحمي الإرهاب عندما تريد ذلك». بالفعل، فقد دخل بوسادا الولايات المتحدة بشكل غير شرعي في عام 2005 واحتُجز في فلوريدا. ثم حُوّل لاحقاً إلى سجن للمهاجرين في تكساس، وأطلق سراحه في أيار من عام 2007.

غضب الأميركيون لأنه وصف بوش بالشيطان لكنهم لم ينزعجوا من حقيقة أن الولايات المتحدة كانت تحمي إرهابياً معروفاً، يداه ملوثتان بالدماء. فأيهما أسوأ؟ وعندما حاولت فنزويلا استرداد بوسادا، رفضت الولايات المتحدة بدعوى من القاضي الذي خشي من أن يتعرض للتعذيب.

باختصار، إن تشافيز ثائر يساري ينتمي إلى سكان أميركا اللاتينية الأصليين عازم على تغيير وجه القارة وربما حتى العالم كله بطريقة لم يتمكن بوليفار إلا من أن يحلم بها. لكنه ليس سوى *ese mono* - أي ذلك القرد - بالنسبة للنخبة البيضاء التي تحتقره في فنزويلا. أو كما يحب بعضهم أن يصفه: «لقد استولى الأجير على المزرعة». أما بالنسبة للملايين من الفقراء المهملين في فنزويلا ومؤيديه المتزايدين في العالم، فهو *El Comandante* - أي القائد - الرجل الذي يقود فنزويلا للخروج من هاويتها المظلمة نيابة عن بطل الأمة الأعظم، ويعبِّد طريقاً بديلاً للدول النامية في العالم للتخلص من البؤس والاستغلال اللذين أرهقا كاهلها على مدى قرون طويلة. إن قصته ببساطة هي قصة الصراع الذي تخوضه الطبقة الدنيا من كاراكاس إلى هارلم إلى جوهانسبورغ إلى بومبي. أو كما قال عنه ذات مرة القس الفنزويلي ومنتقد تشافيز، أرتورو بيرازا: «هذا الرجل يلامس أرواح الفقراء».

الفصل الثاني

جذور التمرد

يلامس تشافيز أرواح الفقراء لأنه كان واحداً منهم، حيث عاش طفولة فقيرة جداً في وقت كانت فيه ثروة فنزويلا النفطية تكدس ثروات هائلة للأقلية المحظوظة. وُلد تشافيز في 28 تموز 1954 في الكوخ الطيني لجدته روزا إنياس تشافيز، التي كانت تعيش في قرية سابانيتا التابعة لولاية باريناس. كانت قرية صغيرة منسية يعيش فيها نحو ألف إنسان وتحوي بضع طرقات ترابية كان الناس يضطرون لرشها بالمياه في فصل الشتاء الحار والجاف من أجل إبقاء الغبار الخانق هادئاً. أما خلال أمطار الصيف الموسمية، فقد كانت هذه الطرقات تتحول إلى بحار من الطين.

تقع سابانيتا في لوس لانوس، وهي منطقة شاسعة من المستنقعات المعشوشبة التي تعيش فيها أعداد قليلة ومتناثرة من السكان، والتي تشبه السهول الكبرى في الولايات المتحدة أو سهوب البامباس في الأرجنتين. كانت لوس لانوس نسخة عن الغرب المتوحش الأميركي لأنها كانت موطن رعاة البقر الفنزويليين الأسطوريين، منطقة نائية ومتخلفة محاذية للحدود الكولومبية تشغل حوالى ثلث مساحة فنزويلا الشاسعة. كانت عالماً منفصلاً تماماً عن الإقطاعيات الخاصة في كاراكاس بخدمها الأنيقين الذين يرتدون التوكسيدو وحفلاتها الراقية.

أما والدا تشافيز، هوغو دي لوس رييز تشافيز وإيلينا فرياس دي تشافيز، فقد كانا يعيشان في قرية تُدعى لوس راستروجوس، وهي أصغر وأشد حرماناً من سابانيتا؛ لم يكن فيها أطباء أو مستشفيات أو حتى مستوصفات. عندما كانت إيلينا على وشك ولادة ابنها البكر، أدان، وبعد ذلك بعام واحد، هوغو رافاييل، اضطرت العائلة لقطع ميلين من أجل الوصول إلى سابانيتا، فهناك على الأقل يمكنهما إيجاد قابلة قانونيّة تساعد الأم على ولادة طفليها في منزل الجدة روزا إنياس. على أي حال، رُزق الوالدان بسبعة ذكور، مات واحد منهم، إنزو، بمرض اللوكيميا ولم يكن قد أكمل شهره السادس بعد.

في تلك الأيام، لم يكن أمراً غير مألوف أن يُعهَد بالأولاد الأكبر سنّاً في العائلات الكبيرة الفقيرة إلى أجدادهم للمساعدة في تربيتهم ورعايتهم. ولهذا السبب، طلب والدا تشافيز - اللذان يعملان كمدرسين في لوس راستروجوس - من الجدة روزا إنياس أن تقوم برعاية هوغو وأدان. وبما أن زوج روزا إنياس كان قد هجرها منذ فترة طويلة قبل أن تصبح أرملة لاحقاً، فإنها كانت تملك الوقت كلّه والحب الأمومي لمنحهما

لحفيديها.

كانت الجدة تعيش لوحدها في منزل بسيط كشأن كل المنازل المنتشرة في مثل تلك المنطقة المحرومة. كانت جدرانه مصنوعة من الطين والقش، وسقفه من أوراق النخيل، وأرضه مفروشة بالتراب المرصوص. وعندما يهطل المطر، كانت روزا إنياس تسرع لوضع القدور على الأرض في محاولة غير مثمرة للحيلولة دون تحولها إلى طين. علاوة على ذلك، لم يكن يوجد فيه ثلاجة أو مروحة أو مياه جارية أو حمام داخلي، وكانت روزا تطهو طعامها على نار من الحطب، وتجلب المياه من بئر في القرية، وتقضي حاجتها في الخلاء. أما الأداة المرفهة الوحيدة التي كانت تملكها فهي مذياع صغير يعمل على البطاريات. وإذا حصلت على بضع ساعات من الكهرباء من مولد الطاقة الكهربائية الصغير الذي يعمل على الوقود في القرية فعندئذ كانت تشعر بأنها محظوظة. وبسبب ندرة السيارات، كان الناس يتجولون إما على الدراجات الهوائية أو على الأقدام. (ما تزال شوارع سابانيتا تعج بالدراجات الهوائية حتى الآن).

لم تتعامل روزا إنياس مع أدان وهوغو بعد أن أصبحا في منزلها كجدة لهما بل كبديل حقيقي من أمهما، حيث كرست لهما من الوقت ما لم يستطع أبواهما أن يكرساه لهما، أبواهما اللذان كانا يأتيان إلى سابانيتا في عطل نهاية الأسبوع كلما سنحت لهما الفرصة. وعندما بدأ هوغو وأدان بالنطق، لم يكونا يدعوان روزا إنياس بجدتي بل ماما روزا، أما هي فقد كانت تدعوهما ولديّ-حفيديّ. وكان هوغو في كثير من الأمور أقرب إلى روزا منه إلى أمه ففي حضنها تعلم المشي والقراءة والكتابة قبل أن يدخل صفه الأول.

قدّمت روزا له ولأخيه أدان كل ما تملك من حب وحكمة، لأنها لم تكن تملك الكثير لتقدمه لهما غير ذلك. ففي اليوم الأول لهوغو في مدرسة جوليان بينو الابتدائية التي تقع في نهاية الشارع الذي يضم منزلهم، دخل هوغو منتعلاً صندلاً مهترئاً، الأمر الذي أثار سخرية معظم التلاميذ الآخرين الذين كانوا ينتعلون الأحذية. فعاد هوغو إلى المنزل والدموع تنهمر من عينيه دافعاً روزا للبكاء بحرقة من شدة إحساسها بالذل والإحباط. لكنها لم تستسلم، بل بذلت جهدها إلى أن تمكنت أخيراً - بمساعدة العائلة والأصدقاء - من جمع المال الكافي لشراء حذاء جديد له.

بسبب شحّ المال، كانت روزا مضطرة للاعتماد على الصبيين من أجل الإنفاق على المنزل، فلجأت إلى بيع السكاكر والفاكهة الاستوائية التي كانت تنمو في حديقتها الخلفية. وكانت حلوى العناكب المغطاة بالسكر (*aranas*) منتجها المميز، حيث كانت تعدّها بتقطيع فاكهة البابايا إلى شرائح رقيقة ثم تطهوها في مقلاة وبعد ذلك تغطيها بالسكر وفي النهاية تشكلها على شكل عناكب.

كان هوغو يأخذ علبة من منتجات روزا الفائقة الشهرة يومياً إلى المدرسة ليبيعها

لزملائه خلال فترات الاستراحة. وبعد المدرسة وفي عطل نهاية الأسبوع، كان يجول القرية ويبيعها للسكّان بينما كان يراقب صراعات الديَكة أو يلعب كرة البولاس كريولاس وهي نوع من كرة البوكسي. كان يبيعها أيضاً للناس المتجمعين في سوق بوليفار في سابانيتا أو بالقرب من مكان الترفيه الوحيد فيها؛ صالة سينما تعرض أفلاماً مكسيكية. وهوغو كان يستمتع بعمله هذا (بعكس أخيه) لأنه كان يمنحه فرصة التجوال والتحدث إلى الناس، مع أن هذا العمل كان يشير أيضاً إلى الوضع الاقتصادي غير الآمن لعائلته. ولهذا السبب، تركت تلك السنوات أثراً لا يُمحى في نفسه، على الرّغم من أنه لم يكن الوحيد الذي يعاني، فبعض أترابه في المدرسة كان وضعهم أكثر سوءاً إلى درجة أنهم اضطروا لترك المدرسة نهائياً من أجل مساعدة عائلاتهم.

مثل الكثيرين من الأطفال المحليين، كان هوغو مهووساً بكرة القاعدة، تلك الرياضة التي قدمت إلى فنزويلا في العشرينيات من القرن الماضي مع عمال النفط الأميركيين، الذين أتوا بأعداد كبيرة بعد تدفق أولى آبار النفط الكبيرة. بعد ذلك أصبحت كرة القاعدة الرياضة القومية في فنزويلا ومحط تعلّق واهتمام شديدين من قبل المشجعين؛ على عكس بقية أميركا اللاتينية، حيث إنّ كرة القدم هي الرياضة السائدة. كان هوغو وأصدقاؤه يلعبونها بشكل دائم، وإن كانوا يستخدمون أغطية الزجاجات بدلاً من الكرات، والعصي أو مقابض المكانس بدلاً من المضارب.

كان هوغو مهووساً بشكل خاص بهذه الرياضة إلى درجة أنه كان يقضي ساعات وهو يلعب لعبة منزلية شبيهة بها قام باختراعها بنفسه. حيث كان يرسم دائرة على طاولة في منزل روزا، ويقسّمها إلى قطع كما تُقطّع الشطيرة، ويكتب داخل كل قطعة الأجزاء الرئيسية من اللعبة؛ مفرد، مزدوج، ضربة، كرة، خارج الملعب، لعبة مزدوجة. كان يضع سكيناً في منتصف الدائرة ويقوم بإدارته، ثم يلعب كرة القاعدة مع نفسه أو مع أدان أو مع أصدقائه. وكان يحتفظ بالنتائج في دفتر خاص به مدوِّناً تفاصيل كل لعبة على حدة. وعندما كان يلعب مع نفسه، كان في بعض الأحيان يثب عن كرسيه فجأة ويصيح «ضربة ركضة!»؛ فتجفل جدته. ✦

على الرّغم من الحرمان الاقتصادي، مازال تشافيز يحتفظ بذكريات بهيجة عن سنين طفولته الأولى: «كنا أطفالاً فقراء جداً، ولكن سعداء جداً». كانت روزا تملك حديقة خلفية ملأى بالمزروعات والفواكه الاستوائية، وكان هوغو ينفق الساعات وهو يسقيها، بل ويغني لها أيضاً أغانيه المفضلة (وهو أمرٌ تصر روزا على أنه ساعد على نموها)، أغاني المزارعين المكسيكيين وأغاني رعاة البقر (*llaneros*)، وهي ألحان حزينة تتحدث عن مواضيع مختلفة مثل الغرام أو القتال بالسكاكين أو الشرب أو ترويض الجياد. وفي الحديقة الخلفية أيضاً تعلّم هوغو كيف يزرع ويحصد الذرة، وأكل من البرتقال والأناناس والكريب فروت والمانغو المزروعة فيها. وساعد روزا

في رعاية الطماطم والبصل والخضار الأخرى. كما لعب مع أدان والأصدقاء كرة القاعدة وغيرها من الألعاب. وعن تلك الحديقة قال هوغو: «كانت حديقتنا حديقة للأحلام. هي كونٌ بأكمله».

كان هوغو يحب الرسم والتلوين أيضاً، وكان ماهراً إلى حدٍّ ما فيهما، حتى إنه حمل عمّاً له يعيش في العاصمة على شراء لوازم هذه الهواية؛ كان العم أحسن حالاً منهم بقليل. ومنذ نعومة أظفاره طوَّر تشافيز أيضاً قدرة مذهلة على حفظ وإلقاء قصائد وأغانٍ ومقاطع نثرية طويلة، الكثير منها كانت تتحدث عن مواضيع تاريخية أو عن سهول لانوس. وهي مهارة مازال تشافيز يظهرها حتى بعد أن أصبح رئيساً.

كانت روزا – الكاثوليكية المستقيمة والصارمة التي تؤدي صلواتها في منزلها – أول مثال أعلى بالنسبة لتشافيز. ولأنها لم تكن تتحمل أي حماقة أو طيش، فقد حافظت على الصبيين منضبطين. كما بثّت فيهما شيئاً شائعاً بين الطبقات الدنيا في فنزويلا، ألا وهو روح التضامن مع الفقراء والمحرومين. فإذا كان أحد الجيران بحاجة إلى طعام أو لباس، فروزا موجودة دائماً للمساعدة، على الرّغم من أنها هي نفسها لم تكن تملك إلا القليل من كل شيء. كانت الجدة من النوع الذي يؤثر فيمن حولها، وهوغو كان أولهم بالطبع، حيث خدم لفترة قصيرة كصبي في مذبح الكنيسة الكاثوليكية المحلية. كما ساهم في برنامج لمحو الأمية تحت رعاية الحكومة سُمّي كاديناس أباجو، أو لنحطم الأغلال. حيث ساعد في تعليم بعض البالغين القراءة والكتابة على الرّغم من أنه كان في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره فقط.

لم تكن علاقة هوغو مع والديه – وبالأخص مع أمه – تبدو بالحميميّة نفسها التي كانت تتميز بها علاقته مع جدته. فعلى الرغم من انتقال والديه أخيراً من لوس راستروجوس وإقامتهما في منزل إسمنتي في سابانيتا يقع في الشارع نفسه الذي تقيم فيه روزا، إلا أن هوغو ظل يعيش مع جدته. ومع أن ذلك لم يكن أمراً غير مألوف في تلك الأيام – مرة أخرى – إلا أنه يشير من دون أدنى شك إلى مدى قربه من جدته روزا. في الواقع، كانت أمه – بالإضافة إلى غيابها شبه الدائم في السنوات الأولى عن حياة هوغو – قاسية جداً في تربيتها للأولاد، فهي لم تكن تتردد أبداً في استخدام الحزام لتأديب الصبية (عادة شائعة أخرى في تلك الحقبة). ولهذا السبب، غالباً ما كان هوغو وإخوته يهربون إلى منزل روزا كي تحميهم من الضرب بتخبئتهم في إحدى الخزانات.

ثمة من يقول – على الرّغم من أن العائلة تنكر هذه القصة بشدة – بأن هوغو تخاصم مع والدته ذات يوم، وأدى ذلك الخصام إلى قطيعة بين الاثنين دامت سنتين كاملتين، حتى إنهما كانا يتجاهلان بعضهما إذا ما تقابلا صدفة في الشارع. ويبدو أن النزاع المزعوم ناشئ من المشاعر المرّة التي كان هوغو يكنُّها لأمه من أيام الطفولة عندما كانت تضربه وإخوته، ثم تطور الأمر إلى صراع مفتوح في نهاية

السبعينيات - بحسب إحدى الروايات على الأقل - عندما أبدت معارضتها للمرأة الأولى التي تزوج بها، نانسي كولميناريس، فانقطع كل منهما عن الآخر. على أي حال، ينكر تشافيز أنه تخاصم مع أمه وأنهما لم يتواصلا لمدة سنتين (يظهر هذا التأكيد في كتاب **هوغو تشافيز من دون الزي الرسمي** الذي نُشر في فنزويلا في 2004 ولاحقاً في الولايات المتحدة). وفي مقابلة معه في نيسان 2007، قال تشافيز: «لم يحدث مثل هذا الشيء أبداً». يقول تشافيز بأنه تزوج بنانسي في أواخر العام 1977 عندما كانت حاملاً بابنته روزا، ويقرُّ بأن أمه لم تكن متحمسة جداً لذلك الزواج، لكنه ينكر حدوث أي قطيعة دراماتيكية في علاقتهما. «لاشك أنه لم تكن هناك علاقات جيدة بين أمي ونانسي، ولكن أن يصل الأمر إلى قطيعة لمدة سنتين لم نتحدث فيهما معاً، لا».

قال أيضاً بأنه ونانسي كانا يزوران أمه دائماً خلال العطل عندما كانا ما يزالان معاً، بأن أمه ونانسي غالباً ما كانتا تزورانه معاً عندما كان في السجن. بل أكثر من ذلك، فبعد أن أصبح رئيساً، أدارت أمه مؤسسة حكومية للأطفال في باريناس، وعملت نانسي معها لبعض الوقت.

كما أنكر أخوه أدان أيضاً، في مقابلة نادرة في نيسان 2007، أن يكون هوغو وأمه قد توقفا عن الكلام مع بعضهما لوقت طويل أو تجاهلا بعضهما في الشوارع.

مع ذلك، لقد استغل خصومه تلك التقارير والشائعات التي تتحدث عن العلاقة المتوترة بين تشافيز وأمه للقول إن الحرمان غير الصحي من الحب الأمومي في طفولة تشافيز أثّر في شخصيته. لكنه، في الواقع، كان يملك حب روزا الأكيد والدائم، فضلاً عن أن الكثيرين عاشوا طفولة أسوأ من طفولته بما لا يقاس وخرجوا منها من دون أي ضرر يُذكر.

لكنه على أي حال، بدا أقرب إلى أبيه منه إلى أمه؛ على الأقل عندما كانت تسنح له الفرصة لرؤيته. بعد انتقال والديه إلى سابانيتا، عمل أبوه في مدرسة جوليان بينو الابتدائية، وعلّم هوغو في الصف الخامس. ومع أن الوالد أظهر شيئاً من الاهتمام بحزب سياسي يساري يُدعى حركة الشعب الانتخابية (MEP)، إلا أنه كان منتسباً منذ مدة طويلة للحزب المسيحي الاجتماعي (COPEI)، واحد من الحزبين المهيمنين في الحياة السياسية في فنزويلا منذ عقود. وبعد توليه الرئاسة، أصبح والده حاكماً لإحدى الولايات.

غالباً ما يتحدث هوغو عن جدته وعن الأثر الذي خلّفته في نفسه. وهذا جلي في الواقع، فهو سمّى إحدى بناته الثلاث روزا وواحدة أخرى روزينياس. كما سمّى ابنه الوحيد هوغو. يقول تشافيز: «أنا أعشق والديّ، ولكن لابد لي أن أعترف أن التربية التي منحتني إياها روزا كانت فائقة الأهمية بالنسبة لي. كانت إنسانة طاهرة... حب محض، لطف نقي... بجانب روزا عرفت الذل والفقر والألم، وفي بعض الأحيان لم نكن نملك ما نأكله. لقد رأيت جَور هذا العالم... تعلّمت معها مبادئ وقيم الفنزويليين

الفقراء، أولئك الذين لا يملكون أي شيء والذين يجسدون روح وطني».

كان موتها في العام 1982 لحظة من أكثر اللحظات إيلاماً في حياته. ومن كنف الحزن، كتب قصيدة حب وإعجاب تعهد فيها بأن لا ينسى أبداً دروسها أو يخون جذوره في سابانيتا. وقال إنه يأمل أن يُدفَن بجانبها عندما يموت.

ربما في يوم ما
يا جدتي العزيزة
سوف أوجه خطاي
نحو قبرك
عندئذ
عندئذ فقط
في نهاية حياتي
سآتي لأبحث عنك
يا أمي روزا
سأصل إلى القبر
وسأرويه بالدماء والدموع
وسأجد الراحة
في حبك الأمومي
وسأخبرك عن خيبات أملي
بين الأحياء
وبعدها
سوف تفتحين ذراعيك
وتعانقينني
مثلما كنت تفعلين عندما كنت طفلاً
وستعيدين السكينة إلي
بأغنيتك العذبة
وستأخذينني
لأماكن أخرى
كي أطلق صرخة
لا تتوقف

كما طورت روزا خصلة أخرى تحولت إلى جزء جوهري من شخصية هوغو، ألا وهي حب التاريخ. فمنذ أن كان في الخامسة أو السادسة من عمره، كانت روزا تجلس في البيت أو في الحديقة الخلفية وتقضي الساعات وهي تحكي له قصصاً من الماضي. ومن الحكايات المفضلة عنده حكاية مرور مقاتل ثائر يُدعى إزيكويل زامورا على رأس رجاله بقرية سابانيتا في القرن التاسع عشر. وتقول القصة إن زامورا ورجاله مرّوا على صهوات جيادهم من أمام منزل عائلتها بالضبط، مثيرين الغبار وراءهم بينما كان صوت البوق يدوّي؛ لم ترَ روزا المشهد بنفسها، بالطبع، لكنها سمعت القصة من أمها.

زامورا هذا ثائر أقل شهرة من سيمون بوليفار ورث عنه حلمه بتحقيق مجتمع أكثر عدلاً. ساعد زامورا في تنظيم المزارعين والعبيد المحليين في جيش شن في الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر حرباً أهلية ضد القوات التابعة للنخبة الإقطاعية الحاكمة. كان زامورا يكنُّ كرهاً عميقاً للطبقة العليا الثرية ويحمل رؤية راديكالية لإصلاح المجتمع الفنزويلي، كما يشير إلى ذلك أحد شعاراته: «لن يكون هناك أغنياء وفقراء، أو عبيد ومالكون، متنفذون ومستضعفون، بل إخوة يزدرون القيادة ويعاملون بعضهم بشكل متساو، كأنداد».

كان زامورا رجلاً سابقاً لعصره، حيث قدَّم برنامجاً تضمَّن إلغاء عقوبة الإعدام، وضمان حرية التعبير، وحق التصويت للجميع، ودعا لإنهاء القيود الموضوعة على حرية حركة العمال، الذين كانوا في ذلك الزمن معرضين للاعتقال والحكم عليهم بالأعمال الشاقة في المزارع الضخمة إذا وُجدوا في الشوارع بلا عمل. حتى إنّه دعا لنوع من النظام الأمني الاجتماعي الذي يساعد الأشخاص المبتلين بعاهة ما أو فقر عام. وكان يريد أيضاً إرغام كبار مالكي الأراضي على تقديم عشر بقرات حلوب لترعى في أرض مشاع وتقدم حليباً مجانياً كل يوم لمنازل الفقراء.

مع أن زامورا ظل ملتزماً باحترامه غير المشروط لحقوق الملكية، إلا أن خطابه الداعي للمساواة بين الناس أثار القلق حتى بين بعض أقرب حلفائه. حيث تقول الأسطورة الشعبية إنه لم يُقتَل في إحدى المعارك بل على يد ثلة من جنوده بالذات بإطلاق النار عليه من الخلف في العام 1860 (يتوقع البعض أن تشافيز نفسه سيلقى المصير ذاته يوماً ما). على أي حال، لم تفلح حملة زامورا في تحويل البنى الاجتماعية الظالمة في فنزويلا، ويعود جزء من السبب في ذلك إلى أن قواته الاتحادية لم تقدم برنامج إصلاح اقتصادي واجتماعي شامل. بيد أنه ترك وراءه إرثاً تحررياً إصلاحياً مشبعاً بحس قوي بالتضامن مع الفقراء القرويين، فلسفة ستنسجم تماماً مع رؤية تشافيز لفنزويلا جديدة.

خاض زامورا الكثير من معاركه في أمكنة ليست ببعيدة عن سابانيتا، مخلّفاً ذكريات مثيرة للإعجاب في أذهان صبية المدارس من أمثال تشافيز. لكن تشافيز

كان يملك رابطاً شخصياً أقوى بزامورا من زملائه، فقد كان جد جده، الكولونيل بيدرو بيرير بيريز، واحداً من أولئك الرجال الذين قطعوا الحقول المترامية الأطراف لسهول لانوس من أجل القتال إلى جانب زامورا.

كان لبيرير بيريز ابن يُدعى بيدرو بيريز دلغادو هو والد جد تشافيز. لكن هذا النسب بالكاد كان يمثل مصدر فخر بالنسبة لتشافيز عندما كان لا يزال فتياً. كان بيريز دلغادو يُعرَف باسم ميسانتا (*Maisanta*)، وهو لقب كسبه من الصرخة التي كان يطلقها في أثناء المعارك، «*Madre Santa, Virgin of Socorro*» وبعكس الشهرة العطرة لوالده الذي ترقى إلى رتبة كولونيل، كان ميسانتا مشهوراً في سابانيتا والمنطقة المحيطة بها بأنه مجرد لص وقاتل. حيث يُقال إنه قتل ذات مرة كولونيلاً ثم فرَّ إلى الهضاب. بل إن سمعته ازدادت سوءاً إلى درجة أن العديد من الناس باتوا يعتقدون أنه كان يقيِّد الناس إلى الأشجار ثم يطلق عليهم النار، أو حتى يقطع رؤوسهم أمام أعين أطفالهم ثم يعلِّقها فوق أوتاد السياج.

غير أن تشافيز كان مشكِّكاً في صحة هذه القصص، وعلى ما يبدو كان معظم الناس يشككون في صحتها أيضاً. وظل كذلك حتى العام 1974 عندما اكتشف نسخة أخرى من قصة حياة ميسانتا. ففي تلك السنة، أصدر طبيب بارز في باريناس يُدعى خوسيه ليون تابيا كتاباً يؤكد فيه أن ميسانتا لم يكن مجرماً بل مقاتلاً من أجل الحرية. يقول تابيا إن ميسانتا، مثل والده وزامورا من قبله، نشأ ثائراً ضد الاضطهاد والظلم الاجتماعي، وانضم إلى إحدى الحركات المتمردة التي كانت تهدف إلى الإطاحة بالجنرال خوان فيسينته غوميز، الديكتاتور المتوحش الذي حكم فنزويلا بين عامي 1908 و1935.

وتبيَّن بالفعل أن ميسانتا قتل كولونيلاً عندما كان في سن المراهقة، لكنها لم تكن حالة بسيطة ارتكب فيها شخص جريمة قتل بدم بارد. فذلك الكولونيل رفض الزواج من شقيقة ميسانتا، بيترا، بعد أن حملت منه. فقام ميسانتا بمطاردته من مكان إلى مكان من أجل إنقاذ شرف العائلة - على طريقة الغرب المتوحش في ذلك الزمن - إلى أن وجده أخيراً وقتله. ثم هرب بعد ذلك وانضم إلى الثائرين الذين يحاربون غوميز.

كان الكتاب بمثابة كشف رائع بالنسبة لتشافيز، الذي اعتقد أنه برَّأ ساحة ميسانتا. كان تشافيز مقتنعاً بأن النخبة الحاكمة شوهت سمعة سلفه بالطريقة نفسها التي شوهت فيها سمعة زامورا. يقول تشافيز: «لقد حررتني الحقيقة». فميسانتا وآخرون غيره «كانوا زعماء ثورة ربما لم يكونوا يفهمونها جيداً، لكنها كانت لصالح أولئك الذين يعيشون في الدرك الأسفل. كانت ثورة زراعية...».

كتب تشافيز قصيدة على شرف ميسانتا، وبدأ تحقيقاً حوله تحوَّل لاحقاً إلى مطاردة طويلة. وفي إحدى المراحل، عندما كان لا يزال جندياً في الجيش، تعقب تشافيز آثار جده الأكبر في لوس لانوس، حيث قابل المسنِّين الذين كانوا ما يزالون يتذكرونه

وسألهم عنه، ومن دون أن ينتبه وجد نفسه يعبر الحدود إلى كولومبيا، متسلحاً بجهاز تسجيل وكاميرا وخرائط عسكرية ودفاتر لكتابة الملاحظات وصور فوتوغرافية للمنطقة ومسدسين وقنبلتين يدويتين. اعتقله الجيش الكولومبي معتقداً أنه جاسوس وظل محتجزاً لمدة ثلاثة أيام إلى أن أقنع الكولومبيين أنه لم يكن جاسوساً بل كان يقوم بجولة تاريخية رومانسية لاسكتشاف جذوره. اقتنع الكولومبيون أخيراً بقصة تشافيز الغريبة، وشرب أحد الضباط معه كأساً، ثم عانقه بشكل أخوي في منتصف جسر يربط بين البلدين قبل أن يتوجه تشافيز عائداً إلى وطنه.

على الرّغم من أن بعض الناس مازالوا غير متأكدين مما إذا كان ميسانتا مقاتلاً شجاعاً من أجل الحرية أم مجرد مجرم ثانوي أم شيئاً ما بين الاثنين، إلا أن ميسانتا أصبح واحداً من أبطال تشافيز، إلى جانب أولئك الثوار الأبطال عطري السمعة، زامورا وبوليفار ومعلّم بوليفار الحالم سيمون رودريغيز. أو كما يقول أحد معلميه في الجيش، إن تشافيز «يحمل في جسده روح ميسانتا». على أي حال، تابع تشافيز تنقيبه عن ميسانتا إلى أن تمكّن أخيراً من الوصول إلى ولديه الغائبين منذ مدة طويلة، وكانا في ذلك الحين قد أصبحا عجوزين مسنَّين. وعندما فتحت ابنته، آنا دومينغيز دي لومبانو، بابها وأبلغها تشافيز أنه ابن حفيد ميسانتا، قالت له بأنه ليس بحاجة لإخبارها بذلك، لأنه كان صورة حية عن ميسانتا بجبينه العريض وأنفه الثخين وعينيه الغائرتين؛ على حد قولها. ولم يكن يشبه ميسانتا بشكله الخارجي فقط بل «برغبته في الكفاح، بعشقه للحرية».

خرج بيدرو بيريز دلغادو وإرثه من رحم تاريخ طويل من التمرد الحدودي في سهول لانوس، التي كانت موطناً لبعض أمهر الخيالة في أميركا الجنوبية، إلى جانب سهول الباماس في الأرجنتين. إذ شكّل أولئك المقاتلون الشجعان العمود الفقري لجيش التحرير التابع لبوليفار، محوّلين لانوس إلى ميدان لبعض أكثر المعارك الأهلية دمويةً في القرن التاسع عشر. يشتهر رعاة البقر في تلك المنطقة بأنهم رجال أحرار أشداء لا يعرفون التمييز بين الناس (بفضل العيش في البراري). حتى في يومنا هذا، تحتل المنطقة مكاناً خاصاً في الميثولوجيا الفنزويلية وحسها بالهوية القومية. كما أنها المكان الذي جرت فيه أحداث الرواية الأكثر شهرة في البلد، **دونا باربارا**، للكاتب روميولو غاليغوس. بل إن تلك المنطقة المتخلفة التي تضم مدناً حدودية مغبرَّة نصف نائمة تجسّد، بالنسبة للكثير من الناس، فنزويلا الحقيقية، على عكس العاصمة كاراكاس المبنية على الطريقة الغربية، بأبنيتها اللامعة التي تناطح السحاب وأبراج التسوق وسلاسل المطاعم الأميركية للوجبات السريعة.

تبقى لانوس مكاناً يمتلك سحراً أخاذاً، حيث تبدو السهول المعشوشبة مترامية إلى ما لانهاية، وحيث أشجار النخيل الباسقة وقطعان الثيران والمزارع الشاسعة تزيِّن

منظـراً غنيـاً بحيـاة بريـة بالغة التنوع في الزوايـا البعيدة من تلك المنطقة بما تحفل به مـن حيوانـات جميلـة، مثـل نمور الجاغوار، وأسماك البيرانيـا ذات الأسنان الحادة، وخنازير الماء العذب، والأنقليس المكهرب، والطيور الملونة، وأفاعي الأناكوندا التي يبلغ طولها خمسة وعشرين قدماً، والكابيبارا، أكبر قارض في العالم؛ يحب رعاة البقر هنـاك طعـم لحمـه الشهي. وعلى مسافة بعيـدة من سابانيتا تقف جبال الأنديز المهيبة، حيـث تتدفـق الأنهـار عابـرة لانوس لتصب أخيراً فـي نهر أورينوكو الجبار في الغابة المطريـة الأمازونيـة. عندمـا كان تشافيز صبياً، كان باستطاعته في الأيام الصافية أن يـرى قمـة بوليفـار المغطـاة بالثلج، أعلى جبل في فنزويلا وأعلى من جبل ماترهورن في سويسرا.

لم يكن إرث لانوس كموطن للمقاومة والتمرد والثورة بخافٍ على هوغو تشافيز الشاب، فقد ترعرع في منطقة تنظر بتعاطف شديد إلى ثوار من أمثال فيدل كاسترو وإيرنستو تشي غيفارا. وعندما كان تشافيز في الثالثة عشرة من عمره (في 1967)، استمع إلى سيل من التقارير الإخبارية الإذاعية عندما كان الجنود يحكمون الطوق على غيفارا في بوليفيا. كان الرمز الثوري الشهير محاصراً لوحده تقريباً في الغابات. في ذلك الحين تساءل تشافيز في نفسه لماذا لم يرسل كاسترو قواته وطائراته لإنقاذ تشي في وقفته الشجاعة الأخيرة. لكنه فسَّر ذلك لاحقاً: «كان تساؤلاً طفولياً، بيد أنه كان يُظهـر تضامنـاً تامـاً مع الرجلين، وهي وجهـة نظر تأثرت بالولاء الشديد الذي لمسته في باريناس لذينك القائدين».

كمـا كان الحـال مـع حركة كاسترو الثورية ضد الديكتاتور فولجينسيو باتيستا في كوبا في خمسينيات القرن الماضي، كان لدى سكان السهول الفنزويليين الكثير ليثوروا عليـه. فعلـى الرغـم من حـرب الاستقلال التي قادها سيمون بوليفار في بدايات القرن التاسـع عشـر باسـم العدالـة الاجتماعية والمسـاواة، إلا أن المعارك التي دمرت البلاد لـم تغيـر شيئـاً مـن البنى الاجتماعيـة الجائرة، فالنخبة الإقطاعيـة الحاكمة ظلت تهيمن فـي نظـام بدائـي قائـم على استغلال واستعباد الطبقة العاملة. تلت ثورة بوليفار الفاشلة عقود من الاستبداد والفوضى وسفك الدماء. كما خلَّفت الحرب **الاتحادية** التي خاضها زامـورا وآخـرون ضـد النخبـة الإقطاعية ما بين عامـي 1858 و1863 من ستين إلى مئة ألف قتيل فنزويلي، ودمرت قطاع المواشي أيضاً، حيث انخفض عددها من 12 مليـون رأس إلـى 1.8 مليون رأس. وبحلول العام 1888، كانت فنزويلا قد شهدت 730 معركة و26 تمرداً منذ حرب بوليفار. ومع بزوغ فجر القرن العشرين، بلغت نسبـة المتعلميـن فـي فنزويـلا بالكاد 19 بالمئة، وأصبحت فنزويلا بلـداً أميركياً جنوبياً فقيراً، متخلفاً، ومنسياً.

فـي 1908، استلـم السلطـة فـي فنزويـلا الجنـرال خوان فيسينته غوميـز، أسوأ ديكتاتـور عرفتـه البـلاد، علـى الرّغم من أن غوميز - الذي علَّم نفسه بنفسه، ولم يكن

يقرب الشراب، ولم يتزوج (مع أنه كان يعاشر الكثير من النساء) - لم يكن يخلو من الحسنات في الواقع، فهو الذي أرسى دعائم النظام في بلد دمرته الفوضى، ونظّم القوات العسكرية، وحوّلها إلى جيش محترف، ووازن الميزانية، وأشرف على ولادة صناعة النفط، التي وضعت فنزويلا على الخارطة واجتذبت شركات النفط من مختلف أنحاء العالم.

غير أن غوميز كان أيضاً ديكتاتوراً متوحشاً وفاسداً على نحو لا يوصَف. إذ إنه حوّل ممتلكاته الشخصية المتواضعة (كان يملك مسلخاً للمواشي في ولاية تاتشيرا) إلى ثروة هائلة تزيد عن 300 مليون دولار في العام 1927، و400 مليون عندما توفي في العام 1935. وفي سبيل الحفاظ على السلطة، تجاوز غوميز كل المحرمات. «وجد المنشقون أنفسهم محكومين بالسجن في زنزانات يشرف على التعذيب فيها أبناء الديكتاتور أنفسهم. بعض المساجين كانوا يُعلّقون من أقدامهم أو أعضائهم التناسلية، فيما كانت رؤوس بعضهم الآخر تُطوّق بأحزمة جلدية ثم تُشَد حتى تكاد تخرج أعينهم من محاجرها، وآخرون كانوا يرتدون أثقالاً حديدية تزن مئة باوند حول كواحلهم. وهناك رئيس تحرير منشق أمضى عشرين سنة في هذا الوضع».

في أواخر الأربعينيات، شهدت فنزويلا تجربة وجيزة من الديمقراطية، مالبثت أن عادت إلى مرحلة أخرى من الديكتاتورية في الخمسينيات، قادها هذه المرة الجنرال ماركوس بيريز جيمينيز، الذي كان (مثل الديكتاتور السابق غوميز) يمثل حالة متناقضة. كان جيمينيز بنّاءً ماهراً وحالماً يزخر خياله بالكثير من الأحلام الكبرى. فقد حفر الأنفاق في الجبال، وعبّد آلاف الأميال من الطرقات العامة، وأنشأ أفضل شبكة طرقات في أميركا اللاتينية. كما بنى جسراً ضخماً فوق بحيرة ماراكيبو، أكبر بحيرة في أميركا اللاتينية. ونصّب أعلى وأطول شبكة عربات تسير على الكابلات في العالم في مدينة ميريدا الرائعة في جبال الأنديز. وشيّد فندقاً فوق قمة جبل أفيلا المشرف على كاراكاس، ناقلاً مواد البناء على ظهور البغال ولاحقاً بواسطة عربة تسير على الكابلات بناها هو أيضاً.

لكن بيريز جيمينيز كان أيضاً ديكتاتوراً متوحشاً وفاسداً آخر. حيث أصبحت الرشى والأفعال الانتقامية والاغتيالات أمراً مألوفاً في عهده. كما قام بتحديث أساليب غوميز القمعية، مستخدماً التنصت على الهواتف والمراقبة اللاسلكية والصدمات الكهربائية على المساجين من المعارضين السياسيين (أطلق النظام سراح 400 سجين سياسي في كانون الثاني 1954 لكنه اعترف بأنه كان يحتجز ما لا يقل عن 300 سجين آخر). ويعتقد البعض أن الآلاف غيرهم عُذّبوا في السجون، من بينها معسكر اعتقال سيىء السمعة يقبع في أعماق أدغال الأمازون. كما قام الديكتاتور وأصدقاؤه - العديد منهم من مسقط رأسه تاتشيرا - بنهب الثروات العامة في البلد وإنفاقها على ملذاتهم. ففي عطل نهاية الأسبوع، كان بيريز جيمينيز يطير إلى جزيرة كاريبية صغيرة تُدعى لا

أورتشيلا ليمرح على شواطئها برفقة حسناوات فنزويليات عاريات.

على الرّغم من حكمه الوحشي، كانت الولايات المتحدة تنظر إلى بيريز جيمينيز بعين الرضا والاستحسان. كيف لا وهو الحليف المخلص طوال حقبة الحرب الباردة. ولهذا السبب، منحه الرئيس دوايت أيزنهاور في العام 1954، السنة التي وُلد فيها تشافيز، أرفع وسام مدني في الأمة، وسام الاستحقاق الأميركي، الأمر الذي أثار غضب الكثير من الفنزويليين الذين كانوا يخاطرون بحياتهم من أجل الإطاحة ببيريز جيمينيز.

مع أن نظام بيريز جيمينيز سمح رسمياً بتأسيس الديمقراطية في فنزويلا في العام 1959، إلا أنه لم يفعل أي شيء لتغيير الظلم الاجتماعي ومكافحة الفقر الذي يثقل كاهل غالبية الشعب الفنزويلي. ولهذا السبب، قام المتمردون اليساريون – الذين كانوا يعتقدون أن ممارسة الديمقراطية في فنزويلا كانت لعبة زائفة تهيمن فيها النخبة الحاكمة وتستغلها لمصالحها الخاصة؛ بتنظيم عصيان مسلح في الستينيات يهدف إلى إسقاط الحكومة. كان من بين المتمردين رجال وبضع نساء أصبحوا شخصيات محورية في الحياة السياسية الفنزويلية حتى في عهد تشافيز، بمن فيهم علي رودريغيز وتيودور بيتكوف. وتحول ذلك العصيان إلى ثورة من أقوى الثورات في أميركا اللاتينية، حيث نفذ المتمردون سلسلة من العمليات اللافتة، مثل تفجير القطارات، وخطف مديرين أجانب وموظفين في السفارة الأميركية، والقيام بغارات فدائية على المدن. أما بيتكوف فقد اكتسب شهرته من فراره مرتين من السجن.

على الرّغم من اتخاذ العديد من المجموعات المقاتلة من لانوس مركزاً لها، إلا أن تشافيز لم يكن له أي اتصال مع المتمردين عندما كان مراهقاً. لكنه تعرَّف إلى اليسار لأول مرة من خلال أحد جيرانه، وذلك عندما انتقل مع أخيه أدان وجدتهما روزا إنياس من سابانيتا إلى مدينة باريناس للانضمام إلى المدرسة الثانوية الوحيدة في الولاية الريفية، مدرسة دانييل أوليري المسماة باسم رجل إيرلندي انضم إلى حركة الاستقلال الأميركية الجنوبية وأصبح واحداً من أكثر مستشاري بوليفار موثوقية وإخلاصاً.

انتقل الصبيان وجدتهما إلى منزل يقع قبالة منزل عائلة خوسيه إستيبان رويز غيفارا، مؤسس الحزب الشيوعي في باريناس، وهو مؤرخ ضئيل الحجم، واسع الاطلاع، يملك مكتبة واسعة تضم أكبر مجموعة كتب تتحدث عن بوليفار في المدينة. سمَّى رويز غيفارا ولديه الاثنين فريدريك إنجلز وفلاديمير لينين (كُتب اسم الصبي الثاني خطأً في شهادة ميلاده (*Wladimir* بدلاً *Vladimir*) وظل كذلك). وفي حين كانت الشيوعية محط احتقار ولعنة في الولايات المتحدة، فإن الحزب الشيوعي كان واسع الانتشار في بقاع كثيرة من أميركا اللاتينية، حيث السخط من الدعم الأميركي

للأنظمة الديكتاتورية فيها بلغ أشدّه. وقد لعب الشيوعيون دوراً محورياً في إسقاط الديكتاتور بيريز جيمينيز، الذي سجن رويز غيفارا نفسه بسبب أنشطته السياسية.

أصبح تشافيز صديقاً مقرباً لولدي رويز غيفارا. وبحسب كتاب **هوغو تشافيز من دون الزي الرسمي**، لعب رويز غيفارا دوراً رئيساً في صقل العقلية السياسية عند تشافيز، الذي كان من دون أدنى شك ذا ميل يساري غريزي. حيث يذكر الكتاب أن المراهقين الثلاثة كانوا «يرمون أنفسهم فوق حصيرة مكتبة العائلة بعد ظهر كل يوم من أجل الاستماع إلى شيوعي متقد الحماسة»؛ أي رويز غيفارا. وطبقاً لهذه الرواية، شجع رويز غيفارا تشافيز على قراءة كتب مثل **العقد الاجتماعي** لروسو وأعمال كارل ماركس. وعلى الرّغم من أن تشافيز لم يُمتحَن بشكل كامل في الشيوعية، إلا أنه لُقِّح بها من خلال صلته برويز غيفارا. وعندما دخل الأكاديمية العسكرية في السابعة عشرة من عمره، تؤكد الرواية نفسها أنه كان يحمل تحت إبطه كتاباً واحداً فقط: **مذكرات تشي غيفارا**١.

غير أن تشافيز، في مقابلة معه في نيسان 2007، أنكر تماماً هذه الرواية التي تشير إلى أنه بطريقة ما تعلّم الشيوعية أو الماركسية منذ أن كان في الثالثة عشرة. حيث قال إنه كان يذهب إلى منزل رويز غيفارا من أجل لعب كرة القاعدة مع الأخوين أو التسكع في الشوارع، وأنه كان يلقي التحية على أبيهما بين الحين والآخر. «عندما كنت مراهقاً في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمري، لم أجلس ولو لمرة واحدة مع رويز غيفارا من أجل التحدث في السياسة، هذا غير صحيح. ولا مع أي شخص آخر». ويتابع تشافيز: «كنت صبياً عادياً... لم يكن لدي أي ميل سياسي».

أضاف تشافيز أيضاً أنه لم يدخل إلى الأكاديمية العسكرية حاملاً معه نسخة من **مذكرات تشي غيفارا**١، وأن ذلك كان جزءاً من حملة تهدف إلى تشويه سمعته. قال تشافيز ضاحكاً: «إنها كذبة. لم أكن قد قرأت بعد أي شيء له علاقة بالسياسة».

لكنه قال إن رويز غيفارا قد يكون أثّر فيه بشكل غير مباشر من الناحية السياسية في وقت مبكر من خلال بعض التعليقات العامة، أما بالنسبة للتأثير الحقيقي فقد حدث لاحقاً عندما كان في بداية العقد الثاني من عمره، بعد تخرجه من الأكاديمية العسكرية وتعيينه في باريناس. «في تلك المرحلة، بدأ الحوار مع رويز غيفارا، الذي كان مرجعاً أخلاقياً وسياسياً وإيديولوجياً عظيماً». والكثير من نقاشاتهما تركزت حول بوليفار وزامورا وميسانتا وشخصيات فنزويلية تاريخية أخرى.

وقد أيّد ابن رويز غيفارا، فلاديمير، كلام تشافيز مؤكداً أن أباه لم يحاول مطلقاً تحويلهم إلى مراهقين شيوعيين. قال فلاديمير: «لم يجلسنا أبي أبداً مثل كاهن ليعطينا دروساً في الشيوعية». منوهاً بأنه هو نفسه لم يقرأ **البيان الشيوعي** إلى أن بلغ الثالثة والعشرين، وليس الثالثة عشرة كما يزعم كتاب **هوغو تشافيز من دون الزي الرسمي**. «لم يضع أبي نصب عينيه مهمة هداية هوغو تشافيز إلى الشيوعية».

كما أن تشافيز كان لديه صديق آخر في مدرسة أوليري الثانوية يرأس حزب الشبيبة الشيوعية، لكنه لم ينضم إلى الحزب أبداً.

في الحقيقة، لم يكن ذهن تشافيز معلقاً بالثورة في تلك الفترة. بل بدروسه، والفتيات... وكرة القاعدة. كان يمضي الساعات في الليل وهو يستمع إلى المذياع عندما كان الفريقان اللدودان القديمان، لوس ليونيس وماغالانيس، يتقابلان في دوري الشتاء للمحترفين في فنزويلا، الدوري الذي كان يجتذب العديد من ألمع النجوم الفنزويليين، بالإضافة إلى لاعبين من البطولات الأميركية الكبرى. وخلال النهار، كان تشافيز يلعب كرة القاعدة مع الأصدقاء ويتمرن على الرمي بقذف الأحجار على علبة كان يضعها في حديقة روزا إنياس الخلفية، وكان يمارس أيضاً رياضة العدو، ويرفع الأثقال ويدرس تقنيات الرمي.

كان تشافيز لاعباً أعسر (يلعب باليد اليسرى) موهوباً. وكان إسياس لاتيغو (ويب) تشافيز بطله المفضل، وذلك لعدة أسباب. أولاً: لأنه كان يحمل الكنية نفسها؛ على الرّغم من أنهما لم يكونا من العائلة نفسها. ثانياً: لأنه كان يلعب في فريق هوغو المفضل، ماغالانيس. وثالثاً: لأنه كان يلعب بيده اليسرى أيضاً. ومع أن تشافيز لم يرَ بطله في منطقة الرمي أبداً، لأن التلفزيونات كانت نادرة في باريناس الريفية الفقيرة، إلا أنه كان يتخيله وهو يرمي عندما كان يستمع إلى المذياع. وبما أن هوغو نفسه كان بارعاً أيضاً في كرة القاعدة، فقد لقّبه السكان المحليون لاتيغو واليساري الذهبي.

ذات صباح من شهر آذار 1969، وكان يوم أحد، تلقى تشافيز خبراً سيئاً عن بطله المحبوب. كانت روزا تعد طعام الإفطار في المطبخ عندما قطع المذيع البرامج ليبث نبأ عاجلاً: قُتل لاتيغو تشافيز في الليلة السابقة في حادث تحطم طائرة. فأصيب تشافيز - الذي كان في الرابعة عشرة من عمره - بصدمة شديدة إلى درجة أنه لم يتمكن من الذهاب إلى المدرسة في اليومين التاليين. وفي غمرة حزنه، كتب تشافيز قصيدة بدأ بترديدها كل مساء، مقسماً بأنه سوف يصبح مثل لاتيغو تشافيز ذات يوم؛ رامياً في البطولات الكبرى.

لكن المشكلة كانت تكمن في كيفية تحقيق ذلك الهدف، إذ لا يمكن أن يكتشفه أي مستكشف للمواهب في باريناس وسابانيتا المتخلفتين. كان بحاجة للتواجد في مكان تُلعَب فيه كرة القاعدة بشكل احترافي. ولهذا السبب، مع اقتراب نهاية دراسته الثانوية، فكّر في الانضمام إلى أخيه أدان في جامعة الأنديز في ميريدا لدراسة الرياضيات والفيزياء. لكنه عندما علم أن ميريدا لم تكن تملك فريقاً لكرة القاعدة، أسقط الفكرة من رأسه على الفور.

إلى أن جاء يوم زار فيه أحد المجنّدين من الأكاديمية العسكرية مدرسة أوليري الثانوية من أجل الإدلاء بخطاب. ومع أن تشافيز لم يكن مهتماً جداً بالانضمام إلى

الجيش، إلا أن موقع الأكاديمية هو الذي أثار اهتمامه: كاراكاس، حيث يلعب فريقه ماغالانيس غالباً. فكّر حينئذ بأن يدخل إلى الأكاديمية ويقضي عاماً أو أكثر في التدريب، ثم يتركها للسعي لتحقيق هدفه الحقيقي، أو كما قال تشافيز لاحقاً: «مثل نقطة عبور... مجرد جسر».

في الفترة نفسها، جاء طالب عسكري صديق لتشافيز من بارِيناس لزيارته وحثه على الانضمام إلى الأكاديمية. «سألته إذا كانوا يلعبون كرة القاعدة فقال، أجل، ثم أضاف بأن خوسيه أنطونيو كازانوفا وهيكتور بينيتيز ريدوندو كانا يتوليان الإدارة. كازانوفا؟ بينيتيز؟ إنه مجد حقيقي، مثل الأوليمبوس، فوقّعت الأوراق على الفور». كان كازانوفا وبينيتيز ريدوندو أسطورتين في كرة القاعدة في فنزويلا، الأول كان يلعب كمدافع قبل أن يصبح مديراً لفريق كاراكاس ليونيس في دوري الشتاء في فنزويلا، في حين أن بينيتيز ريدوندو كان ضارباً للكرة خلال الأربعينيات والخمسينيات.

نجح تشافيز في اختبار الدخول الأولي الذي أُجري في الثكنة المحلية في بارِيناس، ثم تلقى تلغرافاً يأمره بالتوجه إلى كاراكاس من أجل إجراء المزيد من الاختبارات. فاستقل حافلة، وسافر إلى عاصمة الأمة الصاخبة للمرة الأولى في حياته. بالمقارنة مع بارِيناس الريفية، كان الدخول إلى كاراكاس أشبه بولوج عالم آخر. على أي حال، نجح تشافيز في ذلك الاختبار أيضاً. لكنه صادف مشكلة بعد عودته إلى بارِيناس.

بصورة عامة، كان تشافيز طالباً جيداً وقارئاً نهماً، لكنه لم يستطع أبداً إرغام نفسه على تقبُّل مادة واحدة فقط؛ إنها الكيمياء. كان يجلس في مؤخر الصف، ويسأل بضعة أسئلة، الأمر الذي جعل أستاذه مانويل فيليبي دياز يعتقد أنه كان يستوعب كل شيء. لكنه في الحقيقة، لم يكن يستوعب شيئاً. وكان الطلاب يطلقون على الأستاذ دياز اسم *Venenito* – اسم تصغير للسم – وذلك للدلالة على قسوته. بالفعل، فعندما حان وقت الامتحانات، وجاءت علامات تشافيز سيئة، لم يتردد دياز أبداً في ترسيبه في المادة.

كانت تلك مشكلة إذا أراد أحد الدخول إلى الأكاديمية العسكرية، لأن المتقدمين كانوا عادةً يُرفَضون إذا كانوا راسبين في إحدى المواد. ولكن، كان هناك استثناء وحيد: إذا كانوا يلعبون إحدى الألعاب الرياضية بشكل جيد، فبإمكانهم الانضمام إلى الأكاديمية ودراسة منهاج المادة من جديد. وهذا كان يناسب تشافيز تماماً. وهكذا، في مقابلته التالية في الأكاديمية، أرسله المدربون إلى ملعب قريب لتجربته، وهناك قالوا له: «لنرَ إذا كان بإمكانك اللعب حقاً».

اصطك فكّا تشافيز بشدة عندما مشى على أرض الملعب. كان كازانوفا وبينيتيز ريدوندو يشرفان على الاختبارات بنفسيهما. قال النجمان للشبان بأن اختبارهم الأول هو معرفة من الأسرع في ارتداء زيه. وأولئك الذين لا يرتدون زيهم بشكل مناسب

سيتـم استبعادهـم. وبمـا أن تشافيـز سبـق له ولعب في فرق منظّمة في باريناس وكان من بين الأوائل الذين يخرجون إلى الملعب، فقد نجح في هذا الاختبار.

بعد ذلك وضعه المدربون في منطقة الرمي ليروا قدرته على قذف الكرة. لكن رمياتـه كانـت طائشـة بسبـب الألـم الذي كان يحسه في ذراعـه، لأنه قام بالرمي في مبـاراة فـي باريناس قبـل بضعة أيام فقط. فسحبه المدربون من منطقة الرمي، وكان علـى بعـد خطـوة من فقدان فرصتـه للدخول إلى الأكاديمية العسكرية. لكنهم أرسلوه، لحسـن حظـه، إلـى مربـع ضـارب الكرة ليـروا ماذا يمكنه أن يصنـع، وتشافيز كان ضاربـاً بارعـاً بالمضـرب. كان فـي منطقة الرمي مراهقـاً من مدينة ماراكيبو. أرسل ذلك المراهق ثلاث كرات سريعة، أصابها تشافيز كلها بقوة جعلتها ترتطم في الجدار الخارجي للملعب.

لقد أنقذه أداؤه. وقُبل تشافيز في الأكاديمية العسكرية. ويُقال إن حسن أدائه في ضرب الكرات غيَّر مسار التاريخ الفنزويلي. لأنه لو لم يُقبَل في الأكاديمية، لربما لم يصبح رئيساً أبداً. على أي حال، بعد ارتقائه إلى سدة الحكم، أمضى أستاذه في مادة الكيمياء، دياز، سنوات وهو ينتقد نفسه، معتقداً أنه فشل كمدرس وأنه ساهم نوعاً ما فـي تحويـل مسـار حيـاة تشافيز العملية. أمـا تشافيز فغالباً ما كان يشير إلى *Venenito* بشيء من الطرافة – ولكن بنية طيبة – في التلفزيون والإذاعة الوطنيين.

فـي يـوم الأحـد الواقـع فـي 8 آب 1971، دخل تشافيز مـع 374 طالباً عسكرياً يملأهم الطموح إلى قاعدة فورت تيونا العسكرية في كاراكاس. اصطف الطلاب لإتمام مراسـم القبـول فـي ساحـة واسعـة محاطة ببناء على شكل حرف *U* مطلي بلون أبيض متلألـئ (مجـرد دخـول تشافيـز إلى تلك القاعدة حوَّلها إلـى نسخة فنزويلية عن قاعدة ويسـت بوينـت الأميركيـة). فـي ذلك الوقت، كانت الجدة روزا إنياس تجلس مرعوبة في باريناس، فهي لم تكن تعتقد أن الجيش كان المكان المناسب لهوغو، لأنها كانت تخشـى مـن أن توقعـه نزعتـه التمردية في المشاكل. ولهذا السبب، بدأت تشعل شموع الأمنيات وتتضرع لشفيع سابانيتا كي يرجعه إلى بيته سالماً.

سرعان ما بدأ تشافيز يشعر بالراحة في الجيش، وعلى الرّغم من إحساسه الفاتر حياله في البداية. فعندما وجد نفسه «في البذة الرسمية، مع بندقية، ضمن مدى إطلاق النار الحي، والتدريبات على التشكيلات المتراصة، والمسيرات العسكرية، والجري في الصباح الباكر، ودراسة العلوم العسكرية، والعلوم العامة... باختصار، لقد أحببته يا رجل. الساحة. بوليفار في الخلف... أحسست وكأنني سمكة في الماء. كأنني اكتشفت جوهر الحياة أو جزءاً من جوهرها، اكتشفت مهنتي الحقيقية».

في واحدة من مغامراته الأولى، بعد بضعة أشهر من دخوله الأكاديمية، اشترى تشافيز باقة من الورود وذهب إلى المقبرة العامة الجنوبية في كاراكاس. قرأ ذات يوم أن لاتيغـو تشافيـز دُفـن هناك. كان يرتدي بزّته الرسمية الزرقاء وقفازين بيضاوين.

سأل حفار القبور عن قبر بطله المحبوب، فأخذه إليه. خلع تشافيز قفازيه ونظّف القبر ثم أشعل شمعة. وترك الأزهار على قمة القبر.

كان كمن يكفّر عن ذنب ارتكبه. فحلمه بأن يصبح لاعب كرة قاعدة محترفاً بدأ يتحـول إلـى حلـم جديـد. «ذهبت لأنني كنـت أعاني من عقدة داخلية، مثل ديْن حملته على كاهلي منذ ذلك القسَم، تلك الصلاة... كنت أريد أن أنساه، فأنا الآن أريد أن أكـون جنديـاً... وشعـرت بالسوء من هذا العـذر... وكأنني كنت أقول، سامحني يا إسياس، فأنا لن أتبع خطاك. إنني جندي الآن».

وعندما غادر المقبرة، قال لنفسه: «لقد تحررت».

الفصل الثالث

ولادة ثائر

تصادف دخول هوغو تشافيز إلى الأكاديمية العسكرية في آب 1971، وهو في عمر السابعة عشرة، مع إعادة هيكلة جذرية للمدرسة على يد مجموعة من الضباط الوطنيين، الذين كانوا يريدون إعطاء الطلاب أساساً أكثر إنسانية واتساعاً من المنهاج التقليدي الذي كان يركز بشكل حصري على العلوم العسكرية. وأطلقوا على المنهاج اسم خطة أندرياس بيللو تيمناً باسم شاعر وفيلسوف فنزويلي عاش في القرن التاسع عشر.

هكذا، وللمرة الأولى من تاريخ المدرسة، سيتلقى الطلاب العسكريون تأهيلاً علمياً يعادل مستوى التأهيل الجامعي على أن تُقبَل شهادات دراستهم الثانوية أولاً. وسيدرسون أيضاً مواد ثقافية عامة إلى جانب التاريخ العسكري والاستراتيجيات العسكرية، فقد جلب مديرو المدرسة أساتذة مدنيين لتدريس علم الاقتصاد والعلوم السياسية وتاريخ العالم والقانون الدستوري والكيمياء والفيزياء والهندسة والطب، ومواد أخرى تتضمن دروساً تبحث في التاريخ الفنزويلي إلى جانب الواقع المعاصر. وليس هذا فقط، بل كان باستطاعة الجنود أن يتابعوا دراساتهم في جامعات مدنية ويتخرجوا منها.

للمفارقة، أصبح الطلاب الذين يخضعون للتدريب على محاربة الحركة الثورية اليسارية الآخذة بالتلاشي يقرأون **البيان الشيوعي** أيضاً. أما تشافيز فقد بحث في كل شيء من ماو إلى كلاوسفتز إلى نابوليون إلى كلاوس هيلير، وهو جنرال بروسي كتب عن الجيش بصفته أحد عوامل التغيير الاجتماعي. فيما توسَّعت دراسات بعض الطلاب إلى أبعد من المواد المعطاة في المنهاج التقليدي للطلاب الذين سبقوهم. مثل رؤول إيسياس بادويل، الذي دخل بعد تشافيز بسنة وأصبح حليفه المقرب، حيث تخصص هذا الطالب في الفلسفة الشرقية والتأمل، وانتهى به الأمر بحرق البخور في غرفته وعزف الألحان الجورجية وقراءة أعمال الفيلسوف الصيني صن تزو؛ حتى أن أصدقاءه لقَّبوه إل تاو.

لقد شكلت خطة أندرياس بيللو فاصلاً واضحاً بين الحرس القديم والجديد في الجيش الفنزويلي. إذ إن معظم الطلاب الجدد – بعكس أسلافهم – لم يدرسوا في مؤسسات مكافحة التمرد التي تديرها الولايات المتحدة، مثل مدرسة الأميركيتين (School of the Americas)، التي كانت في السابق تتمركز في باناما لكنها أصبحت اليوم في قاعدة فورت بيننغ، في جورجيا. وحتى لو دخلوا إلى هذه المدارس، فإنهم كانوا يدخلونها محصَّنين بأفكار تقدمية. كان منتقدو مدرسة الأميركيتين يدعونها مدرسة القتلة

لاشتهارها بتدريب بعض أسوأ الطغاة ومنتهكي حقوق الإنسان في أميركا اللاتينية، من أمثـال الجنـرال هوغـو بيانزيـر في بوليفيا والعديد من نخبة الجنود السلفادوريين الذين ذبحوا نحو ألف كهل وامرأة وطفل في إل موزوتي في كانون الأول 1981.

فـي الواقـع، كان الجيشـ الفنزويلـي مختلفـاً عن الكثير مـن الجيوش في البلدان الأميركية اللاتينية الأخرى، حتى قبل ظهور خطة أندرياس بيللو. حيث لم يكن هناك أي تمييـز فـي القـوات المسلحـة الفنزويلية، إذ كان باستطاعة أي شخص الوصول إلى أعلى المراتب في الجيش أو الدخول إلى الأكاديمية العسكرية رفيعة المستوى. ولم يكن ثمـة نظـام طبقـي عسكـري، كما في تشيلي والأرجنتين، حيث يهيمن أبناء النخب ذوو البشرة البيضاء في المراتب العليا والوحدات الخاصة في القوات المسلحة. ففي فنزويلا، الكثيـر مـن كبـار الضبـاط كانوا يتحدرون من عائـلات فقيرة - سواء أكانت تعيش في المدن أو الريف - وقد شهدوا بأنفسهم المصاعب التي واجهها أهلهم للحصول على لقمة العيشـ. لكـن هـذا لا يعنـي بالطبع أنهم جميعاً كانوا يتحلون «بالمناعة ضد خدع النخبة الحاكمـة الذكيـة لاستيعابهـم، تلك النخبة التي كانوا سيتعاملون معها حتماً حالما يصلون إلـى المراتـب العليـا». غير أن عدداً كبيراً من الطلاب العسكريين الجدد - مثل تشافيز وبادويـل وزميلهمـا فـي الدراسة خورخـي لويس غارسيا كارنيرو - لم ينسوا جذورهم أبـداً، علـى الرّغـم مـن أن عائلات بعضهم كانـت فقيرة إلى درجة أنها لم تكن قادرة على شراء الأحذية لهم.

ساهمت خطة أندرياس بيللو، إلى جانب الانفتاح التاريخي للجيش الفنزويلي على العلوم الاجتماعية كلّها، في إنتاج صنف جديد من الجنود مع بداية السبعينيات؛ صنف مغاير تماماً للضباط اليمينيين الذين كانوا ينفذون الانقلابات ويؤسسون أنظمة ديكتاتورية دموية في أماكن أخرى من القارة. «في تناقض حاد مع النازيين الجدد القساة الذين شكلـوا عمـاد القـوات المسلحـة في الأرجنتين وتشيلي، عاد صنف جديد من الجنود في فنزويلا إلى الثكنات بمهارات احترافية وعلاقات مدنية وحساسية اجتماعية جديدة».

لـم ينسَ تشافيـز أبـداً خطـة أندرياس بيللـو ولا الرجال الذيـن وضعوها. فمن شـدة افتتانـه بمحاضـرات الكولونيـل المساعـد خاسينتو بيريـز أركاي - كاتب ومؤرخ سـرد حكايـات كثيـرة عن زامورا والحرب الاتحادية - منحه تشافيز لدى دخوله قصر ميرافلوريس، أي بعد ثلاثة عقود ونصف (وكان متقاعداً في ذلك الحين)، مكتباً صغيراً بجوار مكتبه. كما عيَّن المدير السابق للأكاديمية، الجنرال خورخي أوسوريو غارسيا، الذي ابتكر خطة أندرياس بيللو سفيراً لبلده في كندا.

في مرحلة الطفولة والمراهقة، تلقى تشافيز في المدرسة تعليماً سطحياً عن المحرر سيمون بوليفار، الذي وصفه ذات يوم: «بدلاً من سوبرمان، كان بوليفار هو بطلي». لكـن القصـص التـي سمعهـا من أركاي وغيـره من الأساتذة فـي الأكاديمية العسكرية جعلته يتعمق أكثر في شخصية الرجل الذي حرر ست دول أميركية جنوبية من الحكم

الإسباني وتحوَّل إلى رمز في فنزويلا. هذا الرجل النحيل، الصلب، قصير القامة (165 سنتمتراً)، ذو السالفين الطويلين، الذي يرتدي زياً نابوليونياً، كان بالنسبة للفنزويليين جورج واشنطن وأبراهام لينكولن مجتمعين في شخص واحد، أو بحسب كلمات العالم السياسي دانييل هيلينغر، قديس غير متدين.

لم يكن اهتمام تشافيز بسيمون بوليفار مجرد اهتمام عابر، بل تحوَّل إلى ولع لامس حدود الهوس، حيث انكب على قراءة كل ما يتعلق بالمحرر. ففي الأكاديمية حيث كان الجرس يُقرَع بعد الساعة التاسعة مساء طالباً الهدوء من الجميع، غالباً ما كان تشافيز يتوجه إلى الصفوف الفارغة كي يتابع بحثه فيها؛ كان يُسمَح للطلاب بالبقاء فيها حتى الساعة الحادية عشرة من أجل الدراسة. وفي بعض الأحيان، كان تشافيز يبقى إلى وقت أطول من ذلك، بل إنه كان يغط في النوم أحياناً من دون أن يشعر على المقعد فوق كتاب مفتوح ويظل كذلك إلى أن يجده أحد الأشخاص.

في الحقيقة، لم يكن مفاجئاً أن يُفتَن تشافيز بالمحرر وبحياته التي حفلت بسلسلة مدهشة من الانتصارات والهزائم على الساحة العالمية.

وُلد سيمون بوليفار في واحدة من أكثر العائلات أرستقراطيةً في العالم الجديد، لكنه تيتَّم وهو صغير، وورث في عمر الواحد والعشرين إحدى أعظم الثروات في ذلك العالم، ثم بدَّدها خلال سعيه لتحقيق حلم خيالي تمثل بتحرير أميركا اللاتينية ثم توحيدها لتصبح أكبر أمة في العالم كله. نُفي بوليفار من فنزويلا مرتين وكان هدفاً للعديد من محاولات الاغتيال، لكنه قاد بعضاً من أكثر الحملات العسكرية جرأة في التاريخ. ففي إحدى الحملات، زحف بجيش جائع، منهك، مكوَّن من 2,400 رجل - كان الكثيرون منهم رعاة بقر يمشون بلا أحذية - عبر قمم جبال الأنديز المغطاة بالثلوج من أجل شن هجوم مباغت على قوات موالية للحكومة في كولومبيا.

وقد حقق بوليفار جزءاً من حلمه بتحريره فنزويلا وكولومبيا وباناما والإكوادور والبيرو والبلد الذي سُمِّي باسمه، بوليفيا. واستُقبل استقبال الأبطال في العواصم كلِّها التي دخلها حيث فُرشت الأرض التي مشى عليها بالورود تشريفاً له. ومع ذلك رفض مراراً العروض التي انهالت عليه لتنصيبه امبراطوراً. غير أن حلمه تبدد في النهاية عندما خضعت الدول التي حررها للقادة العسكريين المتنافسين في ما بينهم، وانهار الاتحاد القصير الأمد الذي عُرف باسم «*Gran Colombia*» بين فنزويلا وكولومبيا وباناما والإكوادور. بل واعتُبر خائناً في بلده فنزويلا نفسها وسخرت منه الحشود نفسها التي هللت له بجنون قبل بضع سنوات فقط، باستثناء قلة من الأصدقاء. ومات في كولومبيا في العام 1830 فقيراً منفياً وحيداً.

مع أن بوليفار اليوم مجهول تقريباً بالنسبة لمعظم الناس خارج أميركا اللاتينية، إلا أنه عملاق عظيم في فنزويلا وأجزاء أخرى من القارة اللاتينية. إذ يحفظ أولاد

المدارس أقواله غيباً ويتحدثون عنه بنبرة تفيض احتراماً وتقديساً. ويعلّق الناس صوره في غرف معيشتهم (أمر يصعب تخيل حدوثه في أميركا، بأن يعلّق الأميركيون صور جـورج واشنطـن مثـلاً). وحتـى أصغـر القرى وأبعدها لابـد أن تجد فيها تمثالاً له أو ساحـة باسمـه. وعـلاوة علـى ذلك، لم يكن الرجال قبـل الخمسينيات يعبرون ساحاته مالـم يكونـوا مرتديـن السترات وربطات العنق احترامـاً للمحرر. وما تزال الشوارع الرئيسيـة ومبانـي البلديات والمطـارات والمدارس والمستشفيـات والملاعب الرياضية والأنفـاق وحتـى السـدود تُسمَّى باسمه حتـى الآن. كما تُكتَب أقواله على الجدران في مختلف أنحاء البلد، مثل المقولة التالية التي تظهر تقريباً في المدارس الفنزويلية كلّها: المبادئ الأخلاقية والمعرفة هما أول احتياجاتنا.

لكـن، علـى الرّغـم مـن أن قلة من المؤرخين اليـوم تشكك في عبقرية بوليفار، إلا أن منتقديه يعتبرونه – بقصد السخرية – مجرد حالم متهور. كما يصفونه بأنه رجل متعجـرف وطائـش، وقاسٍ أحيانـاً، بالإضافـة إلى كونه زير نساء سيـئ السمعة، إذ كانـت النسـاء تقـف بالصفـوف خـارج منزل ريفي شهيـر كان يملكه في مدينة ليما في البيرو، متلهفات لعرض أنفسهن عليه. حتى إن أحد الضباط في فرقة الخيالة اضطر إلى مغادرة المنزل لأنه لم يستطع النوم بسبب الصرخات المنبعثة من مخدع بوليفار. وفي كل مرة كان بوليفار يدخل منتصراً بلدة جديدة كان الزعماء المحليون يختارون أجمل فتاة في البلدة ويمنحونها شرف تقديم إكليل من الزهور له. فإذا قدمت له أكثر من ذلك، لم لا؟ فهو المحرر.

وُلد بوليفار في العام 1783، وتوفي والداه وهو في التاسعة من العمر فقط؛ ماتت أمه من جراء عدوى صدرية، ربما السل، وأبوه بسبب التقدم في العمر ونمط الحياة الباذخ. عاش بوليفار لفترة قصيرة مع معلمه سيمون رودريغيز (أستاذ مدرسة لامع وغير تقليدي، وحالم أيضاً) الذي سيصبح، إلى جانب بوليفار وزامورا وميسانتا، أحد مصادر إلهام مشروع تشافيز البوليفاري لفنزويلا وأميركا اللاتينية.

كان رودريغيز – الـذي يحظـى بشهـرة أقـل مـن شهـرة بوليفـار خـارج أميركا اللاتينية – شاباً عاشقـاً للفيلسـوف الفرنسـي روسو، مع أنـه تبنى فلسفة راديكالية خاصة به. فقد أعلن رسمياً (الأمر الذي تسبب بصدمة للأباء في كاراكاس) بأن المدرسة التي يعلّـم فيهـا أولاد الأثريـاء البيضـ ينبغي أن تقبل أيضاً بالسود والملونين «*pardos*». إلا أن مناصرته للطبقة الدنيا أوقعته في مشاكل مستمرة أدت في نهاية المطاف إلى طرده مـن المدرسـة. وبعـد ذلـك، أمضـى خمـس سنوات كمعلم لبوليفار قبـل أن يهرب من كاراكاس أخيـراً فـي العام 1797 بسبـب تورطه في واحدة من طلائع ثورات الحركة الاستقلالية ضد الحكم الإسباني.

فـي عشرينيـات القـرن التاسع عشر، عاد رودريغيز إلى بوليفيا ثانية ليوقع نفسه فـي مشكلـة أخـرى، وذلـك عندما أصر على أن يُقبَل أولاد الهنود في المدارس العامة

المجانية التي كان يؤسسها. ولم يمض وقت طويل حتى وجدت السلطات عذراً لإغلاق تلك المدارس، بضغط من الآباء البيض الذين لم يكونوا يريدون أن يتلقى أولادهم تعليمهم مع الهنود.

قبل فراره من كاراكاس، نقل رودريغيز أفكاره الثورية خلال جلساته التعليمية إلى بوليفار، الذي تشرَّب دعوات أستاذه للتغيير الاجتماعي الجذري. وعندما بلغ بوليفار الخامسة عشرة من عمره (في 1799)، وبعد انتهاء سنوات تشكيل وعيه السياسي تحت جناح رودريغيز، أرسله أعمامه إلى إسبانيا. افتُتن بوليفار بالأجواء الثورية السائدة في أوروبا خلال سنواته الثلاث التي قضاها هناك. والتهم المفكر الناشئ أعمال فولتير وروسو، واطلع بشكل واسع على الآثار الكلاسيكية الإغريقية والرومانية.

ليس هذا فقط، بل وقع في الحب أيضاً. حيث التقى وهو في السابعة عشرة من عمره ابنة واحدة من العائلات الأرستقراطية البارزة في إسبانيا، وكانت تُدعى ماريا تيريزا رودريغيز أليزا، وهي أكبر منه بسنتين. وتزوج بها في نيسان 1802 ثم عادا إلى كاراكاس. وبعد ثمانية أشهر فقط من الزفاف، وبسبب عدم اعتيادها على المناخ الاستوائي، أصيبت ماريا تيريزا بالحمى الصفراء وماتت. ومن شدة حزنه على فقدان زوجته أقسم بوليفار بألا يتزوج ثانية أبداً – وبرَّ بقسمه – مكرساً نفسه لتحقيق حلمه بتوحيد أميركا الجنوبية.

بعد أشهر قليلة من وفاة ماريا تيريزا، عاد بوليفار ثانية إلى أوروبا والحزن يعتصر قلبه. أمضى عدة سنوات في فرنسا وإيطاليا والتقى بمعلمه رودريغيز هناك. وفي لقاء شهير بينهما، في آب 1805، (من المؤكد أن القصة تعرضت للإضافات نتيجة لتواترها على مر السنين) تسلَّق الاثنان منحدرات جبل أفينتينو في روما، وهناك أقسم بوليفار قَسَمه الرومانسي، معاهداً الله بأنه لن يرتاح حتى يُحرَّر وطنه. خُلِّدت كلمات بوليفار ومازالت حتى يومنا هذا محفورة في عقل الشعب الفنزويلي، حيث يتعلمها أطفال المدارس ويحفظها الجنود الذين يؤدون خدمتهم العسكرية. وتشافيز نفسه استحضرها في العام 1982 عندما كان يعمل على تنظيم مؤامرة سرية في الجيش أدت إلى ولادة الحركة البوليفارية وفي نهاية المطاف إلى ارتقائه إلى سدة الحكم:

> أقسم أمامكم، وأقسم أمام إله آبائي، بأنني لن أسمح لسلاحي بأن يرتاح، ولن أسمح لروحي بأن ترتاح، حتى أحطم الأغلال التي تقهرنا...

بعد ثلاث سنوات. وإثر جولة في الولايات المتحدة الأميركية المسرورة باستقلالها التي نالته حديثاً، عاد بوليفار إلى فنزويلا للبدء بالنضال بشكل مباشر في أميركا اللاتينية، وانغمس في الحركة الاستقلالية السرية الوليدة. وعلى الرّغم من صغر سنه، سرعان ما ارتقى بوليفار إلى موقع قيادي. وبحلول نيسان 1810، كانت الحركة

قـد أصبحـت نشطـة تماماً، وتفجرت ثـورة واسعة النطاق ضد الإسبان في كاراكاس، حيث استولى عليها زمرة من الثوار. وبعد أقل من سنة، أعلنت فنزويلا استقلالها في 5 تموز 1811، على الرّغم من أن الحرب الدموية لم تنته بعد.

عانى بوليفار الهزيمة تلو الهزيمة، بعضها لأسباب بشرية وبعضها الآخر لأسباب طبيعية. في 26 آذار 1812، ضربت هزة أرضية قوية فنزويلا، سوّت بلدات بأكملها بالأرض، ودمرت جزءاً لا بأس به من كاراكاس، ودفنت وحدات كاملة من جنود الاستقلال. ففي مدينة باركويزيميتو وحدها، ابتلع أحد الشقوق فوجاً مكوناً من 1,500 رجـل. وفـي كاراكاس، حيـث قُتل نحو عشرة آلاف رجل، كان بوليفار يساعد على إخراج الضحايا عندما مرَّ به رجل مناصر للإسبان يعرفه بوليفار وقال له إن الطبيعة وقفت إلـى جانـب الإسبـان، فرد عليه بوليفـار: «إذا كانت الطبيعة ضدنـا، فسنقاتلها ونرغمها على أن تطيعنا».

أصبـح هـذا القـول واحـداً من أشهر أقواله. واستشهد به تشافيز في كانون الأول 1999 عندما ألحقت الفيضانات والانزلاقات الطينية أضراراً بالغة بكاراكاس والساحل الكاريبي المجاور، مخلّفة خمسة عشر ألف قتيل، حسب التقديرات الرسمية، في أسوأ كارثة طبيعية شهدتها فنزويلا في القرن العشرين. وكما حدث في زمن بوليفار عندما أعلنت الكنيسة الكاثوليكية المؤيدة لإسبانيا بأن الهزة الأرضية كانت دليلاً على غضب الله علـى الثـوار، ألمـح رئيـس أساقفة كاراكاس، خوسيـه إغناسيو فيلاسكو، من منبر كنيسته بأن الفيضانات كانت عقاباً لتشافيز.

لـم يكـن بوليفـار دائماً ذلـك المحارب النبيل من أجل الحرية خلال الحرب. فقد ارتكب أعمالاً وحشية انتقامية مشابهة لما كان يقوم به الإسبان والموالون لهم، والذين كانوا يحملون شغفاً لا نظير له بالعنف. إذ كانوا يعدمون الأسرى من الجنود الوطنيين بصورة روتينية ومن دون محاكمة. بل إن أحد قادتهم المختلين عقلياً، وهو الجنرال خوسيـه توماس بوفيس، ويدعـى الجزار، أشرف شخصيـاً على ارتكاب مذابح بحق قرى بأكملها. وغالباً ما كان يتجول بين الأنقاض مع ابتسامة شريرة تعلو وجهه. ذات مرة، بعد الاستيلاء على مدينة فالنسيا، وجد جنوده فتاة في منزل قائد وطني سابق، فقيدوهـا إلـى سريرهـا المتأرجح، واغتصبوها بشكل جماعي، واقتلعوا لسانها، وقطعوا ثدييها، ثم أشعلوا النار تحت السرير. كانت هذه عادة مألوفة لدى الإسبان.

رد بوليفـار علـى الوحشيـة الإسبانيـة بعنـف انتقامي خاص بـه. حيث أعلن بعد الزلزال، خلال الحملة الرائعة (*La Campana Admirable*) حرباً حتى الموت أمر فيهـا بقتـل أي أسيـر إسبانـي المولد وحذّر المؤيدين للحكم الملكي عامةً بأنهم سيُقتلون. وفي وقت ما من العام 1814، أمر بإعدام 1,300 سجين بقطع رقابهم. وقد تسببت أفعالـه بجـو مـن العنـف الشديـد، جرَّ المزيد من الناس إلـى الصراع، ونشر الخراب والدمـار فـي أجـزاء واسعـة من البلاد. وفي نهاية الحرب، كان ثلث عدد السكان في

عـداد الأمـوات، وتقلصـت أعـداد المواشي من 4.5 مليون إلى 25,000 رأس تقريباً، وأفلست خزينة الدولة تماماً. كانت فنزويلا مسرحاً لنحو أربعمئة معركة لم يشهد مثل فظاعتها وتدميرها أي مكان آخر في القارة اللاتينية.

وبسبـب توالـي النكسـات علـى حملتـه العسكرية، نُفي بوليفار مـرة إلى جامايكا ومرتيـن إلـى هاييتـي (ومنهمـا شن عدة هجمـات فاشلة أيضاً). لكن حربه شهدت نقطة تحـول هامـة فـي العـام 1817. فبعـد عودته من هاييتي، أبحـر بوليفار حول الساحل الشرقـي لفنزويـلا متجهـاً إلـى دلتا نهر أورينوكو حيث أسـس قاعدة له في أنغوستورا (سيـوداد بوليفـار الآن). ومـن هناك اتصل مع القادة الجمهوريين في سهول لانوس، وكان أبرزهم خوسيه أنطونيو بابيز، وهو فارس أمّي مقدام. في تلك الفترة، وُصف بوليفار بأنه شخص متوحش، نصف مجنون، ذو سالفين كبيرين وشعر يصل إلى كتفيه، ويعتمـر خـوذة تنيـن روسـي. وعلى رمح من الخيزران كان يعلّق علماً مرسوماً عليه جمجمة وعظمتان متقاطعتان وشعار الحرية أو الموت.

قبـل تلـك الفتـرة، كان رعـاة الأبقـار يقاتلون إلى جانب الإسبـان، لكن بوليفار أقنع الكثيرين منهم الآن بالانضمام إلى قضية الاستقلال. كانوا قوة خيّالة غير نظامية مدمرة، أصبحت العمود الفقري لجيش بوليفار الجديد.

أمضت قواته جزءاً من السنتين التاليتين تحارب في لانوس وعدة أمكنة أخرى. لكنه غيّر استراتيجيته في العام 1819، متخلياً عن فنزويلا ومحوّلاً اهتمامه إلى كولومبيا المجاورة. فقاد بوليفار 2,400 رجل عبر غابات أورينوكو خلال موسم الأمطار وصعد بهم المسالك المتجمدة في جبال الأنديز في واحدة من أكثر الحملات جرأة واستماتة في الصـراع مـن أجـل الاستقلال في أميركا اللاتينية. مشى الجنود على علو عشرة آلاف قدم فوق ممرات ضيقة، زلقة، خطرة يغطيهم الضباب في أغلب الأحيان. مات الكثير من رعاة البقر لأنهم لم يكونوا معتادين على مثل هذا البرد القارس ولأنهم لم يكونوا ينتعلون أحذية في أقدامهم ولا يرتدون ثياباً ملائمة. ونفقت بعض الخيول والحيوانات المخصصة لحمل الأمتعة أيضاً. لكن بوليفار، الملفوف بعباءة قرمزية كبيرة، لم تكن لتثنيه عن بلوغ هدفه أي مشقة مهما عظمت؛ على الرّغم من أن بعض جنوده أرادوا الاستسلام. على أي حال، نجح المغامرون في عبور القمم الشاهقة، ونزلوا من الجهة الأخـرى، وأخـذوا الإسبـان على حين غـرة. وانتصر بوليفار بعد ذلك في سلسلة من المعـارك السريعـة تُوّجـت بنصـر كبيـر في بوياكا، حيث هزم جيشـاً إسبانياً مؤلفاً من خمسة آلاف مقاتل. وبعد ثلاثة أيام، دخل مدينة بوغوتا مظفراً.

إن السير لمسافة ألف ميل فوق حاجز جبلي يبلغ ارتفاعه 13,000 قدم ولا يقل منعـة عـن جبـال همالايـا يُعتبر من أعظم المآثر العسكرية في التاريخ. على أي حال، عاد بوليفار من الطريق نفسه الذي أتى منه، حيث تسلق مرتفعات الأنديز الشاهقة ثم أبحـر فـي نهـر أبيـور إلى نهـر أورينوكو ومن ثم إلى قاعدته أنغوستورا. وبعد ذلك،

توالـت انتصاراتـه بسرعـة أكبر. ففي حزيـران 1921، تقدم ورجاله شمالاً، وهزموا الإسبان في معركة كارابوبو الدموية، فأصبح الطريق مفتوحاً إلى كاراكاس، ودخلها بوليفار في الليل مكللاً بالنصر.

لكنه لم يتوقف طويلاً، فطموحاته كانت أكبر من ذلك بكثير. فانطلق بوليفار مجدداً ليقود حملات تحرير الإكوادور والبيرو وبوليفيا، حيث خاض مع رجاله معارك بين البراكين القريبة من كويتو في الإكوادور، وآثار الإنكا في كوزكو في البيرو، وفوق الهضاب الباردة وراء بحيرة تيتيكاكا في بوليفيا، إلى أن انتهت حملته الملحميه في العام 1824. «أصبح بإمكانه الآن أن يحكم واحدة من أكبر الإمبراطوريات التي حكمها أي قائد عسكري في التاريخ، إمبراطورية تبلغ مساحتها ثلاثة ملايين ميل مربع، تساوي حجـم أوروبـا الشرقيـة والغربيـة معاً... خلال عشر سنوات، قطع شخصياً ما لا يقل عن عشرين ألف ميل على صهوة جواده... وخاض نحو ثلاثمئة معركة ومناوشة». وكانت ظهوراته العلنية تستقطب حشوداً هائلة وترحيباً وتهليلاً يفوق أي وصف. «كان بوليفـار فـي الثانيـة والأربعيـن مـن عمره فقط، ومع ذلك، فقد كان العالم، أو القارة الأميركية على الأقل، تبدو وكأنها تحت قدميه».

لكن هذا الوضع لن يدوم طويلاً.

فبعد سنتين تقريباً، أصبح اتحاد Gran Colombia مهدداً بالتفكك بسبب النزاعات القائمـة بيـن القـادة العسكرييـن المتنافسيـن وكذلـك بسبب أسلوب بوليفـار الاستبدادي والمتردد وغير الكفوء. فقد كان راعي البقر الذي تركه بوليفار وراءه ليحكم فنزويلا، خوسيه أنطونيو بابيز، يخطط للانسحاب من الاتحاد، الأمر الذي دعا بوليفار للعودة إلـى كاراكاسـ علـى وجـه السرعة من أجل الحفاظ علـى سلامة الاتحاد، لكن الوقت كان قـد فـات. فبعـد ستـة أشهر من محاولة إعادة تنظيم الحكم، أقرت السلطات قانوناً يطالب بوليفار بعدم العودة إلى بلده الأم ثانية. فغادر إلى بوغوتا ليقابَل باللعن والشتم هناك أيضاً.

في بوغوتا، التأم شمل بوليفار ثانيةً مع مانويلا سايينز، عشيقته الجميلة القديمة. كان الاثنان قد التقيا في أثناء دخول بوليفار المظفر إلى كويتو في الإكوادور، في 16 حزيران 1822، عندما رمت له إكليلاً من الزهور من شرفتها - كما تقول القصة - فنظر بوليفار إلى الأعلى ليرى من رماها، فالتقت عيناهما للمرة الأولى. وبعد ذلك أصبحت مانويلا المرأة التي ارتبط بوليفار معها في أطول علاقة رومانسية في حياته.

ارتقـت مانويـلا (التـي كانـت تمتلـك اطلاعاً واسعـاً أيضاً علـى التاريخ والأدب الكلاسيكي) إلى مرتبة كولونيل في جيش بوليفار الثوري. ورافقته في مسيراته الطويلة مـع جنـوده، حتـى إنهـا كانت حاضرة فـي أثناء معركة أياكوتشو فـي البيرو؛ معركة كان المحـرر نفسـه غائبـاً عنهـا. كما مُنحت وسام الشمس، أعلى وسام تمنحه الحكومة البيروفيـة الجديـدة. وبصفتهـا واحـدة من أكثر أنصار بوليفـار إخلاصاً له وقرباً منه،

أصبحت مانويلا إحدى أكثر النساء نفوذاً في تاريخ أميركا اللاتينية.

بقيت مانويلا ساينز الخادمة المخلصة لبوليفار عندما وصل إلى بوغوتا باحثاً عن ملجأ آمن له. في ذلك الوقت، كانت الإشاعات التي تتحدث عن وجود خطط لاغتياله متفشية في كل مكان. بالفعل، ففي منتصف ليلة 25 أيلول 1828، دخل عشرون أو ثلاثون رجلاً من أعدائه إلى منزله الريفي وطعنوا ثلاثة من حراسه ثم اقتحموا المنزل حتى وصلوا إلى غرفة نوم المحرر.

كانت مانويلا في السرير معه عندما سمعت صوت جلبة في الخارج، فأيقظت بوليفار من نومه ثم أعطته جزمتها وساعدته على الهرب من نافذة غرفة النوم. اختبأ بوليفار تحت أحد الجسور لمدة ثلاث ساعات برفقة خادم له التقى به في أثناء فراره. وفي داخل المنزل، ضرب المتآمرون المحبطون مانويلا بشدة لأنها لم تساعدهم على إيجاد بوليفار. وبسبب تلك الشجاعة وسرعة البديهة أطلق بوليفار عليها اسم محررة المحرر.

هكذا، انهار حلم بوليفار بتوحيد أميركا اللاتينية، وتبددت ثروته. وغزت البيرو كولومبيا، وانسحبت فنزويلا والإكوادور من الاتحاد. وفوق ذلك كله، كان السل يعيث خراباً في رئتي بوليفار. وفي النهاية، قرر بأن يهجر قارته الأم ويبحث عن ملجأ له في أوروبا، لكنه لم ينجح سوى في الوصول إلى مدينة سانتا مارتا الساحلية الكولومبية الصغيرة. وفي أيامه المعذبة الأخيرة، عانى بوليفار من فترات متناوبة من الغيبوبة والصحو فقد معها حسه بالواقع، وهذا ما صوَّره الكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز بعد قرن ونصف في روايته الشهيرة **الجنرال في متاهته**.

مات بوليفار في 17 كانون الأول 1830 (في السابعة والأربعين من عمره فقط)، فقيراً، مهموماً، وحيداً إلا من قلة من الأصدقاء. وقبل موته، كتب رسالة إلى جنرال إكوادوري ضمَّن فيها توقعاً مريراً سيتردد صداه جيلاً بعد جيل في أميركا اللاتينية: «أميركا عصية على الحكم. إنهم يحرثون البحر، أولئك الذين يخدمون الثورة. الشيء الوحيد الذي يمكن فعله في أميركا هو الهجرة».

لم يكن تشافيز في تلك الليالي التي أمضاها في صفوف الأكاديمية العسكرية متشائماً بقدر بوليفار في أيامه الأخيرة. بل على العكس من ذلك، كان متفائلاً. حيث جعل من أفكار وحياة بوليفار منارة تهديه في مهمته الهادفة لإصلاح المؤسسات الفاسدة في فنزويلا وتحقيق أميركا لاتينية مستقلة وموحدة ومتحررة من الاستغلال الإمبريالي في الخارج والظلم الاجتماعي في الداخل.

درس تشافيز خطابات بوليفار ورسائله العامة، التي كانت تُعَدُّ نموذجاً للفكر السياسي التقدمي في ذلك الزمن لكنها كانت بالنسبة لتشافيز ما تزال صالحة حتى في زمنه هو. لقد رسم بوليفار في رسالته التي كتبها في العام 1815 بعنوان رسالة من جامايكا خطة حالمة لمستقبل أميركا اللاتينية، من الأرجنتين إلى المكسيك. كما حذَّر،

في مقالة كُتبت من أجل مؤتمر عُقد في أنغوستورا في العام 1819، من احتفاظ الفرد بسلطات واسعة ولمدة طويلة وطالب بإجراء انتخابات متكررة؛ على الرّغم من أن إهماله لهذه الجوانب بالذات ساهم في النهاية السيئة التي وصل إليها. وكتب أيضاً: «إن نظام الحكم الأمثل هو النظام الذي يوفر أكبر قدر ممكن من السعادة، وأكبر درجة من الأمان الاجتماعي والاستقرار السياسي».

بعد تحريره البلد الذي سُمّي باسمه، أعد بوليفار دستوراً اعتُبر الأكثر ليبرالية في العالم. حيث دعا للحرية المدنية، والمساواة أمام القانون، وحرية التعبير والحركة والصحافة، وإلغاء العبودية، وطالب بوضع شروط تضمن تطبيق القانون بشكل مناسب وبإجراء المحاكمة بواسطة هيئة من المحلفين. وفي سنواته الأخيرة، حوّل بوليفار اهتمامه وغضبه إلى الولايات المتحدة، التي كانت في ذلك الحين قد تبنت مبدأ مونرو معلنة بأن أميركا اللاتينية تمثل حديقتها الخلفية.

مع أن بوليفار مات كرجل مكروه ومحتقر، إلا أن المؤرخين أعادوا تقييم إرثه بعد عدة عقود، وأعادوا له هيبته واحترامه اللذين يستحقهما. فقد نذر بوليفار نفسه للديمقراطية والحرية والمساواة في زمن كانت الأنظمة الديكتاتورية وحكم الأقليات والظلم الاجتماعي سائدة في مختلف أنحاء أميركا اللاتينية. كان شخصاً لا نظير له في تلك المنطقة، بحسب كلمات روبرت هارفي في كتابه **المحررون** الذي كتبه في العام 2000، والذي قال فيه أيضاً:

> سيمون بوليفار أشبه بإله في أميركا اللاتينية اليوم. إنه الشخص الذي يتفق حوله الجميع، الزعيم الأوحد للقارة، الرجل الذي حرر ملايين الناس من الاستبداد من دون أن يستعبدهم هو نفسه في ما بعد. وشهرته أكبر من مرارة الانقسامات الحالية في أميركا اللاتينية؛ بين اليمين واليسار، بين أنصار الحكم العسكري والديمقراطيين، بين الأقليات الحاكمة والثائرين عليها. وحتى بين الطبقات المتعلمة والغنية، لم يعد أحد يذكر شيئاً عن راديكاليته اليوم. أما بالنسبة لمئات الملايين من الأميركيين الإسبان العاديين - الكثيرون منهم أميون - فإن بوليفار هو القائد الذي حاول التخلص من الفروقات الطبقية والعرقية، الرجل الذي حاول إعطاء الحقوق لتلك الطبقة الواسعة من البشر الذين مازالوا يعانون من الاضطهاد والحرمان...
>
> كجندي ورجل دولة ورجل من عامة الشعب، يشمخ بوليفار بقامته الباسقة فوق أي شخص آخر أنجبته القارة الأميركية، ويُعتبر واحداً من أعظم الرجال في التاريخ البشري. لا عجب أنه ما يزال يمثل رمزاً للأمل بالنسبة لملايين الأميركيين اللاتينيين الذين يسعون للتحرر من الفقر والجهل والمرض.

من وجهة نظر تشافيز، لقد رسم بوليفار الخطوط العامة لمشروع قومي رائع لأميركا اللاتينية، تلقفه زامورا بعد موته بربع قرن، وسيرثه تشافيز نفسه - حسب ظنه على الأقل - في أواخر القرن العشرين.

نقّب تشافيز عميقاً في حياة بوليفار إلى درجة أنه مع الوقت بدا وكأنه أصبح سيمون بوليفار آخر. حيث ذكرت ميلاغروس فلوريس دي رييز، وهي صديقة مقربة من تشافيز وزوجة أحد حلفائه العسكريين، لويس رييز رييز: «عندما يبدأ الحديث عن بوليفار، يبدو لك وكأن المحرر موجود بداخله. يشعر المرء وكأنه عاش في تلك الأمكنة، وكأنه كان قادراً على رؤية ما رآه بوليفار. إنه يخبرك عن الأشجار والحيوانات التي رافقته والأشياء الموجودة حوله. لقد قلت له ذات يوم، إنك تتقمصه، فابتسم وقال، احذري، يا سيدتي، مما تقولين».

عندما كان تشافيز يحاول أخذ دور بوليفار، كان الفنزويليون قد نسوا الكثير من أفكاره الثورية، إذ عملت النخبة الحاكمة على مر العقود على تخفيف حدتها خوفاً من حدوث تمرد ضمن الجماهير، فالظلم الاجتماعي الذي كان منتشراً في البلد قبل الاستقلال لا يزال على حاله. وبحسب كلمات علي بريميرا، أشهر المغنين المحتجين في الستينيات، كان بوليفار قد أصبح مجرد قديس يشعل له المرء شمعة. وفي أغنيته الكلاسيكية أغنية بوليفارية، يجري صبي محادثة تخيلية مع بوليفار - سُميت العملة الوطنية باسمه - ويخبره بأن الفنزويليين لم يتحرروا بشكل كامل بعد:

الصبي: والأسوأ هو أن شعبي الآن من دون بوليفار.

بوليفار: إنهم من دون مال؟

الصبي: من دون عقل، أيها المحرر، من دون عقل. لقد خُدع الناس وصدقوا البرجوازيين الأغنياء الذين يذهبون إلى الضريح الوطني ليضعوا الأزهار في ذكرى وفاتك السنوية.

بوليفار: لماذا يذهبون إذن، أيها الوطني الصغير؟

الصبي: ليتأكدوا من أنك ما تزال ميتاً أيها المحرر، ميتاً فعلاً.

وستصبح مهمة تشافيز هي أن يتأكد من أن المحرر حي فعلاً.

في الحقيقة، لم يولد شغف تشافيز بتحويل فنزويلا من مجرد قراءة الكتب التي تتحدث عن بوليفار، بل حفزته أيضاً زياراته إلى الأحياء الفقيرة في كاراكاس، حيث كانت مياه المجاري تجري في الشوارع في بعض الأحياء، وحيث كان الناس يعيشون في أكواخ صفيحية مكدسة بشكل عشوائي بعضها فوق بعض على منحدرات التلال. في الأكاديمية، كان الضباط يطلبون من الطلاب التوجه إلى الجزء الشرقي الأكثر غنى من المدينة وتجنب ركوب الحافلات العامة التي يستخدمها عامة الشعب، لكن بوليفار تجاهل

التعليمات، وأمضى أيام السبت في زيارة صديق لوالده في كاتيا. كان يرتدي بزّته الرسمية الكاملة وقفازيه البيضاوين، الأمر الذي أثار دهشة الكثيرين من المقيمين هناك.

بـدأ تشافيـز حينئـذ برؤية حقيقة عالم أكواخ الصفيح، وازداد حبه لسماع أغنيات علي بريميرا. ذات يوم، زار تشافيز عائلة تقيم في حي برادوس ديل إيست الثري، وعندمـا غـادر المنـزل اضطـر للمشي لعدة أميـال للوصول إلى بيته لأنه لم يكن يملك المـال الكافـي لركـوب سيـارة أجرة، ولأن العائلة لم تعرض توصيله إلى البيت. لكنه لـم يصـادف هـذه المشكلـة أبداً في الأحياء الفقيـرة. وفي هذا الخصوص يقول تشافيز: «بيـن الفقـراء هنـاك الكثيـر من الحب والكثير من التضامن. إنهم يتشاركون الخبز في ما بينهم. أما بين الأغنياء، فهناك البرود».

منـذ سنواتـه الأولـى فـي الأكاديمية، كان تشافيـز يحلم بأن يخلف بوليفار ويأخذ دوره كمخلـص لفنزويـلا. حيـث كتـب فـي مفكرته الشخصية، فـي 13 آذار 1974، بعـد سيـره فـي موكب احتفالي على شـرف الرئيس الجديد، كارلوس أندرياس بيريز: «بعد انتظار طويل، وصل الرئيس... عندما أنظر إليه، آمل بأنني ذات يوم سأحمل مسؤولية البلد بأكمله، بلد بوليفار العظيم».

كما أبدى دلالات أخرى تشير إلى أنه كان يملك هدفاً ينوي تحقيقه. ففي أيلول من ذلك العام نفسه، وخلال أحد التدريبات العملية في الميدان، كتب تشافيز معبراً عن أسفه كيف يضيّع الشبان الآخرون من نفس عمره أيامهم في المراقص: «لو عرفوا بما نفعلـه لربمـا قالـوا إننـا مجانين. لكنني لست مجنوناً. أنا أعرف جيداً ما أتطلع إليه وما أقوم به ولماذا أضحي بنفسي. أتذكر في هذه اللحظات فكرة من أفكار تشي: الحاضر هو النضال، لكن المستقبل لنا».

فـي تلـك الفتـرة، أصبـح واضحاً أنه بات يملك حساسية اجتماعية عالية ناتجة عن طفولتـه الفقيـرة فـي سابانيتـا ومـا استمر فـي رؤيته في كل مكان حولـه. ففي مفكرة أخـرى، كتـب تشافيـز: «مررنـا بقرب المنزل الذي شربنا فيـه القهوة الليلة الماضية. خرجت المرأة، ومعها ولدان الآن، ولوّحوا بأيديهم لتوديعنا. رأيت التعاسة مرتسمة علـى وجهـي الطفليـن. كان بطناهما منتفخين، مـن المؤكد أنهما كانا مليئين بالطفيليات مـن جـراء أكل الكثيـر مـن القـذارة. وكانا حافيين وعاريين. مـع منظر كهذا، أشعر بالدم يغلي في عروقي فأقنع نفسي بضرورة القيام بشيء ما، مهما كان هذا الشيء، من أجل أولئك الناس».

عندما كان تشافيز يشهد المزيد والمزيد من الفقر المتفشي في فنزويلا ويغمس نفسه أكثر فأكثر في حياة بوليفار، كانت هنالك محاولات لتحرير أميركا اللاتينية تجري في بعض البلدان الأخرى، وكانت البيرو واحدة منها. تحوَّل تشافيز في تلك الأثناء إلى خبير واعد في حياة بوليفار، وغالباً ما كان يُطلَب منه التحدث إلى زملائه الطلبة حول

بطله المحبوب. كما أصبح واحداً من مجموعة عُرفت بشكل رسمي بالبوليفاريين بسبب عشقهم للمحرر. حتى إنهم سموا صفهم باسم بوليفار، أول صف يُمنَح هذا الشرف منذ عقود. وفي أواخر 1974، وكانت سنته الأخيرة في الأكاديمية، اختار المسؤولون تشافيز مع اثني عشر طالباً آخر للذهاب إلى البيرو من أجل حضور مناسبة خاصة: الذكرى المئة والخمسين لمعركة أياكوتشو، التي شهدتها مانويلا سايينز.

حالما أُعلم تشافيز باختياره من أجل الرحلة، ذهب على الفور إلى مكتبة الأكاديمية لدراسة ما كان يحدث في البيرو. وما اكتشفه هناك أثار اهتمامه فعلاً.

كان هناك جنرال عسكري وطني يُدعى خوان فيلاسكو ألفارادو يقود ثورة أُطلق عليها اسم خطة إنكا (سيكررها تشافيز وحلفاؤه بعد عقدين ونصف). قادت مجموعة من الضباط البيروفيين التقدميين الغاضبين من الفساد المتفشي وحالة بلدهم المتردية، انقلاباً عسكرياً في العام 1968 وأطاحوا بزعيمها المدني فرناندو بيلوندي تيري. وكان الضباط يشعرون بالاستياء والريبة تجاه الحزب السياسي الرئيسي في البلاد (*APRA*) الذي يقوده الرئيس فرناندو.

ولأنهم قاتلوا مراراً العصابات الثائرة في المناطق الريفية في البيرو، كانوا أيضاً يعرفون حالة الفقر المدقع في تلك المناطق. وعلى الرّغم من أن فيلاسكو ساعد في سحق التمرد المسلح في الستينيات، إلا أنه تبنى الكثير من برنامج المتمردين السياسي عندما وصل إلى سدة الحكم. حيث أمم شركات النفط الأجنبية، واستولى على مزارع السكر الشاسعة، وجعل من الكويتشوا\اللغة التي كان يتحدث بها السكان الأصليون الفقراء في هضاب الأنديز، لغة رسمية في البلد. كما استولى على الصحف المحافظة، وشجع العمال على المشاركة في إدارة المصانع الحكومية. والأهم من ذلك كله، أعاد تأسيس العلاقات الدبلوماسية مع كوبا، وارتبط في تجارة متبادلة مع الاتحاد السوفييتي، الأمر الذي أثار سخط الولايات المتحدة.

وصل تشافيز إلى أرض ثورة فيلاسكو وغمس نفسه في البيئة الثورية للبلد. وهناك قابل طلاباً عسكريين من البيرو وتشيلي وكولومبيا وباناما وبلدان أخرى، وسأل كل من التقاه عن التجربة البيروفية. وزار منازل الطلاب العسكريين البيروفيين، وذهب إلى الحفلات، والتقى بالفتيات المحليات. كما شاهد الظروف البائسة للسكان المحليين عندما سافر إلى أياكوتشو.

قبل نهاية الرحلة، قابل تشافيز والطلاب الفنزويليين الآخرين فيلاسكو نفسه في استقبال أعد لهم في القصر الحكومي. أعطى فيلاسكو الطلاب كتابين، أحدهما كان بعنوان **بيان الحكومة الثورية للقوات المسلحة في البيرو**، والآخر كان كتيباً أزرق صغيراً يحوي خطب فيلاسكو بعنوان **الثورة الوطنية البيروفية**. وقد ترك هذا اللقاء أثره في نفس تشافيز، حيث قال عنه: «بعد الاستماع إلى فيلاسكو، قمت بالتهام الكتابين، حتى إنني حفظت بعض الخطب بشكل كامل تقريباً». احتفظ تشافيز بالكتيب

الأزرق لسنوات طويلة، قبل أن تصادره السلطات أخيراً إلى جانب كتب أخرى إثر قيامه بمحاولته الانقلابية بعد سبعة عشر عاماً.

بعد سنتين من زيارة تشافيز البيرو، انهارت تجربة فيلاسكو الوطنية، بسبب افتقادها للدعم الشعبي، والمال أيضاً. في الحقيقة، ارتكب فيلاسكو خطأين حاسمين. أولاً: كانت حكومته مؤلفة بالكامل من الضباط العسكريين، من دون أي وجود للمدنيين فيها. ثانياً: لم تصل إصلاحاته أبداً إلى ما وراء المستفيدين المباشرين منها. وهذان الدرسان لم يغفل عنهما تشافيز. على أي حال، على الرّغم من أن نظام فيلاسكو اليساري تعرض للانتقاد من قبل كثير من الصحفيين والباحثين، إلا أنه قدم لتشافيز أول فرصة للاطلاع بشكل مباشر على نظام عسكري إصلاحي، مع أنه كان يختلف بشكل جوهري عن المشروع الذي سعى لتحقيقه هو نفسه في النهاية. وبالطبع، لم يغب عن انتباه تشافيز أيضاً أن البيرو كانت بلداً يقدّر بوليفار تقديراً عالياً جداً.

لكن البيرو لم تكن البلد الوحيد في أميركا اللاتينية الذي شهد انقلاباً على نظام الحكم فيه من قبل بعض الضباط العسكريين التقدميين، إذ كانت هناك تجربة مماثلة تجري في باناما، حيث استولى الجنرال عمر توريجوس على السلطة فيها في العام 1986. وشاءت الصدف أن يدرس تشافيز مع أحد أبناء توريجوس في الأكاديمية العسكرية في كاراكاس، لأن باناما لم يكن فيها مدرسة عسكرية ذات مستوى جامعي. لعب الاثنان كرة القاعدة، وأصبحا صديقين في الملعب وخارجه. ولأنه كان مهتماً بالتجربة الوطنية في باناما، طلب تشافيز منه أن يجلب معه كتباً عن والده، فلبى الشاب الطلب، وجلب معه أيضاً صوراً تظهر الجنرال وهو يخطب أمام مجموعة من الفلاحين. وقبل تخرجه من الأكاديمية، زار تشافيز باناما، وقابل توريجوس، واطلع بنفسه على سير الثورة فيها.

أطلق توريجوس ثورته لأسباب مشابهة لتلك التي دفعت الضباط العسكريين في البيرو، وكذلك تشافيز نفسه، بعد سنوات عديدة. كان توريجوس مستاءً من فساد النخبة السياسية ومن الفجوة الواسعة في الدخل بين الطبقة العليا الصغيرة وجماهير الفقراء الواسعة. وكان منزعجاً من دور الجيش القمعي في الحفاظ على النظام ومن تحكّم الولايات المتحدة في باناما. كان الأميركيون لا يزالون يسيطرون على قناة باناما منذ العام 1903، عندما صادروا مساحة واسعة من باناما من أجل بنائها، وليس هذا فقط بل قضموا لاحقاً قطعاً كبيرة من الأراضي البانامية وحوّلوها إلى قواعد عسكرية أميركية.

في مقابلة أُجريت معه في العام 1975، شرح توريجوس سبب قيامه بالانقلاب الذي أوصله إلى سدة الحكم. من بينها تحوُّل الحرس الوطني البانامي إلى عبيد مأجورين للأقلية الحاكمة:

كانت مهمتنا تتمثل بالحفاظ على الوضع الراهن، إما بالدم، أو

بالانتشار العسكري في الوقت المناسب، أو بالانقلاب. لقد أُرغمت على المشاركة في ممارسات قمعية إلى أن سئمت من ذلك القمع الزائد عن الحد. ونتيجة لذلك، قرر الحرس الوطني التمرد وانتزاع استقلال البلد. والأهم من ذلك كله، كنا نريد حل مشكلة القناة، التي كانت مثل الدين بالنسبة للباناميين.

بقينا حراساً للطبقة الحاكمة إلى أن بلغت أخطاء السياسيين حداً لم يعد بالإمكان تصحيحها. فقرر جيل من الضباط الشبان، من خريجي المدرسة العسكرية البانامية، ليس فقط أن ينظموا انقلاباً عسكرياً، بل وأن يتخلصوا أيضاً من النظام الديمقراطي الشكلي كله في البلد. لقد اعتاد الناس على الخلط بين السياسة وبين أنشطتهم الاقتصادية، حيث كانوا يستخدمون حريتهم الديمقراطية تقريباً بالطريقة نفسها التي تستخدم فيها النساء مساحيق التجميل.

عندما أصبح قائداً لباناما، طبَّق توريجوس برنامج إصلاح زراعي محاولاً تقديم المساعدة للفلاحين. كما أخذ تعهداً من الرئيس جيمي كارتر في العام 1979 بتسليم السلطة على القناة إلى الباناميين بعد عقدين من ذلك التاريخ. لكنه لم يعش ليشهد تحقيق أعظم إنجازاته، فقد قُتل في حادث تحطم طائرة في العام 1981، بعد ثلاثة عشر عاماً من وصوله إلى الحكم.

لكن برنامجه الإصلاحي الراديكالي، إلى جانب المشروع الإصلاحي في البيرو، شكلا أنموذجاً مغرياً لتشافيز الشاب. كان توريجوس وفيلاسكو ضابطين عسكريين تقدميين استخدما سلطتيهما في محاولة رفع المستوى المعيشي لبلدهما واستعادة السيادة من الولايات المتحدة ومكافحة الفقر الذي يعاني منه شعباهما. وعن هاتين التجربتين، قال تشافيز للمراسل التلفزيوني أغوستين بلانكو ميونوز في العام 1995: «بدأ المرء يشهد في تلك الفترة بأنه لم يكن مقدَّراً للرجال العسكريين أن يذبحوا الناس ويقوموا بانقلابات عسكرية دموية ويسلبوا حقوق الشعب، بل كان باستطاعتهم خدمة الناس».

بيد أن توريجوس وفيلاسكو كانا النقيض القطبي لقادة عسكريين آخرين استولوا أيضاً على السلطة في أميركا اللاتينية عندما كان تشافيز في الأكاديمية العسكرية. ففي 11 أيلول 1973، أطاح الجنرال أوغوستو بينوشيه - بمساعدة الولايات المتحدة والسي آي أيه - بالرئيس سلفادور أليندي، أول رئيس ماركسي منتخب ديمقراطياً في دولة من النصف الغربي من الكرة الأرضية. أسس بينوشيه نظاماً قام بإخفاء ما لا يقل عن 3,000 شخص وقبض على السلطة بيد من حديد لمدة سبعة عشر عاماً. وفي الأرجنتين المجاورة، أسقط الجنرال خورخي فيديلا في 1976 حكومة ماريا إستيلا،

أرملة خوان بيرون، ونصَّب حكومة أخفت بدورها ما لا يقل عن 30,000 شخص. قام الجنود ببساطة بتخدير بعض الضحايا ووضعوهم في طائرات عسكرية ثم رموا بهم في البحر.

عندما حدث الانقلاب ضد أليندي، كان تشافيز يتدرب في الجبال. وفي أثناء استماعه إلى المذياع، سمع صوت فيدل كاسترو يندد بالانقلاب. قال تشافيز في ما بعد عن تعليق كاسترو: «لقد سجلنا جملة لن ننساها قط. لو أن كل عامل، كل شغّيل، كان يملك بندقية في يديه، لما حدث الانقلاب الفاشي في تشيلي. تلك الكلمات تركت أثراً بالغاً في نفوسنا. لقد أصبحت مثلاً، نوعاً من كلمة سر لم يكن يعرفها غيرنا». بعد ذلك، عندما كان يتقابل مع بعض حلفائه السريين في الجيش، غالباً ما كان أحدهم يبدأ بالقول «لو أن كل عامل، كل شغّيل...» فينهي الآخر الجملة.

إن الاضطرابات العسكرية التي اجتاحت أميركا اللاتينية في أواخر الستينيات وبداية السبعينيات جعلت تشافيز يميز بوضوح بين الرجال العسكريين الذين تمردوا من أجل تحرير شعوبهم وبين أولئك الذي قاموا بانقلابات من أجل قمعهم. «لدينا نحن العسكريون أنموذج بينوشيه، الذي نرفضه بالطبع. لأنه كان يمثل رجال الجيش الذين يقتلون الناس ويدمرون ويقطعون الرؤوس، في حين أن أولئك الرجال العسكريين البيروفيين كانوا يمثلون شيئاً مختلفاً كلياً، كانوا يمثلون الناس. وعلى الرّغم من أن تلك التجربة فشلت في نهاية المطاف، لسوء الحظ، ربما بسبب فقدان الوضوح الاستراتيجي، إلا أنهم على الأقل كانوا يتحدثون ويتصرفون بشكل مختلف».

مع اقتراب يوم التخرج من الأكاديمية العسكرية في تموز 1975، لم يكن تشافيز يفكر في القيام بانقلاب في فنزويلا، لكنه ببساطة كان يشعر بالقلق مما يراه حوله؛ أرض غنية بالنفط مع ملايين الفقراء وطبقة سياسية فاسدة حاكمة. كان عقله مليئاً بأفكار بوليفار والثوار الآخرين، وكانت روحه تشتعل بغضب متعاظم من النخب الثرية وقلبه يحترق من الأسى تجاه الطبقات الدنيا. صحيح أنه تعلّم في الأكاديمية كيف يحارب عصابات المتمردين، لكنه الآن بات يتساءل في نفسه ما إذا كانوا هم العدو الحقيقي.

«لقد درسنا تكتيكات مكافحة المتمردين، لكنني كنت قد بدأت أعيد التفكير في كل شيء»، قال تشافيز عن تلك المرحلة، ثم أضاف:

> أعتقد بأنني اتجهت نحو الحركة الثورية لحظة مغادرتي الأكاديمية... إن هوغو تشافيز الذي دخل إلى الأكاديمية كان فتى من الهضاب وواحداً من سكان السهول يطمح بلعب كرة القاعدة بشكل محترف. وبعد أربع سنوات، خرج منها برتبة ملازم ثان، وسلك طريق الثورة. شخص لم يكن يملك التزامات نحو أي شخص آخر، ولم يكن ينتمي إلى أي حركة، ولم يكن منتسباً بعد إلى أي حزب، لكنه كان يعرف جيداً إلى أين كان يمضي.

الفصل الرابع

اختبار المياه

ظـن تشافيـز بأنــه كان محظوظـاً عندما تلقى أول مهمة له خارج الأكاديمية. في تمـوز 1975، تخـرَّج فـي المرتبـة السابعـة في صفه المؤلـف من 67 طالباً نجحوا في اجتياز البرنامج القاسي. في حين فشل معظم الصف الأصلي المكون من 375 طالباً. عـاد إلـى ولايـة بارينـاس التـي وُلد فيها بعد أن عُيِّن ضابـط اتصالات في واحدة من وحـدات مكافحـة التمـرد الثـلاث عشرة التـي أسست في الستينيـات، العقد العنيف كما يُعرَف في فنزويلا. ولكن، مع وصوله في العام 1975، لم يكن قد بقي من المتمردين إلا القليـل القليـل ليحاربوهـم، ولهـذا السبب، فقد كان لديه الكثير من الوقت ليخصصه لمهمات من نوع آخر.

في أول راتب يقبضه، دلَّل تشافيز نفسه جيداً وأنفقَ المال بإسراف كما استأجر غرفـة فـي فنـدق بالقـرب من بلازا فنزويلا في بارينـاس. وبعد ذلك، اشترى ثلاجة ومروحة وسريراً ومذياعاً كبيراً وبعض الأثاث لجدته روزا إنياس، التي أحست بسعادة غامرة لما جلبه من هدايا، وإنما ليس لحياته الجديدة كجندي.

مع أنه كان سعيداً بالعودة إلى موطنه، إلا أنه لم يُقابَل بأذرع مفتوحة من قبل الجميع. فقد كان تشافيز أول خرِّيج لخطة أندرياس بيللو من الأكاديمية العسكرية يُعيَّن فـي كتيبـة مانويـل سيدينو هانترز (الصيادين) في باريناس، لم يستلطف بعض الضباط القدامى فتى الكلية الجديد تشافيز. كما حصل مع نقيب رفض أن يدعو تشافيز بالملازم بـل دعـاه بنبـرة ساخـرة *licenciado* (أي خريج الكلية)، فرفض تشافيز أن يرد عليه حتى ناداه برتبته العسكرية. وهكذا بدأت مشاكل تشافيز المتمرد منذ الأيام الأولى التي تلت تخرجه من الأكاديمية.

غمس تشافيز نفسه في الجيش وبدأ يحبه فعلاً، لكنه لم يتخلَّ عن شغفه بالرياضة. حيث ظل يلعب كرة القاعدة باستمرار. وكان هذا شيئاً آخر لم يحبه النقيب في تشافيز، الـذي يتذكـر تلـك المرحلـة جيداً: «قال لي، هـل أنت جندي أم لاعب كرة قاعدة؟ لم أستطـع إقناعـه بـأن المـرء يمكنه القيام بالأمرين معـاً في الوقت نفسه، فطلب مني أن أكرس نفسي لممارسة الرياضة مع الجنود. هذا ما أفعله أيها النقيب. كان فريق الجنود جيداً، لكنني كنت أريد أن ألعب في بطولة منظمة».

ذات يوم اتصل مدير فريق باريناس الذي كان يلعب في إحدى البطولات الوطنية ودعـاه للعـب فـي عطلـة نهايـة الأسبوع ضد فريق من كاراكاس سيأتي إلى المدينة.

وكانـت مبـاراة مهمـة جـداً، فالفريـق كان سيدشن ملعباً جديـداً سيُستخدم في مباريات البطولة الوطنية في وقت لاحق من تلك السنة. والأهم من ذلك هو أن مدير الفريق كان بحاجـة لـرام أعسـر. وبمـا أن تشافيـز لم يكن متأكداً مـن أن رؤساءه سيمنحونه الإذن للعب تلك المباراة، ذهب من دون أن يخبر أحداً منهم.

فـي الجولـة الأولـى لـه على المضرب، أصاب تشافيز الكرة بضربة قوية، وفي ضربته الثانية، قذف الرامي كرة ملتوية فأصابها تشافيز وأخرجها من الملعب، وكانت أول ركضة في الملعب الجديد. انفجرت الحشود بالتصفيق والهتاف. وكذلك فعل جنود تشافيـز فـي الثكنـة، لأن راديـو باريناس - وهـذا ما لم يكن يعلمـه تشافيز - كان ينقل المبـاراة مباشـرة علـى الهـواء وجنوده كانـوا يستمعون إليها. حتـى إن المذيع عرَّف تشافيـز علـى أنـه مـلازم ثانٍ في الكتيبـة المحلية. كانت الساعة قـد تجاوزت التاسعة مساء، والثكنة في ذلك التوقيت يُفترَض أن تكون هادئة.

أيقـظ الصخـب النقيـب، فنـزل غاضباً إلى المهجع ليرى ماذا كان يجري. صاح النقيـب مزمجـراً: «أشعلـوا الأنـوار، ما الـذي يحدث هنا؟». فأجابـه الجنود: «سيدي النقيـب، إننـا فرحـون لأن قائدنا تشافيز حقـق ضربة ركضة». ماذا؟ تشافيز فرياس؟ كان يُفترَض بالملازم الثاني أن يكون في الثكنة، لا أن يلعب كرة القاعدة.

حـاول النقيـب فـي اليـوم التالي أن يحتجز تشافيز لانتهاكـه الأوامر. فأخذه إلى مكتـب القائـد، وهنـاك حـاول تشافيز أن يخلص نفسه من تلك الورطة، قائلاً: «سيدي القائد، يوجد في هذه الكتيبة نحو عشرة ملازمين من رتبتي. إذا ذهبت في الليل إلى غوايانيسا - مـكان شهيـر للبغـاء فـي باريناس - فستجدهم هنـاك مع النساء وزجاجة من الشراب. أو إذا ذهبت إلى النادي العسكري، فسيكونون هناك برفقة صديقاتهم يرقصون ويشربون. وفي المقابل، أنا أحب الرياضة. لا يمكنني أن أفهم لماذا سيضعونني في السجن لأنني لعبت كرة القاعدة، ولأنني رفعت اسم الكتيبة التي تقودها عالياً».

كان القائد يصغي إليه بانتباه. على الرّغم من أن تشافيز كان ما يزال في أوائل العقد الثاني من عمره، إلا أنه كان يتمتع بشخصية ساحرة وقدرة على الإقناع. «ألا تعتقـد بأنـه مـن الأفضـل لـي أن أنغمس في كرة القاعدة بـدلاً من الانغماس في النساء والشراب؟». وجد القائد كلام تشافيز معقولاً، فقال له: «أنت محق. أنا أمنحك الإذن باللعب».

استمـر تشافيـز باللعـب، حيـث كان يُشاهَـد عدة مرات فـي الأسبوع خارجاً من الثكنة في سيارة فولكسفاغن قديمة متوجهاً إلى ملعب الكرة، وهناك يدخل إلى المكان المخصـص للاعبيـن ليخلـع زيه العسكـري ويرتدي زي كرة القاعدة. بل إنه استطاع أن ينشر شغفه بالرياضة في الكتيبة كلها. وبعيداً عن الرياضة، غالباً ما كانت وحدته تسافر إلى المنطقة الحدودية مع كولومبيا، الشبيهة بالغرب الأميركي، من أجل اصطياد

ما بقـي مـن المتمرديـن. لكن حركة التمرد كانت قد خفَّت إلى درجة كبيرة بعد تولي رافائيـل كالديـرا الرئاسـة فـي العام 1969 ومنحه العفو لكل متمرد راغب بالتخلي عن الصـراع المسلـح. ومعظمهـم فعلـوا ذلك في الحقيقة. وخـلال رحلاتهم إلى الحدود، كان تشافيز، بصفته الضابط المسؤول عن الاتصالات، يبقى في معظم الأحيان برفقة قائد الكتيبة أو أكبر مساعديه في غرفة القيادة، الأمر الذي ساعده على تطوير علاقة جيدة مع قائده.

ذات يوم طلب القائد من تشافيز أن ينظم برنامجاً رياضياً للكتيبة. فاتصل بصديق لـه كان يرأس المعاهـد الرياضيـة الوطنية في بارينـاس، وجنَّد مدربين للإشراف على تدريب الجنود مجاناً؛ وصف تشافيز ذلك لاحقاً بأن ذلك البرنامج كان يمثل نواة فكرة المؤسسات الاجتماعية التي أطلقها في مئات الأحياء الفقيرة عندما أصبح رئيساً.

نجـح البرنامـج نجاحـاً باهراً. حيـث حقق جنود كتيبة سيدينو بطولة الكتائب لمدة عامين متواصلين في كرة القاعدة والقدم واليد والسلة وألعاب القوى. كما حوَّل تشافيز الأرض الخالية من الأشجار حيث كان يلعب الجنود كرة القاعدة إلى معيَّن أنيق بالحجم الرسمـي. وحصـل علـى الرمـل الأبيض والأحمر مجاناً وعلـى شاحنة لنقله أيضاً. ثم قطع الرجال مستطيلات من العشب من أجل مسالك القاعدة، وأنشأوا أمكنة مخصصة للاعبيـن وغرفـاً لتبديـل الملابـس وسياجاً من الأوتـاد. في ما بعد قال تشافيز: «عندما انتهينا، رأينا ملعباً رائعاً، وأقمنا احتفالاً لافتتاحه بدا مثل مهرجان». كان تشافيز يعتقد بأنه ثاني أفضل ملعب في باريناس، بعد الملعب الذي لعب فيه في الدوري المحلي. وفي بعض الأحيان، كان الجنود يدعون الناس لمشاهدتهم وهم يلعبون.

إلى جانب ذلك، عهد القادة إلى الملازم الثاني الشاب المفعم بالنشاط مهمة تجنيد الشبان للأكاديمية العسكرية. حيث كان تشافيز يقوم بزيارات منتظمة للمدارس الثانوية في ولاية باريناس المترامية الأطراف - كانت عشر مدارس في تلك الآونة - ويتحدث إلـى طـلاب المرحلـة النهائيـة ويحثهم على التقدم بطلبات القبـول إلى الأكاديمية. ولم يكتف بذلك بل أخذ حملته التجنيدية إلى موجات البث الإذاعي، حيث كان يتوجه إلى راديـو باريناسـ مـن أجـل بث دعايته الخاصة. وعلى الرّغم من أن القادة العسكريين فـي كاراكاسـ أعطـوه والمجنَّديـن الآخرين كتيِّباً إرشادياً للقـراءة منه، إلا أن تشافيز كان يدسـ تعليقـات خاصـة بـه: «لم أخبرهم أبداً بأنهم سينالون راتباً عالياً، بل حدثتهم عـن بوليفـار وعمـا قاله [بطل الاستقـلال الكوبي خوسيه] مارتي عنه». كما بدأ بكتابة ذلك القول على جدران الثكنة، وساعده في ذلك بعض الجنود الذين أعطاهم دروساً في الرسم.

كمـا حصـل تشافيـز علـى إذن لكتابـة عمـود أسبوعـي في الصحيفـة المحلية *El Espacio* - أي الفضاء - كتب فيه عن التاريخ وكذلك عن أنشطة وحدته (كل شيء، من ممارسة الألعاب الرياضية إلى تربية الأرانب والاهتمام ببستان من الفاكهة الاستوائية).

وكتـب أيضـاً عـن فكـرة الوحدة العسكرية-المدنية التـي سيعمل على تحقيقها بعد تربعه علـى سـدة الحكـم. وبالإضافـة إلـى كتابة العمود الأسبوعـي، كان تشافيز يجد الوقت للمشاركـة فـي تنظيـم احتفالات انتخاب ملكات الجمال المحلية. باختصار، كانت طاقته بلا حدود.

علـى الرّغـم مـن أن وحدة تشافيز كانت مخصصة لمكافحة العصابات المتمردة، إلا أنـه لـم يصـادف أيـاً منها فـي باريناس. وأكثر مرة اقترب فيها من تلك العصابات حدثـت عندمـا أرسـل إلـى قاعدة هادئة نائية خارج العاصمة ووجد هناك سيارة سوداء مهجورة من نوع مرسيدس بنز مليئة بالثقوب الناتجة عن الرصاص. علم بأنها كانت تخص مجموعة من المتمردين قُتلوا في اشتباكٍ بالأسلحة مع الجنود قبل عقد من الزمن. خلع تشافيز قفل صندوق السيارة فوجد مخبأ للكتب العتيقة، معظمها ماركسية، فأخذها كلها إلى القاعدة، ورممها، ثم كوَّن منها مكتبة صغيرة.

وبمـا أن الليالـي كانـت طويلـة ووحيدة في لانوسـس، فقد كان لدى تشافيز الكثير من الوقت للقراءة والتفكير. كانت هناك كتب للينين وماو ومفكرين يساريين آخرين، لكـن الكتـاب الـذي أسـره أكثر من الجميع كان **أيام إزيكويل زامورا**. وهكذا، انغمس تشافيـز فـي قـراءة الكتـب خـلال الأشهر القليلة التي أمضاها فـي تلك القاعدة الهادئة، معمِّقاً الأساس الـذي بدأ مع اكتشافـه لبوليفار في الأكاديمية العسكرية. ويقول تشافيز عـن تلـك الفتـرة: «مـع بلوغـي الثانية والعشرين من عمـري كنت قد جعلت من نفسي رجلاً يسارياً».

كما لعبت السنتان اللتان أمضاهما في باريناس دور ميدان اختبار لأفكاره المتعلقة بصنف جديد من الجنود ونوع جديد من العلاقة مع المجتمع؛ بإلهام من بوليفار وزامورا وتوريجوس وفيلاسكو وشخصيات أخرى. «كانت مرحلة مكثفة جداً، انخرطت خلالها، داخل وخارج الكتيبة، في الرياضة والصحافة وتجنيد الطلاب واستضافة حفلات ملكات الجمـال... والأهـم مـن ذلـك كله هو أن كتيبـة الصيادين بدأت تتخذ منحى آخر لها. فهـي لـم تعـد وحـدة لمكافحة المتمردين منفصلة عن الشعب، ومكروهة منه أحياناً، بل وحدة يشترك شبانها في الحياة الرياضية والثقافية في باريناس».

بسبـب وجـود القليـل من المتمردين لمكافحتهم فـي باريناس، نُقلت وحدة تشافيز فـي العـام 1977 إلـى ولايـة أنزواتيغي شرق فنزويلا، لأن تمرداً جديداً بدأ يندلع في جبال تلك الولاية بقيادة مجموعة **العلم الأحمر** التابعة لليساري المتطرف بانديرا روجا. لكن مهمة تشافيز الجديدة سرعان ما أثارت صراعاً داخله حول دور الجيش وبعض سلوكياته.

أوكل إلى تشافيز مسؤولية قيادة تلك القاعدة العسكرية النائية حال وصوله إليها. وذات ليلـة جـاء كولونيـل متقاعـد من الاستخبارات العسكرية ومعـه ما سمَّاهم أسرى

حرب. كانوا ثلاثة مزارعين «*campesinos*» هزيلين يطأطئون رؤوسهم في محاولة لإخفاء وجوههم المليئة بالذعر. كان الكولونيل يريد قضاء الليلة في المعسكر، فأرسلهم تشافيز إلى خيمة فارغة. وفي التاسعة ليلاً أمر بإطفاء المولّد الكهربائي الصغير الذي كان يُضيء المعسكر فخيَّم الظلام على المكان.

بعد ساعة سمع تشافيز صرخات عالية آتية من الخيمة، فذهب إلى هناك ليجد الكولونيل يضرب المزارعين بمضرب كرة قاعدة مغطى بقطعة من القماش. طلب الكولونيل من تشافيز أن يتركه لوحده؛ لأنه كان مشغولاً. لكنه أمسك بالمضرب وأمره بالتوقف، ثم خيَّره بين إنهاء التعذيب أو مغادرة المعسكر في الحال. فغادر الكولونيل. في ما بعد، كتب تقريراً يتهم فيه تشافيز بعرقلة عمل الاستخبارات العسكرية. فوجد تشافيز نفسه مهدداً بالخضوع لمحاكمة عسكرية بتهمة التمرد العسكري ورفض تنفيذ الأوامر.

بيد أن تشافيز فعل الصواب، إلا أنه هو وحده من واجه العقوبة. وهذه التجربة أثارت داخله أسئلة تتعلق بالمؤسسة التي يحب، فهي كانت مصابة بالنوع نفسه من الفساد الذي يخترق معظم مفاصل المجتمع الفنزويلي. «لقد أثَّر فيَّ ذاك الأمر حقاً فقلت لنفسي، ماهو نوع هذا الجيش الذي يعذب هؤلاء الرجال؟ فحتى لو كانوا متمردين، لم يكن هناك أي سبب يدعو لتعذيبهم».

لكن بذور شكوك تشافيز حول الجيش كانت قد زُرعت مسبقاً في باريناس، عندما شاهد كيف كان الفساد المنظم للمؤسسة السياسية يتسلل إلى القوات المسلحة. كان كبار الضباط يغشون في الميزانيات ويسرقون المعدات من أجل منفعتهم الخاصة. وعلى الرّغم من أن رواتبهم كانت متواضعة، إلا أن الكثيرين منهم كانوا يعيشون حياة باذخة، إذ كان بعضهم - على سبيل المثال - يطير إلى جزيرة مارغاريتا الكاريبية الفاخرة لقضاء عطل نهاية الأسبوع فيها. ويصف تشافيز في مقابلة أُجريت معه في عام 2004 واحدة من أسهل طرق السرقة - على كثرتها - ألا وهي ميزانية الطعام:

> منذ الأيام الأولى لي في باريناس، بدأت ألاحظ فساداً ولاأخلاقية وتعسف بعض كبار الضباط. ولم يكونوا ليسمحوا لك بمكافحته في الثكنة. على سبيل المثال، كان هناك منفذ سهل جداً، ألا وهو الطعام المخصص للجنود. عندما كنت في الخدمة، غالباً ما كنت أذهب في الرابعة أو الخامسة صباحاً إلى الكوخ الذي يعدّون فيه الطعام. كنت أنتظر حتى تأتي شاحنة المؤونة المحملة بالجبن للإفطار واللحم للغداء. كانوا يضعون المواد على الميزان. فسألتهم: «كم هي حصة كل جندي؟» فأجابوني: «ثمانون غراماً للجبن»، على سبيل المثال. فإذا حسبت الأمر ستجد أن الحصص التي كان ينالها الجنود أقل مما يُفترَض أن يحصلوا عليه. أو أنهم كانوا يعطوننا جزمات جبلية تهترئ مع أول مسير...

كان هناك مليون طريقة للسرقة. وفي ما بعد، في الشرق، جاءت الإساءات ضد المتمردين المفترضين أو الحقيقيين. كل هذا بدأ يثير فيَّ شعـوراً بضـرورة مقاومة الإهمـال والتعسف اللذين صادفتهما في التكنة واللذين يمتدان إلى خارج حدود الجيش. بدأت أنظر إلى البلد، وأحاول إيجاد تفسيرات للتناقضات التي وجدت نفسي داخلها. كانت هناك ظروف وصراعـات يوميـة تعصـف حولـي بعيـدة كل البعد عن المبـادئ والقيم البوليفاريـة التـي تربَّينـا عليها. ولهذا السبـب بدا أن هذا السؤال لم يكن مريحـاً للنخبـة العسكريـة والسياسية، ولكن من الواضح أن أحداً ما كان ينبغـي أن يطرحـه: أي نـوع مـن الديمقراطية هـي تلك التي تثري أقلية من الناس وتفقر الأغلبية؟.

كان يُفترَض بتشافيز أن يقاتل المتمردين، لكنه حينما أُرسل في أول مهمة كبيرة له لاصطيادهم في جبال أنزواتيغي في تشرين الأول 1977، كان قد بدأ يشعر ببعض التعاطف تجاه الأشخاص الذين يُفترَض أنهم يمثلون العدو. تكشف مفكرته التي كتبها خلال تلك المهمة، والتي استمرت من 21 تشرين الأول إلى 18 تشرين الثاني، عن ضابط شاب طموح يميل إلى إيرنستو تشي غيفارا، ويكره الإمبريالية الأميركية، ويفخر بالثقافة المحلية ويقتنع بأن القدر اصطفاه للتصدي لأمور أعظم من العمل الممل الذي كان مجبراً على أدائه في تلك المرحلة.

كتب تشافيز في 22 تشرين الأول 1977: «إنها المرة الأولى التي أشارك فيها في عملية لمكافحة المتمردين. ها أنذا هنا أقوم بدور هام، وقد يكون أعظم وأكثر فائدة بكثير». وبعد ثلاثة أيام، استحضر تشي («فيتنام. هناك فيتنام أو فيتنامان في أميركا اللاتينيـة»). وبوليفـار («تعـال. عذ. هنـا... ربما»). وفي اليوم التالي، أي في 26 تشريـن الأول، استمـر فـي المـزاج نفسه: «هذه الحرب ستطول لسنوات... علي أن أخوضهـا، حتـى لـو كلفتنـي حياتي. لا يهم، فلهذا الأمر وُلدت. كم من الوقت يمكنني أن أبقى على هذا الحال؟ أحس بالعجز. بأنني غير ذي فائدة. يجب أن أحضر نفسي للتصرف». ثم أضاف في اليوم التالي: «شعبي يتمتع بقدرة فائقة على الصبر، كسول، فمن سيشعل النار؟ بوسعك إضرام حريق هائل. لكنّ الخشب رطب. الظروف ليست مؤاتية. الظروف ليست مؤاتية. الظروف ليست مؤاتية. اللعنة! متى ستصبح مؤاتية؟ الظروف ليست مؤاتية. غير واقعي، نعم. موضوعي، لا. عذر كبير. سنقابل بعضنا هناك».

الخشـب فـي فنزويـلا كان رطبـاً. كان تشافيز يريد إشعال فتيل ثورة اجتماعية، لكـن ذلـك لـم يكـن ممكناً، لأن الظروف لم تكن مؤاتية، وذلك بسبب ازدهار اقتصاد البلـد فـي تلـك الفتـرة. بالفعل، فقد كانت فنزويلا تنعم في بحر من الدولارات النفطية نتيجة لارتفاع أسعار النفط الذي سبَّبه رفع أوبك للأسعار والحرب الإسرائيلية العربية

في العام 1973 وما لحقها من حظر عربي على النفط. حيث إن سعر النفط الخام الفنزويلي الذي انخفض إلى أدنى مستوى له في 1970 بسعر 1.76 دولاراً للبرميل الواحد، استعاد حيويته في 1973 فوصل إلى 3.56 دولاراً وتضاعف ثلاث مرات تقريباً في 1974 حيث بلغ 10.31 دولاراً للبرميل. وبين عامي 1973 و1983، أكسب النفط شعب فنزويلا البالغ عدده 16 مليوناً ما يزيد عن 150 مليار دولار، الأمر الذي جعلهم ينعمون بأعلى مستوى معيشي في أميركا اللاتينية.

في تلك الفترة، عرفت الطبقة الوسطى الفنزولية مرحلة من الإنفاق المسرف بعد أن أسكرتها الأموال النفطية المتدفقة. حيث كان المحامون والأطباء والمعلمون وعملاء العقارات وآخرون غيرهم يطيرون بصورة روتينية إلى ميامي للتسوق ببذخ فيها خلال عطلات نهاية الأسبوع، واشتهروا بقولهم: *Esta barato. Dame dos*؛ إنه رخيص. أعطني اثنين.

من الناحية السياسية، كانت فنزويلا إحدى أكثر الدول استقراراً في أميركا اللاتينية، في زمن كانت الأنظمة الديكتاتورية العسكرية الدموية تهيمن في كامل تلك المنطقة؛ دولة ديمقراطية نموذجية. كانت فنزويلا تجري الانتخابات الرئاسية كل خمس سنوات، وتنقل السلطة بشكل سلمي بين حزبين وتتمتع بصحافة قوية، مع أنها كانت خاضعة إلى حدٍّ كبير لسيطرة النخب الحاكمة. أما الطبقات الدنيا التي فاتتها الاستفادة من الازدهار النفطي فقد كانت تحلم بالحصول على قطعة من الشطيرة أيضاً.

في العام 1976، أقدم بيريز على خطوة تاريخية بتأميمه الصناعة النفطية، مما يعني أن الفنزويليين كانوا سيتحكمون بأنفسهم بمصدر الثروة الرئيسي في بلدهم؛ نظرياً على الأقل، إذ إن شرائح واسعة من السكان الفنزويليين بقيت ترزح تحت وطأة الفقر. ولكن، على الرغم من ذلك، فالثروة النفطية الهائلة والفتات الذي كان يُلقى إلى الطبقة الدنيا كانا كافيين لإخماد احتمال حدوث ثورة اجتماعية كبرى. كما أن المتمردين كانوا هادئين إلى حدّ السبات تقريباً، فضلاً عن أن معظم الفنزويليين لم يكونوا يريدون عودة العقد العنيف مجدداً.

كان تشافيز يحس بإحباط شديد في أثناء وجوده في جبال أنزواتيغي في تلك المهمة اليائسة التي بدأ يفقد تعاطفه معها رويداً رويداً. كان ذهنه مشغولاً بامرأة من باريناس، نانسي كولميناريس، سيتزوجها قريباً، وينشئ عائلة معها. ارتبط تشافيز بها بعد تعيينه في باريناس، وها هو الآن يفكر فيها والحنين يملأ قلبه بعد نقله مئات الأميال بعيداً عنها. حلم تشافيز بأنهما سيخوضان غمار الثورة معاً مثل بوليفار ومانويلا سايينز أو حتى يموتان معاً مثل روميو وجولييت، على الرّغم من أن كولميناريس كانت في الواقع تشارك تشافيز القليل من وعيه الثوري الواعد، بالإضافة إلى أنها كانت – بحسب بعض الروايات – السبب في القطيعة بينه وبين أمه التي لم توافق على ذلك الزواج.

وقد ظلت كولميناريس - المرأة المتواضعة التي تنتمي إلى الطبقة العاملة - بعيدة عن الأضواء على مر السنين فهي بالكاد معروفة بالنسبة للفنزويليين. وأنجبت من تشافيز ثلاثة أطفال: روزا فيرجينيا في أيلول 1978، وماريا غابرييلا في آذار 1980، وهوغو رافاييل في تشرين الأول 1983. لكن هذا الزواج انتهى بالطلاق في بداية التسعينيات. ولم يتزوج تشافيز ثانية إلا قبل ترشحه للرئاسة بقليل في العام 1998، على الرّغم من أن هذا الزواج انفرط عقده أيضاً في نهاية المطاف.

في تشرين الأول 1977، وقبل أحد عشر شهراً من ولادة كولميناريس طفلتهما الأولى، كتب تشافيز في مفكرته كلمات دافئة عن زوجته المستقبلية الأولى؛ مع أن أفكار الثورة والحب كانت ممتزجة ببعضها: «امرأتي السوداء الصغيرة بعيدة عني. [أسلوب فنزويلي شائع في التحبب] لو أمكن لي أن أكون معها، أن أشعر بدفئها. وأسعد معها. في الحقيقة، إنني أحبها. من الصعب أن أعيش من دونها. مامي، كل شيء سيكون على ما يرام. انتظريني. ربما سأجلبك معي ذات يوم. وعندها سيمكنك أن تتعلمي معي. وتنتصري معي. أو تموتي معي. فهذه الحرب ستدوم لسنوات...».

بالإضافة إلى انفصاله عن حب حياته، كان تشافيز يشعر بالكآبة أيضاً لأن فريقه المفضل في كرة القاعدة، ماغالانيس، خسر إحدى مبارياته. لكن الرجل الذي دخل الأكاديمية العسكرية على أمل الوصول إلى البطولات الكبرى كان قد بدأ يحس بمشاعر متناقضة حول الرياضة التي جلبها الإمبرياليون إلى البلد:

> لقد فقدت ذاك التعلق. كرة القاعدة هذه لا تخصنا. وهي أيضاً من الأميركيين الشماليين. هناك في ذلك المكان سمعت أغنية جوروبو. تلك هي موسيقانا. إنها مطبوعة أيضاً بالموسيقى الأجنبية. لم يتمكن الفنزويلي أبداً من اكتشاف نفسه، في أرضه وشعبه وموسيقاه وعاداته. إننا نفتقد إلى الهوية. إننا نستورد كل شيء. نحن نملك المال. نحن منتجو نفط. هذا كل ما نهتم به: الحصول على المال. الحصول على أحدث سيارة. أن نكون سيّاحاً. أن نحصل على مكانة. إنه ضمير هؤلاء الناس المتفسخين بالدولارات النفطية. الذهب يفسد كل شيء. مرة أخرى سيمون خوسيه أنطونيو [بوليفار]. لا يمكننا تجاهله. إنه الشيء الحقيقي والجميل الوحيد الذي بقي لنا، نحن الذين نحب هذه الأرض: أن نتمسك بسرعة بذاك الماضي البطولي ورجاله، بناة تاريخه. وما عساه يكون غير ذلك؟

كان تشافيز يزداد اشمئزازاً من استهلاكية الطبقة الوسطى الفنزولية على الطريقة الأميركية في وقت كان الكثيرون من الناس يكافحون من أجل البقاء. أضف إلى ذلك القلق الذي كان يعتريه من الإساءات التي يرتكبها الجيش والحكومة. لكنه لم يكن يعتقد، في الوقت نفسه، بأن المتمردين كانوا يمثلون الحل لمصائب فنزويلا. فهو

شهد أموراً من جانبهم لم ترقه أبداً.

ذات يـوم، وخـلال رحلـة إلـى مدينة بارسيلونا من أجـل تحميل المؤونة، قصد تشافيـز القاعـدة العسكريـة المحلية وفي أثنـاء وجوده هناك حطت مروحية ونزل منها عدة جنود، بعضهم كانوا جرحى والبعض الآخر قتلى. توجه تشافيز إلى المروحية من أجـل تقديـم المساعـدة، فتعـرَّف عليه أحد الجرحى الذي كان لا يزال على قيد الحياة. أمسك الجندي الجريح بذراع تشافيز وتوسل إليه: «أيها الملازم، لا تدعني أموت». لكن الوقت كان قد فات، إذ قضى الجندي نحبه بعد وقت قصير في المستشفى.

علم تشافيز بأن الجندي ووحدته وقعوا في كمين نصبه لهم متمردون لهم علاقة بباندیرا روجا. كان الجنود قد مشوا لوقت طويل في الجبال. وفي أثناء عودتهم في شاحنـة علـى أحـد الطرقـات الريفية وهم نصف نيـام، كان المتمردون في انتظارهم. وعندما انعطفت الشاحنة حول أحد المنعطفات، فتح المتمردون النار عليهم على حين غرة من دون أن يتيحوا لهم الوقت للدفاع عن أنفسهم.

لقـد جعلتـه هـذه الحادثـة يعيد التفكير في حملة مكافحـة التمرد التي ينفذها الجيش وكذلك في حرب العصابات التي يشنها المتمردون. «قلت لنفسي، إنني لا أؤيد تعذيب أولئـك القروييـن لأنهـم متمرّدون ولا المتمـرّدون الذين يقتلون أولئك الجنود البريئين الذيـن يقومـون بعملهـم وحسب. علاوة على ذلـك، فتلك المجموعة المتمردة كانت قد هُزمت أساساً ولم تعد تملك أي نوع من التأييد الشعبي. كانوا مجرد مجموعات معزولة صغيرة».

لـم يكـن تشافيـز يـرى كثيـراً من الأمل في أي من الطريقين. ولهذا السبب قرر أن يتبع طريقه الخاص. وعلى أثر ذلك شكّل أول خلية انقلابية له ولم يكن قد تجاوز الثالثـة والعشريـن مـن عمـره بعـد. كانت مكوَّنة من عدة جنود، من بينهم رقيبان من لانوس كانوا موجودين أيضاً في أنزواتيغي. وأطلقوا على مجموعتهم اسم جيش تحرير الشعب الفنزويلي (*ELPV*).

لـم يكـن لديهـم أي برنامـج أو خطـة عمـل محددة. كانـوا ببساطة غاضبين من الإساءات التي شهدوها، وجلّ غايتهم هي مكافحة الظلم في فنزويلا. وعن تلك المجموعة قال تشافيز في مقابلة له في العام 1995: «ما الذي كنا بصدد فعله؟ لم يكن لدينا أدنى فكـرة عمـا سنقـوم بـه في تلك اللحظة». لكنه أخبر الكاتب غابرييل غارسيا ماركيز في ما بعد: «لقد أنشأناها من أجل تحضير أنفسنا في حال حدوث شيء ما».

في أول فعل لهم، حفروا سراً حفرة في الأرض ودفنوا فيها بعض القنابل اليدوية. كانـت ترسانتنـا، قـال تشافيـز مازحاً. وعلى الرّغم من أن الخلية لم تعش طويلاً، إلا أنهـا كانـت تمثـل خطـوة هامة في تطور تشافيز، لأنها كانت أول فعل تمردي ملموس لـه فـي الجيشـ. حـدث ذلـك في العـام 1977، أي قبل خمس عشـرة سنة من قيامه بالانقلاب على الحكم.

وخارج القوات المسلحة أيضاً، كان تشافيز يحاول بحذر إيجاد الحلفاء من أجل نضاله الوليد. لقد حافظ تشافيز على صلة وثيقة مع الأخوين رويز وأبيهما، المؤرخ ومؤسس الحزب الشيوعي المحلي، إذ كان يزورهم كلما سنحت له الفرصة؛ سواء عندما كان طالباً أم بعد تخرجه من الأكاديمية. في تلك الأثناء، كان الأخوان رويز يقومان بأنشطتهما الخاصة، فقد ساهما في تأسيس الحزب العمالي اليساري *La Causa R* (أي القضية الراديكالية). كان فرعاً من الحزب الشيوعي انبثق عن الحركة النقابية في مدينة سيوداد غويانا الصناعية - بيترسبورغ فنزويلا. وفي الوقت المناسب تحوَّل *La Causa R* إلى واحد من الأحزاب الرئيسية في فنزويلا وشكَّل تهديداً جدياً للأحزاب التقليدية التي كانت تهيمن في الحقبة الديمقراطية المليئة بالفساد.

كان مؤسس الحزب ومرشده هو المقاتل المتمرد السابق والعضو في الحزب الشيوعي، ألفريدو مانيرو - رجل شهير في أوساط اليسار وذو شخصية ساحرة - في العام 1971، أصدر مانيرو *Notas Negativas*، وهي وثيقة صور فيها رؤيته لمجموعة قومية-يسارية تتخلى عن العقيدة الاشتراكية وتتبنى الديمقراطية الراديكالية الشعبية. وهذه الوثيقة ساعدت في ولادة حزب القضية الراديكالية (*La Causa R*) بعد مدة ليست بطويلة.

بحلول العام 1978، ومع تنامي قلق تشافيز، ساعد الأخوان رويز في ترتيب لقاء بين مانيرو والملازم الشاب، دعوا إليه أيضاً بابلو ميدينا، وهو زعيم آخر في *La Causa R*. أمضى ميدينا سنوات يعمل في مصانع سيوداد غوايانا في شرق فنزويلا وينظم العمال سراً. حتى إنه كان يوزع صحيفة بين العمال عند تبديل المناوبات. وسيتحوَّل ميدينا لاحقاً إلى شخص أساسي في حزب القضية الراديكالية واليسار بشكل عام في فنزويلا.

حدث اللقاء السري، الذي لم يدم سوى خمس عشرة دقيقة تقريباً، بين تشافيز ومانيرو في شقة استأجرها تشافيز قبالة قاعدة عسكرية في ماراكاي، التي تبعد تسعين دقيقة بالسيارة إلى الشرق من كاراكاس. لم يتكلم تشافيز في ذلك اللقاء كثيراً، بسبب الرهبة التي كان يحس بها تجاه مانيرو الذي تولى معظم الحديث. كان مانيرو مهتماً بلقاء تشافيز لأنه كان يبحث عما سمَّاه **الرجل الرابعة** لطاولة رمزية من أجل استكمال تحالف ثوري.

كان التحالف يتألف من عمال معظمهم يعملون في سيوداد غوايانا وبعض سكان حي كاتيا الكبير في كاراكاس، بالإضافة إلى مثقفين جامعيين تقدميين من الطبقة الوسطى، وأخيراً، الجيش. «أتذكر مانيرو بوضوح تام. قال لي: لدينا الرجل الرابعة من الطاولة... ثم أضاف: سأطلب منك شيئاً واحداً فقط. عليك أن توافق على ما قد نقوم به، مهما كان، ليس من أجل الوقت الحاضر. إنه على المدى المتوسط تحضير لعشر سنوات من الآن». إذاً فالثورة لن تندلع في وقت قريب في فنزويلا.

وعلى تشافيز أن يتحلى بالصبر، فالخشب كان رطباً.

وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي يقابل فيها تشافيز مانيرو، الذي مات بعد خمس سنوات؛ في 1983. ولم يرَ ميدينا كذلك إلا في جنازة مانيرو. لكن ذلك الاجتماع كان بمثابة البذرة التي أنتجت عنصراً هاماً في ثورة تشافيز، ألا وهو صلته مع اليسار المدني.

خلال الفترة نفسها، تقابل تشافيز صدفة مع زميله في الأكاديمية، جيسوس أوردانيتا هيرنانديز، في قاعدة عسكرية في ماتورينا التابعة لولاية أنزواتيغي. وفي إحدى الليالي، عندما كان أوردانيتا مناوباً، ذهب تشافيز إليه وأسرَّ له بأمر تكوين مجموعته الثورية الصغيرة، جيش تحرير الشعب الفنزويلي. أخبره تشافيز عن خيبة الأمل التي يحس بها من جراء تجربته في الجيش، الذي لم يكن على مستوى توقعاته. لماذا لا نكوِّن شيئاً مختلفاً تماماً؟ اقترح تشافيز على صديقه. إننا لن ننضم إلى المتمردين. فقد انتهى أمرهم الآن. وعلى أي حال، فإن مبادئنا وثقافتنا لا تتناسب مع مبادئهم وثقافتهم.

كان تشافيز يريد أن يسلك طريقاً آخر، حركة ضمن القوات المسلحة. تقبَّل أوردانيتا الأمر، لأنه كان بدوره يحس بالإحباط من فساد الجيش والحكومة، فضلاً عن تشربه أفكار ومبادئ بوليفار. وافق أوردانيتا على الانضمام إلى المشروع الجنيني، وأخبر تشافيز بأنه سيتصل بضابطين آخرين، فيليب أكوستا كارلس وميغيل أورتيز كونتريراس، ليرى إذا كانا يريدان المشاركة أيضاً. كان تشافيز في طريقه للوصول إلى منعطف بالغ الأهمية في حياته.

في تلك الليلة أخبر أوردانيتا: «لن أستمر على هذا النحو في الجيش طوال حياتي».

الفصل الخامس

قَسَم مقدس

مـن جامعـة هارفـارد وُلدت خطـة ويليام إيزارا الهادفة إلـى إحداث الثورة في فنزويـلا. ففـي العـام 1978 (تقريبـاً فـي الفتـرة نفسها التي شكّل خلالهـا تشافيز خليته الانقلابيـة الأولـى فـي الجيشـ، وبدأ البحث الحذر عـن حلفاء ثوريين له) منح الجيش الفنزويلي إيزارا فرصة الدراسة في جامعة هارفارد لمدة عام واحد. وهناك، في مكتبة الجامعـة، انغمسـ إيـزارا فـي تعاليم ماو تسي تونغ وغيره من المفكرين الثوريين. ثم عاد إلى فنزويلا مزوداً بخطة لقلب النظام.

كان إيـزارا طيـاراً فـي سـلاح الجو، لكنه كان يضمر في داخله النوع نفسه من الشكـوك حـول الجيشـ والمجتمـع الفنزويلي التي سرعان مـا ستعتمل في صدر وعقل تشافيـز أيضـاً. فـي العام 1967، بعد تخرجه من كلية الطيران مباشرة، أرسل إيزارا لمدة ستة أشهر إلى مسارح مكافحة التمرد حيث كان المتمردون الماركسيون ما يزالون ينشطون بقوة.

كحـال جميـع الجنـود، خضع إيزارا لتدريب إيديولوجي مكثف يصور المتمردين على أنهم انقلابيون شيوعيون متعطشون للدماء عازمون على تدمير أنموذج الديمقراطية فـي فنزويـلا. بيـد أن إيـزارا بدأ يشعر بالتعاطف - كما سيحصل مع تشافيز لاحقاً - مع الأشخاص الذين يُفترَض أنهم يمثلون الأعداء.

ذات يـوم، عُهـد إليـه بمهمـة استجـواب ضابط كوبي أسيـر كان يقدم المساعدة للمتمرديـن الفنزويلييـن. غيـر أن مـا وجده إيزارا لم يكن شخصـاً متوحشاً بل ضابطاً ذكياً قدَّم حججاً مقنعة تفسر الأسباب التي تدفع المتمردين للثورة ضد الظلم الاجتماعي فـي أميـركا اللاتينيـة. علـى أي حـال، وُجد الضابط الكوبي مقتـولاً في اليوم التالي. قيل إنه قُتل في أثناء محاولته الفرار، ولكن، عندما شاهد إيزارا وجهه المشوَّه أحس بصدمة شديدة.

بدأ إيزارا يجري محادثات سرية مع أولئك الذين يشاركونه استياءه من الضباط الآخريـن. كمـا اتصـل بدوغلاسـ برافو، وهو أحد الزعمـاء المتمردين الشهيرين في فنزويـلا. وفـي العـام 1978، وصـل إيزارا إلى منعطف حاسم في حياته عندما أرسل إلى جامعة هارفارد للدراسة لعام واحد. «كان لدي هدف واحد في هارفارد: أن أكمل صياغة نظريتي الثورية للقوات المسلحة... في هارفارد وُلد مشروعي السياسي الذي يضع تصوراً لنظام اجتماعي مختلف».

بعد انقضاء ذلك العام في هارفارد، وبعد أن أصبح متشرباً بأفكار تروتسكية الآن، عاد إيزارا إلى فنزويلا مقتنعاً بأن تحقيق التغيير فيها من خلال وسائل انتخابية لم يكن ممكناً. لأنه كان على يقين تام بأن الغش في صناديق الاقتراع والحسنات الرعائية المصلحية التي كان يمنحها الحزبان الرئيسان في فنزويلا (AD وCOPEI) كانت تجعل من إمكانية فوز أي شخص خارج الحزبين بالرئاسة أمراً مستحيلاً.

كانت فنزويلا دولة ديمقراطية على الورق فقط تخدم بشكل أساسي مصالح النخب التي تُحكم قبضتها على السلطة من خلال ممثلين سياسيين عنها. فبالإضافة إلى السيطرة على الميزانية الوطنية، كان الرئيس وحزبه يعيِّنان حكام الولايات - لم يكونوا يُنتخَبون من قبل الشعب حتى 1989 - ويتحكمان بالمناصب كلها، من أعلاها إلى رؤساء البلديات وأعضاء المجالس المحلية في القرى الصغيرة. ولم يكن أعضاء البرلمان يُنتخَبون حسب الاسم أو المقاطعة، إذ كان الناخبون ببساطة يختارون لائحة بالمرشحين (*plancha*) يضعها الحزب، الذي يوزع بعدئذ الأشخاص على المقاعد النيابية. كما لم يكن بالإمكان محاسبة أعضاء البرلمان ومجلس الشيوخ من قبل الناس الذين كانوا في أغلب الأحيان لا يعرفون أسماء ممثليهم.

كان الحزب الحاكم ينتقي بنفسه أعضاء المحكمة العليا - التي لم تحكم يوماً ضد مصالح الحزب - ويعيِّن القضاة في كامل الجسم القضائي. وكانت المؤسسات القانونية المعروفة باسم القبائل - والمتصلة مع الحزبين الرئيسين - تضمن لأي شخص يدفع لها الحصول على الحكم الذي يريد. أما الفقراء والبسطاء والمهمشون، فأولئك لم يكن لهم إلا الله عوناً ووكيلاً.

إذا أردت أن تحصل على وظيفة معلم في المدرسة، على سبيل المثال، فأنت بحاجة فقط إلى صلة بأحد المسؤولين في الحزب المحلي. بل إن بعض المدارس كانت تقتسم المنافع - مدير الفترة الصباحية كان *Adeco* (أي ينتمي لحزب AD) ومدير فترة ما بعد الظهر كان *Copeyano* (ينتمي لحزب COPEI). وإذا لم تكن تنتمي لأي من الحزبين، فمن المرجح أنك لن تحصل على أي وظيفة.

تكمن عبقرية النظام في أنه كان يقدم ما يكفي من العطايا والرعاية الاجتماعية من أجل اتقاء شر الطبقة الدنيا المستاءة. فمع كل دورة انتخابية كان حزب AD وCOPEI يوزعان على سكان الأحياء الفقيرة دلاء دهان مجانية من أجل طلاء مقدمة أكواخهم الإسمنتية، الأمر الذي كان يجعلهم يشعرون بالامتنان لبضع أسابيع. كما كانت الحكومة توزع آلاف الوظائف الثانوية ذات الأجر الزهيد، على الرّغم من أن بعض المستخدَمين كانوا يضطرون - إذا جاؤوا أساساً - إلى الوقوف طوال اليوم تقريباً على مداخل الأبنية الحكومية من أجل الحصول على عمل لهم؛ كانوا يضعون في بعض الأحيان ثمانية أو عشرة بوّابين عند كل باب. ومع أن النظام أنتج واحدة من أكثر البيروقراطيات الحكومية عجزاً في أميركا اللاتينية، إلا أنه أفرز أيضاً طبقة موالية

مـن المخلصيـن الحزبييـن، حيث كنت تجد بعضهم يقسمون بأنهم سيبقون *Adecos* إلى أن يموتوا.

خلص إيزارا إلى نتيجة مفادها أن الطريقة الوحيدة لكسر هيمنة حزبي AD وCOPEI على المؤسسات السياسية والاقتصادية والقضائية والتعليمية الفاسدة في فنزويلا تتمثل في قيام ثورة عسكرية-مدنية. حيث تصوَّر شيئاً مماثلاً للثورة التي أطاحت بالديكتاتور ماركوس بيريز جيمينيز في 1958. وبعد عودته من هارفارد، شكّل إيزارا خلية ثورية في القوة الجوية أطلق عليها اسم R-83 (الحرف R نسبة لكلمة revolution، أي الثورة، و83 للسنة التي كان يعتقد بأنهم سيحققون الانتصار فيها.

كان إيزارا يتطلع لاستبدال ممارسة الديمقراطية في فنزويلا بشيء يلبي حاجات الغالبية، حيث يقول: «ترتكز R-83 على تطبيق نظام اجتماعي؛ لعله يختلف عن الأنظمة الموجودة مسبقاً، لكنه نظام اجتماعي». وجمع لهذه الغاية ضباطاً يشاركونه تطلعاته، وبدأ ينظم مجموعات حوارية سرية. كما ابتكر قسَماً للأعضاء الجدد، حيث كانوا يؤدونه في وقت متأخر من الليل أمام المقبرة الوطنية في كاراكاس حيث ضريح بوليفار وغيره من الآباء المؤسسين.

استأنف إيزارا علاقته التي بدأها قبل عدة سنوات مع دوغلاس برافو، القائد المتمرد السابق الذي كان يبحث مجدداً عن ضباط عسكريين مستائين من أجل مساعدته في مشروعه الثوري الخاص.

كان برافو قصير القامة عريض المنكبين أنيق المظهر. وكان أسطورة يسارية في فنزويلا وفي سائر أميركا اللاتينية، حتى إن البعض في تلك الفترة كان يعتقد أنه يأتي في المرتبة الثالثة بعد تشي غيفارا وفيدل كاسترو، كان يقبع في رأس لائحة أكثر الرجال المطلوبين بالنسبة للسي آي أيه. وفضلاً عن أنه كان ابناً لأحد ملاكي الأراضي، إلا أن برافو انضم إلى الحزب الشيوعي منذ أن كان مراهقاً وشارك في الحركة التي كانت تهدف لإسقاط بيريز جيمينيز. ولم يكن الانضمام إلى الشيوعيين المتأثرين بالاتحاد السوفييتي أمراً غير عادي في تلك الأيام، لأن الحزب الشيوعي بين عامي 1928 و1968 كان ثاني أقوى الأحزاب السياسية في فنزويلا، بعد حزب العمل الديمقراطي. وقد لعب الشيوعيون دوراً أساسياً في إسقاط بيريز جيمينيز المدعوم من الولايات المتحدة.

بدعمها سلسلة من الحكام المستبدين والأنظمة القمعية في أميركا اللاتينية، من سوموزا في نيكاراغوا إلى فولجينسيو باتيستا في كوبا، زرعت الولايات المتحدة مشاعر الحقد والعداء في صدور الكثيرين سن أبناء المنطقة طوال القرن العشرين. وبالنسبة لفنزويلا، فقد سارع الأميركيون إلى الاعتراف ببيريز جيمينيز بعد استيلائه على الحكم في 1952، ثم جاء قرار دوايت أيزنهاور بتقليده وسام الاستحقاق الأميركي بعد ذلك بسنتين ليزيد من حدة تلك المشاعر.

في العام 1957، حاول برافو ومؤيدوه في الحزب الشيوعي الفنزويلي إقناع بعض الضباط العسكريين بالتحالف معهم من أجل الإطاحة ببيريز جيمينيز. لكن مجموعة عسكرية أخرى متحالفة مع بعض المدنيين سبقتهم إلى ذلك. ومع ذلك، ظل برافو والآخرون يبنون علاقاتهم مع الجيش، لأنهم كانوا يعتقدون بأن الحكومة الجديدة التي شكلها حزب العمل الديمقراطي لم تكن ثورية على الإطلاق. وفي هذا الخصوص، يقول برافو: «لطالما كانت هناك صلة مع القطاعات العسكرية في سياق العمل الثوري في فنزويلا». لقد وجد في الجيش تربة خصبة لتجنيد الثوار، لأن معظم الجنود الفنزويليين كانوا من عائلات تنتمي إلى الطبقة العاملة الفقيرة. ولم يكن لدى أولئك الجنود بالطبع أي مصلحة في الحفاظ على الوضع الراهن.

في شباط 1959، أخذ روميولو بيتانكورت من حزب AD مكان بيريز جيمينيز كزعيم للأمة، مبشراً بعودة فنزويلا إلى الحكم الديمقراطي. لكنه سرعان ما وجد نفسه محاصراً من اليمين واليسار معاً. ففي 20 حزيران 1960 كاد بيتانكورت أن يُقتَل في هجوم بسيارة مفخخة شارك في التخطيط له بعض من الضباط اليمينيين. وفي الوقت نفسه، كانت هناك مجموعات صغيرة من المتمردين اليساريين قد بدأت تتشكل، بالإضافة إلى ولادة احتجاجات متواصلة في الشوارع. كما قام بعض الضباط البحريين اليساريين بمحاولتين انقلابيتين فاشلتين ضده خلال السنتين التاليتين.

حمل الرئيس بقوة على المنشقين، فأمر الجنود بإطلاق النار على المتظاهرين، وقام بسجن الشيوعيين، بمن فيهم بعض النواب في البرلمان. وفي النهاية، حظّر أنشطة الحزب الشيوعي والحركة الثورية اليسارية (MIR)، التي أنشئت في العام 1960 بعد استياء الشبان الأكثر راديكالية في حزب AD من بيتانكورت بسبب إدارة ظهره للمعجبين بفيدل كاسترو في البلد وتقرُّبه من البرجوازيين المحليين والأجانب. وقد تعاون الكثيرون من الأعضاء الشبان في حزب AD مع الشيوعيين في فنزويلا من أجل الإطاحة ببيريز جيمينيز، فأصبحوا يُسمَّون *Adecos* (*Ade* اختصاراً لكلمتي *Accion Democratico*، أي العمل الديمقراطي، و*cos* لكلمة *communists* أي الشيوعيون).

وسط ذلك الفوران، بات الحزب الشيوعي وحركة MIR على قناعة تامة بأن حدوث ثورة مسلحة مدعومة من شرائح واسعة من الشعب (مشابهة لثورة كاسترو في كوبا) أصبح أمراً حتمياً. فبدأوا بتدريب مجموعة مركزية مسلحة، بالإضافة إلى مواصلة جهودهم الهادفة لاكتساب تأييد الضباط اليساريين في الجيش. بعد فترة قصيرة، شكّل الحزب الشيوعي الفنزويلي وحركة MIR ومجموعات يسارية أخرى بنية قيادية مركزية مسلحة، وتولّى جيش التحرير الوطني (FALN) مهمة العمليات العسكرية، في حين تولت جبهة التحرير الوطنية (FLN) مسؤولية العناية بالشؤون السياسية والتنظيم.

شن المتمردون بين العامين 1962 و1964 سلسلة هجمات دموية متهورة ومثيرة للجدل، واشتبكوا في أغلب الأحيان في معارك ضارية مع الجيش، الأمر الذي تسبب

في سقوط الكثير من المواطنين المدنيين العالقين بين النارين، وهو ما أثَّر في تأييدهم الشعبي.

على الرّغم من أن قيادتي الحزب الشيوعي وجيش التحرير الوطني قررتا التخلي عن الكفاح المسلح في العام 1965، إلا أن برافو رفض ذلك، لأنه كان ما يزال يعتقد بأنه الطريق الوحيد لتغيير فنزويلا. وعلى أثر ذلك، طرد الحزب الشيوعي برافو، لكنه ظل يقاتل في الهضاب مع جيش التحرير الوطني، بل وشكّل في الوقت عينه حزب فنزويلا الثوري (PRV) كذراع سياسية لحركته. في تلك المرحلة، عاش برافو حياة سرية لسنوات عديدة بسبب وجود مذكرة اعتقال ظلت تلاحقه طويلاً، ولهذا السبب كان يسافر متخفياً إلى أوروبا حيث كانت مجموعته تحظى بتأييد المثقفين اليساريين فيها، وآخرين غيرهم. ولشعوره بأنه لم يعد مقرَّباً من الروس والكوبيين، قام برحلات إلى العراق وليبيا والصين ودول أخرى من أجل الحصول على مساعدات مالية وعسكرية، بيد أنه لم يحصل على الكثير منها.

كان برافو يحلم بتكوين عالم مثالي تزول فيه الفوارق الاجتماعية وتسوده العدالة. كان يتخيل مجتمعاً يعمل فيه الناس خمس أو ست ساعات في اليوم ويكرسون ما بقي من أوقاتهم لكتابة الشعر أو الرسم أو القراءة. وكان جزء من مشروعه يهدف أيضاً إلى الحفاظ على البيئة، وبخاصة الغابات المطرية الأمازونية. كما أراد إنقاذ ثقافة السكان الأصليين التي كانت تتعرض لغزو استهلاكي من قبل أميركا الشمالية في تلك الآونة. وعلاوة على ذلك، سعى برافو إلى إعادة إحياء صورة كل من سيمون بوليفار وسيمون رودريغيز وإيزيكويل زامورا، لأنه كان يعتقد بأن هؤلاء الرجال يمكن أن يقدموا الأساس الإيديولوجي لفنزويلا جديدة. في الحقيقة، كان تبنيه لبوليفار سبباً آخر لانفصاله عن الحزب الشيوعي الذي بقي مخلصاً للمعايير السوفييتية فاعتبر بوليفار شخصاً ملعوناً ومنبوذاً.

غير أن الحركة الثورية المسلحة بدأت تتلاشى تدريجياً مع نهاية الستينيات، فالفنزويليون كانوا يشاركون بأعداد هائلة في الانتخابات الرئاسية التي كانت تجري كل خمس سنوات. وعندما تولى رافائيل كالديرا الرئاسة في فنزويلا في 1969، منح العفو للمتمردين الذين يتخلون عن القتال طوعاً، فاستجاب معظمهم لمبادرة الرئيس، إلا بوليفار الذي قال إنه لن يقبل العفو لأنه لم يرتكب أي خطأ. وهكذا استمر بوليفار بالعمل سراً فأنشأ خلايا للثوار في المدن وحافظ على بعض المقاتلين المسلحين في الهضاب، على الرّغم من أنهم لم يقوموا إلا بالقليل من الأنشطة العنيفة. كما نشط جناحه السياسي، حزب فنزويلا الثوري، في المدن الرئيسية في البلد، ومن بينها بلدة ميريدا الأنديزية الفاتنة حيث أثبتت جامعة الأنديز الليبرالية (*ULA*) بأنها أرض خصبة لتجنيد الثوار.

كان شقيق هوغو تشافيز، أدان، طالباً في جامعة *ULA* آنذاك. وهو بالإضافة

إلى كونه أكبر الأخوة الستة، فقد كان أكثرهم نضجاً من الناحية السياسية أيضاً. إذ إنه انتسب إلى حركة *MIR* منذ أن كان في السادسة عشرة من عمره، في حين كان ذهن هوغو مشغولاً بشكل رئيسي بكرة القاعدة عندما كان مراهقاً ولم ينضم إلى أي حركة سياسية. ويصف أدان الحركة بأنها «منظمة ماركسية لينينية بدأت فيها ثقافتي السياسية والثورية». وإلى يومنا هذا، يعرّف هوغو مازحاً أخاه الأكبر بقوله إنه «الشيوعي في العائلة».

بقي أدان في الحزب بضع سنوات فقط، حتى مطلع السبعينيات، إذ إنه «بدأ بالانحلال عندما أصبح حزباً سلمياً بل إنه انقسم إلى حزبين، أحدهما استمر على تسمية نفسه *MIR* والآخر سُمّي الخيار الجديد. أما أنا فقد قررت ألا أنضم إلى أي منهما. لم أكن أتفق مع التغيير السلمي إذ إنني كنت من أنصار الرأي الذي يقول إننا كنا بحاجة لبناء حزب ثوري حقيقي على صلة مع الجماهير. كنا مجموعة من الشبان نقوم بنشاطنا في الجامعة. وقد بقينا سنة ونصف السنة تقريباً على هذا الحال إلى أن انتسبنا إلى حزب آخر».

كان حزب فنزويلا الثوري (*PRV*) هو ذاك الحزب، حيث انضم أدان إلى رابتورا، وهو الذراع السياسية القانونية لحركة برافو الثورية المسلحة. بالنسبة لأدان تشافيز، بدا هذا الحزب وكأنه الأداة الواعدة لإحداث تغيير ثوري في فنزويلا. وبعد تخرجه من الجامعة، وتعيينه كأستاذ للفيزياء فيها، كان لأدان عملاً إضافياً، حيث تولّى مهمة تنسيب الطلاب في رابتورا، أو ما سمّاه عملاً ثورياً مدينياً. لم تكن المهمة سهلة على الإطلاق، فعلى الرغم من كون رابتورا حزباً قانونياً، إلا أن صلته ببرافو جعلته عرضة لاضطهاد الحكومة، ولهذا السبب كان أعضاؤه يزاولون أنشطتهم بشكل شبه سري خشية تعرضهم للاعتقال أو الاختفاء. «وبسبب الطبيعة السرية لهذا الحزب»، يقول أدان، «فقد صلته بالجماهير. وعلاوة على ذلك، كان أعضاؤه عقائديين ومتعصبين للغاية».

خلال تلك الفترة، لم يكن هوغو تشافيز يعرف الكثير عن أنشطة أخيه السياسية السرية، على الرّغم من إدراكه لتنامي إيديولوجيته السياسية الراديكالية. فعندما كان هوغو في الأكاديمية العسكرية - في النصف الأول من السبعينيات - كان أدان يزوره بين الحين والآخر بصندله العادي وشعره الأشعث الطويل، وعندما كان هوغو يذهب إلى منزله في باريناس كان أدان يأتيه من ميريدا القريبة ليذهبا برفقة بعض أصدقاء أخيه هيبيي المظهر ويتحدثون في السياسة. وعن تلك الفترة، قال تشافيز في مقابلة معه في العام 2004: «كان أدان واحداً من الذين أثّروا في مواقفي السياسية، بل إنه مسؤول عن تشكيل وعيي السياسي. كان أخي عضواً في MIR عندما كان يعيش في ميريدا، ولم يكن لدي علم بذلك. الشيء الوحيد الذي أثار انتباهي هو أنه وأصدقاءه كانوا يتركون شعرهم طويلاً، وبعضهم يطلقون لحاهم. كان واضحاً أنني كنت شاذاً

بينهم بشعري القصير وبزّتي العسكرية الرسمية. لكنني كنت أشعر بالراحة مع تلك المجموعة. كنا نذهب إلى حانة للشبان تقع بالقرب من منزل أمي، وبالأخص إلى واحدة تُدعى ليالي الجائعين...».

في العام 1968 تأسس فرع آخر من الحزب الشيوعي، ألا وهو حركة نحو الاشتراكية (MAS) التي تنامت حتى أصبحت قوة سياسية هامة تحت قيادة متمردين سابقين مثل تيودورو بيتكوف. وكان الأخوان رويز، أصدقاء تشافيز في المدرسة الثانوية، منخرطين أيضاً في حزب القضية الراديكالية الناشئ. «كنا أصدقاء، لقد قبلوني مع البزة العسكرية ومع كل شيء»، يتذكر تشافيز، «بالطبع، كان هناك الكثير من النقاش أيضاً. ذات يوم قال لي أحد أولئك الشبان: لابد أن هذا الجندي واحد من أولئك الطفيليين. كدنا نتبادل اللكمات، لكن المجموعة دافعت عني، احترمه يا رجل، إنه هوغو تشافيز، صديقنا. كنا نخوض نقاشات سياسية كثيرة ونقرأ كثيراً. وكان اهتمامي يزداد بشكل تدريجي بالقضايا الاجتماعية. على أي حال، إذا نظرت إلى الوراء، فأنا منذ طفولتي كنت دائماً متعاطفاً مع المتمردين. منطقة سابانيتا تلك كانت منطقة متمردين».

في فترة الميلاد عام 1977، ومع ازدياد خيبة أمل تشافيز بالجيش، ذهب إلى باريناس لقضاء الأعياد هناك واعترف باحباطاته لأدان. قال لأخيه بأنه كان يفكر في الاستقالة، وطلب منه أن يجد له عملاً في جامعة ULA. لكن أدان نصحه بالبقاء في الجيش، وللمرة الأولى كشف له عن أنشطته السرية مع حزب فنزويلا الثوري (PRV).

في تلك الأثناء، كانت مجموعة برافو تمر بفترة انتقالية، حيث استنتجت بأن استراتيجية الكفاح المسلح التي نفذتها خلال الستينيات لم تعد ذات جدوى في فنزويلا، ولهذا السبب قامت بحل جيش التحرير الوطني (FALN) نهائياً في 1975، عملاً بمبدأ سمّوه التحول التكتيكي (*Virage Tactico*). وبسبب إنهاء التمرد في الجبال والقرى، الناتج جزئياً عن هجرة الكثير من المزارعين إلى المدن، عادوا وركّزوا في عملهم على المراكز المدنية.

كما نفذوا استراتيجية أطلقوا عليها اسم الأرجل الثلاث *tres patas*، وهي شبيهة باستراتيجية الأرجل الأربع التي تبناها مؤسس حزب القضية الراديكالية، ألفريدو مانيرو. والرجل الأولى بالنسبة لبرافو هي *el pueblo* أي الناس العاديون؛ أعضاء النقابات، المزارعون. الطلاب، سكان الأحياء الفقيرة، المنظمات الثقافية والاجتماعية. وقد عمل المجنّدون - مثل أدان - في هذه الحلقة في محاولة لكسب التأييد ضمن الجماهير. والرجل الثانية هي الكنيسة، حيث أجرى رفاق برافو سلسلة من الاجتماعات السرية مع قساوسة كاثوليك تقدميين، من بينهم القس أرتورو سوسا، وهو شاب لامع من

عائلة ثرية أصبح بعد سنوات رئيساً للمؤسسة الدينية في فنزويلا.

أما الجيش فهو الرجل الثالثة. ولهذا الغرض التقى قادة حزب فنزويلا الثوري كلاً من إيزارا في القوى الجوية، وخلية انقلابية في سلاح البحرية، وكذلك هوغو تريجو، أحد القادة العسكريين الأساسيين في الحركة العسكرية-المدنية التي أطاحت ببيريز جيمينيز. تصوَّر برافو بأن الأرجل الثلاث ستتحد في نهاية المطاف لتشارك في ثورة عسكرية-مدنية مشابهة تنهي هيمنة حزبي AD وCOPEI في الحياة السياسية في البلاد. كان برافو يحلم بنوع من النظام الاشتراكي مختلف عن النموذجين السوفييتي والكوبي اللذين يرفضهما، نظام اشتراكي متشرِّب بنكهة وطنية بوليفارية.

بعد أن أفضى هوغو تشافيز بما يشعر به من إحباط وخيبة أمل في فترة الميلاد تلك، أعلمه أخوه أدان بأن أعضاء حزب فنزويلا الثوري كانوا يتحدثون عنه. عمل هوغو بالنصيحة التي قدمها له أخوه أدان وخوسيه إستيبان رويز غيفارا، الشيوعي القديم من بارىناس، فعاد إلى الثكنة وأبقى ذهنه صاحياً محاولاً البحث عن طرائق تدفع قضية تحويل فنزويلا قدماً.

جاءت إحدى الطرائق من تلقاء نفسها. نُقل هوغو من وحدة مكافحة المتمردين في الشرق إلى قاعدة عسكرية في مدينة ماراكاي وسط فنزويلا. وكان لا يزال ضابط اتصالات حينئذ. لكنه عندما وصل إلى ماراكاي وشاهد رتلاً من الدبابات، أدرك كم يمكنها أن تكون مفيدة لخططه يوماً ما. «عندما كنت جندياً، أدركت شيئاً فشيئاً بأنني كضابط اتصالات لم أكن أملك الكثير من السلطة والقدرة على الفعل. ولهذا السبب، عندما رأيت في ماراكاي الدبابات الفرنسية AMX 30 طلبت نقلي إلى الدبابات. تلك كانت القوة». وبعد سنة، جاءته الموافقة على طلبه.

في بداية العام 1979 أخبره أدان بفكرة اللقاء مع برافو، فكان هوغو «مستعداً للقيام بالاتصال على الفور»، والكلام لأدان.

لكن اللقاء لن يكون سهلاً، لأن برافو كان ما يزال مطلوباً للسلطات. وكان يعيش بشكل سري في منطقة مونتالبان في كاراكاس. ولكي يتجنب التعرف عليه، نادراً ما كان يخرج من شقته في النهار. أما إذا خرج في الليل، فإنه غالباً ما كان يستخدم أدوات تنكرية؛ شعر مستعار، قبعة، نظارة سوداء.

عهد حزب فنزويلا الثوري بالمهمة الحساسة المتعلقة بتنظيم اللقاء بين برافو وتشافيز إلى واحد من أكثر عملائه إخلاصاً، ألا وهو نيلسون سانشيز، الذي اختاره دوغلاس برافو – أملاً منه بتسريع جهوده الهادفة لاختراق القوات المسلحة – في نهاية السبعينيات للبدء بتشكيل الجبهة العسكرية المهنية الجديدة المؤلفة من ضباط مستعدين لدعم حزب فنزويلا الثوري في هدفه المتعلق بإسقاط النظام السياسي في فنزويلا. أنفق سانشيز من العام 1976 وحتى 1978 في دراسة تاريخ الجيش الفنزويلي وكل ما يتعلق بالجنود، من أسلوب حديثهم إلى طريقة تفكيرهم إلى ما يأكلون. «منذ

العـام 1976 كنـا ندرس سيكولوجيـة أفراد الجيش وتركيبتهـم الطبقية، الأمور التي يحبونهـا، عاداتهـم، بواعـث قلقهـم. كانت دراسة علمية بحـق، لأن التآمر والثورة ليسـا لعبـة». فاكتشـف أن إحـدى الطرائـق التي تصل إلى قلـوب وعقول الكثير من الجنود هي التحدث عن مواضيع معينة مثل الفساد في الجيش والصراعات الحدودية مع كولومبيا وغوايانا.

اتخـذ سانشيـز لنفسـه اسمـاً حركياً للاتصال مع الجيشـ، وكان هارولد هو ذاك الاسم. وتقابل مع إيزارا وأعضاء آخرين في حركته R-83. وفي العام 1979 حصل علـى اسـم ضابـط واعـد آخر قد يكون مستعداً للانضمام إلى المؤامرة، ألا وهو هوغو تشافيز، الذي كان في ذلك الحين في طريقه للترقية مجدداً، حيث سيفوز أخيراً بمهمة التدريس في الأكاديمية العسكرية التي تعلَّم فيها في كاراكاس، من دون أن يكون لدى رؤسائه أدنى فكرة عن تململه المتزايد.

وضع سانشيز خطته المتعلقة بالاتصال مع تشافيز وبرافو قيد التنفيذ، فأعلم أدان تشافيـز بـأن الاتصـال الأول سيكـون في قاعدة تيونا، حيث تقع الأكاديمية العسكرية. ووضعوا لهذه المهمة كلمة سر كي يعلم هوغو عندما يقابل نشطاء حزب فنزويلا الثوري (PRV) أنهم هم. بيد أن الدخول إلى قاعدة تيونا العسكرية لم يكن بالأمر اليسير، إذ لـم يكـن بإمـكان سانشيـز ببساطة قيادة سيارته إلى داخل القاعدة وطلب مقابلة تشافيز، ولهذا السبب اتصل بابنة عمه إليزابيث سانشيز، وكانت مطلقة من جندي وتملك بطاقة تعريف عسكرية خاصة تسمح لها بالدخول إلى القاعدة.

بصفته سائقها، ذهب سانشيز وابنة عمه ذات صباح إلى قاعدة تيونا، وطلبا من أحد الحراس أن يستدعي تشافيز. قدم تشافيز لمقابلتهما، وعندما سألهما عمن أرسلهما، قالا بأنه أدان وأعطياه كلمة السر. جرت المقابلة في ساحة لركن السيارات قريبة من بعضـ الحدائـق ودامـت حوالـى عشر دقائق. وعلى الرّغـم من أنه كان لقاء قصيراً، إلا أنـه كان فائـق الأهميـة، إذ مـن خلاله سيرتبـط تشافيز بعلاقة مع دوغلاس برافو وجنوده، الأمر الذي سيلعب دوراً مؤثراً في تشكيل إيديولوجية الحركة الثورية التي ستقلب فنزويلا رأساً على عقب.

○ ● ○

بعـد أسبـوع تقابـل تشافيـز مع برافو. نُقل كل منهما على حدة وبشكل سري إلى منزل إليزابيث سانشيز الكائن في حي ألتوس برادوس دي ماريا الذي يسكن فيه أناس ينتمـون إلـى الطبقـة الوسطـى. والموقع كان في الحقيقة ممتازاً لعقد لقاءات سرية، إذ كان بالإمكان إيقاف السيارة في المدخل وإدخال الركاب إلى المنزل مباشرة من دون أن يراهم الجيران. وبالإضافة إلى ذلك، فالوقت كان ليلاً.

تقابل الرجلان لمدة تقارب الساعة. وهذه المرة كان تشافيز أكثر طلاقة مما كان عليه في لقائه مع زعيم حزب القضية الراديكالية، ألفريدو مانيرو. فتحدث وبرافو عن أحـداث سياسيـة جاريـة فـي فنزويلا، وفكرة تجنيد الثـوار في الجيش، وفكرة احتمال إشعـال ثـورة مدنية-عسكريـة. وترك تشافيز انطباعاً جيداً عند برافو وسانشيز، وذلك لثقته بنفسه وعزمه على إصلاح البلد. يقول برافو عن تشافيز بعد عقدين ونصف من ذاك اللقـاء وعلـى أثـر خـلاف معه: «أدركت بأنه رجل شجاع جداً وفائق الذكاء وذو إرادة صلبـة. كان مستعـداً لتنفيـذ عملـه على المدى الطويـل... منذ تلك اللحظة بدأنا مشروعاً طويل المدى».

أجرى تشافيز وبرافو سلسلة من اللقاءات على امتداد عدة سنوات، وكان هارولد يلعب دور الوسيط بينهما. وعلى الرّغم من أن تواتر لقاءاتهما لم يكن ثابتاً، إلا أنهما كانا في بعض الأحيان يلتقيان مرة كل أسبوع. وفي أغلب الأحيان كان منزل إليزابيث سانشيز هو المكان الذي يجمع بينهما. وقد ابتكرا اسمين حركيين لهما: مارتن هو برافو، وخوسيـه ماريـا هـو تشافيـز. وقد جاء اسم خوسيه من حليف بوليفار وأحد قادة حرب الاستقـلال خوسيـه أنطونيـو بابيـز، وكان تشافيز مـن المعجبين به. أما ماريا فقد جاء من ميسانتا وصرخة أيتها الأم المقدسة التي كان يطلقها كلما توجه إلى الحرب.

نشأت بين الاثنين علاقة وثيقة جداً على الرّغم من أن الشعب الفنزويلي لا يعرف عنهـا إلا القليـل حتـى الآن. فـي الواقع، حتـى بعض المتآمرين مع تشافيز في الجيش لـم يكونـوا علـى علـم بهـا، والسبب في ذلك هو أن تشافيـز كان يدرك أنهم لو علموا بتحالفـه مـع برافـو الشيوعـي، لارتدوا عنهما. وهكذا نجد أن تشافيز كان مرغماً على عيش حياة ازدواجية ليس فقط ضمن الجيش، بل وضمن حركته التآمرية نفسها أيضاً وذلك عبر إخفاء بعض العلاقات عن أولئك الذين سينفرون لو اكتشفوا هويات حلفائه الآخرين. وقد فعل ذلك عن طريق تشكيل خلايا منفصلة دعاها حلقات لا يعرف أعضاء إحداها هويات أعضاء الخلايا الأخرى، كما حصل مع جيسوس أوردانيتا هيرنانديز، أحـد مؤسسـي حركـة تشافيـز في الجيش، إذ لم يكتشف علاقة تشافيز مع برافو إلا في بدايـة التسعينيـات. قـال أوردانيتـا في العام 2005: «لو علمت بأنه كان يملك مثل هذه الصلات، لما اشتركت معه أبداً... كان تشافيز ماكراً من هذه الزاوية. لقد لعب بنا؛ كان يعرف طبيعة كل واحد منا».

فـي الواقـع، لـم يكـن برافو بدوره يريـد أن تكون له أي صلة بجنود من أمثال أوردانيتا، الذي كان يعتبره مجرد نموذج للعسكريين اليمينيين العدائيين. ولهذا السبب، ولكي يجتذب مجموعة مؤيديه في الجيش، لم يبن تشافيز حركته استناداً إلى ماركسية وشيوعية برافو، بل إلى قومية بوليفار وسعيه لتوحيد أميركا اللاتينية. كانوا يستطيعون القبول ببوليفار، أما برافو فلا.

وقـد وصلتـه الرسالـة بوضـوح ذات يوم عندما أخبر حليفـاً مقرباً له بأنه سيلتقي

برافو: «تمثل ردّ فعله بأن سألني ما إذا كنت مجنوناً، إنه شيوعي، متمرد، قتل جنوداً. فأخبرته على الفور بأنها كانت كذبة... لاحقاً تكلمت مع حليف آخر لم تكن سنوات المتمردين حديثة العهد في ذهنه حتى تتكّون لديه فكرة سلبية عن دوغلاس برافو، لكنه رفض أيضاً كحال أصدقائي المقربين الآخرين... ولهذا السبب حافظت على علاقتي مع الحركة [ومع برافو] على نحو شخصي أكثر. واستمررت بالعمل بصفة قومية بوليفارية، وأدركت بأن ذلك كان قادراً على اختراق الجيش؛ كان يسقط مثل بذرة على أرض خصبة. من جهة أخرى، إذا تحدثت عن متمردين سابقين، يصبح تحقيق أي تقدم، أو حتى مجرد نقاش، أمراً بالغ الصعوبة. كان ثمة رفض طبيعي، ناجم بشكل أساسي عن تربيتهم العسكرية».

لم تكن حركة تشافيز الوليدة شيوعية نقية ولا بوليفارية نقية، بل كانت مزيجاً من عدة أشياء، واستمرت بإضافة عناصر جديدة إليها في سياق تطورها حيث ضمت في نهاية المطاف الكثير من النظريات، من الطريق الثالث لطوني بلير في إنكلترا إلى أفكار ماو في الصين، على الرّغم من أن الدافع الأساسي عند تشافيز كان يهدف إلى تصحيح المظالم الاجتماعية في فنزويلا. لكن أوردانيتا - الذي انفصل بشكل غير ودي عن تشافيز لاحقاً لاعتقاده بأن الرئيس كان يخون الجذور البوليفارية للحركة، ويمنح الكثير من السلطة لمدنيين مشبوهين - وصف تشافيز (بقسوة ربما) حيث قال إنه يشبه «ماكينة لسحق قصب السكر. إنه يمسك بك، ويضعك في الداخل، ثم يعصرك ويأخذ منك كل ما يريد أن يأخذه، ثم يرميك في القمامة».

عندما بدأت حركة تشافيز بالتبلور في بداية الثمانينيات، كانت أيام الازدهار النفطي في فنزويلا تقترب من نهايتها الأكيدة؛ مع أن ذلك كان بالنسبة إليه يمثل مصادفة سعيدة. فعلى الرغم من أن البلد حصل بين عامي 1973 و1983 على 150 مليار دولار، إلا أن الكثير من الأموال النفطية اختفت بسبب الفساد المتفشي وعدم كفاءة الحكومة. وفي العام 1978 اتخذت إدارة بيريز «أول خطوة قاتلة باتجاه أزمة الثمانينيات عندما أخذت عدة قروض ضخمة قصيرة الأجل من أجل تغطية موازنة عجز المدفوعات ومواصلة مشاريع التوسع الصناعي». وبدأ الدين الخارجي لفنزويلا بالتضخم، حيث أخذت مجموعة واسعة من الوزارات والمؤسسات الحكومية قروضاً دولية غالباً من دون موافقة البرلمان، وبذلك بقي الحجم الحقيقي للدين غير معلوم لعدة سنوات. وكما تبيّن لاحقاً، نصفه لم يكن مسجلاً أو موافَقاً عليه.

عندما خاض لويس هيريرا كامبينز من حزب COPEI الانتخابات الرئاسية في العام 1978، كان شعار حملته هو *Donde Estan Los Reales?* - أي، أين المال؟ وبعد فوزه بالانتخاب، وفي خطاب توليه الرئاسة الذي ألقاه في شباط 1979 صرح بأنه حصل على بلد مرهون وتعهد بتخفيض الإنفاق. ولكن، بين عامي 1978 و1981،

انتصرت الثورة الإيرانية واندلعت الحرب بين العراق وإيران وارتفعت أسعار النفط مـرة أخـرى، مـن 13 دولاراً للبرميـل الواحـد إلى رقم يحبـس الأنفاس: 34 دولاراً للبرميـل. فانتهـى الأمـر بهيريرا ينفق فـي سنوات إدارته الثلاث الأولى بقدر ما أنفق بيريز في خمس سنوات.

لكن أسعار النفط انخفضت بشدة في بداية الثمانينيات، فانخفضت عوائد الصادرات النفطية من أقل من 20 مليار دولار بقليل في العام 1981 إلى 11 مليار دولار في العام 1983. وفي الوقت عينه، أصبحت الديون الضخمة قصيرة الأجل واجبة الدفع. قاوم هيريرا كامبينز مسألة تخفيض قيمة البوليفار – الذي كان ثابتاً كالصخر في السابق – من نسبـة صرفـه البالغـة 4.3 لكل دولار أميركي بغية التصدي للواقع الاقتصادي المتغير. لكنه بحلول الثامن والعشرين من شباط 1983 لم يعد قادراً على تأجيل المحتوم أكثر من ذلك. وأصبح ذاك اليوم يُعرَف بيوم الجمعة الأسود.

فأعلـن هيريـرا كامبينـز نظام صرف من ثلاثـة مستويات. وبحلول نهاية العام، ازداد معدل صرف الوليفار في السوق الحر ثلاثة أضعاف؛ بعد أن كان يُعتبَر على نطاق واسع العملة اللاتينية الأولى. ومع نهاية السنة التالية، ازدادت نسبة البطالة في المدن بمقدار الضعف تقريباً، من 7.8 إلى 14.3 بالمئة. ووصل الدين الخارجي – الذي كُشف أخيراً للشعب – إلى 34.2 مليار دولار، أي حوالى ضعف الرقم في العام 1978. وهـذا جعـل مـن فنزويـلا رابع أكبـر دولة مديونة في أميـركا اللاتينية، بعد البرازيل والمكسيك والأرجنتين.

قبـل شهريـن مـن يـوم الجمعة الأسود، كانت القـوات المسلحة الفنزويلية تجري استعداداتهـا لإقامـة الاحتفـالات السنويـة بذكـرى وفـاة سيمون بوليفـار، منارة الأمة المضيئـة. وفـي القاعـدة العسكريـة الموجودة في مدينة مـاراكاي، معقل مركز القوى الجوية، كان القادة بحاجة لخطيب. وبما أن تشافيز كان موجوداً فيها بداعي الدراسة، فإنـه كان خيـاراً واضحـاً وضـوح الشمس، وذلـك لأنه خبير لا يُضاهى بكل ما يتعلق ببوليفـار بالإضافـة إلـى شغفـه بالترويج له والتعريف بشخصه، عبر إعارة الكتب التي تتحدث عنه ورسم صوره على جدران الثكنة. وهكذا، في الساعة الواحدة من بعد ظهر السابـع عشـر مـن كانون الأول 1982، اجتمع الجنود في إحدى الباحات المرصوفة، وصعد تشافيز المنبر لإلقاء خطبته.

لـم يكـن خطابـه يحتـوي تلك المـادة الاحتفائية الاعتيادية المتوقعـة في مثل هذه الاحتفـالات الوطنيـة التـي تحيي ذكرى الأجـداد الراحلين، بل كان خطاباً ثورياً نارياً أسـر انتبـاه رؤسائـه وزملائـه مـن الجنود معاً. قال تشافيز بـأن بوليفار ما يزال حياً وغاضباً من الفنزويليين لما تسببوا به من فوضى في بلدهم ومن الأميركيين اللاتينيين لما فعلوه في منطقتهم. وهذه دعوة صريحة للثورة، كما صرَّح لاحقاً:

بـدأت باستحضـار ذكرى [بطـل الاستقلال الكوبي خوسيه] مارتي. «إن بوليفار القابع في سماء أميركا يراقب عابساً... لأن ما لم يستطع فعلـه مـا تـزال هنـاك حاجة لفعله اليوم». وربطـت الظرف الذي كان قائماً آنذاك مع تلك المناسبة. «كيف يمكنكم القول إن بوليفار لم يعد له علاقـة بأميـركا، مـع كل هذا الفقر وكل هذا البؤس؟ كيف يمكنكم القول إن بوليفار لم يعد مهماً؟».

عندما أنهيت الخطاب بعد نحو ساعة... شعرت على الفور بالتوتر الشديـد الـذي أصـاب الضباط. انفض الاجتماع، وبدأنا بمغادرة الساحة هرولـة، كل واحـد بجانـب الآخـر. لكن الميجـور فلوريس جيلان أمر الجميع بالوقوف والانتباه، ثم قال لي بنبرة شديدة الحدة: «تشافيز، تبدو مثل سياسي». وأن تدعو شخصاً في تلك المرحلة بأنه سياسي - وخاصة ضمـن التكنة - فتلـك كانـت إهانة، لأن الحيـاة السياسية كانت منحلة إلى درجـة أن وصـف شخصـ ما بأنه سياسـي كان أشبه بنعته بأنه كاذب، أو ديماغوجي...

أنهـى أحـد الكولونيـلات التوتـر عندمـا أمر الجميع بالصمت. ثـم تابع قائلاً بأن تشافيـز أخبـره بـكل مـا سيقوله في الليلة السابقة. غير أن تشافيز قال لاحقاً بأن «أحداً لـم يصدقـه، لكنـه أنقـذ الموقـف في تلك اللحظة». ثم عاد الجميـع إلى الثكنة. وهناك اقتـرح فيليـب أكوستـا كارلس، وهـو صديق لتشافيز، بأن يذهبا للعدو من أجل إراحة أعصابهما. ودعيا زميلين لهما لمرافقتهما؛ أوردانيتا والملازم رؤول إيسياس بادويل، الذي كان متخلفاً بسنة عن تشافيز وزملائه في الأكاديمية.

بـدَّل تشافيـز زيـه العسكـري، لكنـه لم يجد حذاءه الرياضـي، فانتعل حذاء كرة القاعـدة المدعـوم بنعـل بلاستيكـي إضافي لحمايته من الاهتـراء. كانت الساعة تقارب الثانية ظهراً. ركضوا حوالى ستة أميال باتجاه مكان يُعرَف باسم La Placera وشجرة شهيـرة تُسمـى Saman de Guere يُقـال إن بوليفـار نـام تحتها مع جنوده قبل معركة كارابوبـو الحاسمـة فـي العـام 1821. كان تشافيز يغلي من شدة الغضب. وبينما كانوا يهرولـون خطـر ببالـه أن يطلب من زملائـه تشكيل منظمة تنقذ القيم الوطنية، وتبجل المهنة العسكرية، وتحارب الفساد.

عندما وصلوا إلى الشجرة قدَّم تشافيز اقتراحه فقبلوه. كما ارتجل قَسَماً كي يقسموا به على نية المشاركة، مستفيداً من التعهد الذي قدَّمه بوليفار أمام سيمون رودريغيز في روما في العام 1805 عندما أقسم بأن يكرس حياته لتحرير فنزويلا من نير الإسبان، ومضيفاً إليه ثلاثة من شعارات زامورا الرئيسية:

أقسم بإله آبائي، أقسم بأمتي، أقسم بشرفي بأنني لن أدع روحي ترتاح ولا سلاحي يتراخى حتى أحطم الأغلال التي تقهر شعبي بواسطة إرادة المتنفذين. انتخابات حرة، أرض حرة، رجال أحرار، والرعب للطبقة المتنفذة.

كانت لحظة تاريخية بحق، فتشافيز تمكَّن أخيراً من إنشاء مجموعة سياسية سرية جديدة ضمن الجيش، بعد خمس سنوات من محاولته الأولى والقصيرة الأمد لتكوين خلية سرية صغيرة في غرب فنزويلا. وكان تشافيز آنذاك قد بلغ الثامنة والعشرين من عمره. أطلقوا على مجموعتهم الجديدة اسم الجيش الثوري البوليفاري – 200، أو EBR-200 بالإسبانية. وكانت الأحرف الثلاثة تشير إلى أسماء الأبطال الذين سيمثلون المنارات المرشدة للحركة: إيزيكويل زامورا وسيمون بوليفار وسيمون رودريغيز، الذين أصبحوا الجذور الثلاثة للشجرة، كما سمّاهم تشافيز؛ مستفيدا من دوغلاس برافو والأرجل الثلاث التي تحدث عنها. وأضافوا الرقم 200 كإشارة إلى الاحتفالات التي ستجري بمناسبة مرور مئتي سنة على مولد المحرر في تموز 1783.

غير أن حركته لم تكن واضحة الأهداف، وهو لم يكن يملك خطة ملموسة للإطاحة بالحكومة أو القيام بانقلاب. «في تلك المرحلة، لم تضع الحركة البوليفارية الوليدة أي أهداف سياسية»، يقول تشافيز، «فأهدافها كانت داخلية صرفة وجهودها كانت موجهة بشكل أساسي لدراسة التاريخ العسكري لفنزويلا كأساس لعقيدة عسكرية خاصة بنا، وهذه العقيدة لم تكن موجودة في تلك اللحظة... لقد أسسنا هناك حركة ديمقراطية في المقام الأول. وهناك اكتشفنا المعلم سيمون رودريغيز والقائد سيمون بوليفار والمقاتل إيزيكويل زامورا».

قال أوردانيتا – الذي أصبح في نهاية المطاف واحداً من أشد منتقدي تشافيز – إن الهدف الأساسي للحركة لم يكن «إسقاط الحكومة... إنما كان الهدف هو أن نعي حقيقة بلدنا. كانوا يريدون، من خلال بعض الأساليب، أن يبقوا الجندي بين الجدران الأربعة للثكنة ويعزلوه عن الواقع، أي وطنه. وهذا مستحيل... كنا نمقت الفساد، وندرك بأنه إذا جاء ضابط فاسد وبرفقته مجموعة من الضباط الآخرين فإنهم سيكونون فاسدين مثله. كانوا يسيرون معاً وكانوا أشبه بفريق واحد. ولهذا السبب سميناهم فرق الفساد. وعلى هذا الأساس قلنا لأنفسنا، اللصوص متحدون وفي المقابل الرجال الشرفاء معزولون ويعامَلون بطريقة سيئة من قبل اللصوص. فلماذا لا نتحد أيضاً من أجل مواجهتهم؟ هكذا بدأنا ننظم أنفسنا».

كانت الحركة غير محددة الملامح بحيث إنها كانت تعني لكل شخص من أعضائها شيئاً مختلفاً. فهي بالنسبة لأوردانيتا، المعادي العنيد للشيوعية، كانت حركة وطنية ديمقراطية مستندة إلى قيم بوليفار، لا يسارية ولا يمينية. أما بالنسبة لتشافيز، الذي كان

يعقد اجتماعات سرية مع دوغلاس برافو، فالفكرة كانت تتمثل باستخلاص الأفضل من الأنظمة كلّها ودمجها معاً تحت راية مركزية موحّدة، هي راية بوليفار. كان المحرر هو الجذع، بينما كان رودريغيز وزامورا يمثلان الجذور الرئيسية، أما الأفكار الأخرى والمفكرون الآخرون فكانوا يمثلون النسغ الإضافي المغذي والمرحَّب به للشجرة. أو بحسب كلمات تشافيز: «كان يتوجب على هذه الشجرة أن تكون دائرية، أن تقبل أنواع الأفكار كلّها، من اليمين ومن اليسار ومن البقايا الإيديولوجية للنظامين القديمين الرأسمالي والشيوعي. هناك عناصر أو بقايا عظيمة الأهمية وكان يجب أخذها».

على الرّغم من أن بوليفار كان يمثل القوة الموحّدة المركزية للشجرة، إلا أن زامورا لم يكن أقل أهمية منه بالنسبة لإيديولوجية تشافيز، الذي أعاد إحياءه بعد أن كان مجرد ثائر راديكالي منسي من القرن التاسع عشر. وفي الحقيقة، إن الشبه بين تشافيز وزامورا أكبر من الشبه بينه وبين بوليفار. فالمحرر كان ملّاكاً ثرياً وهجيناً (Creole)؛ شخصاً يملك نسباً إسبانياً. وكان باستطاعة عائلته الأرستقراطية في كاراكاس أن تتحمل نفقات إرساله إلى أوروبا للدراسة عندما كان مراهقاً. أما زامورا، فقد جاء من سهول لانوس، وهو من أصول متواضعة وله علاقة مباشرة مع المزارعين في باريناس.

كان زامورا يحلم بتوحيد المدنيين والعسكريين في مشروعه، ففي صورة شهيرة له رُسمت بعد انتصاره في معركة سانت إنياس، صُوِّر البطل المحارب مرتدياً قبعتين، واحدة فوق الأخرى بطريقة غير مألوفة: الأولى كانت قبعة عادية والثانية كانت عسكرية، كرمز إلى رغبته بتوحيد الجيش والمجتمع المدني. وغالباً ما كان تشافيز يرسم نسخاً عن هذه الصورة عندما كان شاباً مولعاً بالرسم. وبعد سنوات لاحقة كان يرسل بطاقات معايدة مزينة برسم لوجه زامورا. وقد كان ولعه به كبيراً إلى درجة أنه قال لأصدقائه ذات مرة بأنه لو كان التقمص ممكناً، لربما كان هو زامورا في إحدى حيواته السابقة.

بعد الإدلاء بالقسم في ذاك اليوم في ماراكاي، عاد تشافيز وأصدقاؤه الثلاثة إلى الثكنة، على الرّغم من أنه وبادويل قفزا إلى حافلة نقل عام لتساعدهما على إنهاء الرحلة الطويلة. وهناك في الثكنة ناقشوا كيفية تنظيم وتجنيد أعضاء جدد، ومن سينفذ هاتين المهمتين. كما ناقشوا مسألة وضع نظام أمني، واتفقوا على ألا يأتوا بجنود جدد إلى الحركة من دون استشارة الآخرين.

وفي نهاية المطاف، طوروا نظام الحلقات بغية الحفاظ على الأمن. كانت الحلقة الأولى تتكون من الأعضاء مأموني الجانب في الحركة والذين كانوا يشكلون نواتها الداخلية ويمكن الوثوق بهم بشكل مطلق. أما الحلقات الأخرى فكانت تضم مجموعة فرعية من الأعضاء الموثوقين، والجنود الحياديين، والأعداء؛ وهم عملاء استخباراتيين أو خونة يمكن أن يخترقوا ويخونوا الحركة.

كما طورت الحركة نظاماً معقداً للاتصالات، حيث كانوا يحملون معهم كتاباً حول بوليفار من تأليف أوغوستو ميجاريس، وابتكروا مجموعة من الكلمات الشيفرية استناداً إلى نص الكتاب. «إذا اتصلت بي وأخبرتني بأن هاتف أختك أو أمك هو 258342»، يتذكـر تشافيـز، «فـإن 42 يشير إلى رقـم الصفحة وهناك تكمن الكلمات الشيفرية التي نريد قولها». وقد عملت هذه الأنظمة الأمنية بشكل جيد في الواقع، إذ سيدير تشافيز ومجموعته حركتهم الانقلابية السرية داخل الجيش لعقد من الزمن من دون أن يتمكن القادة من إيقافها؛ وفي بعض الحالات لم يكونوا راغبين بإيقافها.

بعـد يـوم واحـد من الإدلاء بالقسم تحت الشجرة العظيمة، كان تشافيز جالساً في مكتبـه عندمـا ركـن أكوستا كارلوس الطائش سيارته، ودخل إليه بحماس شديد ليخبره بأنـه تمكّـن مـن تجنيـد أول شخـص في الحركة. كان تشافيز مسروراً وغاضباً في آن معاً، فهم على الرغم من حاجتهم الماسة إلى أعضاء جدد، إلا أنهم كانوا بحاجة أيضاً لالتـزام أقصـى درجـات الحيطـة والحذر. على أي حال، أكّد لـه أكوستا بأن العضو الجديـد كان اكتشافـاً جيـداً. «علـى الأقـل اخرج وألق نظرة عليـه، إنه في السيارة». فخـرج تشافيـز ليجـد رونالـد بلانكـو لا كروز، وهو جندي واعـد سيصبح واحداً من أهم حلفاء تشافيز.

لـن يمضـي وقـت طويل حتى تنطلق عجلة تجنيد الأعضاء في الحركة؛ وفي قلب الجيش. فقد ارتكب رؤساء تشافيز خطأهم الكبير بتعيينه مدرساً في الأكاديمية العسكرية التـي درس فيهـا. وبذلـك سيتمكن تشافيز من الاتصـال بشكل مباشر مع أفضل وألمع الطلاب العسكريين في فنزويلا.

الفصل السادس

اتساع المؤامرة

حوَّل تشافيز الأكاديمية العسكرية إلى موقع أساسي لتجنيد المؤيدين. في الحقيقة، إن تعيينه كمدرس في العام 1981 كان ضربة حظ لا تتكرر، إذ كان بمتناول يديه فصيلة من الطلاب العسكريين الشبان القابلين للتأثير فيهم، فالكثير منهم أتوا من عائلات فقيرة ويشاركونه قرفه من المؤسسات السياسية والعسكرية الفاسدة في فنزويلا. أصغى الشبان بحماس شديد للحديث الثوري للنقيب الساحر الذي أنفق الساعات في مديح أفكار بوليفار وزامورا ورودريغيز.

يتذكر بيدرو كارينو تلك المرحلة، وهو واحد من أولئك الطلاب العسكريين الذي فاز بعد عقدين بمقعد في البرلمان كجزء من تحالف تشافيز: «كنا نعرف بأن أعداء فنزويلا هم الجوع والفساد والبؤس والبطالة ونهب الثروات الهائلة في البلد. وقد تحدثنا في الأكاديمية العسكرية عن هذا الأمر لأن موضوع الأمن والدفاع ذو أهمية فائقة».

كان تشافيز في البداية وحيداً تماماً، إذ إنه لم يقم بأي فعل إلا بعد أربع سنوات تقريباً من تشكيله الخلية الأولى قصيرة العمر في شرق فنزويلا حين قام مع بعض الجنود الآخرين بدفن القنابل اليدوية في الأرض. «بدأت [في الأكاديمية] بصمت، مع الكثير من الانضباط، والكثير من الانتباه إلى الفتية»؛ أي الطلاب العسكريين.

بدأ تشافيز محاولاته التجنيدية، كما صرَّح في مقابلات إعلامية في نيسان 2007، من خلال التركيز على نحو مئة طالب عسكري كانوا يتدربون تحت إمرته في الأكاديمية العسكرية. ثم تحوَّل إلى ما يقارب الثلاثمئة طالب كان يعلِّمهم في الصفوف. حاول تشافيز الحصول على أكبر عدد ممكن من الساعات في الصفوف التدريسية حتى يبقى على اتصال مباشر مع الطلاب لأطول فترة ممكنة وذلك من أجل اجتذابهم لحركته. كما أدار برامج رياضية أصبحت طريقاً آخر لاجتذاب المؤيدين المحتملين. وبالإضافة إلى ذلك، نظَّم تشافيز أنشطة ثقافية، مثل العروض المسرحية التي تتحدث عن أحداث تاريخية، وفيها لعب الطلاب العسكريون أدوار شخصيات تاريخية متنوعة، من بينها بوليفار وزامورا. وعلاوة على ذلك، كان تشافيز يتحدث إلى الطلاب بشكل منفرد في أثناء أداء خدمة الحراسة أو غيرها من الأنشطة المنفردة. «كانت توليفة متنوعة من الأساليب»، يقول تشافيز، والطلاب «كانوا يمثلون العمود الفقري للحركة الثورية في الجيش».

درّس تشافيز كل الطلاب بعناية بالغة لتحديد إمكانية ضمِّهم لحركته السرية،

حيث تفحص ملفاتهم الشخصية، وعرف كل شيء عن عائلاتهم ومنزلتهم الاجتماعية وجذورهم. كان تشافيز يستبعد تلقائياً أي شخص ينتمي إلى الطبقة العليا. وحتى أولئك القادمين من عائلات فقيرة، كان عليهم أن يُظهروا الموقف المناسب قبل أخذهم بعين الاعتبار. يقول تشافيز: «خطأ واحد كان يمكن أن يكون قاتلاً». مضيفاً بأنه لحسن الحظ لم يرتكب أي خطأ طوال إحدى عشرة سنة من التجنيد داخل وخارج الأكاديمية.

وحالما يصبح متأكداً من رغبتهم بالانضمام إلى الحركة ومن أنهم سيبقون مخلصين لها، كان يتقدم ويضمّهم إليها كأعضاء جدد فيها، بعد أن يكرروا ذلك القسَم الذي أدلاه ورفاقه في 17 كانون الأول 1982. وغالباً كان يحدث ذلك في الليل في ساحة الأكاديمية.

كان تشافيز يتحدث إلى الأعضاء الجدد إما كلّ على حدة أو في مجموعات صغيرة، وكانت الاجتماعات تجري إما في الأكاديمية، أو في شقة يملكها رونالد بلانكو لا كروز في كاراكاس، أو في غرفة صغيرة تقع فوق مرأب منزل إليزابيث سانشيز. لقد نشر تشافيز رسالته الثورية في الأكاديمية بصفته أستاذاً للتاريخ والعقيدة العسكرية. فضلاً عن أنه كان يعلّق أقوال بوليفار وزامورا وررودريغيز وميسانتا إلى جانب معلومات عن كل منهم على لوحات الإعلانات في الأكاديمية. وفي بعض الأحيان كانت جهوده بالكاد مموَّهة. فعندما كان يأخذ جنوده - كما يفعل بقية الضباط - للجري في الساعة 4:30 صباحاً، لم يكونوا ينشدون أناشيد الحرب التقليدية، بل كان يجعلهم يغنون أنشودة من حقبة الحروب الفدرالية في مديح واحترام زامورا:

إن السماء القاتمة تنذر بعواصف قادمة،
والشمس وراء الغيوم تفقد لمعانها المضيء
المتنفذون يرتجفون، تعيش الحرية!
على صوت البوق، ستدمر قوات
زامورا ألوية الأنذال الرجعيين.

إن الاتصال مع الجنود الشبان شحذ همة تشافيز من جديد وضخ الحياة في المنظمة الوليدة. وعلى الرّغم من أن تشافيز كان يعمل تحت مرأى ومسمع رؤسائه، إلا أن قلة منهم ارتابوا في ما يفعل، إذ غالباً ما كان يتحدث أو حتى يتصرف مثل عدو في الجيش كي يخدع أصحاب الرتب العالية، كما صرَّح في نيسان 2007.

يقول تشافيز: «يمكنني أن أبين لكم من دفتر ملاحظاتي كيف كنا نعمل في الصفوف الدراسية في الأكاديمية العسكرية، وخلال ساعات الدراسة الاعتيادية، وفي الساحات، وعندما كنا نجري. عندما وصلت إلى هناك، كنت لا أزال مرتاباً... يالها من ورطة، ماذا أفعل هنا؟ لكنني أحسست بذلك الدافع للعمل السياسي. أحسست بذلك الشيء داخلي وتأقلمت مع هذا التناقض. لكن الطلاب العسكريين هم الذين حفزوني

وأنهــوا الورطــة... لقــد أعطونــي قوة غير عادية فنسيــت نهائياً طلب تسريحي أو أي خيــار آخــر... معهــم كنــت أعود لأكون مجــرد طالب عسكري آخر. إنك تعيش نقاء الشبــاب هنــاك. هنــاك نشأت الثورة... ولهذا السبب أنا أدعوه صف تخرجي الثاني. لقد بقيت معهم طوال أربع سنوات تقريباً».

يظن كارينو بأنه مع اقتراب مرحلة انتهاء الطلاب من دراستهم، كان ما لا يقل عــن 30 مــن 133 خريجــاً قد أصبحوا أعضــاء في الحركة. وقبل مغادرتهم الأكاديمية وتعيينهم في مواقع متنوعة في مختلف أنحاء البلد، تعهدوا بالحفاظ على الاتصال مع اثنين من الطلاب العسكريين على الأقل كي لا تموت الحركة. لقد أفرزت دفعة 1985 رفاقاً في السلاح وبعضاً من الأعضاء المحوريين في حركة تشافيز. وكان من بينهم ديوزدادو كابيلو وفلورينسيو بوراس، اللذان سيصبحان بعد عقدين من الزمن حاكمي ولايتين فنزويليتين إثر تولي تشافيز السلطة.

بالإضافة إلى التدريس، كانت كرة القاعدة وسيلة تشافيز الثانية في تجنيد الطلاب. حيث قام بتنظيم فريق لكرة القاعدة في الأكاديمية وفي بعض الأحيان، كان يأخذهم في عطلة نهاية الأسبوع في أحد الباصات العسكرية إلى منزل سانشيز، وهناك كانوا يحتفلون بانتصارات الفريق وفي النهاية كانوا يعقدون اجتماعات للحركة البوليفارية. وفي ذلك المنزل أيضاً، واصل تشافيز لقاءاته السرية مع مارتن؛ أي دوغلاس برافو.

وفــي خضــم كل ذلــك التآمــر، كان تشافيز رجلاً يحــب عائلته أيضاً. حيث كان ونانســي كولميناريــس مشغوليــن مع أطفالهما الثلاثــة، روزا فيرجينيا وماريا غابرييلا وهوغو رافاييل. في الحقيقة، لا يختلف أحد، حتى أولئك الذين سيصبحون لاحقاً أعداءه السياسيين، حول حقيقة أنه كان والداً محباً وحنوناً، إذ كان يمضي مع عائلته أطول فترة ممكنة على الرّغم من أنشطته العديدة. وكان يتأكد من حصول أطفاله على اللباس المدرسي والكتب والاحتياجات الأخرى. غير أن أفكاره الثورية لم تكن بعيدة عن ذهنه حتى في أثناء تربيته لأطفاله. إذ عندما بدأ الأولاد يكبرون، كان تشافيز يساعدهم في رسم بطاقات لمناسبة الميلاد. وكانت تلك البطاقات تحوي صورة لسيمون بوليفار.

فــي بعضــ الأحيــان بــدا الأطفال محتارين بفعل نمط حياة تشافيز غير الاعتيادي ومهمته الغامضة التي أخذت كل وقته. ففي العام 1995، كتبت له طفلته الثانية، ماريا غابرييلا، وكانت آنذاك في الخامسة عشرة من عمرها، رسالة مؤثرة حول علاقتهما: «منذ أن كنت طفلة، أحاول أن أفهمك يا أبي. كانت هناك أشياء لم أستطع فهمها لكنني فهمتهمــا الآن. إنهــا النضــال، وحب البلــد، والإنسانية». تذكّرت كيف أنه أخذهم إلى مزرعــة يمــر فيهــا نهر يغري بالسباحة - لكنهم لم يكونوا يملكون لباس السباحة - بسبب ذلك الغموض. كما تذكرته يقرأ لهم قصائد عن بوليفار، وكيف أنه مزّق مرةً ورقة ماليــة كانــت هــي وأختهــا تتقاتــلان عليها، قائــلاً لهما: «المال لا يســاوي شيئاً، الحب

يساوي كل شيء». ثم أنهت الرسالة بقولها: «أنت حبي الكبير، ومعلمي، وأخي، وأعز أصدقائي، وأبي. أنا أطلب منك، رجاءً، ألا تدع قاربك يبتعد عن قاربي».

كانت ماريا غابرييلا وأولاد تشافيز الآخرون من زواجه الأول يتجنبون الأضواء إلى حدٍّ كبير. وكذلك كانت أمهم، نانسي كولميناريس، التي نادراً ما يتحدث عنها تشافيز علناً. تقول بعض الروايات بأنها كانت امرأة متواضعة ومجتهدة ومحبوبة في مسقط رأسها بارينياس، إلا أنها لم تكن تشارك تشافيز شغفه بالتاريخ، أو ولعه ببوليفار، أو قلقه المتنامي على مستقبل فنزويلا.

غير أنه قابل امرأة أخرى في العام 1984 كانت تشاركه هذه الاهتمامات كلّها. إنها هيرما ماركسمان، وهي أستاذة في مادة التاريخ كانت تمر بفترة طلاق عصيبة في ذلك الحين، وكانت في طريقها للانتقال إلى كاراكاس من مدينة سيوداد بوليفار الشرقية للبدء بحياة جديدة. كانت تأمل بالتدريس في مدرسة ثانوية ونيل دبلوم في تاريخ فنزويلا الاجتماعي والاقتصادي. وكانت أختها كريستينا تعيش في منزل إليزابيث سانشيز الفسيح في كاراكاس، فانضمت هيرما وولداها مؤقتاً إليها حتى تتمكن من إيجاد منزل دائم لها. في تلك الفترة، كانت هيرما تتنقل جيئة وذهاباً بين العاصمة وسيوداد بوليفار.

ذات ليلة في نيسان 1984، كانت ماركسمان وسانشيز في الطابق العلوي من المنزل عندما توقفت سيارة في الخارج ترجّل منها هوغو تشافيز. فطلبت سانشيز من ماركسمان أن تستقبله على الباب وتسأله عما يريد لأنها كانت تحضر نفسها للخروج.

كان تشافيز برفقة أخيه أرجينيس وقد جاء ليسأل إذا كان باستطاعته استعارة منزل سانشيز في الليلة التالية. كان فريقه لكرة القاعدة سينهي إحدى البطولات في اليوم التالي، ويريد أن يحتفل في حال فوزهم فيها. فقالت له ماركسمان بأن سانشيز لا تمانع، وجلس الاثنان وتجاذبا أطراف الحديث قليلاً، فوجدا بأنهما كانا يملكان بعض الأشياء المشتركة. «في تلك الليلة بدأنا نتحدث كما يتحدث أي شخصين آخرين. لقد أظهر قلقاً كبيراً على القوات المسلحة وعلى انحلال البلد، بينما تكلمت أنا عن التعليم... والحاجة لابتداع بعض الحلول، وتطبيق إصلاحات». وعندما نهض تشافيز مغادراً، أعطاها بطاقته الشخصية، وطلب منها الاتصال به في حال احتاجت أي شيء.

في اليوم التالي نسيت ماركسمان كل شيء عن تشافيز، لكنها تفاجأت عندما عادت إلى البيت قرابة منتصف الليل بعد تناولها طعام العشاء مع بعض الأصدقاء، ووجدت حافلة عسكرية مركونة أمام البيت. كان تشافيز وفريقه يحتفلون في الداخل. دخلت ماركسمان، وألقت التحية على الجميع، ثم ذهبت إلى المطبخ لتناول كوب من الماء، وبعد ذلك عادت لتتمنى ليلة سعيدة له. كانت بحاجة للنوم لأنها ستذهب باكراً إلى بوليفار. بيد أن تشافيز لم يكن ليتركها تذهب بسهولة، على حدّ قولها: «قال لي، لا، دعينا نتحدث. ما تكلمنا عنه البارحة كان شيقاً للغاية. ابقي معنا لبعض الوقت. وهكذا بقيت، وهنا بدأنا نتعرف بعضنا إلى بعض».

طارت إلى بوليفار في الصباح التالي لاستكمال تحضيراتها للانتقال إلى كاراكاس. في تلك الأثناء، لم يتوقف تشافيز (بحسب روايتها) عن سؤال أختها كريستينا عنها وعن طلب رقم هاتفها. فأخبرته كريستينا بأن عليه الانتظار حتى تعود هيرما. أخيراً، انتقلت ماركسمان للعيش في كاراكاس نهائياً في آب 1984 وبدأت تلتقي بتشافيز بصورة متكررة في المنزل. «في البداية اعتقدت بأنه كان يقصد ذلك المنزل لأسباب تتعلق بالصداقة فقط، وذلك لوجود علاقة جميلة جداً مع تلك العائلة، أي مع إليزابيث وأولادها وهو. لكنني كنت أنزعج عندما كان يأتي أحياناً ويسأل، هل اتصل مارتن؟ هل أتى مارتن؟ وذات مرة سألت إليزابيث، من هو مارتن؟ فقالت لي، حسناً إنه صديق نيلسون [سانشيز] يأتي أحياناً للتحدث مع هوغو».

كان مارتن لغزاً بالنسبة لماركسمان. ففي كل مرة كان على وشك القدوم إلى المنزل، كانت تحدث أمور غريبة. كانت هيرما تملك غرفة في الطابق الثاني وكانت إليزابيث سانشيز تطلب منها أن تبقى فيها، لأن اجتماعاً سيحدث في إحدى الغرف في الأسفل ولا يجب على أي أحد أن يفتح الباب. وماركسمان لم تكن تعرف ماذا يحدث في الأسفل.

وازداد الغموض ذات يوم عندما سافرت إليزابيث خارج المدينة. فقررت ماركسمان أن تنظف غرفة تخزين مغبرة في مؤخر المنزل كانت تستخدم لغسل الثياب وتعليقها كي تجف. كانت الغرفة مليئة بالمجلات والكتب والوثائق. وعندما شرعت ماركسمان بتنظيف الغبار من الغرفة استرعت انتباهها أشياء معينة، منها مجلة *Ruptura* التابعة لمجموعة برافو، والكتاب الأحمر لماو تسي تونغ، ومؤلفات يسارية أخرى.

عندما عادت سانشيز، قالت لها ماركسمان: «أريد أن أعرف ماذا يجري في هذا المنزل، لأنني أعيش هنا مع ولدي وأختي أيضاً». أخذت سانشيز على حين غرة وشعرت بأنه لم يعد بوسعها إخفاء الحقيقة أكثر من ذلك. فأخبرت ماركسمان بكل شيء. الكتب تعود إلى ابن عمي نيلسون - والكلام لإليزابيث - وهو كما تعلمين يملك أفكاراً يسارية. إنه عضو في حزب PRV (حزب فنزويلا الثوري). وسأخبرك من هو مارتن. أعتقد بأن الوقت حان كي تعرفي الحقيقة. إن مارتن ليس سوى دوغلاس برافو، وابن عمي يده اليمنى وهو يعمل على تشكيل مجموعة مدنية-عسكرية. «شرحت الأمر لي فعرفت لماذا كان [تشافيز] يأتي إلى المنزل بصورة منتظمة، ولماذا كان يجلب معه أحياناً الفتية من الأكاديمية... وهكذا بدأت أتعرف عليه شيئاً فشيئاً».

صحيح أن ماركسمان أحست بالقلق، لكن إعجابها بما باحت به إليزابيث كان أقوى بكثير. وهكذا بدأت ترى تشافيز أكثر من ذي قبل. وفي ذكرى مولدها الخامس والثلاثين - في شهر أيلول من ذاك العام - جاء تشافيز إلى البيت حاملاً معه باقة كبيرة من الأزهار للاحتفال مع بعض الأصدقاء الذين كانوا موجودين هناك أيضاً. وعند انتهاء الحفلة ودَّع تشافيز الحاضرين ثم توجه إلى ماركسمان وقال لها إنه يريد أن

يتحدث معها في مسألة جدية. ودعاها لتناول القهوة خارج المنزل.

وفي يوم الاثنين التالي، مر تشافيز بها وأخذها إلى حي تجاري يُدعى سابانا غراند يقع شرق كاراكاس. وبينما كانا يجلسان في أحد المقاهي يحتسيان القهوة، أفضى تشافيز لها بكل شيء. بحسب رواية ماركسمان، قال لها إنه كان معجباً بها وإنّه سيكون صريحاً معها. أنا شخص يعيش حياة مزدوجة. في النهار أنا ضابط في القوات المسلحة. أنا أنتمي إلى الجيش وأحاول إتمام واجباتي. لكنني أيضاً أملك نشاطاً خطيراً آخر، إذ إنني أكرس بقية وقتي لحركة سرية تُدعى EBR؛ الجيش الثوري البوليفاري. إنها تتكون من ضباط في الجيش، لكننا بحاجة أيضاً لتجنيد المدنيين. وأريدك أن تشاركيني في هذا النضال حتى النهاية. «منذ تلك اللحظة، بدأت أساعده على تحضير الاجتماعات».

كان تشافيز معروفاً بين أصدقائه بأنه زير نساء، وهو أمر ليس بغريب في فنزويلا حيث قلة من الزيجات تعرف الإخلاص. وماركسمان كانت تعرف ذلك مسبقاً، إذ أخبرها أحد مؤسسي EBR-200، جيسوس أوردانيتا، مازحاً: «عندما كان تشافيز شاباً، لم يكن بإمكانه أن يرى تنورة عصا مكنسة لأنه كان سيقع في الحب».

مع ذلك، فالعلاقة مع ماركسمان كانت مختلفة تماماً. فهي كانت امرأة مثقفة وجدية. وما جمعها مع تشافيز هو ولعهما المشترك بتاريخ فنزويلا ورغبتهما بإصلاح البلد. ولم تنجذب ماركسمان له بسبب شكله الخارجي، إذ كان تشافيز نحيلاً وبعيداً عن الوسامة، بل بسبب اهتماماته ومهمّته المستلهمة من بوليفار. وهو علاوة على ذلك كان من سكان السهول الساحرين. كان يدخل في نقاشات لاهبة تدوم لساعات، ويسرد القصص، ويلقي النكات، ويغني أغاني سكان السهول.

لم يمض وقت طويل حتى تحولت ماركسمان إلى مانويلا سايينز الخاصة بتشافيز، تلك المرأة التي ساعدت المحرر في نضاله من أجل الاستقلال والتي اعتبرها البعض من أكثر النساء تأثيراً - على الرّغم من إهمال المؤرخين لها - في تاريخ أميركا اللاتينية. ساعدت ماركسمان تشافيز في تنظيم اجتماعات المتآمرين البوليفاريين، حيث كانت صلة وصل رئيسية بين تشافيز ومجموعته العسكرية، كما كانت تحذرهم عندما يكون المحققون العسكريون يفتشون عنهم. وكانت تدوّن الملاحظات في الاجتماعات وتحتفظ بأرشيف من وثائق تشافيز السرية، مع أنها حرقت بعضها عندما اقتربت السلطات من الوصول إلى هذه الوثائق. وقد احتفظت بالكثير من آثاره الشخصية بغية حمايتها من التلف، مثل أول قصة شعر له، صور عائلية، مفكرات شخصية، رسائل، مقالات صحفية، وشهادات.

هكذا تحوّلت الشقة التي اشترتها ماركسمان في حي El Paraiao في كاراكاس في 1985، والذي يقطنه أناس من الطبقة الوسطى، إلى ملجأ لتشافيز، الذي غالباً

ما كان يأكل وينام ويقابل شركاءه فيها. وفي بعض الأحيان كانت ماركسمان ترافقه عندما كان يجوب البلد سراً للاجتماع بجنوده في أوقات فراغه. وثمة أوقات اضطرت فيها للقيادة لساعات عندما كان الإعياء ينال من تشافيز - الذي لا يعرف التعب عادةً، والذي ينام ثلاث ساعات فقط في اليوم - فيغط في النوم في مقعد الركاب.

لـم تكـن ماركسمـان مجـرد سائقة أو سكرتيرة، بل كانت شريكة محترمة بالنسبة لتشافيـز الـذي كان يصغـي إلـى آرائها بانتباه ويعمل بها أحياناً. وكما كانت سايينز مع بوليفار في أحلك لحظاته، كانت ماركسمان في بعض الأحيان الشخص الوحيد تقريباً الموجـود إلـى جانـب تشافيـز عندما كانت الحركة تبدو وكأنها على حافة الانهيار. وقد أصبحـت متورطـة فـي المؤامـرة إلى درجة أنها حصلـت على اسم حركي خاص بها؛ القائد بيدرو.

قبـل أن تربطهمـا علاقـة رومانسيـة، اعترف تشافيـز لماركسمان ذات يوم بأنه أرسل بعض أصدقائه للتنقيب عنها وعن خلفيتها للتأكد من أنها لم تكن جاسوسة وأنها لن تخونه وتخون الحركة. مع ذلك فقد كان تشافيز رقيقاً ورومانسياً، إذ إنه غالباً ما كان يجلب لها الورود أو الشوكولاته، ويغني لها ويأتي لها بالدواء عندما تمرض.

لكنـه يبقـى تشافيـز علـى أي حال. فـأول هدية أعطاهـا لماركسمان كانت نسخة مـن كتـاب يتحـدث عـن ميسانتا من تأليف طبيب باريناس خوسيه ليون تابيا، الكتاب الـذي كشـف لتشافيـز لأول مرة الجانـب الآخر من قصة جده الأكبر. وعندما سقطت ماركسمان عن السلم وجرحت مقدمة رأسها كان تشافيز يزورها يومياً إلى أن تعافت كليـاً، وفـي إحـدى الليالـي، جاء حاملاً معه أشرطة مسجلة لقارئ يسرد خطب بوليفار ويقرأ بعض وثائقه. والقصد من هذه الهدية، بحسب ما أخبرها تشافيز، هو أن تشغّل الأشرطة عندما تكون نائمة فيصبح المحرر متواجداً معها دائماً.

لـم يكـن تشافيـز يملـك وقتاً لممارسة الأنشطة التافهة، لأنه كان يحمل على عاتقه مهمـة أعظـم بكثيـر، ألا وهـي إنقاذ فنزويلا. وفي هذا الخصوصـ تقول ماركسمان: «قـال إن الهـدف مـن حياتـه هو تحقيق مشروعه. إنه يشعر بأن ثمة مهمة ينبغي عليه إنجازها وهو سينجزها... إن الاهتمام الشديد بأولئك الذين لا يملكون شيئاً كان دائماً معلمـاً بـارزاً فـي حياتـه (المهمشون). ربما لأنه عاش في وضع شبيه حيث كان يفتقر إلى الكثير من الأشياء».

في السنوات التسع التي كانا خلالها متقاربين لم تسنح لتشافيز وماركسمان تقريباً أي فرصـة لمشاهـدة فيلـم سينمائـي معاً. وهي تتذكـر فيلماً واحداً فقط شاهداه معاً على التلفزيون، وكان بعنوان **رؤيا مميتة**. ومع ذلك فقد كانت علاقتهما منسجمة إلى حدٍّ كبير. لم يكونا ميالين لقضاء الوقت في المراقص أو على شاطئ البحر شأن الكثير من الفنزويليـيـن، بـل كانـا يفضـلان البقاء في المنزل والقراءة، وغالباً ما كان تشافيز يقرأ في منزلها. قالت ماركسمان، التي ستنفصل عنه غاضبة في ما بعد: «إن الصورة التي

أملكها عن هوغو تشافيز هي أنه رجل يقرأ على الدوام». كان يقرأ كل شيء، لكنه كان يستمتع خصوصاً بالقصص التاريخية والقصص التي تتحدث عن القادة العظماء. وكان لديه كتاب عن كيفية الإدلاء بالخطب في مناسبات مختلفة، مثل المناسبات الجنائزية أو الجماهيرية أو السياسية. ومنذ اللحظة الأولى التي قابلته فيها، عرفت ماركسمان بأن تشافيز سيصل إلى مراتب رفيعة جداً. «كانت لديه عزيمة لا يمكن تثبيطها. كان يعرف ما يريد وإلى أين يسير».

عندما التقت ماركسمان بتشافيز، كانت حركته آخذة بالتقدم. كانت الحركة تشهد مرحلة من التمدد دامت من 1982 إلى 1986، وخلالها كانت تعقد اجتماعات منتظمة، غالباً في منازل أو شقق خاصة بحضور بضعة أشخاص فقط وذلك لدواعٍ أمنية. كانوا يوكلون لبعض الأعضاء مهمة التحدث لمدة خمس دقائق في مواضيع مختلفة. فعلى سبيل المثال، أوكل إلى ماركسمان موضوع سيمون رودريغيز في أحد الأوقات فكان عليها أن تجري دراسة عنه وتقدم عرضاً قصيراً حوله. فيما أرسل آخرون للتحري عن مشكلات النظام التعليمي أو الاقتصادي في فنزويلا والعودة بتقرير إلى المجموعة. كان تشافيز يريد تحضيرهم في حال استلم أحد منهم منصباً ما. لم يعرف الضباط أي شيء عن اجتماعاته الخاصة مع برافو وطلب من ماركسمان أن تبقي الأمر سراً، لأنه كان يعلم بأن معظمهم لن يتقبل الأمر.

بالإضافة إلى نجاحه في تجنيد الطلاب في الأكاديمية العسكرية، استأنف تشافيز صلاته بحزب القضية الراديكالية La Causa R. وكان آنذاك قد أصبح رجلاً مختلفاً تماماً عما كان عليه في ذلك اليوم من العام 1978 عندما التقى سراً ألفريدو مانيرو وبالكاد فتح فمه. فقد أصبح تشافيز الآن واثقاً من نفسه إلى درجة كبيرة ويعرف تماماً إلى أين يمضي. وكان قد تقابل مع زعيم حزب القضية الراديكالية بابلو ميدينا لفترة وجيزة في العام 1983 بعد وفاة مانيرو، لكن اللقاء لم يحقق أي شيء يُذكر. غير أنه قرر الاتصال بميدينا ثانية بعد سنتين.

ولم يكن بالإمكان أن يحدث ذلك اللقاء في وقت أفضل من ذلك الوقت بالنسبة لزعيم حزب القضية الراديكالية، فحزبه كان يعاني من التفكك بعد رحيل شخصيته المركزية مانيرو في 1983. كما أنه عانى من سلسلة من الهزائم. فقد توسط أكبر اتحاد في فنزويلا (CTV) - الذي يسيطر عليه حزب العمل الديمقراطي - لدى اتحاد العمال في سيوداد غوايانا وطرد ثلاثة آلاف عامل مقوضاً بذلك نفوذ حزب القضية الراديكالية، الذي لم يكن له وجود يُذكر خارج سيوداد غوايانا. ففي كاراكاس مثلاً كان عدد أعضائه لا يتجاوز نصف دزينة من الأشخاص. «كان يتوجب علينا أن نرفعه من لا شيء». على حد قول ميدينا.

إذاً، كانت عودة تشافيز أكثر من مرحَّبة. وضع الاثنان لنفسيهما اسمين رمزيين،

فاختار زعيم حزب القضية الراديكالية له اسم *luz* – أي الضوء – لأن تشافيز كان يمثل بالنسبة لميدينا وحزبه الضوء في نهاية النفق. ومنذ ذلك الحين، أسس قادة حزب القضية الراديكالية وتشافيز علاقة عمل وثيقة. ولعب ميدينا على وجه الخصوص دوراً هاماً في الأمور اللوجستية الخاصة بحركة تشافيز، حيث أمَّن الشقق أو المنازل من أجل الاجتماعات، كما استطاع تأمين المال لإصلاح سيارته. بل إنه أرسل طائرة لنقل تشافيز عندما كان متمركزاً في مناطق بعيدة في فنزويلا إلى اجتماعات سرية في بقاع أخرى من البلد. أما ماركسمان فقد لعبت دور الوسيط بين الرجلين.

كان لدى تشافيز الكثير من العمل. فعلى الرغم من أنه رُقي إلى رتبة نقيب حينذاك، إلا أنه كان في أوقات فراغه يجوب البلاد طولاً وعرضاً بغية البقاء على اتصال مع أعضاء الحركة ولتجنيد أعضاء جدد أيضاً. بحسب ميدينا، أراد تشافيز ذات مرة أن يعقد اجتماعاً يضم مئة ضابط منتسب للحركة، وهو ما اعتبره ميدينا ضرباً من الجنون، وذلك لأن الاستخبارات العسكرية قد تكتشف وجودهم وتزجهم في السجن. نصح ميدينا، على حد قوله، تشافيز بالعدول عن الفكرة، فقبل الأخير النصيحة. ومن جهة أخرى، كان برافو بدوره قلقاً من سرعة تنامي الحركة، فقد أحس بأن انتساب عدد كبير من الأعضاء الجدد إلى الحركة قد يهدد باختراقها من قبل عملاء الاستخبارات. فنصح تشافيز بأن يوقف التوسع ويغلق الدائرة، غير أن الأمر كان محتوماً هذه المرة.

أصبحت مؤامرة تشافيز ناجحة إلى درجة أنهم أطلقوا بدءاً من 1985 سلسلة من خمسة مؤتمرات وطنية عُقدت في مناطق مختلفة من البلد. جرى الأول في 9 تشرين الثاني 1985 في منطقة كاتيا لا مار القريبة من مطار سيمون بوليفار الدولي الواقع على الساحل الكاريبي والذي يبعد نحو نصف ساعة بالسيارة من كاراكاس. وقد حضّروا للأمر باستخدام منزل أحد أصدقاء رونالد بلانكو في عطلة نهاية الأسبوع، ودعوا أكثر من عشرين شخصاً – معظمهم جنود وبضعة مدنيين تقدميين – ثم أعدوا وليمة كاملة (شواء وشراب وموسيقى)، لكن الحفلة لم تكن أكثر من غطاء، فالهدف الحقيقي هو تنسيب أعضاء جدد ومناقشة مشروع المجموعة وتحليل الوضع السياسي الوطني. تقابل الحاضرون معظمهم في غرفة واحدة داخل المنزل، في حين بقي بعضهم في الحديقة خارجاً لإعطاء مظهر وجود حفلة، حتى إن بعضهم رقص على موسيقى السالسا.

أخذ تشافيز فكرة عقد المؤتمرات خلال نقاش مع زعيم من الحزب الشيوعي في ميريدا كان ابنه، روبن أفيلا، طالباً في الأكاديمية العسكرية. كما وضع برنامج عمل لمجموعته – مستعيراً أسلوب عمل الحزب الشيوعي – ووزعه مقدماً، وأوكل مواضيع معينة لبعض الأعضاء من أجل تقديمها. لكنهم لم ينسوا تمويه الأفكار تحسباً لوقوعها في أيدي العدو.

في تلك المرحلة، انتقل تشافيز من طور تحليل الوضع الاجتماعي السياسي في

فنزويلا وأفكار بوليفار إلى تقييم إمكانية إحداث نوع من ثورة عسكرية-مدنية أو القيام بأفعال تخريبية أو حتى انقلاب شامل. فهو لم يعتقد بأن تشكيل حزب سياسي سيجدي نفعاً، وذلك لأن حزبي AD وCOPEI كانا يقبضان بقوة على النظام الانتخابي عبر التزوير والمال السياسي. مع ذلك، فلم يكن واضحاً متى ستحين لحظة العمل للإطاحة بالنظام، فالخشب كان لا يزال رطباً، على الرّغم من أنه كان يجف شيئاً فشيئاً.

بعد خمسة أشهر، في آذار 1986، عقد تشافيز اجتماعاً آخر. لكن هذا الاجتماع كان له هدف خاص، ألا وهو ضم فرانشيسكو أرياس كارديناس (الذي تخرج من الأكاديمية العسكرية قبل تشافيز بعام واحد) إلى الحركة. وقد كان أرياس على اتصال، منذ أواخر السبعينيات حتى بداية الثمانينيات، مع مجموعة ويليام إيزارا السرية المتمركزة بشكل رئيس في القوى الجوية. لكن إيزارا غيَّر أخيراً اسم المجموعة إلى ARMA (تحالف الجنود الثوريين) بما أن اسم R-83 لم يعد مناسباً، إذ جاء العام 1983 وانقضى ولم تلح بشائر الثورة. وكان أرياس أيضاً على اتصال مع هارولد، أي نيلسون سانشيز، صلة الوصل بين PRV والجيش.

كان انطباع تشافيز حول أرياس كارديناس جيداً، فالرجل كان ضابطاً محترماً وذكياً وله أتباعه الخاصين به ضمن الجيش. ولهذه الأسباب كان تشافيز يريده أن ينخرط أكثر في EBR-200.

وُلد أرياس كارديناس في مدينة ماراكايبو النفطية الغربية، وأمضى في مرحلة الطفولة والمراهقة عشر سنوات في مدرسة دينية صغيرة وكان ذلك خلال الستينيات. وهناك أنفق ساعات وهو يدقق في الوثائق المتعلقة باجتماع الفاتيكان الثاني الهام «Vatican II» (اجتماع أساقفة أميركا اللاتينية الذي جرى في ميديلين، كولومبيا، في العام 1968، حيث أعلنوا عن وجود خيار أفضل للفقراء) بالإضافة إلى معلومات تقدمية أخرى من تلك الحقبة. غير أنه ترك المدرسة الدينية في نهاية المطاف لأنه كان يعتقد بأن القساوسة الذين قابلهم هناك كانوا يحجزون أنفسهم بين الكنيسة والصفوف الدراسية بعيداً عن المجتمع والحياة في الشوارع. لكنه على أي حال ترك المدرسة متشرباً قيم اجتماع الفاتيكان الثاني، واللاهوت الليبرالي، والعدالة الاجتماعية للفقراء.

في أواخر مرحلة المراهقة، فكّر كارديناس بأن أمامه خيارين لا ثالث لهما، إما أن يسجل في الجامعة أو ينضم إلى الجيش. غير أنه استقر في النهاية على الأكاديمية العسكرية وذلك لأن عائلته لم تكن تملك المال من أجل دخول الجامعة. كان أرياس، مثل تشافيز، طالباً جيداً يبشر بمستقبل واعد كضابط متخرج من أكاديمية ويست بوينت الفنزويلية. لكنه، مثل تشافيز أيضاً، كان يشعر بالقلق من المؤسسة السياسية الفاسدة ويتألم بشدة لمعاناة جماهير الفقراء. باختصار، كان أرياس جندياً جيداً، لكنه بقامته القصيرة والنحيلة وصوته الرقيق، كان يبدو ويتكلم مثل قسيس.

في آذار 1986، دعا تشافيز أرياس لاجتماع سينظمه في مدينة سان كريستوبال في ولاية تاتشيرا على الحدود الكولومبية، وكان أرياس يخدم في منطقة قريبة. كان اجتماعاً صغيراً وكانت ماركسمان موجودة فيه.

بما أن تشافيز وبقية المجموعة كانوا يعرفون بأن عملاء الاستخبارات يلاحقونهم، اتخذوا احتياطات أمنية إضافية. فوضعوا في حسبانهم احتمالين اثنين هما: اقتحام الشقة، وذلك كان سيتطلب هروباً سريعاً؛ ومحاصرتهم، الأمر الذي كان سيرغمهم على القتال دفاعاً عن أنفسهم. وهكذا اجتمعوا في شقة تقع في الطابق الخامس أو السادس من أحد الأبنية وجلبوا معهم حبالاً لاستخدامها في التدلي من جانب البناء في حال اضطروا للهرب. استمعت ماركسمان بدهشة وارتباك إليهم بينما كانوا يرشدونها حول كيفية استخدام الحبل، غير أنها لم تكن تتصور نفسها متدلية من إحدى النوافذ وهي ممسكة بحبل، فهي كانت تعتقد بأنها ستضطر ببساطة للاستسلام.

كما ملأ الثوار الشقة بالبنادق الهجومية والقنابل اليدوية وطعام يكفي لمدة أسبوع استعداداً لحصار طويل. حتى إن تشافيز قاد دبابة صغيرة من قرية إلورزا النائية التي تبعد مئات الأميال (نُقل إليها قبل عدة أشهر) إلى منطقة قريبة من سان كريستوبال. والغريب في الأمر هو أن أحداً في الجيش لم يوقفه وكأن رؤساءه كانوا غافلين تماماً عن أنشطته؛ مع أنه سيدرك لاحقاً بأن ليس كل رؤسائه كانوا قليلي الانتباه.

حضّر تشافيز للاجتماع بعناية بالغة، حيث جلب معه مجموعة من الألواح البلاستيكية ووضعها على مسلاط للضوء من أجل شرح النقاط الرئيسية في مشروعه البوليفاري. وتحدث ورفاقه عن الجذور الثلاثة، بوليفار ورودريغيز وزامورا، وعن الفساد في القوات المسلحة، وعن الوضع السياسي المحزن كذلك. وتطرقوا أيضاً إلى الحاجة إلى حركة مدنية عسكرية لكسر قبضة الطبقة المتنفذة الممسكة بالبلد عبر وكلائها السياسيين.

وافق أرياس على معظم النقاط، لكن النقاش تحوَّل بحلول الساعة الثالثة بعد منتصف الليل - بعد ست أو سبع ساعات من بدء الاجتماع - إلى كيفية تحقيق أهدافهم. قال تشافيز إنه على المجموعة أن تشعل فتيل التمرد من خلال زعزعة الاستقرار في فنزويلا، وذلك بتفجير الجسور والأبراج الكهربائية وآبار النفط. كما كان يريد مساعدة المدنيين اليساريين على القيام بهجمات على الثكنات من أجل سرقة الأسلحة، وتنظيم وحدات مدينية وريفية على نمط العصابات. وكان اقتراحه هذا منسجماً مع أفكار دوغلاس برافو المتعلقة بتسريع الحالة الموضوعية من أجل إثارة تمرد جماهيري.

غير أن ما سمعه أرياس لم يرق له، فهو كان يعتقد بأن اقتراح تشافيز ما هو إلا عودة إلى تكتيكات برافو الفاشلة خلال الستينيات. وهو في الحقيقة لم يكن يثق بالمدنيين عموماً وببرافو على وجه الخصوص، ولهذا السبب كان يعارض السماح لحزب فنزويلا الثوري PRV باستلام قيادة الحركة والتمرد. فضلاً عن أنه كان يحس بأن الارتياب كان متبادلاً، فبعض المدنيين اليساريين كانوا يخشون من أن يكون بعض

الجنود مجرد متمردين عسكريين يمينيين أسوة بالمجرمين الذين أسقطوا حكومتي تشيلي والأرجنتين، ولهذا السبب فهم كانوا يريدون أن يتحكم المدنيون بالثورة.

وحول هذه المسألة صرَّح أرياس كارديناس لاحقاً: «كما كنا نشعر، كان دوغلاس وأتباعه يشعرون بفقدانِ الثقة». ثم أضاف:

> كنـا نعتقـد بأننـا كنـا نضع اللحم في المطحنـة بينما كان أولئك القوم يطيّـرون الطيـارات الورقية ويمرحون فـي الطبيعة. كنا نخاطر بحياتنا كل يـوم... كنـت أعتقـد بأننا يجب أن نكون أكثر استقلالية وأن نتحكم بالحركة والعملية ككل. في بعض الأحيان، كانت مداخلات هارولد تميل إلـى حصرنـا فـي مشروع مخطط له مسبقاً، الأمر الذي لم يكن يسمح لنا بالتفكير، ولا بالابتكار، ويضيِّق الأفق كثيراً... كنا نعرف بأننا إذا أردنـا أن نتوسـع ضمـن الجيش فلا ينبغي أن تكون لاقتراحاتنا أي صلة برؤية ماركسية عن التاريخ والإنسان والاقتصاد.

وقف أرياس على قدميه، وأعلن بأنه لن يرافق الفاشلين. إذا كنا كمجموعة نريد أن ننتـزع السلطـة ونحـدث تغييـراً حقيقياً، تابع أريـاس كلامه، فلا يمكننا التخلي عن دور القـوات المسلحـة عبـر تحويل أنفسنا إلـى أنصاف أفراد عصابات. سنفقد شرعيتنا إذا مـا اكتُشـف أحـد أعضائنـا يفجر جسراً أو يساعـد المدنيين على سرقة أسلحة. دعوا المدنيين يحفزون الناس في الخارج ونحن سنكون مستعدين للانضمام إليهم في النهاية عندما يحين وقت الثورة.

هاجـم تشافيـز أريـاس متهمـاً إياه بالخوف من التصـرف. وقال له تشافيز تكمن مشكلتـك فـي أنـك وصلـت إلى نقطة معينة من الثورة لكنك تملك مسيحياً اجتماعياً يقبع داخلـك وهـو يمنعـك من اتخاذ الخطـوة الأخيرة. عندئذ تدخَّل بعض الحاضرين ليدلوا بدلوهـم حـول الموضـوع، كمـا يتذكر أرياس: «رونالد بلانكـو، الذي كان يتفق إلى حـد كبيـر مـع نظرية تشافيـز، اقترب مني وقال، انظر أيها الميجور، ينبغي علينا أن نقـوم بذلـك، فـلا تخـف. فأجبتـه، إنه ليس الخوف. فما هو واضح بالنسبة لي هو أن الطريقـة المقترحـة هنـا خاطئـة. أعتقد بأننا إذا جمعنـا المزيد من القوة العسكرية، فإننا سوف نكون أكثر فاعلية بما لا يقاس مما إذا سمحنا بكشف أنفسنا وقلّلنا من احتمالات التوسع في الداخل».

عندما بدأ التوتر يسري بين المجتمعين، حاول الميجور ديفيد لوبيز ريفاس حلحلة الوضع المتأزم. فمشى باتجاه المسلاط الضوئي، وأخذ أحد الأغطية البلاستيكية ورسم صـورة لـزورو عليـه، ثم وضعه علـى المسلاط فانفجرت الغرفـة بالضحك. وبعدها واصلوا النقاش، ولكن بهدوء أكبر هذه المرة. وكشرط لضم نفسه بصورة كاملة في الحركة، طلب أرياس من تشافيز أن ينأى بنفسه عن برافو، فوافق الأخير ولكن ليس

لهـذا السبـب فحسـب بـل لأسباب أخرى أيضاً. فالانقسام كان قد بدأ يشق لنفسه طريقاً ضمن حزب فنزويلا الثوري، وعلاوة على ذلك، فهو لم يكن يريد في خضم الشجار أن يكشف الأعضاء المستاؤون عن أنشطته السرية.

مع ذلك، لم تتوقف اجتماعاته مع برافو بشكل كلي، فقد استمر الرجلان بالالتقاء بصـورة متقطعـة إلـى أن وقعـت القطيعة بينهما بعد خمس سنوات. وبينما كانت علاقة تشافيـز مـع برافـو وحزب فنزويـلا الثوري تزداد فتوراً، توطدت علاقته مع حزب القضية الراديكالية، الذي سيلعب دوراً هاماً في الحركة من خلال تقديم الرجل الذي أصبح لاحقاً قيصر النفط بالنسبة لتشافيز، ألا وهو علي رودريغيز. في الواقع، كان حـزب القضيـة الراديكاليـة بالنسبـة لتشافيز أقرب إلى نبضـ الجماهير، فضلاً عن أن أعضاءه لم يكونوا يلعبون بالطائرات الورقية.

يقـول تشافيـز «إن اجتماعـي مـع مانيـرو، ولم لا أقولهـا بصراحة؟ ويقيني بأن وجهة دوغلاس برافو لم تكن الوجهة الصحيحة، دفعاني أكثر للتقرب من حزب القضية الراديكالية بسبب عملها مع الحركات الشعبية، الأمر الذي كان جوهرياً بالنسبة لرؤيتي التي كانت ما تزال تتطور حول النضال المدني العسكري المشترك، كنت متأكداً تماماً، بعكس مجموعة دوغلاس، من فكرة دور الجماهير؛ وبالمقابل، شعرت بحضور هذه الفكرة في حزب القضية الراديكالية».

مـع اقتـراب بـزوغ الفجـر في سان كريستوبال، أدى أريـاسـ القسَم البوليفاري وأصبح رسمياً عضواً فعلياً في EBR. وقد كانت لحظة حاسمة في تاريخ الحركة، إذ إن أرياس سيلعب دوراً جوهرياً فيها وسيرتقي إلى مستوى المشاركة في قيادتها، محدثاً بذلـك نوعـاً مـن التوازن العقلاني نظراً لطبيعة تشافيز المتسرعة أحياناً. لكن الرجلان سيتخاصمان في نزاع علني شديد لاحقاً، إلى أن يعود أرياس إلى المجموعة في نهاية المطاف عندما سيرسله تشافيز في 2006 إلى الأمم المتحدة كسفير لفنزويلا.

بعد أربعة أشهر من الاجتماع في سان كريستوبال، عقد تشافيز ومجموعته اجتماعاً آخر في ماراكاي، معقل القاعدة الجوية الرئيسية في البلد بالإضافة إلى التكنات العسكرية الهامة الأخرى. ولهذا السبب توجب على الثوار البوليفاريين اتخاذ المزيد من التدابير الاحترازية من أجل تجنب اكتشاف أمرهم. وهذا ما فعله تشافيز حال خروجه بالسيارة من كاراكاس برفقة ماركسمان ولوبيز ريفاس، الميجور الذي خفف التوتر في اجتماع سـان كريستوبـال، حيـث وضع على رأسه شعـراً نسائياً مستعاراً ونظارة شمسية، بل وتصـرف كالنسـاء تمامـاً عندمـا دفـع رسم العبـور في أحد الأكشـاك المخصصة لهذا الغرض. وليس هذا فقط، بل كان يحمل في سيارته ثوباً نسائياً أيضاً. عندما وصلوا إلـى حديقـة الحيوانـات في ماراكاي، حيث كان يفترض بهم ملاقاة بعض المتآمرين، انسل تشافيز إلى الحمامات، وارتدى الثوب فأصبح تنكّره عندئذ كاملاً. وقد كان تقليده

لمشية النساء مقنعاً إلى حدٍّ ما، على الأقل بالنسبة لماركسمان.

كانت ماركسمان صلة الوصل بالنسبة لبعض المتآمرين الذين كانوا يعرفونها من القبعة الحمراء التي كانت ترتديها دائماً في مثل تلك المواعيد. وجرت العادة أن تقابلهم في ساحة بوليفار في أي مدينة أو قرية ستجمع شمل المجموعة - المدن كلّها والقرى كانت تملك ساحة تمجِّد المحرر - ثم تخبرهم بالموعد وتنتظر عشر دقائق بالتمام قبل أن تغادر، خشية أن يلفت لقاؤهم انتباه عملاء المخابرات.

قررت المجموعة في ماراكاي أن تجعل من حديقة الحيوانات نقطة اتصال أعضائها الرئيسية. فأقلّت ماركسمان ولوبيز بعضاً من المتآمرين ثم توجهوا إلى أحد الأبنية في المدينة. وعندما دخلوا إلى المنزل ضحك تشافيز ساخراً من تنكر ريفاس. وتتذكر ماركسمان هذا الاجتماع لأنها شهدت فيه واحدة من أكثر لحظات أداء القسَم عاطفية. في العادة، كان كل المشاركين في الاجتماعات، بمن فيهم أولئك الذين أدوا القسم من قبل، يجتمعون على شكل دائرة ويمسكون بأيدي بعضهم البعض ثم يكررون القسم مع المنتسبين الجدد. وفي ذلك اليوم في ماراكاي، جلب فيليب أكوستا كارلس، أحد المؤسسين الأصليين في EBR-200، ولديه معه إلى الاجتماع؛ صبي وفتاة. وعندما حان وقت أداء القسم، أجلسهما على ركبتيه ورفع يديهما في الهواء ثم قال: «أقسم بإله آبائي...».

بعد انتهاء اجتماع ماراكاي أحس تشافيز بالمرض وحجز غرفة لقضاء الليلة في أحد الفنادق. وفي اليوم التالي غادر متجهاً إلى إلورزا الواقعة جنوب غرب فنزويلا في حين عادت ماركسمان إلى كاراكاس. كانت الحركة تمر بمرحلة رائعة حينئذ، فالأعضاء الجدد كانوا يتدفقون إليها، والاجتماعات أصبحت حدثاً روتينياً، وأرياس انضم إليها، والروح المعنوية كانت محلقة في السماء. ولأن الكثير من الأشخاص كانوا ينضمون إلى الحركة، قررت القيادة تجميد تنسيب الأعضاء الجدد لفترة مؤقتة، فمع اتساع حجم الحركة تصبح احتمالات حدوث الأخطاء أعلى بكثير.

في اجتماع سان كريستوبال، قرر الأعضاء تنظيم *CARs*، أي وحدات مناطق الثوار، حيث قسّموا خريطة فنزويلا، وأوكلوا إلى مجموعات من المدنيين والعسكريين مهمة تنظيم بعض الأنشطة وسمّوا كل منطقة باسم قبيلة هندية فنزويلية؛ جيراهارا، غواجيرا، بيارو، كوماناغوتوس. كما تعهد بعض المدنيين بإصدار صحيفة خاصة بهم أطلقوا عليها اسم حلف الوطنيين. أحس تشافيز بسعادة غامرة، فوجود صحيفة كان إشارة ملموسة إلى المسار الصاعد للحركة.

غير أن الأوقات السعيدة كانت على موعد مع أول انتكاسة كبرى لهم. فقد كان هناك رجل واحد في الجيش على الأقل يلاحق خطوات تشافيز.

الفصل السابع

أولى الخيانات

ما إن استلم كارلوس خوليو بينالـوزا زامبرانو منصبه الجديد كمدير للأكاديمية العسكرية في العام 1984 حتى سمع إشاعات تتحدث عن أن هوغو تشافيز كان يعدُّ لمؤامرة. غير أن بينالوزا لم يستغرب الأمر فقد كان يسمع منذ سنة على الأقل أحاديث عن خلية انقلابية تتكون من ضباط رفيعي المستوى في القوات المسلحة، لكنه لم يكن يعرف من هو قائدها. وقد أطلق المتمردون على أنفسهم اسم *comacates* – وهي الكلمة الإسبانية التي تُطلَق على ذوي رتب الكولونيل والميجور والنقيب والملازم.

في أيلول 1984، أجرت الأكاديمية مراسم منح الطلاب الواصلين حديثاً الإذن بمغادرة المكان لأول مرة. وفي تلك المناسبة التقى بينالوزا مصادفة بصديق له من المرحلة الثانوية كان ابنه طالباً في الأكاديمية. ووفقاً لبينالوزا، جرى بين الرجلين الحوار التالي: «قال لي، انتبه، يقول ابني إن هناك نقيباً يحمل شهرة تشافيز يتحدث عن [ثورة وانقلابات]. وهذه كانت المرة الأولى التي أربط فيها تشافيز بالمؤامرة».

في الواقع، إن وجود مجموعات متآمرة من الجنود في الجيش كان أشبه بسر معلوم في تلك الآونة. وتشافيز لم يكن الوحيد، إذ كان هناك ويليام إيزارا ومجموعته ARMA التي تلاشت تدريجياً بعد طرد قائدها من الجيش، بالإضافة إلى مجموعات أخرى غيرها. والضباط الأعلى رتبة من تشافيز كانوا يعلمون بشأن هذه الحركات، وفقاً لبينالوزا، لكنهم تركوها تنمو وتزدهر. كان الاستياء من الانحلال السياسي والاقتصادي في فنزويلا واسع الانتشار في القوات المسلحة، بالإضافة إلى تسرب المبادئ اليسارية إليها؛ والفضل في ذلك كان يعود، جزئياً، لخطة أندرياس بيللو بالطبع.

كان لدى بينالوزا شك قوي في أن تشافيز كان يدرب بعض الطلاب ويعدّ لمؤامرة، لكنه لم يكن يملك دليلاً يثبت ذلك. وتشافيز والآخرون كانوا أذكياء بما يكفي كي لا يسمحوا باكتشاف أمرهم بسهولة.

مع أن تحقيقات بينالوزا لم تتوصل إلى أي اكتشاف حاسم، إلا أن ما اكتشفه كان كافياً لدفع القادة إلى نقل تشافيز إلى قرية إلورزا النائية الواقعة في منطقة لانوس والتابعة لولاية أبيور القريبة من الحدود الكولومبية. قبل 1941، لم يكن واضحاً ما إذا كانت المنطقة تابعة لكولومبيا أم لفنزويلا، بحسب كلام تشافيز. كانت أرضاً خالية من البشر.

كان بالإمكان الوصول إلى إلورزا من بارِيناس بالاتجاه جنوباً في رحلة تستغرق

12 ساعة متواصلة عبر طريق شديد الوعورة. وكانت البلدة تضم محالاً تجارية يديرها مهاجرون سوريون ومطاعم يملكها كولومبيون وبضع قبائل محلية تعيش على أطرافها. وكان نهر أروكا الجبار يهدر بالقرب منها.

وصل تشافيز إلى إلورزا في آب 1985 محطم الفؤاد بسبب ابتعاده عن طلابه في الأكاديمية العسكرية الذين سيتخرجون في ذلك العام نفسه. في الحقيقة، لقد أنتجت تلك الدفعة بعضاً من النجوم المنتسبين لحركته؛ والذين سيلعبون أدواراً رئيسية في حكومته لاحقاً. وقد كتب تشافيز قصيدة حزينة في يوم تخرجهم مطلقاً عليهم اسم *Los Centauros* (في الميثولوجيا الإغريقية السنتور هو كائن خرافي نصفه إنسان ونصفه حصان).

السنتورات يغادرون
وروحي تمتلئ
بألم عميق

وبما أنهم، هم أيضاً، سينتشرون في مختلف أنحاء البلد وينشرون الحركة معهم، فقد شبههم تشافيز بالبذور المنثورة في شتى أنحاء فنزويلا:

ولكن، هذا ليس مهماً
فالبذور سرعان ما ستحمل ثمارها
وتنمو في كل مكان من فنزويلا
كل واحد منهم سوف يكون
ما يجب عليه أن يكون أياً كان المكان الذي سيتوجه إليه.

لكن، على الرّغم من الكآبة التي أحس بها تشافيز في إلورزا بسبب ابتعاده عن مجموعته في الحركة البوليفارية وعن صخب كاراكاس والمدن الأخرى، إلا أنه لم يستسلم لهذا الإحساس بل رمى بنفسه في أحضان الحياة الريفية المحلية. فلعب كرة القاعدة مع السكان المحليين، وساعد في تنظيم احتفالات للقديسين الراعين المحليين، وسباقات الأكياس (كل متسابق يدخل في كيس ويقفز حتى نهاية السباق)، وسباقات الجري، وحفلات *pinata*، وسهرات لسرد القصص التاريخية، وزرع الأشجار، وبطولة صغيرة لكرة القاعدة، وأيام للمعالجة الطبية، واحتفالات فلكورية للأطفال.

أصبحت إلورزا تجربة أخرى بالنسبة لأفكار تشافيز المتعلقة بدمج الجنود والمدنيين في قوة مشتركة من أجل تغيير فنزويلا. وتحوَّل إلى ما يشبه رئيس بلدية محلي وزعيم لم تسبق أن شهدت مثله أي قرية من قبل. لقد حظي بشعبية عارمة وكان محبوباً إلى درجة أن القرويين عيَّنوه رئيساً للجنة تنظيم ذكرى القديس الراعي المحلي وهي لجنة تحظى باحترام كبير عندهم. ولسنتين متتاليتين كرَّمته المدرسة الثانوية المحلية بتسميته

عرّاباً (*padrino*) للصف المتخرج؛ على الرّغم من أنه لم يعلّم أي صف هناك.

على الرّغم من أن بعض رؤساء تشافيز العسكريين كانوا يعتقدون بأنهم بإرساله إلى إلورزا كانوا يعاقبونه ويعزلونه، إلا أن بينالوزا كان يعتقد بأن ذلك كان خطأً كبيراً. «دُهشت عندما أرسلوه إلى وحدة مستقلة حيث أصبح معزولاً، وقائداً. وكان هذا بالنسبة لي خطأً فظيعاً، لأنك إذا كنت تشتبه في أن شخصاً ما يخطط لمؤامرة فإن آخر شيء تريد فعله هو أن ترسله إلى مكان يكون فيه وحيداً والآمر الأعلى أيضاً».

إن أكثر ما أثار اهتمام تشافيز في إلورزا هي القبائل الأصلية التي تسكن القفار خارج القرية، مثل سكان قبيلتي كويفا (Cuiva) وياريورو (Yaruro)، وهم جزء من نحو نصف مليون هندي نجحوا في البقاء على الرّغم من حياة الاستغلال التي عاشوها طوال قرون طويلة. فبعد فترة قصيرة من وصوله إلى إلورزا، تحدث تشافيز إلى كاهن محلي فأخبره هذا الأخير عن الظلم الذي لحق بالهنود المحليين على أيدي ملاكي الأراضي الأغنياء الذين ازدادوا ثراء بفضل جهدهم وعرَقهم. «انظر أيها النقيب، الكثير من هؤلاء السادة الذين تراهم هنا الآن، الأغنياء الذين يملكون المزارع، كانوا قبل عشرين سنة يخرجون لقتل الهنود كما يقتل الصياد الغزلان» يقول، تشافيز متذكراً حديثه مع ذاك الكاهن، «كانوا يذبحونهم ويرمونهم على الأرض. حتى إنه أخبرني كيف أنهم كانوا يحرقونهم أحياء».

حدث أول اتصال له مع الهنود عندما جاءته امرأة فقيرة إلى موقع الوحدة العسكرية لتشتكي له عن فقدانها خنزيرين سرقهما بعض الهنود. وكان تشافيز يتلقّى في العادة شكاوى من مالكي المواشي، لكنه كان يطلب منهم إخبار الشرطة بالأمر. «بدأ مالكو القطعان يقولون إنني لا أتعاون، لأنهم اعتادوا على إساءة معاملة الهنود من قبل الجيش، وأنا كنت أخبرهم دائماً بأن هذا ليس عملي». غير أن تشافيز في حالة هذه المرأة قرر أن يحقق في الموضوع.

انتقى تشافيز عشرين جندياً من قواته، واتصل مع خبير في تعقب الآثار كان جندياً وجاسوساً سابقاً في قوات ماركوس بيريز جيمينيز. وكان الرجل العجوز بارعاً في إيجاد الهنود، كما أظهر لتشافيز لاحقاً. إذ كان باستطاعته اشتمام رائحة البول الذي يخلّفه المسافرون وراءهم وما إذا كان تاركه رجلاً أم امرأة. «تخلّف النساء بركاً صغيرة من الوحل في حين أن الرجال ينثرون البول في المكان». هذا ما قاله العجوز لتشافيز.

لم يمضِ وقت طويل حتى أعلم العجوز تشافيز بأن الهنود باتوا قريبين.

أخرج تشافيز منظاره فرآهم جالسين تحت شجرة مانغو ويأكلون الثمار الاستوائية. فقال لأحد الرقباء بسذاجة بأنه يريد تطويق الشجرة بينما يذهب هو للتحدث إلى الهنود. فأخبره الرجل العجوز بأنه لن يستطيع الوصول إليهم، لكنه كان مصراً. دس تشافيز

مسدسه في حزامه، وأخبر رجاله بأن لا يطلق أحد منهم النار مالم يأمرهم بذلك.

حالما رأى الهنود تشافيز ورجاله انتفضوا كمن أصابتهم صدمة كهربائية. يقول تشافيز «لقد ابتكروا فعلاً دفاعياً مذهلاً وفورياً، كان الأمر أشبه بانبثاق عشرين شعاعاً ضوئياً من شجرة المانغو. لقد تفرقوا مثل مجموعة من الغيوم بين الأشجار الكثيفة، بمن فيهـم النسـاء وأطفالهـن. وبرمشة عين فتح الرجال معركة ضدي. أخرجوا سكاكينهم، وانهمـرت السهـام علينـا مثـل المطر، حتى إن أحدها مر بالقرب مني وكاد أن يصيب رأسي».

أخـرج تشافيـز مسدسـه مـن حزامه بسرعة وأطلق النـار في الهواء وأمر رجاله بـأن يتراجعـوا، ولكـن ليـس قبل أن يشتبك اثنـان من جنوده مع أحد الهنود. ولحسن الحظ لم يصب أحد بأذى.

غادر الهنود لكن تشافيز سمع بعد قليل صرخة آتية من الأدغال الكثيفة، فتوجهوا إلى نهر كانو كاريبي. كان موسم الأمطار في ذروته والنهر يضج بالمياه المضطربة. وفـي منتصـف النهـر شاهـد تشافيز امرأة تحاول العبور حاملة رضيعها، ملفوفاً بشال، علـى إحـدى يديهـا، وفـي اليـد الأخرى سكيناً. كانت تنزل تحـت الماء مع الصبي ثم تخرج من أجل استنشاق الهواء.

اعتقـد تشافيـز بأنهـا قـد تغـرق. «أبداً لـن أنسى في حياتي النظـرة التي رمقتني بهـا عينـا تلـك المـرأة، نظـرة ملؤها الكره. كنت أشعر بألم شديد. هل تعلم ما قاله لي متتبـع الآثـار؟ أطلـق عليهـا النـار أيها النقيب، وهو لم يكن بالرجـل السيىء على حدّ علمي به. ماذا؟ لقد فاجأني. اقتلهم، إنهم حيوانات. وعندما يكبر ذلك الصبي سيطلق السهام أيضاً».

غيـر أن تشافيـز لـم يطلـق النـار. بل اطمأن إلى أن المـرأة عبرت النهر بأمان وانضمـت إلـى الآخريـن. ثـم عـاد إلى وحدته العسكرية. ومع أنـه نجا من أول لقاء لـه مـع القبائـل الأصليـة، إلا أن ذلـك اللقاء خلَّف في نفسه شعوراً شديداً بالقلق. «ثمة أمران صدماني في ذلك اليوم. الأول هو ردّ فعل الهنود عندما رأوني بثيابي العسكرية والثاني هو اقتلهم، إنهم حيوانات. بقيت أفكر في هذا الأمر عدة أيام».

دفـع التفكيـر تشافيـز للتمحيـص بعمق أكبر في أمر القبائـل الأصلية، فسافر إلى عاصمة الولاية سان فرناندو دي أبيوري، وزار مكتبة القسم الإقليمي لمكتب الشؤون الهندية. وعلى الخريطة حدد تشافيز الأماكن التي يعيشون فيها، وبدأ بدراسة تاريخهم وثقافتهـم ومعتقداتهـم. كمـا اتصـل بأرليس سومافيلا، وهـي عالمة اجتماع من جامعة فنزويلا المركزية درست قبيلتي كويفا وياريورو لمدة عشرين عاماً.

أصبح تشافيز وسومافيلا صديقين، حتى إنها دعته ذات يوم لمرافقتها في واحدة من رحلاتها الاستكشافية الميدانية. فترك تشافيز شعره القصير على الطراز العسكري ينمو، وارتدى ثياباً مدنية، وانضم إلى سومافيلا في رحلتها الشاقة إلى أعماق لانوس.

قدّمت سومافيلا تشافيز وشخصين آخرين دعتهما لمرافقتها أيضاً على أنهم طلاب يجرون بحثاً عن المنطقة.

أمضى تشافيز عدة أيام مع الهنود، يأكل معهم وينام معهم في مجتمعهم محاولاً فهـم عالمهـم. وقـد قبلـه الهنود بحرارة. وبعد أسبوعين مـن تلك الرحلة، عاد لوحده لرؤية القبيلة، لكنه هذه المرة عاد مرتدياً زيه العسكري الكامل. لم يعرفه الهنود في البداية، وأحسوا بالخوف منه، لكنه خلع قبعته ونادى الرئيس الهندي باسمه، فيسينته. وعندما أدرك الهنود بأن طالب الأنثروبولوجيا الذي صادقوه لم يكن سوى جندي في حقيقـة الأمـر، وقفـوا هناك مشدوهيـن. وبعد ذلك جلسوا للتحدث معاً. «وعندئذ بدأت عملية تقارب متبادلة من بعضنا، وانتهت باحترام متبادل».

لـم يمضـِ وقـت طويـل حتى بدأ جنوده بزيـارة الهنود وكأنهـم أصدقاء قدامى. وسيحظـى تشافيـز بحبهـم وثقتهـم إلى درجة أنّه استطاع إقناعهـم بالمشاركة في بعض الأنشطة الثقافية في إلورزا، مثل سباقات الأكياس وسواها من الأنشطة. وبما أن الهنود لم يتمكنوا أبداً من لفظ اسمه بشكل صحيح، سمّوه تشيفاز فرياس دلالة على المحبة.

لقـد تركـت صداقتـه مـع الهنـود أثـراً عميقاً فـي نفسه إذ إنها دفعتـه بعد سنوات لاحقـة لتنفيـذ بعضـ مـن أكثر السياسات تقدمية في نصف الكـرة الجنوبي تجاه القبائل الأصلية. تضمنت هذه السياسات فقرات في الدستور تعترف بلغاتهم وثقافاتهم وأنظمتهم الاقتصاديـة. «أحسسـت بألمهـم فـي أعماق روحي. تعلّمت أن أحبهم. وبجانبهم عشت تجارب مريرة وأخرى جميلة أيضاً. لقد تعرَّض الهنود للظلم طوال حياتهم وكنت أعلم ذلك لكنني وعيته هناك عندما كنت نقيباً في أرضهم، أعيش بجانبهم».

○●○

بينما كان تشافيز يدمج نفسه في عالم الهنود والحياة في إلورزا، واصل محاولته السرية بناء الحركة البوليفارية، حيث عقد الاجتماعات وجال أرجاء البلاد من أجل البقاء على اتصال مع مجموعته، واستمر في الدراسة. كما تعمَّق أكثر في حياة ميسانتا الذي كان لا يزال محفوراً في ذاكرة بعض العجائز من سكان إلورزا. واقتفى أثر بيدرو بيريـز دلغـادو، متسلحـاً ببعض الخرائط ودفاتر الملاحظـات، وقام برحلته المذكورة سابقاً إلى كولومبيا حيث احتجزه الجيش اعتقاداً منهم بأنه جاسوس.

بعد وصول تشافيز إلى إلورزا بوقت قصير التقى امرأة أخبرته بأنها رأت ميسانتا عندمـا كانـت طفلـة. حيـث سـردت له كيف أنه جاء ذات يوم لرؤية أمها وجدَّتها لأن كولونيلاً في جيش الديكتاتور خوان فيسينته غوميز كان قد اختطف إحدى الفتيات من المنـزل. تقـول القصة – كمـا يذكـر تشافيز – بأن ميسانتا سأل العائلة عن الطريق الذي سلكـه الخاطفـون، ثـم انطلـق على جواده في أثرهـم. في النهاية، أنقذ ميسانتا الطفلة، وأعادهـا إلـى المنـزل بعـد عدة أيـام. عندما أخبرت المرأة في إلورزا القصة بعد عدة

عقود من الحادثة بكت امتناناً لأفعال ميسانتا. وعندما أخبرها تشافيز بأنه أحد أحفاد بيريز دلغادو، قالت له إن عائلتها تقدِّر جده الأكبر منذ أجيال. «بعد نحو ستين سنة، وجدت في تلك الأرض آثار معارك وآمال بيدرو بيريز دلغادو. أشعر بأنني في إلورزا انتهيت من اكتشاف نفسي».

لعل بحث تشافيز عن جذور ميسانتا بدا في ذلك الحين فعلاً بريئاً، وإن لم يكن مألوفاً، بالنسبة لجندي موجود في موقع عسكري ناء، إلا أنه كان في الحقيقة يغذي حركته الانقلابية. وكذلك كانت محاولاته الأخرى، فبعد نحو عام من وصوله إلى إلورزا قرر تشافيز إعادة تمثيل مسيرة شهيرة قام بها الجنرال خوسيه أنطونيو باييز من أعماق لانوس إلى ولاية كارابوبو شمالاً لينتصر في حرب الاستقلال الحاسمة في 24 حزيران 1821. كانت الذكرى المئة والخامسة والستون لمعركة كارابوبو (في حزيران 1986) قد باتت قريبة. فأرسل تشافيز ماركسمان إلى مخزن في كاراكاس كي تبحث عن كتاب يصوِّر عَلَم الثورة الذي اعتاد أن يرفعه باييز وجنوده. وكان العلم أسود اللون وفي زاويته العليا اليسرى رُسمت جمجمة وعظمتان متصالبتان، وفي الأسفل كُتب LIBERTAD O MUERTE (الحرية أو الموت).

طلب تشافيز من ماركسمان أن تصنع من القماش نسختين كبيرتين من ذلك العلَم – بالاعتماد على الكتاب كدليل – ففعلت ماركسمان وأرسلتهما إلى إلورزا. رفع تشافيز أحدهما في مكان عالٍ من قاعدته العسكرية والآخر في موقع معركة حاسمة انتصر فيها باييز قبل عدة عقود وهو يصيح في جنوده «*Vuelvan caras!*» (استديروا!) كي يخدعوا الإسبان. وقد اضطر تشافيز للبحث والتمحيص من أجل تحديد موقع المعركة بدقة، وعندما وجده اتصل بماركسمان بفخر ورفع العلَم.

بعد بضعة أشهر خرج تشافيز بخطة أكثر تعقيداً من الأولى، حيث طلب من ماركسمان أن تصنع حوالى مئة نسخة صغيرة من العلَم ثم جمع بعض الجنود وألبسهم ثياب مزارعين من عصر باييز بقبعات من القش وسراويل مقصوصة عند الركبة، ثم امتطوا جيادهم، وانطلقوا معاً في رحلة لمدة أسبوع كامل عبر لانوس مكررين رحلة باييز. كانوا يتوقفون في القرى التي تقع في طريقهم ثم يتوجهون إلى ساحة بوليفار في كل واحدة منها حيث كان تشافيز يقدم أكاليل الزهور إلى المخلص، ويدلي بخطب لاهبة يهاجم فيها الحكومة ويحيي بوليفار كثائر كان سيشعر بالاشمئزاز من دولة فنزويلا في تلك الفترة لو كان حياً.

عندما وصل أخيراً إلى كارابوبو، معيداً تمثيل دخول باييز المظفَّر إلى الولاية، كان الجنرال المسؤول عن الموكب الذي يحتفي بذلك اليوم شديد التأثر إلى درجة أنه جعل من تشافيز أحد نجوم الحدث. إذ طلب منه أن يدلي بخطاب في بداية الحفل يشرح فيه ماذا كان يفعل هو ورجاله. ثم طلب منهم المرور بجيادهم بافتخار على طول الشارع في الختام، بأعلامهم السوداء التي كانت ترفرف مع النسيم من فوق

ظهور الجياد. نُقل الحدث على الهواء في التلفزيون الوطني وظهر في صحيفة *El Nacional* في اليوم التالي على صفحة كاملة مرفقة بالصور. وهكذا، كان تشافيز يطور حركته البوليفارية أمام أعين رؤسائه، الذين - كما يبدو - لم يلاحظوا أفعاله، أو ربما لم يشعروا بالرغبة في إيقافه.

لكن، هذا ما كان يبدو عليه الحال فقط. فبعد شهرين - في أيلول 1986 - شهدت الحركة أول خيانة جدية لها. كان تشافيز قد طلب من البوليفاريين بعد نقله إلى إلورزا التوقف عن تجنيد أعضاء جدد لأن المجموعة كانت تنمو بسرعة كبيرة خشية أن تكتشف السلطات الحركة فتقطع أوصالها. غير أن ملازماً يدعى فاليرا كويراليس استمر في جهوده - بموافقة تشافيز - محاولاً إنهاء عمله التجنيدي الذي كاد أن ينجح فيه.

من الواضح أن أحد المنتسبين أحس بالخوف في اجتماع عُقد في سان خوان دي لوس موروس ولم يكن تشافيز حاضراً فيه عندما تحول الحديث إلى احتمال القيام بانقلاب ضد كارلوس أندرياس بيريز في حال فوزه في الانتخاب الرئاسي التالي. بل قدَّم أحدهم اقتراحاً عفوياً بقتله إذا ما قاوم. فأنذر العضو الجديد قائده وأعطاه اسم تشافيز من بين أسماء أخرى. وسرعان ما وصل الخبر إلى بينالوزا وقادة عسكريين آخرين في قاعدة فورت تيونا في كاراكاس. فعقدوا اجتماعاً، وطلبوا من إحدى السكرتيرات أن تُخرج لهم ملف تشافيز وفتحوا تحقيقاً حول الأمر، ولم يكن قد مضى على ترقية تشافيز إلى رتبة ميجور سوى شهران فقط.

لحسن حظه، عُيِّن زميل له في دفعة العام 1975 في الأكاديمية العسكرية في مكتب القادة العسكريين. وقد طلب منه الجنرالات أن يرافقهم إلى قصر ميرافلوريس حيث كانوا ذاهبين لمقابلة الرئيس جيمي لوسينتشي. وعندما تركوه وحده في السيارة لعدة دقائق فتح مغلفاً موجوداً في الملف السري الذي كان بحوزتهم فوجد فيه موجزاً لادعاءات ضد تشافيز ورفاقه. وتمكَّن من رؤية بضع أسماء مذكورة فيه. فاتصل لاحقاً بمنزل ماركسمان فوجد أختها كريستينا هناك فأعطاها رسالة مختصرة ومرمَّزة: «Peligro. La vieja grave. HCHVQCHR». كانت السيدة في وضع حرج. Peligro تعني خطر، وHCH تعني هوغو تشافيز، وVQ تعني فاليرا كويراليس. أما CHR فلم تكن واضحة. ثمة شيء غريب يجري.

في تلك الفترة كان تشافيز في إجازة وكان قد جاء إلى كاراكاس لإجراء عملية جراحية ثانوية في عينه. وكان سيغادر المستشفى في ذلك اليوم. وعندما وصل وماركسمان إلى منزلها حوالى الظهر، مع ضمادة تغطي عينه، وجدوا كريستينا قلقة ومعها الرسالة. بعد بضع ساعات، وصلهم اتصال ثانٍ ومرمَّز أيضاً من الزميل نفسه ومع المعلومات نفسها. قال تشافيز لهيرما ماركسمان بأنها يجب أن تجد رونالد بلانكو لا كروز، المعيَّن في قاعدة فورت تيونا، كي يتمكن من معرفة من هو هذا الزميل واكتشاف ما يجري.

قرابـة الساعـة السابعـة مساء، استقلت ماركسمـان سيارة أجرة إلى منزل بلانكو لا كروز في لا فال. وعندما وصلت تحدثت إلى زوجته، غوادالوب، فأخبرتها بأن رونالد كان مناوباً في القاعدة العسكرية. فذهبت الزوجة بالسيارة إلى القاعدة القريبة، وأخبرت رونالد بوجوب الحضور إلى المنزل والتحدث إلى ماركسمان. وعندما وصل أخبرتـه ماركسمـان بمـا كان يجـري فطلب منها الانتظار في المنزل حتى يتحرى عن الأمـر فـي القاعـدة. وبعد بضع ساعات عاد ومعـه الأخبار: اكتشف المسؤولون دليلاً بـأن تشافيـز وفاليـرا كويراليـس وضابطاً آخر يُدعى تشاكون روجاس كانوا متورطين في مؤامرة. وأخبرها بأنها يجب أن تنذر الجميع في الحركة وفي الحال.

عـادت ماركسمـان إلـى منزلهـا فـي إل باريزو، الذي يبعـد خمس عشرة دقيقة بالسيـارة، وأبلغـت تشافيـز بالأمـر. فطلب منهـا أن تحرق الوثائق كلّها التي يمكن أن تورِّطهم. وكان لديهم الكثير منها: مذكرات عن الاجتماعات، وثائق جمعتها المجموعة، وخطة عمل مع قائمة بأعضاء الحركة.

وضع تشافيز وماركسمان الوثائق في صندوق وصبوا عليها الكيروزين ثم توجهت ماركسمان وأختها حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل إلى لا غويرا على الساحـل الكاريبـي، والتـي تبعـد نصـف ساعة بالسيارة. وهناك وجدتـا بقعة نائية على الشاطئ في منطقة ماكيوتو. تسلقت ماركسمان حاجزاً صخرياً وألقت الصندوق في شق بين الصخور، وحاولت أن تشعل النار مستخدمة بعض الشموع وأعواد الكبريت. غير أن الريـح لـم تمكِّنهـا مـن فعـل ذلك إلى أن نفذ الكبريت منها. فكان عليها أن تعود إلى الطريق وتحاول إيجاد مخزن غير مقفل حتى تشتري المزيد من الكبريت. وكانت قد طلبت من أختها البقاء قريبة في حال اضطرتا إلى القيام بهروب سريع. ولكن، عندما وصلت ماركسمان إلى الطريق وجدت أن أختها ركنت السيارة في مكان بعيد حتى إنها بالكاد استطاعت رؤيتها. وكانت مذعورة من أن تكتشفها السلطات وتقبض عليهما.

كان تشافيز يملك بعض الوثائق الخاصة به ليحرقها في إلورزا. فنزع الضمادة التـي تغطـي عينـه وركـب سيارته وانطلق باتجاه ماراكاي، التـي تبعد حوالى تسعين دقيقة، وهناك نبَّه أحد أعضاء الحركة. ثم قاد السيارة نصف ساعة أخرى حتى وصل إلى فالنسيا وطلب من البوليفاريين فيها أن يتواروا عن الأنظار. ثم انطلق في رحلة طويلة إلى باريناس تتطلب مسير سبع ساعات أخرى.

في إحدى القرى القريبة من المدينة اتصل ببعض الأعضاء المدنيين في الحركة التي كانت تملك حضوراً هاماً في المنطقة، بما فيها مسقط رأسه سابانيتا. اتصل تشافيز باثنين من أقرب أصدقائه هناك، وهما الشقيقان أورتا، اللذان وافقا على قطع الطريق الوعرة بشاحنتهما إلى إلورزا حيث أنذرا بعض مرؤوسيه في الموقع العسكري. كما استخدمـا مفتاحـاً أعطـاه لهمـا تشافيز للدخول إلى غرفته وإخـراج وإحراق كل الكتب والوثائـق والخطـط التـي يمكـن أن تشـكل دليلاً ضده. «لقد أحرقـا كل شيء لأننا كنا

نشك في أن المخابرات ستأخذ كل شيء. بالفعل، فقد وصلت طائرة في اليوم التالي تقلّ على متنها أشخاصاً من المخابرات. فبحثوا في المكان لكنهم لم يجدوا شيئاً».

ذهـب تشافيـز إلـى منـزل أمه في باريناس. ثم اتصل بالضابط المسؤول عنه في سان خوان دي لوس موروس ليبلغه بأنه سيقضي بعض الوقت حتى يتعافى من آثار العملية الجراحية. كما أخبر أخاه أدان الذي نشر خبر تسرب المعلومات عن الحركة إلـى المتآمريـن المدنييـن الآخرين. ونجح البوليفاريون فـي التملص من أول اختراق جدي لأمنهم.

○●○

غير أن تشافيز لم ينجُ من المحنة من دون أذى. فعندما عاد من إجازته نقلت السلطـات جنـوده مـن إلـورزا معللة ذلك بأنه جـزء من إعادة التنظيم. وأمروه بإنشاء وحدة جديدة من أجل تطوير الجبهة. لكن تشافيز قرأ الأمر بشكل مختلف: «تركوني من دون أي شيء، من دون ميزانية، ومن دون أرض، لا شيء، في وحشة *Cajon de Aracua*، أتحـدث مـع أشبـاح لورنـزو باركويرو»؛ شخصيـة في رواية فنزويلية شهيرة تُدعى **دونا باربارا** تُدمِّر حياته بفعل سوء الحظ والأعمال الشريرة ويعيش حياة بائسة في كوخ في لانوس. «في نهاية المطاف أنشأنا وحدة من عشرة جنود وبعض الهنود. وظلوا يراقبونني. حتى إن هناك تقرير من DISIP (الأمن السياسي) ربطني مع المتمردين الكولومبيين ويقول بأنني كنت أحضِّر لثورة هندية!».

كرَّس تشافيز والجنود أنفسهم لإعادة إحياء مزرعة كولومبية مهجورة قريبة تُدعى سانتا ريتا. حيث زرعوا بعض المزروعات، وربَّوا بعض الخنازير أعطاها لهم أحد الجيـران. ورفعـوا العلـم الفنزويلـي وبجانبه علم بايبز الأسود الكبير، لكنهم كتبوا هذه المـرة سانتـا ريتـا أو الموت. وبحسـب وصف تشافيز، «تحولوا إلى مجموعة مختلطة رثة المظهر في البرية».

ذات يـوم قـرر جنـرال يدعـى أرنولدو رودريغيز أوتشـوا القيام بزيارة تشافيز ورجالـه. حـدث ذلـك في منتصف الفتـرة الصباحية وكان تشافيز ما يزال نائماً، ذلك أنه وصل في وقت متأخر من رحلة إلى كابانابارو في لانوس. ظهرت مروحية في السمـاء، واقتربـت مـن القاعـدة فطـرق أحد الجنود على باب تشافيـز. أيها الميجور، لقـد جـاءت مروحيـة! غيـر أن تشافيز ومجموعته لم يكونـوا مستعدين لزيارة من قائد رفيع المستوى. فجنوده «بدوا أقرب إلى المتمردين بجزماتهم المطاطية، بسبب اهتراء الجزمات العسكرية، ولباسهم العسكري البالي، حتى إن بعضهم كانوا يرتدون سراويل من الجينز الأزرق، أما أنا فقد كان شعري طويلاً وقد نمت لحيتي... ارتديت قميصاً أخضر وسروالاً قذراً وانتعلتُ جزمة مليئة بالطين. وعندما رأيت الجنرال فكَّرت في نفسي لقد وضعت نفسي في ورطة. فالمجموعة لم تكن تشبه وحدة عسكرية ولم يكن

هناك أي نظام. وبعض الجنود كانوا على صهوات الجياد. هكذا، وقف الجنرال هناك ينظر إلي مستغرباً. كان يملك حساً ماكراً بالدعابة حيث قال لي بجدية حقيقية:

«هل أنت تشافيز؟ ذلك النقيب من الأكاديمية العسكرية؟

أجل أيها الجنرال، أنا تشافيز.

يا الله، وما ذلك العلَم الأسود؟ وماذا تفعل بأولئك الجنود الذين لا يحيّون جنرالاً؟

مرحباً بك أيها الجنرال... لم أعرف ماذا أقول له... هل تريد كوباً من القهوة؟».

دخلا إلى المنزل وكان يعبق بالدخان الصادر عن الموقد الذي يعمل على الحطب في المطبخ. وكان هناك بعض الخنازير تتجول بالقرب منهما. وفي الخارج كان يوجد حقل صغير من الذرة. فسأل الجنرال تشافيز عما يفعل هناك. أرسلوني إلى هنا، أجابه تشافيز. يقولون إنني أخطط لمؤامرة. وهل هذا صحيح؟ سأله الجنرال. لا يا جنرال، الذي يحدث هو أنني أشبه، أنت تعرفني، أنا أتكلم، أقول أشياء. أنا بوليفاري.

أقنع تشافيز الجنرال بأنه لم يكن يعدّ لمؤامرة، وظلا على اتصال مع بعضهما. في الحقيقة، لقد أحبه رودريغيز أوتشوا. حتى إنه دعاه في العام 1988 لكي يصبح مساعده الشخصي. فأمضى تشافيز عدة أشهر معه في كتيبته في سان خوان دي لوس موروس. وبعد ذلك عُيّن رودريغيز أوتشوا رئيساً لمجلس الأمن القومي CONASEDE. كان ذاهباً إلى قصر ميرافلوريس الرئاسي في كاراكاس ويريد أن يأخذ تشافيز معه.

كانت ضربة حظ أخرى لتشافيز، إذ لم يمنع أحد في الجيش ذلك النقل إلى كاراكاس. وهكذا لم يمض وقت طويل حتى وجد تشافيز نفسه يعمل في القصر الأبيض Palacio Blanco قبالة قصر ميرافلوريس الذي كان يضم الرئيس جيمي لوسينتشي الموشك على نهاية ترؤسه لخمس سنوات موهنة أخرى من تاريخ البلد. كانت أميركا اللاتينية في تلك الفترة تمر في عقدها الضائع، عقد الديون المتراكمة والتضخم المتزايد وشد الحزام الاقتصادي. وفنزويلا لم تكن استثناء.

استلم لوسينتشي زمام الحكم في فنزويلا في العام 1984، بعد عام واحد من يوم الجمعة الأسود عندما انخفضت قيمة البوليفار - الذي كان ذات يوم قوياً كالصخر - الأمر الذي صدم الفنزويليين. فطرد الناخبون الرجل الذي أمر بتخفيض قيمة البوليفار من منصبه، وهو لويس هيريرا كامبينز من حزب COPEI، وأعادوا إلى الحكم حزب كارلوس أندرياس بيريز، حزب العمل الديمقراطي. وكان لوسينتشي زعيمه في تلك الآونة.

عند استلامه الحكم، لم يكن حجم الدين الفنزويلي المتصاعد معروفاً حتى بالنسبة

للحكومة لأن الكثير من المؤسسات والوكالات الحكومية كانت تأخذ القروض من دون موافقة البرلمان. وكما تبيَّن، فقد تضاعف الدين منذ العام 1978 ليصل إلى 34.2 مليار دولار؛ نسبة عالية منه كانت قصيرة الأجل.

نجح لوسينتشي ليس فقط في دفع الفائدة المستحقة على الدين بل الدين الرئيسي أيضاً. كما زاد من النمو الاقتصادي في وقت كانت أسعار النفط تتهاوى. بدا الأمر وكأنه فعل من جانب عملاق اقتصادي. فكيف فعل ذلك؟ في حقيقة الأمر، لقد خفَّض قيمة البوليفار مرتين، وأفرغ المدخرات الوطنية. فانخفضت الاحتياطات الأجنبية من 8.98 مليار دولار في 1985 إلى 1.77 مليار دولار في 1986. وتحوَّل التوازن الإيجابي للمدفوعات من 1.7 مليار دولار في 1985 إلى عجز مقداره 3.8 مليار في 1986 و4.4 مليار دولار في 1987. بكلمات أخرى، كانت ثمة كارثة اقتصادية تتكوَّن، وقلة من الفنزويليين كانوا يعلمون بشأنها.

أضف إلى ذلك الفضيحة المعروفة باسم RECADI، نسبة للمكتب الوطني المسؤول عن التبادل النقدي. أنشأ لوسينتشي المكتب المذكور من أجل إدارة نسبة صرف من ثلاث مستويات (وأربع مستويات من 1984 إلى 1986) ونظام تحكم نقدي قدَّم دولارات بنسب خاصة لبعض المواد المستوردة. فتحوَّل إلى نظام سافر لتبييض الأموال بالنسبة للنخبة الفنزويليّة، التي أصبح بإمكانها أن تجني أرباحاً طائلة من مجرد شراء الدولارات بتلك النسبة الخاصة ومن ثم تحويلها ثانية إلى بوليفارات وفق معدل السوق الحرة.

مع أن بعض رجال الأعمال والسياسيين المتورطين بهذه الفضيحة اتُّهموا بالفساد وتم احتجازهم، إلا أن المحكمة العليا المسيَّسة إلى حدٍّ كبير أبطلت مذكرات اعتقالهم في نهاية المطاف لدواعٍ تقنية. وهذا لم يكن مستغرباً بالنسبة لمعظم الفنزويليين، في الواقع. فإن سألت شخصاً في الشارع «هل تعتقد بأن شيئاً ما سينتج عن هذا الأمر؟» - إشارة إلى ادعاءات الفساد - فالإجابة الشائعة كانت «Aqui no ha pasado nada» أي لا شيء يحدث هنا.

في الحقيقة، لم تكن RECADI الفضيحة الأكبر في عهد إدارة لوسينتشي، فبعد وقت قصير من انتقاله إلى قصر ميرافلوريس، أصبح واضحاً للأمة بأنه كان على علاقة عاطفية مع سكرتيرته الشخصية، بلانكا إيبانيز التي كانت تصغره بأعوام عديدة. لقد تخيلت إيبانيز نفسها - وهي قصيرة القامة حمراء الشعر، انتقلت مباشرة من عائلة فقيرة في الأنديز إلى مكتب خاص في القصر الرئاسي - بأنها النسخة الفنزويلية عن إيفا بيرون، على الرّغم من أنها كانت تفتقر إلى سحر شخصية إيفيتا.

حازت إيبانيز على سلطة هائلة، وتورطت في عدة عمليات فساد، وانتحلت لنفسها دور السيدة الأولى، حتى إنها كانت تستخدم مكانتها لمضايقة زوجة لوسينتشي، التي رفعت دعوى طلاق ضد زوجها. وغالباً ما كانت بلانكيتا - كما كانت تُعرَف - تحضر

اجتماعـات حكوميـة بـل وكانت ترافق لوسينتشي في جولات رسمية إلى الخارج. وقد تحولت إحدى الجولات (إلى إسبانيا) إلى فضيحة علنية حين رفض المسؤولون السماح لهما بالبقاء في المرافق الحكومية وأرسلوهما إلى أحد الفنادق.

مع اقتراب رئاسة لوسينتشي من نهايتها في العام 1988، أصبح النظام المالي على حافة الانهيار. فعلى الرغم من أن سياساته المتعلقة بإفراغ المدخرات الوطنية أكسبته بعض الشعبية في تلك الآونة، إلا أنها خلّفت كارثة وشيكة بالنسبة للرئيس القادم. ولهذا السبب – وأمـلاً بالعـودة إلـى سنوات الازدهار النفطي السعيـدة في السبعينيات – تحوَّل الفنزويليون ثانية إلى كارلوس أندرياس بيريز (*el gocho*) الذي وعد بتحول كبير في ثروات الأمة. ولكن، بحسب وصف المفكر السياسي دانييل هيلينغر، «لربما ساعدت سياسات لوسينتشي زميله في حزب *adeco* على الفوز في انتخاب كانون الأول 1988، إلا أنه ترك لبيريز قنبلة اقتصادية موقوتة عليه تفكيكها».

وصل هوغو تشافيز إلى كاراكاس عندما كانت ساعة القنبلة الموقوتة تدق. ولسوء حظه كانت حركته البوليفارية تمر في واحدة من أسوأ مراحلها. وكان أرياس كارديناس قـد غـادر للدراسـة فـي كولومبيا لمدة عاميـن بعد وقت قصير من اجتماع العام 1986 في سان كريستوبال الذي انضم فيه رسمياً إلى الحركة، التي غيَّرت اسمها الآن إلى MBR–200 بفضل الانضمام المتنامي للمدنيين من أمثال ماركسمان إليها.

بالطبع، لم يكن بيد تشافيز حيلة فهو كان معزولاً في إلورزا حيث وجد صعوبة بالغـة فـي الحفـاظ علـى صلاته. وحتى الجريـدة التي وافق المدنيون في اجتماع سان كريستوبـال علـى نشرهـا تبيَّـن أنهـا مخيبة للآمال. فبعد شهرين مـن ذلك الاجتماع، وصلـت رزمـة مكونـة مـن مئتي نسخة منها إلى إلـورزا كي يطلع عليها تشافيز. لكنه صُـدم عندمـا فتحهـا وقرأهـا. ذلـك أنـه كان من المفترض بها أن تشـدد على بوليفار ورودريغيز وزامورا، فإذا به يجد على الصفحة الأولى صورة إيرنستو تشي غيفارا. ولـم تكـن المقـالات في الداخل مختلفة الطابـع. صحيح أن تشافيز كان معجباً بشخص تشي، إلا أنه كان يعرف بأن الثائر الكوبي لن يكون مقبولاً في الجيش أو حتى عند معظم السكان العاديين. ولهذا السبب، أخذ الجرائد إلى الخارج وأحرقها.

مع اقتراب الثمانينيات من نهايتها، اعتقد تشافيز بأن حركته قد تموت كلياً: «سارت العمليـة مـن العـام 1982 مـع بعض النجاحات والانتكاسات حتى العام 1991، وكانت هناك لحظات اعتقدت فيها بأنها سوف تنتهي». كان الثوار بحاجة إلى حدث دراماتيكي لإعادة إحياء المؤامرة. وهذا الحدث لن يطول انتظاره.

الفصل الثامن

المذبحة

كان كارلوس أندرياس بيريز يريد لحفل توليته أن يكون حدثاً لا يُنسى. ولم لا؟ فقد فـاز فـي الانتخاب الرئاسي لعـام 1988 بشكل كاسح، ممتطياً موجة من التوقعات التي تقول إنه سيعيد البلد إلى ذروة سنوات الازدهار النفطي التي ترأسها خلال ولايته الأولى في السبعينيات عندما كانت مليارات الدولارات النفطية تبدو وكأنها تتساقط من السمـاء كالمطـر. كانـت فنزويـلا بعد عقد من شد الحزام الاقتصادي، تقوم بعودة إلى الوراء، أو هكذا كان ملايين الفنزويليين يأملون. كان CAP - كما كان يُعرَف - أول رئيس يُنتخَب لولاية ثانية في فنزويلا منذ ترسيخ الديمقراطية في العام 1958.

كان تشافيز شاهداً من الصف الأمامي على عودته، فهو أصبح الآن في القصر الأبيض الذي يقع قبالة قصر ميرافلوريس الرئاسي، ويعمل في مكتب الأمن القومي. غيـر أنـه لـن يشهـد الأحـداث المأساوية التي ستتبع إدلاء بيريـز بالقسَم الرئاسي بفترة قصيـرة وتغيِّـر البـلاد إلى الأبـد. فبينما كانت كاراكاس تحتـرق، كان تشافيز ملتزماً سريره لإصابته بالجدري.

قبـل ظهـور تشافيـز علـى الساحـة، كان بيريز - الشخصيـة المحورية في الحقبة الديمقراطية في فنزويلا - سياسياً ديماغوجياً ذا شخصية ساحرة وكان قادراً على الرّغم من بلوغه السادسة والستين من عمره على إلهاب مشاعر الحشود في حملته الانتخابية وجعل النساء يسقطن على الأرض مغشياً عليهن. غير أن ذلك لم يكن بسبب وسامته وبهـاء طلعتـه، فبحسـب مـا جاء في جريـدة *The Atlantic Monthly*: «إنه ليس نجماً سينمائيـاً، بقامتـه الطويلـة ورأسـه الأصلع، وأنفه الكبير وذقنـه المتراجعة... كما أنه ليس بالخطيب المفوّه. إن سحر CAP يكمن في شخص CAP نفسه».

مثل تشافيز، كان بيريز مدمناً على العمل حيث إنه لم يكن ينام سوى أربع أو خمس ساعـات فـي اليـوم. كان ينهض من فراشه يومياً قبـل الفجر ليشرع في جولة جديـدة مـن الاجتماعـات والاتصالات الهاتفية والجـولات المرهقة التي تجلب الدوار. كان شعلة من النشاط. وعندما كان يخطب في الحشود، كان يلوح بيديه مثل ماسحتي الزجـاج الأمامـي فـي السيارة وكان بوسعـه دفع الجموع إلى حافة الهستيريا بعبارات مثـل «لنذهـب إلـى العمـل! لنذهب إلـى العمل!». كان توقه لأن يكـون مركز اهتمام الناس لا يوصف.

وُلـد بيريـز فـي ولاية تاتشيرا الحدودية الصغيرة التـي تشتهر بمنتجيْن أساسييْن:

البن والحكام المستبدين. فمنها جاء الطغاة الثلاثة كلهم الذين حكموا فنزويلا في القرن العشريـن معـاً، بلـغ مجمـوع حكمهم 46 عاماً. دخل بيريز عالم السياسية في الخامسة عشـرة مـن عمـره وحصـل بعد ثمانـي سنوات على وظيفة سكرتيـر لأبي الديمقراطية الفنزويليـة، روميولـو بيتانكـورت، ثـم هرب من البلد في 1949 وبقي في المنفى لمدة تسع سنوات بعد تولي الجنرال ماركوس بيريز جيمينيز الحكم. ثم أصبح وزيراً للداخلية فـي بدايـة الستينيـات عندما أصبـح بيتانكورت أول رئيس منتخَب من الشعب إلى حين فـوزه القـوي بالحكـم فـي 1974 وبقائه حتى 1979. أمَّم بيريز صناعة النفط، وأسس علاقات دبلوماسية مع كوبا، وضغط على الكونغرس الأميركي من أجل تسليم السيطرة على قناة باناما إلى باناما وزود الساندينيين بالأسلحة عندما كان نظام سوموزا المدعوم من الولايات المتحدة يترنح في أيامه الأخيرة.

انتهـت رئاسـة بيريـز، المحاط بمجموعة من الأصدقـاء واسعي الثراء والملقبين بالحواريين الاثني عشر، بفضحية كبرى عندما اتُهم بأخذ الرشوة في عملية شراء فرقاطة عسكرية «*Sierra Nevada*» بضعف قيمتها الحقيقية وتقديمها إلى بوليفيا المحاطة بالبر من كل جوانبها. فعاقبته اللجنة المعنية بالمسائل الأخلاقية في حزبه (العمل الديمقراطي) وحاولت طرده من الحزب.

غيـر أن كل ذلـك أصبـح طـي النسيـان بعد عقد من تلـك الحادثة، عندما علقت فنزويلا في مستنقعها الاقتصادي. كما غُفر له أيضاً حسابه المصرفي الكبير الذي تمكّن بطريقـة مـا مـن جمعـه من خلال ما كان يتقاضاه من أجور حكومية متواضعة. وهكذا اكتسح بيريز مختلف أنحاء البلد مثل إعصار بشري خلال حملته الانتخابية في 1988، حيث مشى في الأحياء الفقيرة وصافح الأيدي، وقبّل النساء المتقدمات في السن واعداً الناس بالرفاهية والازدهار. وكان من بين شعاراته المرفوعة في تلك الحملة: «الرجل الذي يمشي حقاً» و«الرجل النابض بالطاقة».

أمضى بيريز خمس عشرة سنة يجول الكرة الأرضية باسم قضايا العالم الثالث. ومثـل تشافيـز، كان بيريـز يتخيـل نفسـه سيمـون بوليفـار ذلك العصـر، حيث وحّد أميـركا اللاتينيـة مـن أجل التصـدي لأزمة الدين الخارجي خـلال العقد الضائع – عقد الثمانينيات – وأصبح الناطق الرسمي باسم دول العالم الثالث بشكل عام. وعندما كان يستعد لاستلام مقاليد الحكم ثانية، كان يريد أن يكون ذلك اليوم مميزاً بعرض باهر يبشّر بظهوره كزعيم عالمي مؤهَّل ومخلِّص لأميركا اللاتينية.

أطلق النقاد على حفل استلامه مقاليد الحكم تتويجاً. حيث تضمنت قائمة الضيوف 24 رئيـس دولـة، وستـة رؤسـاء سابقين من بينهم جيمي كارتر وجوليوس نيرير من تنزانيا، وخمسة وزراء نفط من منظمة أوبك، ومئات الشخصيات الرفيعة من مختلف أنحـاء العالـم. وكان فيـدل كاستـرو من بين الرؤساء الحاضرين، منهياً الشكوك حول إمكانيـة قيامـه بزيارتـه الأولـى إلـى فنزويلا بعد تلك الزيارة المظفرة التي قام بها إثر

استلامه الحكم في كوبا قبل ثلاثين عاماً. وأوفدت الولايات المتحدة دان كوايل في أول زيارة دبلوماسية له بصفته نائباً للرئيس. كما حضر قادة الكونترا في نيكاراغوا ورئيس البلاد الساندينـي دانييل أورتيغا معاً؛ على الرّغم من أنهم كانوا لا يزالون في حالة حرب. وتحوَّل فندق هيلتون اللامع وسط كاراكاس، الذي نزل فيه الكثير من الضيوف المتنفذين، إلى منطقة عسكرية تعج بالأسلحة، بضباط من الكي جي بي السوفييتية، وعملاء الخدمة السرية الأميركيين، ورجال الأمن الكوبيين الذين كانوا يراقبون المكان إلى جانب مئات الجنود الفنزويليين. وعلاوة على ذلك، قدم إلى المدينة حوالى 700 صحافي من مختلف أنحاء العالم من أجل تغطية الحدث.

لم يُخيِّب أملهم. فبيريز وأصدقاؤه نظموا عرضاً لا يُشاهَد دائماً في المنطقة؛ أو بحسب ما كتبته صحيفة نيويورك تايمز: «واحد من أفخم الاحتفالات التي شهدتها أميركا اللاتينية». ووفقاً لبعض الروايات ضم الحفل أكبر تجمّع للقادة الأجانب في أميركا اللاتينية. ودُعي ما مجموعه عشرة آلاف ضيف إلى حفلات مبهرجة احتفاءً بالمناسبة وشربوا - كما قيل - حوالى 1,200 زجاجة شراب، والتهموا 650,000 طبق من المقبلات، وعشرين قطعة لحم من جانب البقرة، و209 قطع لحم من جانب الحمَل. ووصف أحد الدبلوماسيين الأميركيين اللاتينيين تلك الحفلة: «إنها أشبه بحفلة تتويج ملكية، شيء يمكن أن يقوم به إمبراطور، مثل هيروهيتو أو غيره».

إن الدعوة التي وُجِّهت لكاسترو وأورتيغا غذَّت تخمينات تقول إن بيريز - الذي أمَّم شركات النفط الأجنبية في العام 1976 - سيقدم تصريحاً راديكالياً حول الدين الخارجي المتنامي الذي تعاني منه أميركا اللاتينية، والذي سيؤدي إلى أسوأ أزمة في تاريخ المنطقة بحسب تعبير العديد من المحللين الاقتصاديين والسياسيين. إذ إن الكثير من الناس كانوا يتوقعون من بيريز أنه سيعلن عن إنشاء اتحاد للدول المدينة للضغط على البنوك الأجنبية والولايات المتحدة من أجل منحهم إعانات.

في الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم الاثنين 2 شباط 1989، قدَّم جيمي لوسينتشي أخيراً الشريط الرئاسي إلى بيريز. ثم صعد رئيس فنزويلا الجديد المنبر ليدلي بخطابه الذي دام أربعين دقيقة استحضر فيه حلم بوليفار بتحقيق الوحدة بين دول أميركا اللاتينية وناشد زعماءها لتشكيل جبهة عامة ضد الدين المرهق. ومع أنه لم يشر إلى فنزويلا بشكل خاص، إلا أنه ألمح إلى شيء ما سيأتي.

بعد أسبوعين اكتشف البلد والعالم ما كان يتحدث عنه بيريز، الذي وإن كان يشجب علناً رأس المال الأجنبي في أثناء جولته في بلدان العالم في الأسابيع التي سبقت حفل التولية، إلا أنه في الوقت نفسه أرسل سراً رسالة إلى صندوق النقد الدولي والبنك الدولي تقول إن فنزويلا ستلتزم بشروطهما القاسية مقابل حصولها على قرض بالغ الضرورة بقيمة 4.3 مليار دولار على مدى السنوات الثلاث التالية، بما فيه مبلغ فوري بقيمة 1.5 مليار دولار.

كانت تلك الشروط جزءاً مما كان يُعرَف باسم إجماع واشنطن - اعتُبر الكتاب المقدس لسياسات اقتصاد السوق الحرة النيو ليبرالية التي اجتاحت أميركا اللاتينية رداً على أزمة الدين - الذي دعا لتقليص دور الحكومة في الاقتصاد، وتخفيض الإنفاقات والإعانات الحكومية، ورفع الضوابط عن الأسعار، والحد من البيروقراطية الحكومية، وخصخصة المشاريع المملوكة من قبل الدولة، وفتح الاقتصاد أمام الاستثمار الأجنبي، وتعويم معدلات صرف العملة في السوق الحرة، وتخفيض التعرفات الجمركية، وتحرير الاقتصاد. إنها باختصار رأسمالية سوق حرة معفاة من كل قيد مع القليل من شبكة السلامة الاجتماعية التي تتميز بها الاشتراكية الأوروبية.

ضمَّت إدارة بيريز الجديدة شابين اقتصاديين أميركيي التدريب وخبيرين في فروع مدرسة شيكاغو لعلم الاقتصاد النيوليبرالي: موسيس نعيم، وزير التجارة والصناعة، وميغيل رودريغيز، وزير التخطيط، من جامعتي *MIT* ويال. لقد ساعد الرجلان على عقد صفقة *shock package* اقتصادية كانت قد سبقت فنزويلا دول أميركية لاتينية أخرى، مثل بوليفيا، على تنفيذها بغية محاولة ترويض التضخم المفرط، ودفع النمو الاقتصادي، والتصدي للدين الخارجي.

كانت الفكرة بسيطة للغاية: ألم قصير الأمد بهدف تصحيح مواضع الخلل الاقتصادي يتبعه ازدهار طويل الأمد. في الواقع، كان بيريز قد شجب في السابق صفقة صندوق النقد الدولي بوصفها قنبلة ذرية تقوم بقتل الناس فقط وتترك المباني سالمة بالإضافة إلى اقتصاديي الصندوق حيث وصفهم بعمال إبادة جماعية بأمرة توتاليتارية اقتصادية، إلا أنه كان يعتقد بأن خياراته باتت ضيقة جداً. فالبلد الذي ينوء تحت أعباء الدين الخارجي كان يقف على حافة الانهيار والفضل يعود بالطبع إلى لوسينتشي الذي نهب الاحتياطات الأجنبية من أجل دفع خدمة الدين تاركاً بيريز من دون أي شيء تقريباً. وقد وصف حيرته الكاتب المسرحي الأول في فنزويلا خوسيه إغناسيو كابروجاس، الذي تخيل محادثة بين بيريز ومصرفي يُدعى بيدرو تينوكو أبلغ الرئيس المنتخب بأن هناك 200 مليون دولار:

بيريز: لشراء مشابك الأوراق يا تينوكو؟

تينوكو: لا، لا. بشكل عام سيدي الرئيس.

بيريز: أعتقد بأنك تشير إلى صندوق النقود الصغير دكتور تينوكو.

تينوكو: لا، لا. إنني أتحدث عن الخزينة العامة. هذا كل ما نملكه. ليس هناك أي شيء آخر.

بيريز: لكن جيمي... لم... لم يخبرني شيئاً عن هذا الأمر... اتصل بجيمي!

تينوكو: جيمي في ميامي سيدي الرئيس.

فـي 16 شبـاط، أعلـن بيريز عن الرزمـة الجديدة (*paquete*). لم يسمِّها *shock package* بـل قـال بأنهـا جـزء مـن التفافة كبيـرة (*El Gran Virage*) ستعيد فنزويلا إلـى الرّفاهيـة والازدهـار. إنهـا في الواقع رزمة من الإجـراءات الاقتصادية التقشفية التقليدية من جانب صندوق النقد الدولي، إلى جانب إجراءات محددة تستهدف المزايا الاقتصادية في فنزويلا. على سبيل المثال، سيتضاعفُ تقريباً سعر البنزين، الذي يُعتبر مـن الأرخصـ فـي العالم، ثم سيتعرض لزيادتين أخريين خلال السنوات اللاحقة. أو بعبارة أخرى، كانت الفكرة سترفعهم إلى مستويات السوق العالمية.

لـم تكـن الحكومـة تعتقـد بأنها مضطـرة لتحضير الشعب لتلـك الإجراءات، التي تضمنـت زيـادات قاسيـة فـي سعـر الخبز والحليـب والمعكرونة وبقية المـواد الغذائية المدعومة من الحكومة. إذ كان نعيم ورودريغيز وآخرون يعتقدون ببساطة بأن الناس سوف يتقبلون الإجراءت بصفتها خطوات بديهية لتصحيح مكامن الخلل الاقتصادي.

وُضعـت الصفقـة موضـع التنفيـذ فـي عطلة نهاية الأسبوع التـي صادفت في 25 و26 شباط، بينما كان العمال يغيِّرون بهدوء بطاقات الأسعار على مضخات الوقود. وكان البلـد متوتـراً سلفـاً، فخـلال الحملة الانتخابية حافـظ لوسينتشي من حزب العمل الديمقراطـي علـى ضوابـط الأسعـار علـى مجموعة واسعة مـن المنتجات كما هي من أجـل ضمـان شعبيتـه الخاصـة ورفـع فرص بيريز في الفوز فـي بداية كانون الأول. ولأن التجـار كانـوا يتوقعـون بأن الضوابـط على الأسعار سوف تُرفَع وقيمة البوليفار ستنخفض والأسعار سترتفع بعد تولي الرئيس الجديد مقاليد الحكم رسمياً، قاموا بتخزين الأرز والفاصولياء ودقيق الذرة والمعكرونة وبودرة الحليب ومعجون الأسنان ومزيل الرائحة، وحتى السيارات.

فعانت البلد من نقص في المواد الغذائية عدة أسابيع، حيث كان يُقال للناس الذين يقصدون محال البقالة الصغيرة أو محال السوبرماركت الكبيرة لشراء المنتجات الغذائية الفنزويلية الاعتيادية، *No hay* (أي لا يوجد أي شيء)، على الرّغم من أن الكثير من تلك المواد كانت مخبأة في غرف التخزين. وبسبب عدم قدرتهم على شراء حتى أكثر المواد ضرورة، راح صدر الفنزويليين يضيق أكثر فأكثر. وفي منتصف شباط بدأت أحداث شغب معزولة تتفجر في كاراكاس وأجزاء أخرى في داخل فنزويلا.

في يوم الاثنين 27 شباط تصدَّع السد. فعلى الرغم من أن برنامج بيريز الصادم الجديد دعا لرفع أسعار البنزين بنسبة مئة بالمئة، إلا أنه قيَّد الزيادات على أجور عبور الحافلات وسيارات الجيب عند نسبة 30 بالمئة، إلا أن السائقين لم يكونوا مسرورين بذلك. ففي ذلك الصباح تجاهلوا ببساطة القوانين الجديدة، وضاعفوا أجورهم كي تتناسب مع ارتفاع سعر البنزين ورفضوا قبول بطاقات الطلاب التي تفرض حسماً نسبته 50 بالمئة على أجور نقلهم.

صدمت الزيادة ملايين الفقراء الذين كانوا يعتمدون على الباصات وسيارات الجيب في الذهاب إلى أماكن عملهم. وكان الكثيرون منهم يستيقظون في الرابعة فجراً ويغادرون أكواخهم الواقعة في المنحدرات الجبلية في الخامسة ليقفوا بعد ذلك في طوابير طويلة لساعة أو اثنتين من أجل الحصول على مكان في حافلات شديدة الازدحام إلى درجة أن بعض الركاب كانوا غالباً ما يتعلقون على الأبواب أو يتدافعون من أجل الصعود إليها. وفي المساء كانوا يكررون الروتين المذل ذاته ليصلوا إلى منازلهم في الساعة الثامنة أو التاسعة مساء. وكانت شركات النقل التي تحتكر تلك المصلحة ترفض وضع المزيد من الباصات على الطرقات لتخفيف الازدحام لأن ذلك كان سيخفض من أرباحها.

بالنسبة للمتنقلين الذين بالكاد يعيشون كفاف يومهم من الناحية الاقتصادية، كانت مضاعفة أجور النقل بين ليلة وضحاها أكثر من قدرتهم على التحمل. وفي بعض الضواحي البعيدة من العاصمة كانت الأجور الجديدة تستهلك حوالى ربع الأجر الشهري للعامل العادي.

تفجرت أولى بوادر الاضطراب في غواريناس الواقعة خارج كاراكاس، حين صُدم المتنقلون المصطفون عند مواقف الباصات مع مطلع الفجر بمضاعفة الأجور. فتشاحنوا مع السائقين ورموا الحجارة على السيارات وذرعوا الشوارع احتجاجاً. وبحلول الساعة السابعة والنصف صباحاً حُرقت سيارتان، وفي الوقت نفسه تقريباً اندلعت اضطرابات مشابهة في محطة الباصات Nuevo Circo (السيرك الجديد).

بعد بضع ساعات انتقل المتظاهرون من محطة السيرك الجديد إلى شارع بوليفار ذي المسارات الستة. فوضعوا حاجزاً على الطريق قاطعين بذلك أحد شرايين النقل الرئيسية في العاصمة. فأنزل مالكو المحال التجارية القلقون أبوابهم الفولاذية أو مشابكهم المعدنية التي يقفلونها في الليل عادة لحماية واجهات محالهم. بينما ترك آخرون نصفها مغلقاً وتركوا محالهم مفتوحة جزئياً لأنهم لم يكونوا متأكدين مما يحدث.

في ذلك الصباح، اندلعت احتجاجات مشابهة في تسع عشرة مدينة في مختلف أنحاء البلاد. وقد ساعدت شبكات التلفزيون المحلية التي بثت صوراً عن الاضطرابات في العاصمة على نشرها في البلد بأكمله.

عند الظهيرة تقريباً، تجمّع حشد من الطلبة أمام جامعة فنزويلا المركزية في كاراكاس وشجبوا ليس فقط الارتفاع في أجور النقل بل وصفقة بيريز الصادمة برمتها أيضاً. ووضعوا السيارات في منتصف الطريق المؤدي إلى ساحة فنزويلا وساحة لا تري غارسياس، قاطعين حركة المرور في جزء مركزي آخر من المدينة. وحوالى الساعة الثانية من بعد الظهر توجهوا إلى شارع فرانسيسكو فاجاردو القريب، الشارع الرئيسي في العاصمة، وقطعوه بواسطة أغصان الأشجار والصناديق الفارغة وأشياء أخرى. كما أوقفوا شاحنات المواد الغذائية وأفرغوا حمولاتها وطلبوا من السائقين أن

يركنوا الشاحنات في عرض الطريق.

حتى ذلك الحين لم يتحرك رجال الشرطة في أي مكان من المدينة؛ كان بعضهم يقف بلا حراك لكثرة المتظاهرين، فيما كان آخرون مضربين عن العمل بسبب نزاع حول الأجور. ومما زاد الأمر تعقيداً هو أن قادة الحكومة أخذوا على حين غرة. وبيريز نفسه كان موجوداً في باركويزيميتو، التي تبعد حوالى 170 ميلاً عن العاصمة؛ من الواضح أنه كان إما غير عالم بالفوضى الناشبة في كاراكاس إما أنه اعتبرها غير ذات شأن فتجاهلها. اتصلت السلطات في باركويزيميتو بالحرس الوطني قرابة الظهيرة، ولهذا السبب لم تتأثر تلك المدينة كثيراً.

بحلول نهاية فترة بعد الظهر اختفت الباصات وسيارات الجيب من كاراكاس، وأغلق نظام الأنفاق كلياً. فاضطر مئات الآلاف من العمال إلى السير مسافة أميال من أماكن عملهم إلى منازلهم بينما كانت السيارات والباصات تحترق في الشوارع. وما زاد في الطين بلة هو اندلاع أعمال نهب وسلب جماعية في العاصمة.

بدأ ذلك قرابة الساعة الرابعة من بعد الظهر، وكانت الأهداف الأولى محال البقالة ومحال السوبرماركت والمخازن المليئة بأكثر المواد ضرورة بالنسبة للمواطنين (الأغذية والألبسة). حطم الناهبون واجهات المحال أو خلعوا الأبواب والبوابات المعدنية واقتحموها. ومما أثار دهشتهم هو أنهم وجدوا أن الكثير من المنتجات، التي كانت مفقودة على رفوف المحال منذ أسابيع، مخبأة في غرف التخزين الخلفية. وفي غمرة النهب، أمسكوا بأي شيء وصلت إليه أيديهم (المعكرونة، الأرز، دقيق الذرة، بودرة الحليب، الخبز، الزبدة، الجبن، اللحم، الدجاج، السراويل، الأحذية، حفاضات الأطفال). والكثير منهم كانوا يركضون في الشوارع وهم يحملون غنائمهم، فيما كان آخرون يدفعونها في عربات نقل البضائع، حتى إن بعضهم كانوا يحملون قطعاً من لحم البقر بحجم إنسان فوق ظهورهم.

اندلعت أعمال الشغب مثل النار في الهشيم. فاجتيحت أحياء كاتيا الواسعة في غرب كاراكاس، وكذلك بيتاري في الشرق. وهوجمت المحال التجارية التي يملكها المهاجرون الصينيون والبرتغاليون واللبنانيون بوحشية خاصة لأن الكثير من المواطنين كانوا يحمّلونهم مسؤولية تخزين المنتجات وفقدانها من الأسواق. وبينما كانوا يعبثون في المحال، راح المتظاهرون يضرمون النار في الشوارع مستخدمين إطارات السيارات والصناديق الكرتونية وأشياء أخرى، وعطلوا حركة المرور. كما أوقفوا السيارات وأنزلوا سائقيها ثم أضرموا النار فيها. وساعدت شبكات التلفزيون التي كانت تبث بشكل حي أحدث الصور عن الاضطرابات في توسيعها، مشجعة بقية الناس على النهب. وعلاوة على ذلك، ساعد السعاة من راكبي الدراجات النارية، الذين يقضون اليوم عادة في إيصال الطرود أو الفواتير أو الرسائل، بدورهم في نشر الأنباء بنقلهم

أحدثها من مكان لآخر.

بحلول الليل أصبحت أعمال السرقة والنهب هائلة الحجم، وأكثر تنظيماً أيضاً. حيث قام رجال الشرطة المغلوبون على أمرهم بتنظيم اللصوص في صفوف خارج المخازن، وترك النساء والأطفال يدخلون أولاً ومن ثم يتبعهم الرجال. بعض اللصوص كانوا يلوحون بالعلم الفنزويلي ويغنون النشيد الوطني. فيما كان آخرون يطلقون الشعارات أو يكتبونها على الجدران. «الناس جائعون. الناس غاضبون. لا مزيد من الخداع». وانضم الكثير من الناس إلى تلك الحملة لأنهم كانوا يخشون من أن لا يبقى لهم أي شيء.

بعد إفراغ مخازن البقالة ومحال السوبرماركت الكبيرة، تحوَّل المشاغبون إلى محال بيع الأدوات المنزلية ومخازن المفروشات وغيرها من المحال التجارية التي كانت تعرض أدوات غالية الثمن في واجهاتها. فحملت الحشود أجهزة التلفزيونات والستيريوهات والبرادات والغسالات والمدافئ والأسرة. بالنسبة لبعضهم، ومع ارتفاع الأسعار إلى تلك الدرجة، كانت ربما تلك آخر فرصة لهم لشراء سرير أو أريكة أو تلفزيون جديد. حمل بعض المواطنين البضائع في الشوارع أو دفعوها في عربات نقل البضائع المسروقة من محال بيع الخردة. بينما نُقل بعضها في سيارات صغيرة أو كبيرة. وبعض اللصوص حملوا البرادات على ظهورهم. باختصار، يمكن وصف الوضع، بحسب تعبير أحد المراسلين التلفزيونيين، بأنه «جنون جماعي».

كان رجال الشرطة قادرين على التعرف على المواطنين الناهبين، لأن معظمهم كانوا يسكنون في الأحياء ذاتها، ولكن لم يكن بيدهم حيلة فأعداد المواطنين كانت تفوق عددهم بكثير ولهذا السبب تركوهم ينهبون بحرية. ومع مرور الساعات، تحولوا هم أيضاً إلى لصوص. حيث وصلت مجموعات مسلحة من الرجال - بعضهم كانوا لا يزالون يرتدون زي الشرطة لكنهم كانوا يغطون وجوههم بمناديل ورقية - في شاحنات أو حتى في سيارات الشرطة نفسها وقاموا بنقل مخزون بعض المتاجر بأكمله. ورأى بعض المراسلين الصحفيين بعض رجال الشرطة يطلقون الغاز المسيل للدموع على الحشود من أجل إبعادهم عن الأماكن التي كانوا يغيرون عليها. بل وأطلقوا النار من دون تمييز على اللصوص الهاربين منهم. ويصف تشارلز هاردي - الذي كان في ذلك الحين كاهناً كاثوليكياً يعمل في أحد الأحياء - تلك الحالة: «أصبحت سرقة السباغيتي فجأة تستحق عقوبة الإعدام».

في تلك الليلة، انتقلت أعمال السلب من الشوارع التجارية الرئيسية الواقعة أسفل وادي كاراكاس إلى الأحياء المنتشرة على المنحدرات الجبلية نفسها. وبعض المالكين فتحوا ببساطة أبواب محالهم أمام الحشود (أملاً بألاّ يدمروها كلها) التي احترمت في أغلب الحالات الأبنية لكنها نقلت البضائع. وفي حي سان أوغستين، سرق السكان خمسين ذبيحة من الأبقار من أحد الجزارين. وأخذوا الموازين أيضاً. وفي حي بالو

فيردي الذي يسكنه مواطنون من الطبقة الوسطى، نزلت حشود مسلحة بالمسدسات من حي بيتاري المجاور وسرقوا محال البقالة والمطاعم البرتغالية وحرقوا أثاثها في الشوارع. بعض المتظاهرين كانوا يصيحون قائلين: «إننا نفضل أن نُقتَل بالرصاص على أن نموت من الجوع».

أصبحت حفلة النهب تلك تُعرَف باليوم الذي نزل فيه الفقراء من التلال. لقد تحولت السرقة إلى صمام تنفيس للغضب المكبوت منذ وقت طويل في صدور الطبقة الفقيرة الواسعة. فمنذ سنوات وهم يراقبون بعجز مجموعة صغيرة من النخبة المتنفذة تزداد ثراء ونفوذاً في حين أنهم كانوا يكافحون من أجل الحصول على لقمة الأكل. ولهذا السبب، دب الرعب في نفوس سكان الأحياء الثرية في شرق كاراكاس، فشكلوا فرقاً دفاعية مسلحة، وجالوا في الشوارع مزودين برشاشات نصف أوتوماتيكية وبنادق ومسدسات وسواطير. بالنسبة للنخبة في فنزويلا، كان البلد ينحدر إلى حالة من البربرية.

لكن الانتفاضة العفوية، بالنسبة للكثيرين من سكان الأحياء الأشد فقراً، كانت تعبيراً عن غياب العدالة الاجتماعية. فقبل أحد عشر يوماً فقط، نشرت الصحف على صفحاتها الأولى مقالات عن زفاف القرن، وهو حفل باذخ مبهر نظمته عائلتان من أغنى العائلات في فنزويلا. وضم الحفل ما لا يقل عن 3,500 ضيف، من بينهم مئتان طاروا إلى فنزويلا على نفقة المضيفين من أماكن بعيدة كتاهيتي مثلاً. إن زواج ماريلا سيسنيروس فونتانالز، ابنة أوزوالدو سيسنيروس، وغونزالو فرنانديز تينوكو زينغ صوَّر حياة الطبقة الثرية في فنزويلا بأدق تفاصيلها، وعلى الملأ أيضاً. كان أوزوالدو سيسنيروس في السابق رئيس الفرع الفنزويلي من شركة بيبسي كولا وفرداً في واحدة من أثرى العائلات في العالم. بينما كان تينوكو زينغ سليل عائلة تجارية فاحشة الثراء.

وبالإضافة إلى تتويج بيريز قبل أسبوعين، كانت صفقة التقشف المدعومة من صندوق النقد الدولي، التي دعت للقليل من التضحية من جانب الأثرياء، أكثر من قدرة الطبقة الفقيرة في البلد على التحمل. طوال سنوات والنخبة المتنفذة والحكومة «يقولون لنا بأننا يجب أن نشد أحزمتنا، ولكن لم يعد هناك أي ثقوب». بحسب تعبير كسيومارا تورتوزا المنظمة الاجتماعية التي كانت تعمل مع الكاهن الكاثوليكي تشارلز هاردي في نيوفا تاكاغوا، حيث كان الناس يعيشون في أكواخ من الصفيح ويقضون حاجتهم في الجرائد ويرمون البراز في التلال لأنهم لم يكونوا يملكون مراحيض في بيوتهم، ويشربون مياهاً ملوثة بالبكتيريا والطفيليات من براميل تُملأ بواسطة شاحنات مرة واحدة في الشهر فقط. تقول تورتوزا أيضاً: «كان الفقراء والطبقة العاملة يصبرون ويصبرون ويصبرون إلى أن جاء ذلك اليوم وقلنا هذا يكفي. تلك كانت الطريقة

التي عبَّر فيها الناس عن غضبهم. فالشخص الذي لم يكن قادراً على شراء قطعة من اللحـم ليأكلهـا أصبـح بوسعـه في ذلك اليوم أن يأكل مجانـاً ويلبس مجاناً ويحقق حلمه الرأسمالي مجاناً».

توسعـت أعمـال السلـب فـي ليلة 27 شباط واستمرت حتى صباح 28 شباط لكنها توقفـت بحلـول منتصـف الظهر في الكثير مـن المناطق. وتحولت كاراكاس إلى مدينة أشباح، حيث أغلقت جميع المدارس والمصارف والمخازن واختفت الباصات وسيارات الأجرة. وحذرت المحطات الإذاعية الناس من الخروج من منازلهم.

في الأحياء المنتشرة على منحدرات التلال، أمضى الناس بقية اليوم في بيوتهم إمـا بداعـي الخـوف أو للاستمتـاع بغنائمهم. وفي حي تورتوزا في كاتيا، أقيم احتفال ضخـم. وفـي إيسياسـ ميدينـا أخرج النـاسـ أدوات الشوي إلى الساحـات الإسمنتية، وانبعثت رائحة اللحم المشوي في الهواء. وتشارك الجيران أو تبادلوا غنائمهم بعضهم مع بعض، متفاخرين بما استطاعوا الحصول عليه، وشربوا. كان يوماً من الانتصار ومن العدالة.

لكن، سرعان ما تحولت تلك الليلة إلى ليلة من الرعب. كان بيريز قد وصل إلى كاراكاس آتياً من باركويزيميتو قرابة الثامنة مساء. وكان واضحاً أنه تفاجأ مما رآه من فوضى في الدولة التي كانت حتى ذلك اليوم تُعرَف في أميركا اللاتينية بأنها أنموذج للديمقراطية. أمضى تلك الليلة محاولاً معرفة ما يمكنه فعله، وفي إحدى اللحظات قرر أن يطير فوق المدينة في مروحية كي يرى معالم الفوضى بنفسه.

لـم يصـدر عـن الحكومـة أي شيء حتى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الثلاثاء 28 شبـاط، حيـث ظهـر أخيراً وزير الداخلية أليخاندرو إيزاغوير في التلفزيون مطالباً بالتزام الهدوء ومعلناً بأنه لن يتسامح مع العنف. وفي منتصف خطابه، انتابت الوزير العجوز نوبة من المرض فقُطع البث، الأمر الذي أثار المزيد من القلق لدى المشاهدين. لكنه عاد بعد ساعتين ليكمل خطابه.

بعـد ساعتيـن أخريـن، ظهر بيريز أخيراً، يرافقه أعضاء حكومته. ومع اقتراب الساعـة السادسـة مسـاء أدلـى الرئيس بخطاب طويل وغاضب، أعلن فيه - على الرّغم مـن أن الكثيـر مـن أعمـال السلب كانت قـد توقفت في ذلك الحين - بأنه سيضع قانون الطـوارئ موضـع التنفيـذ، ويفرض من الساعة السادسة مسـاء وحتّى السادسة صباحاً حظـراً علـى التجـول، ويعلّـق مجموعة من الضمانات الدستورية بما فيها حرية التعبير وحرية التجمع. وهذا يعني أن الجيش كان يملك الحق باحتجاز أي شخص يراه ومن دون سبب. وأولئك المحتجزون ليس لهم الحق برؤية محامٍ أو أي من أقربائهم.

كان بيريـز، فـي وقـت سابق من ذلك اليـوم، قد أمر القوات الفدرالية بالنزول إلى الشوارع من أجل استعادة النظام. وكان قراراً قاتلاً. في أثناء ولاية بيتانكورت، كان بيريز وزيراً للداخلية وقمع خلالها الحركة الثورية اليسارية المدعومة من كاسترو

بقسوة شديدة، ولهذا السبب فقد كان عليه أن يعرف بأن إرسال الجيش إلى شوارع كاراكاس مع تعليمات باستعادة النظام يعني المجازفة بإراقة الدماء. فالجنود مدربون من أجل خوض الحروب وليس لإرساء النظام والحفاظ على السلامة العامة، فضلاً عن أنهم لم يُرسَلوا من قبل إلى المدينة للسيطرة على اضطرابات بذلك الحجم.

بعد إعلان بيريز تعليق الضمانات، بدأت إشاعات تسري في العديد من الأحياء وتفيد أن سكان الأحياء الأخرى سيغزون أحياءهم ويسرقون البضائع المنهوبة. فنظّم أفراد العصابات بالتعاون مع المقيمين العاديين فرقاً للدفاع عن أنفسهم. وفجأة ظهرت المسدسات والبنادق وحتى الرشاشات الآلية في الشوارع، بالإضافة إلى السكاكين والسواطير والهراوات والعصي وزجاجات المولوتوف. وتجمعت الفرق المسلحة عند زوايا الشوارع أو اختبأت فوق الأسطح أو خلف السيارات المهجورة، بانتظار العدو.

سرعان ما أتى الغرباء. لكنهم لم يكونوا منافسين من أحياء أخرى، بل جنوداً نظاميين. وصلت أولى الشاحنات المليئة بالجنود إلى التلال وإلى أحياء مثل إيسياس ميدينا في منتصف الليل، ثم لحقتهم الدبابات. وكانت الأوامر المعطاة لهم بسيطة جداً: أطلقوا النار على أي شيء يتحرك، وأطلقوا النار كي تقتلوا. «لم يقولوا ارفع يديك أو شيئاً من هذا القبيل»، تقول تورتوزا متذكرة ما حدث. «لكنهم قتلوا كل شيء يتحرك». بعض الشبان الذين تعهدوا بالدفاع عن حي تورتوزا كانوا في الشوارع أو مختبئين فوق الأسطح. وكالكثيرين من الفنزويليين، لم يكونوا يفهمون تماماً حظر التجوال أو أنهم لم يكونوا يعتقدون بأنه جدي، إذ لم يُفرَض حظر التجوال في فنزويلا منذ عقود.

في آخر الشارع المحاذي لمنزل تورتوزا، بدأ الجنود يطلقون النار مثل المجانين، «وكأنهم كانوا في حرب». وقد أصابوا عدة شبان وتركوا جثثهم ملقاة على الطريق. وفي مكان أقرب إلى منزلها، قُتل أحد جيرانها وكان يبلغ من العمر آنذاك 22 عاماً وتُرك ميتاً في الشارع يوماً كاملاً. لم يكن مسموحاً بنقل الجثة، بل كان عليك أن تنتظر حتى تأخذها السلطات بنفسها. والشيء الوحيد الذي استطاع الجيران أن يفعلوه هو تغطية الجثة بشرشف وإشعال بعض الشموع حولها.

في حي سان مارتن القريب من وسط كاراكاس، كان العامل في محل بيع الكتب وولفغانغ كوينتانا يقف على شرفة منزله الواقع في الطابق الثاني بالقرب من نافذة تطل على الشارع. وكان يحمل ابنته إستيفانيا البالغة من العمر ثلاثة أشهر في يد وكوباً من الليموناضة في اليد الأخرى. وفجأة أحس بألم لاسع تحت قلبه مباشرة وصاح من الألم. رمى الكوب من يده ووضع الطفلة في سريرها ثم اتجه نحو السلم لكي ينزل إلى الطابق الأول. وعندما وصل إلى السلم ووضع يده على الدرابزين وجد أنها مليئة بالدماء. أرغم نفسه على نزول السلم لكنه عندما وصل إلى الدرجة

الأخيرة سقط جاثياً على ركبتيه. ثم انهار على الأرض.

خرجت زوجته آيريس من المنزل تركض صارخة طلباً للنجدة. فهرع أقرباؤها الذين يقطنون في الجوار وأخذوا كوينتانا إلى المستشفى لكن الوقت كان قد فات.

استمر القمع على هذا النحو لمدة ثلاثة أيام بعد تعليق بيريز للضمانات الدستورية. وانتهى الأمر بمذبحة هي الأسوأ في فنزويلا في القرن العشرين وإحدى أسوأ المذابح في تاريخ أميركا اللاتينية الحديث. لقد نفَّذ الجنود ورجال الأمن عملهم من دون أي ضوابط وملأوا الهواء، وخاصة في الليل، بصوت إطلاق النار المرعب من الرشاشات الأوتوماتيكية. وفي إحدى الحوادث، شاهد رجال الصليب الأحمر، الذين تجرأوا على الذهاب إلى تلال كاتيا بالقرب من منزل تورتوزا في محاولة لإسعاف الجرحى ونقلهم إلى المشافي المحتشدة بالمصابين، أحد الضحايا يسقط بقوة على أرض الشارع. وعندما اقتربوا وجدوا أن قمة رأسه كانت مقتلعة من مكانها.

لقد أسعف الحظ هوغو تشافيز وجنَّبه محنة أن يكون من بين أولئك الذين أُمروا بقمع الشعب. ففي يوم الأحد 26 شباط، كان يعمل في ميرافلوريس وذهب لرؤية طبيب القصر لأنه كان يعاني من حمى. أخبره الطبيب بأنه مصاب بالجدري وأمره بالذهاب إلى البيت في الحال حتى لا يعدي بقية موظفي القصر.

غير أن بقية أفراد الحركة البوليفارية لم يحالفهم حظ تشافيز. مثل فرانشيسكو أرياس كارديناس الذي كان يأخذ منهاجاً تدريبياً في قاعدة فورت تيونا في كاراكاس وكان من بين أولئك الذين أرسلوا إلى المزارع لقمع المنتفضين. لكنه وإن كان مضطراً لإطاعة الأوامر إلا أنه تدبر أمره بأن جعل الرجال الذين يعملون تحت أمرته يمتنعون عن إطلاق النار من دون تمييز على الناس «غير المسلحين والجائعين والمرغمين على تحمل عواقب مجموعة من الإجراءات الاقتصادية غير العادلة وغير المنطقية في أي حال من الأحوال.

أُرسل أرياس إلى أحد أحياء كاتيا. وعندما وصل إلى هناك وجد أن السكان كانوا غاضبين من الجيش إلى درجة أن أحدهم رمى دبابة بمرحاض من طابق عال فتناثر قطعاً صغيرة فوقها. لو أن أحد جنود أرياس كان يطل برأسه خارج الدبابة في تلك اللحظة لقُتل حتماً. كما رأى شقة تملأها ثقوب الرصاص فروَّعه المنظر. وها هو أرياس يصف ما رآه بنفسه:

> حالما وصلت إلى المكان الذي سيكون مركز عملياتي، أدركت أن الضابط الذي استلمت منه كان يطلق النار على الأبنية العالية بطريقة غير مسؤولة وغير إنسانية. كما سمعت قصصاً عن التجاوزات التي ارتكبها الأمن السياسي (DISIP).
>
> جمعت جنودي على الفور وقلت لهم: «فليرفع يده كل من ينتمي

إلى كاونتي كلاب!». نظرت إلى تعابير الاستغراب التي ارتسمت على وجوههم ورأيت أنهم كلهم ظلوا متسمرين في أمكنتهم لا ينبسون ببنت شفة. كررت الطلب ثانية: «فليرفع يده كل من يعيش في ألتو برادو أو لاغونيتا كانتري كلاب أو ألتاميرا [أي المناطق الأكثر ثراء ونفوذاً في كاراكاس]!». فلم يتحرك أحد منهم.

ثم قلت: «حسناً، ذلك يعني بأننا كلنا أتينا من أحياء فقيرة مثل هذا الحي. الناس الذين يعيشون هنا مثلنا، إنهم الشعب، إنهم أخوتنا. وهذا يعني بأن أحداً منكم يجب ألا يطلق النار من دون إذن. لا أحد يطلق النار مالم نهاجَم».

على أي حال، انتهت معظم الاضطرابات بحلول يوم السبت 4 آذار، أي بعد خمسة أيام من أولى الاحتجاجات التي تفجرت في غواريناس. في ذلك الوقت، كان ما لا يقل عن ألف محل تجاري قد أحرق ونُهب في كاراكاس وحدها، وحوالى 2,900 محل في فنزويلا كلها. وقُدِّرت الخسائر التي لحقت بأصحاب تلك المحال والمتاجر بنحو 1.5 مليار دولار. وبلغت الحصيلة الرسمية لعدد القتلى 277 شخصاً (بحسب اعتراف الحكومة نفسها، ولو أنها كانت مكرهة) لكن منظمات حقوق الإنسان الفنزويلية حددت بالأسماء عدد الضحايا فبلغ مجموعهم 399 شخصاً. ومع ذلك، ثمة أشخاص يقولون بأن الرقم كان أعلى من ذلك بكثير، حيث يستشهد عالم أنثروبولوجي من جامعة شيكاغو بموظفين صحيين قدَّروا العدد بأنه بين 1,000 و1,500 في كاراكاس وحدها. ولخص مراسل صحفي في جريدة *El Nacional* كل ما حدث بقوله: «البارحة، كانت كاراكاس أشبه ببيروت».

بيد أن المعاناة لم تنتهِ عند ذلك الحد، إذ إن الكثير من الضحايا كانوا مفقودين. وسرعان ما سرت إشاعة تقول إن الحكومة ألقتهم في قبر جماعي سري في مكان ناء من المقبرة العامة الجنوبية تُدعى *La Peste* (أي الطاعون). أنكرت الحكومة الأمر بالطبع، لكن مجموعة جديدة لحقوق الإنسان تُدعى COFAVIC انتزعت أمراً قضائياً بتفتيش المقبرة في تشرين الثاني 1990. فوجدت المجموعة، التي ذهبت برفقة القاضي وبعض المحامين من الادعاء العام، وعمال حقوق الإنسان، وراهبات، وقساوسة، وأقرباء المفقودين، ما كانوا يبحثون عنه: جثثاً موضوعة في أكياس بلاستيكية سوداء تُستخدم لرمي القمامة. والكثير منها كانت مشوهة، حيث قُطِّعت الأذرع والأرجل والأيدي كي تتناسب وحجم الأكياس. فيما كانت أيدي بعض الضحايا من الشبان مقيدة خلف ظهورهم ورؤوسهم مصابة بأعيرة نارية؛ من الواضح أن السلطات أعدمتهم رمياً بالرصاص.

خلال بضعة أسابيع وجدوا 68 جثة وحددوا هوياتهم وسلموهم لعائلاتهم

المفجوعـة. وبعـد ذلـك أوقفت الحكومـة التحقيق. ولكن، بقي هناك 65 ضحية أخرى مخبأة في أمكنة خاصة في مقبرة إسمنتية تبعد 700 ياردة من المقبرة العامة الجنوبية. وحتـى هـذا اليـوم مـا تزال بعض الجثث غير معلومة الهوية هناك وما تزال عائلاتهم المعذبة لا تعرف مصيرهم.

الفصل التاسع

الانتظار خلف الكواليس

تركت مجزرة كاراكاس فنزويلا في حالة من الصدمة، وأثارت الشكوك حول صورتها كأنموذج للديمقراطية في أميركا اللاتينية. كما وأطلقت عجلة نهاية النظام الحالي البالي. يقول أحد علماء الاقتصاد الأجانب إن النخبة الفنزويلية التي كانت تستورد الماء من أعالي الجبال الإسكوتلندية، كانت تعيش في جنة الحمقى. أو كما وصفتها وثيقة صدرت بعد أحداث الشغب من قبل مؤسسة الكنيسة الكاثوليكية في فنزويلا، وهي من بين المؤسسات الأكثر محافظةً في أميركا اللاتينية، بقولها: «لقد أصبح ترف القلة إهانة لبؤس الجماهير».

من جهة أخرى، شكّلت مذبحة كاراكاس نقطة تحول في تاريخ الحركة البوليفارية لهوغو تشافيز. حيث عملت على تقوية عزيمة المتمردين وإصرارهم على قلب نظام كانوا يعتبرونه سلفاً فاسداً وشريراً، وشحذت همة الحركة التي كانت قد فترت منذ مدة. قال أرياس كارديناس بعد نحو سبع سنوات من الحادثة: «كانت صدمة حقيقية بالنسبة لنا أن يُطلَق النار على أناس عزّل كانوا يسرقون لأنهم جائعون».

بعد بضعة أسابيع على المذبحة، عاد تشافيز إلى عمله في القصر الأبيض الواقع قبالة قصر ميرافلوريس، وذات ليلة أوقفه حارس شاب من حراس القصر كان مصدوماً من القمع. وكان لدى الضابط فكرة عن تورط تشافيز في حركة انقلابية ويريد الانضمام إليها. في تلك الليلة، كان تشافيز عائداً من جامعة سيمون بوليفار حيث كان يدرس من أجل نيل شهادة في العلوم السياسية. فدخل الرجلان إلى مكتبه لتناول القهوة.

أخبره الضابط الشاب بأنه أُرسل بعد نحو أسبوع من اندلاع أحداث الشغب في دورية إلى مقربة من قصر ميرافلوريس واحتجز مجموعة من الشبان كانوا ينهبون أحد المتاجر. أمرهم بأن يجلسوا في ملعب مكشوف لكرة السلة، ووبخهم لأنهم كانوا يسرقون ووعدهم بأن يطلق سراحهم. ولكن قبل أن يتمكن من فعل ذلك، أمر بأن يسلّمهم إلى رجال الأمن السياسي (DISIP)، الذين جاؤوا وأخذوهم. وبعد نصف ساعة، وبينما كان الضابط وجنوده يتجولون في الجوار، وجد أولئك الشبان مقتولين وممددين في الشارع. كانوا بين اثني عشر وخمسة عشر شاباً.

يتذكر تشافيز حديث ذلك الضابط معه في مكتبه تلك الليلة: «كان يقول إن قلبه لم يستطع تحمّل الأمر وأنهى كلامه بقوله، انظر أيها الميجور، إذا كنت تملك حركة

فقـلْ لـي، لأنـك إن لـم تكـن فإنني سأترك هذا المكان. أنا لا أناسب هذا الجيش». لقد كان لقاؤه مع ذلك الضابط الشاب يوحي بشيء ما، شأنه في ذلك شأن لقاءات مشابهة مع ضباط آخرين كانوا يخدمون في حرس الشرف لدى الرئيس بيريز، إذ قالوا له: «إننا لسنا مستعدين لقتل الناس». وهؤلاء كانوا من بين نخبة الضباط المسؤولين عن حمايـة الرئيـس والموثوقيـن مـن قبل الحكومة، لكنهم كانـوا يشعرون بقرف شديد من القمع، كما يتذكر تشافيز:

> في الحقيقة، كان ذلك مرعباً. كان الناس يتظاهرون في الشوارع ضـد الليبراليـة الجديـدة، ضد البرامج الصادمـة لصندوق النقد الدولي، ضد خصخصة كل شيء، ضد البطالة والجوع. وهم أرسلونا لنمطرهم برصاص في الصدر. والقادة السياسيون، المفترَض أنهم ديمقراطيون، يتحدثون عنْ العدالة والديمقراطية. هذه ليست ديمقراطية. إنها ديكتاتورية الأحزاب والنخبة، التي تستغل القوات المسلحة وتستخدم الإعلام لغسل عقول الناس وتشويشهم. هنا لم تقم أي ديمقراطية.
>
> أدرك أعضـاء *MBR-200* بأننـا تخطينـا نقطـة اللاعودة وأننا يجب أن نقاتل. لم يكن باستطاعتنا الاستمرار في الدفاع عن نظام يقتل الناس بشكل جماعي. لقد شكلت المذبحة حافزاً للتغيير بالنسبة لأعضاء *MBR-200*. فشرعنا بتسريع تنظيم صفوفنا وبحثنا عن علاقات مدنية وحركات شعبية.

غيـر أن الانتفاضـة الشعبيـة أثـرت فـي حركة تشافيز لسبـب آخر، وهو أن أحد مؤسسيهـا قُتـل فـي أثنائهـا. ففي حادثة غير واضحة المعالم، قُتل فيليب أكوستا كارلس (أحد الرجال الأربعة الذين ذهبوا عدواً إلى شجرة *Saman de Guere* في 17 كانون الأول 1982 وأدوا القسَم الشهير الذي أعلن تأسيس حركة تشافيز البوليفارية) في حي *El Valle*، الـذي تسكنـه الطبقـة العاملـة، عندما كان يقود مجموعة من الجنود للقبض على قناصين متمركزين في كوخ ناء لكنه قريب من شارع بان أميركان الرئيسي.

الرئيـس بيريـز نفسـه أشـار إلى حادثة مقتل أكوستا كارلـس، واصفاً إياه بحزن شديد بأنه كان كميناً، ومثالاً على العنف الوحشي الذي ابتدأته مجموعة من الراديكاليين غير المسؤولين الذين أشعلوا - بحسب رأيه - فتيل الاضطرابات. غير أن بعض الناس ومن بينهم تشافيز كانوا يعتقدون بأن الحكومة كانت وراء مقتله، إذ إنهم كانوا يظنون بـأن الأمـن السياسـي كان علـى علم باشتراك أكوستا كارلـس في المؤامرة البوليفارية فاستغـل الفوضـى الحاصلـة وقتله، عارفاً بـأن المسؤولية ستُلقَى على عاتق المحتجين.

وكانـوا يعتقـدون أيضـاً بـأن تشافيز لو لم يكـن في بيته بسبب مرضه في ذلك الحين، لربما كان لقي المصير نفسه.

كتـب تشافيـز، المفجـوع لفقـدان أكوستا وكذلـك للتمرد الدامـي، قصيدة طويلة إلـى رفيقـه المقتـول وزميل دراسته في الأكاديمية العسكرية، مستخدماً عبارة فنزويلية تُستخـدم للتحبـب، وهـي *catire* (أي الشخص الأبيـض الأشقر) – مثل عبارة الشخص الأسود – إلـى جانـب مجموعـة كبيـرة من المنارات التاريخيـة الفنزويلية، من بوليفار إلى سيمون رودريغيز إلى فرانسيسكو دي ميراندا:

آه، لقد قتلوا الأبيض الأشقر أكوستا
الأشقر الأبيض أكوستا كارلس
عاصفة الشعب
هبَّت في الشوارع
لم يبقَ شيء واقفاً على قدميه
من بيتاري إلى لا فال.
وكاراكاس كانت عطشى
والعطش كان للدماء.
آه، رصاصة في ثانية واحدة فقط
أخذتك بعيداً يا صديقي العزيز.
لقد قتلوا فيليب أكوستا
فيليب أكوستا كارلس
لا أريد أن أصدق
أقسم لك أمام أمي
بأنني قبل البارحة فقط
رأيتك في الكلية
بكل كينونتك
دخلتَ إلى الصف
فصرخنا كالمعتاد
ميسانتا، هناك الكثير الكثير!
أنت ما تزال معنا هنا
إنهم لم يقتلوك يا صديقي العزيز.

جرى السهر على الجثة وجنازة أكوستا كارلس في الأكاديمية العسكرية. واجتذبت

المناسبة الكثير من أعضاء الحركة البوليفارية بالإضافة إلى مجندين جدد كانوا يريدون الانضمام إليها. وعندما كانوا واقفين بجانب جثة رفيقهم المقتول، والغضب يعتمل في صدروهم بسبب فقدانه وبسبب المذبحة التي حدثت في كاراكاس، رددوا بصوت هامس القسَم البوليفاري، وأقسموا باتخاذ خطوات عملية ضد حكومة البلد المريضة. لقد انهارت واجهة الديمقراطية في فنزويلا، والمزيد من الثوران كان قادماً.

بعد بداية متعثرة، استعادت ولاية كارلوس أندرياس بيريز الثانية وصفقته الاقتصادية النيوليبرالية الصادمة عافيتهما؛ بطريقة ما. حيث حققت فنزويلا في تلك الفترة معدلات نمو اقتصادي كبيرة ومثيرة للدهشة. فبحلول العام 1991 حقق الاقتصاد الفنزويلي نسبة نمو سنوية قُدِّرت بنحو 9.2 بالمئة وهي الأسرع في أميركا اللاتينية. لكن نسبة الاحتجاج كانت ربما الأسرع في القارة الأميركية أيضاً. ذلك أن القليل من الثروة الجديدة وجد طريقه إلى الجماهير، أو بحسب تعبير إدواردو فيرنانديز، أحد معارضي بيريز، والنائب عن حزب COPEI في البرلمان الفنزولي والمرشح الرئاسي السابق، الذي قال بأن الخطة الاقتصادية أنتجت تركيزاً فاضحاً للثروة. وهكذا أصبحت الاحتجاجات اليومية التي يقوم بها الطلاب والأساتذة والعمال وسواهم من المواطنين روتيناً اعتيادياً في واحد من أكثر العهود الرئاسية اضطراباً وهيجاناً في حقبة الديمقراطية في فنزويلا. حيث شهدت السنوات الثلاث الأولى من ولاية بيريز 5,000 مظاهرة احتجاجية في الشوارع - ما معدله خمس مظاهرات في اليوم الواحد - انتهت حوالى 2,068 مظاهرة منها بشكل عنيف، وذلك لأن رجال الشرطة وجنود الحرس الوطني غالباً ما كانوا يفتحون النيران على المتظاهرين. وبكلمات أخرى، لقد انتهت ولاية بيريز قبل أن تبدأ فعلاً. ومجزرة كاراكاس هي التي أنهتها.

شكلت اضطرابات الغذاء والسخط السياسي المتواصل والقمع حاضنة مثالية لحركة تشافيز السرية. فانضم المزيد من المجندين الجدد واستعادت الحركة بعضاً من قوتها التي فقدتها في أواخر الثمانينيات. واستمرت السلطات في التحقيق في تقارير تشير إلى تورط تشافيز في مؤامرة ضد الحكومة.

جرى التحقيق الأخطر في كانون الأول 1989، أي بعد تسعة أشهر من المجزرة. حدث بعد اكتشاف الجنرال كارلوس بينالوزا، أحد ألد أعداء تشافيز، معلومات جديدة تفيد بأن تشافيز وأنصاره كانوا يخططون للقيام بانقلاب يتضمن - بحسب بعض الروايات (المبالَغ فيها) - خططاً لاغتيال بيريز خلال عشاء الميلاد السنوي في قصر ميرافلوريس. فاستدعى بينالوزا ومسؤولون آخرون حوالى عشرة بوليفاريين وحققوا معهم طوال الليل. وأصبحت تلك الليلة تُعرف بليلة الميجورات نسبة لرتبة تشافيز وأوردانيتا وغيرهما ممن حُقق معهم.

مع أن تشافيز أنكر كل شيء، إلا أن بينالوزا ظل غير مقتنع، وذلك لأنه زعم

بأنه كان يملك جاسوساً واحداً على الأقل ضمن حركة تشافيز ينقل المعلومات إليه. وقد كان بينالوزا غاضباً على نحو خاص لأن المؤامرة كانت تتضمن - كما قيل له - خطة تستهدف القبض عليه، وفي حال فشلها، اختطاف ابنه. «قلت له، انظر يا تشافيز، بإمكانك أن تتآمر بقدر ما تريد، لكن واجبي هو أن أمنعك من التآمر. ولكن، في الوقت نفسه، عندما تتورط مع عائلتي، فإن المشكلة تصبح شخصية».

تحدى بينالوزا الغاضب تشافيز للخروج وتسوية مشكلتهما في مبارزة بينهما. لكن تشافيز رفض وأنكر مجدداً بأنه كان يتآمر لقلب الحكومة.

على الرّغم من أن بينالوزا فشل في إثبات التهمة على تشافيز فأطلق سراحه، إلا أن مشاكل الأخير لم تنتهِ عند ذلك الحدّ. فخلال عامي 1990 و1991، التحق تشافيز بدورة **قائد كتيبة** إلزامية للمرة الأولى، لكنه فشل في جزء من الامتحانات، وأجبر على إعادة الدورة. كان تشافيز يعتقد بأن رؤساءه المرتابين في أنشطته رسَّبوه عمداً كي يوقفوا تقدمه في عمله.

لكن، في حين أن بعض المسؤولين، مثل بينالوزا، كانوا مقتنعين بأن تشافيز كان يقود حركة انقلابية، إلا أن الكثيرين غيرهم كانوا يخالفونهم الرأي؛ أو أنهم اختاروا أن يسمحوا له بالتآمر. وكان كارلوس أندرياس بيريز نفسه من بين أولئك الذين لم يصدقوا التهمة التي وُجهت لتشافيز. فعلى الرغم من أن بينالوزا أخبره مراراً عن أنشطة تشافيز، إلا أن الرئيس لم يكن يريد أن يصغي إليه. «قال لي CAP [أي كارلوس أندرياس بيريز] لا تتحدث معي حول هذا الموضوع ثانية». والكلام لبينالوزا.

أخيراً، نجح تشافيز في الدورة. وبحلول صيف 1991 أصبح جاهزاً لقيادة الجنود بشكل مباشر. لكن الخامس من تموز - ذكرى الاستقلال في فنزويلا والموعد التقليدي لصدور التعيينات الجديدة - حلّ وانقضى من دون أن يحصل على أي منصب. وهكذا أصبح تشافيز الآن كولونيلاً مساعداً لكنه مع ذلك لم يعين في أي مكان. هذا ما حصل أيضاً مع اثنين من أعضاء حركته، أوردانيتا وجول أكوستا تشيرينوس. لكن وزير الدفاع، فرناندو أوتشوا أنتيتش، تدخَّل في نهاية المطاف وساعد تشافيز وأوردانيتا على الحصول على تعيين لهما. ونجح أكوستا تشيرينوس في الحصول على واحد له أيضاً. وأصبح الثلاثة مسؤولين عن وحدات مظلية رفيعة المستوى في ماراكاي. بالفعل كانت ضربة حظ مذهلة.

مع أن تدخُّل أوتشوا أثار لاحقاً شكوكاً واسعة حوله تفيد بأنه كان يساعد المتمردين، إلا أن تشافيز أنكر ذلك، لاعتقاده بأن أوتشوا لم يكن يملك خياراً آخر غير ترقيته. فقد كان ضابطاً شاباً ذا شخصية مميزة وشعبية كبيرة. تخرَّج من الأكاديمية العسكرية بتفوق وكان لديه الكثير من المناصرين. وعلى هذا الأساس، فإن تجاهله كان يمكن أن يثير بلبلة في الثكنة. كان تشافيز يعتقد بأن القيادة العليا كانت عاجزة ببساطة فلم تدرك ما كان يفعله هو ورفاقه. «أي بتفسير آخر يمكن أن يكون ونحن كنا نعمل

تحت سمعهم وبصرهم لسنوات؟ . . . حتى إننا كنا نغني جهاراً أناشيد عن زامورا بينما كنا نهرول» في الأكاديمية، التي عُيِّن فيها أوتشوا نفسه في منتصف الثمانينيات.

أما بالنسبة لأوتشوا، فقد كان يعتقد بأنه لم يجد دليلاً ملموساً على أنشطة تشافيز التآمرية على الرّغم من الشكوك الواسعة التي أثيرت حوله. وهو لم يكن قادراً على إفساد مستقبل ضابط واعد بتلك الخفة. مع ذلك، فالترقيات التي أعطاها أوتشوا (كان شقيقه من زعماء الحزب السياسي اليساري MAS) لتشافيز ورفاقه جعل بعض الأشخاص يستنتجون بأنه كان جزءاً من المؤامرة. ولكن، كانت هناك نظرية أخرى تقول بأن القيادة العليا لم تأخذ بجدية فكرة أن بعض الضباط الشبان كانوا يخططون لانقلاب.

على أي حال، ومهما كان السبب، فقد كان قراراً سيندم عليه أوتشوا لاحقاً. «لقد ارتكبنا خطأ. لم نكن نظن بأنهم سيحدثون تمرداً. . . كان هناك اختراق لليسار في القوات المسلحة. لقد خدعونا».

في الحقيقة، كان تعيين تشافيز يدعو للاستغراب بالفعل، فهو لم يقفز من طائرة منذ عشر سنوات، فضلاً عن أن خبرته في القفز بالمظلة بحد ذاتها كانت قليلة، وذلك لأن اختصاصه في الأساس هو الدبابات. وقد أخبره رؤساؤه أنّه باستطاعته أن يقبل التعيين أو ينتظر الدورة القادمة، لكن تشافيز كان يعرف بأنه من الضروري بالنسبة له وللبوليفاريين أن يستلموا القيادة على الفور. يقول تشافيز «كنت تشعر بأن الحركة كانت تسير بخطوات واسعة إلى الأمام وأنه يتوجب عليك أن تمتلك القيادة، لم يكن مهماً إذا كانت كتيبة مظلية أو مدفعية أو دبابات. المهم أن تكون بيدك القوة العسكرية».

كانت نقطة تحول حاسمة بالنسبة للمتمردين، فقد أصبحوا على الأقل يملكون جنوداً يمكن أن يحركوهم ضد بيريز والنظام الفاسد الذي يمثله. وهذا ما حصل فعلاً، إذ لم تمض سوى أسابيع قليلة حتى كان تشافيز ومناصروه يخططون لمحاولتهم الانقلابية الأولى: «خطة إيزيكويل زامورا».

الفصل العاشر

الثــورة

إن التوترات السياسية الناشئة في هاييتي منحت المتمردين فرصتهم الأولى للقيام بانقلاب ضد كارلوس أندرياس بيريز المكروه. إذ سرت إشاعات تفيد أن المتمردين اليمينيين في الجيش قد يحاولون الإطاحة بالرئيس اليساري المنصَّب حديثاً في الجزيرة، جون بيرتراند أريستيد. وهذا ما دعا مسؤولين من الولايات المتحدة وفرنسا وفنزويلا إلى مناقشة فكرة إرسال قوات إلى الجزيرة كاستعراض وقائي للقوة في محاولة لثني المتمردين عن قرارهم. فسارع بيريز، الذي كان يعتبر نفسه بطلاً للديمقراطية في أميركا اللاتينية، بحماس للانضمام إلى الخطة.

في تلك الأثناء، كان تشافيز في ولاية كوجيديس. فاستدعاه القادة إلى ماراكاي. خشي تشافيز من أن يكونوا قد اكتشفوا خططه الرامية لإسقاط الحكومة مجدداً، فإذا بهم يخبرونه بأن يحضّر نفسه للتوجه إلى هاييتي. كانت الأوامر تقضي بأن يتوجه إلى مطار بويرتو برينسيب، وأن يتولى رفيقه أكوستا تشيرينوس الاستيلاء على أحد الشواطئ في هاييتي ويحوّله إلى قاعدة لهم. فبدأ الاثنان استعدادهما للهجوم. لكن تشافيز، في الواقع، لم يكن ينوي الذهاب إلى هاييتي، فما أن يصله الأمر بالطيران فإنه سيتوجه بدلاً من ذلك إلى كاراكاس لينفذ ورفاقه انقلابهم الخاص ويحاولون القبض على بيريز. غير أن خطة بيريز لم تُنفَّذ أبداً والأمر بالانطلاق لم يصل إلى تشافيز.

على أي حال، ظل المتمردون يتحيَّنون الفرص. وفي العاشر من كانون الأول، كان يُفترَض بهم أن يشتركوا في استعراض جوي في ماراكاي سيحضره الرئيس والقيادة العليا في الجيش. فبدت لهم فرصة مناسبة تماماً، إذ كان باستطاعتهم استخدام الاستعداد للعرض كغطاء للتحضير لانقلابهم. وفي اليوم الموعود سوف يقفزون من طائراتهم وينزلون على الأرض ويهاجمون المنصة الرئاسية، ومن ثم يخطفون بيريز والقيادة العليا. وبعد ذلك سيطلبون من التكتلات الأخرى في شتى أنحاء البلد – التي لا تعرف بأمر حركتهم – أن تشاركهم التمرد.

لكنهم واجهوا بعض المشاكل في أثناء تحضيرهم خطتهم. فعلى سبيل المثال، كانت الاتصالات صعبة للغاية لأن الاستخبارات كانت تلاحقهم، ما جعلهم يضيّقونها إلى أقصى حد ممكن. والأمر الثاني هو فشلهم في إقناع حلفائهم في القوى الجوية بالانضمام إليهم في الثورة، إذ أخبرهم الطيارون بأنهم لا يملكون المساندة الكافية في القوى الجوية. والمشكلة الأخرى هي أن أرياس كارديناس كان ملتزماً برحلة إلى

إسرائيل لشراء قطع تبديل للصواريخ. ومع أن تشافيز طلب منه أن يلغي الرحلة، إلا أنه ذهب على أي حال بعد جدال حام.

كما أن علاقة المتمردين مع بعض حلفائهم المدنيين تدهورت أيضاً؛ والتي في الواقع، لم تكن مستقرة أساساً. حيث انسحب بعض أعضاء حزب القضية الجوهرية - الذي كان يعاني بدوره من انشقاقات - من التخطيط للتمرد. والأخطر من ذلك هو تغلغل أعضاء من مجموعة بانديرا روجا، العلم الأحمر، اليسارية المتطرفة في الحركة البوليفارية. وكان هؤلاء الأشخاص يحثون النقيبين رونالد بلانكو لا كروز وأنطونيو روجاس سواريز على البدء بالثورة بنفسيهما، وذلك لأن تشافيز خان الحركة؛ على حد زعمهم. حتى إن بعض التقارير تذكر بأن النقيبين فكّرا في مرحلة ما بقتل تشافيز وفرانشيسكو أرياس كارديناس، اللذين حاولا جاهدين منعهما من القيام بالانقلاب بمفردهما. وفي إحدى المرات، أخذا معهما بلانكو لا كروز وروجاس سواريز في السيارة وظلا يطوفان في كاراكاس لساعات في محاولة لثنيهما عن قرارهما.

هكذا، وبسبب كل تلك المشاكل، علّق تشافيز ومناصروه خطة 10 كانون الأول. وقد بدا في يوم الاستعراض وكأن السلطات كانت تشتبه في شيء ما، ذلك أنها اتخذت إجراءات أمنية غير عادية، حيث أرسلت طائرات F-16 للتحليق في الجو لساعات، وطوّقت القاعدة بالجنود، وسمحت للمدنيين بالدخول مجاناً في محاولة واضحة لجعلهم تروساً بشرية. وعن ذلك اليوم قال تشافيز لأحد الصحفيين: «لو أننا قمنا بتلك العملية هناك، لقُتل عدد كبير من الناس». وعندئذ كان الثوار سيظهرون كمجرمين قتلة بدلاً من أبطال يحاولون إسقاط نظام سياسي فاسد. «كان شهر كانون الأول شهراً أسود بالنسبة لنا، لأننا سمحنا للعدو أن يدخل بين صفوفنا ما تسبب بمشاكل داخلية خطيرة هددت بإحداث انشقاق في الحركة».

عندها أُجّلت خطة أخرى كان ينبغي أن تُنفّذ في 16 كانون الأول. ولكن، بحلول ذلك الوقت كانت خططهم قد أصبحت بالكاد سرية في بعض الدوائر. ففي جامعة فنزويلا المركزية في كاراكاس - التي كانت مركزاً للنشاط اليساري - كان في كل أسبوع يجلب معه مجموعة من الإشاعات التي تتحدث عن انقلاب جديد، ربما كانت تغذيها مجموعة بانديرا روجا أو بعض عملاء الاستخبارات الذين اخترقوا مجموعة تشافيز، والكثير من ساعات الصفر كانت تأتي وتروح، مما جعل الأمر برمته مثاراً للسخرية. وعلاوة على ذلك، بدأ بعض الناس يعتقدون بأن تشافيز تراجع أو خان الحركة، وذلك لأن بانديرا روجا نشرت إشاعة تفيد بأنه وأرياس كانديراس كانا جاسوسين للطبقة المتنفذة والشركات المتعددة الجنسيات.

كانت الشائعات التي تتحدث عن الانقلاب تدور حتى بين الناس العاديين، على الرّغم من أن غالبيتهم الساحقة لم تسمع من قبل بكولونيل مساعد يُدعى هوغو تشافيز. فقد أخبر أحد بائعي السجق في كاراكاس مراسلاً صحفياً بأن «الجميع يتحدث عن

الأمر». وكانت البلد في تلك الأثناء تشهد فترة من التوتر الشديد، ففي أواخر تشرين الثاني ألغى وزير التعليم التدريس في المدارس العامة والجامعات في كل البلد لمدة يومين إثر تظاهرات طلابية عنيفة، ثم مدد التعليق لأجل غير مسمى عدة أسابيع أخرى. وعلى الرّغم من ذلك، تجاهل بيريز القلاقل الجارية في البلد، وسخر من الشائعات التي تتحدث عن وجود تخطيط للقيام بانقلاب، قائلاً بأن مجرد ذكر الكلمة إهانة للمجتمع الفنزويلي.

بما أن المتمردين واجهوا مشاكل منعتهم من القيام بانقلاب في شهر كانون الأول، إلا أنهم كانوا سيواجهون المزيد من المشاكل إن لم يتصرفوا بسرعة. فمع تضييق الاستخبارات العسكرية الخناق عليهم، كانت فرص اكتشاف أمرهم والقبض عليهم تزداد يوماً بعد يوم. وعلاوة على ذلك، فقد أرسل القادة العسكريون بعضاً من الجنود بقيادة تشافيز وأكوستا تشيرينوس بمهمات تدريبية في مختلف أنحاء البلاد. ولن يعودوا كلهم إلى ماراكاي إلا في أواخر كانون الثاني وبداية شباط. ومع اقتراب العام 1991 من نهايته، أدرك تشافيز بأن الوقت كان ينفد منهم وفكّر بأنه كان يملك نحو أسبوعين فقط للتصرف.

خلال ذينك الأسبوعين جاءته فرصة واعدة. كان بيريز سيتوجه إلى دافوس في سويسرا لحضور اجتماع لزعماء العالم من أجل مناقشة قضايا اقتصادية. وبعد عودته، كان يُفترَض به وبأوتشوا وضباط آخرين رفيعي المستوى أن يحضروا استعراضاً جوياً آخر يوم الثلاثاء 4 شباط في إل باو في ولاية كارابوبو. وكانت وحدتا تشافيز وأكوستا تشيرينوس مشتركتين في ذلك الاستعراض. تصوّر تشافيز أنه باستطاعتهما نقل قواتهما وأسلحتهما تحت غطاء الاستعداد للحدث في حين أنهما في الحقيقة يحضّران للانقلاب.

كانت مجموعة تشافيز قد توسعت إلى درجة أنها أصبحت تملك صلات لها داخل قصر ميرافلوريس وبين حرس الشرف الرئاسي نفسه. وكان أولئك الأشخاص سيسربون له معلومات عن خطط بيريز المتعلقة برحلته إلى سويسرا؛ وبالأخص موعد عودته. وكانت الخطة تقضي بالقبض عليه في المطار.

في الأسبوع الأخير من كانون الثاني، سافر تشافيز إلى لا غويرا الواقعة على الساحل الكاريبي والقريبة من كاراكاس، باحثاً عن شحنة نفسية أخيرة لثورته. التقى هناك بواحد من معلميه القدماء، الكولونيل المتقاعد هوغو تريجو، الذي ساعد في إطلاق الثورة العسكرية-المدنية التي أطاحت بالديكتاتور بيريز جيمينيز في العام 1958. وفي يوم الخميس 30 كانون الثاني، التقى تشافيز لمدة وجيزة مع أرياس كارديناس وأوردانيتا. في تلك الأثناء، كان المتمردون في حالة استنفار وجهوزية كاملة في انتظار الإشارة النهائية من تشافيز.

يوم السبت 1 شباط، أبلغه معارفه بأن بيريز سيعود من سويسرا ليلة الاثنين،

3 شباط. فأرسل في اليوم نفسه (أي السبت) مبعوثاً إلى ماراكيبو لإبلاغ كارديناس، فالاتصال به كان مجازفة كبرى، بسبب احتمال أن تكون هواتفهما مراقَبة.

في اليوم التالي، الأحد، التقى تشافيز اثنين من طياري القوى الجوية كانا متعاطفين مع حركته، وهما لويس رييز والبريغادير جنرال فرانسيسكو فيسكونتي أوسوريو، في محاولة الدقيقة الأخيرة لضم القوى الجوية إلى التمرد. وجرى اللقاء قرابة الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة مساء في محطة للوقود في شارع بان أميركان السريع خارج كاراكاس، وفيه أخبرهما تشافيز بأن الثورة أصبحت على بعد ساعات فقط وأن المساندة الجوية حيوية لدعم قواته على الأرض. ومع أن رييز وفيسكونتي كانا يريدان المساعدة، إلا أنهما أخبراه بأنهما لا يستطيعان فعل ذلك، وأفضل ما يمكنهما القيام به هو الحياد الإيجابي؛ السيطرة على القاعدة الجوية في ماراكيبو ومنع الطائرات من الإقلاع كي تهاجم المتمردين. كان فيسكونتي، الذي كان نشطاً في خلية *ARMA* الانقلابية، التي لم تعد موجودة في ذلك الحين، يريد أن يؤخر التمرد للسماح لهم بجمع المزيد من الدعم في القوى الجوية، غير أن تشافيز قال له إن الوقت قد فات.

بعد ساعتين من بدء اللقاء - وكانت الساعة قد أزفت من منتصف الليل - تلقى تشافيز اتصالاً هاتفياً يؤكد له وصول الرئيس. أخبره المتصل بلغة مشفرة بأن العم - أي بيريز - سيحط في مطار سيمون بوليفار الدولي على الساحل الكاريبي بالقرب من كاراكاس في العاشرة والنصف مساء. وكان ذلك الاتصال هو آخر جزء يحتاجون إليه للبدء بالتمرد.

لم يعدّ المتمردون خطة واحدة فحسب بل عدة خطط واضحة. الخطة A تقضي بأن تذهب فرقة خاصة إلى المطار وتختطف بيريز حالما يترجل من الطائرة ثم تضعه في شاحنة وتنقله على الفور إلى كاراكاس لتسليمه حياً إلى تشافيز. فإذا فشلت هذه الخطة، فعليهم الانتقال إلى الخطة B، وهي إيقاف الرئيس داخل نفق في طريق عودته إلى كاراكاس من خلال افتعال ازدحام مروري بإحراق سيارة في الطريق ومن ثم القبض عليه. وإذا فشلت الخطتان A وB، فهناك الخطة C، وهي اعتقاله في قصر ميرافلوريس أو المنزل الرئاسي لا كاسونا، اللذين خططوا للاستيلاء عليهما بالإضافة إلى مركز القيادة العسكرية لقاعدة فورت تيونا في العاصمة وقواعد عسكرية أخرى في مختلف أنحاء البلد.

وبمساعدة حلفائهم المدنيين، كانوا يأملون بالاستيلاء على بعض شبكات التلفزيون والإذاعة للإعلان عن إسقاط بيريز. كانوا يريدون إظهار الرئيس المعتقل في التلفزيون وتعيين حكومة عسكرية - مدنية لقيادة الأمة مؤقتاً إلى أن يتمكنوا من إجراء انتخابات وكتابة دستور جديد؛ بعد ذلك سيخضع بيريز لمحاكمة علنية على الجرائم التي ارتكبها بحق الدولة، من الفساد إلى الفقر الجماعي إلى قتل المتظاهرين إلى تسليم ثروات الأمة

للشركات المتعددة الجنسيات كجزء من تأميم مزيف لصناعة النفط.

باستخدام معدات اتصال لاسلكية تسمح له بالاتصال مع المتمردين على الأرض وفـي الجـو فـي مختلـف أنحاء الأمة، كان من المفترَض أن يقود تشافيز العملية، مثل بوليفـار، مـن متحـف عسكـري يقع على قمة تلة تطـل على قصر ميرافلوريس، الذي كان يأمل بأن يحتله هو وبقية البوليفاريين قريباً ويحكمون البلد بأنفسهم.

كان تشافيـز يعـرف بـأن جـزءاً مـن الثمن الذي سيدفعونه، علـى الرّغم من أن الأوامـر كانـت تقضـي بتجنب الجنـوح إلى العنف قدر المستطاع، هو أن بعض إخوته من الجنود – الموالين منهم والمتمردين – قد يُقتَلون في هذا الانقلاب. غير أنه كان يعتقد بأنه لم يكن ثمة خيار آخر، فالبلد كان في حالة بائسة. ولهذا السبب كان لابد من القيام بثـورة تغييريـة تقضـي على البؤس والاضطهاد. كان قراراً سيجعل منتقديه يشكّون في مصداقيته الديمقراطية ذلك أن بيريز، على الرّغم من أخطائه، كان رئيساً منتخَباً بشكل ديمقراطي. وبالنسبة لهم، سيحمل تشافيز مسؤولية إراقة دماء بعض الفنزويليين.

لكـن هـذا الانقـلاب بالنسبة للكولونيل المساعـد الناري لم يكن انقلاباً تقليدياً ينفذه متمردون أميركيون لاتينيون يمينيون، بل تمرداً تقوم به مجموعة من الضباط التقدميين الشبان ضد نظام ظالم ومتوحش وفاشل. إن ما يجمعه مع الثورات اليسارية التي قامت ضد الأنظمة القمعية في أماكن مثل السلفادور في الثمانينيات أكثر بكثير مما يجمعه مع انقلابات نفذها جنرلات مثل بينوشيه في تشيلي. وكانت فنزويلا قد وصلت إلى مرحلة فقـدَ معهـا الشعـب الفنزويلي قدرته على التحمُّـل. مجزرة كاراكاس والمقبرة الجماعية والفســاد الوقـح بالإضافـة إلـى الفقر الجماعـي، كل ذلك جعل صبر الناس ينفد. والبلد الـذي يعتبـره المسؤولـون فـي واشنطن نموذجاً للديمقراطية لـم يكن في الحقيقة سوى نظـام مغلـق تتحكـم فيـه دائرة صغيرة من النخبة الثرية التي تسيطر على كل شيء فيه تاركة الفتات للجماهير، التي إن تمردت فإنها كانت تُقمَع بقسوة.

كان تشافيز يعتقد بأنه لم يكن يسير على خطى بينوشيه وسوموزا، بل توريجوس وفيلاسكو، بوليفار وزامورا، لأن القليل تغير في فنزويلا منذ أيام بيريز جيمينيز أو حتى خوان فيسنته غوميز الذي يعود عهده إلى 1908. ويقول تشافيز عن هذا الأمر:

> بشكل أساسي، لقد بقي كل شيء على حاله؛ نظام الهيمنة نفسه، ولكن مـع وجـه مختلـف، سواء أكان وجه الجنـرال غوميز أم وجه [الرئيس السابق] الدكتور رافائيل كالديرا. وخلف هذا الشخص، هذا الديكتاتور، مـع قبعـة عسكريـة أم مـن دونها، على ظهر جـواد أم في كاديلاك أو مرسيدس بنـز، يوجـد النظام نفسه فـي الاقتصاد وفي السياسة والإنكار نفسه لحقوق الإنسان وحق الشعب بتقرير مصيره.

كانـت فنزويـلا تعانـي من أزمــة مميتة، تحكمهـا ديكتاتورية بثياب

ديمقراطيــة، ديكتاتوريــة أوصلــت شعبــاً يعيشــ فــوق بحر مــن النفط، مــع أنهــار عملاقــة يمكن الإبحار بها وملايــن الهكتارات من الأراضي الزراعية، إلى فقر مدقع وفساد سياسي وأخلاقي لاحدود له.

كان أرياس كارديناس، الطالب السابق في المدرسة الدينية المتأثر بعمق باجتماع الفاتيكان الثاني واللاهوت الليبرالي وخياره المنحاز للفقراء، يشعر بالمشاعر ذاتها. فهو مثــل كاميلــو توريــس، القســ الكاثوليكي الذي تحَّول إلى متمرد في كولومبيا المجاورة خــلال ستينيــات القــرن العشريــن، كان يــرى بــأن القوة يجــب أن تُستخدَم في بعض الظــروف الصعبــة كأداة للتحــرر وليــس للقمع. وهي ليست المرة الأولى في التاريخ، ففــي الولايــات المتحــدة، شــن المتمردون بقيادة جــورج واشنطن الحرب الثورية ضد البريطانيين بسبب شكاوى مثل فرض الضرائب من دون شرح الأسباب الأمر الذي يبدو قليل الأهمية بالمقارنة مع القتل الجماعي الذي حصل في مذبحة كاراكاس.

لم يتوصل أرياس إلى قراره بسهولة، إذ لطالما أيَّد إيجاد طرائق سلمية لإحداث التغيير في فنزويلا:

> فــي كثيــر مــن المناسبــات كنــت أعتقــد بأننا يجب أن نعطــي إشارة مــا. وذات مــرة قدمــت اقتراحــاً لبعض الزملاء، فقلــت لهم: «لماذا لا نذهب – كتيبــة كاملــة أو حتــى اثنتان – ونضع بنادقنا أسفل تمثال المحرر سيمــون بوليفــار ونطالــب السياسييــن بأن يأخذوا حالــة البلد على محمل الجد، حالة الفقر، حالة الفساد، حالة الفوضى، حالة غياب الديمقراطية الحقيقية». فنظروا إلي وقالوا: «نعم، اذهب وافعل ذلك، وهم سيأخذونك إلــى الطابــق الخامســ عشر من المستشفى العسكــري ويقولون لك بأنك فقدت عقلك وأن لا شيء سيحدث. عليك أن تستخدم القوة»... سيسقط بعض القتلى لكنهم ضروريون لإحداث التغيير.

في بداية العام 1992، كانت وجهة النظر هذه شائعة عند الكثير من الفنزويليين المعارضيــن للديكتاتوريــة والعنــف والمشمئزين من المؤسسة السياسية الفاسدة في البلد. وكان أرياســ يعــرف مــا يشعــر بــه الناس في الشارع. «الحقيقة هي أننا كنا نعيش في نظــام مــن الظلــم والقمــع والإســاءة والفساد، وكل ذلــك كان يعشعش في عقولنا نحن الفنزويليون ونريد أن ننتهي منه. ولهذا فالأمر كان بسيطاً جداً».

انتهى الاجتماع مع ضباط القوى الجوية في وقت مبكر من ذلك الصباح، فقاد تشافيز سيارته متوجهاً إلى منزله في ماراكاي من أجل توديع أولاده، روزا فيرجينيا وماريــا غابرييــلا وهوغــو الابــن، وزوجته نانسي. وكانوا نائمين كلّهم. فترك لنانسي

على الطاولة شيكاً وبعض النقود كان قد سحبها من البنك، لأنه لم يكن يعرف إذا كان سيعـود إلـى المنـزل أم لا. كان يشعـر بالأدرينالين يتدفق في جسده وبالأمل والخوف معـاً، ولهـذا السبـب لـم يكن قادراً على النوم ولا هو كان متأكداً مما ستحمله الساعات الحاسمـة القادمـة؛ فنزويـلا ثوريـة جديدة أم موته، ربما. «لم أنم تلك الليلة. راجعت بعض الوثائق وانتابني ذلك النوع من الإحساس بالوصول إلى نهاية فصل من حياتي غيـر عالـم مـا إذا كان فصـل آخـر سيبدأ أم أن كل شـيء سينتهي عنده. مرت بذهني أطياف ذكريات كثيرة، نظرت إلى الأولاد وهم نائمون، وأخيراً غادرت».

قاد تشافيز سيارته متوجهاً نحو القاعدة الجوية في ماراكاي مرتدياً قميصاً وسروالاً مـن الجينـز الأزرق. توقـف بالقـرب من كشـك Tapa-Tapa لدفع رسم العبور قرابة الساعـة السابعـة صباحـاً واتصل ببعض المشاركين في المؤامرة مستخدماً شيفرة مدبرة مسبقـاً. «حسنـاً، دعونـا نلعـب الكـرة. البارحة خضنا اللعبة التـي خططنا لها والنتيجة كانـت 2-1». كانـت الشيفـرة تقضي بإضافة النتيجـة للإشارة إلى اليوم الذي سيحدث فيـه التمـرد؛ 3 شبـاط. تابـع تشافيز سيره ثم توقف في ساحة حديقة أراغوا، وأجرى مزيـداً مـن الاتصـالات مع متمرديـن آخرين. وبحلول الساعة التاسعة صباحاً كان في القاعدة الجوية يعبئ جنوده. وكان الرجال يحزمون المظلات ويعدّون البزّات الرسمية وينظمون الصفوف.

قلة من الضباط فقط كانوا يعرفون بأن البوليفاريين كانوا يستعدون للمشاركة في انقلاب. أما الجنود فلم يكونوا يعرفون أي شيء، كما يقول تشافيز:

> كانت كتيبتي مكونة من عشرين ضابطاً وأكثر من خمسمئة جندي. وكانـت مجموعـة صغيـرة جـداً من الضباط تعرف بمـا سنفعله في تلك الليلة، أما الجنود فلم يكونوا يعرفون أي شيء على الإطلاق. وكان ثمة صـراع فـي داخلـي: فأنا دُرِّبت كي أكون قائداً، وبما أنني قائدهم فليس باستطاعتي أن آخذ هؤلاء الشبان إلى كاراكاس وأطلب منهم المخاطرة بحياتهم من دون إخبارهم بالأمر.
>
> لذا، جمعت الضباط أولاً وشرحت لهم العملية العسكرية. وقلت لهم إذا كان أي واحـد منهـم غيـر موافق، فبإمكانـه إعطائي مسدسه والبقاء فـي غرفتـه إلـى أن أغـادر مع الكتيبة إلى كاراكاس وبعد ذلك له مطلق الحرية بالذهاب إلى منزله أو فعل أي شيء يريد. لأنني لم أكن أستطيع السماح لهم بالمغادرة قبل ذلك. فبدأ أحدهم بالبكاء وقال لي: «لا تظن بأننـي جبـان، لكن زوجتي، والأطفـال... لابأس، اذهب إلى البيت، ولكـن لا يمكنـك المغـادرة قبـل أن أفعل أنا». وهذا ما فعله، وبعد ذلك قدَّم استقالته لأنه لم يستطع التعامل مع الضغط. وكان الشخص الوحيد الذي طلب البقاء. ثم جمعت الجنود وأخبرتهم الشيء ذاته.

أمـا بقيـة الجنـود فلـم يكتشفوا أنهم كانوا جزءاً من الانقلاب إلى أن أوشكوا على الاشتراك في قتال من أجل الاستيلاء على بعض الأهداف في كاراكاس وأماكن أخرى مـن البـلاد. علـى أي حـال، في وقت باكر من ذلك الصباح، ذهب تشافيز وآخرون للبحـث عـن حافـلات تنقـل الجنود إلى العاصمـة. فوجدوا شركة نقل خاصة في إحدى المحطـات المحليـة واستأجـروا ثلاثين سائقاً وأخبروهم بأن يأتوا في الثامنة مساءً، كي يصلـوا إلـى كاراكاس في الوقت المناسـب قبل ساعة الصفر منتصف الليل. وكانوا قد خططوا للقيام بهجمات متزامنة على ميرافلوريس ولا كاسونا والقاعدة الجوية العسكرية المجاورة لا كارلوتا.

عند الساعة الواحد ظهراً، توجه تشافيز إلى قاعدة لوس بالوس الجوية الواقعة في جزء آخر من المدينة للتحدث إلى فيسكونتي وإرسال رسالة لاسلكية من أجل العملية. ومرة أخرى ناشد فيسكونتي تشافيز بأن يؤجل التمرد، قائلاً بأن القوى الجوية لم تكن مستعدة، لكن تشافيز أصر على استحالة التراجع.

حمَّـل الميجـور فرانسيسكـو خافيير سينتينو - المسؤول، وفق المخطط، عن القافلة الأولـى مـن الجنـود التي ستغـادر ماراكاي - 250 جندياً في الباصات والشاحنات التي كانت تحمل أيضاً معدات الطبخ وأشياء أخرى بهدف نصب معسكر في ميدان كارابوبو تحضيراً للاستعراض الجوي. بالطبع، كان من المفترَض أن يمضوا الليلة هناك، بيد أن خطتهم السرية كانت تقضي بالمغادرة سراً إلى كاراكاس. وفي قرابة السادسة والنّصف، غادر سينتينو ورجاله القاعدة الجوية. وخلال نصف ساعة وصلوا إلى ولاية كارابوبو المجاورة وإلى الميدان الذي شهد معركة كارابوبو الشهيرة تحت قيادة بوليفار.

عنـد الساعـة السابعـة مساء تقريباً، سيطر أوردانيتا وأكوستا تشيرينوس على ثكنة سـان جاسينتـو فـي مـاراكاي. ثم اتصل أوردانيتا بتشافيز ليعلمـه بطريقة الشيفرة بأن خطوتهم الأولى تكللت بالنجاح: الطير في القفص. كان تشافيز مشغولاً في تلك الفترة بالاستيلاء على ثكنة بابيز بينما وحدته كانت متمركزة في جانب آخر من البلدة. وفي الوقت نفسه كانت فرقة خاصة تستعد للنزول إلى المطار من أجل اعتقال بيريز. ومع أن الخطـة كانـت تبـدو بأنهـا تسير بشكل سلـس، إلا أن تشافيز تلقى - بطريقة الشيفرة أيضاً - بعض الأنباء المقلقة من عدة ثكنات: لقد تراجع بعض المتمردين.

«لا أستطيع القيام بذلك».
«الحفلة ستقام اليوم. أرسل لي الشراب».
«لا، لا يمكننا إرسال الشراب. لم نستطع الحصول على النقود».
«حسناً، لا ترسل أي شيء».

على الرّغم من أن المشاكل بدت بأنها قابلة للمعالجة، إلا أن الخطة برمتها كانت

في الواقع قد أصبحت في خطر مسبقاً. فقبل عدة ساعات، بدأت الشكوك تساور نقيباً كان مسـؤولاً عـن الاستيـلاء علـى الأكاديمية العسكرية في كاراكاس حيث كان يعمل. وكانت لهذا النقيب، ويُدعى رينيه جيمون ألفاريز، أسبابه الشخصية، فهو كان يواعد ابنـة المديـر الجديـد للأكاديميـة العسكرية وسيتزوج بها فـي نهاية المطاف. ومن شدة إحساسه بالذنب، اتصل بعمه المستقبلي في وقت متأخر من ذلك الصباح وكشف له عن بعضـ تفاصيـل المؤامـرة فـي كاراكاس. ومع أنه لم يكشف له عن اتساع العملية التي تشمل البلد بأكمله أو عن هويات قادتها، إلا أن قراره ذاك نبَّه الحكومة للمرة الأولى إلـى وجـود خطـة واضحة وملموسة. فاجتمع القادة العسكريون في كاراكاس في بداية فتـرة مـا بعـد الظهـر لتحديد ما كان يحدث بالضبط والسعي لإيقافه. وكإجراء وقائي، أمـروا الجنـود فـي قاعـدة فورت تيونـا بالتزام ثكنتهم، كما عطّلـوا الدبابات والآليات الأخرى من خلال إزالة ذخيرتها وبطارياتها وأجهزة الإرسال فيها.

وهكـذا، كان رأسـ الأفعـى، كما دعاها تشافيز – نظراً لأن كاراكاس كانت تمثل مركز التمرد – على وشك أن يُقطَع من دون أن يعلم هو وبقية قادة الانقلاب بالأمر. ومع أن تشافيز تلقى اتصالاً من أحد المتعاملين معهم في العاصمة – وكانت الساعة قرابة الرابعة من بعد الظهر – إلا أن المخبر لم يكن يعلم بتسرب المعلومات أو بالتحرك من أجل محاصرة التمرد.

غـادر تشافيـز ورجالـه مـاراكاي، غيـر عالمين بما كان يحـدث في كاراكاس، قرابة العاشرة مساء في الحافلات المدنية التي استأجروها. وقد رحلوا بحجة أنهم كانوا يتوجهون إلى قاعدة **المحرِّر** الجوية من أجل التحضير للاستعراض الجوي الذي سيجري فـي اليـوم التالـي. قسَّمـوا أنفسهم إلى ثلاثـة أقسام، كل قسم يسلك طريقاً مختلفاً باتجاه العاصمة. فإذا توقف أحد الصفوف، فإن الصفين الآخرين – بحسب تصوُّرهم – سينجحا فـي الوصـول. وقـد وضع الجنود فـي أحد الباصات على الأقل قاذفة مضادة للدبابات بالقـرب مـن المقدمـة. فـإذا هاجمتهـم القـوات الموالية للحكومة وهم فـي طريقهم إلى كاراكاس، فإنهم كانوا سيفتحون النار عليها.

عندما كان تشافيز وجنوده يستعدون للمغادرة، كان وزير الدفاع فرناندو أوتشوا أنتيتش في الجو على متن طائرة تقله من ماراكيبو إلى كاراكاس. وكان أوتشوا أمضى يومه في ولاية زوليا النفطية الواقعة غرب البلاد. ولم تبلغه السلطة في كاراكاس عن التقاريـر التـي تتحـدث عـن احتمال حدوث انقلاب. وعلى الرّغم من أن قرارهم كان محيِّـراً، إلا أنـه فسَّـر ذلـك لاحقـاً بقوله إنه كان يعتقد بوجود عدة دوافع لديهم. لعلهم كانوا يظنون بأنهم سيطروا على الانقلاب. أو لعلهم لم يكونوا يعتقدون بحقيقة وجود انقلاب أساساً. أو ربما لم يكونوا يريدون إقلاق راحة بيريز.

على أي حال، ومهما كانت الأسباب، فأوتشوا لم يعلم بالتقارير حول الانقلاب

إلا بعد نزوله من الطائرة في مطار سيمون بوليفار الدولي، وكانت الساعة آنذاك تشير إلى الثامنة والنصف مساء. حيث تلقى اتصالاً هاتفياً من قائد في الحرس الوطني يخبره فيه بأن ثمة إشاعات تتحدث عن أن بيريز سيكون هدفاً لهجوم سيحدث في تلك الليلة. وبما أن الشائعات التي تتحدث عن الانقلاب باتت روتينية في تلك الفترة، لم يأخذ أوتشوا تلك المعلومات على محمل الجد.

استقل أوتشوا سيارته وتوجه عائداً إلى كاراكاس. وما إن وصل إلى أول نفق - بعد نحو خمس دقائق - حتى وجد نفسه غير قادر على الدخول فيه، وذلك لأن سيارة كانت تحترق في الداخل. وعندها أحس بأن شيئاً ما كان يجري. استدار أوتشوا بسيارته وتوجه ثانية إلى المطار وتوقف عند إحدى الثكنات التابعة للحرس الوطني. هناك أمر الجنود بالسيطرة على المطار، واستدعى الأمن السياسي DISIP زيادةً في الأمن. ولم يمض وقت طويل حتى اجتاحت مجموعة من نحو أربعمئة جندي المطار، فانتشروا في مسارات الهبوط وصعدوا على الأسطح واحتلوا أبراج التحكم وحرسوا معمل الطاقة الكهربائية منعاً لحدوث أي تخريب.

بينما كان أوتشوا يعمل بنشاط على حماية المطار، كان أرياس كارديناس يحضِّر جنوده للهجوم على قلب العاصمة النفطية في فنزويلا، ماراكيبو. قرابة التاسعة والنصف مساء استدعى خمسةً وثلاثين ضابطاً إلى مكتبه؛ نصفهم يعلمون مسبقاً عن التمرد وملتزمون بالمشاركة فيه. أما الباقي، وإن لم يكونوا يعلمون شيئاً، فإنهم كانوا محضَّرين إيديولوجياً من قبل أرياس، الذي غالباً ما كان يناقشهم ويوزع عليهم الكتب والمقالات التي تتحدث عن الديمقراطية العاجزة لفنزويلا والدور التاريخي للجيش كمدافع عن الشعب وإرث بوليفار والآباء المؤسسين الآخرين.

في تلك الليلة «أخبرتهم بما سيحدث في البلد، وبأننا ينبغي ألا نكون بعد الآن كلاب حراسة للسياسيين، وأننا يجب أن ننهي البؤس والفقر والإساءات ونبني ديمقراطية حقيقية». وعندما ختم أرياس بقوله إنه يريد من وحدته أن تشارك في محاولة انقلابية ستجري في مختلف أنحاء البلد خلال الساعات القليلة القادمة، وافق جميع الضباط على الانضمام بمن فيهم ابن أحد إخوة أوتشوا أنتيتش نفسه.

بعد أن طلب منهم أن يكرروا وراءه قسَم المتمردين البوليفاريين، دخل أرياس في تفاصيل العملية. لقد خططوا للاستيلاء على خمسة عشر موقعاً حساساً، من بينها قواعد عسكرية ومراكز للشرطة، وأخرى للحرس الوطني، وقصر الحاكم، ومرافق نفطية. وكان قد أمر بتوزيع حصص غذائية تكفي لخمسة أيام على الوحدة، لأنه كان يعتقد بأن المعركة قد تطول.

بعد أن أصبح ضباطه إلى جانبه، توجه أرياس إلى الثكنة وأمر جنوده السبعمئة بالاجتماع في الساحة وخاطبهم بالأسلوب نفسه. وما إن كشف لهم الخطة، هللوا فرحاً وسروراً، لأنهم كانوا يكرهون بيريز أكثر من أي شخص آخر. فصرخ بعضهم: أخيراً

جاء وقت الشعب! سنترك البؤس وراءنا! لا مزيد من الذل! لا مزيد من القمع! وأحس بعض الجنود بالإثارة إلى درجة أنهم بدأوا بالبكاء. بينما تعانق آخرون. أخيراً، لقد جاءت فرصتهم للرد على نظام جعل عائلاتهم تعيش حياة كلها بؤس وشقاء. وقد بلغ فرحهم حداً اضطر أرياس لدعوتهم للهدوء، فقال لهم: أيها السادة، هذه مهمة عسكرية. سنحتفل بعد الانتهاء من إنجاز المهمة. وفي الساعة العاشرة مساء خرجوا من القاعدة العسكرية استعداداً للهجوم.

بعد عشر دقائق حطّت الطائرة الرئاسية في ميكويتا. أي أبكر من الموعد المحدد بعشرين دقيقة، وذلك لأن جهة الرياح كانت مع اتجاه الرحلة. وعندما وصلت الطائرة إلى المدرج رقم أربعة المخصص لرئيس الدولة شاهد بيريز منظراً غير عاديّ. مجموعة كبيرة من سيارات الأمن السياسي الصفراء كانت تطوق المدرج. وعلى الإسفلت كان أوتشوا أنتيتش ووزير الداخلية فيرجيليو أفيلا ينتظرانه للترحيب به.

وحالما نزل من سلم الطائرة باتجاه سيارة رئاسية جاهزة لنقله على وجه السرعة، طالبهما بيريز بمعرفة ما يجري. فقال له أوتشوا بأن هناك شائعات تتحدث عن وجود تمرد لكنه أكد للرئيس بأن كل شيء تحت السيطرة. ثم أضاف بأنه سيزوده بالمزيد من التفاصيل في طريق العودة إلى كاراكاس. فهو كان يريد إخراج الرئيس من المطار بأسرع وقت ممكن.

انطلقت السيارة بسرعة، وقد أُحبطت خطة المتمردين A. فمع وجود الكثير من الجنود لحراسة المطار لم تكن الفرقة الخاصة قادرة على فعل أي شيء. وبينما كان بيريز والآخرون يصعدون الطريق الجبلي باتجاه كاراكاس، زوده أوتشوا بالمزيد من التفاصيل حول التقرير الذي يتحدث عن الانقلاب أو حتى عن محاولة اغتياله. فلم يتفاجأ بيريز أو يشعر بالقلق، بل استشاط غضباً. لقد سئم من الشائعات التي تتحدث عن وجود انقلاب. وكان يعتقد بأنها تقوّض إدارته. فقال لأوتشوا: هذه الشائعات تؤذي الحكومة. سأنتظرك في ميرافلوريس عند السابعة كي نتحقق مما يجري.

وعندما وصلوا إلى النفق الأول، كان أحد الجانبين لا يزال مغلقاً بسبب السيارة المحترقة. فأوقف الجنود حركة المرور على الجانب الآخر كي يسمحوا للموكب الرئاسي بالمرور. فمروا بسلام، وأحبطت الخطة B. عبرت سيارة بيريز العاصمة بهدوء، وبحلول الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة وصل إلى لا كاسونا، مقر إقامته في شرق كاراكاس. ولأن بيريز كان واثقاً من أن أي ثورة لن تحدث، دخل إلى القصر وارتدى لباس نومه وذهب إلى السرير. ولم يمض وقت طويل حتى غط في نوم عميق، فالرئيس ذو الأعوام التسعة والسبعين كان مرهقاً بعد تلك الرحلة التي دامت ثلاثة أيام لم ينم فيها إلا ساعات قليلة.

في الحادية عشرة والربع مساء – في الجانب الآخر من البلد – أصدر أرياس

كاردينـاس الأمـر بالهجـوم علـى ماراكيبو، على الرّغم من أن العملية كان مقرراً لها أن تبدأ بعد نحو نصف ساعة. وذلك لأن السلطات اكتشفت تحركات غير عادية للدبابات في قاعدة عسكرية خارج المدينة في وقت سابق من تلك الليلة. وكان أرياس يخشى مـن أن تـدرك السلطـات بـأن وحدته أيضاً كانت تستعـد للتحرك، فبدأ العملية قبل أن يتمكنوا من إيقافه.

اكتسـح المتمـردون مراكـز الشرطة ومراكز قيادة الحرس الوطني ومكتب الأمن السياسي السري DISIP وقصر الحاكم والمرافق النفطية من دون أن يواجهوا إلا القليل من المقاومة. وسقطت مدينة المليوني نسمة – ومقر واحد من أكبر الاحتياطيات النفطية فـي العالم – فـي أيديهـم مـن دون أي مشقـة تقريباً. لقد أخذت السلطات على حين غرة ولم يكن لديها متسع من الوقت للرد عليهم. لم تُطلَق تقريباً أي طلقة ولم يُصَب أحد بأذى. وبحلول منتصف الليل، سيطر المتمردون على المدينة بأكملها.

فـي كاراكـاس، ذهـب أوتشـوا أنتيتش إلى مسكنه في فـورت تيونا. وبينما كان يستعـد للذهـاب إلـى السريـر، وكانت الساعة آنذاك تقـارب الحادية عشرة والنصف، تلقـى اتصـالاً مـن نائـب في البرلمان من حزب العمل الديمقراطي أخبره فيه بأنه سمع أنباء تتحدث عن تمرد عسكري في ماراكيبو، وأعطاه اسم قائد ليتصل به، فأكد ذلك القائد الخبر. وعندها أدرك بأن التمرد لم يكن مقتصراً على كاراكاس وحدها. اتصل على الفور بمقر إقامة الرئيس، لا كاسونا، وأمر عامل المقسم بأن يصله ببيريز. لكن بيريـز كان يغـط فـي نـوم عميـق. وبعد عدة محاولات فاشلـة، اتصل أوتشوا بإحدى بنـات بيريـز، كارولينـا، وطلـب منها أن توقظ الرئيس. وعندمـا فعلت ذلك، أخبره أوتشـوا بـأن جنـوداً في زوليا يقومون بتمـرد. ثمة تمرد حقيقي يجري. والمتمردون ربمـا يريـدون أن يقتلـوك. فأجابـه الرئيس المرهق من التعـب بأنه سوف يتوجه إلى قصر ميرافلوريس على الفور.

ومن فرط عجلته، لم يخلع بيريز لباس نومه بل لبس الزّي الذي كان يلبسه في رحلة العودة من سويسرا فوقه. واندفع خارجاً من المنزل ثم ركب إحدى السيارات مع سائق ومرافق خاص وانطلق. ومر بالقرب من المتمردين الذين كانوا قد وصلوا للتـو إلـى المـكان. لكنهـم لـم يطلقوا النار أو يحاولوا إيقافه، ربما لأنهم لم يعرفوا بأنه الرئيـس، ذلـك أنـه كان يركـب سيارة واحـدة بدلاً من الموكب الاعتيادي الضخم من السيارات والدراجات الآلية. وهكذا – مع وجود الحظ إلى جانبه – انزلق من بين أصابع المتمردين مرة أخرى.

بعد لحظات من مغادرة الرئيس، شن البوليفاريون هجومهم. فاندلعت معركة بين الجنود والشرطة والحرس الرئاسي من جهة والثوار من جهة أخرى وتبادلوا الرصاص بشكل كثيف في الحي الرئاسي المعشوشب، والهادئ عادةً. فوثبت السيدة الأولى بلانكا

رودريغيز بيريز وبقية أفراد العائلة من أسرَّتهم واختبأوا جميعاً في غرفة نومها بينما كان المبنى يرتعد والرصاص يقضم الجدار الأبيض المحيط به.

على بعد نصف ميل شن المتمردون بقيادة أكوستا تشيرينوس هجوماً على قاعدة لا كارلوتا الجوية. فقبضوا على قادة القاعدة، ومنعوا الطائرات من الإقلاع. كانت خطوة في غاية الأهمية، لأنها ستحمي المتمردين على الأرض من الهجوم الجوي. وفي المدينة، كان البوليفاريون يقتربون من قصر ميرافلوريس مزوَّدين برتل من الدبابات.

بينما كانت سيارة بيريز تسير مسرعة على الطريق السريع، تلقى حرسه اتصالاً علـى أجهزتهـم اللاسلكيـة يقـول بأن مقر لا كاسونا الرئاسـي يتعرض لهجوم، فصُدم الرئيـس مـن هـول المفاجـأة. وبعد منتصف الليـل بدقيقتين وصل الرئيس إلى القصر. عبرت السيارة بوابة معدنية ضخمة تفصل أراضي القصر عن شارع أوردانيتا وقطعت بسرعـة الممـر المرصـوف الـذي يبلغ طوله مئة يارد، ثـم توقفت أمام الباب الأصفر *puerta amarrilla*، وهـو مدخـل خاص مخصص للرئيس والشخصيات الهامة التي تزوره. في العادة، يكون جنود القصر بزيهم الرسمي الملّون يحرسونه، لكن القصر الأبيض البـراق الـذي مضـى على تشييده مئة عام كان في ذلك الوقت خالياً وهادئاً، فالجنود الرئاسيون كانوا نياماً في ثكنتهم الواقعة في الجانب الآخر من الشارع.

وثـب بيريـز مـن السيـارة، وصعد بسرعة السلم المؤدي إلـى الباب الأصفر ثم انعطف إلى اليسار نحو غرفة انتظار صغيرة تفضي إلى مكتبه. وكان السيناتور لويس ألفارو أوسيرو، زعيم حزب العمل الديمقراطي، وفيرجيليو أفيلا فيفاس، وزير الداخلية المسؤول عن الأمن الداخلي، جالسين بانتظاره. لقد سمعا عن الاضطرابات فهرعا إلى القصـر. كان بيريـز غاضبـاً مـن كليهما، إذ كيف يمكن لمحاولة انقلابية أن يُخطَّط لها منـذ شهـور، إن لـم تكـن سنـوات، من دون أن تعرف الحكومة أو الحزب أي شيء عنهـا؟ كان يصـرخ ويلـوح بذراعيـه بينما كان يذرع الغرفـة جيئة وذهاباً. وأخبرهما بأنه يشتبه بأن كولونيلاً مساعداً يُدعى هوغو تشافيز هو وراء التمرد.

بينما كان الرئيس يصب جام غضبه على الرجلين، وصل رئيس فريقه الأمني، الأدميرال ماريو إيفان كاراتيو، إلى القصر. وثب من سيارته وركض صاعداً سلسلة من الدرجات الرخامية المزخرفة متوجهاً إلى مكتبه الخاص الموجود في الجانب الآخر من القصر. وهناك التقى صدفة أحد مرافقي الرئيس، وهو روميل فوينمايور، الذي كان يبـدو وكأنـه جاهـز للذهـاب إلـى الحرب. إذ كان يحمل بندقيـة آلية ومسدساً في يديـه، ومسدسـاً دواراً آخـر فـي حزامه، وسكيناً مربوطاً حـول إحدى ساقيه، وقنابل يدويـة معلقـة إلـى صدره، وخوذة حربية فـوق رأسه، وصدرية واقية من الرصاص حول جذعه.

شـق فوينمايـور وكاراتيـو والرجـل الثاني في فريقه الأمنـي، الكولونيل رافاييل هانغ دياز، طريقهم إلى غرفة الانتظار الصغيرة خارج مكتب الرئيس. وكان المرافق

الرئاسي، الكولونيل جيراردو دوداميل، واقفاً عند المدخل. انتظر كاراتيو أي فترة انقطاع في حديث بيريز الغاضب كي يتحدث إليه.

بعد نحو ثلاثين ثانية سمعوا صوت تحطم مدوٍّ في الخارج، فاندفعوا خارج غرفة الانتظار باتجاه الباب الأصفر، وتوجه بيريز بسرعة إلى نافذة خلف طاولة مكتبه فإذا بهم يشاهدون دبابة قادمة نحوهم مباشرة بعد أن حطمت البوابة المعدنية، وفي إثرها مزيد من الدبابات ومن الخلف جنود يركضون دهنوا وجوههم بطلاء تمويهي. لقد تمكّن نحو مئتي متمرد، على الرّغم من الحصار الذي تعرضوا له، من الهرب من قاعدة فورت تيونا تحت قيادة بلانكو لا كروز وروجاس سواريز، النقيبان الشابان اللذان كادا يخونان تشافيز في كانون الأول ويقومان بانقلاب بنفسيهما.

بعد بضع ثوان من سحق الدبابة الأولى للبوابة، لمعت ومضات ضوئية براقة من رشاش آلي فوق إحدى الدبابات في المؤخر ممطراً جدران القصر بالرصاص. فأجفل بيريز وابتعد عن النافذة. ولو لم يكن الزجاج مضاداً للرصاص لربما كان أصيب بإحدى الطلقات. وعلى الفور فتحت مجموعة قليلة من الجنود الموالين للرئيس، المتمركزين فوق بعض الأبراج، النار على المتمردين.

توقفت الدبابة الأولى فجأة أمام كاراتيو والآخرين ونزل منها جندي يحمل بندقية هجومية من نوع FAL، ثم صاح في وجههم: «سوف نقتلكم كالكلاب! الوطن أو الموت!» بعد نزول الجندي على الأرض أمسك فوينمايور بسلاحه، ففتح المتمردون النار عليهم فهرب كاراتيو والآخرون إلى الداخل.

في غرفة الانتظار، دخل دوداميل إلى مكتب بيريز وأغلق الباب المحصن المضاد للرصاص وأقفله بالمفتاح. بينما ركض كاراتيو ومن معه عبر الباب الأصفر وتجاوزوا غرفة الانتظار ثم توجهوا نحو مكتبه الواقع على بعد خمس وعشرين يارد في الجهة الأخرى من القصر. بحث كاراتيو عن مفاتيح خزنته من أجل إخراج مسدسه، لكنه لم يتمكن من فتحها من شدة توتره. كانت سيارة بيريز مركونة في الخارج لكن السائق دخل إلى القصر كي يحمي نفسه، فصرخ فيه كاراتيو طالباً منه أن يرجع ويأخذ الأسلحة من داخل السيارة: رشاشان صغيران من طراز Uzi. فجلبهما السائق، وأعطى واحداً لكاراتيو والآخر لهانغ دياز. أسرع الأدميرال إلى الهاتف لطلب التعزيزات، بينما وقف هانغ دياز وفوينمايور بالقرب من الباب ممسكين بسلاحيهما.

هجم المتمردون بسرعة ودخلوا عبر الباب الأصفر وهم يطلقون النار من أسلحتهم. فأخرج هانغ دياز وفوينمار ومن معهما من الحراس رؤوسهم من وراء الباب وخلف بعض النباتات المنزلية وردوا عليهم النيران. استمر البوليفاريون بالهجوم وانعطفوا يساراً باتجاه غرفة الانتظار على بعد عشر ياردات فقط من باب مكتب الرئيس. ولم يمض وقت طويل حتى اغتسلت الأرض والباب بالدماء. وخلال المعركة أصابت رصاصة رأس بلانكو لا كروز فسقط على الأرض مغشيًا عليه. في البداية،

اعتقد بعض المتمردين بأنه مات. فجروه إلى الخارج ووضعوه فوق إحدى الدبابات، ولاحقاً أخرجوه من المنطقة.

لـدى سماعـه صـوت الرصاص خارج بابه، توجه بيريز إلى طاولة مكتبه وأخذ حقيبـة سـوداء صغيـرة تشبـه الحقائب التي يحملها المديـرون التنفيذيون ثم فتحها. كان فيهـا مسدسـان ورشاشـ من طراز *Uzi*. كان حراس بيريز يحملون الحقيبة معهم إلى أي مكان يتوجه إليه الرئيس كي يستخدمها في الحالات الطارئة. وبيريز كان يعرف استخدام الأسلحة جيداً لأنه غالباً ما كان يتدرب في المنتجع الرئاسي الواقع على جزيرة لا أورتشيـلا الكاريبيـة وغيرهـا مـن الأماكن. أخرج الرشاش من الحقيبة وسحب أداة الأمان ثم استعد للدفاع عن نفسه.

لكنه قرر بأن أفضل فرصة له للنجاة هي الهرب من مكتبه. ففتح باباً مخفياً في الخلف وخرج منه مع ألفارو أوسيرو وأفيلا فيفاس والحارس الشخصي دوداميل إلى المكتب المجاور التابع لسكرتيرة بيريز الخاصة ثم إلى سلم يؤدي إلى استراحة الرئيس الخاصة في الطابق العلوي، وهي مكونة من غرفة نوم ومطبخ ومكتب صغير. صعد بيريز النصف الأول من السلم ثم تسمَّر في مكانه، لأن الرصاص بدأ ينهمر من نوافذ وسقف الطابق الثاني. فوقف مشلولاً وبيده الرشاش محاولاً التفكير في ما يجب عليه أن يفعل. لقد كان محاصراً تماماً.

في الأسفل، كان كاراتيو يحاول بشكل مسعور الحصول على المساعدة. اتصل بوزير الدفاع لكنه لم يفلح. واتصل برئيس حرس الشرف الخاص بالرئيس في الثكنة المجاورة للقصر فأخبره بأن المتمردين استولوا على الأنفاق التي تصل الثكنة بالقصر. واتصـل بالرئيـس المحلـي للحرسـ الوطني فقال له إنـه لا يستطيع القيام بشيء فوري لأنه كان بحاجة لاستعادة السيطرة على الجنود في المدينة أولاً. أقفل كاراتيو الهاتف مدركاً بأن ليس أمامه سوى خيار واحد فقط: إخراج بيريز من القصر.

انتظر حتى توقف إطلاق النار قليلاً، ثم ركض بأقصى سرعته عبر أحد الممرات. وبينما كان يقطع مساحة مكشوفة بطول عشرة ياردات فتح المتمردون النار عليه، فرد عليهم بدوره برشاشه Uzi. وجد بيريز داخل السلم فأخبره بأن الوضع ميؤوس منه. «سيدي الرئيس، ليس لدينا وقت. لا يمكننا الدفاع عن أنفسنا. لقد استولوا على الأنفاق. إننا محاصرون بالدبابات. وليس هناك إمكانية بأن نحصل على مساعدة الجيش، ولا مـن الحرسـ الوطنـي. لقد استولى المتمـردون على القصر عسكرياً. ولا نملك القدرة على المقاومة. علينا أن نغادر المكان».

غيـر أن بيريـز لـم يكـن يريد المغادرة، بـل كان يريد المقاومة، فقال لكاراتيو: «علينا أن ندافع عن القصر. علينا أن ندافع عن البلد ونحمي الديمقراطية». لكن كاراتيو أكد له بأنهم سيُقتَلون إذا ما بقوا. فأذعن بيريز أخيراً للأمر، قائلاً له: «إذا كان هذا

هو الحال، فأخرجني من هنا في الحال».

ركض كاراتيو حوالى أربعمئة يارد عبر أنفاق سرية إلى أن وصل إلى باب زجاجي ثقيل يفضي إلى مرأب يحوي أسطول السيارات الرئاسية. لكن الباب كان مقفلاً ولم يكن المفتاح بحوزته. فأمسك بعقب الرشاش وضربه به. احتاج إلى ما لا يقل عن عشر ضربات ثقيلة قبل أن يتمكن من إحداث فجوة مثلمة بنتوءات حادة بارتفاع خصره وكبيرة بما يكفي للمرور عبرها. عبر كاراتيو الفجوة ثم ركض نحو أحد الحراس وصرخ به آمراً إياه بأن يحضّر سيارة الرئيس. ثم قال له إنه يريد السيارة الرمادية، ذلك أن معظم السيارات الرئاسية سوداء وهو لم يكن يريد أن يعطي المتمردين أي دليل.

كان المتمردون منتشرين داخل وخارج القصر، وقد غطوا كل المخارج باستثناء واحد فقط: إنها البوابة المعدنية الضخمة التي تُفتَح من المرأب وتؤدي إلى الشارع المحاذي للقصر من الخلف. رجع كاراتيو إلى السلم بأقصى سرعته، وأخبر الرئيس بأنه مستعد، ثم قاده والآخرون عبر الأنفاق. انسل بيريز الذي كان لا يزال ممسكاً برشاش Uzi عبر الفجوة، ثم مشى باتجاه السيارة ودخلها.

لكن، كانت ثمة مشكلة أخرى، وهي أن أحداً منهم لم يكن يملك المفتاح أو الجهاز الإلكتروني الذي يفتح البوابة. كان هناك حارسان مصابان على الأرض يصرخان طلباً للنجدة (لقد أصيبا بطلقات بعض المتمردين الذين كانوا يطلقون النار على القصر من الخارج). والخيار الوحيد أمامهم هو أن يحاولوا ربط الأسلاك في صندوق التحكم. فقفز كاراتيو من السيارة، وركض باتجاه الصندوق وفتحه بالقوة. ثم جدل سلكين معاً ففُتح الباب. لم يتطلب منه الأمر سوى ثوانٍ معدودة. زعقت إطارات السيارة، وانطلقت بسرعة قصوى عابرة البوابة، ثم انعطفت بتهور إلى اليمين. وعلى بعد خمسين ياردة من الشارع الصاعد باتجاه اليسار، كانت هناك دبابة وبعض الجنود ينزلون باتجاههم. لقد نجا الرئيس بأعجوبة مرة أخرى.

لم يكن لدى حاشية الرئيس أي فكرة عن الطريق الذي يجب أن يسلكوه. انعطفوا نحو شارع بارالت الموحش، وساروا مسافة ميل على طريق مرتفع باتجاه جبل أفيلا، ثم انعطفوا ثانية نحو شارع كوتا ميل السريع الذي يمتد على طول سفح الجبل. ومع أنهم أصبحوا بأمان في تلك اللحظة، إلا أن الرئيس كان غاضباً من القادة العسكريين الخونة، ومن تشافيز، الرجل الذي يعتقد بأنه كان وراء المؤامرة.

قال الرئيس لكاراتيو بأنه يريد الذهاب إلى محطة إذاعة أو تلفزيون كي يُظهر للأمة بأنه لا يزال ممسكاً بزمام الأمور وأن مؤامرة المتمردين فشلت. كان يعتقد بأن ظهوره يمكن أن يشوه صورة المتمردين ويدفعهم إلى الاستسلام. فرفع هاتف السيارة واتصل بعامل المقسم في ميرافلوريس. كان المتمردون قد اقتحموا بواسطة

إحـدى الدبابـات البوابـات المعدنيـة للقصر الأبيض، الذي يقـع في الجانب الآخر من الشارع حيث يوجد ميرافلوريس، وتسلقوا نصف السلم بها، لكنهم فشلوا في الوصول إلى الطابق الرابع حيث يوجد المقسم الرئيسي للحكومة. قال كاراتيو لعامل المقسم بأن يصله بأول محطة إذاعة أو تلفزيون يستطيع الاتصال بها. بعد ثلاثين ثانية اتصل عامل المقسم ثانية. كانت محطة فينيفيجن - إحدى الشبكات الكبرى في البلد - على الخط.

كان على الخط المناوب الليلي المسؤول عن أمن الشبكة، وكاراتيو كان يعرفه. قـال لـه بأنـه بحاجـة للظهـور على الهواء، من دون أن يخبره بـأن الرئيس يريد أن يتحدث. فطلب منه الحارس أن يأتي. زادت السيارة من سرعتها على الطريق السريع وعبـرت حـي لا فلوريـدا الـذي يقطنـه مواطنون من الطبقـة الوسطى، ثم توقفت عند المبنى الرئيسي لمحطة التلفزيون.

هـرع الرجـال إلـى الداخل، وصعـدوا السلم نحو مكتب رئيس الشبكة، غوستافو سيسنيروس، أغنى رجل في فنزويلا وصديق الرئيس الأميركي جورج بوش الأب. كان هنـاك استوديـو صغيـر للبـث بجانب مكتب سيسنيروسـ. دخل بيريز إليه واستعد للظهور على الهواء. كان مضطرباً وعصبياً، كيف لا وقد نجا للتو من متمردين كانوا يحاصرون قصره ويريدون قتله. وكان جزءاً من لباس نومه الذي كان يرتديه تحت طقمه بارزاً من تحت قبة الزّي. لفت كاراتيو انتباهه إليه فدفع بيريز أعلى لباس النّوم إلى الداخل.

في الساعة الواحدة والربع بعد منتصف الليل، أي بعد دقيقتين فقط من وصولهم إلى محطة التلفزيون، ظهر بيريز على الهواء. وكان شعره أشعث وتبدو على وجهه العصبية. أخبـر الفنزويليين - متحدثـاً بعجلة - بـأن محاولـة انقلابية حدثت لكنه لا يزال مسؤولاً عن البلـد. «تجـري الآن السيطـرة على الحركـة الانقلابية اللاوطنية. أطلب منكم أن تضعوا ثقتكم وإيمانكم بالنظام الديمقراطي... كونوا واثقين. الديمقراطية ستنتصر».

على الرّغم من أن الرسالة لم تدم سوى بضع دقائق، إلا أن المحطة ظلت تكررها حتى تراها الأمة كلّها، ذلك أن خبر التمرد انتشر ولا بد من أن الناس متسمّرون الآن أمام تلفزيوناتهم. بالطبع، كان ادعاء بيريز بأن التمرد قيد السيطرة مزيفاً. فالثكنات العسكرية الأساسية في مختلف أنحاء البلد كانت محاصرة، وهناك معارك عنيفة تجري فـي لا كارلوتـا ولا كاسونـا، والمتمـردون كانوا يغـزون ميرافلوريس بأعداد كبيرة، ومدينة ماراكيبو وقعت بأيدي البوليفاريين، وحاكم الولاية كان محاصراً في بيته.

لكن ظهور بيريز أعطى الانطباع بأنه كان لا يزال الرئيس المسؤول عن البلاد، على الرّغم من التوتر الذي بدا عليه. وسرعان ما سيساعد هذا الظهور على قلب التيار لمصلحـة الحكومـة عبـر تشويـه صورة المتمردين، الذين كانـوا يضعون نصب أعينهم عدة أهداف رئيسية، من بينها القبض عليه. وسيظهر بيريز أكثر من مرة على شاشة التلفزيون في تلك الليلة.

أما الرجل المسؤول عن التمرد في طول البلاد وعرضها، هوغو تشافيز، فقد فاتته المرحلة الأولى منه. فعندما اندلعت المعركة في ميرافلوريس، كان قد وصل للتو إلى كاراكاس. وبحسب روايته، لقد وصل بين الساعة الثانية عشرة والنصف والواحدة بعد منتصف الليل، يرافقه في البداية بضعة ضباط فقط. توجه بعد ذلك إلى المتحف التاريخي العسكري القابع فوق هضبة تبعد ميلاً عن ميرافلوريس. وكان بإمكانه رؤية القصر من هناك. كان يتوقع أن يجد جنوداً من المفترَض أن يغادروا قاعدة فورت تيونا حوالى العاشرة والنصف مساء وأن يستولوا على المتحف، وينصِّبوا معدات الاتصالات التي سيستخدمها في توجيه التمرد.

غير أن الجنود لم يغادروا القاعدة لأن القادة احتجزوهم في الثكنة. وبدلاً من أن يقابله رفاقه الجنود، بحسب رواية تشافيز، تولى رشاش آلي مسألة الترحاب به. لقد أرسل بعض الجنود الموالون للحكومة إلى المتحف في الدقيقة الأخيرة، وعندما وصل تشافيز لم يكونوا يعرفون من هو ففتحوا النار عليه. كادت بعض الطلقات تصيب تشافيز، الذي صرخ فيهم - مستخدماً ذكاءه وسرعة بديهته - قائلاً بأنه جاء ليساند القوات الموالية وسط تقارير تتحدث عن احتمال حدوث ثورة اجتماعية. فوقعوا بالفخ، وسمحوا لتشافيز ورفاقه بالدخول.

لكنها كانت الإشارة الأولى بالنسبة لتشافيز إلى أن شيئاً ما قد حدث. لم يكن هناك أحد من الجنود المتمردين ولا معدات اتصال ولا أي طريقة لمعرفة ما كان يجري في بقية أنحاء البلاد أو حتى في العاصمة نفسها. «كنت أشبه بسجين... وصلنا إلى منطقة خالية ومعزولة. لم يكن هناك أي شيء تقريباً، لا أحد للمساندة، ولا أحد للاتصال به. لقد مُزِّقت صفحة كاراكاس من الدفتر. كنا في حالة مريعة من التخبط».

بعد فترة قصيرة، شغَّل الكولونيل المسؤول عن المتحف التلفزيون وشاهد بيريز يتكلم؛ بحسب رواية تشافيز. تحدث الرئيس عن وحدة مظليين من ماراكاي تقود الانقلاب. فالتفت الكولونيل إلى تشافيز ونظر إليه بريبة. فأحس تشافيز بالأمر وتصرف على الفور. نعم، هذا انقلاب وأنتم محاصرون. سلِّموا أسلحتكم، وإلا فإن مذبحة ستبدأ الآن.

بالطبع، كانت تلك كذبة، فالمحاصَر هو تشافيز ورفاقه. ولكن، لحسن حظه، جاء في تلك اللحظة الميجور سينتينو - القائد الذي يُفترَض بأنه كان يخيم في ميدان كارابوبو مع جنوده في تلك الليلة - مع باصين مليئين بالجنود. صاح الميجور منادياً تشافيز من الخارج. عندئذ قال تشافيز للكولونيل: هؤلاء رجالي، سلموا أسلحتكم وضع رجالك تحت قيادتي. فأذعن الكولونيل وكسب تشافيز أول معركة صغيرة له في تلك الليلة. وكانت الساعة حينئذ تقارب الثانية بعد منتصف الليل.

لكن، مع عدم قدرته على الاتصال ببقية الرفاق وعدم معرفته بما يجري في كاراكاس وبقية المناطق في البلد، لم يكن أمام تشافيز خيار إلا الانتظار. وهذا ما

جعـل منتقديـه فـي مـا بعد يتهمونه بالافتقـار إلى الشجاعة لمهاجمـة القصر. فبعد عدة سنوات، ظل وزير الدفاع أوتشوا أنتيتش مصمماً على أن تشافيز كان يستطيع الخروج منتصراً لو أنه أرسل جنوده من المتحف لمساعدة بلانكو لا كروز وروجاس سواريز في ميرافلوريس. كان أوتشوا يعتقد بأنهم كانوا يستطيعون الاستيلاء على رمز السلطة فـي البلـد وتحريضـ المزيد من التكتات العسكريـة على التمرد وقلب مجريات الأمور لصالحهـم. «لا أحـد يفهـم لمـاذا لـم يهاجم هوغو تشافيـز. كان يعرف بما يجري، إذ كان باستطاعته أن يراه، لكنه افتقر إلى الشجاعة لمهاجمة القصر». بينما فسَّر آخرون إحجـام تشافيـز عـن التوجـه إلى القصر بأنه كان يخشى من أن يكون بلانكو لا كروز وروجاس سواريز يخططان لقتله كجزء من مؤامرة بانديرا روجا.

أمـا بالنسبـة لتشافيـز، فذلـك لم يكن له علاقة بالأمر على الإطلاق. فهو ببساطة لـم يكـن لديـه فكـرة واضحـة عما يجـري على الأرض ولم يكن لديـه أي اتصال مع المتمرديـن فـي القصـر. وكانـت مهمتـه الأساسية تقضي بقيـادة العملية في سائر أنحاء البلد من المتحف وتقديم الدعم للقوات التي تهاجم ميرافلوريس إذا كان باستطاعته فعل ذلـك. ولكـن، فـي ظـل ذلـك الظرف الذي وجد نفسه فيه، لم يكن أمام تشافيز سوى الاحتكام إلى العقل والمنطق السليم:

> أي تصرف هناك... كان يمكن أن يكون مثل الوقوف في منتصف غرفة مظلمة، من دون أن تعرف مكان الجدران، وتقوم بانقلاب بشكل أعمـى. تقتـل بعضـ الناس وتموت في معركـة حمقاء بين الأخوة. أي عمليـة هنـاك كانـت ستكون عمياء. لم تكـن هناك أي معلومات من أي نوع، لم تكن هناك معلومات عما يجري في الأسفل، لا شيء مطلقاً، حتى إنه لم يكن هناك اتصال مع قواتنا. الشيء الوحيد الذي كان يمكن فعلـه هـو الانتظـار حتـى تتكشف الأمور... بكلمـات أخرى، أن تشن هجوماً بمئة رجل ضد فوج من الجنود فهذا انتحار، ومن دون أن تعرف ماذا كان يجري، فهذا جنون وهم علّمونا ألا نقوم بأشياء مجنونة.

هكذا انتظر تشافيز في الظلام حتى تتكشف الأمور. في تلك الأثناء، هدأت وتيرة القتال في ميرافلوريس. وتفاوض هانغ دياز مع المتمردين عبر اللاسلكي في محاولة لحملهم على الاستسلام. وعندما أخبرهم بأن الرئيس غادر القصر، لم يصدقوه، فطلب منهم أن يشغّلوا التلفزيون. وعندما فعلوا انخفضت معنوياتهم إلى الحضيض. في الوقت نفسـه، كانـت الحكومـة تعيـد تنظيم صفوفها. فأمر أوتشوا أنتيتش الجنود والدبابات من قاعدة فورت تيونا ولا غويرا على الساحل الكاريبي بمساندة الجنود الموالين للحكومة في القصر. وكان مقرراً أن يصلوا عند الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل.

صُدم أعضاء المؤسسة السياسية والاقتصادية في فنزويلا عندما شاهدوا بيريز على

التلفزيون، فتوجه الكثيرون منهم إلى محطة فينيفيجن لمساندته. وبعضهم ظهروا على الهواء أيضاً، مثل إدواردو فيرنانديز النائب في البرلمان من حزب COPEI، ونددوا بالانقلاب وأعربوا عن دعمهم للرئيس المنتخب ديمقراطياً؛ وإن لم يكن يحظى بشعبية كبيرة. وفي الساعة الثانية والنصف تقريباً، ظهر بيريز على الهواء للمرة الثانية. لكن هذا الظهور كان أفضل من سابقه. فبدلاً من الخلفية الفارغة التي ظهرت في المرة الأولى، كان هناك شخص يلوح بالعلم الفنزويلي إلى جانب الرئيس الذي بدا أكثر ثقة بالنفس من المرة السابقة، وخاصة مع وجود مئتي شخص تقريباً قدموا لمساندته. قال الرئيس: «لقد حاول المتمردون القيام بانقلاب من أجل قتلي... لكنني أعتمد على دعم الأمة كاملة».

كان خبر المحاولة الانقلابية المفاجئة قد بدأ ينتشر في مختلف أنحاء العالم. فبعد ساعتين من وصول التقارير الأولية حوله إلى الولايات المتحدة، اتصل مساعد وزير الخارجية بيرنارد أرونسون ببيريز «الذي قدَّم ضمانات بأن القوات الموالية له ستنتصر». مع ذلك، وقبل وقت وجيز من الساعة الثانية بعد منتصف الليل (الثالثة بتوقيت فنزويلا)، اتصل أرونسون بوزير الخارجية جيمس بيكر، الذي أيقظ الرئيس بوش بعد عدة دقائق. واتصل بوش بدوره ببيريز للتعبير عن دعمه للديمقراطية الفنزويلية.

عند الساعة الثانية وخمس وأربعين دقيقة تقريباً استسلم المتمردون في ميرافلوريس. في ذلك الوقت لم يكن أحد يعرف شيئاً عن تشافيز. والقوات الموالية للحكومة كانت تتوافد بكثرة إلى القصر. بعد نحو خمس عشرة دقيقة، غادر بيريز وحاشيته محطة التلفزيون وعادوا إلى ميرافلوريس. ولحقهم أوتشوا أنتيتش. بعد فترة قصيرة ظهر بيريز على الهواء مباشرة للمرة الثالثة وتحدث إلى الأمة من وراء مكتبه مؤكداً بأنه ما يزال ممسكاً بزمام الأمور.

على الرغم من أن الحكومة استولت على ميرافلوريس، إلا أن المتمردين كانوا في الواقع ما يزالون يقاتلون في لا كاسونا ولا كارلوتا. كما كانوا يسيطرون على ثكنات عسكرية هامة في ماراكاي وفالنسيا وماراكيبو. وكان قائد التمرد، تشافيز، ما يزال حراً طليقاً.

أمر أوتشوا أنتيتش عامل المقسم بأن يصله بالمتحف العسكري التاريخي. فتأمَّن الاتصال عند الرابعة فجراً تقريباً وتحدث إلى تشافيز. قال له أوتشوا: التمرد انتهى. لقد خسرت المعركة. وأنت محاصر. لقد استعدنا القصر. والرئيس تحدث إلى الأمة. وكل ما بقي لديك بضع وحدات تساندك.

لكن تشافيز رفض الاستسلام، وطلب من أوتشوا أن يأتي إلى المتحف كي يتحدثا. لكنها كانت حيلة أخرى، فتشافيز كان ينوي اختطافه. بيد أنها لم تنطلِ على أوتشوا، فاقترح تشافيز أن يتقابلا في نقطة معينة في منتصف الطريق، فرفض وزير الدفاع ذلك

أيضاً. وبينما كانا يتحدثان، جاء جنرال آخر، وهو رومان سانتيليز رويز، إلى مكتب بيريـز. وكان هـذا الجنـرال يكـنُّ الود لتشافيز، بل إن بعض الأشخاص يعتقدون بأنه كان متعاطفاً مع حركته وأنه كان على معرفة بمجموعات مثل ARMA. تصوَّر أوتشوا بأن سانتيليز يمكنه المساعدة في التوسط لدى تشافيز، فاقترح إرساله إلى المتحف.

عندمـا وصـل سانتيليـز إلى المتحف، علم تشافيـز للمرة الأولى بتفاصيل ما كان يجري في البلد. إذ أخبره سانتيليز بأن المتمردين يسيطرون على ماراكيبو وأن رتلاً من الدبابات كان في طريقه من مدينة فالنسيا. لكنهم فقدوا كاراكاس ووسائل الإعلام. فأخبـره تشافيـز بأنـه لـن يستسلم على الرّغم مـن ذلك، فعاد سانتيليز إلى ميرافلوريس حاملاً الرسالة معه.

فـي الحقيقـة، كان تشافيـز يعـرف بأنـه فـي ورطـة، إذ إن معظـم القوات في كاراكاس – مركز العملية الأساسي – فشلت في الحضور، موجهة ضربة قوية للتمرد:

> كنـت مثـل نمـر في قفص. لم أكـن أعرف كيف أواجه هذا الأمر، كيـف أتعامـل معـه... فـي كاراكاس كان هنـاك حوالى ثلاثة آلاف أو أربعـة آلاف رجـل ملتزميـن بالعملية، تُرك منهـم خمسة ضباط واثنين أدنى رتبة، ونحو خمسين جندياً في دبابات من دون ذخيرة ولا أجهزة إرسال، يواجهون معركة انتحارية ضد ميرافلوريس. لهذا السبب رأيت صورة دبابة تضرب الجدار. إنها حالة العجز الذي يحس بها رجل قدم التزاماً وأقسم عليه ويريد إنجاز المهمة. وكذلك الدبابة التي تصعد على الدرج، إنها كرامة الرجل، شيء شبيه بطيار كاميكاز يائس.

مع فشل العملية الجوهرية في كاراكاس، أصبح تشافيز يلعب على عامل الوقت. كان يضـع أملـه فـي أمريـن قد يقلبان الوضع لصالح وصول الجنرال فيسكونتي والقوة الجويـة مـع بـزوغ الفجـر، وتمرد سكان الأحياء الفقيـرة. لكن أمله خاب في كليهما، فلا الجنرال فيسكونتي أتى ولا المدنيون انتفضوا ثائرين.

بحسـب روايـة تشافيـز، كان يُفترَضـ بالمدنيين، وخصوصـاً من حزب القضية الجوهرية، أن يلعبوا دوراً هاماً في التمرد. حيث تم الإتفاق على أن يأتوا إلى أماكن محددة مسبقاً ويتلقوا السلاح من المتمردين. حتى إنهم أعطوا كلمات سرية. ولكن في النهاية، لم يأتِ إلا القليل منهم وهذا جعله يشعر بالمرارة وخيبة الأمل.

> كنـا نعمـل معـاً على المكوّن الشعبـي والمكوّن العسكري من الثورة العسكرية التي خططنا لها. ولكن، في اجتماع للمديرين الوطنيين جرى قبل بضعة أيام من التمرد، قرروا سحب دعمهم له. لكن الأسوأ من ذلك هـو أنهـم لـم يخبرونـا بقرارهم على الرّغم من أننا قررنا مسبقاً الالتزام

> بالعمليــة وبخطــط القتــال. لقــد اتفقنا على أن ينظمــوا أناسهم كي يذهبوا إلى نقاط متفق عليها مسبقاً، وهناك كنا سنوزع عليهم السلاح، ولكن، وحده علي رودريغيز (نائب في البرلمان عن حزب القضية الجوهرية) كان منتظراً هناك مع مجموعة صغيرة محاولين من دون جدوى إنجاز مسؤوليتهــم. أمــا كحــزب، فلم يأتِ القضية الجوهريــة أبداً. لقد تركونا معلقين في الهواء كي نجف...
>
> في ما بعد، أخبروني عن قرارهم الذي اتخذوه، فلم أصدقه لأنني كنــت لا أزال غــراً فــي السياسة. وأنا جندي، وبالنسبة إلي، كلمتي هي شرفي... تلك التجربة جعلتني أفقد عذريتي السياسية؛ عذراً للتعبير.

غيــر أن بعضــ المدنييــن، ومنهــم بابلــو ميدينا زعيم حــزب القضية الجوهرية، سردوا قصة مختلفة تماماً، مؤكدين بأن تشافيز والآخرين لم يأتوا مع الأسلحة. فقبل عــدة أشهــر مــن بدء العملية، التقى الزعيــم المتمرد السابق دوغلاس برافو مع تشافيز في محاولة لحل خلافاتهما التي طال أمدها والتعاون في التمرد. لكن الاجتماع انتهى بالفشل وعلاقتهما انقطعت كلياً. وكان برافو يعتقد بأن التحرك المدني يجب أن يسبق التحرك العسكري لكن تشافيز، بحسب زعم برافو، لم يكن مهتماً بالأمر:

> التقينــا للتحــدث بشــأن الخطط المتعلقة بالثــورة... قلنا إن التحرك المدنــي يجــب أن يكــون هــو التحرك الأول، مثل الإضراب العام الذي نظّمــه المجلــس الوطنــي فــي 23 كانــون الثانــي [1958]. أمــا التحرك العسكــري فيأتــي بعــده. وهذا لكي يكون للمجتمــع المدني مشاركة فعالة في الحركة الثورية. لكن هذا بالتحديد ما لم يكن يريده تشافيز. مطلقاً! لــم يكــن تشافيــز يريد للمدنيين أن يشتركوا كقوة ملموسة. كان يريد من المجتمع المدني أن يدعم لا أن يشترك، وهو أمر مختلف تماماً... لا أحــد يمكنــه إبــداء الــرأي بجانبه... إنــه لا يسمح بأي اختلاف أو رأي مخالف.

بينمــا كان تشافيــز يفكــر فــي مــا ينبغــي فعلــه، كان بيريــز الغاضــب في قصر ميرافلوريس يفكر في قصف المتحف لإنهاء المأزق، فيما اقترح بعض مساعديه إخافة تشافيــز أولاً. وهكــذا أمــر أوتشــوا، قرابــة السادسة صباحاً، عــدة طائرات F-16 في القاعدة الجوية المتمركزة في ماراكاي بالتحليق فوق المتحف العسكري لإرسال رسالة واضحة لتشافيز. ثم اتصل به ثانية، وقال له إن الطائرات في الجو وإن معظم التكتلات المتمردة استسلمت وإن مشاة البحرية في طريقهم إلى كاراكاس لمهاجمة المتحف. وإنّ حمام دم على وشك أن يبدأ.

فقال له تشافيز – مستغلاً المعلومات التي قدّمها إليه سانتيليز – بأن المتمردين كانوا يسيطـرون علـى مـاراكاي وأن حاكـم زوليا محاصر. ثـم أضاف، إن الدبابات كانت آتية من فالنسيا التي يسيطر عليها المتمردون أيضاً. قال تشافيز متفاخراً: «هذه ليست سـوى البدايـة فقـط». لكنهـا كانت جرأة زائفة، فهو يعرف بأن الثورة كانت تتداعى. ولإحساسـه بحاجتـه الماسـة لمساندة القوة الجوية، حاول تشافيز الاتصال مع جيسوس أوردانيتا في ماراكاي ونجح في ذلك أخيراً. قال له: « يا صديقي، أرسل لي مساندة جويـة». فأجابـه أوردانيتـا قائـلاً إنّ الطائرات قد غـادرت «لكنها ستقصفكم. لقد فقدنا السيطرة على القاعدة».

أمر بيريز، الذي بدأ يفقد صبره، أوتشوا بإبلاغ تشافيز بأنه إن لم يستسلم فسيبدأ القصف. فاتصل أوتشوا به للمرة الثالثة وقال له بأن الطائرات ستقصف المتحف خلال عشـر دقائـق إن لـم يستسلـم. ولـم يكن أوتشوا قلقاً مـن قصف المتحف بحد ذاته، في الواقع، لكنه كان يعرف بأن المتحف محاط بحي 23 de Enero الواسع والمؤلف من بنايات طابقية عالية. وأي قصف سيؤدي إلى قتل وجرح الكثير من المدنيين.

أقفل تشافيز السماعة، وكانت الساعة قد قاربت السابعة صباحاً. وبعد بضع دقائق، تحدث مع سانتيليز ثانية ليعلمه باستعداده للاستسلام، فهو بدوره لم يكن راغباً بخاتمة دموية، وخاصة مع يقينه بأنه كان يملك فرصة ضئيلة للخروج منتصراً منها.

> لقـد أدركـت بـأن الخطـة لن تصل إلى أي شيء. لم يكن هناك أي اتصال مع وحدتي. ولم أكن أعرف ما يجري سوى أن الرئيس استعاد الموقع الرمزي للسلطة، وأن الدبابات وصلت إلى ميرافلوريس لمساندة الرئيـس، وأن متمـردي القوة الجويـة كانوا مقيدي الحركة، وأننا فقدنا وضعية الحياد في الجو، وأن طائرات F-16 كانت آتية لقصفنا.
>
> كيـف يمكنـك مواصلـة العمل وأنت بهذا التشتت وانقطاع الأوصال، من دون أن تعرف أي شيء عما كان يجري في ماراكاي وماراكيبو وحتـى فـي كاراكاس؟ كان مستحيلاً بالنسبة إلي أن أقاتل بشكل أعمى. إنها ستكون كارثة علينا وعلى الناس. إنها معركة سنستخدم فيها الأسلحة الثقيلـة التـي كنـا نملكها [في المتحف] فـي لا بلانيسي، المحاط بالأحياء المدنيّـة، ومـن دون أي فرصـة لتحقيق أهدافنا. بإمكانك الاستمرار في القتـال عندمـا تملـك فرصة فـي تحقيق غايتك، ولكن أن تقاتل من دون أمل، أن تقتل أو تموت، فهذا ليس من الصواب في شيء.

أخبـر تشافيـز سانتيليـز بشروطـه من أجل الاستسـلام، وهي أن تحترم الحكومة حياة المتمردين والناس في الأحياء الفقيرة. وأن تسمح له بزيارة مواقع استراتيجية في المدينة كي يخبر مؤيديه بوجوب إنهاء القتال. فوافق سانتيليز وأقفل تشافيز الخط.

حضَّر تشافيز نفسه للاستسلام وأمر جنوده بالانتظام في صفوف وتسليم أسلحتهم. ثم عانق الضباط وحيّا الجنود واستعد للمغادرة. لكنه احتفظ بمسدس وبندقية هجومية وقنابل يدوية للدفاع عن نفسه، لاعتقاده بأن الجنود الموالين للحكومة كانت لديهم أوامر بقتله. وصل سانتيليز قرابة الثامنة صباحاً وبعد ذلك بقليل غادر الاثنان. ولمدة ساعتين تقريباً جال تشافيز وسانتيليز بالسيارة في مدينة كاراكاس كي يعلم مؤيديه بانتهاء التمرد. وعند كل توقف، كان تشافيز يدلي بخطاب قصير يقول فيه إن الرجال قاتلوا ببسالة باسم بوليفار، ولكن لم يكن بالإمكان تحقيق أهدافهم في الوقت الحالي ثم يطلب منهم إلقاء أسلحتهم.

وصل تشافيز وسانتيليز إلى وزارة الدفاع قرابة العاشرة صباحاً. وكان هناك حشد من الجنود بانتظارهما. وقد حيَّاه بعضهم بعد دخوله المبنى، فاعتبر ذلك موافقة ضمنية على ما فعله. وصعدوا إلى الطابق الخامس حيث يوجد مكتب أوتشوا – الذي كان ما يزال في ميرافلوريس – وألقى التحية على أحد الضباط وقال بأنه جاء ليعلن استسلامه. سلَّم المسدس والبندقية والقنابل اليدوية وجهاز الإرسال وجلس على أريكة في المكتب. طلب من أحد الجنود أن يأتيه بفنجان قهوة وبعض السجائر. كان عصبياً، ومحبطاً. «الاستسلام أسوأ من الموت. عندما استسلمت، قلت لرجالي بأنني كنت أفضل الموت، أعني أنني كنت أتشظى إلى قطع متناثرة».

بينما كان يسحب الأنفاس من سيجارته، استمع تشافيز إلى بعض الجنرالات والضباط الموجودين في الغرفة وهم يناقشون كيفية إنهاء آخر فلول المقاومة. كان بعضهم يطلق الأوامر بهياج على الهاتف. كانوا يريدون إنهاءها بحلول الظهيرة. وعندها علم تشافيز ببعض التفاصيل عما كان يجري في بقية المدن في البلاد. غادر أرياس زوليا بالطائرة إلى كاراكاس للاشتراك في المفاوضات. واستسلم تشيرينوس في لا كارلوتا. لكن أوردانيتا كان ما يزال يقاتل في ماراكاي رافضاً الاستسلام. فتذكر تشافيز كلماته التي قالها قبل عشر سنوات عندما أسسوا مجموعتهم EBR، وهي الكلمات نفسها التي رددها قبل يوم واحد من بدء التمرد: «إذا فشلنا، فلن أستسلم. سأقاتل حتى الموت». كان واضحاً أنه عازم على البر بوعده، لأنه قطع كل الخطوط الهاتفية في موقعه في ماراكاي.

كان الجنرالات في مكتب أوتشوا يصرخون على الهاتف طالبين بأن تبدأ الطائرات الحربية بقصف القاعدة العسكرية في ماراكاي. فاحتج تشافيز قائلاً: كيف يمكنكم قصفها إذا كنا قد أعلنا استسلامنا؟ وسألهم إذا كان بوسعه الاتصال بأوردانيتا كي يطلب منه إلقاء أسلحته. لكن الخطوط الهاتفية كانت مقطوعة. ثم سألهم إذا كان باستطاعته الطيران إلى ماراكاي للتحدث إلى أوردانيتا شخصياً. لكن الجنرالات رفضوا ذلك أيضاً، لأن الكثير من الطائرات كانت تحلق في الجو، وهناك احتمال بأن يتعرضوا لإطلاق النار.

فعرض عليهم تشافيز فكرة أخرى: أن يظهر على إحدى المحطات ويطلب من رفاقه إلقـاء أسلحتهـم. حتـى إنـه كان يعرف أي محطة سيستخدمها، إنها راديو أبولو، وهي محطة محلية في ماراكاي تحظى بشعبية بين الجنود في الثكنات العسكرية.

أعجبتهم الفكرة. بل واقترحوا استخدام التلفزيون أيضاً. بحثوا الأمر مع أوتشوا الذي استشار بدوره بيريز. فوافق الأخير. لكنه أصر على أن يكتب تشافيز ما يريد قوله وأن تسجله المحطات التلفزيونية حتى يتمكن المسؤولون من اقتطاع أي شيء لا يرغبـون فيـه قبـل بثـه. كان بيريـز يريد أيضاً أن يظهر تشافيز كسجين مقيّد بالأغلال ومـن دون بزّتـه الرسميـة. أرسـل أوتشوا الخبر إلى فورت تيونا، لكن تشافيز رفض كتابة بيانه مؤكداً بأنه سيطالب رفاقه بالاستسلام وحسب. على أي حال، كانت السلطات تعتقـد بـأن ليسـ هنـاك وقتاً كافياً لتسجيله. وبالإضافة إلى ذلك، فالوضع في ماراكاي كان بالغ الحساسية. وكان لا بد من بث الرسالة على الهواء مباشرة. فأعطاهم أوتشوا موافقته، من دون أن يخبر بيريز بالأمر.

عندما كان القادة العسكريون يجرون اتصالاتهم مع المؤسسات الصحفية ومحطات التلفزيـون، كان تشافيـز يفكـر فـي الجنرال مانويل نورييغا عندمـا اعتقله الأميركيون بعـد غـزو بانامـا فـي كانون الثاني 1989. ظهر نورييغا بذقن غير حليقة وقميص (تي شيرت) مجعد. كان يبدو مثل مجرم. وهذا بالتحديد ما كان تشافيز يريد تجنبه. كان يريد الظهور بشكل يحفظ له كرامته. فذهب إلى الحمام وغسل وجهه، ورتب بزّته، واعتمر قبعة المظليين الحمراء أيضاً. لم يرغمه الضباط على تغيير بزّته القتالية المموهة كما أمر بيريز. بعد ذلك مشى تشافيز إلى غرفة محتشدة بالمراسلين الصحفيين ونظر إلـى مجموعـة كبيـرة من الكاميرات التلفزيونية. ثم تحدث بنبرة واثقة مكرراً الخطاب القصير نفسه الذي قاله لمؤيديه من قبل، ولم يدم بيانه سوى اثنتين وسبعين ثانية:

> أولاً: أريد أن أتمنى صباحاً سعيداً لكل شعب فنزويلا. هذه الرسالة البوليفارية موجهة إلى الجنود الشجعان كلّهم في فوج المظليين في أراغوا وفـوج الدبابـات فـي فالنسيـا. أيهـا الرفـاق، لسوء الحـظ، في الوقت الحالي، إن الأهداف التي وضعناها لأنفسنا لم تتحقق في العاصمة. أي أن المجموعة الموجودة هنا في كاراكاس لم تستولِ على السلطة. أينما كنتم، لقد أبليتم بلاء حسناً، لكن الوقت للتفكير الآن. ستأتي فرص جديدة والبلد ماضٍ حتما نحو مستقبل أفضل.
>
> لـذا، أصغـوا إلـى ما سأقوله، أصغوا إلى القائد تشافيز، الذي يبعث إليكـم هـذه الرسالـة. أرجوكم أن تفكروا وتلقوا أسلحتكم، لأن الأهداف التـي وضعناهـا لأنفسنـا علـى المستوى الوطني لـم نتمكن، في الحقيقة، مـن إنجازهـا. أيهـا الرفاق، أصغوا إلى رسالة التضامن هذه. أنا ممتن

لإخلاصكم، لشجاعتكم، لكرمكم نحوي. أمام البلد وأمامكم، أنا أتحمل مسؤولية هذه الحركة العسكرية البوليفارية. أشكركم شكراً جزيلاً.

خرج من الغرفة وتوجه عائداً إلى مكتب أوتشوا وهو يشعر بأنه فشل فشلاً ذريعاً. «كنت منهاراً وأحسست بأنني مهزوم كلياً. أعني أنني كنت أعتقد بأنني ارتكبت أكبر إخفاق في القرن. فبالإضافة إلى الاستسلام وفشل الخطة، كنت مضطراً للطلب من الآخرين أن يستسلموا. جلس سانتيليز إلى يميني وصافحني. كان ذلك عظيماً يا رجل، ما قلته! فقلت له، ماذا تعني بالعظيم، أنني طلبت الاستسلام؟ فأجابني أنت قلت في الوقت الحالي. لم أدرك ما قاله حينئذ. لكنني أتذكر بأنني قلت له، ربما سيحذفونها. فقال، لا، لقد بُثّت وانتهى الأمر. كان ذلك بثاً حياً».

كان ظهور تشافيز أشبه بقنبلة. لقد أسر ذلك الضابط الشاب الشجاع بقبعته الحمراء الأنيقة على الفور قلوب ملايين الناس الذين لم يسمعوا باسمه من قبل والذين كانوا يتساءلون في أنفسهم عمن قاد ذلك التمرد المذهل. بدأ تشافيز باستحضار رمز سيمون بوليفار بما يحمله من قدسية وطنية. ثم أقدم على شيء غير مألوف في بلد يحاول الجميع فيه تجنب تحمل المسؤولية؛ لقد حمَّل نفسه مسؤولية الإخفاق بقوله «أنا أتحمل مسؤولية هذه الحركة العسكرية البوليفارية».

كما أشار بكلمتين فقط – في الوقت الحالي –إلى أن الثورة لم تنته بعد. وهاتان الكلمتان بدتا للكثير من الناس وكأنهما تعهد بأن الثوار سيعودون يوماً ما. إنهم لم يحققوا أهدافهم في الوقت الحالي وحسب. وعلى الفور تحولت الكلمتان إلى أكثر الشعارات شعبية في الشارع الفنزويلي، ومع الوقت أصبحتا جزءاً من قاموس الفنزويليين الدائم.

منذ سنوات طويلة والفنزويليون ينتظرون شخصاً ما يأتي لإنقاذهم، بوليفار عصري ينتقم من السياسيين الفاسدين ويضع البلد على طريق الازدهار. والآن يبدو أن رجلهم وصل فعلاً. تقول ليزا سوليفان، وهي مبشرة كاثوليكية في جمعية Maryknol التبشيرية الأميركية تعمل في فنزويلا منذ وقت طويل، ثم تزوجت من فنزويلي وتعيش الآن في أحد أحياء باركويزيميتو: «دخل هوغو تشافيز قلوبنا في ذلك اليوم ولم يغادره أبداً».

يبدو أن أوتشوا ارتكب خطأً فظيعاً سيندم عليه طويلاً، حيث يقول: «كان الخطأ الأكبر هو السماح لهوغو تشافيز بالظهور كبطل – بدلاً من تقديمه كمجرم عسكري خان المؤسسات وهُزم – ثار على حكومة ظالمة وفاسدة، وهذا ليس صحيحاً. فهي كانت حكومة دستورية ارتكبت الأخطاء مثل كل الحكومات لكنها كانت تُصنَّف ضمن ما يُسمى التطور الديمقراطي في فنزويلا... كان خطأً سياسياً أن نسمح له بالظهور على الهواء مباشرة. لم أتخيل أبداً بأنه سيولِّد هذا التأثير السياسي الذي ولَّده».

في ماراكاي، كان الجنود مسمَّرين أمام شاشة التلفزيون في الثكنات عندما ظهر تشافيـز. استدعـوا أوردانيتـا الذي أُصيب بالدهشة والغضب عندما شاهده. فهو لم يكن يريـد الاستسـلام. لكنـه كان يعـرف بأن ليس أمامه خيار آخـر، فأعلن استسلامه بعد ذلـك بفتـرة قصيـرة، وكانـت الساعة تقترب من منتصف الظهر. وبعد نحو ساعة حط أرياس فـي كاراكاس وعلـم على الفور بأن تشافيز استسلم، وطلب من الآخرين إلقاء أسلحتهـم. وهكـذا، بعـد عقـد من التحضير، جاءت الثـورة البوليفارية وانقضت خلال أربع وعشرين ساعة فقط.

بالطبـع، لـم يهلـل الجميع لتشافيـز والثوار، الذين ألقوا الرعب في نفوس الطبقة المتنفـذة الثريـة ومعظـم الحكومـات الأجنبية. فقد عقد البرلمـان جلسة طارئة في ذلك الصبـاح، وانتقـد السياسيـون تشافيـز بشدة، وأطلقوا سلسلة مـن البيانات النارية حول الحاجة للدفاع عن الديمقراطية.

في أحد أشد الخطابات عنفاً، صرَّح ديفيد موراليس بيللو، وهو نائب بارز من حـزب العمـل الديمقراطـي، قائلاً: «المـوت للانقلابيين!». ولم تكـن المشاعر خارج فنزويـلا أفضـل حـالاً. فهـا هو الرئيس جورج بوش الأب يصـف الرئيس بيريز بأنه واحـد مـن الزعمـاء الديمقراطييـن الكبـار في ذلك النصف من الكـرة الأرضية. «هذا الانقلاب العسكري غير الشرعي والمثير للاشمئزاز ينبغي حتماً أن يُدان من قبل الدول جميعهـا، وليـس فـي نصف كرتنا فحسـب». وحتى فيدل كاسترو، الذي لم يسمع أبداً بتشافيز من قبل – لكنه سيصبح معلمه لاحقاً – دافع عن بيريز.

لكـن، كان هنـاك سياسـي فنزويلـي أخذ منحى آخر مختلفـاً تماماً. وهو الرئيس السابق رافائيل كالديرا – مهندس نظام *Punto fijo* (أي مكان آمن) – الذي أيد الانقلاب ورفضـ الفكـرة التـي تقـول إن المتمردين كانوا يهاجمون الديمقراطية. حيث قال بأن ممارسة فنزويلا للديمقراطية خذلت الشعب. وألقى اللوم على الرئيس بيريز وبرنامجه الاقتصادي النيوليبرالي في المشاكل التي حدثت مع القوات المسلحة. كما نوَّه إلى أن الجماهير لم تتدفق إلى الشوارع للدفاع عن الديمقراطية بالطريقة نفسها التي نزلوا فيها مؤخـراً فـي أوروبـا الشرقية والفيليبين والجزء الجنوبي من أميركا الجنوبية *Southern Cone* وساحة تيانان مين في الصين. في الحقيقة، بعد خطاب تشافيز القصير الذي كان بحق خطاب الساعة، يمكن القول إن حديث كالديرا يستحق المرتبة الثانية بجدارة:

> مـن الصعـب أن نطلـب مـن النـاس أن يضحـوا بأنفسهـم من أجل الحريـة والديمقراطيـة فـي حين أنهم يعتقدون بـأن الحرية والديمقراطية غير قادرتين على إطعامهم وإيقاف الارتفاع المفرط في تكاليف المعيشة. عندما لا تكونان قادرتين على وضع حد لحلقة الفساد الرهيبة التي قوَّضت

الشرعيــة الدستوريــة للبلــد، كمــا يرى الجميع بأم العيــن. فهذا شيء لا يمكن إخفاؤه.

هكذا، وبين ليلة وضحاها، أنعش خطاب كالديرا حياته العملية السياسية التي كانت فــي طريقهــا إلــى الــزوال. وبعد سنتين هجر كالديرا الحزب الــذي أسسه، COPEI، وترشح للرئاسة بدعم من حزب منشق، وانتُخب رئيساً للبلاد، كاسراً بذلك هيمنة حزبي AD–COPEI على ميرافلوريس للمرة الأولى. كما انتُخب أريستوبولو إيستيوريز من حزب القضية الجوهرية – وهو سياسي آخر أدلى بخطاب مشابه في ذلك اليوم – بمنصب عمدة كاراكاس (أول رجل أسود البشرة يحتل هذا المنصب).

خلال دقيقة أو أكثر بقليل فقط، قدَّم تشافيز واحداً من أكثر الخطابات أهمية في تاريخ فنزويلا. وهذا ما يؤكده أحد الصحافيين البارزين في فنزويلا، الذي كتب بعد عقد من ذلك الحدث: «الكثير من الاختصاصيين حللوا تلك الكلمات. لم يسبق أن أحدثت بضع كلمات فقط مثل هذا التأثير في الرأي العام الفنزويلي وعلى مستقبل الأحداث». لقد أصبح تشافيز بطلاً بين ليلة وضحاها. فبعد أيام من المحاولة الانقلابية، كان الزي الأكثر شعبية بين الأولاد خلال الاحتفالات الكرنفالية هو زيه العسكري وقبعته الحمراء. وفي شهر تشرين الأول ظهر كتاب حقق مبيعاً هائلاً لأنه كان يصور تشافيز ورفاقه كمنتقمين شجعان من الظلم ومدافعين عن الديمقراطية. وكان بعنوان **La Rebrlion de los Angeles**.

تسبــب الانقــلاب بمقتــل أربعــة عشــر جنديــاً وخمســة رجــال شرطــة ومدنــي واحــد، بالإضافــة إلــى عشــرات الجرحــى. واعتُقــل نحــو 1,089 جندياً – بينهم 130 ضابطاً – ووُجِّهــت إليهــم تهــم التحريضــ علــى العصيان والعنــف الإجرامي. وتُركت بعضــ الوحــدات العسكريــة بالكامل مــن دون قادة لأن جميع ضباطها كانوا متورطين في التمرد.

صحيح أن محاولة إسقاط بيريز فشلت، إلا أنها نجحت في رفع كولونيل مساعد مجهــول تمامــاً إلــى مصــافّ الشخصيات الوطنية البارزة. فقد حصل تشافيز، من قلب الهزيمة العسكرية، على نصر سياسي غير متوقع نهائياً. ومع أن أفعاله تركته عرضة للانتقاد من قبل بعض السياسيين المرتابين في مصداقيته الديمقراطية، إلا أنه خطا خطوة عملاقــة إلــى الأمــام فــي كفاحــه من أجل تحويل فنزويلا. فالبلد لن يكون أبداً بعد ذلك اليوم هو البلد نفسه الذي كان من قبل.

بينما كان تشافيز متوجهاً إلى السجن، كان يفكر في الخطوة التالية لدفع الحركة البوليفارية إلى الأمام، ذلك أن التخطيط للتمرد لم يكن قد توقف في الثكنات بعد.

الفصل الحادي عشر

السجن

نُقل تشافيز وبعض قادة الانقلاب الآخرون على وجه السرعة إلى مقر الاستخبارات العسكرية، وأمضوا فيه أسبوعين في زنزانات موجودة في قبو المبنى بينما كان المحققون يستجوبونهم. كانوا معزولين عن العالم. وكانت المصابيح مضاءة طوال اليوم وكاميرات الفيديو تراقب كل حركة يأتون بها. كما صادر الحراس أشرطة أحذيتهم وأحزمتهم منعاً لحدوث محاولات انتحار.

لم يكن المتمردون يعرفون إلا القليل عما يحدث في الخارج، إذ كانت الصحف ممنوعة، وكذلك مشاهدة التلفزيون، وفي الأسبوع الأول لم يُسمَح لأحد بزيارتهم. حاول تشافيز إبقاء معنوياته مرتفعة عن طريق الغناء في الزنزانة. لكنه مع ذلك كان محبطاً، إذ كان يعتقد بأن عقداً كاملاً من التخطيط انتهى بهزيمة مذلة. والأسوأ من ذلك هو أن بعض رفاقه - ومن بينهم أوردانيتا ورونالد بلانكو لا كروز - كانوا غاضبين منه لأنهم كانوا يحمّلونه مسؤولية إخفاق الانقلاب لفشله في الاستيلاء على ميرافلوريس.

بعد أسبوع من سجنه حصل تشافيز على أول زائر له وأول إشارة إلى أنه كان يُعتبَر بطلاً في الخارج. «أول إنسان دخل زنزانتي كان كاهناً، مرشداً روحياً يعمل في السجن العسكري. قدَّم لي الكاهن سراً إنجيلاً صغيراً. وعانقني ثم همس في أذني. اعتقدت بأنه سيقول لي شيئاً يرفع من معنوياتي الروحية. بيد أنه قال لي، ابتهج. ففي الشوارع أنت بطل».

بعد 17 يوماً من إقامتهم في القبو، حوَّلت السلطات تشافيز والآخرين إلى سجن سان كارلوس العسكري في وسط كاراكاس، وانضموا هناك إلى مئات الضباط الأقل رتبة منهم وبقية الجنود الذين شاركوا في الانقلاب. كانت تلك الرحلة بمثابة كشف في غاية الأهمية بالنسبة لتشافيز والآخرين؛ كان المؤيدون المهللون يملأون الشوارع. يقول جول أكوستا تشيرينوس: «عندما غادرنا الاستخبارات العسكرية إلى سجن سان كارلوس أدركنا بأننا أحدثنا أثراً حقيقياً، بأننا هززنا قواعد النظام نفسه. عندما نُقلنا في العربة ورأينا أولئك الناس كلّهم في الشوارع... حسناً، قلنا لأنفسنا، نحن مثل النجوم. والأمر لم يفشل كما اعتقدنا».

ظلت الحكومة غافلة من الناحية السياسية. فقد أرسلت تشافيز إلى سجن يقع في الشارع نفسه الذي تقع فيه المقبرة الوطنية التي تحوي قبر بطله سيمون بوليفار. لم تفت تشافيز هذه الرمزية بالطبع. فمنذ بداية أسره، استحضر ذكرى المحرر كمنارة

لثورتـه، كمـا ذكـر لأحـد الصحفيين من صحيفـة *El Nacional* نجح في إجراء مقابلة معه في سان كارلوس: «إن المؤسس الحقيقي لعملية التحرر هذه، والقائد الحقيقي لهذه الثـورة هـو سيمـون بوليفـار الذي أضاء الطريق بكلماته اللاهبة». كما وصف له كيف أنـه كان دائمـاً يرنـو ببصـره من نافذته إلى المقبرة ورفـات بوليفار. فالتقط الصحفي صورة له وهو يقف بهدوء وصفاء أمام نافذته.

انتشـرت شعبيتـه مثل النـار في الهشيم. وامتلأت الصحف والمحطات التلفزيونية والإذاعية بتقارير عما لا يمكن إخفاؤه أبداً، ألا وهو أن تشافيز أصبح بطلاً بين الناس. فهـذا طالـب فـي التاسعـة عشرة من عمره يخبر صحيفـة *El Nacional*، قائلاً: «بكت عمتـي عندمـا استسلمـوا. والجميع كانـوا مسرورين لأنهم أبطال. أعتقد بأنهم يجب ألا يُعاقَبوا، بل يجب أن يُعطَوا وساماً».

حـاول كارلوس أندرياس بيريـز تحجيم شعبيـة تشافيز المحلّقة فـي السماء من خـلال إلغـاء التغطيـة الإعلاميـة الإيجابية عنه. فبعد يوميـن من الانقلاب - الخميس 6 شباط - أرسل بيريز على وجه السرعة ستة من عناصر الأمن السياسي المرهوب الجانب للبحث عن مكاتب مجلة *Zeta*، التي وضعت صورة لتشافيز بقبعته الحمراء على غلاف أحدث أعدادها. وفي الداخل كتبت تقول إن «نسبة كبيرة جداً من الفنزويليين... كانوا يأملون بانتصار المتمردين». فصادر العملاء الأمنيون آلاف النسخ من المجلة.

في وقت لاحق من ذلك اليوم ظهر وزير الإعلام، أندرياس إلوي بلانكو، على التلفزيون محذراً وسائل الإعلام الإخبارية بأنها يجب أن تساهم في تهدئة الشعب عبر فرض رقابـة ذاتيـة مؤقتـة وإلا فستواجه عقوبات قاسية. لكن وسائل الإعلام تجاهلت التهديد، فنشرت في اليوم التالي المزيد من التقارير التي تصور الدعم الواسع للمتمردين وتنتقد حكومة بيريز الفاسدة.

شـدد بيريـز الإجـراءات القمعية، وصادرت الحكومـة 25,000 نسخة من مجلة *Elite*، لأنهـا بدورهـا وضعـت علـى غلافها صورة لتشافيز إلى جانب بيريز وزوجته بلانـكا. وفـي خطـوة غيـر مسبوقة منذ عهد الديكتاتـور ماركوس بيريز جيمينيز، أمر بيريـز بوضـع مراقبيـن في غرف الأخبار لمنع شبكات التلفزيون والصحف والمجلات من بث أو طبع صور تشافيز أو نشر مقالات تنتقد الرئيس.

لم يسمح عملاء الأمن بنشر طبعة يوم السبت من صحيفة *El Nacional* إلا بعد التأكـد مـن حـذف إعلانـات مدفوعة الأجر تهاجم الحكومة. كمـا أغار الأمن السياسي علـى صحيفـة *El Diario de Caracas*، التـي أعلمـت قراءها بأن إصدار يوم السبت سيحمل ملحقاً شاملاً مع صور حصرية للتمرد العسكري. فأمر العملاء الصحيفة بحذف الصور ثم صادرت الشرطة معظم نسخ الملحق.

عقـد بيريـز مؤتمـراً صحافياً يوم السبت للدفـاع عن الإجراءات القمعية. «عليكم ألا تنسوا أنه قبل أربعة أيام فقط كانت حياتي مهددة وأن ديمقراطيتنا كانت على حافة

النهايـة. لا تمجّـدوا الرجـل الـذي أقدم على الانقلاب العسكري. دعونا لا نصنع نجماً من مجرم خان القوات المسلحة وتسبب بالموت والأذى».

في تلك الليلة، أمر الرقباء الحكوميون *El Nacional* أن تحذف مقالة حول جنرال متقاعد اعتُقل بعد أن أقدمت مجموعة من اثنين وستين ضابطاً متقاعداً رفيعي المستوى على نشر إعلانات تحتل صفحات كاملة في صحف يوم الجمعة تهاجم الحكومة وتدعم المتمردين. ولقد منعت سيارات من البوليس السري شاحنات التوزيع من مغادرة مطبعة الجريدة حتى الواحدة بعد منتصف الليل، إلى أن أعطى الرقباء موافقتهم النهائية.

في صباح اليوم التالي، ظهرت *El Nacional* في أكشاك الصحف مع مساحة بيضاء واسعة على صفحتها الأولى حيث كان يُفترَض أن يُنشَر المقال.

فـي وقـت متأخـر مـن تلـك الليلة، قررت الحكومة إغـلاق *El Nacional* كلياً. فاقتحم عشرون رجلاً من الأمن السياسي مكاتب الصحيفة، بالكاد قبل أن ترسل عددها الجديد إلى المطبعة، وأمروا المديرين بإيقاف العملية. وكانت الصحيفة قد طبعت نحو 2,000 نسخة من أصل 120,000 نسخة كانت تطبعها في الحالة الطبيعية قبل أن يتمكن العملاء من إيقاف الإنتاج. فظهرت تلك النسخ في اليوم التالي مع فراغات بيضاء إلا مـن كلمـة CENSORED حيـث المقـالات المحذوفة. ولم تكن *El Nacional* الوحيدة التي تعرضت للرقابة بل الصحف الأخرى جميعها في المدينة.

لكـن، مـع انتقـاد الرقابـة المتزايدة، وعد بيريز في وقـت لاحق من ذلك اليوم برفـع القيـود. فانسحـب عمـلاء الأمـن السياسي مـن *El Nacional* التي ظلت مطوقة لمـدة تقـارب أربعـاً وعشريـن ساعة. فعادت الجريدة إلـى أكشاك بيع الصحف صباح الثلاثـاء مـع مزيـد من المقالات المنتقدة للرئيس. وعادت الصحف الأخرى إلى عملها بحرية بعد أربعة أيام من التقييد.

لكن الصحفيين كانوا غاضبين من القمع في بلد يُفترَض أنه قلعة الديمقراطية في أميـركا اللاتينيـة. فسـار فـي ذلك الصباح نحو مئة صحفي فـي شوارع المدينة باتجاه مبنى الكونغرس وهم يصيحون: «ديمقراطية مع رقابة تعني ديكتاتورية!». وهكذا أدت خطـوة الرئيـس الهادفـة لكبـح شعبية تشافيز المتنامية إلـى نتيجة عكسية تماماً. وبغض النظـر عـن كل محـاولات الرقابة الحكومية، فإن كره الناس لبيريز وإعجابهم بتشافيز كانـا واضحيـن وضـوح الشمـس. هذا مـا أوردته الأسوشييتد برس في ذلك الثلاثاء: «الغالبية الساحقة ممن أجريت مقابلات معهم في شوارع كاراكاس عبَّروا عن آرائهم السلبيـة تجـاه بيريـز وبرنامجه الإصلاحي المتعلق بالسوق الحرّة، في حين بلغ تشافيز مرتبة بطل شعبي».

مـع ذلـك، فقـد جـاءت أصـوات معدودة، وبخاصـة من الطبقة العليـا والدوائر الدبلوماسيـة، للدفـاع عـن بيريـز. مثل السفير الأميركي، مايـكل سكول، الذي مدح نسبـة النمـو الاقتصـادي الفنزويلـي في العام 1991 (9 بالمئـة)، ووافق على «وصف

الرئيس للمتآمرين الانقلابيين بأنهم مجموعة صغيرة من المتطرفين اليمينيين المتعجرفين الذيـن يملكـون آراء بعيـدة كل البعـد عـن آراء الناس». بحسب مـا نقلته صحيفة *The Christian Science Monitor*.

كمـا قـال كارلوس بينالوزا، الجنرال الذي لاحق تشافيز لسبع سنوات، لمراسل صحفـي آخـر بأنـه يشعـر بالقلق من شخصية المخلِّص الـذي يدَّعيها زعيم المتمردين. ثـم أضـاف بـأن تشافيـز «يعتبـر نفسه رجلاً مختـاراً من قبل الله، شخصـاً خطَّ قدَرَه سيمـون بوليفـار، وهـو ليس مستعداً لمشاركة السلطة مع أحد غيره». وادَّعى بينالوزا بـأن المتمرديـن أصـدروا بياناً من اثنتـي عشرة صفحة مع افتتاحية مقتبسة من توماس جيفرسـون: «إن شجـرة الحريـة يجـب أن تُروَى بدماء الوطنيين والمستبدين من حين لآخـر». كمـا زعـم بـأن تشافيـز وأنصاره كانوا يخططون لشنـق سياسيين مدنيين في الساحات العامة أو إعدامهم بواسطة فرق إعدام في الملاعب الرياضية. وعلى رأسهم بيريز نفسه.

قال بينالوزا لأحد المقدِّمين التلفزيونيين قبل أن تقتطع الرقابة حديثه عن الثوار: «إن الـذي لفـت انتباهـي هو مستـوى الكره. كانوا مقتنعين بأن الطريقة الوحيدة لغسل شرف الوطن المهان هي عبر حمام طقسي يستخدم دماء الرجال الفاسدين الذين أركعوا أمتنا...».

لكـن البوليفاريـين أنكـروا أنهم كانوا يخططون لإعدام أي شخص، وفي الواقع، قلة من الفنزويليين أثارتهم ملاحظات بينالوزا، على الأقل ليس في الأحياء الفقيرة. في هذا الخصوص، قال أحد الاقتصاديين لصحيفة نيويورك تايمز بصوت هامس إنه صُدم عندما «اشتكت لي سكرتيرتي، بعد يوم من الانقلاب، من فشلهم في قتل الرئيس».

بعد شهر من الانقلاب، كان صدى الفرح الغامر لثورة تشافيز ما يزال يتردد بين سكان الأحياء الفقيرة. ففي تظاهرة مسائية نظمَّتها منشورات مجهولة المصدر ومعلومات نُقلت شفاهاً، وقف الناس في أنحاء الأمة المختلفة عند نوافذهم أو على أبواب منازلهم وراحوا يقرعون على القدور وأدوات القلي منادين بحياة تشافيز ومنددين ببيريز. وقد انتشـرت التظاهـرة حتـى وصلت إلـى بعض الأحياء الثرية، كما فعلت إحدى المقيمات فـي حـي لامـس ميرسيدس الغني، حيث وقفت على بـاب منزلها وهي تصيح: «يعيش تشافيز! إن شعب فنزويلا معك!».

فـي تلـك الأثنـاء، طُليت حجرات الهواتف القليلة العاملة في كاراكاس – باستخدام علب الطلاء الرشاشة – برسائل مثل تشافيز إلى السلطة. وفي المقبرة، أضاء المعجبون شموعـاً علـى شـرف تشافيـز بالقـرب من قبر بوليفار. حتـى إنّ أحدهم ابتكر ما يلي: «تشافيزنـا الـذي فـي السجن، مبارك انقلابـك». أما السطر الأخير فيقول: «أنقذنا من الفساد المتفشي، وحرِّرنا من كارلوس أندرياس بيريز. آمين».

في بداية نيسان، نقله المسؤولون – في محاولة لكبح الهستيريا الناشئة حول شخصه – بالإضافة إلى تسعة آخرين من قادة التمرد إلى سجن أبعد في مدينة يار التي تبعد ساعتين تقريباً عن كاراكاس. لكنهم تفاجأوا عندما شاهدوا المناصرين مستلقين في شوارع العاصمة في محاولة لمنع العربات المصفحة من المغادرة حين نُقل المتمردون.

غير أن ترحيله لم يساعد كثيراً في تخفيف حدة الهيجان، إذ إن حشود المعجبين تبعت ببساطة تشافيز إلى يار. كانوا أشبه بمتدينين منوَّمين مغناطيسياً يتبعون مخلِّصهم. كان الناس يريدون أن يروه، أن يلمسوه، أن يتأكدوا من أنه حقيقي. حتى إن بعضهم كان يرتجف في حضوره. بينما كان آخرون يمسكون بثيابه أو يعطونه أوراقاً تحمل كلمات الإعجاب أو مناشدات بالمساعدة. لقد جلبوا له الأزهار، والثياب، والطعام، وثلاجة صغيرة، ومايكروويف، ومجموعة من الكتب. كما كانت النسوة الراغبات بإلقاء أنفسهن عليه يتدافعن في صفوف طويلة كي يكوننّ أول من يزوره في اليوم المخصص للزيارة. فيما كانت أخريات يرسلن له الرسائل من مختلف أنحاء البلد. في هذا الخصوص، تقول هيرما ماركسمان، بنوع من الشفقة، إن تشافيز تحوَّل إلى نجم غنائي، نجم سينمائي يوقِّع الأوتوغرافات كما لو أنه روك هدسون. باستثناء أن هذا النجم الغنائي كان يريد قلب المؤسسة السياسية في فنزويلا باسم ثورة من القرن التاسع عشر.

في الواقع، لقد ساعدته السلطات في تغذية أسطورته. حيث سمحوا له بالاحتفاظ ببزّته العسكرية وقبعته الحمراء، فكان يرتديها في مقابلات سرية مع صحفيين تمكنوا بطريقة ما من التسلل إلى السجن. كما وضعوه والآخرين في قسم خاص من السجن كان يُخصَّص في العادة للقاءات الزوجية بين نزلاء السجن وزوجاتهم. وكل متمرد منهم كان يملك غرفة خاصة صغيرة مع مرحاض. وفي الخارج كانت هناك ساحة نُصب فيها تمثال لبوليفار كان تشافيز يزوره يومياً.

غير أن الإعجاب المفرط الذي كان يتلقاه تشافيز لم ينزل بالدرجة نفسها على بقية المتمردين، بمن فيهم القادة. حيث تُرك أرياس كارديناس – الذي يملك عدداً كبيراً من الأتباع بين البوليفاريين والذي شارك في قيادة الحركة في أثناء الانقلاب – بعيداً عن دائرة الضوء بينما كان تشافيز يحلِّق نحو النجومية. ونشأت خلافات جدية بين الاثنين في صراعهما على القيادة وعلى الطريق الذي يجب على الحركة أن تسلكه.

عندما كان أوردانيتا – أحد الأعضاء المؤسسين في الحركة – في سان كارلوس، كان غاضباً بشدة من تشافيز بسبب فشل الانقلاب واحتمال البقاء لعقود في السجن. كما اقترح رونالد بلانكو لا كروز – النقيب الشاب الناري الذي كاد أن ينشق عن تشافيز في كانون الثاني ويبدأ انقلاباً خاصاً به – إجراء محاكمة عسكرية في سان كارلوس، قبل نقله إلى يار، لمحاكمة تشافيز بسبب إخفاق انقلاب 4 شباط. على أي حال، على

الرغم من كل ذلك، من المؤكد أن سجن المتمردين لعب دوراً هاماً في تقوية الحركة البوليفارية ووضعها على المسرح الوطني.

ملأ تشافيز غرفته الصغيرة بالكتب، وراح يدفن نفسه في القراءة خلال الأيام التي لم يكن يُسمَح فيها بالزيارات. ومع وجود الكثير من الوقت للقراءة والتأمل، بدأ التفكير بعمق في الأسس الوطنية لفلسفته السياسية، وقد ساعده على ذلك بعض المنارات اليسارية المضيئة.

بعد مجزرة كاراكاس، شكلت مجموعة من المدنيين القياديين جبهة وطنية محاولين الاستفادة من الاستياء الواسع من حالة البلد المتردية بغية وضعه على درب جديد. وهي وسيلة لعبت تاريخياً دوراً هاماً في فنزويلا في اللحظات الحاسمة، مثل تلك الجبهة الوطنية من المدنيين والعسكريين التي أسقطت ماركوس بيريز جيمينيز في العام 1958، والجبهة التي تشكلت أيام إيزيكويل زامورا في منتصف القرن التاسع عشر.

ترأس الجبهة الجديدة رجل يُدعى لويس ميكويلينا، وهو زعيم سابق لنقابة سائقي الحافلات وأحد كبار الباقين من اليسار في فنزويلا. انشق ميكويلينا عن الحزب الشيوعي الفنزويلي في الأربعينيات وأسس في العام 1946 حزباً شيوعياً خاصاً به كان معادياً للستالينية، وأمضى معظم عهد الديكتاتور بيريز جيمينيز في السجن. لقد تعرَّض فيه لتعذيب مروع إلى درجة أن الكاتب الراحل ميغيل أوتيرو سيلفا جعله الشخصية المركزية في روايته **La Muerte de Honorio**، التي تتحدث عن حركة مقاومة ضد بيريز جيمينيز. لكنه بعد ذلك ابتعد عن الحياة السياسية وتابع حياته ليصبح رجل أعمال ناجح.

عندما برز تشافيز على الساحة السياسية في البلد، كان ميكويلينا قد أصبح مجهولاً بالنسبة لمعظم الفنزويليين. وبسبب افتتانه بتمرد تشافيز ودعوته لإنشاء مجلس دستوري، اتصل ميكويلينا به وزاره في السجن، ليصبح لاحقاً واحداً من أهم معلّميه السياسيين، فضلاً عن مساعدته في تمويل طموحاته الثورية. ضمّت جبهته دوغلاس برافو، الزعيم المتمرد السابق؛ ومانويل كويخادا، وهو مثقف يحمل شهادة في المحاماة من إيطاليا سُجن لتورطه في الثورات العسكرية-المدنية في العام 1962؛ ولينو مارتينيز، مقاتل متمرد سابق أصبح لاحقاً وزيراً في إدارة تشافيز؛ وويليام إيزارا، الثوري الماركسي الذي أسس مجموعة ARMA والذي استقال من القوى الجوية بعد سنوات من المضايقات من قبل رؤسائه.

لعب شقيق تشافيز الأكبر، أدان، دور الوسيط بينه وبين بعض أعضاء الجبهة الوطنية، ومن بينهم برافو الذي لم يكن بوسعه زيارته لأسباب أمنية. فكان أدان يهرّب الرسائل إلى السجن عبر لف قطع صغيرة من الورق ووضعها داخل قلم كان يدسه بين جوربه وحذائه.

خلال الفترة نفسها تقريباً التي تشكلت فيها الجبهة الوطنية، أنشأ بعض الأساتذة

التقدميين في جامعة فنزويلا المركزية في كاراكاس (UCV) مجموعتهم البحثية الخاصة. كانوا قد سمعوا بذلك الاعتقاد الشائع الذي يقول بأن رزمة الإجراءات الاقتصادية الصادمة (shock package) التي فرضها بيريز كانت الطريقة الوحيدة أمام فنزويلا لتصحيح مشاكلها الاقتصادية الكارثية. لكنهم لم يصدقوا ذلك، فبدأوا البحث عن البدائل. وبعد الانقلاب، قرروا الاتصال بتشافيز لاعتقادهم بوجود أهداف مشتركة بينهم. وكانت المجموعة تضم هيكتور نافارو، الذي سيصبح لاحقاً وزير التعليم في عهد تشافيز؛ وجاي جاي مونتيلا، الذي أصبح وزيراً للزراعة والأراضي؛ وأدينا باستيداس، الذي أصبح نائب الرئيس؛ وخورخي جيورداني، الذي شغل منصب وزير التخطيط وأصبح أحد أبرز المستشاريين الاقتصاديين لتشافيز.

وأصبح جيورداني – وهو رجل فكر طويل القامة مع نظارة ولحية بيضاء كان يبدو للبعض مثل بابا نويل نحيل – الزائر الأكثر تردداً على يار في المجموعة. وجيورداني هذا اقتصادي التّنمية تدرَّب في جامعة سوسيكس وكان الخبير الاقتصادي في حزب الحركة اليسارية نحو الاشتراكية (MAS). وقد طلب منه تشافيز – بعد أن أصبحا صديقين مقربين – أن يساعده في دراسته للعلوم السياسية التي كان يحاول نيل شهادتها في جامعة سيمون بوليفار المحترمة في كاراكاس. لكن الشيء الوحيد الذي كان تشافيز بحاجة إلى إنجازه، في الواقع، هو نظريته التي أوقف الانقلاب عمله عليها. وستصبح مجموعة UCV نوعاً من حكومة ظل بالنسبة لتشافيز في سجنه وبعده. كما سرَّعت عملها على مشروع كتابها **جامعة فنزويلا المركزية إلى البلد: اقتراح بديل**، الذي أصبح مرجعاً بالنسبة لبعض خطط تشافيز الأولى.

صحيح أن تشافيز ورفاقه تلقوا بعض الامتيازات الخاصة في يار، إلا أنهم لم يكونوا في إجازة شهر عسل على الرغم من ذلك. كانوا محتجزين في قسم يقع في الطابق الأول، وفوقهم ثلاثة طوابق مزدحمة بمساجين يعيشون ظروفاً مروعة. وبسبب عدم وجود مراحيض صالحة للاستعمال، كان السجناء مجبرين على التبرز على الجرائد والتبول في مرطبانات زجاجية. وبعد الانتهاء، كانوا يرمون الجرائد القذرة ويريقون البول من النوافذ على الأرض، فتسقط الفضلات بالقرب من القسم المخصص للمتمردين ناشرة الروائح الكريهة والذباب في المكان السيّئ التهوئة.

كانت الظروف في السجون الفنزويلية تشبه ظروف السجن في فيلم *Midnight Express*. إذ لم يكن للحراس سلطة كبيرة على النزلاء، الذين كانوا ينفذون عدالتهم الخاصة بهم. وفي أغلب الأحيان، كانوا يتجولون بحرية في أقسام الزنزانات حاملين معهم سكاكين كبيرة محلية الصنع تُسمى *chuzos*. وكان الاتجار بالمخدرات، والاغتصاب، والابتزاز، والضرب، والقتل أعمالاً شائعة في ذلك المكان. ذات ليلة، سمع تشافيز ورفاقه ضجة صادرة من الأعلى. كان هناك سجين يصرخ: «لا، لا،

لا»، لأنـه كان يتعرض للاغتصـاب مـن قبل بعضـ النزلاء الآخرين. بعد فترة، بدأ ذلـك السجيـن يصـرخ: «لا تقتلوني، لا تقتلونـي». ولإسكاته شق المعتدون حنجرته، فبدأ «يزعق مثل خنزير». بحسب فرانشيسكو أرياس كارديناس. بعد ذلك بقليل سمع المتمردون صوت انغراز السكاكين في جسد الضحية. ثم ساد الصمت لوهلة. لاحقاً، سمع تشافيز والآخرون صوت ارتطام شيء ما بالأرض . وفي صباح اليوم التالي، رأوا السكاكين ملقاة على الأرض.

في أثناء الاعتداء، صرخ تشافيز وأرياس كارديناس والآخرون بملء أصواتهم في الحراس كي يتدخلوا: «النجدة! أسرعوا! تعالوا وانقذوا هذا الرجل! إنهم سيقتلونه!». ولكـن، لـم يـأتِ أحـد منهم. وفي اليوم التالي اشتكـى أرياس كارديناس بغضب لأحد الحراس، فأجابه قائلاً بأنها كانت «عدالة داخلية» في السجن ولا حيلة له في الأمر. فأحس أرياس بالدم يغلي في عروقه.

حـاول تشافيـز والأخـرون بأقصـى استطاعتهـم التغلـب على ظـروف السجن، مستخدميـن انضباطهـم العسكـري. فكانوا يقرأون ويجـرون نقاشات سياسية ويهرِّبون التصاريح إلى الصحفيين. حتى إنّهم كانوا يعقدون جلسات للصلاة بين الحين والآخر، ويلعبون كرة القدم أو الطائرة في الساحة. كما زرعوا حديقة صغيرة بالفليفلة والطماطم والخيـار. أمـا بالنسبـة لتشافيـز الـذي لا يعرف التعب، فغالباً ما كان يسهر حتى وقت متأخر من الليل مستغلاً الوقت بالقراءة أو الرد على آلاف الرسائل التي كانت تصله. بينمـا كان رونالـد بلانكـو لا كروز - الـذي درس في مدرسـة الأميركيتين في فورت بينينغ، في ولاية جورجيا، وجامعة تروي - يعطي دروساً في اللغة الإنكليزية.

قسم كبير من دراسة تشافيز ونقاشه تركَّز حول فكرة المتمردين المتعلقة بالدعوة لإنشاء مجلس دستوري من أجل إعادة كتابة الدستور الفنزويلي. وقد أخذ تشافيز الفكرة جزئياً من الثورة الفرنسية وفكرتها عن السلطة الدستورية، أو السلطة الثورية كما كان تشافيز يراها. وهي فكرة غير مألوفة بالنسبة لكثير من الفنزويليين، لكنها ستساعد في نهايـة المطـاف علـى قلـب المؤسسة السياسية في فنزويـلا. وقد اعتمد المتمردون على بعضـ محاميهـم فـي تهريـب أشرطة تسجيل فارغة إلى داخل السجن ومن ثم إخراجها بعد تسجيل رسائل تشافيز عليها. بعد ذلك كانوا يوزعونها على حلفائه السياسيين الذين كانـوا يشغِّلونهـا فـي الباصات العامة. في تلك الأثنـاء، كانت وسائل الإعلام التجارية التي تسيطر عليها النخبة الحاكمة في فنزويلا قد بدأت تتجاهل تشافيز ورفاقه.

لكـن المتمرديـن كانـوا يواجهون أخطاراً أكبـر من مجرد تجاهل وسائل الإعلام لهـم، كأن يحـاول الأعـداء قتلهـم مثـلاً. وهذا ما دعا الأصدقـاء لتهريب الأسلحة إلى داخل السجن من أجل حماية أنفسهم. فكان المتمردون يخبئون المسدسات في أسرَّتهم أو بيـن ثيابهـم. بالإضافـة إلـى ذلك، كان الحراسـ يضايقونهم باستمرار، حيث كانوا يقذفـون الغـاز المسيـل للدموع داخل زنزاناتهم ويفتشون أغراضهم ويصادرون كتبهم

ووثائقهم، ويجبرونهم على البدء من الصفر مجدداً.

وعلى الرّغم من المضايقات، استمر تشافيز في تعميق حركته الثورية:

> أقول دائماً بأن السجن كان مدرسة. لأنه، قبل أي شيء آخر، يغذي الروح ويقوّي عقيدتك ويعمّق ضميرك. لقد تطورنا إيديولوجياً خلال تلك الأيام والليالي التي قضيناها في السجن، وذلك لأننا كنا سجناء ضمير، سجناء كرامة، سجناء وعي بما كنا نسعى إليه... لم أشعر أبداً بأنني سجين بالفعل، ولم أكن يائساً ولا منغلقاً على نفسي. بل شعرت بأنني حر في ذلك المكان الصغير لأنني قبل كل شيء كنت أستغل وقتي.

منذ الأيام الأولى تقريباً لدخول تشافيز السجن، بدأ العمل في الخارج على إيجاد طريقة لتحريره. وذات يوم زاره ملازم في الجيش دخل إلى سجن سان كارلوس ببطاقة هوية مزيفة، وكانت من بين أولى الزيارات التي حصل عليها في ذلك السجن. أخبره ذلك الملازم عن خطة لقلب الحكومة وتحريره من السجن. وكانت الخطة تقضي بأن تأتي مروحيات من ماراكاي التي تبعد نحو ستين ميلاً وتهبط في السجن وتخرجه منه. لكن تشافيز أقنعه بتأجيلها، ذلك أن حركته كانت تمر بحالة من الفوضى بعد الانقلاب، فضلاً عن أن فرص نجاح ثورة أخرى كانت غير واضحة.

لم يمضِ وقت طويل حتى تلقى تشافيز زيارة أخرى من كولونيل متقاعد في الجيش يُدعى هيجينيو كاسترو جاء ليعرض عليه خدماته. لكن تشافيز هذه المرة قال له إنه يرى ما يمكنه فعله مع المتمردين البوليفاريين الذين تمكنوا من تجنب السجن أو مع المنشقين الآخرين في الجيش. وسرعان ما أعدّوا الخطط لعدة عمليات تمرد. حتى إنّ إحداها كانت تستهدف قتل الرئيس بيريز في الخامس من تموز خلال استعراض عسكري بمناسبة ذكرى الاستقلال. لكن المتمردين في الجيش لم يكونوا منظمين بشكل كاف للقيام بتمرد، فلم تُنفَّذ أي من تلك الخطط.

كانوا بحاجة للمساعدة من قطاعات أخرى في القوات المسلحة. ولهذا السبب جعل تشافيز من كاسترو مبعوثه إلى الجيش. في تلك الأثناء، تلقى رسالة من لويس رييز رييز؛ الطيار العسكري الذي حاول الحصول على حلفاء في القوى الجوية كي يشارك في الانقلاب لكنه فشل في تحقيق ذلك. وقد أوصلها له ابنه هوغو إلى السجن. وتقول الرسالة: «كن مطمئناً. إننا نعمل. النقاش في الأحياء ينضج». ويقصد بالأحياء القوى الجوية، ففي حين تعرضت حركة تشافيز لضربة قوية بفشل الانقلاب، فقد نجا المتمردون في ذلك القسم من الجيش بسلام نسبياً.

طلب تشافيز من كاسترو أن يتصل برييز رييز، الذي اتصل بدوره بطيار آخر زميل له هو البريغادير جنرال إيفراين فرانسيسكو فيسكونتي أوسوريو. وكما ذكرنا

سابقاً، لقد تقابل تشافيز مع فيسكونتي ورييز قبل يوم واحد من انقلاب 4 شباط لكنه لم يستطع إقناع فيسكونتي بالانضمام إلى التمرد في تلك الفترة القصيرة، مع أنه كان يشارك تشافيز رغبته بإسقاط النظام السياسي في فنزويلا.

أمضى فيسكونتي جزءاً كبيراً من السبعينيات والثمانينيات منهمكاً في العمل مع مجموعة ويليام إيزارا الانقلابية في القوى الجوية (ARMA). كما التقى مدنيين من أمثال دوغلاس برافو ونظَّم خلية سرية خاصة به من الطيارين. والآن، بعد فشل انقلاب 4 شباط، وتخلخل قبضة بيريز على السلطة، وجد فيسكونتي أن الفرصة سانحة للقيام بتمرد آخر.

هذا ما كان يعتقده أيضاً بعض الضباط في سلاح البحرية، ومن بينهم الأدميرال هيرنان غروبر أودريمان، الذي اتصل به فيسكونتي ورييز بعد فترة ليست بطويلة من لقائهما مع هيجينيو كاسترو وبقايا مجموعة تشافيز MBR-200. وسلَّم فيسكونتي القيادة الكاملة على العملية إلى غروبر لأنه كان الضابط الأعلى رتبة فيهم. وبالمقارنة مع تمرد 4 شباط الذي نُفِّذ من قبل مجموعة من الكولونيلات المساعدين الشبان، فإن هذا التمرد سيقوده جنرالات وأدميرالات واسعو الخبرة.

ظل تشافيز على تواصل معهم، حيث كان يتلقى رسائل أو تسجيلات للاجتماعات التي تعقدها المجموعات من أجل التخطيط للانقلاب، لكنه ترك مسألة التخطيط لهم بما أنه كان محجوزاً في سجنه. وفي هذا الخصوص، قال للمقدم التلفزيوني أغوستين بلانكو ميونوز: «لقد تعاونا في بعض الأفكار لكننا كنا نشعر دائماً بأنهم يملكون المقدرة العسكرية الكافية على تخطيط وتنفيذ العملية. قبل ذلك الموعد في تموز (الانقلاب الذي ألغي ضد بيريز)كان هناك اتصال بين المجموعتين، الأشخاص الموجودون في الخارج ونحن، ولكن بعد ذلك تركنا لهم القيادة... لم أتعامل مع تفاصيل الخطط مطلقاً. لم أعرف عنها شيئاً».

لكن مساندة تشافيز لانقلاب آخر لم يلقَ الدعم نفسه من رفاقه في السجن جميعاً. فقد عارض أرياس كارديناس الفكرة بقوة، ذلك أنه كان يعتقد بأن الوقت قد فات على القيام بانقلاب عسكري، وأن على المتمردين أن يتبعوا طريقاً سلمياً بدلاً من التمرد المسلح. كما أنه كان يعتقد بأن المتمردين لم يعودوا يملكون قوة كافية في الجيش للقيام بانقلاب آخر. غير أن تشافيز كان يخالفه الرأي، فهو كان على يقين بأن النظام السياسي في فنزويلا ما هو إلا لعبة مزيفة تتحكم بها النخبة السياسية. ولن تزيل قبضتهم على السلطة إلا ثورة عسكرية-مدنية مشتركة.

كان ذلك هو الخلاف الأكبر الذي وقع بينهما في السجن، والذي يشير إلى اختلافاتهما بشأن المنحى الذي ينبغي على الحركة البوليفارية أن تنحوه. فتنازع الرجلان بشدة. وقد ازداد الشقاق بينهما أكثر عندما نصح لويس ميكويلينا، توأم تشافيز الجديد، المجموعة بضرورة أن يكون القائد هو نجم المجموعة كي يستقطب

اهتمام العامة، وأنه يتوجب على الآخرين أن يبقوا في الظل. وفي إحدى المرات، أصدر أمراً لأرياس كارديناس بأن يلزم الصمت أمام وسائل الإعلام.

مرت المؤامرة الجديدة بفترة برود في آب وأيلول من العام 1992. لكن المتمردين لن يقدروا على الانتظار إلى الأبد. كانت الدولة على موعد مع انتخابات حاكمي الولايات ورؤساء البلديات المحلية في 5 كانون الأول. وقبل الانتخابات بأسبوع، أي في 5 تشرين الثاني، كانت ستبدأ دورات تدريبية تحضيراً للاستعراض الجوي السنوي الذي سيجري في 10 كانون الأول. ولهذا الغرض ستتركز معظم الطائرات الحربية التابعة للقوى الجوية في قاعدة المحرر الجوية في ماراكاي. فقرر المتمردون بأن تلك هي فرصتهم.

في ليلة الخميس 26 تشرين الثاني، وصل إلى تشافيز خبر مفاده أن التمرد بات وشيكاً. وكان ولده هوغو قد هرَّب جزءاً من جهاز إرسال إلى السجن فيما أدخل الجزء الآخر ابن رييز رييز. قام المتمردون المسجونون بوصل الجزئين معاً واتصلوا ببعض المعارف وتلقوا تأكيداً بشأن التمرد. وفي الليلة التي كانوا يتوقعون فيها قدوم المتمردين لانتشالهم من السجن، ارتدى تشافيز وأرياس كارديناس -الآن وقد سلَّما بحتمية الانقلاب - والبقية في يار زيهم القتالي ووضعوا نوبات حراسة ليلية لتنبيه بعضهم عند قدوم المنقذين. «أتذكر بأن أرياس وأنا بالكاد نمنا في تلك الليلة. وقرابة الخامسة صباحاً سمعنا على الراديو بأن التمرد قد بدأ».

لقد تعلَّم متمردو 27 تشرين الثاني بعض الدروس من انقلاب 4 شباط الفاشل. فبدلاً من البدء بالتمرد في منتصف الليل، انتظروا حتى الرابعة والنصف صباحاً، ذلك أن القوة الجوية ستلعب دوراً جوهرياً فيه، ولهذا السبب فهم كانوا بحاجة إلى ضوء النهار لرؤية أهدافهم ولإعطاء المؤيدين من المدنيين الفرصة للنزول إلى الشوارع أيضاً. كما تحركوا بسرعة للسيطرة على وسائل الإعلام حيث استولوا على الهوائي الذي يرسل الإشارة لثلاث محطات تلفزيونية رئيسية. وبالإضافة إلى ذلك، قاموا بشراء معدات اتصالات غالية الثمن حتى لا يتعرَّضوا لما تعرَّض له تشافيز في المتحف العسكري.

كانت بداية التمرد ممتازة. حيث سيطر المتمردون على القواعد الجوية الرئيسية، بما فيها قاعدة المحرر في ماراكاي، مسيطرين بذلك على الأجواء إلى حدٍّ كبير. وفي إحدى اللحظات، دخل رييز رييز إلى وادي كاراكاس بطائرة F-16 مخترقاً جدار الصوت للمرة الأولى في العاصمة ومثيراً الهلع في نفوس المواطنين الذين سمعوا صوت زجاج نوافذهم يهتز بينما كانت الطائرة النفاثة تطير على علو ثلاثة آلاف قدم فوقهم؛ مستوى السلامة الاعتيادي الأدنى هو عشرة آلاف قدم.

على الأرض، استولى المتمردون على القناة الثامنة الحكومية في شرق كاراكاس بعد معركة دموية. ومع ذلك، لم يُبَث شريط الفيديو الذي صوره غروبر معلناً بدء

التمرد وداعياً الناس للثورة، فالشريط الذي بُث هو الذي سجَّله تشافيز قبل بضعة أشهر في السجن. والأسوأ من ذلك هو ظهور فيديو آخر لرجال مقنَّعين يحملون الأسلحة ويتحدثون بلغة عنيفة وبذيئة محرضين الفنزويليين على حمل الهراوات والزجاجات والأسلحة المنزلية الصنع من أجل إسقاط الحكومة. لكن القليل منهم لبوا النداء، ذلك أن صور أولئك الرجال الذين يشبهون المجرمين ألقت الرعب في نفوس الناس، الذين لم ينسوا بعد مشاهد العنف المروعة في مجزرة كاراكاس. وحتى يومنا هذا، لا يعرف المتمردون كيف بُثَّ هذا الفيديو على الهواء.

على الرّغم من أن الطيارين المتمردين سيطروا على الأجواء بسرعة كبيرة، إلا أن الجيش بالكاد كان حاضراً على الأرض. وكان الدعم الأرضي ضرورياً جداً، بما أن المتمردين لا يستطيعون الاستيلاء على ميرافلوريس والأهداف الأخرى بالطائرات وحدها. غير أن الجيش كان منقسماً على ذاته، فلم يتمكن من تنسيق جهوده.

لكن، حتى القوة الجوية عانت من بعض المشاكل. فبعد استيلاء المتمردين على القاعدة الجوية في ماراكاي - قبل الفجر بقليل - قاد أحد الطيارين طائرة F-16 وطار بها إلى باركويزيميتو في وسط فنزويلا. ثم خاض هذا الطيار، الذي كان يعمل بتوجيهات من الحكومة، معركة جوية مع الطائرات المتمردة بينما كان المواطنون المصدومون يراقبون المشهد من الأسفل.

بحلول التاسعة صباحاً تقريباً، أدرك المتمردون في القوة الجوية بأنهم كانوا وحدهم في المعركة. وفي الوقت نفسه تقريباً، أسقطت القوات الموالية للحكومة أول طائرة متمردة في ماراكاي، لكن الطيار قذف بنفسه، ونجا من الموت. وعندها أدرك المتمردون بأن الحكومة قررت القتال.

بدافع من الغضب، غيَّر المتمردون خططهم الأصلية. فقصفوا بالصواريخ المقر الرئيسي للأمن السياسي في كاراكاس. وألقوا القنابل على قصر ميرافلوريس، محدثين حفرة بعرض ستين قدماً في جدار المبنى الأبيض المشيَّد وفق الطراز البريطاني الاستعماري وحفراً كبيرة في الشوارع. وفي ذروة القصف، قيل إن بيريز البالغ من العمر سبعين عاماً زحف على يديه وركبتيه إلى ملجأ تحت الأرض ومنه قام بحشد الوحدات الموالية له التي ردَّت بمهاجمة المزيد من طائرات المتمردين.

وبما أن جزءاً من خطة الانقلاب كانت تهدف إلى تحرير تشافيز ورفاقه، فقد توجه بعض الضباط برفقة مجموعة من المدنيين إلى السجن في ذلك الصباح بغية إنجاز المهمة. وقد ذهب الضباط في شاحنة وكان الآخرون يتبعونهم عن قرب. لكن قوة أكبر وأكثر عتاداً من الحراس والجنود تصدت لهم وأرغمتهم على التّراجع. وفي أثناء القتال أطلق الجنود صاروخاً انتزع رأس أحد المحررين عن جسده.

على الرّغم من أن المتمردين في هذا الانقلاب قاموا بعمل أفضل مما قامت به قوات تشافيز في السيطرة على وسائل الإعلام، إلا أنهم تركوا لبيريز منفذاً وحيداً،

إذ إنهم فشلوا في الاستيلاء على القناة التلفزيونية العاشرة. وفي تكرار لما حدث في 4 شباط، توجه بيريز إلى هذه القناة وأعلن أنه ما زال ممسكاً بزمام الأمور في البلد وأن التمرد قد فشل. وعند منتصف النهار أعلن غروبر استسلامه. وفي الوقت نفسه تقريباً استولت الحكومة على قاعدة لا كارلوتا الجوية في كاراكاس. وفي الثانية ظهراً استولت على قاعدة ماريسكال سوكري في ماراكاي. وبحلول الثالثة من بعد الظهر، أدرك المتمردون في قاعدة المحرر المجاورة أن دورهم قد جاء.

كانت القوات البرية الحكومية تحاصر القاعدة الجوية بالدبابات وتستعد لاقتحامها. فاحتشد المتمردون في طائرتين من طراز C-130 كانتا موجودتين داخل أحد الهنغارات وانطلقوا عبر مدرج مخصص للطوارئ تاركين وراءهم مروحيات ما تزال تدور ولكن من دون أي طيارين في داخلها. في البداية، لم يكونوا يعرفون إلى أين سيذهبون. لكن فيسكونتي قرر وهم في الجو أن البيرو هي الوجهة المثلى، وذلك لأن حكومتها قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع حكومة بيريز، ولهذا السبب فمن المرجح أن تمنح المتمردين الثلاثة والتسعين اللجوء السياسي. وهكذا توجهوا إلى ليما، لكنهم اضطروا إلى الهبوط قبل الأوان في مدينة إيكويتوس الأمازونية بسبب مشكلة في المحرك.

وعلى الرّغم من الاحتياطات ومجموعة القوى المتحالفة - قوى جوية وبحرية وبرية، وحرس وطني، بالإضافة إلى مجموعات هامة من المدنيين، من بينها الجبهة الوطنية وأساتذة جامعة فنزويلا المركزية ومجموعة دوغلاس برافو الطريق الثالث، وحزب القضية الجوهرية، ومجموعة بانديرا روجا اليسارية المتطرفة - إلا أن المحاولة الانقلابية انتهت بفشل ذريع. وكانت حصيلة القتلى 171 شخصاً. وتبين في نهاية المطاف أنها أسوأ بكثير من انقلاب 4 شباط.

بعد عشرة أشهر من المحاولة الانقلابية الثانية ومع بلوغ البلد حافة الهاوية، رفض بيريز بعناد الدعوات المطالبة باستقالته. حيث قال في أحد تصريحاته: «إن وجودي في الحكم ضمانة للاستقرار الديمقراطي». على الرغم من أن العكس هو الصحيح. وذات يوم، وبينما كان يقود بعض المراسلين الصحفيين في جولة حول القصر المغربل بالثقوب الناتجة عن الرصاص، صرخ بعض المتفرجين: «بيريز، اخرج من هنا!».

كانت رياح التغيير واضحة في الانتخابات التي جرت بعد بضعة أيام فقط. حيث فاز معلم جغرافيا مغمور ومحارب للفساد يُدعى أريستوبولو إيستوريز من حزب القضية الجوهرية بمنصب رئيس البلدية في كاراكاس، منهياً بذلك الهيمنة الطويلة لحزبي العمل الديمقراطي وCOPEI في هذا المنصب. «إن طريقة حديثه المشحونة بالعاطفة وظهوره وحدهما - إنه أسود البشرة - تسببا بصدمة قوية للنظام السياسي والنخبة الفنزويلية البيضاء عموماً، التي لا تزال تجد لذة في إطلاق النكات العنصرية».

كان الفنزويليون تواقين للتغيير إلى درجة أنهم انتخبوا ملكة جمال كرئيسة بلدية في مقاطعة تشاكاو الغنية في شرق كاراكاس. ومع أن آيرين ساييز ملكة جمال العالم السابقة، الشقراء الفاتنة التي يبلغ طولها متراً وخمسة وثمانين سنتمتراً، كانت تفتقر إلى العمق والثقافة، كما يبين أحد التصريحات الذي أدلت به بعد فوزها بالانتخاب -ستجدون فيَّ دائماً صديقاً - إلا أنها سرعان ما أصبحت واحدة من أكثر السياسيين شعبية في الأمة المهووسة بملكات الجمال.

مع وصول مبتدئين من أمثال ساييز وإيستيوريز إلى السلطة، أُصيب حزب بيريز، العمل الديمقراطي، بواحدة من أسوأ نكساته الانتخابية خلال عقود. فازدادت نسبة سيطرة المعارضة على منصب الحاكم في الولايات القوية من النصف إلى الثلثين. ولم يكن ذلك من دون سبب في الواقع، إذ على الرغم من أن العام 1992 اعتُبر - على الورق - بأنه عام مشهود بالنسبة للأمة مع نسبة نمو اقتصادي بلغت 7.3 بالمئة واستثمارات أجنبية بقيمة مليارى دولار، إلا أن القليل من تلك الوفرة وجدت طريقها إلى عامة الناس. وهذا ما عبَّر عنه زعيم الانقلاب، الجنرال فرانسيسكو فيسكونتي، من منفاه في البيرو، حيث قال: «ليس هناك إنسان واحد في البلد لم يتأثر بشدة بنتائج السياسة الاقتصادية المتوحشة التي فرضها صندوق النقد الدولي».

مع تزايد حدة الحقد تجاه الرئيس، وبروز سلالة جديدة من السياسيين المعادين للنظام السياسي القائم، وغرق حزب العمل الديمقراطي في أسوأ أزمة واجهته في تاريخه الممتد منذ خمسة عقود، قرر قادة الحزب التخلص منه بأنفسهم في حال لم يرحل من تلقاء نفسه.

في الحقيقة، لقد زُرعت بذور نهايته قبل أسبوعين من انقلاب تشرين الثاني، حين كتب ناشر الفضائح، الصحفي خوسيه فيسينته رانجل، في عموده بأن النظام القضائي المسيَّس يحقق في قضية مفادها أن الرئيس واثنين من الوزراء حصلوا على ثروة كبيرة من خلال خطة للمضاربة بالعملة. حيث يُزعَم بأن بيريز سحب 250 مليون بوليفار من حساب مصرفي حكومي سري مخصص للأمن القومي بعد أيام قليلة من إدلائه بالقسم الرئاسي خلال حفلة تتويجه في شباط 1989، ثم حوَّل المبلغ إلى 17.2 مليون دولار. بعد أسبوعين من ذلك التاريخ، وعلى أثر قيام الحكومة بتخفيض قيمة البوليفار بنسبة 88 بالمئة كجزء من رزمة الإجراءات الاقتصادية التي أدت إلى مجزرة كاراكاس، حوَّل بيريز والوزيران الدولارات ثانية إلى العملة الوطنية بتلك النسبة المرتفعة الجديدة، محققين ربحاً صافياً يُقدَّر بين 3 ملايين و10 ملايين دولار. ويعتقد البعض بأن بيريز استخدم ذلك المال في دفع نفقات احتفالات توليته المسرفة.

في أيار 1993، أقرت المحكمة العليا بإمكانية محاكمة بيريز على هذه التهم واستعدت للبدء بها. وفي اليوم التالي أقاله مجلس الشيوخ من منصبه. وهكذا

انتهى، عملياً، نصف قرن من الحياة السياسية لواحد من أقدم السياسيين في أميركا اللاتينية.

شكلت النهاية السياسية لبيريز دعماً كبيراً للمتمردين في السجن، وخصوصاً تشافيز، الذي كان يمر بتقلبات حادة تتراوح بين السعادة الغامرة بما كان يتلقّاه من إعجاب لا حدود له من قبل الناس إلى الاكتئاب العميق. فقد تشوهت صورة المتمردين بعد فشل الانقلاب الثاني، وانشقوا بسبب النزاع في ما بينهم. حيث ألقى البعض مسؤولية فشل الانقلاب على عاتق تشافيز زاعمين بأنه منع شريط فيديو غروبر أودريمان من الظهور على شاشة التلفزيون واستبدله بشريط له في محاولة منه لانتزاع السيطرة على التمرد، مع أن تشافيز أصر بأن لا علاقة له بشرائط الفيديو تلك.

في البيرو، هاجم فيسكونتي تشافيز، وانتشر الخبر في يار وسان كارلوس. وحتى «أرياس نفسه أصيب بهذه العدوى» - والكلام لتشافيز في مقابلة له مع الصحفي أغوستين بلانكو ميونوز - «ففي واحدة من رسائله الكثيرة، حمَّلني مسؤولية الفشل. ثمة أشخاص بين متمردي تشرين الثاني بدأوا يعتبروننا، وبالأخص أنا، سبب كل مشاكلهم. وقد غرسوا هذا الأمر في نفوس بعض الضباط من انقلاب 4 شباط فصدقوه... بعد هذه الهزيمة، صوَّبوا مدافعهم نحوي بطريقة ظالمة». بسبب هذا الأمر، عاش تشافيز واحدة من أسوأ الفترات في سجنه. «بين شهري كانون الأول 1992 وكانون الثاني 1993، أصبحت شخصاً معزولاً في السجن، وللمرة الأولى شعرت بطعم المرارة القاسي. لم يسبق لي أن شعرت بذلك من قبل، ولا حتى مع الاستسلام في 4 شباط، ألم المرارة لكوني متهماً من قبل أصدقائي بأنني المسؤول عن الإخفاق».

كان تصوُّر تشافيز لنفسه كوريث لبوليفار وزامورا وميسانتا وكحامل لمهمة تاريخية تتمثل بإنقاذ فنزويلا يبلغ ذرى مرتفعة جداً لدرجة أن هيرما ماركسمان كانت تعتقد بأنه في بعض الأحيان يلامس حدود الهوس. بعد فترة قصيرة من وصوله إلى سان كارلوس، جلب له حفيد ميسانتا، الذي قابله تشافيز في العام 1983، ميدالية أصلية كان بيدرو بيريز دلغادو يلبسها ثم انتقلت عبر العائلة من بعده حتى وصلت إليه. قدَّم الحفيد الميدالية إلى تشافيز في طقس احتفالي عفوي في السجن، ثم قال له إنه الآن «تقمص روح» ميسانتا. فوضعها تشافيز حول رقبته ومنذ ذلك الحين لم يخلعها قط.

ذات ليلة، بعد أشهر من تلك الحادثة، كان تشافيز وبعض رفاقه يشربون الشراب ويدخنون السيجار المهرَّب. وكان تشافيز وأرياس يتناقشان منذ أسابيع حول ما إذا كان ينبغي على المجموعة أن تدعم مرشحاً في الخارج ضد الحزبين التقليديين في الانتخاب الرئاسي القادم أو أن تدعو الفنزويليين ببساطة إلى الامتناع عن التَّصويت، وكان هذا الأخير هو موقف تشافيز. وقبل ليلة من اتخاذ القرار (أي في هذه الليلة

التي تتحدث عنها) حاول تشافيز إقناع بقية المتمردين برأيه. عندما دخل أرياس إلى الغرفة، قال له تشافيز بأنهم «يحضّرون الأرواح». فبدأ تشافيز - وميدالية ميسانتا معلّقة حول رقبته - يرتجف ويتحدث مثل رجل عجوز: «كيف حالكم أيها الشباب؟». فوثب أحدهم وقال: «الجنرال بوليفار!»، فأجابه تشافيز، «أنا لست الجنرال بوليفار. لا ترفعني إلى هذا القدر». عندئذ قاطعه بلانكو لا كروز قائلاً: «الجنرال ميسانتا!» فرد تشافيز: «بالطبع يا بني، أنا هنا».

في اليوم التالي أكد له تشافيز بأن ما حصل كان للتسلية فقط وأن الهدف الأساسي منه هو إقناع رعاياه الأصغر سناً. وقد نجح في ذلك بالفعل، إذ إن أرياس، الذي كان يعتقد بأنه سيفوز بنسبة ستة مقابل ثلاثة إذا ما أجروا تصويتاً، قد خسر بالهامش نفسه. فأصدر المتمردون بياناً يدعو الفنزويليين إلى مقاطعة الانتخابات غير الشرعية وغير القانونية، مع أن أرياس رفض التوقيع عليه. على أي حال، ما نريد إيضاحه هنا هو أن حادثة ميسانتا هذه تشير، على ما يبدو، إلى اعتقاد تشافيز العميق بأنه كان يمثل الواسطة التي يستخدمها أبطاله الثلاثة من أجل إعادة تأسيس البلد.

بينما كان تشافيز يتصارع على السلطة مع أرياس، كان هناك شخص آخر من معارفه الأساسيين يمر بفترة تحول. إنه قائده السري الذي سيقطع علاقته به.

الفصل الثاني عشر

وداع القائد السري

لم تكن هيرما ماركسمان تبالي بكل الإعجاب والاهتمام الذي ينصبُّ على تشافيز من كل حدب وصوب، لأنها كانت تعتقد بأن ذات تشافيز بدأت تنتفخ وتخرج عن السيطرة وبأنه تحوَّل إلى شخص بالكاد تعرفه. علاوة على ذلك، فهي لم تكن تحب الكثير من أصدقائه الجدد (مثل لويس ميكويلينا) الذين كانوا باعتقادها مجرد بقايا شيوعيين يخونون الجذور الوطنية والبوليفارية للحركة التي ساعدت هي نفسها تشافيز على بنائها على مدار عقد من الزمن.

بالمقابل، لم يكن حلفاء تشافيز الجدد راضين عن وجود ماركسمان، إذ إن بعضهم، وبالأخص ميكويلينا، كانوا يريدون أن تختفي من حياة تشافيز لأنها كانت تمثل علاقة غير شرعية محرجة وغير مناسبة قد تسيء إلى سمعة النجم الصاعد، خصوصاً وأن تشافيز كان يقدم نفسه كترياق لفجور وفساد الزعماء السياسيين مثل كارلوس أندرياس بيريز، الذي يملك ابنتين من عشيقته سيسيليا ماتوس، وجيمي لوسينتشي، التي كانت عشيقته والتي كانت أيضاً تدير البلد تقريباً في أواخر الثمانينيات. بعد سنوات، قالت ماركسمان: «أعتقد أنهم لو استطاعوا حفر حفرة ووضعي فيها إلى الأبد لفعلوا ذلك».

مع ذلك، ثمة أشخاص - مثل فرانشيسكو أرياس كارديناس - كانوا يعتقدون بأنه لم يكن هناك أي مجال للمقارنة مع ماتوس أو إيبانيز، فماركسمان كانت امرأة جدية، ومؤرخة واسعة المعرفة لعبت دوراً هاماً في الحركة البوليفارية السرية بدءاً من العام 1984، مجازفة بعملها وحياتها مقابل ذلك. وإذا كان لا بد من توصيفها، فماركسمان كانت مانويلا سايينز تشافيز، المثقفة الحادة الذكاء والثورية التي وقفت بجانب بوليفار في أحلك ظروفه، بل وشاركت في المعارك مع قوات الاستقلال، ما أكسبها مرتبة كولونيل.

اعترف تشافيز بذلك بشكل غير مباشر للأشخاص الذي يعرفون بعلاقتهما السرية؛ التي لم تكن في الواقع سرية على الإطلاق بالنسبة لأعضاء الحركة الذين كانوا غالباً ما يتلقون الرسائل منها ويرونها في الاجتماعات ويتصلون بها هاتفياً. وبحسب ما نقل الصحفي أغوستين بلانكو ميونوز، فإن ماركسمان «لم تكن مجرد الرفيقة العاطفية لهوغو تشافيز طوال عشر سنوات بل كانت الشخص الأهم بالنسبة إليه وفي بعض الأحيان الشريكة الوحيدة. لقد كانت الشخص الأساسي في ما يتعلق بالاجتماعات والعلاقات والمناقشات والقرارات وتسوية النزاعات وإزالة البصمات وجمع أرشيف تلك المرحلة».

كما أكد لويس فالديراما - وهو واحد من المتمردين القياديين، وقد أمضى سنتين

مع تشافيز في سجن يار - بأن ماركسمان لعبت دوراً محورياً في الحركة البوليفارية طوال عقد من الزمن وكانت بمثابة مرشد ومعلم بالنسبة لتشافيز. خلال الفترة التي أمضوها في السجن، تحول يار إلى بؤرة للحركة، حيث اجتذب جميع الأصناف، من المثقفين اليساريين إلى القساوسة إلى أقرباء المتمردين، وقد أصبح من الصعوبة في مكان ما إخفاء حقيقة أن تشافيز كان يعرف امرأتين. «تذكَّرْ أن تشافيز كان يملك زوجته، نانسي، التي كانت تعيش في سان خواكين، وفي الوقت نفسه كانت لديه امرأة أحلامه، أي هيرما»، يقول فالديراما. «هيرما هي المرأة التي لعبت، بالإضافة إلى ذلك، دور المحرك لكل شيء في تلك الحركة المجنونة. إنها الشخص الذي يقدم له العون، حتى من الناحية النفسية، هي الشخص الذي يشجعه».

بعد تمكُّنها من الاتصال مع المتمردين في سجن يار، أصدرت المتمردة السابقة أنجيلا زاغو في تشرين الأول 1992 كتابها الذي تصدر قائمة أكثر الكتب مبيعاً في حينه، **ثورة الملائكة**. وأهدت زاغو السيرة المجيدة لحياة تشافيز ورفاقه «بشكل خاص إلى القائد بيدرو، وهو شخص سنكشف النقاب عنه لاحقاً، شخص جمع وأرشف، بكل عناية ومسؤولية وحب عميق، كل ورقة صغيرة تقودنا إلى تاريخ يمتد إلى ما قبل السنوات التسع التي شكلت عمر الحركة».

القائد بيدرو هي ماركسمان، التي كانت مجهولة بالنسبة للأمة ولا تزال حتى يومنا هذا تمثل إلى حدٍّ كبير لغزاً بالنسبة لمعظم الفنزويليين. تقول زاغو في كتابها بأن القائد بيدرو «انهمك خلال شهرين في جمع أي وثيقة تظهر حقيقة فتيانه. إن القائد بيدرو يؤمن بعمق بفلسفة رفاقه ويشعر باحترام وحب شديدين للقائد تشافيز. إن الشخص الذي يحب الآخرين هو الوحيد القادر - في أي ساعة وفي أي مكان - على التخلي عن عمله، مع كل ما يفرضه ذلك من مخاطر، واتباع الطريق الذي سلكه المتمردون خلال السنوات الماضية. إلى هذا القائد السري أقدم شكري، وإعجابي، واحترامي».

حتى إن ماركسمان كتبت مقدمة الكتاب ووقَّعتها باسمها الحركي. قالت ماركسمان إنها بعد انضمامها إلى MBR-200، قبل ثمانية أعوام، بدأت بجمع وتنظيم وحفظ الرسائل والأعمال الورقية والوثائق التي كانت تنتج عن اجتماعات المتمردين. وخلال الاجتماعات السرية، لم «نتعمق فقط في دراسة الجذور التاريخية لحركتنا، سيمون بوليفار وسيمون رودريغيز وإيزيكويل زامورا - الشجرة ذات الجذور الثلاثة - بل ناقشنا وحللنا مشكلة الأمة وتفاقم الأزمة والانحلال الخُلُقي في مؤسسات البلد جميعها، واقترحنا الحلول الممكنة من دون، بالطبع، فصل أنفسنا عن الأحداث الدولية». ثم أضافت قائلة إن الغاية النهائية للبوليفاريين هي «إنقاذ كرامة الشعب الفنزويلي».

بعد شهر من صدور الكتاب، اعترف تشافيز نفسه بشكل غير مباشر بمساهمة ماركسمان في الحركة في إهداء كتبه بخط يده إلى زاغو في إحدى الطبعات الجديدة من الكتاب الذي قال عنه بأنه «كتاب رائع». وقد بدأ تشافيز إهداءه بقوله «باسم

الأحلام، باسم الرفاق الأحياء منهم والأموات، باسم فيليب أكوستا كارلس... والقائد بيدرو، الذي يسكن يار».

في الطبعات اللاحقة، قدّمت زاغو لمحات إضافية عن هوية القائد السري، حيث كتبت على صفحة منفردة من الإهداء قائلة: «ثمة أشخاص يملكون القدرة على إدراك حقيقة أن التاريخ يُصنَع في كل لحظة. وإلى هذه المجموعة من الأشخاص تنتمي هيرما أم ماركسمان بي، أستاذة التاريخ، الحائزة على دبلوم في التاريخ الاقتصادي-الاجتماعي لفنزويلا، شهادة حصلت عليها بمرتبة الشرف». ومن دون ماركسمان - أضافت زاغو - «كان من الصعب جداً إنجاز هذا الكتاب».

لكن، يبدو أن هيرما ماركسمان كان مقدراً لها، بطريقة ما، أن تكرر تاريخ مانويلا ساينز، محبوبة بوليفار وشريكته التي ظلت لعقود طويلة غائبة عن التاريخ الرسمي للبلد؛ للفنزويليين خصلة محافظة عندما يتعلق الأمر بأشخاص أسطوريين مثل بوليفار. لقد دمرت السلطات، أو أخفت، الوثائق القديمة التي تشير إليها، وبالإضافة إلى ذلك استثناها المؤرخون من كتبهم. أما بالنسبة لقصة حياتها، فبعد إبعادها عن بلدها الأم، الإكوادور، وعن كولومبيا إثر وفاة المحرر في العام 1830، قضت مانويليتا السنوات الخمس والعشرين الأخيرة من حياتها فقيرة ومهانة، حيث كانت تبيع التبغ في بلدة قذرة تقع على ميناء شمال البيرو وتترجم الرسائل التي كان يكتبها صيادو الحيتان الأميركيون الشماليون إلى عشيقاتهم في أميركا اللاتينية. وماتت في العام 1856 ميتة مذلة خلال تفشي وباء الدفتيريا. فرمت السلطات جثتها في قبر جماعي، وأحرقت ممتلكاتها؛ بما فيها معظم رسائل الحب التي بعثها إليها بوليفار.

استمر تشويه صورة ساينز عقوداً طويلة، حتى منتصف الثمانينيات، حين أثار اقتراح بتنصيب تمثال نصفي لها في ساحة في مدينة ميريدا الأنديزية معارضة عنيفة من الكنيسة الكاثوليكية. ولم يبدأ الفنزويليون والأميركيون اللاتينيون في إعادة تقييم محررة المحرر كواحدة من أعظم البطلات في تاريخ القارة إلا في أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات. حيث صدرت سلسلة من المقالات الصحفية والأفلام السينمائية والكتب التي تتحدث عنها، من بينها رواية **الجنرال في متاهته** للمؤلف الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز الذي كتب عنها بدفء. حتى إنها باتت تُعتبر اليوم بطلة في بلدها الأم الإكوادور وتكتسب المزيد من الاحترام في فنزويلا.

وقعت القطيعة بين تشافيز وماركسمان في عيد مولده، 28 تموز 1993، بحسب رواية ماركسمان نفسها. في ذلك اليوم، منح تشافيز مقابلة إذاعية من داخل السجن وكان يتحدث عبر هاتف خلوي هُرِّب إليه بواسطة الأصدقاء. قدّم تشافيز نفسه في تلك المقابلة كرجل عائلة نموذجي، فتحدث مطولاً عن زوجته نانسي - التي سيطلقها في السنة التالية - والدعم الذي منحته إياه خلال السنوات التي كان يخطط فيها للانقلاب، والدور الهام الذي لعبته في الحركة، من دون أن يأتي على ذكر ماركسمان، حبه

الحقيقي وشريكته في الحركة، بكلمة واحدة.

سمعت زاغو المقابلة في الراديو، فاتصلت بماركسمان آملة بأن تمنعها من الاستماع. لكن ماركسمان سمعت المقابلة كلها. كانت منهارة وغاضبة في آن معاً. فبالإضافة إلى الضغط من مستشاري تشافيز كي يخرجوها من حياته، والطوابير الطويلة من النساء المتلهفات لرمي أنفسهن على القائد، هناك التغير الدراماتيكي في شخصية رجل تحول إلى مخلِّص؛ كان ذلك أكبر من قدرتها على التحمل. «بالنسبة لي، لقد مات في 28 تموز 1993». هذا ما قالته ماركسمان للصحفي أغوستين بلانكو ميونوز. كانت تشعر وكأنها أصبحت أرملة.

في الحقيقة، كانت المقابلة الإذاعية - وانتهاء العلاقة - مدمرة لسبب آخر. وهو أن علاقة ماركسمان بتشافيز أصبحت عميقة إلى درجة أنه أخبرها في نهاية الثمانينيات بأنه كان يريد أن يطلق كولميناريس ويتزوج بها وينجبا طفلاً معاً. وفي إحدى الفترات، حملت ماركسمان بالفعل لكنها أجهضت الجنين قبل الأوان. ولم تتحقق خططهما للزواج أبداً.

لم يتحدث تشافيز يوماً عن ماركسمان أو يعترف بعلاقتهما بشكل علني، على الأقل ليس قبل مقابلة صحفية جرت في نيسان 2007. «كنت أحبها»، اعترف تشافيز مستخدماً الفعل *querer*، الذي يمكن أن يعني أحب لكنه ليس بقوة الفعل *amar* الذي يعني حباً أكثر عمقاً. قال تشافيز إن ماركسمان كانت مقاتلة لعبت دوراً هاماً وإن لم يكن حاسماً في الحركة، وبشكل أساسي في الجانب التنظيمي وليس الإيديولوجي. كما أنها - والكلام لتشافيز أيضاً - أظهرت «إخلاصاً عظيماً وقدرة كبيرة على العمل». حيث ساعدت في تحضير أماكن الاجتماعات، وإعداد وأرشفة الوثائق، ومهمات أخرى غيرها.

تجنَّب تشافيز أي مقارنة مع مانويلا ساينز، قائلاً، مع ضحكة «أنا بوليفار؟ الحالة غير قابلة للمقارنة. فبوليفار عملاق وأنا مجرد جندي صغير. لا أعتقد بأن المقارنة صحيحة. ليس هناك أساس للمقارنة في هذه الحالة. مانويلا ساينز رافقت بوليفار في الحرب، في المعركة، في الحملة. ورافقته في أيامه الأخيرة حتى وفاته. لا إمكانية للمقارنة هنا في أي جانب من الجوانب».

كما قدم رواية مختلفة بشأن خططهما المتعلقة بإنجاب طفل وبشأن تأكيد ماركسمان بأنها أصبحت حاملاً في إحدى الفترات: «لقد رغبت ذات مرة بأن تنجب طفلاً، لكننا لم نكن متفقين حول هذا الأمر».

بشكل مناقض لاعتراف تشافيز بعلاقته مع ماركسمان خلال مقابلة العام 2007، نوَّه بلانكو ميونوز بأن تشافيز لم يذكر ماركسمان ولو لمرة واحدة فقط خلال الحوارات المطولة الأربعة عشر التي أجراها معه بدءاً من آذار 1995 حتى حزيران 1998 من أجل كتابه **حديث القائد** المؤلف من 643 صفحة. وبقيت ماركسمان مجهولة بالنسبة للناس إلى أن منحت أخيراً عدة مقابلات لمراسلين صحفيين وتلفزيونيين في الذكرى

السنوية العاشرة لانقلاب الرابع من شباط. بعد ذلك تعاونت مع بلانكو ميونوز وألبيرتو غاريدو في كتابيهما المتضمنين مجموعة من المقابلات التي قاما بها. في تلك الأثناء، أصبحت ماركسمان ناقدة قاسية لتشافيز، الأمر الذي جعل مؤيديه يتعجبون من مقدار الأثر الذي خلفته علاقتهما العاطفية الفاشلة في نفسها. ولكن، على الرغم من ظهورها إلى العلن بين الحين والآخر، إلا أنها بقيت شخصاً مجهولاً بالنسبة لمعظم الفنزويليين.

بينما كانت علاقة تشافيز التي دامت تسع سنوات بماركسمان تصل إلى نهايتها في العام 1993، كانت الحملة الانتخابية الرئاسية قد بدأت تشتعل. وكان الرئيس السابق رافائيل كالديرا يعود بقوة إلى الحياة السياسية. فبعد مغادرته منصبه في العام 1974، اختفى كالديرا من المشهد السياسي إلى درجة أن بعض الصحفيين قالوا في بداية تسعينيات القرن العشرين، على سبيل السخرية، إن زعيم COPEI الكهل أصبح جثة سياسية. لكن كالديرا غادر القبر، بحسب تعبير زاغو، بعد الخطاب الذي أدلى به في الكونغرس في يوم الانقلاب الذي قام به تشافيز. ومع اقتراب انتخاب كانون الأول، كان كالديرا البالغ من العمر سبعة وسبعين عاماً يخوض غمار سباق حام مؤلف من أربعة مسالك.

بغض النظر عن الفائز في ذلك السباق، فقد كان تشافيز يعتقد بأن المتمردين يملكون فرصة جيدة لنيل حريتهم. فالضغط من أجل إطلاق سراحهم كان يزداد بشكل مضطرد في الشوارع. وبالإضافة إلى ذلك، فكالديرا كسب شهرة كبيرة خلال ولايته الأولى من خلال ترويض حركة التمرد عندما عرض على المتمردين العفو مقابل إلقاء أسلحتهم. وفي ليلة التصويت، 5 كانون الأول، نجح كالديرا – الذي خاض الانتخاب كمستقل مدعوم من تحالف مكوَّن من عدة أحزاب صغيرة لُقِّبت *chiripera* نسبة لحشرات صغيرة تصدر جلبة قوية – في تحقيق الفوز، على الرَّغم من أنه كان مشوباً بادعاءات أندرياس فيلاسكيز من حزب القضية الجوهرية بحصول عملية تزوير. فمع أنه حل رابعاً، إلا أن الكثير من الناس كانوا يعتقدون بأنه هو الرابح الحقيقي، لأن صناديق الاقتراع التي كانت تحوي نتائج تصب في صالحه رُميت في صناديق القمامة.

صحيح أن كالديرا كان سياسياً عجوزاً بدأ حياته السياسية عندما كان فرانكلين دي روزفلت في ولايته الثانية في البيت الأبيض، إلا أنه كان أيضاً من بين قلة من السياسيين الذين كانوا يُعتبرون شرفاء في الأمة. ففي بلد كانت عشيقات الرؤساء مشهورات إلى درجة أنهن كن يُنادين بأسمائهن الأولى، كان كالديرا متزوجاً وسعيداً في زواجه من المرأة نفسها طوال نصف قرن. كما أنه كان يحضر القداس كل يوم أحد. وعلاوة على ذلك، لقد خاض حملته بناء على تعهُّد منه بإلغاء برنامج بيريز الاقتصادي التقشفي. ووعد بحفل تولية متواضع بعكس الاحتفال الباذخ الذي أقامه بيريز. وبالإضافة إلى كل هذا، كان الفنزويليون بعد الصدمات الأخيرة – مجزرة

كاراكاس، محاولتا انقلاب، إجراءات اقتصادية تقشفية، ومحاكمة رئيس - يريدون العودة إلى استقرار الماضي الذي كان شخص كالديرا الجدّ المطمْئِن يعد به. في الليلة التي فاز بها، تحدث تشافيز معه عبر هاتف خلوي من سجن يار وهنأه بانتصاره. فأخبره كالديرا بأن يتجنب أي أعمال استفزازية في أثناء تحضيره لاستلام الرئاسة.

لكن، قبل القلق بشأن تشافيز، كان هناك مشاكل أخرى عليه أن يتعامل معها. فقد سرت إشاعات في الأوساط المالية الفنزويلية - قبل انتخابه رئيساً للبلاد - تتحدث عن وجود أزمة تواجه ثاني أكبر بنك في البلد، بانكو لاتينو.

كان بانكو لاتينو إلى حدٍّ ما بدعة، وظاهرة، ورمزاً من رموز رئاسة بيريز. ارتقى البنك بسرعة كبيرة من مؤسسة عادية إلى مؤسسة مالية كبرى مع مديرين تنفيذيين يعيشون حياة مترفة. والكثير منهم كانوا مقربين من بيريز، الأمر الذي دعا النقاد إلى تسمية بانكو لاتينو ببنك الحواريين الاثني عشر؛ لقب المستشارين غير الرسميين للرئيس. بعد فترة قصيرة من إدلاء القسم الرئاسي لولايته الثانية، في شباط 1989، عيَّن بيريز رئيس بانكو لاتينو والمساهم الأكبر فيه، بيدرو تينوكو رئيساً للبنك المركزي في فنزويلا. أما بقية **الحواريين** فكانوا يتضمنون ريكاردو سيسنيروس من عائلة سيسنيروس الثرية والمتنفذة، وشقيق الرئيس، فرانسيسكو.

بعد توليه منصبه، خفف بيريز - كجزء من رزمة إجراءات السوق الحرة الاقتصادية النيوليبرالية - القيود على الصناعة المصرفية، لكنه أهمل وضع المراقبة المشددة التي يتطلبها نظام تخفيف القيود. فكانت النتيجة سوء إدارة متفلتة من أي ضوابط أو سيطرة.

بعد ثلاثة أشهر من إقامة بانكو لاتينو حفلاً مترفاً لبعض الزبائن والمديرين، حيث أُقِل الزبائن بطائرة كونكورد إلى باريس وحجز لبعضهم في فندق ريتز، انهار البنك، وأقفلت السلطات أبوابه. وكان لفشله المدوي في كانون الثاني 1994 وقع هائل على فنزويلا إذ إنه أدى إلى انهيار أكثر من نصف مصارف البلد. بحلول نهاية العام 1994، كانت الحكومة قد أنفقت 10 مليارات دولار لمساعدتها على العودة إلى العمل من جديد؛ ما يزيد عن نصف ميزانية ذلك العام. كما أصدرت الحكومة مذكرات اعتقال بحق مئتي مصرفي، لكن معظمهم فرّوا من البلد مصطحبين معهم ملايين الدولارات.

كان ذلك مثالاً فاضحاً للفساد وسوء الإدارة والتعفن الذي يخترق فنزويلا ودافعاً لتشافيز كي يقوم بانقلابه. في تلك الأثناء، كان هناك مسلسل درامي واسع الشعبية يصور بشكل واقعي ومذهل حقيقة الفساد في البلد. وكان *Por Estas Calles* (عبر هذه الشوارع) البرنامج التلفزيوني الأول الذي يعرض الفساد والانحلال الأخلاقي المتفشيين في الأمة، فضلاً عن أنه قدَّم للأغنياء لأول مرة نظرة واقعية لحقيقة الحياة المعاشة في الأحياء الفقيرة، حيث كان تشافيز يُعدّ بطلاً.

من بين الشخصيات الرئيسية في ذلك المسلسل شخصية الحاكم دون تشيبي أوريلانا، التي تحمل شبهاً كبيراً بالرئيس السابق جيمي لوسينتشي، الذي كان في الحياة الواقعية ألعوبة بيد بلانكا إيبانيز. في البرنامج، يقوم دون تشيبي وعشيقته لوتشا بسرقة الأموال العامة بالمكر والخداع، ويوزعان الحسنات من أجل كسب الأصوات في الانتخابات، ويلجأان إلى كل أصناف الأساليب غير القانونية من أجل الاحتفاظ بالسلطة، ويتخلصان من الأعداء السياسيين من دون رحمة.

وهناك شخصية الدكتور فاليريو، وهو طبيب وتجسيد كاريكاتوري لشخصية النذل المنتمي إلى الطبقة الوسطى رفيعة المستوى. وهو يدير عيادة خاصة ويقضي معظم وقته في التخطيط للحصول على المزيد من المال والسلطة. وفاليريو هذا يُعرَف في فنزويلا باسم *vivo* (الشخص الذكي) الذي يعرف من أين تؤكَل الكتف. وهو مثل الكثير من أصحاب المهن الراقية يفاخر بتبجح بأفعاله الاستغلالية. في المقابل، إن الأشخاص الذين تسنح لهم الفرصة للسرقة أو استغلال وضع ما لمصلحتهم الخاصة ويحجمون عن فعل ذلك يسمَّوْن *pendejos* (الحمقى).

في المسلسل أيضاً شخصية مجرم من الأحياء الفقيرة (*malandro*) في الرابعة عشرة من عمره يجسد أفراد العصابات الجديدة التي ترعب السكان بأسلحتها وعنفها في الشوارع. وهناك شخصية أستاذ مدرسة في حي فقير ينتقد الحكومة الديكتاتورية والفاسدة. بالإضافة إلى ذلك، تطرَّق البرنامج إلى مواضيع لم تُلقِ الضوء عليها إلا قلة قليلة من البرامج الأخرى، مثل موضوع نقص المياه. ففي فنزويلا، أدى سوء الإدارة في مؤسسة المياه الحكومية إلى جعل المياه تصل إلى بيوت الناس مرة واحدة فقط في الشهر. وعندما تصل، كانوا يلقون كل ما بأيديهم كي يملأوا البراميل أو أحواض التخزين.

في إحدى الحلقات التي لا تُنسى، ينجح أستاذ المدرسة في جمع عدد من الناشطين للتباحث في ما بينهم. وفي اللحظة التي يتعهد فيها المجتمعون بالعمل معاً، يندفع معظمهم فجأة خارج الغرفة كل في اتجاه. فيسأل الأستاذ صديقاً له بينما كانا يقفان بمفردهما تقريباً في غرفة الاجتماع: «هل قلت شيئاً خاطئاً؟». فيجيبه طالب كان موجوداً: «لا، لقد عادت المياه. علينا أن نملأ الدلاء». في مشهد آخر، وبعد أيام من المحاولة يجد عاشقان أخيراً الوقت المناسب للانفراد بنفسيهما، فتأتي المياه ويهرع كل منهما إلى الخارج على الفور.

باختصار، يلخص البرنامج بشكل مثالي سبب قرف الفنزويليين من النظام ومطالبتهم متمرداً مثل تشافيز بتنظيفه.

قبل بضعة أشهر من انتهاء مسلسل عبر هذه الشوارع الذي دام سنتين، كان رافائيل كالديرا يستعد لإطلاق سراح تشافيز من السجن. في الواقع، لم يكن أمامه

خيار آخر إذ إن جزءاً كبيراً من الشعب الفنزويلي كان يطالب بذلك. وبالإضافة إلى هذا، كان كالديرا يعتقد بأن وجود الزعيم المتمرد في السجن أكثر خطراً من وجوده خارجه، لأن أسطورته ستفقد بريقها – هكذا كان يفكر – ما إن يستعيد حريته. لكن كالديرا ارتكب خطأً واحداً، وهو أنه لم يمنع تشافيز من ممارسة النشاط السياسي. ومعادو تشافيز لن يغفروا لكالديرا هذه الهفوة أبداً.

في 23 شباط 1994، أطلق الرئيس سراح فرانشيسكو أرياس كارديناس وتسعة ضباط آخرين، شريطة أن يستقيلوا من الجيش. وبشكل تدريجي، أطلق الرئيس سراح الباقين باستثناء تشافيز وقلة من المتمردين. أصر تشافيز على البقاء وراء القضبان حتى يُطلَق سراح جميع من بقي منهم في السجن. وقبل نهاية سجنه بفترة قصيرة، طلب تشافيز الخضوع لعملية جراحية في العين رفضت السلطات من قبل السماح له بإجرائها. فوافق كالديرا على نقله إلى مستشفى عسكري. وبحلول نهاية آذار، مع اقتراب الفصح المسيحي، أطلق سراح تشافيز أخيراً.

لكن، كان لتشافيز طلب أخير قبل الخروج. كان يريد أن يوقّع أوراق تسريحه من السجن في قاعدة فورت تيونا وأن يزور الأكاديمية العسكرية للمرة الأخيرة بزيه المظلي. فقال له الجنرال رؤول سالازار، وهو صديق ضخم الجثة لتشافيز كان مسؤولاً عن تسوية أمور إطلاق سراحه، بأنه بطلبه هذا كان يسعى للمشاكل مع القادة العسكريين. وناشده ألا يصر على مطلبه. لكن تشافيز لم يكن ليتراجع أبداً، ذلك أن جزءاً من حياته الذي عشقه والذي لعب فيه دور الحاضنة لثورته، كان على وشك الانتهاء، وهو كان يريد أن يودعه بالطريقة المناسبة، وبأسلوبه هو. فأذعن سالازار أخيراً للطلب شريطة أن لا تحضر أي وسيلة إعلامية، فقد كانوا سيبقون الأمر سراً.

في وقت باكر من صباح يوم السبت 26 آذار، أخرجه سالازار خلسة من المستشفى عبر المطبخ وأحد الأبواب الخلفية، متجنباً المراسلين الصحفيين والمصورين الفوتوغرافيين والمصورين التلفزيونيين المحتشدين أمام المبنى. ثم أدخلوه بسرعة في سيارة ابنة الجنرال كي لا يثيروا الانتباه إليهم، وأخذوه إلى فورت تيونا. وما إن دخلوا إلى القاعدة العسكرية حتى غمرت تشافيز موجة هائلة من الحنين:

> لم أذهب إلى فورت تيونا منذ اليوم الذي أخذوني فيه إلى السجن، ومن الصعب عليّ أن أشرح ما كان يحدث لي. أحسست وكأنني كنت أموت، لأنني في الحقيقة أحببت حياتي العسكرية كلها. عندما وصلنا إلى مكتب سالازار شعرت بأنني كنت أبكي. لاحظ ذلك الرجل السمين، وهو شخص طيب بالفعل، فابتعد قليلاً وتركني وحدي. خرجت إلى إحدى الساحات، ونظرت إلى حيث كنت أعمل. وبعد فترة سألني سالازار،

«هل أنت بخير يا تشافيز؟»، فأجبته: «نعم أيها الجنرال، أنا مستعد».

كان سيُطلَق سراحه في وقت لاحق من ذلك الصباح. وقبل مغادرتهما، سمح له سالازار بالقيام بزيارة وداعية للأكاديمية العسكرية التي تقع في الجانب الآخر من فورت تيونا. أخذه بالسيارة إلى مبنى الأكاديمية الأبيض البراق، وكان فارغاً لأن الطلاب والأساتذة كانوا في إجازة. مشى تشافيز في الساحة «باتجاه مكان يشبه السحر. بقيت هناك، ومشيت نحو تمثال بوليفار. وبكيت ثانية...». وظل يتحدث مع نفسه وحيداً إلى أن ناداه سالازار أخيراً فغادرا المكان. وعندما عادا إلى مكتب الجنرال، اغتسل تشافيز وارتدى ثياباً مدنية، واستعد للمغادرة.

خارج القاعدة العسكرية، كان الصحفيون والمعجبون يطالبون برؤيته. مئات الأشخاص، أكثرهم من النساء، كانوا متجمعين في الخارج يلوّحون بالأعلام الفنزويلية ويحملون الورود ويرتدون قبعات حمراء. لقد أصبح بطلهم حراً بعد سنتين وشهرين في السجن، مع أنه كان يمكن أن يواجه ثلاثين سنة.

قرابة الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً، ظهر تشافيز أخيراً، ودبت الفوضى في المكان. تحلّق الحشد حوله، وحاول بعضهم تسلق طاولة مليئة بالميكروفونات حتى إنهم كادوا يوقعونه على الأرض. كان أحد أصدقاء تشافيز، ويدعى نيكولاس ماديورو، يراقب الناس وهم يحاولون لمسه أو إعطاءه أولادهم كي يحملهم. فإذا نجحوا في لمس القائد بيدهم للحظة كانوا يمسدون بها أوجه أولادهم وكأنه كان.... بينما خرَّ آخرون على ركبهم، وبكوا وهم يصرخون قائلين إن تشافيز هو سيمون بوليفار. «في ذلك اليوم سمعت للمرة الأولى شيئاً سمعناه كثيراً خلال رحلاتنا في أنحاء فنزويلا: تشافيز، أنت بوليفار الجديد».

كان تشافيز ينوي عقد مؤتمر صحفي رسمي، لكن ذلك كان مستحيلاً. بيد أنه نجح في الإدلاء ببعض الجمل للصحفيين: «هذا الجيل العسكري الذي اختار طريق التضحية وتكوَّنت شخصيته في المنشآت العسكرية لفورت تيونا سيُظهر لسياسيي فنزويلا التافهين كيف تُقاد الأمة ويُستَرَد قدرها الحقيقي».

بينما كان يستعد للمغادرة، دفع أحد الصحفيين بآلة التسجيل نحوه وصرخ وسط الحشد الصاخب يسأله إلى أين سيتوجه تالياً. ومن دون تفكير، استدار تشافيز إلى الصحفي وقال بشكل غريزي:

«إلى السلطة».

الفصل الثالث عشر

على الطريق

في اليوم التالي – الأحد الذي يسبق الفصح – قام تشافيز بزيارة بطله سيمون بوليفار. وكان ضريحه يقع في الشارع نفسه الذي يقع فيه سجن سان كارلوس حيث أمضى عدة أسابيع بعد انقلاب الرابع من شباط. وضع إكليلاً من الزهور عند ضريح المحرر داخل المقبرة الوطنية ثم خرج من المبنى ليجد حشداً من الناس يهللون فرحاً لرؤيته. كان الكثير منهم يرونه للمرة الأولى منذ ذلك اليوم الذي ظهر فيه على شاشة التلفزيون وأدلى بخطابه الشهير *por ahora*. كان قبل مجيئه إلى المقبرة قد أمضى الصباح يجيب عن أسئلة المراسلين الصحفيين المحليين والأجانب في مؤتمر صحفي طويل. خرج تشافيز من المقبرة، وشق طريقه بصعوبة عبر الحشود، ثم توجه نحو حي كاتيا غرب كاراكاس، حيث كان المزيد من الجماهير بانتظاره. كان الناس يتبعونه على الدراجات الهوائية، والدراجات النارية، ومشياً على الأقدام، وكان موكبه يضطر للتوقف لفترة قصيرة بين الحين والآخر. لقد أصبح نجماً حقيقياً يتجمهر حوله الناس في أي مكان يقصده. «لم أشعر بأنني وحيد لأنني أينما توجهت كنت ألقى السيل نفسه من الناس الذين التقيت بهم عندما غادرت السجن. بعد مغادرتي يار، لم أتمكن من المشي مئة يارد وحيداً... لا أعرف كلمة عزلة. لا أعرف ما هو أن تكون وحيداً».

أمضى تشافيز بضعة أيام يزور الأحياء في كاراكاس، مستمتعاً بحريته الجديدة وإعجاب مناصريه. بعد ذلك توجه إلى مسقط رأسه سابانيتا وبارينياس، حيث أمضى بقية الأسبوع، واستعد للقيام بجولة تدوم مئة يوم حول فنزويلا؛ سمّاها مناصروه الإعصار البوليفاري. ستأخذه هذه الجولة تقريباً إلى كل ركن في فنزويلا، من جبال الأنديز المغطاة قممها بالثلوج إلى الساحل الكاريبي شديد الحرارة والرطوبة وإلى غابة الأمازون. واتخذ تشافيز ومرافقوه شعاراً لجولتهم هو الأمل موجود في الشوارع. كان تشافيز يريد أن يقابل الكثير من معجبيه وجهاً لوجه للمرة الأولى ويكسب الدعم لحركته MBR-200 ولاقتراحه المتعلق بالمجلس الدستوري.

انطلق تشافيز برفقة عدد قليل من أنصاره العسكريين والمدنيين في سيارة جيب أطلق عليها اسم *la burra negra* (الحمار الأسود). والتقى في جولته أساتذة وزعماء نقابات ومزارعين وصيادين وقبائل محلية، «أناس من اليمين، أناس من اليسار، أناس من أقصى اليمين وأناس من أقصى اليسار، أناس غير مهتمين بالسياسة، الأصناف جميعها، لكنهم بطريقة ما كانوا يريدون التغيير»، بحسب تعبير تشافيز. حتى إنه

دخل ذات يوم في إحدى الفجوات الخطرة التي حفرها المنجمون عن الذهب في غابة الأمـازون بواسطـة خراطيـم ميـاه قوية بحثاً عن كنزهم الثمين. «لا أعتقد بأننا تخطينا مدينـة أو بلـدة أو معسكـراً أو قريـة هنديـة أو حياً. ذهبنا من بلدة إلى بلدة نحمل شعار المجلس الدستوري، نبني الحركة ونقويها».

كان ظهوره يحدث ضجة وجلبة كبيرتين في أي مكان يحل فيه. فكانت النسوة يتهافتن عليه ويمطرنه بالقبلات التي تخلّف أثرها على وجنتيه. وكان الأولاد يرتدون زياً يشبه زيه العسكري وقبعته الحمراء. أما الرجال فكانوا يشكلون مجموعات حماية ارتجالية تحسُّباً لتعرّضه لأي هجوم جسدي من أحد خصومه. ولم يكن تشافيز بحاجة لأن يتكلـم كـي يلهـب المشاعـر، إذ يكفي أن يرفع ذراعيه ويرسم إشارة النصر فيجن جنـون الحشـود. بعـد الاجتماعات، كان الراغبون بالحصول على توقيعه والمراسلون الصحفيون المحليون يجتمعون خارج غرفته أملاً بالحصول على دقيقة من وقته. وفي بعض الأماكن، مثل بلدته باريناس، كانت الجدران مزينة بكتابات مثل: بوليفار يعود إلى الحياة مجدداً.

على الرّغم من أن تشافيز ومناصريه كانوا يعانون من ضغط مالي حيث إنهم كانوا في بعض الأحيان لا يملكون المال لشراء البنزين والمواد الأساسية الأخرى، إلا أن الطعام لم يكن مشكلة بالنسبة لهم. بل كانت الدعوات التي تُقدَّم إليهم لتناول الطعام أكثر من قدرتهم على قبولها كلها؛ بالعشرات في أغلب الأحيان. والشيء نفسه ينطبق على المنامة، إذ كانت منازل المناصرين تتسابق للفوز بهذا الشرف. وعندما كانوا يسمعون أن القائـد قـادم إلـى البلدة، كان المقيمون - الكثيرون منهم فقراء معدومون - يجمعون المـال مـن بعضهـم ويستأجـرون جهازاً صوتياً أو صالة اجتماعات في أحد الفنادق من أجل تشافيز. وحتى الملابس كانت تُقدَّم إليه.

ذات يـوم فـي أيـار 1994، في قرية هومـوكارو ألتو الأنديزية المبرقعة بحقول البـن، كان تشافيـز يقـف أمـام حشد من معجبيه فـي ساحة وسط القرية مرتدياً قميص ركبـي وسـروالاً مـن الجينـز الأزرق وعلامته المميزة، القبعـة الحمراء، فإذا بالمطر الربيعـي ينهمـر بشـدة عليهـم. لكن تشافيـز والحشد لم يكن ليمنعهم أي شيء عن إتمام ذلك اللقاء. «الأزمة بالغة العمق»، هدر تشافيز في الجمهور المرتجف ولكن المتحمس، «الغرغنينا عميقة جداً، كما اعتاد بوليفار أن يقول، بحيث لا يمكن شفاؤها بالمسكنات. الطريق الوحيد هو الثورة».

فـي مـا بعـد، احتشـد القرويون في دار العبادة في القرية فامتزجت رائحة دخان الخشب المحروق بعرق المزارعين الذين هللوا ملوِّحين بقبعات كرة القاعدة عندما طالب تشافيز بحكومة نظيفة و«ثورة لانتشال البلد من المستنقع». فوقف مزارع قوي البنية يرتدي قبعة حمراء كان يراقب بإعجاب من الصف الخلفي وقال: «إنه الشخص الوحيد القادر على توحيد البلد، الوحيد القادر على طرد الفاسدين». بعد انتهاء الاجتماع، فسَّر

رجل دين القرية سبب فتحه باب دار العبادة لرجل أمضى سنتين في السجن لمحاولته إسقاط الحكومة: «تشافيز يعمل دائماً لمصلحة الناس، ضد الفاسدين». وبعد مغادرته القرية، نظّف تشافيز وجنتيه من بقع أحمر الشفاه التي خلّفتها المعجبات المتيمات.

بعد بضعة أسابيع، في اجتماع آخر في مدينة فالنسيا، أخذت مزينة الشعر غلاديس نونيز إجازة من العمل في الفترة الصباحية عندما سمعت بأن القائد آتٍ إلى المدينة. ثم اشترت كراسة تحوي مقالاته، وانتظرت ثلاث ساعات فقط كي تراقبه وهو يمر بجانبها.

لكن الدبلوماسيين والنخبة الفنزويلية كانوا يقللون من أهمية ذلك الإعجاب ويصفونه بأنه مجرد هوس زائل ومبالغ فيه. حيث ألمح أحد الدبلوماسيين إلى أن الاهتمام الذي لقيه تشافيز كان أكبر مما يستحق: «إنه غريب الأطوار بعض الشيء، كما تعلم... هذا ليس صوت العقل». كما قال إنريكيه بريتو سيلفا، وهو جنرال متقاعد من الحرس الوطني، بأن تشافيز مجرد شبح سرعان ما سيختفي: «سيصبح منسياً قبل الانتخاب التالي».

كانت جولة تشافيز الأولى بعد خروجه من السجن مكلّلة بالنجاح بحيث دفعه هذا إلى تكرار مثل هذه الجولات عدة مرات خلال السنوات القليلة التالية. لكنها كانت شاقة جداً، وإن كانت تبعث السرور والراحة في النفس. كان بيدرو كارينو – أحد مجندي تشافيز في الأكاديمية العسكرية، التحق في نهاية المطاف بموكب تشافيز – وجنديان سابقان آخران يتناوبون على قيادة السيارة في الليل بينما كان تشافيز يقرأ أو يدرس بعض الوثائق. وعندما ينال منهم التعب، كان تشافيز يستلم منهم المقود ويتابع الرحلة في الثالثة أو الرابعة فجراً. ولتمضية ساعات السفر الطويلة، كان تشافيز يلقي النكات أو يسرد قصصاً حول أيامه في باريناس. كانوا يستمعون إلى أغاني الموسيقي الفنزويلي المعارض علي بريميرا. «كنا نبدأ برنامج عملنا في وقت باكر من النهار، وكان تشافيز يقيم اجتماعه حتى لو لم يكن هناك سوى خمسة أو ستة أشخاص فقط». والكلام لكارينو. «كان ينزل من السيارة ويصعد إلى مؤخر الشاحنة ويدلي بخطابه كما لو كان هناك حشد كبير من الناس مثل الحشد الذي يملأ أفينيدا بوليفار اليوم». وعندما ينتهون من أنشطتهم النهارية، يتابعون رحلتهم خلال الليل باتجاه البلدة أو القرية التالية.

ذات يوم، تمكّن لويس ألفونسو دافيلا، وهو كولونيل متقاعد من القوى الجوية انضم إلى مجموعة مساعدي تشافيز المقربين، من الحصول على شاحنة ذات خلفية مسطحة. فحوّلها المرتحلون إلى مكتب ومنزل متنقل مجهز بغرف نوم وحمام ومكبرات صوت، رسموا على جانبها صورة كبيرة لتشافيز وأطلقوا عليها اسم **ناقلة تشافيز**. وعندما كانوا يصلون إلى إحدى البلدات، كان تشافيز يصعد إلى مؤخرها ويدلي بخطاب يبشّر فيه بالثورة.

صحيح أن تشافيز كان يملك مطلق الحرية للتجوال في البلد، إلا أنه كان مفلساً، إذ لم يكن لديه عمل ولا حساب مصرفي ولا مكان ليعيش فيه، ولا يملك أي ممتلكات تقريباً. والدخل الوحيد الذي كان يملكه - بعد انتهاء مهنته العسكرية - هو تقاعد شهري من الجيش يبلغ نحو 170 دولاراً كان يرسله إلى أولاده الثلاثة وزوجته نانسي التي كانت في طريقها للطلاق منه، ذلك أن علاقتهما - على الرّغم من أنها لم تكن عدائية - ذبلت منذ وقت طويل.

بعد إطلاق سراحهم من السجن، قرر بعض رفاقه أن يكسبوا عيشهم من خلال الانضمام إلى النظام الذي حاولوا إسقاطه قبل سنتين. أرياس كارديناس، مثلاً، قبل عملاً من الرئيس كالديرا، حيث كلّفه بإدارة برنامج حليب حكومي للنساء الحوامل يُدعى RAMI. أما أوردانيتا فقد استلم بسعادة منصب سفير فنزويلا في فيغو في إسبانيا، وبقي هناك خمس سنوات. لم يكن لتشافيز أي علاقة بالأمر. وهو - على عكس أوردانيتا - رفض أن يشكر كالديرا على توقيع العفو عليه. حتى إنه لم يقابله أبداً، بل إنه انتقد الإدارة الجديدة لأنها جاءت بالنخبة الفاسدة نفسها إلى الحكم والتي دمرت البلد.

بعد ستة أشهر فقط من خروجه من السجن، حذّر تشافيز علناً كالديرا من المزيد من الهيجانات العنيفة إذا لم يتصدَّ للمشاكل الاجتماعية المتفاقمة في البلد. وإثر اعتقال أربعة من المتعاطفين مع MBR-200، اتهم تشافيز كالديرا بمحاولة سحق حركته بل وتحداه بأن يضعه في السجن: «أراهن على من سيبقى مدة أطول، كالديرا في ميرافلوريس أو أنا في أي زنزانة في البلد».

وبسبب عدم وجود مكان ليعيش فيه، قبل قائد الانقلاب المحرر حديثاً عرضاً من مهندس معماري في كاراكاس بالانتقال إلى مقصورة مخصصة للضيوف في حديقته الخلفية في حي لا فلوريستا الذي تقطنه عائلات من الطبقة الوسطى. كان هذا المهندس المعماري، ويُدعى نيدو بانيز، مولعاً بالقفز بالمظلات. وبسبب ذلك صادق الكثير من الجنود لأن الجيش كان المكان الوحيد الذي يتيح له ممارسة هوايته المفضلة التي بدأت في الستينيات. وقد تبين لاحقاً أن بعض أولئك الجنود كانوا متمردين، مثل جيسوس أوردانيتا. وهذا ما جعل بانيز - وهو رجل رياضي طويل القامة تبدو عليه هيئة الشباب - يصبح في نهاية المطاف مناصراً للحركة البوليفارية السرية. غير أنه لم يشارك في انقلاب الرابع من شباط وذلك لأنه لم يرد على رسالة هاتفية من أحد الصلات قبل ساعات من التمرد على أمل إبلاغه بالأمر.

علاوة على منحه مكاناً ليعيش فيه، أعاره بانيز أيضاً مكتبه القريب في تشوواو من أجل عقد الاجتماعات. لقد تحولت المقصورة والمكتب إلى خليتي نحل تضجان بالنشاط. وكان الجنود السابقون يأتون إلى المقصورة ويخرجون منها في أي وقت من النهار والليل. وعندما تذمّر بانيز، رد عليه تشافيز: «هذا هو أسلوب عملي». كان

أشبه ببومة ليلية، إذ كان ينام في الثالثة بعد منتصف الليل أو حتى بعد ذلك، وكان يأكل عندما يسنح له الوقت بذلك ويتناول أي شيء يتمكن من الحصول عليه، تاركاً مقصورته في بعض الأحيان مليئة بعظام الدجاج المتناثرة. في المكتب، كان الزوار يأتون بالجماعات لرؤية تشافيز. وبعض القادمين من خارج البلدة كانوا ينامون على أريكة في الليل. وفي كثير من الصباحات، كان خورخي جيورداني، الخبير الاقتصادي الملتحي من حزب الحركة اليسارية نحو الاشتراكية (MAS) هو أول الواصلين من الضيوف. وكان يقضي مع تشافيز الساعات في تطوير الوثائق والبيانات والخطط.

بما أن تشافيز، وهو الزعيم الجديد للكثير من الفنزويليين، لم يكن يملك ملابس مناسبة لارتدائها، اشترى له بعض الأصدقاء ثلاث بزّات من *liqui liquis*، وهو لباس فنزويلي تقليدي من منطقة لانوس مع ياقة تشبه ياقة الزعيم الصيني ماو وأزرار في المقدمة. وقد منحته ملابسه الجديدة مظهراً أنيقاً عندما كان يذهب لمقابلة الإعلاميين أو رجال الأعمال. وفي الوقت نفسه لفتت الانتباه إلى موقفه الوطني. وكان لديه منها ثلاثة ألوان: الأزرق والرمادي والأخضر الزيتوني (وكان المفضل لديه).

أراد تشافيز أن يوسّع أفقه، وألا يركّز في أنشطته على فنزويلا فقط، أملاً ببناء دعم لحركته في بلدان أخرى وإسقاط صورته السلبية التي روّجت لها بعض وسائل الإعلام. فساعده بانيز وبعض الأصدقاء في الحصول على جواز سفر. وفي تموز 1994، انطلق في جولة إلى عدة بلدان أميركية لاتينية من بينها الأرجنتين والأوروغواي وتشيلي. وزار أيضاً كولومبيا وهناك التقى مع أعضاء سابقين في حركة التمرد M-19 ومع بعض منظمي المجلس الدستوري الحديث في ذلك البلد. في كانون الأول، حقق تشافيز واحداً من أحلامه الكبرى، ألا وهو زيارة كوبا.

على الرّغم من أن تشافيز - بحسب روايته هو شخصياً عن الرحلة - التقى مع عدة مسؤولين في السفارة الكوبية في كاراكاس قبل الرحلة، إلا أنه كان ببساطة يتوقع لزيارته التي ستدوم يومين إلى الجزيرة أن تقتصر على الاشتراك في حوار ثقافي ومؤتمر يمجّد سيمون بوليفار. ولكن، عندما حطت الطائرة في هافانا، وكانت الساعة تقارب التاسعة والنصف مساء، لم تتوقف حيث تقف بقية الطائرات بل استمرت بالمسير متوجهة إلى الجانب الآخر من المطار إلى موقع مخصص لاستقبال الشخصيات الهامة. وبعد ذلك، جاء الطيار وأخبر تشافيز ومساعده الشخصي، رافاييل إيسيا، بأن الوقت قد حان للنزول من الطائرة. وعلى الرّغم من أن تشافيز كان مدركاً في تلك الأثناء بأن شيئاً ما قد طرأ، إلا أنه أصيب بالذهول عندما نزل سلم الطائرة ورأى من كان بانتظاره للترحيب به: فيدل كاسترو بنفسه.

أضاءت فلاشات الكاميرات سماء الليل بينما كان الزعيم الكوبي يعانق تشافيز بحرارة. وبعد حوار قصير توجه الاثنان إلى قصر الثورة، وبقيا هناك يتحدثان

حتى الثالثة أو الرابعة فجراً، على الرّغم من أن تشافيز وإيسيا كان ينبغي عليهما أن يستيقظا في السابعة من أجل القيام بأنشطة اليوم التالي. كان كاسترو يطرح السؤال تلو الآخر على تشافيز حول كل شيء، من عدد رجاله عندما قام بانقلاب الرابع من شباط إلى نوع الأسلحة التي كانوا يحملونها. وفي النهاية، طرح تشافيز أسئلته، وخاصة حول موت إيرنستو تشي غيفارا الذي أقلقه كثيراً عندما كان صبياً في باريناس. وذُهل تشافيز - على الرّغم من أنه هو نفسه كان عارفاً جيداً بالتاريخ - بمعرفة كاسترو ليس فقط بتاريخ العالم وإنما بالتاريخ الفنزويلي أيضاً. فخلال سرده لبعض القصص التاريخية الفنزويلية، مثل هجوم زامورا على سانتا إنياس وقصة ميسانتا، وجد بأن كاسترو كان يعرفها جميعها. وعندما اكتشف أن كاسترو كان يعرف أيضاً تاريخ بيدرو بيريز دلغادو بشكل كامل، «قلت لنفسي، استسلمت، استسلمت. لن أحاول من جديد. هذا الرّجل لا يمكن التغلب عليه».

عندما استيقظ تشافيز وإيسيا - بعد ساعات قليلة من اللقاء مع كاسترو - كانت الطبعة الصباحية من صحيفة غرانما اليومية الصادرة عن الحزب الشيوعي قد خرجت إلى النور تتصدرها صورة لكاسترو وتشافيز وهما متعانقين. اقتبست الصحيفة عن تشافيز قوله إن الترحيب الحار من قبل كاسترو كان «في الحقيقة شرفاً لا أستحقه الآن». لكن كاسترو كان يريد أن يبعث برسالة إلى الكوبيين وسواهم، ممن بالكاد سمعوا عن تشافيز وربما كانوا متشككين بشأن قائد انقلاب سابق من أميركا اللاتينية، مفادها أن هذا الرجل يجب متابعته واحترامه، حيث ذكرت صحيفة غرانما نقلاً عن كاسترو: «لم يكن هناك وقت ملائم أكثر من هذا الوقت لكي آتي إلى المطار من أجل استقبال زائر مثل الكولونيل المساعد هوغو تشافيز».

أمضى الرجلان يومين مستمتعين بصحبة بعضهما. من الواضح أن كاسترو الذي اتصل بالرئيس كارلوس أندرياس بيريز معرباً عن دعمه له خلال انقلاب الرابع من شباط قد أعاد التفكير في المسألة. لقد رافق تشافيز طوال جولته في هافانا، حيث مشيا في هابانا فييجا، ووضعا إكليلاً من الزهور عند تمثال سيمون بوليفار، وزارا المنزل الذي مر به المحرر عندما جاء إلى كوبا وهو في السادسة عشرة. وأدلى تشافيز بخطاب هناك وكان كاسترو جالساً في الصف الأمامي. ثم اتجه الرجلان إلى جامعة هافانا وألقيا خطابين أمام الطلبة. وفي خطابه، صرح تشافيز بأن الجزيرة «قلعة الكرامة الأميركية اللاتينية» واعترف بأنها «المرة الأولى التي آتي فيها جسدياً إلى كوبا، لكنني زرتها مرات كثيرة في أحلامي».

بالإضافة إلى إلقاء خطاب في الجامعة، زار القائد أيضاً الأكاديمية العسكرية الكوبية، ومشى عبر الأنفاق التي تخفي دبابات مستعدة لصد أي هجوم تقوم به الولايات المتحدة، وتفحص غرفة تحوي نماذج عن معارك عسكرية كبرى في التاريخ العالمي. وقبل مغادرته، جلس وكاسترو على أريكة معاً وقلّبا ألبوم صور أعطاه إياه الزعيم

الكوبي كتذكار عن الرحلة.

استخدم معارضو تشافيز تلك الزيارة ضده لسنوات طويلة في ما بعد، معتبرين أنها دليل على أنه كان يخطط لفرض نظام ديكتاتوري على الطراز الكوبي في فنزويلا. عندما ترشح للرئاسة، ظهر على الفور شريط الفيديو الذي يصور خطابه الذي ألقاه في جامعة هافانا وتناقلته الكثير من وسائل الإعلام. في الحقيقة، كان تشافيز معجباً بالفعل بالكثير من جوانب الثورة الكوبية، وعلى الأخص النظام التعليمي الذي منح كوبا نسبة أمية أدنى من الولايات المتحدة، والنظام الصحي الذي اعتُبر من قبل منظمة الصحة العالمية كأنموذج يُحتذى به في دول العالم الثالث. كما شبَّه تشافيز علاقته مع كاسترو بعلاقة الأب بالابن. ولم يكن مخطئاً في ذلك، فالزعيم الكوبي سيقدم العون لتشافيز خلال بعض أحلك لحظاته، وخاصة عندما كانت رئاسته وحتى حياته على حافة الهاوية؛ بينما كانت الولايات المتحدة متربصة وراء الكواليس.

لكنه في الوقت نفسه بدا مدركاً بأن إقامة نظام وفق نموذج كاسترو في فنزويلا كان مستحيلاً. فالفنزويليون كانوا يضمرون عداء شديداً للشيوعية، وخاصة بعد حروب المتمردين اليساريين الدموية في ستينيات القرن العشرين. وتشافيز نفسه في الواقع كان متشككاً بخصوص الكثير من اليساريين الفنزويليين حيث كان يقول إنهم أمضوا سنوات طويلة في الجبال يقاتلون، وانعزلوا عن الجماهير إلى درجة أنهم فقدوا التواصل مع الفنزويليين العاديين. بغض النظر عن كل ذلك، فقد كان هناك قرن جديد يقترب، ونموذج كاسترو المطبق منذ أربعين عاماً بسيطرته الحكومية القوية على الاقتصاد ووسائل الإعلام والنظام الانتخابي - وإن كان مقابل عداء أميركي شديد ومحاولات عديدة للقضاء على ثورته واغتياله - أصبح عتيق الطراز ومنتقَداً بشدة. صحيح أن تشافيز كان معجباً ببعض جوانب ثورة كاسترو وبالرجل نفسه، وهذا كان واضحاً بجلاء، إلا أنه سيتبع طريقه اليساري الخاص. ففنزويلا ليست كوبا وهو كان يعرف ذلك جيداً. لقد تغير العالم.

بعد عودته إلى فنزويلا، حافظ تشافيز على فورة الاجتماعات، والجولات، والنقاشات مع زعماء المجتمع والمستشارين والمتعاطفين مع الحركة البوليفارية. ولكن، مع أن جولاته المتواصلة على الأحياء الفقيرة في العاصمة والقرى كانت مفتوحة وعلنية، إلا أنه كان أيضاً يلتقي بهدوء مع مجموعات صغيرة من قادة المجتمع في جلسات سرية غير معلنة. كان يريد أن يكسب دعمهم، ويوسِّع حركته لتضم المزيد من المدنيين، ويشرح اقتراحه المتعلق بالمجلس الدستوري. وكان شعاره «مؤتمر دستوري الآن!».

لكنه واجه معارضين حتى بين اليساريين، ذلك أن الكثيرين منهم كانوا متشككين منه بسبب كونه عسكريّاً سابقاً. بعد بضعة أشهر من خروجه من السجن جاء تشافيز

لحضور اجتماع سري في مركز تنظيم المجتمع في كاتيا حيث كانت كسيومارا تورتوزا تعمل، وحال دخوله، دعاه بعض اليساريين المحليين بالقائد وقدموا له تحية عسكرية. أحسَّت تورتوزا بالرعب، فهي سافرت إلى بلدان جنوب أميركا اللاتينية خلال ما يُعرف بالحروب القذرة التي اندلعت في السبعينيات والثمانينيات ولهذا السبب كانت تعتقد بأن آخر شيء تحتاجه فنزويلا هو متمرد عسكري مدرب لإعطاء الأوامر للناس، أو لما هو أسوأ من ذلك. عندما سافر تشافيز إلى الأوروغواي، رفض إدواردو غاليانو، الكاتب اليساري الذي ألَّف أحد كتبه المفضلة حول الاستغلال **الأوردة المفتوحة لأميركا اللاتينية** أن يقابله.

في مناسبة أخرى، جاء تشافيز إلى اجتماع لبعض اليساريين في الحديقة المركزية في كاراكاس، فلم يلتفت أحد إليه. «لن أنسى ذلك أبداً... تخيَّل، كنت أحاول تقديم نفسي لليسار السياسي. كنت مراقَباً ومضطهداً ومشوَّه السمعة... إلخ، ويعاملني القادة بهذه الطريقة... لقد لوَّث الخطاب البرجوازي اليسار ودمره. لا أنكر أخطائي، لقد ارتكبت بعضاً منها بالتأكيد، لكن تلك المجموعات نبذتني وأدانتني».

في اجتماع كاتيا مع مجموعة تورتوزا، كان تشافيز منضبطاً ومتواضعاً ومنفتحاً وبعيداً عن التكلف؛ كأي شخص عادي من الحي. فترك انطباعاً جيداً لدى الحاضرين بحيث هدأت شكوك تورتوزا قليلاً؛ لعله نوع آخر من الجنود.

بينما كانت شعبية تشافيز تحلق إلى السماء في الأحياء الفقيرة وبين الجمعيات المدنية وبينما كان يبني قواعد منظمة مؤيدة له، اختفى كلياً من معظم وسائل الإعلام الإخبارية الفنزويلية الأساسية والصحافة الدولية. في الماضي، حاربت الصحف الفنزويلية الكبرى وشبكات التلفزيون والمحطات الإذاعية إدارة بيريز كي تنشر تقارير تتحدث عن شعبية تشافيز وانقلابه بعد أيام من التمرد، وهذا لأنه كان مجهولاً حينئذ ولأن بيريز كان مكروهاً بشدة أيضاً.

لكن الآراء الوطنية الراديكالية لتشافيز أصبحت معروفة جيداً الآن، ولهذا السبب يحاول المتنفذون الإعلاميون المعادون لدعواته إلى الثورة استثناءه من تغطيتهم الإعلامية. فعلى سبيل المثال، عندما عاد من رحلته إلى كولومبيا في تموز 1994 وعقد مؤتمراً صحافياً، لم تنقل معظم الصحف الكبرى أي كلمة عنه. «كنت محظوراً في التلفزيون والصحافة والراديو. حتى إنّهم طردوا صحفيين لأنهم أجروا مقابلات معي وبثوا تسجيلات عنها في الراديو، أو إنّهم [السلطات] جاؤوا وأغلقوا محطة إذاعية لأنها أجرت مقابلة معي». ذات مرة، يقول تشافيز، قال شخص ما في التلفزيون بأنه غير موجود أساساً. كما أن الكثير من المحررين والمراسلين اعتبروا تشافيز بأنه *caliche*، وهي كلمة فنزويلية عامية تُطلَق على شخص غير مثير للاهتمام لكنه يحاول أن يكون ذلك الشخص. وعندما كان يزور غرف الأخبار، كان المحررون يتفرقون ويتوارون عن الأنظار كي لا يضطروا إلى مقابلته.

بيد أن مقاطعة وسائل الإعلام الكبرى لتشافيز عززت ببساطة من شعبية تشافيز ونفوذه في الأحياء الفقيرة. وقد تمكّن من الالتفاف على التجاهل بالذهاب إلى وسائل الإعلام المحلية في المناطق التي كان يزورها، إذ أخبره صحفي صديق له بأن الناس في الداخل يقرأون الصحف المحلية أكثر بكثير من قراءتهم للصحف اليومية الشهيرة، مثل *El Nacional*، التي تأتيهم من المدن الكبرى ومن كاراكاس. وقد سُرَّ الكثير من المحررين المحليين لمقابلة تشافيز فمنحوه ساعات من وقتهم، وخصصوا له صفحات من جرائدهم. حتى إن تشافيز قال لمحرر في إحدى الصحف بعد حديث دام ثلاث ساعات كاملة بأنه كان مضطراً للذهاب.

عمل تشافيز على استغلال الاستياء المتزايد للطبقة العاملة الفنزويلية من الحكومة، ممارساً نشاطه المعتاد تحت خط رادار وسائل الإعلام الكبرى. صحيح أن إدارة بيريز كانت كارثية، إلا أن إدارة كالديرا لم تكن أفضل بكثير كما تبيَّن لاحقاً. وجدُ السياسيين الفنزويليين – الذي شارك في كتابة قانون عمل تاريخي في الثلاثينيات – كان يوشك على ولوج عقده الثامن، وأصبح مظهره ضعيفاً، وبات يتكلم بصوت مرتجف ويمشي ببطء وتصلب. وهو وصل إلى سدة الحكم للمرة الثانية بعد وعد بإزالة الكثير من الإجراءات النيوليبرالية التي فرضها بيريز.

ورث كالديرا أسوأ انهيار مصرفي في تاريخ أميركا اللاتينية. بعد أن أثار انهيار بانكو لاتينو في كانون الثاني 1994 انهياراً شبه شامل للنظام المصرفي الوطني، احتشد المودعون الغاضبون خارج أبواب المصارف المحظورة يريدون سحب ودائعهم. وعند الوكالة الفدرالية التي تكفل المصارف، وقفت مجموعات صغيرة منهم طوال الليل، وكانوا يطلعون بعضهم على أي خبر يتمكنون من الحصول عليه ويقرأون الرسائل التي تركها المودعون الآخرون. وكانت إحدى هذه الرسائل تحوي قائمة بأسماء ثلاثة وستين مسؤولاً من بينهم الرئيسان بيريز ولوسينتشي، وكُتب فيها: «لا تدعوا المذنبين يهربون». وفي الأسفل، كتب شخص ما بالأحمر: «اعدموهم. الآن!».

تحت ضغط مطالبته بالتصرف، لم يفعل كالديرا شيئاً سوى مفاقمة المشاكل. «كانت الحكومة مذعورة. ولحاجتها الماسة لتجنب انهيارات مصرفية إضافية، قامت ببساطة بطبع الأوراق النقدية، مما أدى إلى ازدياد التضخم بشكل حاد وانحدار قيمة البوليفار». حاول كالديرا أن يحد من الضرر عن طريق فرض القيود على أسعار المواد الغذائية والدواء والعملات الأجنبية وحتى بطاقات الدخول إلى المسارح.

كما أصدر مرسوماً يعلّق العمل ببعض الضمانات الدستورية، سامحاً للحكومة بمصادرة الأملاك الخاصة والقيام باعتقالات من دون الإجراءات القانونية الاعتيادية وفرض القيود على السفر. وعندما أعاد الكونغرس الضمانات بعد عدة أسابيع، قام كالديرا ببساطة بفرضها مجدداً. وهدد بإجراء استفتاء يرغم الخاسر، أي إما هو أو

المجلس التشريعي، على الاستقالة، فتراجع الأخير. كما بدأ بإرسال عناصر الشرطة لاستجواب منتقدي حكومته، من الأكاديميين إلى رجال الإعلام.

بالإضافة إلى ذلك كله، بدا كالديرا غير قادر على حل مشاكل الأمة المتفاقمة، إذ إن سلسلة الخطط الاقتصادية المتغيرة باستمرار لم تفلح - ثماني خطط خلال أول سنة ونصف من عمر إدارته - في التخفيف من حدة المأزق الاقتصادي. فارتفع التضخم بنسبة 71 بالمئة في العام 1994 و57 بالمئة في العام 1995، وهما النسبتان الأعلى في أميركا اللاتينية. وفي نيسان عام 1996، فعل كالديرا ما أقسم على ألا يقوم بفعله أبداً - «ركع على ركبتيه» أمام صندوق النقد الدولي. فطبّق النوع نفسه من الإجراءات الاقتصادية الصادمة التي فرضها بيريز.

لتنفيذ هذه المهمة المقيتة جنّد كالديرا آخر شخص يمكن توقعه من مناصري اقتصاد السوق الحر النيوليبراليين، ألا وهو المتمرد الماركسي السابق تيودورو بيتكوف؛ ابن شيوعي بلغاري منفي وطبيبة بولونية. كان بيتكوف - بشاربه الكثيف المميز وأسلوبه الساخر وذكائه الحاد - أسطورة بالنسبة لليسار، فهو اقتصادي تخرَّج بدرجة تفوُّق، وساعد في قيادة واحدة من أقوى الحركات اليسارية في أميركا اللاتينية خلال الستينيات، كما شارك في عمليات لافتة ضد الحكومة، بما فيها اختطاف كولونيل في الجيش الأميركي.

أمضى بيتكوف ثلاث سنوات في السجن وهرب مرتين. المرّة الأولى، هرب مع عدة رفاق من سجن سان كارلوس العسكري في كاراكاس بحفر نفق طوله 230 قدماً بأيديهم العارية ثم زحفوا داخله إلى أن وصلوا إلى مخزن يعج برفاقهم الماركسيين الفرحين، وبعد ذلك غادروا المكان وسط فوضى الاحتفال بأحد الكرنفالات؛ ولم يسبق أن هرب أحد من السجن من قبل. والمرة الثانية، ابتلع ثم بصق دم بقرة هُرِّب إلى داخل السجن من أجل إقناع السلطات بأنه كان مريضاً فأخذوه إلى المستشفى العسكري وهناك أنزل حبلاً مصنوعاً من شراشف معقودة من نافذة في الطابق السابع ثم فر هارباً.

في الخمسينيات، انضم بيتكوف، القائد الطلابي اللامع وصاحب الشخصية الساحرة إلى الحزب الشيوعي وناضل لإسقاط الديكتاتور ماركوس بيريز جيمينيز. وفي الستينيات، ذهب إلى الجبال عندما شعر اليساريون بأن الديمقراطية التي استبدلت الديكتاتور القوي كانت برجوازية ولا تمثل الجماهير الفقيرة. لكنه استسلم مع بقية المتمردين في العام 1969 وقبلوا العفو من كالديرا لأن ثورتهم المسلحة لم تنجح في الانتشار على نطاق واسع.

انشق بيتكوف وآخرون غيره عن الحزب الشيوعي في العام 1971 لأنهم وجدوا أن النموذج السوفييتي كان ديكتاتورياً. بعد ثلاث سنوات، تلقى تعنيفاً علنياً من الرئيس السوفييتي ليونيد بريجنيف بسبب تأليفه كتاباً يدين الغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا في

العام 1968، الذي سحق حركة ربيع براغ الديمقراطية. شكَّل المنشقون حزب الحركة نحو الاشتراكية الذي أصبح ثالث أكبر حزب في فنزويلا. وفاز بيتكوف بمقعد في مجلس الشيوخ وترشَّح للرئاسة مرتين، وخسر بفارق كبير في المرتين. خلال حملته الأولى، كتب المؤلف الكولومبي الحائز على جائزة نوبل، غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة مدح فيها محاولتي فراره الجريئتين وعشقه للأدب ونشاطه السياسي الجسور. وفي نهاية المطاف هاجر بيتكوف إلى الوسط ومن ثم إلى اليمين.

كانت خطوة كالديرا بتعيين بيتكوف مسؤولاً عن خطته الاقتصادية التغييرية ضربة فائقة الذكاء، مع أن رفاقه الشيوعيين السابقين اعتبروه خائناً وأداة للرأسمالية المتوحشة. عيَّن كالديرا بيتكوف وزيراً للتخطيط في آذار 1996، وبعد شهر من ذلك التعيين أعلن الرئيس برنامجه الاقتصادي الجديد، مطلقاً عليه اسم **أجندة فنزويلا**. فساد شعور بالارتياح في أوساط بورصة وول ستريت، لأنه إذا كان متمرد شيوعي سابق سيصادق على رزمة الإجراءات الاقتصادية، فلابد أن الأمر جيد. دافع بيتكوف عن خياره بقوله إن الخيارات كانت محدودة وإن العالم قد تغير. وهو كان قد وصف فنزويلا قبل أسبوع من الإعلان عن البرنامج بأنها كانت «منزلاً يحترق».

أصبح بيتكوف كبير مروجي الإدارة لإجراءات اقتصاد السوق الحرة الجديدة، حيث احتل الصفحات الأولى في الجرائد بقدر كالديرا نفسه. ولكن، من المؤكد أنه كان أكثر إثارة للاهتمام من الرئيس. عندما خضع لجراحة بسيطة في الركبة، وضعت صحيفة *El Universal* اليومية صورة له في سرير المستشفى على الصفحة الأولى مع عنوان عريض: «الاقتصاد لن يعرج». وبحسب بعض الروايات، أصبح بيتكوف أكثر تشدداً من التكنوقراطيين المتعلمين في الولايات المتحدة الذين نفذوا رزمة إجراءات بيريز. حيث ناقش سن قانون عمل جديد، وخصخص بعض الصناعات الحكومية، وأجرى اتفاق إقراض مع صندوق النقد الدولي، وحاول اجتذاب المستثمرين الأجانب إلى البلد، ورحَّب بفتح الصناعة النفطية المؤممة أمام الشركات الدولية، وسلَّم إشعارات بإنهاء الخدمة لثمانين ألف موظف من أصل 1.4 مليون موظف فنزويلي.

لكن، حتى سحر شخصية بيتكوف وتاريخه كيساري أصيل سابق لم يتمكنا من إقناع معظم الفنزويليين بمنافع البرنامج أو رفع حظوظ كالديرا. فالإجراءات الاقتصادية الجديدة لم تفلح كثيراً في تحسين حياة العمال العاديين، والتضخم قفز إلى مستوى قياسي محققاً نسبة 103 بالمئة في العام 1996 في بلد لم يعرف أبداً تضخماً مرتفعاً قبل التسعينيات. وانخفضت نسبة شعبية كالديرا خلال سنتين من 66 بالمئة في أيار 1994 إلى 33 بالمئة في أيلول 1996. وغرقت فنزويلا أكثر فأكثر في ركودها الاقتصادي.

مع تزايد حدة انتقاد الحكومة، شدد كالديرا إجراءاته القمعية. فقد أمر في آذار 1995 للمرة الثالثة خلال أقل من عام بالإغارة على يساريين يُشتَبه بأنهم كانوا يحاولون

زعزعة الحكومة. حيث أغار البوليس السياسي على نحو مئة مكتب ومنزل واعتقل 150 شخصاً، بمن فيهم عشرات من مناصري تشافيز. ومن بينهم الشرطي السابق فريدي بيرنال، وشقيق قائد الانقلاب أدان، وحتى بطل الملاكمة السابق في وزن الريشة أنطونيو إسباراغوزا. لكن الحكومة لم تجرؤ على اعتقال تشافيز نفسه، لأنها كانت تعرف بأن هذا الأمر سيثير اضطراباً واسع النطاق وسط وضع سياسي خطر. بيد أنها استهدفت الأشخاص المحيطين به. فكرر تشافيز تحديه لكالديرا بأن يزج به في السجن ليرى من منهما سيبقى لمدة أطول: المتمرد في السجن أو الرئيس في ميرافلوريس. فما كان من الشرطة إلا أن أطلقت سراح المحتجزين ومن دون توجيه أي تهم لهم، الأمر الذي أحدث مجدداً انطباعاً بأن الاعتقالات كانت سياسية تعسفية وليست بدافع إجراء تحقيق جدي.

كانت الاحتجازات جزءاً من حملة متواصلة من المضايقة ضد تشافيز وأنصاره، حيث كان البوليس السياسي المرهوب الجانب يلاحقه في أنحاء البلد المختلفة. ولهذا السبب كان تشافيز حذراً على الدوام من إمكانية أن يقوم بعض العملاء بتشويه سمعته من خلال دس المخدرات أو الأسلحة غير القانونية في أماكن تواجده. ولم يكن الاعتداء الجسدي بعيداً عن الحسبان أيضاً. لذا، كان دافيلا، الكولونيل المتقاعد، يحمل مسدساً أو يبقيه على المقعد بجانبه في الشاحنة. كان عملاء الشرطة يراقبون بشكل دائم مكتب بانيز في تشوواو حيث كان تشافيز يجري الكثير من اجتماعاته، ما جعله يعقد بعضها في السيارات أحياناً بينما كانوا يدورون حول المدينة لتجنب تجسس الأمن السياسي عليهم. وفي أكثر من مناسبة، كان تشافيز يرتدي شعراً مستعاراً أو قبعة أو شارباً مزيفاً حتى لا يتعرَّف عليه العملاء.

كان الأمن السياسي يتجسس على هواتف تشافيز وهواتف أنصاره الرئيسيين، ويسرق سياراتهم أيضاً. إذ يعتقد هيكتور نافارو -الأستاذ في جامعة فنزويلا المركزية الذي شكل جزءاً من حكومة ظل لتشافيز والذي أصبح في تلك الأثناء يلتقي معه كل يوم ثلاثاء تقريباً- بأنه الوحيد تقريباً الذي لم تُسرَق سيارته. وقد لجأت السلطات إلى هذا الأسلوب لدفع الحركة لارتكاب الأخطاء لأنها كانت تعرف بأن تشافيز وأنصاره لا يملكون الكثير من المال لاستبدال سياراتهم المسروقة. ولم تسلم ناقلة تشافيز أيضاً في نهاية المطاف، حيث أشعل أحدهم النار فيها ذات ليلة عندما كانت مركونة في حي بروباتريا في كاراكاس.

بلغ هجوم كالديرا على المنتقدين حداً سخيفاً للغاية، حيث قام الأمن السياسي في تشرين الأول 1996 باعتقال عالم فلك لأنه توقع بموت كالديرا في العام التالي. ولمدة يومين تركوه محتجزاً من دون أي اتصال مع الخارج في مقر الأمن السياسي، حيث نام على أرض إسمنتية في إحدى الزنزانات. كان خوسيه بيرناردو غوميز، الملتحي والممتلئ الجسم، رئيس جمعية الفلكيين الفنزويلية، وكان أيضاً أستاذاً جامعياً للفلسفة

وحائزاً على شهادات دبلوم في التاريخ والتعليم وعلم النفس والفلسفة من ثلاث جامعات فنزويلية. بعد إطلاق سراحه، قال غوميز للصحفيين بأنه عندما سُئل من أين استقى معلوماته بشأن احتمال موت كالديرا، أجابهم بأن الخرائط الفلكية للرئيس كانت تظهر وجود مشاكل تلوح في الأفق. «كان أورانوس فوق الشمس، وبلوتو في موقع قوي، والمريخ يسير وراء قمره». ثم نوّه إلى مسألة أن موت كالديرا قد يكون رمزياً، كأن يترك منصبه مثلاً. «أتمنى للرئيس صحة جيدة»، مضيفاً بأنه صوَّت له في العام 1933. «أنا لا أراهن على مرضه، وبنسبة أقل على موته. كل ما في الأمر أن العام 1997 يبدو من الناحية الفلكية مظلماً بالنسبة لكالديرا».

حاول مسؤولو الحكومة المحرجون أن يقللوا من أهمية الحادثة، فقال وزير الداخلية خوسيه غويليرمو أندويزا بصورة مقتضبة: «إنه ليس متهماً بأي شيء». والبوليس السياسي كان يريد فقط أن يعرف «الأسس التي ارتكز عليها في تصريحه هذا».

صرَّح غوميز - الذي تُنسَب إليه الكثير من التوقعات الصحيحة - بأنه إذا ظل كالديرا حياً أو في منصبه على الأقل بحلول 8 حزيران القادم فإنه سيترك علم الفلك إلى الأبد. وعندما حل الموعد وكان كالديرا ما يزال في منصبه اعتبرت الحكومة الأمر نصراً لها. وفي محاولة لدحض الإشاعات التي تقول إن الرئيس الثمانيني العليل الذي لا يُرى إلا نادراً لم يعد حياً، اتخذ المسؤولون بعض الإجراءات، كما فعلوا قبل عدة أشهر عندما جعلوه يذهب من مبنى الكونغرس إلى القصر الرئاسي مشياً على الأقدام. وفي مناسبة أخرى، نشرت الإدارة على الصفحات الأمامية من الصحف صوراً تظهر كالديرا وهو يلعب الدومينو بعد ظهر يوم أحد.

كان سلَف كالديرا المنتخَب، كارلوس أندرياس بيريز، يعاني بدوره من مشاكله الخاصة. فبعد سنة من محاكمته التي جرت في أيار 1993، أصدرت المحكمة العليا مذكرة مفادها أن التحقيق في تهم الفساد أشار إلى أن بيريز واثنين من مساعديه متورطون في إساءة استعمال الأموال. فقررت السلطات أن تخضع الرئيس للمحاكمة. وفي خطوة غير مسبوقة أمرت باعتقاله واحتجازه، فكانت تلك هي المرة الأولى في حقبة الديمقراطية في فنزويلا التي تقدم فيها السلطات على احتجاز رئيس، وهو أمر نادر في أميركا اللاتينية بصورة عامة. وأشارت الحكومة الفنزويلية إلى الأمر باعتباره دليلاً على أن النظام كان يقوم بعمله. بينما قال المنتقدون إن الحكومة لم يكن لديها خيار آخر؛ كانت النخبة مضطرة للتضحية بفرد منها كي تمنع النظام من الانهيار.

جاء بيريز إلى المحكمة العليا في ذلك الصباح بعد صدور المذكرة وانتقد القضية برمتها معتبراً أنها كانت مسيَّسة. ثم غادر مع حقيبة مليئة بالكتب إلى سجن إل خونكيتو في حي كاتيا في كاراكاس، الذي شهد بعض أسوأ مظاهر القمع في مجزرة كاراكاس.

لكـن إل خونكيتـو، علـى أي حـال، كان من بين أفضل السجون في فنزويلا وأكثرهم راحـة. ثـم لحـق به وزيـر داخليته السابق أليخاندرو إيزاغويـر. أما مساعده الآخر، رينالدو فيغويريدو، فقد تمكّن من الهرب من البلاد.

كان عالم بيريز الجديد عبارة عن زنزانة بطول اثني عشر قدماً وعرض تسعة أقـدام. وعلـى مـا يبـدو، لقد أثمرت سنوات تجواله في العالم، إذ تلقى الرئيس السابق سيلاً من الدعم من قبل القادة في الخارج الغاضبين بسبب سجنه. لكنه كان منبوذاً في الوطن، فالمواطنون كانوا يشتمونه في الشوارع لأنهم كانوا يحمّلونه مسؤولية مصائب الأمـة، بمـا فيهـا انهيـار القطـاع المصرفي. وبعد ساعات من اعتقـال بيريز، أجرت اللجنة التنفيذية في حزبه، العمل الديمقراطي، تصويتاً انتهى بطرده من الحزب الذي ساعـد فـي تأسيسـه منـذ أكثر من خمسة عقود؛ فـي العام 1941. لكن الاجتماع تحول إلـى شجـار صاخـب تبادل فيه بعض المجتمعـون اللكمات والكراسي المعدنية الطائرة؛ كان بيريز ما يزال يملك بعض المناصرين.

كان ذلك بمثابة إنذار لسلَفه جيمي لوسينتشي ذي الثمانية والستين عاماً، فسارع إلـى الاستقالـة مـن الحـزب بعد بضعة أسابيع منهيـاً عضويته التي دامت حياة بأكملها. وكان لوسينتشـي حينئـذ يخضـع لاستجـواب على خلفية ادعاءات تتعلق بتحويل خمسمئة ألـف دولار مـن أمـوال الأمـن القومـي السرية من أجل شـراء 65 سيارة جيب – من بيـن أشيـاء أخرى – استُخدمـت خـلال حملة بيريز الرئاسية في العام 1988. كما كانت السلطـات تحقـق فـي ادعاءات أخرى بشـأن سماحه لسكرتيرته الخاصة وعشيقته بلانكا إيبانيز باستخدام مليون دولار من أموال الحكومة في إقامة حفلات باذخة واستيراد 24 حصاناً أبيض من الولايات المتحدة لابنتها. لكن المصير الذي حل ببيريز ألقى الرعب في نفسها فرحلت خلسة من البلد على ظهر يخت، وقد حدث ذلك في شهر تموز.

بعد فترة قصيرة من سجن بيريز، وسّع النائب العام في فنزويلا، جيسوس بيتيت دا كوستا دائرة الادعاءات بحقه. حيث ادعى بأن بيريز قام بسحب كميات كبيرة من الأموال الحكومية المسروقة من خلال عشيقته سيسيليا ماتوس، الذي اتهمها بامتلاك ما لا يقل عن 200 مليون دولار في حسابات مصرفية سويسرية لم يكن بإمكان الحكومة الوصول إليها. وماتوس هذه – وهي سكرتيرة حكومية سابقة كانت تكسب بالكاد مئتي دولار في الشهر – كانت تمتلك شقة في حي Sutton Place الفاخر في مانهاتن. وفي نهايـة المطـاف أصبحـت تعمل مـع مصممة الأزياء الفنزويليـة كارولينا هيريرا، ولها ولدان من بيريز.

لكـن الرئيـس السابـق، الذي نشأ فقيراً، وأمضى حياته كلها في السياسة، والذي كدّس – بحسب معظم الروايات – ثروة هائلة، أنكر الادعاءات كلّها بحقه. وبعد أسبوعين مـن سجنـه حصـل بيريـز على فترة من الراحة، إذ أطلقـت المحكمة العليا سراحه من السجن ووضعته تحت الإقامة الجبرية في منزله بينما استمرت محاكمته، عملاً بقانون

يسمح لمن تجاوز السبعين من عمره - كان بيريز آنذاك في الثانية والسبعين - بانتظار المحاكمة في المنزل. فعاد كما المنتصر إلى La Ahumada، المنزل المحصن الواقع على قمة تلة في ضواحي كاراكاس حيث كانت تعيش زوجته المهجورة، بلانكا رودريغيز دي بيريز.

بدأ بيريز يعيش حياة روتينية كما لو أنه كان ما يزال رئيس دولة ذا شأن، إذ كان يستقبل الصحفيين والحلفاء السياسيين، ويتلقى الاتصالات الهاتفية من الزعماء الأجانب. كانت الصور التي تجمعه مع جورج بوش الأب وجيمي كارتر وآخرين تملأ جدران مكتبه. وهناك صندوقان زجاجيان يعرضان عشرات الأوسمة التي مُنحت له من قبل بعض الرؤساء الأجانب. بالإضافة إلى بندقية من متمردي الكونترا النيكاراغويين والتي تُحيي دوره في نقل ذلك البلد من الحرب إلى السلم.

كان يصحو من النوم يومياً قبل الفجر بعد بضع ساعات من النوم، ويمارس الرياضة لمدة تسعين دقيقة، ومن ثم يرتدي إحدى بزاته الأنيقة استعداداً ليوم آخر من العمل. صحيح أنه كان لا يزال ينضح بالسحر الذي جعل النساء تصاب بالإغماء خلال حملاته الانتخابية، إلا أنه لم يكن قادراً على الذهاب إلى أي مكان. لذا بدأ بالاتصال مع الناس بواسطة الإنترنت.

لعدة سنوات ظل تشافيز يؤيد الامتناع عن الانتخابات في فنزويلا. كان يعتقد بأنها لعبة معروفة النتائج مسبقاً، مسرحية هزلية لا أمل فيها للغرباء بالفوز. فكما رأينا آنفاً، لقد أصدر هو وبعض المتمردين الآخرون في العام 1993، بينما كانوا في سجن يار، بياناً يدعون فيه الناس إلى مقاطعة الانتخابات الرئاسية والبرلمانية ومجالس الولايات التي كانت ستجري في كانون الأول من ذلك العام. «إن المشاركة في انتخاب كهذا الانتخاب الذي تتحكم به طبقة النخبة يعني أن تجعل من نفسك شريكاً في عملية استهزاء مقصودة بالتطلعات الشعبية لحركة مثل حركتنا»، بحسب تعبير البيان. كما وصفوا الانتخابات بأنها «غير شرعية وغير قانونية»، وأنهوا البيان باقتباس من بوليفار: «التاريخ بأكمله يبيِّن بأن السياسيين المتعفنين لن يشفوا أنفسهم بالمسكنات».

ولَّد البيان والجدل حول مقاطعة الانتخابات واحدة من أسوأ الانشقاقات بين المتمردين خلال الفترة التي قضوها في السجن. فقد كان أرياس كارديناس يعارض بشدة موقف تشافيز، وكان الجدال بينهما حاداً جداً. كان أرياس يعتقد بأن النظام سيسمح لغرباء مثلهم بالمشاركة وتحقيق الفوز، وسرعان ما سيبرهن لتشافيز صحة كلامه. لكن نزاعهما تطور إلى درجة أن أرياس انشق عن حركة تشافيز البوليفارية.

خلال السنة الأولى أو السنتين من خروجه من السجن، كان تشافيز ما يزال يفكر في القيام بانقلاب. كان يأمل بإحداث ثورة مدنية-عسكرية يتبعها مؤتمر دستوري بغية إصلاح النظام القائم. «خلال هاتين السنتين، 1994-1995، لم نستبعد إمكانية

الرجوع إلى الكفاح المسلح. لكننا كنا نريد تقييم الاحتمالات في ما يتعلق بقوتنا الحقيقية، فاستنتجنا بأننا لم نكن نملك ما يكفي من القوة... لم يكن الوضع في ذلك الوقت يسمح بالقيام بحركة مسلحة أخرى... بعد تحليلنا للوضع أدركنا بأن القيام بتمرد عسكري آخر سوف يكون ضرباً من الجنون».

بعدما تبين أن احتمالات نجاح انقلاب آخر كانت ضئيلة جداً، حثه بعض مستشاريه، ومن أبرزهم لويس ميكويلينا، على إعادة التفكير في موقفه بخصوص الانتخابات في فنزويلا. كان ميكويلينا يعتقد بأن تشافيز سيفوز بشكل كاسح بحيث إن الماكينة الانتخابية التي تتحكم بها النخبة لن تتمكن من إنكار فوزه. وللتحقق من ذلك قرر تشافيز ورفاقه إجراء استطلاع للرأي. صحيح أنّهم كانوا يعرفون من ردّ فعل الناس في الأحياء الفقيرة بأن تشافيز كان يملك تأييداً هائلاً في الشوارع، إلا أنهم أرادوا أن يكتشفوا بأسلوب أكثر علمية مدى اتساع ذلك التأييد.

قاموا بتنظيم فرق مكونة من أخصائيين في علم النفس وعلم الاجتماع وأساتذة جامعيين وطلاب من أجل تنفيذ الاستطلاع. وأضافوا إليهم أشخاصاً من خارج حركتهم في محاولة للحفاظ على درجة من الموضوعية. ثم قسّموا البلد إلى ثلاث مناطق - شرق وغرب ووسط - وطلبوا من الأعضاء العاديين في الحركة البوليفارية أن يستطلعوا آراء المواطنين. طُرحت الأسئلة على عشرات الآلاف من الناس، وكان هناك سؤالان رئيسان: هل تؤيد ترشيح هوغو تشافيز إلى الرئاسة؟ هل ستصوّت له؟.

انكب تشافيز وخورخي جيورداني وهيكتور نافارو وآخرون على التدقيق في النتائج. كانت الإجابة على السؤال الأول 70 بالمئة نعم و30 بالمئة لا. «كانت النتيجة واضحة تماماً: الناس يريدونني أن أترشح للرئاسة». بحسب قول تشافيز لأحد الصحفيين. أما نتيجة السؤال الثاني فقد كانت تشير إلى أنه قد يفوز بالفعل، إذ إن 57 بالمئة قالوا بأنهم سيعطون أصواتهم له. وكانت الأرقام مفاجئة لأن استطلاعات الرأي التي أجرتها بعض المؤسسات الخاصة - الكثير منها مرتبطة مع النخبة الفنزويلية - بيَّنت بأن تشافيز كان بالكاد ظاهراً.

في الحقيقة، ثمة سبب آخر دفع تشافيز لإعادة التفكير في موقفه بشأن الاشتراك في انتخابات تديرها الحكومة. إنه ترشّح أرياس كارديناس - مع انسحاب حزب القضية الجوهرية وبعض المجموعات الأخرى - لمنصب حاكم ولاية زوليا في انتخابات كانون الأول 1995. إذ كان جلياً خلال الحملة الانتخابية بأن أرياس كان يلقى الكثير من التأييد (على الرّغم من أن تشافيز كان يفوقه شعبية كونه قائد الانقلاب الأكثر سحراً). ففي إحدى الجولات على البلدات الريفية خارج ماراكيبو، «كانت الأمهات بشعرهن المعقوص بلفائف التجعيد والشبان الذين يتجرعون الشراب والمتقاعدون المسنّون يلوحون ويهللون للموكب الصاخب من الشاحنات والسيارات المرافقة لأرياس. كانت الموسيقى تصدح من إحدى الشاحنات: صوّتوا للقائد! وكانت هناك امرأة ترتدي ثوباً

منزلياً أبيض وأصفر تصيح بينما كانت تصعد إلى شاحنة البيك أب التي يقف عليها أرياس: هذا ما نحتاجه في البلد!».

وعلى الرغم من افتقاده لدعم حركة تشافيز MBR-200، التي كانت تتمسك بمقاطعتها للحملة، إلا أن أرياس فاز في النهاية. وبعد شهرين، انتقل إلى القصر نفسه الذي استولى عليه خلال انقلاب الرابع من شباط 1992. فأصبح بذلك حاكماً للولاية المسؤولة عمّا لا يقل عن نصف الناتج الاقتصادي الفنزويلي بما تملكه من نفط ومعادن ومواشٍ.

أمضت الحركة البوليفارية عاماً كاملاً تناقش مسألة ما إذا كان ينبغي على تشافيز أن يترشح لمنصب الرئيس أم لا. وعقدوا لأجل ذلك اجتماعات محلية ومناطقية ووطنية. وغالباً ما كانت الجلسات تبدأ في الصباح ولا تنتهي حتى منتصف الليل. ومع أن الكثيرين من البوليفاريين كانوا يؤيدون الفكرة، إلا أن تشافيز واجه بعض المعارضة أيضاً. عارض بعضهم السير في طريق الانتخاب «واتهمونا بالتخلي عن الثورة لأننا أنهينا الكفاح المسلح... كنا نعلم بأن السير في طريق الانتخاب كان قراراً استراتيجياً يمكن أن يكون كارثياً، وأننا قد نمشي بأرجلنا إلى المصيدة التي نصبها النظام لنا، وأنه قد يوصلنا إلى بقعة من الرمال المتحركة».

لكنه أراد المجازفة. وفي أوائل نيسان 1997 بدأ بإخبار الصحفيين بأن حركة MBR-200 تفكر في ترشيح شخص ما. وفي 19 نيسان – ذكرى استقلال فنزويلا – عقدت الحركة البوليفارية مؤتمراً وطنياً خاصاً لاتخاذ قرار نهائي بشأن المسألة. وبعد الاجتماع الذي بدأ حوالى التاسعة صباحاً وانتهى في الثانية من صباح اليوم التالي، قرروا إعلان ترشيح تشافيز، على الرّغم من أنهم كانوا يعتقدون بأنهم يقدمون على مجازفة كبيرة، إذ لم يكن هناك سباق رئاسي وحسب، بل انتخابات إقليمية ومحلية ستجري كلها في اليوم نفسه. بالطبع، لم يؤيد الجميع ذلك القرار، بل وأكثر من ذلك، فقط قدم بعض الأعضاء الأساسيين في الحركة استقالتهم نتيجة لذلك.

وبعد ثلاثة أشهر – في تموز – سجّل تشافيز رسمياً الحزب الجديد، حركة الجمهورية الخامسة (MVR) في المجلس الانتخابي الوطني. كانوا مضطرين لتغيير اسم الحركة لأن القانون الفنزويلي كان يحظر استخدام اسم سيمون بوليفار للأحزاب السياسية.

كان هناك نحو ألفي مناصر يهتفون لتشافيز خارج مكاتب المجلس الوطني في ذلك اليوم. لقد باشر القائد طريقاً جديداً سيجعله مشهوراً في شتى أنحاء المعمورة وقوة يُحسَب حسابها. لكن وسائل الإعلام الدولية بالكاد علّقت على الأمر، مكتفية بذكر موجز للتطورات، أو متجاهلة الأمر برمته. فبعض وسائل الإعلام التي أتت على ذكر ترشيح تشافيز اعتبرت الأمر بأنه غير ذي أهمية على الإطلاق. «قلة من الفنزويليين يعتقدون بأن الكولونيل المساعد المتقاعد يملك فرصة جدية بالفوز، وذلك

لأن شعبيته التي بلغت ذات يوم عنان السماء انحدرت إلى الحضيض... يقول النقاد بأنه يتكلم كثيراً عن بطل الاستقلال الأميركي الجنوبي سيمون بوليفار وقليلاً جداً عن الحلول الملموسة لمشاكل البلد، مثل البطالة والفقر والفساد». كما استشهد أحد الصحفيين باستطلاع حديث للرأي يعطي تشافيز نسبة 8 بالمئة من أصوات المقترعين.

لـم تكـن عينـا الحكومـة مثبتتيـن علـى قائـد الانقـلاب السابق، بل علـى آيرين سايز.

الفصل الرابع عشر

الحسناء والوحش

كانـت آيريـن سايز – ملكـة الجمـال السابقة – رئيسة بلدية مقاطعة غليتزي تشاكاو في كاراكاس. وبما أن فنزويلا تبجّل ملكات الجمال، فإن سايز كانت السياسية الأكثر شعبيـة فـي الأمـة، بحسب استطلاعات الـرأي. وقد سحرت هذه الشقراء الجميلة ذات الطـول الفـارع، التـي تدعـو نفسهـا قنبلة ذرية سياسية، لبّ الشعـب ووسائل الإعلام والمؤسسات الرسمية معاً بأجنتدها الإدارية النظيفة في تشاكاو فضلاً عن جمالها وسلوكها اللبق اللذين تعلمت كيف تهذبهما عندما كانت ملكة جمال فنزويلا. وبهذه التوليفة من الصفات الخلْقية والخُلُقية والإدارية بدت لا تُهزَم.

كانت فنزويلا مهووسة بمهرجانات الجمال. ففي ليلة انتخاب ملكة جمال فنزويلا، كانت الحركة تتعطل في البلد، بسبب تسمُّر ملايين المواطنين أمام شاشات التلفزيون. وكان ذلـك الحفـل الباهـر الذي يدوم أربـع ساعات كاملة هو العرض الأكثر استقطاباً فـي السنـة. إذ كان يجتـذب مـا لا يقل عن ثلثي عدد المشاهدين. والشيء نفسه بالطبع ينطبق على حفل ملكة جمال العالم إذا كانت ممثلة فنزويلا تملك حظاً بالنجاح. وهي كانت كذلك بالفعل في معظم الأحيان. ففي الفترة التي برزت خلالها سايز على الساحة السياسيـة، كانـت فنزويـلا عاصمـة ملكات الجمال في العالـم بلا منازع، حيث فازت سيداتهـا بعشـرة ألقـاب دولية كبرى بيـن 1979 و1997، متفوقة على الدول الأخرى كلّها على الرّغم من أنها تمثل 0.4 بالمئة فقط من عدد سكان العالم.

بالنسبة لبعض الناس، كان هوس فنزويلا بالجمال ومهرجاناته يمثل إشارة مقلقة إلـى السطحيـة والميـل إلى الاهتمـام بالمظهر بدلاً من الجوهر، وإلى البعد عن التفكير الجدي. من الواضح أنها فكرة غير متأثرة بمسألة المساواة بين الجنسين. في الواقع، مع معدل درجة حرارة قدره 82 درجة فهرنهايت في كاراكاس – وأعلى من ذلك في الداخل – كانت النساء مضطرّات لارتداء ملابس تكشف الكثير عن مفاتنهن. فالسراويل الضيقـة والسّتـرات المكشوفـة الصـدر والأثواب القصيـرة أو المفتوحة عن الظهر هي الألبسـة التقليديـة للجميـع، مـن السكرتيرات إلـى المحاميات. وهذا ما جعل منها مدينة غريبـة ذات ميـزة جنسانيـة تلامس حدود التفاهـة. بالطبع، كان الرجال يعبِّرون عن إعجابهم بحرية، وهذا ما كان يُتوقع منهم غالباً.

أنتجت مهرجانات ملكات الجمال الوطنية سلسلة من الممثلات الناجحات وسيدات

الأعمـال الثريـات. لكـن آيرين سايـيـز اختارت لنفسها طريقاً مختلفـاً؛ السياسة. عندما رشحت نفسها للمرّة الأولى في العام 1992، اعتقد معظم الناس بأن الأمر كان مجرد مزحة. ولا بدّ من أنّها ملكة جمال مخبولة أو هذا ما كانوا يعتقدونه.

كانـت آيرين - وهـي الأصغـر بيـن ستة أخوة مـن رجل الأعمال كارلوس سايـيز وزوجتـه ليجيا - فـي الثالثـة مـن عمرها عندما توفيـت أمها بمرض السرطان وهي في الأربعين من عمرها. مزّق موتها آيرين، وترك فيها أثراً لا يُمحى. «اعتدت أن أنظر إلـى السمـاء فـي الليـل معتقدة أن أمي هـي النجمة الأشد بريقاً فيها. ومنذ ذلك الحين، إنها ملاكي الحارس، صوتي الداخلي». كما قالت سايـيز لمجلة بيبول التي وضعت لها صـورة مشرقـة تحـت عنـوان: «ليس مجرد وجـه جميل آخر». بعد وفاة أمها تربَّت سايـيز في منزل محافظ وميسور الحال بمساعدة اثنين من أخواتها الأكبر سناً. وعندما بلغـت التاسعـة عشـرة مـن عمرها وكانت آنذاك طالبة في كلية الهندسة، تحدث صوتها الداخلـي إليهـا. وقـال لهـا بأن تنافس على لقب ملكة جمال فنزويلا. وعلى الرّغم من أنهـا لـم تكـن تهتـم كثيراً بمسابقـات الجمال قبل ذلك الحين، إلا أنها دخلت السباق في الدقيقة الأخيرة، قبل أسبوعين فقط من بدئه.

من دون نظام حمية، ولا جراحة تجميلية، ولا خبرة في عرض الأزياء، ومع القليل من التحضير، فازت آيرين في النهاية. وبعد فترة قصيرة تابعت طريقها لتحصد لقـب ملكـة جمـال العالـم. وعن تلك التجربة تقول آيريـن لمجلة بيبول: «كنت أعرف داخل قلبي وروحي بأنني سأفوز. كنت أتمنى فقط لو كانت أمي معي لتشاركني تلك اللحظة». أمضت عاماً كاملاً في التجوال في العالم، وقابلت الكثيرين من رونالد ريغن إلـى مارغريـت تاتشـر إلـى أغوستو بينوشيه. وبعد انتهاء مدة مُلْكها، قيل إنها رفضت عقداً بملايين الدولارات لتكون النجمة المشاركة لجون ترافولتا في فيلم سينمائي، وذلك لأن هوليوود، كما تقول، «لم تكن تجتذبني».

بدلاً من ذلك، بدلت آيرين اختصاصها لتدرس العلوم السياسية في جامعة فنزويلا المركزيـة، إحـدى أهـم الجامعـات العامة في فنزويـلا. واستمرت لمدة عام واحد في دورها كممثلة فنزويلا للثقافة في الأمم المتحدة. عملت سايـيز على تكوين صورة تظهر أنهـا متدينـة تحضـر الاحتفال الديني كل يـوم تقريباً، وتعارض الإجهاض، ومتطوعة فـي جمعيـة دينيـة. مـع ذلـك، فهي لم تكن مجرد فتاة كشافة تحاول القيام بما هو خير لها ولبلدها. فعلى امتداد عقد من الزمن تقريباً «استمتعت بشيء ما من نمط حياة فتاة ثريـة لعـوب. حيـث اتخـذت من مصرفي فنزويلي بـارز عشيقاً لها وجالت الدنيا باسم مصرفه». كونسوليدادو، حيث كانت تعمل كناطقة باسمه (أي باسم المصرف).

بـدءاً مـن أوائـل تسعينيات القرن العشرين، حوّلـت سايـيز طاقاتها نحو السياسة. كان لديها شعور داخلي يدفعها للعمل في مجال خدمة الناس. وكانت تعتقد بأنها تستطيع الاستفـادة مـن شهرتهـا وصلاتهـا العالمية وتعليمها في مجـال العلوم السياسية من أجل

تحسين ظروف العيش في الأمة الفقيرة على الرّغم من ثروتها النفطية. فازت في الانتخابات على منصب مدير بلدية تشاكاو بعد أسبوع من المحاولة الانقلابية في تشرين الثاني 1992. وسرعان ما أسكتت النقاد الذين ظنوا بأنها لم تكن أكثر من شقراء لا عقل لها، بعد قيامها بتنظيف تشاكاو.

كانت تشاكاو بمخازن باسكين-روبينز ومطاعم ماكدونالد التي تقدم خدمتها للزبائن في سياراتهم تبدو مثل قطعة من الولايات المتحدة في فنزويلا. تقع تشاكاو على التلال الملتصقة بسفح جبل أفيلا الأخضر وتُعتبَر المنطقة الأكثر غنى في كاراكاس وموطناً للكثير من البعثات الدبلوماسية في العاصمة. لكنها مع ذلك كانت في حالة سيئة للغاية، فالجرائم كانت متفشية وسرقة المطاعم الفخمة من قبل العصابات المسلحة كانت شائعة، مما جعلها مكاناً خطراً للخروج في الليل. كما أن الشوارع كانت قذرة والساحات العامة في حالة مزرية.

الهجوم الأوّل الذي قامت به آيرين استهدف الجريمة المنتشرة. ولكي تعيد الأمان إلى الشوارع مجدداً، قامت آيرين بحرفنة جهاز الشرطة، فاستخدمت متخرجين جامعيين للعمل كضباط في السلك، ورفعت أجورهم إلى مستوى عال، وألبستهم قبعات بيضاء تشبه تلك التي رأتها على رؤوس رجال الشرطة البريطانية عندما زارت لندن بصفتها ملكة جمال العالم. كما وضعت ضباطاً متنقلين على عربات غولف أطلق عليها اسم عربات آيرين؛ استوردت الفكرة من الشرق الأقصى. وأرسلت غيرهم من رجال الشرطة على مزالج توضع في الأقدام، وعلى دراجات جبلية، وسكوترات آلية. وعلاوة على ذلك، اشترت أسطولاً من سيارات الشرطة الجديدة اللماعة لتجوب الشوارع المظللة بالأشجار.

انخفضت نسبة الجريمة إلى حدٍّ كبير وامتلأت الشوارع من جديد بالمتنزهين في الليل. وأصبح بإمكان مرتادي المطاعم أن يتناولوا طعامهم بسلام. كما نظفت الساحات العامة، مثل بلازا ألتاميرا، حيث أصبحت ترى العجائز يقصدونها للجلوس على مقاعدها الأنيقة تحت الأشجار المتلألئة بالأضواء في الليل بينما يندفع الأولاد على مزالجهم بجانب النوافير المتدفقة التي ظلت جافة لسنوات. لقد منحت رئيسة البلدية الشابة الجذابة دروساً صباحية في رياضة تاي تشي الصينية للمواطنين المسنّين، وجهزت فريقاً إسعافياً للحالات الطارئة كان يجري اتصالات هاتفية بالمنازل، وحسّنت عملية جمع القمامة. كما وظّفت مجموعة من المديرين الممتازين واستمعت لنصائحهم في كل شيء من وضع الميزانية إلى إدارة الخدمات العامة. في النهاية، تحولت تشاكاو إلى واحة من الأمان والنظافة والحياة الثقافية في مدينة كان معظم الناس فيها يقفلون الأبواب على أنفسهم في الليل، والشوارع قذرة والثقافة كانت تتكون بشكل رئيسي من مشاهدة المسلسلات التلفزيونية العاطفية. وما حدث في تشاكاو كان أقرب إلى المعجزة إلى درجة أن الناس أطلقوا عليها لقب هند آيرين.

عندما حان موعد إعادة انتخابها في كانون الأول 1995 كانت سايز تتمتع بشعبية كبيرة إلى درجة أنها لم تكبد نفسها عناء تنظيم حملة انتخابية. والشخص الوحيد الذي تجرأ على ترشيح نفسه في مواجهتها، وهو المحامي باولو كاريلو، تعرَّض للتوبيخ من أمه بالذات ومن المدرسة الثانوية التي تخرج منها. ولم يتمكن كاريلو من مهاجمة سايز إلا في أمر واحد تقريباً، مظهرها الخارجي، حيث قال: إنها دمية بلاستيكية لكن سايز سحقته في الانتخاب حيث نالت 96 بالمئة من مجموع الأصوات، فكان أكبر نصر غير متكافئ خلال سبعة وثلاثين عاماً من الحكم الديمقراطي في فنزويلا.

بعد فترة قصيرة من ولايتها الثانية بدأ الناس يتحدثون عن رغبتهم بأن تصبح آيرين رئيسة. كانت تُعتبر عملة نادرة في فنزويلا؛ سياسية نزيهة وكفوءة. وبالإضافة إلى ذلك فهي شابة وجميلة وتعرف كيف تكسب قلوب الناس. كانت آيرين ترتدي أغطية رأس هندية، وترقص على نغمات موسيقى السالسا، وتذهب إلى الاحتفالات راكبة دراجة آلية للشرطة، وتطبع القبل على وجنات الرجال المسنين. ودعاها الرئيس السابق لويس هيريرا كامبينز بالكفوءة. بينما صنفتها صحيفة تايمز اللندنية من بين مئة امرأة هن الأكثر تأثيراً في العالم حيث حلت في المرتبة الثالثة والثمانين، متفوقة على جودي فوستر.

فكرت سايز قليلاً بالشائعات الرئاسية، على الرّغم من أنها أبقت نفسها بعيدة عن الأحزاب التقليدية التي كان يمثلها هيريرا كامبينز. فلم تنضم إلى أي منها أو تشكل حزباً خاصاً بها. لكنها، بدلاً من ذلك، أسست حركة كي يتمكن مناصروها من الانضمام إليها، وأطلقت عليها اسم تكامل، إصلاح، وأمل جديد (كانت الأحرف الأولى من اسم الحركة بالإسبانية تشكل معاً كلمة *IRENE*). ومع دخول الحملة الانتخابية سنتها الحاسمة في العام 1998، كانت سايز الأكثر حظاً بالفوز، على الأقل بحسب استطلاعات الرأي الرسمية.

كان هوغو تشافيز غائباً عن شاشة رادار المؤسسات الرسمية. ووسائل الإعلام الكبرى، فهي كانت إما تتجاهله كلياً وإمّا تهاجمه بقسوة. وقد ارتكب تشافيز بعض الهفوات التي زودت تلك الوسائل الإعلامية بالذخيرة اللازمة. ومنها علاقته بعالم الاجتماع الأرجنتيني نوربيرتو سيريسول؛ وهو مفكر قد أبدى اهتماماً بالأنظمة العسكرية التقدمية، لكنه انتقل لاحقاً إلى أقصى اليمين. أثار انقلاب تشافيز في العام 1992 اهتمام سيريسول، فأرسل بعض كتبه وبطاقة تحمل رقم هاتفه إلى القائد في سجن يار. وبعد بضعة أشهر من خروج تشافيز من السجن، سافر إلى الأرجنتين واتصل به.

كان سيريسول رجلاً مثيراً للجدل. فقد زعم مرة بأنه كان عضواً في جماعة مونتونيروس، وهي جماعة متمردة بيرونية قومية يسارية متطرفة نفذت في سبعينيات القرن العشرين سلسلة من الهجمات والاغتيالات وعمليات الخطف. ولاحقاً، دافع

سيريسول عن الانقلاب العسكري الذي أطاح بأرملة خوان بيرون، إيزابيل بيرون، في العام 1976 والذي أنتج نظاماً ديكتاتورياً دموياً تحت قيادة الجنرال خورخي فيديلا. وادعى سيريسول بأن منظمات حقوق الإنسان التي انتقدت الارتكابات التي حصلت خلال الحرب القذرة التي حدثت في الأرجنتين بين عامي 1976 و 1983 - عندما قتل النظام العسكري أو أخفى ما لا يقل عن ثلاثين ألف إنسان - كانت جزءاً من مؤامرة يهودية ضد الأمة. كما أبدى ارتيابه بحقيقة حدوث الهولوكوست فعلاً.

وعلى الرّغم من آراء سيريسول الغريبة وغير المقبولة أخلاقياً، أحس تشافيز بالانجذاب نحوه، وذلك لعدة أسباب، منها اهتمامه السابق بالزعماء العسكريين التقدميين. فقد ألّف سيريسول، البيروني الراديكالي، كتباً في مديح الجنرال البيروفي خوان فيلاسكو ألفارادو، الذي أثار حكمه الإصلاحي اهتمام تشافيز عندما كان طالباً في الأكاديمية العسكرية في بداية سبعينيات القرن العشرين. كما كتب سيريسول بشكل إيجابي عن الجنرال البانامي عمر توريجوس؛ شخصية أخرى ألهمت تشافيز الشاب عندما كان يبحث عن طريقة لصهر وعيه الاجتماعي الناشئ مع مهنته كجندي.

كان سيريسول يعتبر البيرونية بأنها: «الحركة الأكثر أهمية ونبلاً في تاريخ الإنسانية». أما عن الأسباب التي دفعته إلى تكوين هذا الرأي، فهذا ما قاله للصحفي ألبيرتو غاريدو، مستذكراً جذوره المتواضعة:

> لم تكن عائلتي تملك أحذية قبل بيرون. وعندما انتهت البيرونية كنا نملك منزلنا الخاص بنا، بعد دفع القروض المستحقة كلّها. قبل ذلك لم يذهب والداي في رحلة أبداً، ولم أكن قد رأيت البحر من قبل. لكنني تمكنت من رؤيته عندما بلغت العاشرة أو الثانية عشرة من عمري. لقد أصبح هناك رحلات. كانا حزّين، حزّين تماماً. حسناً، هذا يُسمى كرامة.
>
> إن الطبقة الوسطى والطبقة العليا تكرهان الشعبوية لأن هذا يعني المشاركة. ولكن، نحن الذين ننتمي إلى الطبقة الدنيا نقول تعيش الشعبوية! لأنها تمنحنا الكرامة. عندما بلغت سن العاشرة لم أكن قد رأيت كرة قدم من قبل. كنت أراها في الصور وإيفا بيرون ومؤسسة إيفا بيرون أعطتنا لوازم كرة القدم، كرة قدم، كرة قدم حقيقية. كانت مصنوعة من الجلد، كرة قدم أصلية. كما منحتنا قمصاناً... وأحذية.
>
> كنا نتحدث عن الشعب وهو بالطبع العدو الأبدي للطبقة الحاكمة، هذا طبيعي. وهذا هو سبب تشكيلهم تلك الصورة السوداء عن بيرون، وكأن بيرون كان ابن هتلر... كل دولار نعطيه للناس هو دولار لا نعطيه لصندوق النقد الدولي. ولهذا السبب، تعيش الشعبوية. ليس هناك شكل آخر من الثورة في الأميركيتين غير هذه.

هنـا سبـب آخـر لانجـذاب تشافيز نحو سيريسول. فخلال جولته في بلدان جنوب أميـركا الجنوبيـة فـي العـام 1994، أغلـق الكثيـر مـن اليساريـين فـي الأوروغواي والأرجنتين – الذيـن باتـوا يرتابـون في الضباط العسكريين الذين يسعون للقيام بانقلاب على الحكم، بعد أن دمرت الأنظمة العسكرية الديكتاتورية اليمينية بلديهم – أبوابهم في وجـه تشافيـز. بيـد أنّ سيريسـول كان واحداً من قلة أبـدوا استعدادهم لمقابلة تشافيز. بالإضافـة إلـى ذلـك، كان سيريسول يملك بعض الأفـكار التي أثارت اهتمام تشافيز، مثل توحيد التجارة والنقل في بعض الأنهار الكبرى في أميركا الجنوبية، من بينها لا بلاتا والأمازون وأورينوكو.

لكن الأهم من ذلك كله، هو أن سيريسول قدّم لتشافيز رؤية حول كيفية الوصول إلـى السلطـة، والمحافظـة عليهـا، عبر الالتفاف على الأحـزاب السياسية التقليدية سيئة السمعة. وكانت فكرته الشهيرة ثلاثية الجوانب تتعلق بتوحيد القائد والجيش والشعب. «سيحوّل الشعب الجيش إلى جناح مسلح في مشروع ثوري وطني ويجعل من الفقراء قاعدته الشعبية الداعمة». وكان سيريسول يعتقد بأن وجود:

> قائد لمثل هذا المشروع السياسي سيثير مواجهة استراتيجية بين عالم أحادي القطب وآخر متعدد الأقطاب، وفيه سيواجه القائد الهيمنة العالمية للولايات المتحدة من خلال حشد العوامل كلّها المعادية للنفوذ الأميركي. وسينشـأ محـور متعـدد الأقطاب يتضمن متمرديـن يساريين، وحركات اجتماعية تقدمية، وحكومات حيادية في أوروبا وأميركا اللاتينية والشرق الأوسط. ووصف سيريسول فكرته بأنها متقدمة على الديمقراطية، لأن الرئيس سينحّي جانباً البرلمان والمحاكم والمؤسسات الأخرى التي تبطّئ عمليات اتخاذ القرار وتقيّد المشاريع الرئاسية الطموحة.

بعد لقاء سيريسول بتشافيز في الأرجنتين، عاد الرجلان والتقيا في وقت لاحق من السنة نفسها في كولومبيا. ويذكر سيريسول اللقاء الثاني بسبب الوضع المالي البائس لتشافيـز أكثـر ممـا تذكّـره بـه أي حوارات فكرية. «لم يكن يملك أي شيء. ولا حتى سنتـاً واحـداً. كان الوضـع سيئـاً جداً إلى درجة أننـا اضطررنا إلى تغيير الفنادق عدة مـرات لأننـا لـم نكـن نملـك المال الكافي لندفع. إنني أتكلم عن فنادق وضيعة نمنا فيها كل ثلاثـة فـي غرفـة... مـا كان يبحـث عنه تشافيز في تلك الآونة هو التمويل، وهو ما لم يتمكن من إيجاده في أي مكان».

رافق سيريسول تشافيز عندما عاد إلى فنزويلا، فعبرا الحدود براً لأنه لم يكن يملك المـال لشـراء تذكـرة طائـرة. ورافق الأرجنتيني تشافيز في بعض جولاته حول البلد ثم غادر إلى مدريد. في العام 1995 عاد إلى فنزويلا ثانية. وهذه المرة قد طفح الكيل من حكومة الرئيس رافائيل كالديرا من عالم الاجتماع المثير للجدل فطردته من البلاد.

لكن تشافيز كان يعتقد بأن طرده لم يكن حقيقياً، لأن سيريسول التقى خلال رحلته ببعض أعضاء حكومة كالديرا، مثل وزير الحدود بومبيو ماركيز، وهو متمرد سابق وعضو في حزب MAS. على أي حال، لم يكن تشافيز موافقاً على أفكار سيريسول كلّها: «من بين نظرياته وآرائه، كنت أتفق مع بعضها وأخالف بعضها الآخر. لكنه لم يكن بأي حال من الأحوال مستشاراً، أو معلماً. إنه مجرد مفكر وكاتب». سيريسول بدوره لم يتفق مع جميع مواقف تشافيز، فبحسب العالم السياسي دانييل هيلينغر: «إن إعجاب تشافيز بفيدل كاسترو، ورفضه التنكر للمعايير الديمقراطية الليبرالية والسيطرة المدنية على الجيش، وموقفه البراغماتي من الولايات المتحدة نفّرت سيريسول منه». عندما عاد الأرجنتيني مجدداً إلى فنزويلا بعد تولي تشافيز الحكم في العام 1999، طرده تشافيز من البلاد، كما فعل كالديرا من قبله.

حتى بعد إعلان تشافيز ترشيحه للانتخاب الرئاسي، بدت آيرين ساييز للبعض بأنها المرشح الأقدر على الفوز. فقد أسمتها بعض الصحف بحاملة طائرات قادرة على حمل مرشحين آخرين معها إلى الفوز بالمقاعد البرلمانية وغيرها من المناصب. وكان الحزب المسيحي الاجتماعي COPEI بقيادة الرئيس السابق هيريرا كامبينز – مناصر كبير لساييز – يفكر بجدية بحشد القوى إلى جانب ملكة جمال العالم السابقة ودعم ترشيحها للرئاسة. بدأت آيرين تحضير نفسها للمنصب الأعلى في الأمة، وشرع المستشارون في تدريبها في ميادين الاقتصاد والحقوق الدستورية وسياسة صناعة النفط. وعلى طاولتها في مكتب رئيس البلدية كانت تعرض نسخة من كتاب مارغريت تاتشر **الطريق إلى السلطة**.

لكنها بحلول أوائل العام 1998 بدأت تبدو بأنها غير قادرة على إلهاب مشاعر الناس. فبالمقارنة مع خطابات تشافيز النارية حول تدمير الوضع القائم، والدعوة لعقد مؤتمر دستوري من أجل إعادة كتابة الدستور، وإطلاق ثورة سلمية لصالح الجماهير الفقيرة، كان حديث آيرين مليئاً بالعبارات السطحية العذبة. كانت تتحدث عن حبها لشعبها والحاجة لجعل السياسة أكثر إنسانية. ولكن، في بلد يعاني من أزمة حادة بما فيها من طبقة سياسية فاسدة وتضخم كبير وانخفاض في أسعار النفط، بدت تصاريحها العاطفية الرقيقة بأنها غير قادرة على معالجتها. كانت لا تزال تتحدث مثل ملكة جمال تتجنب بقلق شديد إزعاج أي شخص بأي طريقة وفي أي مكان. عندئذ بدأ الناس يتساءلون ما إذا كان نجاحها في منطقة تشاكاو الغنية – ديزني لاند كاراكاس – يمكن أن يُطبَّق أيضاً في بقية مناطق البلد المعدومة بمشاكلها العميقة الجذور.

اتخذت آيرين قرارات في غاية السخافة، كمنعها التقبيل – على سبيل المثال – في الساحات العامة في تشاكاو في أواخر العام 1997. فبعد إحساسها بالذعر من شكاوى بعض الجيران التي تقول إن مظاهر العاطفة والحب كانت تتجاوز مجرد تبادل القبل

في الحدائق والساحات العامة، أرسلت آيرين رجال شرطتها الأنيقين للانقضاض على الأزواج الذين يتجاوزون في عناقهم ما كانت تعتبره حدود المقبول. فانطلق رجال الشرطة، مسلحين بالصفارات، يبحثون عن أولئك الذي يضمّون بعضهم أكثر من اللزوم، أو يتعانقون بحرارة زائدة، أو يقبّلون بعضهم لمدة طويلة. لقد فسَّر أحد رجال الشرطة الأمر بقوله: «إن التقبيل بحدّ ذاته ليس مشكلة. المشكلة هي عندما يقومون بذلك بطريقة تتجاوز الحدود الطبيعية». مع أنه اعترف بصعوبة تعريف مثل هذه القبلة، إلا أنه استدرك قائلاً: «عندما تشاهدها فلا بد أن تعرفها». قال بعض العشاق إنهم اعتُقلوا وزُج بهم في السجن لفترة وجيزة. فيما علَّق شاب في العشرينيات من عمره، كان جالساً مع صديقته على مقعد تحت مظلة مغطاة بنبتة معترشة، على الأمر بقوله: «أياً يكن الشخص الذي اخترع هذا القانون فلا بد أنه لا يملك صديقة».

لقد بدت الحملة سخيفة خصوصاً في بلد يعيش فيه الرؤساء مع عشيقاتهم علناً. فخلال ولاية الرئيس جيمي لوسينتشي، 1984-1989، جهّز غرفة نوم في قصر ميرافلوريس الرئاسي خصيصاً من أجل عشيقته وسكرتيرته الشخصية، بلانكا إيبانيز.

خلال الفترة نفسها التي كانت فيها ساييز تقمع التقبيل في الساحات العامة، كان بعض الصحفيين يشيرون إلى وجود علاقة تربطها بقطب العقارات دونالد ترامب، الذي كانت إمبراطوريته تشمل مسابقة ملكة جمال العالم. ومع أنها قالت إنهما كانا مجرد صديقين، إلا أن بعض الصحفيين تحدثوا بحماس عن علاقة عاطفية جنسية متوقعين بقرب زواجهما. «يقول أصدقاء آيرين إنها أسرت قلبه تماماً كما أسرت قلوب الشعب الفنزويلي». بحسب ما أوردته صحيفة *El Nuevo Pais* اليومية في كاراكاس. ثم استشهدت الصحيفة بصديق لساييز لم تكشف عن اسمه: «آيرين هي فتاة أحلام دونالد. إنها تملك الجمال والذكاء والطموح. كل هذا في قالب غاية في الإثارة».

بينما كانت ساييز تحاول تبديد شائعات علاقتها الحميمة مع ترامب وتقمع التقبيل، كان تشافيز يبشر بالثورة. وكانت رسالته تصل إلى شرائح واسعة من الناس، إذ بدأ يكسب النقاط في استطلاعات الرأي. والبعض قال إن الانتخاب بدأ يأخذ شكل منافسة بين الحسناء والوحش.

كان الحزب السياسي الجديد لتشافيز، حركة الجمهورية الخامسة (MVR)، يملك تصورات كبيرة، أبرزها تأسيس جمهورية جديدة يتحمَّل تشافيز مسؤولية القيادة فيها. أسست أول جمهوريتين خلال حروب الاستقلال، فيما تأسست الثالثة في زمن تشكيل اتحاد Gran Colombia في العام 1819. أما الرابعة، فقد تأسست بعد أحد عشر عاماً (في العام 1830) على يد أحد جنرالات بوليفار، خوسيه أنطونيو باييز، وكانت الأطول بينها. لكن تشافيز كان يصر على أنها لم تكن أبداً ديمقراطية حقيقية، مؤكداً بأنها بُنيت

بواسطـة «طبقـة مـن المتنفذين والمصرفيين على عظام بوليفار وسوكري». أما حركة تشافيـز فإنهـا ستمنـح البلـد بدايته الجديدة الأولى خلال قرن ونصف من الزمن، حيث ستستعيد مُثل ومبادئ المحرر وتطرد الأشرار الذين نهبوا الأمة. وعلى الرّغم من أن الحركة كانت صغيرة في البداية، إلا أنها نجحت في اجتذاب عدد من المدنيين واسعي الخبـرة مـن اليساريين القدامى في فنزويلا، مثل لويس ميكويلينا، والخبير الاقتصادي خوسيه رافاييل نونيز تينوريو، والمحامي عمر ميزا راميريز. وكان هؤلاء قادرون بالطبع على أن يمدُّوا تشافيز بما كان ينقصه من خبرة في ميدان العمل السياسي.

على الرّغم من تأسيس MVR، إلا أن تشافيز وحلفاءه حافظوا على MBR-200 كمـا هـي. كان بعضـ قادة MBR-200 يخشون من أن يؤدي التحاق مجموعة كبيرة مـن الأعضـاء الجـدد، ممـن لا يؤمنون بمبادئ البوليفاريين، بحركـة تشافيز المتنامية شعبيتها إلى تشويه جذورها الإيديولوجية. ولهذا السبب، شُكِّلت هذه الحركة المنفصلة، MVR، كي تدير أنشطة الحملة الانتخابية فقط. فكان بوسعها أن تستوعب شخصيات مستقلة ومجموعات أخرى ذات مذاهب ومواقف سياسية مختلفة، في حين تبقى MBR-200 الحصـن الحقيقـي للمعتقـدات البوليفاريـة. «لم تُشكّل MVR لتكون حزباً بل جبهة انتخابيـة تتحكـم بهـا MBR-200». ولـم تُعَدّ أيضاً لتكـون منظمة ديمقراطية تميل إلى اتخاذ القرارات بالإجماع مثل MBR-200، بل لتتخذ قرارات سريعة يُؤمَل أن تكون مصيبة في الشؤون المتعلقة بالانتخابات. وستُدار من قبل أشخاص يعيِّنهم تشافيز بنفسه ويثق بهم كل الثقة.

مثـل خلايـا تشافيـز الأولى في الجيش، واصل أعضـاء MBR-200 اجتماعاتهم فـي حلقـات صغيـرة فـي مختلف أنحـاء البلد كي يقرأوا معاً ويناقشـوا القضايا السياسية والإيديولوجيـة. وقـد أقسمـوا فـي إحـدى حلقاتهم بـأن يكونوا «صادقيـن، ومجدِّين، ومتواضعيـن ومتضامنيـن». مـع أن MBR-200 كانـت تضم عدداً كبيراً من الضباط العسكريين المتقاعدين، إلا أنها حاولت إزالة التراتبية بين العسكريين والمدنيين. فكان مجلس قيادتها الوطنية، على سبيل المثال، يتألف من ضابطين عسكريين سابقين - تشافيز ولويس دافيلا - وضابط سابق في الشرطة، ومدنيَّيْن.

تعايشـت MBR-200 وMVR معـاً لعـدة سنـوات، وفي أغلـب الأحيان، كانت العضويـة والأنشطـة والإيديولوجيـا متقاطعـة. وحتـى الأحـرف الأولـى للمجموعتين كانـت تبـدو متشابهـة، فـي الإنكليزية والإسبانية أيضاً. وسيلعـب استخدام المجموعتين المبتكر لرموز وصور الأبطال الوطنيين الفنزويليين الممثلين بالجذور الثلاثة - بوليفار ورودريغيـز وزامـورا - دوراً رئيسـاً فـي نجاح تشافيـز السياسي. في نهاية المطاف، ستحقـق MVR الكثيـر مـن الانتصـارات في الميدان السياسـي بحيث إنها ستغطي على MBR-200 التي ستختفي من الوجود كلياً.

عندما بنى تشافيز منظمته السياسية الخاصة بدأت الأحزاب اليسارية توجه أنظارها إليـه وتلتحـق به وبحملتـه الرئاسية. كان أبرز الأحزاب اليسارية، القضية الجوهرية، فـي طـور التقسيـم آنـذاك. ففـي نيسـان 1997 - الشهـر نفسـه الذي قرر فيـه تشافيز وMBR-200 السعـي للرئاسة - طـرد أندريـاس فيلاسكيـز (المرشـح الرئاسـي السابق عـن القضيـة الجوهريـة، وزعيم نقابة سابق أيضاً) عدداً من القادة من الحزب، وذلك لأنـه كان يريـد السيـر فـي طريق أكثر اعتدالاً ووسطية. وكان أريستوبولو إيستيوريز وعلي رودريغيز وبابلو ميدينا وآخرون يريدون أن يعززوا الموقف القومي المعادي للنيوليبراليـة بالتضامـن مـع الطبقـة العاملـة. فانشق حزب القضيـة الجوهرية وشكّلت مجموعـة ميدينـا حزبهـا الخاصـ بها وأطلقت عليه اسـم Patria Para Todos (PPT)؛ ويعني الوطن للجميع.

بحلـول نهايـة العـام 1997، أصبـح واضحـاً أن PPT وMVR يتشاركان الرؤية السياسية نفسها. بالفعل، ففي بداية السنة التالية، أعلن الحزب مساندته لتشافيز، جالباً معه خبرة سياسية هامة في الشوارع وفي مؤسسات الأمة. وشكّل PPT وMVR نواة ستتحول إلى Polo Patriotico (القطب الوطني)، وهو مزيج من الأحزاب والحركات دعـم ترشيـح قائـد الانقـلاب السابق. وفي تلك الأثنـاء، أعلن حزب القضية الجوهرية التابع لفيلاسكيز مساندته لآيرين ساييز.

كان الحـزب اليسـاري الرئيسـي الآخـر فـي فنزويـلا، حركة نحـو الاشتراكية (MAS)، يشـكل قـوة لا يُستهـان بهـا فـي البلد أيضـاً، إذ كان بعض أعضائه يشغلون منصب الحاكم في أربع ولايات. مع أن معظم قادة الحزب - بمن فيهم وزير التخطيط والمنقلب إلى النيوليبرالية تيودورو بيتكوف - كانوا يعارضون زعيم الانقلاب السابق، بـل إن بعضهـم كان يريـد مسانـدة آيريـن، إلا أن جزءاً كبيراً من قاعدة الحزب كانوا يفضلون تشافيز. استمر الجدل حتى حزيران 1998 عندما قرر MAS أخيراً الانضمام إلى قطب تشافيز الوطني. في ذلك الوقت، بالطبع، أصبح تشافيز يعتلي قمة استطلاعات الرأي.

مـع بدايـة تلـك السنـة، كان التيار قـد بدأ يتحول بشكل طفيف. كيف لا وترشيح تشافيز أعلن رسمياً، وبدأ الناس ينتبهون. من جهة تشافيز، فإنه كان دائماً يعتقد بأنه يمتلك دعم الجماهير على الرغم من أن ذلك الدعم لم يكن ينعكس في استطلاعات الرأي الرسمية. والسبب في ذلك، كما تقول طرفة في فنزويلا، هو أن منظمي الاستطلاعات كانوا يؤدون عملهم من خلال الوقوف خارج محطة أنفاق في ألتاميرا الثرية ويسألون الناس عن آرائهم. على أي حال، بحلول نهاية شهر شباط، ذكرت الصحيفة اليومية البارزة *El Universal* أنه حتى استطلاعات الرأي الرسمية أظهرت أن تشافيز يقترب بسرعة من سابيز، حيث ازدادت نسبة المؤيدين له من 4.6 بالمئة في أيلول المنصرم إلى 11 بالمئة. بينما أعطته بعض الاستطلاعات الأخرى نسبة 16 أو 17 بالمئة. أما

سابيز فقد كانت ثابتة عند 18.1 بالمئة، بحسب الصحيفة نفسها، وفي الذيل يقبع بضعة مرشحين آخرين.

في الحقيقة، كانت هناك عدة أسباب لتنامي تأييد تشافيز. منها مثلاً تشخيصه القاسي لأمراض فنزويلا المؤسساتية التي اعترف بصحتها حتى ألد أعدائه. والآن وقد أصبح مرشحاً رسمياً ويجتذب حشوداً ضخمة إلى حملاته، لم يعد بوسع وسائل الإعلام تجاهله. بالإضافة إلى هذا كله، كان انتقاده لسياسات كالديرا الاقتصادية النيوليبرالية يلقى صدى عند الكثيرين من الناس. صحيح أن كالديرا بعد مأساة اضطرابات العام 1989 وما تلاه من قمع، وبعد محاولتين انقلابيتين في العام 1992، ومحاكمة كارلوس أندرياس بيريز في العام 1993، وانهيار القطاع المصرفي في السنة التالية، استطاع تحقيق نوع من الأمن السياسي في البلد. حتى إن الاقتصاد أظهر في العام 1997 إشارات تتوقع استعادة عافيته، حيث ازداد الناتج الإجمالي المحلي بنسبة 5.12 بالمئة وانخفض التضخم بنسبة 50 بالمئة بعد أن كانت 99.97 بالمئة في السنة الفائتة، وارتفعت الموارد المالية إلى 17.745 مليار دولار.

بيد أن كالديرا لم يفعل الكثير لمعالجة المشكلات المؤسساتية في البلد وجعله عرضة لتقلبات السوق النفطية. فبحلول تشرين الأول 1997، بدأت أسعار النفط بالانخفاض مما أدى إلى كارثة اقتصادية أخرى لم تتفوق عليها إلا أزمة انهيار المصارف. لقد انخفضت الأسعار بنسبة 34 بالمئة خلال العام 1998 بالمقارنة مع السنة الفائتة، ووصلت إلى أدنى مستوى لها خلال سنوات في كانون الأول حيث بلغ سعر برميل النفط 7.66 دولاراً فقط. أدى ذلك إلى خسارة سبعة مليارات دولار من العائدات النفطية – مما دفع الحكومة إلى تقليص الإنفاق بمقدار 2.3 مليار دولار – وإلى التسبب بعجز مالي نسبته لا تقل عن 5 بالمئة في الناتج المحلي الإجمالي. مع اقتراب ولاية كالديرا من نهايتها، بلغ التضخم المتراكم 80 بالمئة، وهو الأعلى منذ ما يقارب الأربعين عاماً من الحقبة الديمقراطية في فنزويلا.

أصبحت الفوضى الاقتصادية ورقة بيد تشافيز الذي كان المرشح الوحيد الذي يهاجم سياسات كالديرا النيوليبرالية. وهو علاوة على ذلك قائد دينامي مثير للاهتمام، ويتمتع بشخصية ساحرة، ويتكلم لغة الفقراء، ويتعهد بإسقاط المؤسسات التي دمرت البلد. وكونه زعيم انقلاب سابق لم يؤثر في موقعه في قلوب الطبقة العاملة الواسعة، بل ساعده في الواقع. ففي تموز 1998، في أحد الاجتماعات الهادفة لترويج ترشيحه بعد البداية الرسمية لحملته الانتخابية (كان تشافيز يرتدي قبعة المظليين الحمراء التي أصبحت علامته الفارقة ويلوح بقبضته في الهواء أمام حشد من عشرة آلاف مؤيد)، لم يقدم أي اعتذار لمحاولته إسقاط الحكومة قبل ستة أعوام، بل على العكس من ذلك تماماً، حيث قال: «هيا، نادوني قائد انقلاب». ثم أضاف: «ارفعوا أيديكم إذا كنتم تعتقدون أن الانقلاب كان مبرراً». فارتفع بحر من الأيدي في السماء.

بينما كان تشافيز يرسخ نفسه كمدافع حقيقي عن الفقراء، استسلمت آيرين لضغط النخبة السياسية. كانت حملتها المتعثرة تتخذ أكثر فأكثر نمطاً هوليوودياً ومظهراً يعتمد على الصورة بشكل أساسي. على سبيل المثال، تضمَّن أحد الاحتفالات بمناسبة انطلاق الحملة في شهر أيار نجم السالسا الشهير أوسكار دي ليون. ومع تراجعها في استطلاعات الرأي، حاولت آيرين تغيير نمط شعرها، فربطت خصلات شعرها الأشقر المنسدلة على شكل كعكة ما جعلها تبدو بالنسبة لمعظم الناس كصورة فنزويلية مقلَّدة عن إيفا بيرون، مع أنها أنكرت محاولتها استحضار بطلة الفقراء الأرجنتينية المحترمة. في الوقت نفسه، حاولت تشويه صورة تشافيز واستعادة الناخبين لمعسكرها. فوضع فريقها في بعض المهرجانات الترويجية شاشة بحجم شاشة السينما وعرضوا صوراً للاضطرابات الدموية التي وقعت في العام 1989 ومحاولة تشافيز الانقلابية الفاشلة.

والأسوأ من ذلك هو قبولها دعم حزب COPEI. في الحقيقة، لقد كانت بحاجة لمساعدة حزب يملك قاعدة انتخابية راسخة قادر على رفع نسبة الأصوات المؤيدة لها. لكن عرض COPEI كان أشبه بكأس مسمومة، ذلك أن الأحزاب الفنزويلية التقليدية كانت مكروهة إلى درجة أن مجرد قبول دعمها كان يعادل الانتحار السياسي. فانخفضت نتائجها بحدة في استطلاعات الرأي. علاوة على ذلك، سحب حزب القضية الجوهرية دعمه لها في شهر آب. وعن سبب ذلك التراجع قال زعيم الحزب أندرياس فيلاسكيز: «أحسسنا ببساطة بأننا تعرضنا لخيانة. فآيرين لم تعد تمثل فرصة للتغيير. لقد فقدت مكانتها كمستقلة».

بدوره كان الحزب التقليدي الرئيسي الآخر في فنزويلا، العمل الديمقراطي (AD)، تائهاً كصنوه القديم COPEI. رشَّح الحزب أمينه العام ألفارو أوسيرو لخوض الانتخابات الرئاسية. كان أوسيرو في السادسة والسبعين من عمره، قطعة أثرية من ماضي AD وكان ديكتاتوراً على الطراز القديم أدار الحزب بقبضة حديدية. لكنه كمرشح لم يكن يتمتع بأي سحر خاص على الإطلاق. فكونه بيروقراطياً أمضى عمره يدير الأحداث في الغرف المغلقة، تلعثم أوسيرو في الخطابات العامة فلم يحرك مشاعر أحد. بالإضافة إلى ذلك، قلة من الناس خارج جهاز الحزب كانوا قد سمعوا باسمه من قبل. لكنه، على الرّغم من هذا كلّه، كان يملك أفضلية واحدة على الأقل. إذ كان حزب AD لا يزال - على الرّغم من فقدان هيبته - أحد أكبر الأحزاب في أميركا اللاتينية. والبلدات الفنزويلية التي تملك مقراً للحزب كانت أكثر عدداً من تلك التي تملك دور عبادة، وهذا بحدّ ذاته إنجاز كبير في بلد كاثوليكي متدين. كان AD مشهوراً ببراعته في استخدام الأموال العامة من أجل اجتذاب الناخبين من خلال المشاريع المصلحية أو إغداق العطايا. وهذا هو الحزب الذي كان يوزع دلاء الدهان في وقت الانتخابات كي يتمكن الناس من تحسين مظهر منازلهم ودعم AD في الوقت عينه. ولكن، حتى ماكينة الحزب الانتخابية الجيدة التزييت لم يكن بوسعها إنقاذ ترشيح ألفارو، ذلك أنها

كانت قضية خاسرة منذ اليوم الأول، فلم يتجاوز ألفارو الرقم 9 في استطلاعات الرأي أبداً.

مع تخبُّط الأحزاب التقليدية وصعود تشافيز، دخلت الولايات المتحدة طرفاً في الصراع، فأعلنت وزارة الخارجية بأنها لن تمنح تشافيز تأشيرة لزيارة الولايات المتحدة مستشهدة بمحاولته الانقلابية في العام 1992. وكان كلاماً يوحي بالكثير، ذلك أن الولايات المتحدة سمحت من قبل للعديد من قادة الانقلاب الآخرين بزيارة البلد من دون تردد. بعد عدة أشهر، كشف السفير الأميركي السابق في فنزويلا، مايكل سكول، ما كان ربما يفكر فيه الكثير من المسؤولين الأميركيين الآخرين ولكن لم يكن بوسعهم الإفصاح عنه علناً: «أشعر بصدمة وخيبة أمل كبيرة من أن يتمكن شخص لم تكن أفعاله حتى هذا اليوم سوى إرهابية وغير دستورية وغير ديمقراطية من الوصول إلى هذا المستوى. إنني أعاني صعوبة بالغة في تقبُّل الدلائل التي تشير إلى أنه سيكون قائداً صالحاً لفنزويلا وأنه سيكون ديمقراطياً».

استخف تشافيز بالرفض الأميركي له وقال في أثناء ظهوره في برنامج كوميدي تلفزيوني شعبي بأن القرار لم يسبب له القلق لأنه يملك مسبقاً بطاقة فيزا. ثم أخرج من جيبه بطاقة ائتمان (Visa) ووضعها أمام الكاميرا.

كان تشافيز يأمل بمخاطبة رجال الأعمال والأكاديميين والمستثمرين في وول ستريت في الولايات المتحدة من أجل قلب ما أسماه الأسطورة السوداء التي كان خصومه يحيكونها حوله. عقدت بعض وسائل الإعلام الفنزويلية صفقة مؤقتة معه عندما وجدت أنه كان يسير في طريقه إلى النصر، وحاولت إظهار درجة من الموضوعية في تغطيتها على أمل الحصول على بعض المكاسب في المستقبل. في حين أطلقت الوسائل الأخرى حملة عنيفة لتشويه سمعته. فنشرت بعض الصحف سيلاً من المقالات اللاذعة داعية تشافيز بالديماغوجي والمجرم والديكتاتور المنتخَب. كما عرضت المحطات التلفزيونية إعلانات تحوي موسيقى مجنونة وألواناً مدوَّخة وصورة رجلٍ بهيئة مخبول. بالطبع، كانت الرسالة واضحة: تشافيز شخص معتوه (*un loco*). وحذّر رافاييل بوليو من صحيفة *El Nuevo Pais* من أن «غاية تشافيز هي إقامة حكم شبه ديني من الرعب سيجعل من كل طاغية عرفته أميركا اللاتينية منذ القرن التاسع عشر يبدو غير ذي أهمية بالمقارنة به».

انضمت بعض وسائل الإعلام الدولية بدورها إلى الحملة. فأصدرت صحيفة ميامي هيرالد، التي كانت على ما يبدو تكنُّ كرهاً خاصاً لتشافيز (كان منتقدوها يسمونها صحيفة الطبقة المتنفذة اليومية)، مقالة إخبارية طويلة على صفحتها الأولى تشير إلى «تقارير غير مؤكدة تتحدث عن علاقات سرية مع دول مارقة في الشرق الأوسط مثل ...، وعن شائعات تقول إن كوبا تساعد في تدريب ميليشيات فنزويلية» يديرها تشافيز. صحيح أن التقارير لم تكن مؤكدة، لكن ذلك لم يمنع الصحيفة من نشرها.

فيما ذكرت صحف أخرى تقارير تقول بأن تشافيز كان يملك قائمة بأسماء الصحفيين القابلين للقتل في حال فوزه بالرئاسة.

في إحدى المراحل بلغت الحملة الدعائية المعادية لتشافيز حداً جعل تشافيز يشعر بأنه بات من الضروري بالنسبة له أن يصدر بياناً ينكر فيه بأنه «كان معتاداً على شرب الدم أو أكل الرضَّع المقليين على الإفطار». دعا الهجمات الموجهة نحوه بأنها جزء من «مختبر حرب نفسية» أقامه أعداؤه الأثرياء. «الكثير من الناس يقولون بأنني هتلر وموسوليني في وقت واحد. فيما يقول آخرون بأنني ... مع شيء من كاسترو».

كما عرضت شبكات التلفزيون مقاطع يعلن فيها بأنه سيقلي رؤوس أعضاء حزبي AD وCOPEI في مقلاة تحوي زيتاً مغلياً. على الفور نُشر هذا التعليق على نطاق واسع في وسائل الإعلام المحلية والدولية، ما أثار صوراً عن ديكتاتور عسكري أميركي لاتيني يشبه أغوستو بينوشيه يقضي على معارضيه حالما يصل إلى السلطة. ادَّعى تشافيز لاحقاً بأن المقطع كان ملفقاً أُعدَّ بمساعدة ممثل يقلد صوته. وكان مصيباً بالفعل، إذ أكَّد ذلك الممثل في نهاية المطاف ما قاله تشافيز، زاعماً بأنه لم يكن يعرف بأن عمله سيُستخدم لغايات دعائية معادية لتشافيز.

مع ذلك، فقد أدلى تشافيز بنفسه بما يكفي من التصريحات اللاهبة التي شكلت مادة مناسبة بالنسبة لخصومه لاستخدامها في إثارة مخاوف الناس من فيدل كاسترو جديد سيشيع جواً من الرعب سيقود في النهاية إلى حرب أهلية. حيث صرَّح في أحد المهرجانات بأنه سيمسح AD عن وجه الأرض. وفي مهرجان آخر قال بأن أولئك الذين يعارضون عقد المؤتمر الدستوري سيذهبون إلى السجن.

لكن، حتى عندما كان تشافيز يخطئ، لم يحسن معارضوه استغلال هفواته بالشكل المناسب. على سبيل المثال، بعد قصة قلي الرؤوس، عرض حزب AD إعلانات تلفزيونية تظهر صوراً لأناس فقراء يقفون أمام مقلاة تحوي زيتاً مغلياً. فتقول إحدى النساء بأن على تشافيز أن يقلي فنزويلا كلّها، لأننا «كلنا ننتمي إلى حزب AD». انقلب السحر على الساحر، فقد أثار الإعلان الكثير من النكات الساخرة وانتقاداً لاذعاً من اللجنة الانتخابية (فسحبته من البث)، وذكَّر الناس ببساطة كم كانوا يمقتون أعضاء AD.

لمحاربة هجوم الدعاية السلبية عليه، حاول تشافيز أن يُلمّع صورته قليلاً، فاستبدل زيه العسكري بكنزة صوفية أو ببزّة وربطة عنق. وتوجه إلى البرامج الحوارية التلفزيونية ومنح مقابلات قدر استطاعته. وانتقل من اجتماع لآخر مع مسؤولين من شركة سيتيبانك، وجي بي مورغان، ومورغان ستانلي، وغيرها من الشركات الاستثمارية الأخرى لتهدئة مخاوفها. وأكد بأنه سيرحب بالاستثمار الأجنبي ويؤدي مستحقات الدين الخارجي لفنزويلا ويحترم الملكية الخاصة. كما حاول التقرب من طوني بلير بقوله إنه يريد اتباع طريق ثالث أكثر إنسانية يقع بين الاشتراكية المتشددة

والرأسمالية المتوحشة.

واستلّ سلاحاً سرياً جديداً: امرأة.

حدث أول اتصال لتشافيز مع ماريزابيل رودريغيز في العام 1995 خلال واحدة من جولاته المتنقلة حول البلد. كان في تلك الأثناء ماراً بكارورا، وهي مدينة حارة خانقة في المنطقة الداخلية من فنزويلا تقع بالقرب من باركويزيميتو، مسقط رأس ماريزابيل. حاولت أن تشق طريقها عبر الحشود لتعطيه ورقة كتبت عليها اسمها ورقم هاتفها وعرضها بمساعدته في ثورته بأي طريقة ممكنة. كانت معجبة به أيما إعجاب على الرّغم من أنها لم تكن تعرفه.

لم تصل الورقة إلى أيدي تشافيز، لكنهما تعرّفا إلى بعضهما رسمياً بواسطة مقدم إذاعي في باركويزيميتو في كانون الثاني 1996. ثم توالت الاتصالات الهاتفية والرسائل حتى بدأا أخيراً - بحسب ماريزابيل - يتواعدان في 14 كانون الثاني 1997، وهو يوم يجري فيه مهرجان ضخم لتمجيد راعي المدينة، ديفينا باستورا. وحملت ماريزابيل منه - ربما حدث ذلك في تلك الليلة نفسها - وفي كانون الأول من العام نفسه، بعد شهرين من ولادة روزينياس، عقد قرانهما رسمياً.

في السنة التالية، رافقت ماريزابيل تشافيز - وطفلتهما أيضاً - في جولاته الانتخابية. كانت نعمة على القائد بما تتمتع به من جاذبية وحضور لافت، فهي شابة شقراء مشرقة الوجه ذات عينين زرقاوين ولها خبرة في وسائل الإعلام أيضاً. ساعدت ماريزابيل تشافيز - بالإضافة إلى تبديل زيه العسكري - على تحسين صورة زعيم الانقلاب السابق المتعطش للدماء التي روّجها خصومه. في تلك الأثناء، انتقل تشافيز - الذي كان يعيش في شقة صغيرة للويس ميكويلينا في ألتاميرا بعد خلافه مع نيدو بانيز - مع زوجته إلى منزله الخاص.

استمر شهر عسلهما طوال الحملة الانتخابية، لكن الأوقات الصعبة كانت بانتظارهما. ففي المنزل، كانت ماريزابيل مجادلة ومتقلبة وذات شخصية معقدة. فإذا أضفت إلى ذلك نمط حياة تشافيز غير التقليدية، وشخصيته العنيدة، وهوسه بتغيير فنزويلا، فإنهما كانا يشكلان مزيجاً قابلاً للاشتعال.

○●○

عندما أصبح واضحاً أن تشافيز كان متقدماً بفارق واضح في الحملة الانتخابية، دب اليأس في نفوس خصومه. وخوفاً من أن يحقق تشافيز فوزاً كاسحاً في الانتخابات البرلمانية والمحلية إلى جانب الانتخاب الرئاسي في 6 كانون الأول، اتخذ البرلمان الذي يسيطر عليه حزبا AD وCOPEI خطوة غير مسبوقة بفصل الانتخابات. فقدّم موعد الانتخابات الأخرى شهراً واحداً. كانوا يظنون بأن ذلك قد يحسّن حظوظهم في الانتخابات البرلمانية والولاياتية. لكنهم كانوا لا يزالون يفتقرون إلى منافس قوي في

مواجهـة تشافيـز فـي الانتخاب الرئاسي. ظلـوا يتحدثون لأشهر حول حشد قواهم كلّها ووضعهـا خلـف مرشـح واحـد في الدقيقة الأخيرة لمواجهة جبهة تشافيز. هذا ما حدث بالفعـل، فمـع تراجـع آيرين وألفارو، ركـزوا اهتمامهم على مرشح قدّمه حزب جديد آخر يُدعى *Proyecto Venezuela*، ويعني مشروع فنزويلا.

كان مرشح ذلك الحزب، هنريكه سالاس رومير، فرداً كلاسيكياً من طبقة النخبة الفنزويلية. وُلد سالاس في فنزويلا لكنه تعلّم في مدرسة لورينسفيل الابتدائية (المخصصة لأولاد الطبقـة الثريـة) فـي نيوجيرسـ، ومـن ثم التحق بجامعة يـال وتخرَّج منها في العـام 1961. ومنهـا تخـرَّج أشقـاؤه الثلاثة أيضاً. أصبـح سالاس رجل أعمال ناجحاً فـي فنزويـلا وانتُخـب فـي العـام 1989 حاكماً لولاية كارابوبـو، وهي مركز زراعي وصناعـي هـام. ادَّعـى سالاس بأنه حقق نجاحاً واسعاً بتطبيقه سياسة نيوليبرالية منتجة فـي أرضـ الهـدر. حيـث خفَّضـ عدد الموظفين في ميناء بويرتـو كابيلو من 5,300 إلـى 190 عامـلاً، ومكنـن الأكشاك المخصصة لدفع رسم العبور على الطرق السريعة كـي يتجنـب السرقـة من قبل الجباة، وأنشأ نظاماً هاتفياً للاتصال بالشرطة في الحالات الطارئة كان الوحيد من نوعه في البلد. سخر مستشارو تشافيز من تبجحاته وقالوا إنه مجرد فرد من الطبقة الثرية أدار ولايته لصالح العشرة بالمئة الأكثر غنى من السكان وتجاهل الباقي. لكن الاهتمام بحملة سالسا وصل حتى إلى نيو هافين، في كونيكيتيكت، حيث توقعت صحيفة الجامعة التي تخرَّج منها، يال دايلي نيوز، في أواخر أيلول بأنه كان في وضع يؤهله للفوز.

لكنـه كان بحاجـة للتغلـب على بعض المشاكل أولاً. فبالمقارنة مع سحر شخصية تشافيـز، كان العضـو السابـق فـي حزب COPEI، بشعره الأشيب وعمره البالغ اثنين وستيـن عامـاً، جافـاً وهادئـاً إلـى درجة البلادة فـي مهرجاناته الانتخابيـة، ولتحسين صورتـه، عمـد مديـرو حملتـه إلى نشر سلسلة مـن الدعايات التلفزيونية تظهره ممتطياً جواداً أبيض. وكانت الفكرة من وراء ذلك جعله يبدو أقل نخبوية وأكثر شبهاً بسيمون بوليفار أو سكان السهول البسطاء والأشداء. حتى إن سالاس قاد المئات من أنصاره، مـن بينهـم ملكـة جمـال العالم السابقة أليسيا ماتشادو، مسافة اثني عشر ميلاً على ظهر جواده انتهت بجولة في شوارع كاراكاس. بالنسبة للكثيرين من سكان الأحياء الفقيرة، كان المشهد مثيراً للضحك ويؤكد ببساطة كم كان سالاس بعيداً عنهم. أما بالنسبة لتشافيز فقد كان يدعوه على سبيل السخرية باسم حصانه، *Frijolito*، أي الرأس الصغير.

بينمـا كان المتنافسـان يتعـاركان رجلاً لرجل، وبينما كانت الانتخابات البرلمانية والمناطقيـة تقتـرب، بـرز مرشـح مفاجـئ في إحدى المنافسات علـى مقعد في مجلس الشيـوخ، إنـه كارلوسـ أندرياس بيريز. كانت محاكمة الرئيس السابق قد وصلت إلى نهايتها في تموز 1996 عندما أدانته المحكمة العليا بإساءة استخدام 17.2 مليون دولار مـن أمـوال الأمـن القومي السرية وأسقطت عنه تهمة الاختلاس الأكثر خطراً. فرحب

بيريـز بالحكـم واعتبـره بمثابة تبرئة لساحته. وأكـد محاموه بأن الإساءة الوحيدة التي ارتكبهـا تمثلـت بإرسالـه نحو ثلاثين مرافقاً شخصياً لحماية الرئيسية النيكاراغوية فيوليتا تشامورو في 1990 عند استلامها مقاليد الحكم إثر هزيمة الساندينيين.

حكمـت عليـه المحكمـة بالإقامـة الجبرية في منزله لمدة سنتين وأربعة أشهر، أي أنه كان سيصبح حراً بحلول شهر أيلول. فشرع على الفور بحملته الانتخابية لاستعادة مقعده في مجلس الشيوخ - ومعه الحصانة البرلمانية - الذي خسره قبل عدة أشهر ليصبح بذلـك أول رئيـس فنزويلـي يفقـد مقعده الدائم في مجلـس الشيوخ (لقد صوّت زملاؤه لصالح طرده من المجلس بسبب إدانته).

توجـه إلـى ولايتـه الأم تاتشيـرا حيـث كان يخطط للمنافسة على مقعد في مجلس الشيوخ الوطني في تشرين الثاني 1998، ثم جال في عشر ولايات أخرى. في الحقيقة، حتى أعداؤه اعترفوا بأنه كان يملك حظاً وافراً بالفوز في تاتشيرا، أحد الأماكن القليلة التي كان لايزال يتمتع بشعبية فيها.

غير أن حملته اصطدمت بعائق كبير في نيسان 1998، إذ وجّه إليه أحد القضاة تهمـة أخـرى. وهـذه التهمة تتعلق بادعاءات تقـول إنه وعشيقته سيسيليا ماتوس أودعا أموالاً غير قانونية في عدة حسابات مصرفية أميركية. ادعى بيريز بأنها مناورة أخرى لإبعاده عن الوصول إلى مجلس الشيوخ. فوضعته السلطات قيد الإقامة المنزلية الجبرية مجدداً. لكنه ببساطة أدار حملته من منزله، حيث كان يجري المقابلات مع الصحفيين، ويعدّ الدعايات التلفزيونية والإذاعية.

قبل أسبوع من الانتخاب، وافقت محكمة فدرالية على طلبه بنقل إقامته مؤقتاً إلى منـزل ابـن عـم لـه في تاتشيرا من أجل الأيام الأخيرة من الحملة. وعندما وصل إلى عاصمة الولاية سان كريستوبال، عمَّ الفرح في المدينة. كان الناس يهللون ويهتفون له من شرفات المنازل وبعضهم خرج للترحيب به.

بعـد أسبـوع، فـاز بيريز كما كان متوقعاً. وتحرر من الإقامة الجبرية، وحصل على حصانته البرلمانية، وانتهى اضطهاده حسبما قال لبعض الصحفيين. والآن سيكرس نفسه لإيقاف الرجل، الذي حاول إسقاطه عندما كان رئيساً، من الوصول إلى قصر ميرافلوريس.

لكـن تشافيـز كان يركـب عجلـة لا يمكن إبطاؤهـا. وكان نصر بيريز في ولايته الأم واحـداً مـن بضـع نقاط مضيئة فـي الانتخابات البرلمانية والمناطقية بالنسبة للقوى المعارضـة لتشافيـز. اعتبـر الكثيـر من المحللين تلك المنافسـات بمثابة جولة أولى في الانتخـاب الرئاسـي. حيـث فـاز قطب تشافيز الوطني في ثمانـي ولايات على منصب الحاكم فيها، من بينها ولاية بارنياس، التي حقق فيها والده نصراً رمزياً مثيراً للدهشة. وتعادل التحالف في عدد الانتصارات مع حزب العمل الديمقراطي المذهول، الذي كان

يعتقد بأنه – في أسوأ الحالات – سيحتفظ بالولايات الإحدى عشرة التي فاز بها في العام 1995. حتى إنه كان يظن بأن تحقيق أربعة عشر فوزاً كان أمراً ممكناً. كانت حصيلة الحزب المخيبة للآمال بتحقيقه ثمانية انتصارات فقط رسالة واضحة ومقلقة بأن التغيير قادم. وبالإضافة إلى انتصاراته، حل القطب الوطني أيضاً في المرتبة الثانية في عشر من ثلاث عشرة منافسة على منصب الحاكمية ما أثبت بوضوح أنه بات قوة ينبغي أن يُحسَب حسابها. في الحصيلة الإجمالية لعدد الأصوات في مختلف أنحاء الوطن، حقق القطب الوطني تقريباً ضعف عدد الأصوات التي نالها حزب العمل الديمقراطي: 1,096,116 مقابل 564,391 صوتاً. ولم يحقق أي من الأحزاب أغلبية لا في البرلمان ولا في مجلس الشيوخ؛ أحرز القطب الوطني حوالى ثلث عدد المقاعد.

مع اقتراب موعد الانتخاب الرئاسي، أصاب القنوط نفوس قوى المعارضة، إذ إن حملتهم لتصوير تشافيز كوحش لم تلق أي صدى عند ملايين المزارعين وقاطني الأكواخ في المدن. «لقد أطلقوا عليّ كل الأسماء؛ إرهابي، ديكتاتور، قاتل، جبان. وعلى الرّغم من كل ذلك ما تزال شعبيتي في ارتفاع». لهذا السبب قرروا أن الأمل الوحيد الباقي لهم لتحقيق الفوز يكمن في توحيد القوى.

ليلة الجمعة 27 كانون الأول، وقبل أقل من عشرة أيام على الانتخاب الرئاسي، اجتمع قادة الحزب الديمقراطي. وقرروا في النهاية – بعد جلسة تخللها عراك تبادل فيها بعضهم اللكمات – أن يتخلوا عن ألفارو أوسيرو كمرشح لهم. في اليوم التالي، أمروا أنصارهم بالتصويت لسالاس رومير. كان قراراً مضحكاً لكثير من الأسباب، أهمها أن الحزب أمضى شهوراً في مهاجمة حاكم كارابوبو، الذي أقسم قبل أقل من أسبوعين فقط بأنه لن يقبل دعم الأحزاب التقليدية.

أما بالنسبة لألفارو أوسيرو، الذي كرس حياته لخدمة AD، فلم يتقبل قرار الحزب ورفض الالتزام به. لهذا السبب طرده القادة من الحزب في اليوم التالي، وطلبوا من اللجنة الانتخابية أن تحوّل أي ورقة انتخابية باسمه إلى سالاس رومير. لكن بحسب القانون الفنزويلي، يمكن أن يحدث ذلك فقط في حال استقال المرشح الأصلي أو توفي أو أعلن عدم أهليته. غير أن ذلك لم يكن له أي تأثير على ما يبدو، إذ وافقت اللجنة الانتخابية في نهاية المطاف على طلب AD.

في يوم الاثنين 30 تشرين الثاني، بعد يومين من طرد حزب AD لألفارو، تخلّى بدوره الحزب الرئيسي الآخر في فنزويلا، COPEI، عن مرشحته آيرين ساييز. وطلب قادته من أنصارهم أن يمنحوا أصواتهم لسالاس رومير أيضاً. ومثل ألفارو، رفضت ساييز الانسحاب من المنافسة، وقالت إنها ستستمر مع أو من دون دعم COPEI. في الواقع، كانت محاولات المعارضة قد بدأت تتحول إلى عرض هزلي، لأنه بدا واضحاً للجميع بأنهم غير قادرين على منع انتصار تشافيز. أو بحسب تعبير عمدة كاراكاس السابق وحليف تشافيز أريستوبولو إيستيوريز قبل أسبوع من الانتخاب:

«لن يُهزَم تشافيز من قبل أي شخص على وجه البسيطة. لا بد أن يأتي شخص ما من كوكب آخر. دعوهم يأتون بشخص من المريخ ليروا إذا كان باستطاعته تحقيق ذلك».

فاز تشافيز بالفعل، محققاً نصراً واضحاً حيث حصد 56.20 بالمئة من الأصوات مقابل 39.97 بالمئة لسالاس؛ النسبة نفسها التي توقعت بها حركته قبل عامين. فقد جمع تشافيز 3,673,685 صوتاً من أصل 5.2 مليون صوت - أكثر بحوالى 1.2 مليون صوت من سالاس. فيما نالت ساييز 184,568 صوتاً، وألفارو 27,586 صوتاً فقط. وانطلقت الأفراح في معظم أنحاء كاراكاس، فرقص الناس في الشوارع، وأطلقوا الألعاب النارية، وأطلقوا العنان لأبواق سياراتهم. أما في الأحياء الثرية فقد ظلت الشوارع هادئة على نحو مخيف. وقد لخصت إحدى المقيمات في حي ألتاميرا عندما أدلت بصوتها في وقت سابق من ذلك اليوم بقولها: «إنه رجل مجنون طليق من دون أي قيد، شيوعي».

في تلك الليلة، بعد إعلان النتائج، ظهر تشافيز على تراس خارج مسرح تيريزا كارينو حيث أجرى بيريز حفل تتويجه قبل عقد من الزمن تقريباً. كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل تقريباً. والأضواء الكاشفة تنير الشوارع المكتظة بحشد كبير من أنصاره الفرحين، وعلم كبير لفنزويلا يرفرف فوقه. كانت لحظة تاريخية وعاطفية لا تُنسى. فجر حقبة جديدة يبدأ بالبزوغ. «لقد بدأت ولادة فنزويلا من جديد»، صاح تشافيز، «ولا شيء ولا أحد يمكنه إيقافها».

الكثير من المحللين والصحفيين فسروا انتصار تشافيز بأنه ضربة للاعتقاد السائد بأن الديمقراطية والأسواق الحرة كانت حتمية في أميركا اللاتينية. لقد كانوا محقين في النقطة الثانية في الواقع، إذ خاب أمل الفنزويليين والأميركيين اللاتينيين بثورة السوق الحرة التي نُشرت قسراً في المنطقة على مدى العقد السابق من قبل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والحكومة الأميركية. فالثروة لم تصل إلى جيوب الفقراء والناس العاديين، وأميركا اللاتينية ظلت تعاني من أوسع فجوة بين الأغنياء والفقراء في العالم.

كانت فنزويلا تعاني من واحد من أسوأ توزيع للدخل في العالم، إذ ما يقارب نصف دخل البلد كان يذهب إلى العشرين بالمئة الأكثر غنى في البلد، بحسب برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة. كان الفقراء في فنزويلا يكافحون كي يحصلوا على لقمة الطعام، في حين أن الأثرياء كانوا يعيشون في قصور ضخمة محمية بجدران عالية وأسلاك مكهربة وحراس خصوصيين. كانوا يستخدمون فرقاً من الخدم لتلبية متطلباتهم المنزلية ويسافرون في طائرات خاصة للتبضع في ميامي أو قضاء إجازاتهم في الجزر الكاريبية النائية. كانت فنزويلا صاحبة الرقم القياسي في عدد الطائرات الخاصة مقارنة

بعدد السكان في العالم. ويعتقد الكثيرون بأن خير وصف لحقيقة وجود عالمين منفصلين تماماً في البلد تمثَّل في عبارة فصل اجتماعي.

على أي حال، على الرّغم من أن المحللين كانوا محقين بخصوص غضب الفنزويليين من إخفاق السياسات الاقتصادية النيوليبرالية في تحسين حياتهم، إلا أنهم كانوا مخطئين بشأن كراهية الفنزويليين المفترضة للديمقراطية. ففي الحقيقة، معظم الفنزويليين كانوا يريدون الديمقراطية؛ ولكن تلك التي تعمل وتخدم مصالح الأغلبية وليس فقط النخبة الصغيرة الفاحشة الثراء. فعلى مدى عقود لعبت ديمقراطية فنزويلا دور خطة مصممة لإثراء الأثرياء. في العام 1998، صنَّفت المؤسسة الدولية للشفافية فنزويلا بين عشر دول هي الأكثر فساداً في العالم. وفي هذا الخصوص، يصف أحد المحللين المولودين في الولايات المتحدة (لم يكن متعاطفاً مع تشافيز وكان يتنقل بين أوساط النخبة في فنزويلا) الديمقراطية في البلد بأنها شبكة منظمة من المؤكد أنها ستُعتبَر غير قانونية لو كانت في الولايات المتحدة. وهي تضم رجال أعمال وقضاة ومحامين وأفراد شرطة وصحفيين وسياسيين ورجال دين وجنوداً أيضاً. «هذا النظام المترابط من الامتيازات والفساد السياسي الذي ينتشر في أنحاء فنزويلا كلّها لم يكن ليدوم أكثر من نصف ساعة مع هيئة محلفين RICO»، مشيراً إلى قانون أميركي خاص بمحاكمة الجريمة المنظمة. «إنها خطة مخادعة وكانت تُدار على هذا النحو منذ وقت طويل».

كان تشافيز الرجل الذي سيضع حداً لهذه الخطة ويقضي على المافيا التي تديرها. فبعد وقت قصير من انتصاره، صرَّح قائلاً: «فنزويلا قنبلة موقوتة وقد انتُخبت لإبطال مفعولها». بالطبع كانت الطبقة المتنفذة الثرية مرعوبة، إذ إن لعبتها شارفت على الانتهاء. بيد أن جماهير الفقراء وحتى قلة من الطبقات الثرية كانوا يهللون في الشوارع. وفي موطن الرئيس المنتخب، باريناس، لخصت عاملة في الرابعة والعشرين من عمرها المشاعر السائدة في تلك اللحظات بقولها: «إن الديمقراطية مصابة بعدوى، وتشافيز هو المضاد الحيوي الوحيد الذي نملكه».

الفصل الخامس عشر

إلى السلطة

بدأ هوغو تشافيز ولايته الرئاسيه بصدمة الفنزويليين. في 2 شباط 1999، تقدَّم تشافيز إلى مبنى الكونغرس المزخرف كي يؤدي القسَم بمساعدة لويس ألفونسو دافيلا، حليفه الذي أصبح رئيساً لمجلس الشيوخ الآن. تقضي العادة أن يطلب الرئيس الراحل أداء القسَم من الرئيس الجديد، لكن رافائيل كالديرا لم يستطع إرغام نفسه على القيام بذلك، فاكتفى بالوقوف بين الرجلين مع نظرة توحي بعدم الرضا. كانت القاعة تعج بالسياسيين الفنزويليين والشخصيات الهامة من ستين دولة، من بينهم فيدل كاسترو وكارلوس أندرياس بيريز الذي أصبح سيناتوراً الآن عن ولايته الأم تاتشيرا. رفع تشافيز يده اليمنى في الهواء، ووضع اليسرى على الدستور، وفجأة قطع العهد مع القسَم التقليدي الذي كرره كل رئيس خلال أربعين عاماً من الحكم الديمقراطي: «أقسم أمام شعبي وفوق هذا الدستور المحتضر بأنني سأدفع قدماً التحولات الديمقراطية الضرورية حتى تمتلك الجمهورية الجديدة دستوراً مناسباً للأجيال القادمة».

ضجت حشود مناصريه داخل الكونغرس وخارجه بالتهليل فرحاً، وشهق خصومه من هول الصدمة. كانت رسالة تشافيز واضحة تماماً. إن دستور جيل كالديرا كان يحتضر على سرير موته. والثورة البوليفارية وصلت.

مع الشريط الرئاسي الأزرق والأصفر والأحمر معلقاً على كتفه، أدلى تشافيز بخطاب دام ساعة وخمساً وأربعين دقيقة هاجم فيه الطبقة الحاكمة لتحويلها فنزويلا إلى مستنقع كبير وعفن. واصفاً الأمر بالأحجية الرياضية، تساءل تشافيز كيف يمكن لبلد ينعم بموارد طبيعية هائلة أن يملك ذلك الكم من الفقر. «الكثير من الثروات، أكبر احتياطي نفطي في العالم، خامس أكبر احتياطي للغاز، ذهب، البحر الكاريبي الواسع الغنى. كل هذا و80 بالمئة من شعبنا يعيشون في الفقر». ثم تساءل، ملتفاً نحو رؤساء الدول المتابعين باهتمام: «من يمكنه أن يفسر هذا؟ أي عالم يمكنه أن يشرح هذا؟».

شبَّه تشافيز الأمة بقنبلة اجتماعية موقوتة من الجوع والمرض وسوء التغذية. لذا، كان يجب القيام بشيء عاجل وجريء لتفكيكها قبل أن تنفجر. فأعلن أنه كان يخطط لإصدار أول مرسوم له في ذلك اليوم نفسه، ما أثار دهشة المعارضين. هذا المرسوم سيطالب السلطات الانتخابية المختصة بتنظيم استفتاء وطني خلال ستين إلى تسعين يوماً حول ما إذا كان الفنزويليون يريدون عقد مؤتمر دستوري لكتابة دستور جديد أم لا. لم يكن لينتظر الكونغرس المليء بالخصوم لإقرار المسألة. «إن الدستور،

ومعه النظام السياسي المشؤوم الذي أنتجه قبل أربعين عاماً، ينبغي أن يموتا. وسيموتان أيها السادة، فتقبّلوا الأمر».

لم يكن ليعتذر عن الانقلاب الذي قام به منذ نحو سبع سنوات، بل على العكس من ذلك، لقد استغل الفرصة لمدح رفاقه في السلاح، قائلاً: «إن التمرد العسكري الفنزويلي لعام 1992 كان حتمياً مثل انفجار البراكين». ثم أضاف بأن الجيش، بدلاً من قمع الشعب، كان ينبغي إرساله إلى الشوارع للمساعدة في بناء البلد. وفي نهاية الخطاب، صدم الأمة ثانية عندما توجه إلى الصف الأول وصافح الرجل الذي حاول الإطاحة به، كارلوس أندرياس بيريز. فوقف الرئيس السابق، المفرط النشاط والكثير الكلام في العادة، معقود اللسان.

كان أول أداء لتشافيز كمسؤول منتخَب وأصغر رئيس لفنزويلا (44 عاماً) مثيراً للدهشة بالفعل، إذ حتى منتقدوه اعترفوا بذلك. لقد أخذ يكيل الانتقادات اللاذعة للديمقراطية الفنزويلية مستشهداً بالكثير من الأعلام من والت وايتمان إلى بابلو نيرودا إلى غاليليو. وقاطعه الحضور بالتصفيق ما لا يقل عن ثلاثين مرة. كانت بداية رائعة بحق، إذ أظهرت استطلاعات الرأي بأنه يحظى بموافقة 90 بالمئة من الشعب الفنزويلي. كان يمتلك فرصة ذهبية لتحويل ما أسمته صحيفة ذي نيو ريببليك «واحدة من أكثر المشاكل الاقتصادية غير المبررة في المنطقة». وبحسب تعبير صحفي فنزويلي من الطبقة الوسطى أراد أن ينتقد الرئيس لكنه كان يشعر بالاشمئزاز من الفساد في البلد، «كلنا كنا نملك تشافيز صغيراً داخلنا».

كان واضحاً أن تشافيز خطيب لامع وموهوب. كان يكتب خطاباته بنفسه، على الرّغم من أن معظم ما كان يقوله كان مرتجلاً. وهذا ما اعترف به خورخي أولافاريا، وهو مؤرخ بارز وصحفي تحوّل إلى واحد من أشد منتقدي تشافيز، حيث قال بعد فترة قصيرة من تولي تشافيز الحكم: «إنه أهم خطيب شهدته فنزويلا في هذا القرن».

حتى الولايات المتحدة، التي رفضت منحه فيزا خلال الحملة، بدأت تغيّر موقفها. إذ بعد انتصار تشافيز لم تمنحه فيزا وحسب، بل رتّبت له لقاء مع الرئيس بيل كلينتون ومسؤولين آخرين رفيعي المستوى في الإدارة الأميركية، من بينهم مستشارة الأمن القومي ساندي بيرغر. التقى تشافيز مع كلينتون لمدة عشرين دقيقة في 27 كانون الثاني، وإن تم اللقاء في مكتب بيرغر وليس في المكتب البيضوي، فالولايات المتحدة لم تكن مستعدة بعد لتبنيه بشكل كامل. مع ذلك فاللقاءات التي سبقت حفل تولية تشافيز بأيام قليلة جرت بشكل حسن. فقد صرّح الناطق باسم البيت الأبيض جيم دوبينز بأن تشافيز وكلينتون جمعتهما كيمياء جيدة. كما أعرب كلينتون عن «دعم واسع للوجهة التي يسير فيها تشافيز». وأضاف دوبينز قائلاً إن تشافيز «أثار إعجاب الجميع. كان حيوياً ومفوّهاً ويقول الأشياء المناسبة». كما أقنع الأميركيين الشماليين بأنه «ليس ذاك الشخص الذي كان عليه في العام 1992»، وبأنه «سيسعى للتغيير من خلال إطار

ديمقراطي ودستوري»، بحسب دوبينز.

أما بالنسبة لتشافيز فقد مدح واشنطن وجيفرسون ولينكولن وأرض الديمقراطية. ووصف التوتر السابق حول موضوع الفيزا بأنه «شيء من الماضي». وعلى أثر الارتياح الذي أحس به بعد اجتماعاته مع المسؤولين الأميركيين، صرّح تشافيز: «لقد بدأنا هذه العلاقة بين فنزويلا والولايات المتحدة على أساس جيد».

لقد تحسنت العلاقة أكثر بعد توليته رسمياً مقاليد الحكم في فنزويلا. حيث أرسلت الولايات المتحدة وزير الطاقة بيل ريتشاردسون كممثل رسمي لها. وبعد أداء تشافيز للقسم الرئاسي، قال ريتشاردسون مادحاً الرئيس المنتخب الجديد: «أعتقد بأن تشافيز سيكون زعيماً محتملاً في هذا النصف من الكرة الأرضية. إنه شخص لامع وذكي ويطور الكثير من المهارات السياسية... كانت انطلاقته ممتازة... إنها بداية جيدة في العلاقات الأميركية الفنزويلية».

أدى القرار الأميركي بالتعامل مع تشافيز بدلاً من عزله أو محاولة إسقاطه إلى نوع من التعايش السلمي بين البلدين في البداية، على الرّغم من وجود بعض التوترات. وقاد السفير الأميركي جون ميستو الفئة التي تؤيد التعاون معه، واشتهر بجملته التي كان يكررها غالباً: «راقبوا ما يفعله تشافيز، ولا تصغوا لما يقوله». إذ إن الخطاب، بحسب رأي ميستو، قد يكون راديكالياً، أما الأفعال فلا. وأفعال تشافيز بعد توليه الحكم - على الرّغم من جرأتها - لم تكن راديكالية مطلقاً. بل إنه كان يعمل ضمن حدود الديمقراطية.

على الرّغم من أن تشافيز كان يحظى بشعبية عارمة داخل الوطن، إلا أن طبقة النخبة لم تكن سعيدة بوصوله إلى سدة الحكم، ذلك أنها كانت ترى بعض الإشارات المثيرة للقلق. فهو، في النهاية، زعيم انقلاب سابق. والبعض كانوا يعتقدون بأن تشافيز «يكنُّ القليل من الاحترام لحكم القانون ويملك فهماً أقل لأهمية مبدأ المشاركة في السلطة والمحاسبة». كما أن ميله لارتداء قبعته المظلية الحمراء، وميل المعجبين به لتقليده، أنتج صورة عسكرية كان منتقدوه يعتبرون أنها مثيرة للقلق. في مناسبات أخرى، كان تشافيز يرتدي زياً عسكرياً أو زي ضابط مرصّعاً بالأوسمة. وعلاوة على ذلك، فإن لغته كانت تعج بالمفردات العسكرية مثل جبهات القتال والتوجه إلى الخنادق.

في الوقت نفسه، جلب تشافيز معه عدداً كبيراً من الضباط العسكريين المتقاعدين وغير المتقاعدين إلى الحكومة، وعيَّنهم لمساعدته في إدارة الكثير من المفاصل الأساسية في الدولة من شركة النفط الحكومية إلى وكالة جبي الضرائب إلى البوليس السري، وهذا المنصب الأخير منحه لزميله في تأسيس حركة MBR، جيسوس أوردانيتا. كما عيَّن هيرنان غروبر أودريمان - أحد قادة انقلاب تشرين الثاني 1992 - حاكماً على

مقاطعـة كاراكاس الفدراليـة. كان فرانشيسكو أرياس كارديناس قد فاز بمنصب حاكم ولاية زوليا الغنية بالنفط للمرة الثانية على التوالي بدعم من تشافيز. وبعد يومين من حفل توليته، خلال استعراض عسكري احتفاء بذكرى المحاولة الانقلابية في 4 شباط 1992، أعـاد تشافيـز الكثيـر من المشاركين في الانقلاب إلى القوات المسلحة، واصفاً إياهم بالأبطال.

تسـاءل منتقـدوه فـي ما إذا كان يحاول عسكرة الحكومة وإقامة نظام ديكتاتوري على الطراز الأميركي اللاتيني القديم، وخاصة بعد أن أمضى الليلة التي سبقت إدلاءه للقسم الرئاسي وهو يتحدث مع صديقه فيدل كاسترو حتى ساعات الصباح الأولى.

لقـد عـززت بعضـ تعليقاتـه الأولى كرئيس من مشاعـر القلق تلك. فعندما تلقت المحكمة العليا إحدى عشر دعوى قضائية تتحدى إصرار تشافيز على أنه هو من سيقرر كيفية اختيار أعضاء المجلس الدستوري، حذَّر الرئيس من أن أنصاره «سينزلون إلى الشـوارع» لـو حاولـت المحكمـة العليا منع مرسومه. وقد فسَّـر البعض قوله هذا بأنه تهديد مقنّع بالعنف ومحاولة لإرهاب المحكمة، فعلى سبيل المثال قال هنريكه سالاس رومير، الذي خسر الانتخاب الرئاسي أمام تشافيز: «الشيء الوحيد الذي لم يفعله هو دعوة الناس لقتل القضاة إذا أبطلت المحكمة العليا مرسومه».

كما طالب تشافيز بحل الكونغرس والمحكمة العليا، مثيراً المخاوف بين المعارضين من احتمال وجود نية لديه بإقامة نظام ديكتاتوري. وفي شهر نيسان، طوّق المئات من أنصاره مبنى الكونغرس لمدة يومين متتاليين، مانعين النواب من الدخول أو الخروج، ومطالبين بحل البرلمان! ووصـف تشافيز القادة السياسيين في المعارضة بأنهم «مجموعة من الأفاعي السامة» وبأنهم «متعفنون وفاسدون». كما ألمح إلى أنه كان يأمل بإلغاء الحظر على إعادة انتخابه وممارسة صلاحياته لمدة عشر سنوات.

كان مناصروه ينظرون إلى تصريحاته النارية على أنها نوع من الحوار الخطابي الديمقراطـي؛ أداة مساومـة للحصـول علـى مـا يريـد ولدفع الناس لإسمـاع صوتهم. وهـو لـم يكـن، برأيهم، سيلغـي الكونغرس والمحكمة العليا، بـل كان يريد استبدالهما بمؤسستين جديدتين تكونان أكثر استجابة لرغبات الشعب. كما نوَّهوا إلى أن المظاهرات الجماهيريـة فـي الشـوارع كانـت أداة سياسية تُستخـدم باستمرار من قبل حركة حقوق الإنسان الأميركية. كانوا يرون قبعة تشافيز الحمراء ليست كإشارة منذرة بالخطر بل كإشـارة إلـى الأمـل بأن التغيير كان قادماً، ودافعوا عن مسألة تجديد الانتخاب بقولهم إنهـا شائعـة فـي بلـدان مختلفة فـي العالم بما فيها الولايات المتحدة الأميركية. على أي حال، عندما حكمت المحكمة العليا ضد تشافيز في قضية مرسومه في نهاية المطاف، قبل قرارها، وحاول تعديل المرسوم بحيث يتماشى مع الحكم.

مع ذلك، سيجد تشافيز نفسه لاحقاً بأنه مضطر لإقناع المتشككين في طبقة النخبة ووسائـل الإعـلام، الذيـن كانوا يهاجمونه عند أي هفـوة يرتكبها، بأنه كان ديمقراطياً

حقيقياً. والعكس صحيح أيضاً بالنسبة لتشافيز، إذ كان يتوجب على طبقة النخبة أن تثبت أنها ستسمح بتطبيق ديمقراطية حقيقية تراعي مصالح الأغلبية وليس الأقلية فحسب.

أمضى تشافيز الأسابيع التي سبقت توليته الرئاسة رسمياً في جولة مكوكية حول أميركا اللاتينية وأوروبا والولايات المتحدة، محاولاً، بحسب تعبيره، «إقناع كل من كان لا يزال يعتقد بأن تشافيز هو الشيطان أو شيء ما بين هتلر وموسوليني» بأنه كان ديمقراطياً ملتزماً بحق. في منتصف كانون الثاني أعلن تشافيز إعادة تعيين وزير اقتصاد كالديرا، ماريتزا إيزاغوير، في منصبه وهو خبير اقتصادي قديم في بنك تنمية القارة الأميركية. وقبل يوم واحد من حفل التولية، عيَّن روبيرتو مانديني رئيساً لشركة النفط الحكومية الضخمة، بيتروليوس دي فنزويلا (PDVSA). ومانديني هذا رجل أعمال محترم كان يشغل منصب نائب رئيس شركة سيتغو، وهي فرع من PDVSA وإحدى أضخم سلاسل محطات المحروقات في الولايات المتحدة.

كما اتخذ تشافيز خطوات ذكية أخرى لتحييد الخصوم وتهدئة الأنصار. حيث قام بتعيين اثنين من أبرز الصحفيين في البلد، خوسيه فيسينته رانجل وزيراً للخارجية، وألفريدو بينيا مديراً للموظفين. وعيَّن أيضاً هندياً من قبيلة وايوو، وهو أستاذ جامعي يُدعى أوريانا بوكاتيرا، وزيراً للبيئة. وانضم إلى الحكومة أيضاً الكثير من حلفائه في جامعة فنزويلا المركزية والقطب الوطني وسجن يار وأولئك الذين رافقوه في جولته حول البلد، ومن بينهم خورخي جيورداني، هيكتور نافارو، لويس ميكويلينا، ومانويل كويخادا. وفي الوقت عينه، أمر الرئيس بهدوء عالم الاجتماع الأرجنتيني المثير للجدل نوربيرتو سيريسول - بعد ظهوره مجدداً في فنزويلا في وقت قريب من حفل التولية - بأن يغادر البلد.

في 20 شباط، أعلن تشافيز أول مبادرة كبرى له بالإضافة إلى المؤتمر الدستوري. كان يخطط لسحب 70,000 جندي من أصل 120,000 جندي في البلد بأكمله من الثكنات وإرسالهم إلى الشوارع والأرياف، كي يرمموا الطرقات والمستشفيات، ويقودوا الحملات الطبية، ويجمعوا القمامة، ويبيعوا اللحم والدجاج والجبن والمواد الغذائية الأخرى من الشاحنات بأسعار بخسة. ودعا هذه المبادرة **خطة بوليفار** 2000. كما دعا لانضمام ثمانين ألف مدني إلى هذه الخطة، على الرّغم من أن بعضهم سينالون أجوراً بسيطة. بعد يومين فقط، اصطف نحو خمسة آلاف شخص يرتدون ثياباً رثة - وحتى بينهم من كان يمشي على عكازات - خارج قصر ميرافلوريس مطالبين بالمشاركة.

بدأ تنفيذ خطة بوليفار رسمياً في 27 شباط، في الذكرى السنوية العاشرة لاضطرابات كاراكاس. وقد اختار تشافيز الموعد عن قصد: «كان الأمر الذي أعطيته لرجالي على الشكل التالي، اذهبوا من منزل إلى منزل ومشطوا الأرض. الجوع هو

العدو. وبدأنا في 27 شباط 1999، بعد عشر سنوات على مجزرة كاراكاس، كطريقة لاسترداد سمعة الجيش. حتى إنني ربطت بين الأمرين حينما قلت: منذ عشر سنوات خرجنا لذبح الناس. والآن سنذهب لنمنحهم الحب. اذهبوا ومشّطوا الأرض، ابحثوا واقضوا على الجوع والموت. سنعطيهم الحب بدلاً من الرصاص. وكانت الاستجابة جميلة فعلاً».

كانت الاستجابة إيجابية إلى حدٍّ كبير في الواقع. وقد صُدم المزارعون وسكان الأكواخ في المدن وسعدوا برؤية الجنود يخرجون للمساعدة في تحسين مجتمعاتهم. قال معلم بينما كان يقف في الصف لشراء الطعام في أحد أحياء كاراكاس: «لم أفكر يوماً بأنني سأرى الجيش يقوم بذلك، لكنه أمر مرحَّب به، مجرد وجود الجيش هنا يوحي بالنظام والانضباط، وهذا بالضبط ما يحتاج إليه هذا البلد». لقد قام الجنود – من القوى البرية والبحرية والجوية والحرس الوطني – بكل شيء من إدارة المستوصفات الطبية التي كانت تعالج أمراض الأطفال والأمراض النسائية ومشاكل الأسنان إلى جانب إجراء العمليات الجراحية وتلقيح الأطفال، إلى مساعدة الصيادين في إصلاح محركات قواربهم أو تشكيل الجمعيات التعاونية. كانوا ينقلون المواطنين من وإلى القرى النائية ووصلوا حتى إلى المناطق الهندية المعزولة في غابات الأمازون التي لا يمكن الوصول إليها إلا بواسطة القوارب عبر الأنهار، جالبين معهم الأطباء والأدوية. في المدن، وقف رجال الحرس الوطني في زوايا الشوارع في محاولة للحد من الجرائم. أما في المناطق الريفية، فقد ساعد الجنود المزارعين في تطوير المشاريع الزراعية.

من وجهة نظر تشافيز، لقد غيَّرت الخطة فكرة الناس عن الجيش الفنزويلي إلى حدٍّ كبير. «لقد حقق هذا الأمر تغييراً كبيراً، لأنه بعد مجزرة 27 شباط، إذا أراد جندي، على سبيل المثال، أن يذهب إلى حي فقير فقد كان عليه أن يرتدي لباساً مدنياً. كانت مجازفة لأن الجيش ارتكب مذبحة بحق الشعب. أما اليوم، فعندما يظهر جندي ما، فإن الناس يحيونه بسعادة وحماس».

غير أن الخطة لم تخلُ ممن ينتقدها على الرّغم من كل شيء. إذ إن البعض اعتبرها تدخلاً خطيراً آخر للجيش في الحياة المدنية، وفاتحة حكم استبدادي. كما نشرت المجلة الإخبارية Primicia مقالة تحذِّر من موجة وطنية عسكرية. فيما أبدى آخرون قلقهم من أن تعمل الأنشطة المدنية للجيش على تقويض الجهود الرامية لتقوية المؤسسات المدنية والحكومية. هناك من كان يعتقد أيضاً بأن خطة بوليفار كانت تحرف القوات المسلحة بعيداً عن دورها الدفاعي. أما بالنسبة للجزّارين ومالكي محال البقالة فقد اشتكوا من إضعاف أعمالهم بسبب أسواق الشعب التي يديرها الجيش. بينما اعتبرها آخرون ببساطة بمثابة ضماد لاصق لا يعالج المشاكل الأساسية في البلد.

غير أن الخطة في أعين تشافيز وأنصاره كانت خطوة عملانية أولى للتصدي لمشاكل فنزويلا الضاغطة، على المدى القصير على الأقل. وقد قارنها البعض ببرامج

العمل الشعبية لمرحلة الكساد في الولايات المتحدة في عهد فرانكلين ديلانو روزفلت، مثل وحدة العناية المدنية، التي تضمنت أعمالاً للعاطلين عن العمل. بينما أشار آخرون إلى أن الجيش الأميركي نفسه يلعب دوراً في الحياة المدنية، مثل وحدة المهندسين العسكريين التي تساعد في السيطرة على الفيضانات وإدارة المستنقعات ومشاريع تآكل الشواطئ. غالباً ما يُستدعى الحرس القومي لتقديم العون في أثناء الحالات الطارئة والكوارث الطبيعية. ولهذا كان الكثيرون من الفنزويليين يرون بأن الجيش من المؤسسات القليلة في البلد التي تؤدي وظيفتها.

في الحقيقة، كان تشافيز يعتقد بأنه لم يكن يملك هامشاً واسعاً من الخيار إلا بتنفيذ الخطة:

> تخيَّل الثاني من شباط 1999، مع معظم الإدارات الولاياتية والبلدية ضدنا. الكونغرس ضدنا، المحكمة العليا ضدنا، ميزانية أعدها النظام السابق، حكومةً من دون موارد تقريباً لدفع الرواتب، سعر النفط يبلغ سبعة دولارات للبرميل الواحد، وبالإضافة إلى ذلك كله ضغط التوقعات العالية التي أحدثها انتصارنا الانتخابي. كانت هناك صفوف من آلاف الناس تتجمع حول القصر مطالبة بوظائف، مع أطفالها المرضى النائمين هناك، على الأرض، ولا تسمح لسيارتي بالعبور. لن نغادر حتى يرانا تشافيز... ولهذا السبب قررت أن ألجأ إلى الجيش.

كانت تلك أول محاولة له كرئيس لتكوين وحدة مدنية-عسكرية. مع ذلك فالبرنامج لم يكن خالياً من العيوب. فبعد عدة أشهر بدأت اتهامات الفساد تظهر على السطح، حيث كان المنتقدون يتهمون كبار الضباط باختلاس آلاف الدولارات من البرنامج الذي تبلغ قيمته الإجمالية مليار دولار والذي تحوَّل في النهاية إلى مشروع ضعيف الإشراف. هذا ما دعا تشافيز في كانون الأول 2001 - وهو أمر يستحق الثناء عليه - إلى إبعاد الجنرال المسؤول عن البرنامج، فيكتور كروز ويفير. غير أن الفساد - كانت محاربته من أولويات حملته الانتخابية - سيبقى خاصرة رخوة في المرحلة الأولى من رئاسته، إذ إن القليل من الأشخاص المهمين تحوَّلوا إلى المحاكم أو سُجنوا.

دافع تشافيز عن أدائه بقوله إنه لم يكن من السهل أبداً تفكيك ثقافة متجذرة من الفساد حيث كان الكثير من الناس يعتقدون بأن من حقهم أخذ أي شيء تصل إليه أيديهم. كان الأمر أشبه بسرطان منتشر في الاتجاهات كلّها. بعض الناس كانوا يدعونها ثقافة piñata (piñata هي علبة تحوي حلوى أو هدايا يضربها أشخاص معصوبو الأعين بالعصي كي تنفتح وتتساقط الهدايا منها خلال بعض الاحتفالات) حيث تتناثر قطع الحلوى أو الأموال من العوائد النفطية إلى الأرض بعد فتح الـ piñata فيتدافع

الجميع من أجل التقاط ما يمكنهم التقاطه من غنائم. وأولئك الذين لا يأخذون كل ما يستطيعون الوصول إليه كانوا يُعتبَرون حمقى (pendejos).

ثمة كتاب من ثلاثة مجلدات يُدعى قاموس الفساد في فنزويلا يعدِّد بعضاً من أكثر أعمال النهب بشاعة. صنَّف الكتاب ثلاثمئة حالة نهب قام بها أفراد من الطبقة العليا والمتنفذة بين عامي 1959 و1989. ولم تغطِّ السلسلة ما حصل في الولاية الثانية لكارلوس أندرياس بيريز - الذي يُعتبَر منافساً على الميدالية الذهبية في القائمة - ولم تأتِ على ذكر عشيقته سيسيليا ماتوس. ومن أكثر حالات الفساد وضاعة وخسة هي حالة عُرفت باسم فضيحة الحليب ودامت ست سنوات. استوردت فنزويلا بودرة الحليب من بلجيكا وبلدان أخرى كي تُوزَّع - كما كان يُفترَض - على الأطفال الفقراء. «بدلاً من ذلك، باعها موظفو الحكومة بأسعار مرتفعة. والأسوأ من ذلك كلّه هو أن الحليب كان قد تعرض للتلوث في أعقاب كارثة تشيرنوبل النووية في 1986، لكن الموظفين، بدلاً من اتباع الأوامر وإتلافه، أعادوا تعليبه من جديد وباعوه في السوق».

بينما كانت خطة بوليفار ترتقي إلى مستويات أعلى وتهتم باحتياجات الفنزويليين اليومية، بدأ تشافيز يركز على مبادرته المتعلقة بتغيير البلد على المدى الطويل؛ المؤتمر الدستوري. سوَّت المحكمة العليا النزاع بين الرئيس والكونغرس الذي أصر على أن تشافيز لم يكن وحده المخوَّل إصدار مرسوم استفتاء يسأل الفنزويليين إذا كانوا يريدون عقد مؤتمر دستوري أم لا. وحُدِّد يوم 25 نيسان موعداً للتصويت. لقد اعتبر تشافيز هذا الأمر انتصاراً للديمقراطية وبرهاناً على ديمقراطيته. بالفعل، فقد كانت تلك المرة الأولى في تاريخ فنزويلا التي يُسمَح فيها للشعب بالتصويت على قضية عامة كبرى.

بالطبع، معظم الفنزويليين اعتبروا النتيجة محسومة سلفاً، وذلك بسبب الشعبية الهائلة التي كان يتمتع بها تشافيز. في الحقيقة، الكثير من الخطوات التي اتخذها منذ اعتلائه سدة الحكم - ومنها الدعوة لعقد مؤتمر دستوري كان يعتبره جوهر إدارته الجديدة - ساهمت في رفع شعبيته أكثر فأكثر. على الرّغم من أن المتشككين توقعوا بأن هذا المبتدئ السياسي الذي لم يسبق له أن امتلك منصباً عاماً من قبل سيتعثر حالما يعتلي سدة أعلى منصب في الأمة، إلا أن تشافيز أثبت لهم أنه أصبح سياسياً متمرساً. بل إنه كان يمتلك لمسة شعبوية تليِّن قلوب حتى بعض أكثر خصومه عداوة.

تخلّى تشافيز عن راتبه الشهري كرئيس والبالغ قدره 1,200 دولار ليهبه إلى صندوق للمنح المدرسية. وتخلص من سيارة الليموزين الرئاسية أيضاً. كان يقوم بزيارات مفاجئة إلى المستشفيات الحكومية المتداعية في الثالثة بعد منتصف الليل، ويطرد من يجده نائماً من الأطباء في أثناء العمل. في بعض الأحيان، كان يوقف موكبه الرئاسي بعد منتصف الليل ليتبادل أطراف الحديث مع جامعي القمامة المذهولين.

في ميرافلوريس كان يتقصَّد تقديم أطعمة بسيطة لضيوفه، مثل الطبق الوطني *arepas*. كما كان يدير فريق عمله المنهك ثماني عشرة ساعة في اليوم، جاعلاً من نفسه أنموذجاً حقيقياً للاجتهاد في أمة تعشق الاحتفالات والمهرجانات. بل وأطلق حملة على الهدر أيضاً. فعندما اكتشف أن الحكومة تملك 128 طائرة مدنية، وضع الأسطول بأكمله للبيع. علاوة على ذلك، حارب تشافيز التهرب الضريبي، الذي كان أشبه بهواية وطنية.

كسب تشافيز، بما يمتاز به من صدق وود وميل لخرق كل البروتوكولات الرسمية، محبة بعض من أعتى خصومه. على سبيل المثال، لقد صرَّح رافاييل بوليو - المحرر الصحفي والسيناتور المعارض الذي حذَّر في أثناء الحملة الانتخابية من أن تشافيز سيقيم حكماً من الرعب - بعد لقائه مع الرئيس قائلاً: «لقد عاملني بمحبة فائقة».

كان تشافيز الرئيس الأكثر شعبية في التاريخ الفنزويلي وأحد أكثر الرؤساء شعبية في تاريخ أميركا اللاتينية. لكنه لن يكتفي بذلك، إذ سيحمل في حزيران سحره معه إلى نيويورك أيضاً. ضرب تشافيز المطرقة التي تعلن نهاية العمل في بورصة نيويورك، وفتن لب نحو ألف مصرفي ورجل أعمال في اجتماعات تهدف إلى اجتذاب الاستثمار الأجنبي. ورمى الكرة الأولى في مباراة لفريق نيويورك ميتز في ملعب شيا، ثم توجه إلى حجرة التعليق، وقدَّم تعليقاً ممتعاً باللغة الإسبانية للمشاهدين في الوطن. لقد كسب المستثمرين والممولين جزئياً من خلال ضم مساعدة فرانك سيناترا، مقتبساً بالإنكليزية جملة من إحدى أشهر أغانيه: «إن كنت أستطيع النجاح في نيويورك، فأنا قادر على النجاح في أي مكان».

قالت سوزان كوفمان بورسيل، مديرة مؤسسة مجتمع الأميركيتين ومضيفة أحد الاجتماعات، بأن «تشافيز وضع أولئك الممولين في جيبه. لا أعلم إذا كانوا سيستثمرون أموالهم فعلاً في فنزويلا... لكنهم فُتنوا به. لقد أغواهم جميعاً». وقال مدير مصرف سيتي بنك ويليام رودس، الذي كان يقود مجموعة من ستة عشر مصرفاً أميركياً لها مصالح في فنزويلا، بأن مصرفه يخطط لزيادة استثماراته، بالإضافة إلى عدة مصارف أخرى. ثم أنهى جولته المكوكية بوقفة في هيوستن، حيث التقى مع مديرين تنفيذيين في شركات نفط أميركية، وحل ضيفاً على مائدة إفطار الرئيس السابق جورج بوش الأب وبرفقته شخص آخر سيصبح عدو تشافيز لاحقاً؛ ابنه جورج بوش الذي كان آنذاك حاكماً لتكساس.

لكن، على الرّغم من شعبية تشافيز، فقد شبَّهته وسائل الإعلام الدولية بالدكتور جيكل والسيد هايد، أو بحسب تعبير أحد الخبراء الاقتصاديين: «الرئيس جيكل والكولونيل هايد». كانت تلك الوسائل تتساءل هل هو ديمقراطي أم ديكتاتور مستبد. إذ على الرغم من أن تشافيز - بحسب رأي وسائل الإعلام تلك - وهب راتبه للمنح

الدراسية وأعطى نسخة فنزويلا من كامب ديفيد لمن لا مأوى لهم، إلا أنه كان يهدد المحكمة العليا بثورة شعبية ويبدو عموماً مثل «ديكتاتور أميركي لاتيني».

أشار بعض الصحفيين إلى تعليق شهير للكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز ورد في مقالة له بعنوان لغز شخصيتي تشافيز. يصف ماركيز في مقالته حواراً جرى بينه وبين تشافيز على متن رحلة جوية من هافانا إلى كاراكاس. ويعبِّر الكاتب اليساري النزعة عن مخاوفه بشأن قائد الانقلاب السابق، على الرّغم من تأثره بسحر تشافيز وقلقه الفكري وذاكرته الخارقة لما يحفظه من أشعار لوالت مايتمان وبابلو نيرودا. «لقد صُعقت بما تولّد لديّ من انطباع بأنني سافرت، وتحدثت بسرور مع رجلين متناقضين. رجل منحه القدر السعيد فرصة إنقاذ أمته. والآخر، رجل حالم سيُذكَر في التاريخ بأنه مجرد مستبد آخر».

في الحقيقة، لقد قال تشافيز بالفعل أشياء تجعل من الصعوبة إمكانية تحديد موقفه أو قناعاته. ولكن، يمكننا على الأقل القول إنه مزيج من عدة أشياء، حسبما يقول تشافيز نفسه في مقابلة أجراها معه الصحفي أغوستين بلانكو ميونوز في أيار 1996: «أنا لست ماركسياً، لكنني لست معارضاً للماركسية. ولست شيوعياً، لكنني لست معارضاً للشيوعية». بعد ثلاث سنوات، قدم تصريحاً مشابهاً لصحيفة نيويورك تايمز، حيث قال: «إذا كنت تحاول تحديد ما إذا كان تشافيز يسارياً أو يمينياً أو من الوسط، إذا كان اشتراكياً أو شيوعياً أو رأسمالياً، فأنا لست أياً من أولئك، لكنني أملك جزءاً منهم كلهم».

إنه باختصار إصلاحي من الناحية الاجتماعية ومحافظ من الناحية المالية، مع ميل لاستخدام القوة (لكنه، في النهاية، كان يحاول القضاء على المافيا، على نظام سياسي مفلس ساعد على تحويل كاراكاس إلى ما أسمته صحيفة ذي نيو ريببليك صرح راسخ للفوضى المدنية وسوء الإدارة). فعلى الرغم من أنه استغل الجيش في خطة بوليفار من أجل تلبية الاحتياجات الاجتماعية، إلا أنه اتبع في سنته الأولى خطة تقليدية في ما يتعلق باقتصاد السوق الحرة، وذلك من خلال دفع الدين الخارجي، وفرض ضرائب جديدة، وتقليص الإنفاق عندما كانت الدولة تواجه انحداراً اقتصادياً. لقد وصفه وزير ماليته المحافظ، إيزاغوير، بأنه متلهف لمعرفة أكثر تفاصيل الإنفاق الحكومي تعقيداً. أما بالنسبة للثابت الوحيد في جميع جهوده، فهو أنها كانت تمنح الأولوية للغالبية الفقيرة في فنزويلا.

خلال الأشهر الأولى من رئاسة تشافيز، هاجمت الصحف أيضاً علاقته مع نوربيرتو سيريسول بالإضافة إلى رسالة بعثها في نيسان إلى كارلوس، وهو إرهابي دولي مولود في فنزويلا واسمه الحقيقي إيليتش راميرز سانشيز. وراميريز هذا كان العقل المدبر وراء عملية احتجاز وزراء منظمة أوبك في فيينا عام 1975، واختطاف طائرة تابعة للخطوط الجوية الفرنسية كانت متوجهة إلى أوغندا في 1976. وكان في

تلك الآونة يمضي حكماً بالسجن المؤبد في فرنسا بتهمة القتل. لقد بعث إليه تشافيز – في خطوة علاقات عامة غير حكيمة على الإطلاق – رسالة تضامن إنساني فسَّرها لاحقاً بقوله: «كنت في السجن لمدة سنتين، وأنا أعرف أنه لمن المشجع أن يتلقى المرء رسالة. وهذا لا يعني تضامناً سياسياً بل تضامناً إنسانياً بكل بساطة. كل إنسان يستحق الاحترام».

الكثير من مناصريه كانوا يشعرون بأن تركيز وسائل الإعلام على هفواته ونقرها على وتر تشافيز الديكتاتور المنتخَب كان مجحفاً وأنها أخفقت في تصوير القصة الحقيقية لما كان يجري في فنزويلا على المستوى الشعبي؛ اختراق في الديمقراطية. كانوا يعتقدون بأن الصحفيين يكتبون عن ثورة تشافيز وهم جالسون في شرفات فنادق الخمس نجوم أو في شققهم الفخمة في الأحياء الثرية في حين يتجنبون الدخول إلى أعماق الأحياء الفقيرة حيث يعيش غالبية الفنزويليين.

في ذلك الخريف، احتلت مجموعة تُدعى ملتقى الفنانين والمفكرين الفنزويليين مكتب الأسوشياتيد برس والأسوشياتيد برس–داو جونز في كاراكاس احتجاجاً على معاملة وسائل الإعلام الدولية لتشافيز. وانتهى الاحتلال الاحتجاجي السلمي الذي دام ثماني ساعات عندما اتصل وزير الداخلية، إغناسيو أركايا، بمكتب الأسوشايتد برس في وقت متأخر من تلك الليلة، وأخبر قائد المحتجين بأن تشافيز – الذي كان في زيارة لواشنطن آنذاك – يعتبر الاستيلاء على المكتب غير قانوني وغير مثمر. بعد لحظات، وصل حاكم كاراكاس غروبر أودريمان ورئيس شرطة كاراكاس وأربعة أشخاص من البوليس السري كي يحموا المحتجين في أثناء خروجهم.

في النهاية، ردّ تشافيز بنفسه على ما اعتبره مناصروه تحيُّز وسائل الإعلام الدولية والمحلية ضده من خلال تكوين منافذه الإعلامية الخاصة. حيث أطلق في شهر أيار برنامجه الإذاعي، مرحباً أيها الرئيس، الذي يُبث صباح كل أحد على الشبكة الإذاعية الحكومية. وأتبع ذلك ببرنامجه التلفزيوني الخاص، وجهاً لوجه مع الرئيس، على المحطة التلفزيونية الرسمية. في تموز صدرت صحيفته الخاصة، ذي بريزيدنت بوست، وكان تشافيز رئيس التحرير فيها. بالإضافة إلى ذلك كله، كان يدعو باستمرار لبث برامج أو خطابات كانت شبكات التلفزيون التجارية ملزمة ببثها (*cadenas*)، لتحل محل البرامج الاعتيادية. وغالباً ما كانت تدوم لساعات.

كان مرحباً أيها الرئيس أكثر مشاريع تشافيز الإعلامية نجاحاً. ولم يكن له نظير على الإطلاق في أميركا اللاتينية، أو حتى في العالم بأسره. حيث كان تشافيز يظهر على الهواء مباشرة صباح كل يوم أحد وأي شخص كان يريد أن يسأل الرئيس في أيّ شيء كان باستطاعته الاتصال وطرح السؤال عليه مباشرة. معظم المتصلين كانوا يتحدثون عن مشاكل يريدون إيجاد حلول لها، من الحصول على راتب تقاعدي إلى الانتقال إلى وظيفة أخرى إلى محاربة البيروقراطية. حتى إن إحدى المستمعات كتبت

له رسالة تطلب منه أن يوبخ زوجها لارتباطه بعلاقة مع امرأة أخرى. كان تشافيز يصغي بصبر إلى المتصلين ويوكِل بعض الأشخاص للاهتمام بمشاكلهم.

لكنه كان يستغل البرنامج أيضاً للتحدث عن أي شيء يمكن أن يخطر بباله، كأن يشيد بمفكرين مشهورين، أو ينشد الأغاني، أو يعلن عن سياسات معينة، أو يحدد برنامج عمله للأسبوع القادم، أو يطرد أو يعيِّن المسؤولين، أو يتذكر طفولته في بارينياس، أو يخمِّن حول صحة لاعب فريق أتلانتا بريفز، أندرياس غالاراغا. ففي إحدى الحلقات الاعتيادية - ودامت ساعتين - انتقد اقتصاد السوق الحرة، وقرأ مقطعاً من الكتاب المقدس، وقدَّم نصيحة أمٍّ حول مراهق متمرد، وأعلن الحرب على الفساد، وصرَّح بأنه كان هدفاً لمؤامرة تستهدف اغتياله، وأنشد أنشودة دينية، وانتقد وزير خارجية كولومبيا، وأقسم بأنه يحب الشعب الفنزويلي. كما دفع رجلاً دخل إلى الاستوديو إلى البكاء عندما قال له بأنه سيساعد في دفع أجرة عملية جراحية لابنته التي تعاني من مرض خطير.

حقق البرنامج نجاحاً باهراً. فبعد أن كان في البداية يُبث عبر محطات إذاعية قليلة تديرها الحكومة، توسع بثه خلال بضعة شهور فقط ليشمل ما يزيد عن ستين محطة، منها ثلاث في المكسيك وإسبانيا وميامي. كان البرنامج الأكثر اجتذاباً للمستمعين في فنزويلا خلال وقت عرضه حيث كان يستقطب 90 بالمئة من المستمعين. وكانت الاتصالات الهاتفية براديو فنزويلا الوطني تبدأ بالرنين منذ الخامسة صباحاً، قبل أربع ساعات من بدء البرنامج، عدا الحشود التي كانت تتجمع خارج الأستوديو قبل بزوغ الفجر حاملة لافتات تطلب المساعدة من تشافيز.

في النهاية، دمج تشافيز برنامجيه الإذاعي والتلفزيوني في برنامج واحد يُبث يوم الأحد من مواقع مختلفة في البلد - مزارع، مدارس، قرى ساحلية، حقول نفط - في بعض الأحيان كان البرنامج يستمر لمدة سبع أو ثماني ساعات، وأصبح مشاهَداً من قبل ملايين الفنزويليين، بمن فيهم وزراؤه، الذين إن لم يكونوا موجودين معه في موقع البث، فإنهم يكونون متسمرين أمام شاشة التلفزيون لمعرفة آخر خططه السياسية.

اشتكى بعض السياسيين من المعارضة من أن تشافيز، ببرنامجه التلفزيوني والإذاعي وصحيفته الخاصة، كان يكوِّن إمبراطورية إعلامية صغيرة خاصة به. وفي هذا الشأن قال رئيس حزب العمل الديمقراطي كارلوس كاناتشي ماتا ساخراً: «الشيء الوحيد الذي ينقصه هو فيلمه السينمائي الخاص». لكن تشافيز كان يحاول فقط التصدي للتغطية السلبية لوسائل الإعلام الخاصة الأكثر قوة بما لا يقاس من وسائله الإعلامية سواء في فنزويلا أم في الخارج. فالقناة الثامنة التلفزيونية الحكومية، على سبيل المثال، كانت تافهة بالمقارنة مع الشبكتين التجاريتين RCTV أو Venevision. وهذه الأخيرة يملكها الإمبراطور الإعلامي المتنفذ غوستافو سيسنيروس الذي كان في طريقه ليصبح واحداً من أثرى الرجال في العالم. وعلى الرّغم من أن برنامج تشافيز كان يحبه

ملايين الفقراء، إلا أن الطبقة العليا كانت تنظر إليه - وإلى تشافيز أيضاً - نظرة احتقار. فبالنسبة لهم كان تشافيز *ese mono*، أي ذلك القرد.

في 25 نيسان، حقق تشافيز نصراً ساحقاً في الاستفتاء على المؤتمر الدستوري، حيث صوَّت 88 بالمئة بنعم لإعادة كتابة دستور الأمة، بينما امتنع عن التصويت 60 بالمئـة مـن المواطنيـن مـا دفع بعضـ المنتقدين إلى اعتباره هزيمـة صريحة لتشافيز. لكنـه ادعـاء يصعـب إثبـات صحته في الواقـع، إذ إن نسبة الامتناع عن التصويت في الانتخابـات الرئاسيـة الأميركية - علـى سبيـل المثال - تبلغ في العادة 50 بالمئة، فضلاً عن أن الكثيرين من الناخبين بقوا في بيوتهم خلال الاستفتاء لأنهم كانوا متأكدين من النتيجة مسبقاً. حتى المعارضون لم يكبدوا أنفسهم مشقة القيام بحملة لاجتذاب الناخبين لمعرفتهم بأن النتيجة كانت محسومة. وبحسب تعبير أحد المشاركين في الاستفتاء، إن تشافيز سوبرمان.

قبـل بضعـة أسابيـع من التصويت، استسلم الكونغرس تحت ضغطه ومنحه - عبر مرسـوم رئاسي - سلطـات طارئـة للبـت فـي القضايا الاقتصادية علـى مدى ستة أشهر قادمـة، مـا اعتبرهـا النقـاد خطوة أخـرى باتجاه إقامة حكم ديكتاتـوري. في الواقع، علـى الرّغـم مـن أنهـا لـم تكن الطريقة الأكثر ديمقراطيـة، إلا أنها كانت أيضاً طريقة لجـأ إليهـا الكثيـر مـن الرؤساء من قبل، بمن فيهم رافائيل كالديرا وكارلوس أندرياس بيريز. كان تشافيز يشعر بالحاجة لتفويض مؤقت يمنحه القدرة على التصدي بسرعة للأزمة الاقتصادية المتفاقمة. بيد أن الاقتصاد سينكمش بنسبة 7.2 بالمئة في العام 1999 وسيزداد العجز المالي إلى 3.1 بالمئة في الناتج المحلي الإجمالي، وستصل نسبة البطالة إلـى 15.4 بالمئـة وهـي أعلـى مستـوى لها خلال أربعة عقـود. وعلى الرّغم من ذلك كلّه، ومما يثير العجب، بقي تشافيز محافظاً على شعبيّته.

أمـا الجـزء الإيجابـي الوحيـد من الأخبار الاقتصادية فـكانٍ يتعلق بأسعار النفط، حيث ارتفع سعر البرميل من 8.43 دولاراً في شباط عندما تسلّم تشافيز زمام الحكم إلى 23.34 دولاراً في كانون الثاني 2000. وقد عزا الكثير من المحللين هذه الزيادة جزئياً إلى أولى قراراته كرئيس، وهي تخفيض الإنتاج والالتزام بحصص أوبك.

مـع اقتـراب حلمـه القديـم بإنشاء مجلـس دستوري إلى أن يصبـح حقيقة، ركّز تشافيز اهتمامه على الانتخاب التالي - من أجل اختيار أعضائه - الذي سيجري في 25 تموز، بعد يوم واحد من ذكرى مولد بوليفار. وتحوَّلت الحملة إلى شعلة من النشاط، حيـث كان الجميع - بائعـون متجولـون، رجال شرطـة، مشاهير الرياضة، منجّمون، محامون، أطباء - يفكر في المنافسة على واحد من المقاعد وعددها 128 في المجلس. كمـا خُصصـت ثلاثـة مقاعد أخرى للممثلين عـن السكان الأصليين البالغ عددهم نصف مليون إنسان سينتخبونهم في مجالس قبلية. قد يكون تشافيز ديكتاتوراً منتخَباً كما قالوا

عنه، لكن فنزويلا بالتأكيد كانت تبدو مثل خلية نحل تضج بنشاط ديمقراطي. الجميع كانوا يتحدثون ويتناقشون حول الدستور، من سكان القرى الهندية إلى الغابة المطرية الأمازونية إلى القاطنين في الأحياء الفقيرة في كاراكاس. كان المرشحون المحتملون يدوِّنـون اقتراحاتهـم وينزلـون إلـى الشوارع من أجل حشـد المؤيدين. وقد علَّق بائع متجـول كان يأمـل بترشيـح نفسـه على الانتخاب قائلاً: «إنها المرة الأولى منذ خمسمئة عام التي يُسأل فيها الناس عما يريدون».

كان تشافيز يعتقد بأن إنشاء مجلس دستوري يسيطر عليه مناصروه هو اختراق كبير يحتاجه البلد من أجل إنهاء هيمنة الأحزاب التقليدية في السلطة. في حين اعتبرت الطبقة المتنفذة والأحزاب التقليدية والكثير من وسائل الإعلام الأمر بأنه الخطوة الأخيرة علـى طريـق إقامـة نظـام ديكتاتوري يتحكم به رجل واحد. لقد عمد تشافيز إلى إزالة العوائـق كلّهـا التـي تحـول دون فـوزه. حيث قـدَّم خمسة وزراء - بمـن فيهم لويس ميكويلينا - استقالاتهم من أجل ترشيح أنفسهم. وهذا ما فعلته زوجة تشافيز، ماريزابيل؛ وشقيقـه، أدان؛ وطبيبـه النفسـي الخاصـ، إدموند تشيرينوسـ؛ وبعض المشاركين في الانقـلاب، مثـل جـول أكوستا تشيرينوس وفرانسيسكو فيسكونتي. وحتى زوجة المغني الشعبي الشهير علي بريميرا، سول موسيت، أصبحت مرشحة أيضاً.

نظراً لأن اللجنة الانتخابية حظرت استخدام أسماء الأحزاب السياسية على ورقة الاقتـراع، فقـد ابتـدع تشافيز وسيلة للتأكد من فوز مرشحيه. حيث ابتكر بطاقة دُعيت *Kino* على اسم بطاقة اليانصيب الفنزويلي. كل بطاقة منها كانت تحوي أسماء وصور مرشحيه، حيث إن بعضهم كانوا مجهولين بالنسبة للكثيرين من المواطنين. وكان على المناصرين ببساطة أن يدخلوا إلى حجرة التصويت مع بطاقاتهم ويضعوها في الصناديق. وعلى الرّغم من أن أكثر من 900 مرشح من أصل 1,171 مرشحاً - اعتُبروا مؤهلين للتنافس من خلال جمع عرائض التواقيع اللازمة - لم يكونوا ينتمون إلى قطب تشافيز الوطنـي، إلا أن قـواه حققـت فـوزاً كاسحـاً. حيـث نالوا 125 مقعداً بمـا فيها المقاعد المخصصـة للسـكان الأصليين، تاركيـن للمعارضة ستـة مقاعد فقط. لقد حصل رئيس موظفـي تشافيـز السابـق، الصحفـي ألفريدو بينيا، على أعلـى نسبة أصوات، وجاءت بعـده مباشـرة زوجـة تشافيـز. كما فازت زوجة الراحل علي بريميرا بمقعد لها أيضاً. كذلك فعل الآخرون الذين دعمهم الرئيس، ومن بينهم مغن فلكلوري شعبي، ومعلّق على سباقات الخيول، وكاتب سيرة ميسانتا خوسيه ليون تابيا. صحيح أن بعضهم لم يكونـوا خبـراء دستوريـين بـكل مـا للكلمة من معنـى، إلا أن ذلك لم يكن مهماً. فعلى الأقل، سيكون الدستور الجديد بين أيدي الشعب بدلاً من أن يكون بأيدي النخبة الثرية. بالإضافـة إلـى ذلـك، لـن تكون هناك مشكلة في توفير ما يكفي من الخبراء لإرشادهم في مهمتهم.

كان تشافيز في تلك الليلة المظفرة يشعر بسعادة غامرة. ففتح الأراضي المحيطة

بقصر ميرافلوريس مجدداً أمام الجماهير، وخرج إلى الشرفة. هذه المرة برفقة ماريزابيل التي كانت تقف إلى جانبه - في مشهد شبيه بما كان يحصل في الأرجنتين في عهد بيرون وزوجته إيفيتا - والنور يشع منهما بفعل ضوء كشاف مسلط عليهما والجماهير العاشقة تهلل عند قدميهما. وبعد ذلك، وفي حركة علنية غير اعتيادية بالنسبة إليه، قبَّل تشافيز عروسه، فجُنَّ جنون الحشود. وتوَّج تشافيز تلك الليلة المشهودة بإعلانه أنه سيطلب من المجلس الدستوري أن يغير اسم البلد ليصبح جمهورية فنزويلا البوليفارية.

بعد النصر الساحق الذي حققته قوى تشافيز، بدا واضحاً أن ثمة مواجهة قادمة. منذ شهور كان تشافيز يحث المجلس الآتي على إغلاق الكونغرس والمحكمة العليا لفترة مؤقتة إلى حين إنشاء مؤسسات جديدة، مؤكداً بأن المجلس الدستوري سيكون السلطة الأعلى في البلد، أعلى حتى من الرئيس نفسه. ومع أن الكثير من الخبراء الدستوريين وافقوا على ذلك، إلا أن المحكمة العليا والمعارضة عارضتا هذا الاقتراح. حيث حذَّرت رئيسة القضاة، سيسيليا سوسا، تشافيز من إغلاق المحكمة العليا بحجة أن وظيفة المجلس الدستوري هي كتابة دستور جديد وليس الحلول محل المؤسسات القائمة وإدارة البلد. وبينما كانت بوادر أزمة دستورية تلوح في الأفق، توقف الكونغرس عن العمل.

عندما التأم المجلس الدستوري في ليلة 3 آب، أعلن رئيسه المنتخَب حديثاً، لويس ميكويلينا، فجأة بأن المجلس يملك ميزة إنشائية. كان يقصد من كلامه هذا أن المجلس قادر على إغلاق الكونغرس والمحكمة العليا والمؤسسات الأخرى، الأمر الذي أثار استحسان الحاضرين في قاعة الاجتماعات في جامعة فنزويلا المركزية فضجت القاعة بالتصفيق. من جهته، حث تشافيز المجلس على التصرف بسرعة، حيث قال للصحفيين: «فنزويلا تشبه سفينة تغرق. لا يمكننا أن ننتظر طويلاً كي نقوم بشيء ما قبل أن تغرق كلياً».

لم ينتظروا طويلاً بالفعل، فبعد تسعة أيام فقط - الخميس 12 آب - صوَّت المجلس لصالح منح نفسه سلطات واسعة تشمل إبطال المؤسسات الحكومية وطرد المسؤولين والتدخل بطرق أخرى. وبعد أسبوع - الخميس 19 آب - أعلن المجلس حالة طوارئ قضائية، مانحاً نفسه سلطة تخوله إصلاح المحاكم. وفي اليوم التالي، عيَّن لجنة مكونة من تسعة أعضاء مخولة بإيقاف عن العمل أو طرد ما يقارب نصف عدد القضاة والموظفين والحجَّاب في البلد (يبلغ مجموعهم نحو 4,700 موظفٍ) بداعي الفساد أو عدم الكفاءة أو سوى ذلك من الأمور الشاذة. ولم يكن قضاة المحكمة العليا محصنين ضد هذه الإجراءات.

كان مؤيدو هذه الخطوة الجريئة يعتقدون بأنها تمثل فرصة لفرض الإصلاحات التي مُنعت منذ وقت طويل بواسطة الطبقة السياسية والسلطات القضائية الفاسدة. أما

بالنسبة لمنتقديها، فهي كانت تُعتبَر تجاوزاً للسلطة وتهديداً للديمقراطية. وأصبحت الساحة مهيأة لحصول مواجهة مع المحكمة العليا.

في الحقيقة، لم يكن هناك أحد يجادل في أن الفساد كان مستشرياً في جسم النظام القضائي وأنه كان بحاجة للتنظيف. هذا ما يشير إليه كتاب شهير بعنوان **كم يكلّف القاضي؟** صدر في العام 1995 وحقق مبيعات هائلة فور نشره. ملأ الكتاب صفحاته وعددها 144 صفحة بالقصص تلو القصص التي تتحدث عن القضاة المحتالين. ولم يكن إيجاد المعلومات اللازمة للكتاب بالأمر الشاق على الإطلاق، ففي السنة السابقة، قُبض على قاضية وهي تتلقى رشوة فسارعت إلى رمي المال من نافذة مكتبها. بينما أُخذت أخرى إلى السجن ومال الرشوة محشور تحت ثيابها الداخلية. وانتهى الأمر بمؤلف الكتاب، الصحفي ويليام أوجيدا، بقضاء سنة في السجن بعد أن وجده قاض آخر مذنباً بتهمة تشوية السمعة.

على مدى عقود، كان معظم القضاة، بمن فيهم قضاة المحكمة العليا، يُعيَّنون من قبل الحزب صاحب الأغلبية في الكونغرس؛ إما AD أو COPEI. وكان ربع قضاة المحكمة العليا فقط يشغلون مناصب دائمة، أما البقية فكان بالمستطاع طردهم في أي وقت، هذا ما جعل التحرك ضد السياسيين أو رجال الأعمال المتنفذين أو سواهم من النخبة الحاكمة أمراً بعيد الاحتمال. علاوة على ذلك، كان النظام القضائي خاضعاً لمجموعة قبائل قضائية - كما كانت تُعرَف في فنزويلا - ذات مصالح مشتركة، وكانت تتألف من مؤسسات محاماة وقضاة وسياسيين وأشخاص متنفذين آخرين قادرين على منح زبائنهم الحكم الذي يريدون مقابل السعر المناسب أو الصلة المناسبة.

أرجأت المحكمة العليا النظر في تهم الفساد بحق الرئيس جيمي لوسينتشي لسنوات على الرّغم من أن قاضي التحقيق أوصى بمحاكمته. ومع أن الرئيس كارلوس أندرياس بيريز نفسه خضع للمحاكمة في نهاية المطاف، إلا أنه لم يُحاكَم لأنه فاسد بل لأنه فقد شعبيته من الناحية السياسية. فبعد فوزه بمقعد في مجلس الشيوخ في انتخاب تشرين الثاني 1998 ليمثل ولايته الأم تاتشيرا، تعرَّض لهزيمة مذلة في المنافسة على العضوية في المجلس الدستوري حيث تخلى عنه الناخبون أنفسهم لصالح مناصر لتشافيز.

إذا لم يكن هذا كلّه كافياً، إليكم أمر شائن آخر يتعلق بالنظام القضائي. فمن بين نحو 23,000 سجين هو العدد الإجمالي للسجناء في فنزويلا خضع 9,700 سجين فقط للمحاكمة وأدينوا. أما الباقون فكانوا ينتظرون المحاكمة، وغالباً ما كان انتظارهم يمتد لسنوات.

على أي حال، لم يكن هناك من يشك بأن النظام القضائي كان بحاجة للإصلاح، لكن الخلاف كان يدور حول أحقية المجلس الدستوري في القيام بذلك. في نهاية المطاف، وبعد تفكير ملي بالنزاع القائم، غيَّرت المحكمة العليا في 23 شباط حكمها السابق الذي قضى بأن وظيفة المجلس الدستوري الوحيدة هي كتابة دستور جديد

للبـلاد، وقررت - بثمانيـة أصـوات مقابل ستـة - أن المجلس لم يخالف الدستور عندما امتلـك سلطـات قضائيـة. في اليوم التالي، أعلنت رئيسة القضاة سيسيليا سوسا استقالتها في مؤتمر صحفي حي بثّته المحطات التلفزيونية الفنزويلية كلّها، وقالت: «ببساطة لقد أقدمت المحكمة على الانتحار لتجنب الاغتيال. لكن النتيجة هي نفسها: إنها ميتة».

أثـارت استقالتهـا ومـا تبعها من أحداث ململـة بين معارضي تشافيز وقلقاً وحيرة فـي الولايـات المتحـدة. حيث صرَّح الناطق باسم وزارة الخارجية الأميركية، جيمس بي فولي: «نأسف لأنها اختارت الاستقالة من الخدمة العامة لأنها شخص يتمتع بمقدرة ونزاهة كبيرتين ورائدة حقيقية في جهود فنزويلا لإصلاح النظام القضائي».

لكن أنصار تشافيز نوَّهوا إلى أن سوسا كانت متورطة في تأجيل عدد من قضايا الفساد الكبيرة. وقالوا بأنها كانت رمزاً لنظام قضائي فقد رشده. وعلى الرّغم من أن أفعـال المجلـس الدستـوري كانـت جريئة ومثيرة للجدل، بحسب رأيهم، إلا أن الوقت لـم يكـن وقـت الجبـن والتخاذل، فهناك ثورة في البلد. لكـن المحلل السياسي المولود فـي الولايـات المتحـدة إيريـك إكفال - مستشار سابـق لبعض كبار السياسيين في النظام السابق ومن غير المعجبين بتشافيز - وصف الأمر على النحو التالي: «لقد جاء لينظف المدينـة، وهـذا لا يحـدث مـن دون مواجهـة. إنه لم يـأتِ لكي يعدّل في النظام فقط، بل جاء لكي يهدم أشياء ويبنيها من جديد». بينما قال رجل الدين راؤول غونزاليس من المركز البحثي اليسوعي Centro Gumilla بأن تشافيز كان ينفذ ببساطة ما يريده أنصاره. «انتُخب تشافيز كي يكمل الانقلاب الذي بدأه في 1992، أي أن يدفن نظاماً سياسياً ويقيم نظاماً آخر».

دافع تشافيز عن نفسه بقوله إنه كان يغيِّر سلمياً ما كان في معظم البلدان يتطلب حرباً أهلية أو انقلاباً دموياً أو عدا ذلك من الأفعال العنفية، مثل حرب العصابات التي أدت إلـى انتصـار كاستـرو فـي كوبا في العام 1959. ووصف ما كان يقوم به بثورة سلمية. لكنه أكد في الوقت نفسه بأن الإصلاحات إذا لم تُسن بشكل قانوني، فإن البلد قـد ينفجـر ويدخـل فـي أتون حرب أهلية بالفعل، وذلك لأن الغالبية الفقيرة من الشعب كانت تشتعل غضباً.

لم يشعر المجلس الدستوري بأي قلق بعد إعلان حالة الطوارئ القضائية واستقالة سوسـا. ففـي اليـوم التالـي مباشرة - الأربعاء 25 آب - أعلن حالـة طوارئ تشريعية، محـوِّلاً نظـره إلـى الكونغرسـ هـذه المرة. وقرر المجلس تقريباً حـلّ الكونغرس، إذ لـم يعـد باستطاعتـه سـن أي قانـون، تاركاً له مهمات محـددة من قبيل الإشراف على الميزانية، وإعطاء الرئيس الإذن بالسفر خارج البلد. لم يعارض النواب المناصرون لتشافيـز فـي الكونغرس - وهـم أقليـة فيه - هذه الخطوة، لأنهـم كانوا يعتقدون بأنه هو أيضاً كان بحاجة للتنظيف.

علـى الفـور، أعلـن نواب المعارضة بأنهم سيقطعـون إجازتهم وسيجتمعون يوم الجمعة. سيتوجهون إلى مبنى الكونغرس الذي سلموه للمجلس الدستوري من أجل عقد اجتماعاته، فإذا أراد المجلس القتال فإنهم سيقاتلون. كما تعهدوا بالامتناع عن الموافقة على إنفاقات الميزانية أو على رحلات الرئيس الخارجية. كان مقرراً أن يقوم تشافيز بزيارة إلى البرازيل وباناما خلال الأيام العشرة القادمة. يبدو أن ثمة مواجهة جديدة ستنشـب. قـال نائـب حزب COPEI سيزار بيريز فيفاسـ: «إن الديمقراطية تحتضر، الانقلاب على فنزويلا يُستكمَل الآن».

جاء مشرِّعو المعارضة وأنصارهم إلى الكونغرس صباح يوم الجمعة وهم يحرقون قبعات حمراء ويصرخون ديمقراطية! ولا للديكتاتورية! فهرع أنصار تشافيز إلى المكان لمنـع المشرِّعيـن مـن الدخـول إلى البرلمان. أغلقت البوابـات المحيطة بالمبنى ووقف رجال الحرس الوطني والشرطة في حراسته. وكان المتقاتلون من كلا الطرفين مسلحين بالعصي.

دبت الفوضى في المكان. اخترق بعض المشرِّعين حشود أنصار تشافيز ورجال الحرس الوطني. ثم وضعوا بطاقات التعريف الخاصة بهم بين أسنانهم، وحاولوا تسلق السيـاج المسنـن والدخـول إلـى أرضـ الكونغرس بمساعدة أنصارهـم. واندلع عراك بالقبضـات وسـط حشـد يلـوح بالعصي مكوَّن من بضع مئـات من الأشخاص. وأطلق رجـال الحرسـ الوطني والشرطة الغـاز المسيل للدموع والرصاص المطاطي ومدافع الماء في محاولة للسيطرة على الشجار. في تلك الأثناء، كانت صور المشرعين وهم يتسلقون السياج تُبث في مختلف أنحاء العالم.

فـي عصـر ذلـك اليـوم تدخلت الكنيسة، وتوصلت إلى اتفاق هدنة بين الطرفين. لكـن الهدنـة خُرقـت فـي الليلـة نفسها عندما عاد المعارضون إلـى الكونغرس وحاولوا الدخول إليه مجدداً. وصف تشافيز ما يجري بأنه «استفزاز... عرض مروع يهدف إلى إحداث زوبعة في فنجان».

في يوم الثلاثاء 31 آب، صوَّت المجلس الدستوري لصالح إغلاق الكونغرس، ساحبـاً منـه السلطـات القليلـة الباقية لديه بحجـة أنه كان يتدخل في عمل المجلس. لكنه تـرك الكونغرسـ حيـاً مـع ذلك بقولـه إنه سيقوم بالمهمات الباقيـة للكونغرس فقط إذا رفض القيام بها بنفسه.

حفَّز الوضع العالق المسؤولين في واشنطن على الإعراب عن قلقهم المتزايد من عملية كتابة دستور جديد للبلد. حيث قال الناطق باسم وزارة الخارجية جيمس فولي: «إننا مهتمون بالمحافظة على جوهر الديمقراطية شكلاً ومضموناً، وذلك من أجل شعب فنزويلا وشعوب هذا النصف من الكرة الأرضية أيضاً». كانت صحيفة نيويورك تايمز قد نشرت قبل تسعة أيام مقالة بعنوان ظهور ملك فنزويلي وقد ورد بالمقالة أنّه على الرّغم من أن «الفنزويليين يؤيدون بشكل كبير القيام بإصلاح جذري، إلا أنهم يجب

أن يكونوا حذرين من الأساليب التي يستخدمها السيد تشافيز، الذي أظهر حتى الآن القليل من الاحترام للتسويات الضرورية في أي نظام ديمقراطي».

لكن، لم يكن الجميع في الخارج يعتقدون بأن تشافيز كان يمثل تهديداً للديمقراطية. فقد كتبت جريدة الإكونوميست، وهي ليست بمعقل للفكر اليساري، «إن مخاوف المعارضة من أنه سيتحول بسرعة إلى ديكتاتور مستبد تبين حتى الآن أنها في غير محلها... بصورة عامة، لقد حدث التغيير من دون انتهاك الحقوق الديمقراطية والحريات». ثم أضافت الصحيفة بأن تشافيز نجح «بشكل سلمي في إبعاد طبقة فاسدة وصاحبة امتيازات»، مجنِّباً فنزويلا ربما مصيراً أكثر سوءاً».

كان تشافيز يعتقد بأنه محاصر لأنه كان يهاجم مصالح الطبقة المتنفذة. وأكد بأن زعماء الأحزاب التقليدية يحاولون نشر حرب قذرة من المعلومات المضلّلة التي تلتهمها الكثير من وسائل الإعلام الأميركية والدولية ومن ثم تخرجها لملايين القراء والمستمعين حول العالم. وفي إشارة إلى وزير إعلام هتلر، جوزيف غوبلز، قال تشافيز بأن الحملة كانت «تستند إلى استراتيجية غوبلز... إنهم يكررون الأكاذيب مرات كثيرة إلى درجة أنهم باتوا يصدقون بأنها الحقيقة».

صرَّح أربعة أعضاء في المجلس الدستوري – بينهم ممثل عن المعارضة – في منتصف أيلول بأنهم سيتوجهون إلى نيويورك وواشنطن ويقابلون بعض القادة السياسيين ورجال الأعمال من أجل تقديم صورة أكثر دقة عما يجري في فنزويلا. «لا توجد ديكتاتورية هنا»، بحسب تعبير كلاوديو فيرمين، أحد الممثلين الستة عن المعارضة في المجلس والمرشح الرئاسي لحزب العمل الديمقراطي في 1993. ووصف «النزاعات اللفظية» بين كلا الطرفين، المعارضون لتشافيز والمؤيدون له، بأنها «صبيانية سياسية».

على أي حال، توصل المجلس والكونغرس في 9 أيلول – بمساعدة الكنيسة الكاثوليكية التي لعبت دور الوسيط بينهما – إلى اتفاق لحل المشكلة العالقة. فوافق المجلس على سحب قراره بإغلاق الكونغرس والسماح له باستئناف أنشطته الاعتيادية، بما فيها الانعقاد كجسم كامل، على أن لا يتدخل في عمل المجلس أو أنشطة تشافيز الرئاسية، مثل جولاته الخارجية.

كان تشافيز قد أشار في 5 آب – مناقضاً مطالباته بالإغلاق الفوري – بأنه لم يكن يتوقع أن يحل المجلس الكونغرس والمحكمة العليا حتى تتم المصادقة على دستور جديد. لكنه أضاف بأن المجلس يمكنه إلغاء الصفة الشرعية عن أي مؤسسة تحاول إعاقة الإصلاح.

بالنسبة للبعض، أثبتت هذه الخطوة براعة تشافيز في التكتيك السياسي. فهو كان يهدد الخصوم في البداية، ومن ثم يتراجع ويعلن استعداده للتسوية. فتوافق المعارضة في العادة ويحصل تشافيز على كل ما يريده. بعبارة أخرى، كان تشافيز يلعب بهم

مثل الدمى.

قبل يومين من التوصل إلى اتفاق حول تعايش محدود مع الكونغرس، بدأ المجلس الدستوري أول خطوة له من الهجوم على الجسم القضائي، فطرد ثمانية قضاة يُشتبه بتورطهم بقضايا تتعلق بالفساد. وفي مؤتمر صحفي بُثَّ في المحطات التلفزيونية الوطنية كلّها، قرأ المحامي مانويل كويخادا - رئيس لجنة الطوارئ القضائية التابعة للمجلس الدستوري الذي تصادق مع تشافيز في سجن يار - أسماء خمسين قاضياً آخرين يُزعَم أنهم فاسدون. وقال بأن مصيرهم سيتقرر خلال الأيام القليلة القادمة، وإنهم ربما سيُطردون أيضاً.

لم يكن بالإمكان أن يكون التوقيت أفضل من ذلك. فقبل أربعة أيام - الجمعة 3 أيلول - ردَّ قاضيان التهم الموجهة إلى 24 مصرفياً في ما يتعلق بالفضيحة المالية السيئة الصيت التي حدثت خلال حكم رافائيل كالديرا إثر انهيار القطاع المصرفي في 1994. كان نحو مئتي مصرفي قد هربوا من البلاد؛ معظمهم كانوا يعيشون في الخارج كلاجئين، وبعضهم في الولايات المتحدة. وعندما ظهر أحد القاضيين على شاشة التلفزيون بعد بضعة أيام للدفاع بشراسة عن قرار إطلاق سراح أولئك المصرفيين، أوقفه كويخادا واللجنة عن العمل ومعه القاضي الآخر أيضاً.

كان لدى اللجنة مهمة أخرى هي تنظيف سجون الأمة. ففي الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول، أعلنت اللجنة حالة الطوارئ في السجون. صحيح أن النظام القضائي كان فاسداً، لكن السجون كانت أكثر سوءاً منها، حيث وصفتها لجنة العفو الدولية بالأشد خطراً في أميركا اللاتينية.

بُنيت السجون في فنزويلا لكي تستوعب 15,500 سجين، لكنها بحلول منتصف تسعينيات القرن العشرين كانت تغص بنحو 25,000 سجين. كان المساجين ينامون متلاصقين على أرض إسمنتية داخل الزنزانات، أو في ممرات، تحت بيت الدرج، كل اثنين أو ثلاثة في سرير أو حتى في خيم مؤقتة تُنصَب في الخارج. لم تكن الحمامات صالحة للاستعمال أو أنها كانت خطيرة للغاية بحيث لم يكونوا يجرؤون على الدخول إليها، ولهذا السبب كانوا يريحون أنفسهم في أكياس بلاستيكية أو جرائد ومن ثم يرمونها من نوافذهم إلى الساحات. كانت رائحة الفضلات البشرية النتنة والقمامة العفنة تخنق الهواء.

وكان الماء يُشرب من أنابيب الحمامات المتآكلة المليئة بالبكتيريا والطفيليات. كان الإيدز والسل والتيفوئيد أمراضاً شائعة في السجون، والطعام كان مثيراً للاشمئزاز حيث يتألف الفطور عادة من كوب من القهوة الخفيفة وقطعة صغيرة من الخبز، والغداء من صحن غير لذيذ من السباغيتي أو الأرز والفاصولياء. ولم تكن هناك وجبة عشاء، لأن ميزانية الطعام المخصصة من قبل وزارة العدل والتي تعادل 81

بوليفاراً في اليوم لكل سجين لم تكن تسمح بذلك.

القتال بالسكاكين وإطلاق الرصاص وحتى المذابح - بعضها كان يتضمن قطع الرؤوس - كانت ممارسات شائعة أيضاً. كان النزلاء يحملون قطعاً صغيرة من الحديد المشحوذ (*shuzos*) أينما ذهبوا، من أجل حماية أنفسهم. أما الحراس فنادراً ما كانوا يجرؤون على الدخول إلى أقسام الزنزانات حيث كان المساجين، الذين يفوقونهم عدداً، يتجولون بحرية.

بما أن الرعاية الطبية كانت شبه معدومة، فقد كان السجناء يقطّبون جروحهم بأنفسهم. وكان يتوجب على النزلاء الجدد أن يدافعوا عن أنفسهم أو يجدوا شخصاً لحمايتهم. وأولئك الذين لم يكونوا قادرين على حماية أنفسهم أو لم يتمكنوا من إيجاد شخص يحميهم، فقد كانوا معرضين للاغتصاب بشكل جماعي أو حتى للقتل. لهذا السبب، كان بعضهم يتحولون إلى عبيد لزعماء العصابات، فيطبخون وينظفون ويقدمون لهم خدمات جنسية مقابل الحماية. كان بعض زعماء العصابات يضعون علامات على مملوكيهم على ظهورهم أو مؤخراتهم بواسطة صفائح كهربائية ساخنة.

في تشرين الأول 1999، خطا المجلس الدستوري أول خطوة له على طريق تنظيف السجون. فقرر محاكمة آلاف السجناء ممن لم يحاكموا من قبل. كان تشافيز قد أصدر في تموز مرسوم قانون جزائي جديداً قصير المدى إلى حين الانتهاء من كتابة الدستور الجديد. كفل القانون الجديد فرضية البراءة قبل إثبات الإدانة وسمح بإطلاق سراح بعض السجناء حتى يحين موعد محاكمتهم. وقد تم إطلاق سراح آخرين نهائياً بسبب قضاء مدة حكمهم مسبقاً.

في 3 تشرين الأول، أعلن تشافيز بأن فريقاً من القضاة والمدّعين العامين ورجال الدين وناشطي حقوق الإنسان سيتوجهون إلى أربعة من أخطر السجون في فنزويلا من أجل تسريع تطبيق العدالة على المساجين الذين ينتظرون المحاكمة. كان هذا الفريق يأمل بتبرئة ساحة ستة آلاف سجين بحلول نهاية العام. وكان تشافيز يريد أيضاً الفصل بين السجناء بحسب الجريمة، إذ كان النشّالون والقاصرون يتشاركون الزنزانات نفسها مع المتهمين بجرائم الاغتصاب والقتل.

على أي حال، سيحقق المجلس الدستوري والحكومة نجاحاً محدوداً في التصدي لمشكلة السجون. وهذا طبيعي في الواقع، إذ لم يكن بالإمكان اجتراح المعجزات بين ليلة وضحاها، فالمشاكل كانت أكثر تعقيداً من أن تُحَل بسرعة. ولكن، لم يكن أحد يشك في أن تشافيز كان يريد تغيير النظام القضائي.

مع حل جزء كبير من النزاع مع الكونغرس وشروع المجلس الدستوري في العمل على كتابة الدستور الجديد، قرر تشافيز أن يدلو بدلوه في المسألة. فسلّم اقتراحاته الخاصة في ما يتعلق بالدستور إلى المجلس. وهذا ما فعله أيضاً آلاف المواطنين الفنزويليين. كذلك مجموعات السكان الأصليين التي طالبت باعتراف رسمي بلغاتها

الخاصة. وحتى الباعة المتجولون ضغطوا من أجل تحقيق مطالبهم، حيث تجمعوا أمام مبنـى البرلمـان للمطالبـة بضمهم إلى الضمـان الاجتماعي وسواها من البرامج الخاصة بالعمال.

قُسِّم المجلس الدستوري إلى لجان متعددة لدراسة الأقسام المتنوعة من الدستور المقتـرح. وعَقَـد اجتماعـات مناطقيـة فـي مختلف أنحـاء البلد من أجـل الاستماع إلى المواطنين. قد يكون تشافيز ديماغوجياً مثيراً للمشاكل كما يقول منتقدوه، لكن فنزويلا كانت تضج بالمشاركة السياسية بين صفوف الجماهير. وبينما كان النقاش يحتدم، صعد تشافيز إلى الطائرة الرئاسية وتوجه إلى آسيا، ذلك أن معركته لترميم صورته الدولية المتضررة لم تكن قد انتهت بعد.

الفصل السادس عشر

ولادة ومأساة

قيل إن تشافيز، كرئيس منتخَب حديثاً، حطَّم رقم كارلوس أندرياس بيريز – أكثر الرؤساء الفنزويليين سفراً – في جولاته الخارجية. فقد زار اثنتي عشرة دولة خلال ستة أسابيع فقط، من بينها البرازيل والأرجنتين والمكسيك وإسبانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة، حيث قابل الرئيس بيل كلينتون وأعطاه نسخة من كتاب **بوليفار إلى الأبد**. وعندما كان في فرنسا، قال تشافيز إن جولته الأوروبية «تهدف إلى إثبات أنني لست شيطاناً، أو مزيجاً من هتلر وموسوليني، كما قالوا. أنا لست طاغية».

كان لديه الدافع نفسه في رحلته إلى آسيا، بالإضافة إلى أن تشافيز كان يريد أيضاً حشد الاهتمام بالاستثمار الخارجي لمساعدة الاقتصاد الفنزويلي المتداعي. بالنسبة للمنتقدين، كانت جولاته العالمية المكلفة تناقض تخليه في شباط عن وسائل الرفاهية التي ورثها في المنزل الرئاسي لا كازونا، والتي تتضمن حوض سباحة وصالة رياضية ومسرحاً سينمائياً في الهواء الطلق. وقد فسر ذلك حينئذ بقوله: «لم أستطيع النوم في الليل» في ذلك القصر الذي يعود تاريخ بنائه إلى العصر الاستعماري والذي يحوي خمساً وعشرين غرفة نوم لأنه كان يفكر في أطفال الشوارع الفنزويليين الذين لا يملكون ما يكفي من الطعام والذين ينامون تحت أغطية من الجرائد بدلاً من البطانيات.

لكن تشافيز كان يعتقد بأن مشروعه السياسي يتضمن بعداً عالمياً أيضاً. فهو لم يكن يتعلق بتحويل فنزويلا وحسب، وإنما أيضاً بتكوين عالم متعدد الأقطاب متحرر من هيمنة الولايات المتحدة، يجلب العدالة الاجتماعية إلى الدول النامية حتى لا ينام الأطفال في الشوارع تحت بطانيات من الجرائد.

وصل تشافيز إلى الصين في 10 تشرين الأول ليلقى احتفاء رسمياً كاملاً. حيث دوَّت طلقات المدافع عبر ساحة تيانانمين وعزفت فرقة عسكرية النَّشيد الوطني الفنزويلي. وفي قاعة الشعب العظيمة في بكين، رفع الرئيس الصيني جيانغ زيمين كأساً من الشراب وهتف «*Salud*»، كلمة إسبانية تعني بصحتكم. ووقَّع الزعيمان ستَّ اتفاقيات تعزز الروابط الثنائية. وفي خطوة اقتصادية هامة بالنسبة لفنزويلا، وافقت الحكومة الصينية على شراء مليونين إلى أربعة ملايين طن سنوياً من وقود فنزويلي خاص مكوَّن بشكل أساسي من القطران، يُدعى أوريموليزيون، وهو بديل عن الفحم الحجري.

يبدو أن تشافيز كان شخصاً مثيراً للفضول بالنسبة للشعب الصيني. حيث ملأ الناس الشوارع كي يروا الزعيم الأميركي اللاتيني المثير للجدل والاهتمام في آن معاً في أثناء مرور موكبه. وكثيراً ما كان تشافيز يتوقف في الشوارع للتحدث إلى الناس العاديين من دون أن يخفي حماسته وإعجابه بهم وبنجاح الصين في الجمع بين الرأسمالية والاشتراكية. «إننا نشهد انتصار الثورة الصينية»، قال تشافيز واصفاً الصين بأنها «قوة عالمية حقيقية».

كتعبير عن إعجابه بماو تسي تونغ، اشترى تمثالاً له من الخزف الأبيض، وزار ضريحه، وكتب مديحاً له في سجل الزوار واصفاً الزعيم الثوري بأنه «استراتيجي عظيم، جندي عظيم، رجل دولة عظيم، وثوري عظيم». وقال للصحفيين: «لطالما كنت ماوياً، بمعنى أن الشعب بالنسبة للجيش مثل الماء بالنسبة للأسماك». وعلى الفور، استغل المنتقدون هذا التصريح واعتبروه بمثابة موافقة على انتهاكات الثورة الصينية ونذير بما سيحصل في فنزويلا. ولكن، على الأرجح أن تشافيز كان يشير إلى نموذج يناسب رؤيته الخاصة عن الوحدة بين الشعب والجيش.

اعتبر تشافيز صين أواخر القرن العشرين باقتصادها المختلط نموذجاً يمكن أن يلعب دور القوة الموازنة لهيمنة الولايات المتحدة. «صحيح أن القوة السوفييتية انهارت، لكن ذلك لا يعني بأن الرأسمالية النيوليبرالية يجب أن تكون النموذج المحتذى به من قبل شعوب الغرب. ولو لهذا السبب فقط، إننا ندعو الصين للحفاظ على علمها مرفرفاً، لأن هذا العالم لا يمكن أن يُدار من قبل قوة شرطة عالمية تسعى للهيمنة في كل شيء». كما قال للوزير الصيني، زو رونغ جي، بأن فنزويلا بدأت بالنهوض الآن، تماماً كما نهضت الصين منذ خمسين سنة تحت قيادة زعيمها العظيم.

تابع تشافيز جولته المكوكية التي دامت أسبوعين ليزور اليابان وكوريا الجنوبية وهونغ كونغ وماليزيا وسنغافورا والفيليبين، مخلّفاً وراءه أثراً لا يُمحى أينما ذهب. كيف لا وهو لا يشبه أي رئيس زائر آخر. ففي منطقة تتميز بالإيماءات المتحفظة، كان تشافيز عفوياً واستعراضياً وغير تقليدي ولا يمكن التوقع بتصرفاته. عندما كان يزور سور الصين العظيم، على سبيل المثال، انطلق يعدو فجأة تاركاً حراسه الشخصيين ورجال الأعمال الذين كانوا يرافقونه في جولته يلهثون وراءه وهم يحاولون اللحاق به. وفي المقر المخصص للضيوف الذي منحته إياه الحكومة الصينية عندما كان في بكين، راح تشافيز يهرول حول البحيرات والحدائق. وبعد ذلك بدأ برمي كرات القاعدة.

في اليابان، خرق تشافيز البروتوكول المعتاد، وفاجأ حراس الإمبراطور عندما عانق أكيهيتو بحرارة في أثناء توديعه. بالطبع، لم يكن الحراس سعداء، لكنهم خمّنوا من الابتسامة التي ارتسمت على وجه الإمبراطور بأنه كان مسروراً بهذه الحركة غير المسبوقة. وفي أول زيارة له إلى روسيا، اتخذ تشافيز فجأة وقفة كاراتيه حينما كان بوتين يقترب منه. بدا على بوتين الارتباك لبضع لحظات قبل أن يدرك أنها كانت

مزحة. ثم غيَّر تشافيز وقفته ليتموضع وكأنه كان يضرب كرة قاعدة وقال مع ابتسامة كبيرة: «سمعت أنك تملك حزاماً أسود في الكاراتيه. وأنا لاعب كرة قاعدة أيضاً». ذات مرة، أنشد الأغنية الفنزويلية روزاريو لوزيرة الخارجية المكسيكية روزاريو غرين، مع أنه لم يقابلها إلا منذ فترة قصيرة فقط. ولاحقاً، في اجتماع قمة لرؤساء الدول الكاريبية، تسلل خلسة وراءها ووضع يديه فوق عينيها وقال: «احزري من؟».

في الحقيقة، جزء من ميل تشافيز الغريزي لكسر قواعد السلوك ناتج من شخصيته وجزء آخر نابع من طبيعة الشعب الفنزويلي نفسه. فالفنزويليون مشهورون بدفئهم واجتماعيتهم وكرههم للرسميات ونعبلهم السريع للناس. وهناك من يقول إن الفنزويليين هم من أكثر شعوب الأرض وداً وسعادة، لأنهم يحبون المرح وإطلاق النكات ويحبون الآخرين أيضاً. ففي ليلة الميلاد وليلة رأس السنة يتدفق ملايين الناس إلى الشوارع ليحيّوا ويعانقوا ويقبّلوا الجيران بالإضافة إلى الغرباء. وقد نوّه الطبيب النفسي الشخصي لتشافيز ذات مرة إلى أن الرئيس ترعرع في سابانيتا، وهي «قرية متواضعة وبسيطة ليس فيها أي بروتوكولات».

غالباً ما كان تشافيز يستغل عفويته وسحره وحس الفكاهة لديه لمصلحته السياسية، إذ كان يفاجئ زعماء العالم ويتركهم مذهولين إن لم نقل مسحورين، على الرّغم من أن البعض كان يعتقد أيضاً بأنه هزلي بعض الشيء. كما يملك تشافيز ذاكرة رائعة للأسماء والوجوه، ويستغل الوقت للتحدث مع الجميع من الرؤساء إلى الطباخين وعمال التنظيف. وهو لا ينسى أبداً مصافحة وشكر الحراس الشخصيين كلّهم للرؤساء الذين يقابلهم. وفي هذا الخصوص، قالت الطباخة الفنزويلية هيلينا إيبارا التي رافقته في جولته: «إنه يمارس هذه اللعبة العاطفية من أجل كسب ود الناس. وقد ينجح وقد لا ينجح، لكنك لن تنسى ذلك أبداً... إنها آلية لإغواء الناس. وهي مثمرة».

في تشرين الثاني 1999، توجه تشافيز إلى كوبا لحضور اجتماع قمة لزعماء إحدى وعشرين دولة أميركية لاتينية بالإضافة إلى إسبانيا والبرتغال. وعلى الرّغم من أنه لم يكن يحب مثل هذه الاجتماعات، حيث يقول: «إننا ننتقل من قمة إلى قمة والناس ينتقلون من هاوية إلى هاوية». لكنه لم يكن ليفوّت هذه القمة بالذات. حيث انتظر حتى انتهت الاجتماعات لينفرد في لقاء مع معلّمه فيدل كاسترو.

أما الجزء الأكثر إثارة في تلك الزيارة فهي مباراة كرة قاعدة نظّمها البلدان. وكان كاسترو البالغ من العمر ثلاثة وسبعين عاماً يدير الفريق الكوبي، في حين قام تشافيز ذو الخمسة والأربعين عاماً برمي الكرة ولعب أول قاعدة للفنزويليين. مع أن بقية اللاعبين كانوا كلهم من النجوم المتقاعدين، إلا أن كاسترو كان يخبئ مفاجأة أخرى للحضور. كان الرئيس الكوبي يرتدي لباس الفريق الوطني – قبعة كرة قاعدة حمراء وسترة زرقاء – فوق زيه العسكري التقليدي. بينما كان تشافيز يرتدي زياً

بألوان العلم الوطني الفنزويلي، الأحمر والأصفر والأزرق.

خمسة وخمسون ألفاً من المشجعين المتواجدين في الملعب الأميركي اللاتيني في هافانا رحبوا بتشافيز بهتافات مدوية حينما كان يهرول حول المضمار للتحمية. أما كاسترو فقد أثار عاصفة أعلى من التصفيق والهتاف. في تلك الأثناء، كان ملايين المشاهدين في مختلف أنحاء أميركا اللاتينية متسمرين أمام شاشات التلفزيون لمتابعة هذا الحدث الرياضي التاريخي. كان الثائر الأقدم والأكثر شهرة في أميركا اللاتينية يعزز صداقته مع الطفل الجديد على الساحة، الذي وجد فيه بعض الناس خليفة واضحة لكاسترو.

قامت السيدة الأولى لفنزويلا، ماريزابيل تشافيز - التي دست شعرها الأشقر تحت قبعة كرة قاعدة - برمي الكرة الأولى. وبدأت اللعبة. في البداية، كان زوجها طائشاً بعض الشيء في منطقة الرمي، حتى إنّه كاد أن يصيب رؤوس عدة ضاربي كرة في الفريق الكوبي. لكنه تحسَّن مع مضي الوقت، بل إنه حقق ثلاث رميات ناجحة (strikes) على ضارب الكرة الكوبي المتقاعد أنطونيو ميونوز. انتقل بعدها إلى القاعدة الأولى بعد خمس جولات والنتيجة كانت تشير إلى التعادل أربعة-أربعة. في منطقة ضارب الكرة، نجح تشافيز في استغلال إحدى الضربات والوصول إلى القاعدة الأولى؛ توّجها بمعانقة اللاعب الكوبي الموجود بالقرب منه، أغوستين ماركويتي. عندها توقفت اللعبة للحظات.

في بداية الجولة السادسة، أخرج كاسترو مفاجأته. أرسل إلى الملعب مجموعة من ضاربي الكرة البديلين قُدِّموا على أنهم مجرد احتياطيين من الفريق الكوبي. عدة لاعبين ملتحين مع شعر أبيض وبطون مكورة دخلوا إلى الملعب وهم يعرجون. فارتفع هدير الجمهور. إنهم في الواقع لاعبون حقيقيون من المنتخب الوطني الكوبي يضعون شعراً مستعاراً ويرتدون قمصاناً محشوة. وبينما كانوا يتظاهرون بأنهم عجائز كان كاسترو يضحك من المكان المخصص للاعبي الاحتياط.

نجح البديلون المخادعون في تحقيق عدة ضربات وتقدم الفريق الكوبي بخمسة مقابل أربعة. كان تشافيز يراقب بسعادة على الرّغم من أن فريقه كان خاسراً. لكن ذلك ليس مهماً، فاللعبة كانت أهم بكثير من مجرد كونها مباراة في كرة القاعدة. كانت تهدف إلى تقوية التحالف بين الزعيمين اليساريين الأكثر سحراً وتأثيراً في أميركا اللاتينية.

قبل بضع ساعات من المباراة، عاد تشافيز إلى جامعة هافانا التي ألقى فيها خطاباً في 1994 بعد إطلاق سراحه من السجن. قال تشافيز في حديث مليء بالعواطف الجياشة دام تسعين دقيقة: «ها نحن هنا من جديد بعد أربع سنوات وعشرة أشهر وسبعة وعشرين يوماً منذ زرت هافانا آخر مرة، فيدل وهوغو، كوبا وفنزويلا أكثر حياة من أي وقت مضى». بعد ذلك، أضاف تشافيز ملاحظة تردد صداها في أنحاء العالم كلّه، وهي أنه لا يملك «أدنى شك» بأن السياسة الفنزويلية تسير «في الاتجاه

نفسه، نحو بحر السعادة نفسه الذي يسير نحوه الشعب الكوبي».

تلقف المنتقدون هذه الملاحظة واعتبروها دليلاً على أن تشافيز كان يريد تحويل فنزويلا إلى كوبا أخرى. في الحقيقة، إذا قُطعت العبارة من سياقها فمن المؤكد أن المعنى سيبدو على ما ذهبوا إليه. وهذا ما فعلته معظم وسائل الإعلام فعلاً، إذ إنها لم تنقل بقية ما قاله تشافيز. فعلى الرغم من أن كلا الزعيمين كانا يتطلعان لبناء مجتمعات من «السعادة الحقيقية، والعدالة الاجتماعية الحقيقية، والسلم الحقيقي، والكرامة الحقيقية»، إلا أنه قال أيضاً بأنهما يتبعان سياسات مختلفة. وهذا يعني بأن تشافيز – على الأقل حتى تلك اللحظة – ليس كاسترو آخر.

لكن الرجلين، في الوقت نفسه، يملكان أشياء مشتركة بالفعل. فكلاهما قادا انقلابين مسلحين في بلديهما حوَّلاهما في نهاية المطاف إلى بطلين وطنيين – كاسترو في العام 1953 في محاولته الفاشلة للاستيلاء على ثكنة مونكادا في سانتياغو دي كوبا، وتشافيز في انقلابه الفاشل في العام 1992. وكلاهما أمضيا بعض الوقت في السجن بعد الانقلابين. وصل كاسترو إلى السلطة في كانون الثاني 1959 بعد حرب عصابات دامت سنتين، بينما وصل تشافيز عن طريق صناديق الاقتراع بعد أربعين سنة من تسلّم كاسترو زمام القيادة في كوبا. كلاهما تطلّعا إلى بطلين وطنيين من القرن التاسع عشر كمصدر إلهام لهما – خوسيه مارتي بالنسبة لكاسترو وسيمون بوليفار بالنسبة لتشافيز. وكانا يتشاركان حلم بوليفار نفسه بتوحيد أميركا اللاتينية وينتقدان ما كانا يعتبرانه تاريخاً طويلاً من الإمبريالية والاستغلال الأميركيين في أميركا اللاتينية. كلاهما خطيبان موهوبان ومشهوران بإلقاء خطابات تدوم لساعات. كلاهما كانا يظهران بمظهر عسكري – كاسترو بزيه العسكري الكامل وتشافيز بقبعته الحمراء – وينامان ساعات قليلة في الليل، ويبشران بنموذج حاد من الوطنية الراديكالية يعادي الاقتناع السائد باقتصاد السوق الحرّة الذي كان يكتسح المنطقة. كلاهما أثارا حباً جامحاً لدى المعجبين بهما وكرهاً عميقاً لدى الخصوم. كلاهما كانا يحبان كرة القاعدة، وكانا راميين ويطمحان بالاحتراف عندما كانا شابين. مازالا يحبان هذه الرياضة حتى الآن. وهذه مفارقة، في الواقع، فكرة القاعدة منتج أميركي مستورد. وكوبا وفنزويلا وجمهورية دومينيكان ونيكاراغوا هي البلدان الوحيدة في أميركا اللاتينية التي تحظى فيها كرة القاعدة بشعبية أكبر من كرة القدم.

على الرّغم من أن الرجلين يساريان من دون أدنى شك، إلا أن ثمة فوارق حادة بينهما في هذا المجال. فتشافيز لن يأمر البلد بالاستيلاء على مفاصل الاقتصاد كاملة كما فعل كاسترو إثر انتصاره في 1959، مع أنه أمر بالفعل في بداية 2007 بتأميم بعض الشركات في قطاعات حيوية معينة، مثل الاتصالات والكهرباء. والملكيات الخاصة محترمة عموماً في فنزويلا والمالكون يُعوَّضون إذا استولت الحكومة على شركاتهم. ووسائل الإعلام حرة أيضاً، والنقاد يستطيعون قول أي شيء يريدونه واتهامه بكل

شيء من ضرب زوجته إلى إقامة نظام ديكتاتوري. هذا بحد ذاته تناقض، في الواقع، ففي الأنظمة الديكتاتورية الحقيقية، مثل هذه الاتهامات تودي بصاحبها إلى السجن على أقل تقدير. والانتخابات حرة ودائمة. وللمرة الأولى في تاريخ فنزويلا أصبح بإمكان المواطنين التصويت على مبادرات كبرى مثل المجلس الدستوري. وليس هناك سجناء سياسيّون أو تعذيب منظم برعاية الدولة. ولم تحصل محاكمات صورية سريعة حوكم فيها سياسيون فاسدون أو متوحشون وأدينوا ثم أطلقت عليهم النار في أحد الملاعب الرياضية. بل على العكس من ذلك تماماً، فبعض أنصار تشافيز يعتقدون بأنه كان ليّناً تجاه النظام القديم الذي نهب البلد.

وصفه أحد المراسلين الصحفيين بأنه «كاسترو من دون سعرات حرارية، من دون خطاب معادٍ للولايات المتحدة، من دون مصادرة الأملاك الخاصة ومن دون سحق المعارضين المحليين». كما وصفه واين سميث - وهو رئيس سابق لقسم المصالح الأميركية في هافانا - بأنه «إصلاحي اجتماعي. أهدافه هي تحقيق عدالة اجتماعية وتوزيع أكثر عدالة للدخل وتوفير فرص أفضل للمعدومين». بل أكثر من ذلك، فقد أضاف سميث: «لا أرى أي إشارة إلى أن تشافيز سيسير في الطريق نفسه الذي سلكته كوبا في ما يتعلق بالتأميمات الكبرى. قد يكون لهما أهداف متشابهة... لكنهما يستخدمان أساليب مختلفة في الوصول إليها».

بينما كان تشافيز وكاسترو يلعبان كرة القاعدة في الملعب، كان رجال الأعمال الفنزويليون منهمكين باستكشاف فرص الاستثمار في البلد؛ ثلاثمئة شخص كانوا يرافقونه في الرحلة. كانت كوبا تريد من فنزويلا أن تستثمر 200 مليون دولار من أجل المساعدة في إعادة إحياء مصفاة النفط الروسية الصنع الخربة في منطقة سينفيووغوس. صحيح أنها لم تحصل على هذا القدر، إلا أن فنزويلا وافقت في النهاية على بيع كوبا 53 ألف برميل من النفط يومياً بأسعار مخفَّضة. وكانت هذه الصفقة مشابهة لواحدة وُقِّعت من قبل بين فنزويلا والمكسيك في العام 1980 عندما اتفقتا على بيع النفط بأسعار مخفضة لإحدى عشرة دولة كاريبية وأميركية وسطى.

ستقدم صداقة تشافيز الواعدة مع كاسترو المادة المناسبة للنخب في فنزويلا والمعارضين في أمكنة أخرى لتصويره كديكتاتور في طريقه إلى التشكل. حيث نشرت الصحف الفنزويلية عبارته بحر السعادة كل يوم تقريباً ولعدة أسابيع. ما دفع كاسترو نفسه إلى استدعاء بعض الصحفيين الفنزويليين إلى اجتماع لمدة أربعين دقيقة من أجل التأكيد بأن تشافيز ليس ماركسياً سرياً.

عندما عاد تشافيز إلى القصر من رحلته إلى كوبا، كان موعد التصويت على الدستور الجديد قد بات على بعد بضعة أسابيع فقط. لا شك أنه كان عملاً متعجلاً، ذلك أن تشافيز كان بحاجة لإنجازه قبل أن ينفد رصيده السياسي وقبل أن تعيد المعارضة

تجميع قواها. في تلك الأسابيع الأخيرة، تحول المجلس الدستوري إلى خلية نحل حقيقية حيث كان أعضاؤه يعملون سبعة أيام في الأسبوع. والدستور الجديد الذي أنتجوه كان تقدمياً ومثيراً للإعجاب في بعض النواحي، وناقصاً في نواحٍ أخرى. والنقطة الأبرز فيه هي أنه شكّل قطيعة نهائية ورمزية مع النظام القديم.

طوَّر الدستور ضمانات حقوق الإنسان واعترف للمرة الأولى بالحقوق الطبيعية والبيئية. حيث ضمنت الوثيقة حماية خاصة للممتلكات الجماعية والأنظمة الاقتصادية الجماعية للقبائل الهندية، واعترفت رسمياً بسيّدات البيوت كعاملات مؤهلات للانتفاع من المساعدات الحكومية مثل الضمان الاجتماعي، ومنحت الجنود حق التصويت، وسحبت الترقيات العسكرية من يد الكونغرس - حيث كانت العشيقات الرئاسيات في الماضي، مثل بلانكا إيبانيز، تفرض الكثير من التعيينات - ووضعتها في أيدي الجيش والرئيس. كما ابتكرت منصباً يُدعى المدافع عن الشعب من أجل التأكد من حماية حقوق المواطنين.

وضعت الوثيقة أيضاً إجراءات اختيار علنية للقضاة، ودعت لمساهمة منظمات حقوق الإنسان وغيرها من المنظمات، وهذا نقل العملية من الغرف السرية العابقة برائحة السيجار في الماضي، حيث كان نواب الكونغرس يعيِّنون لأغراض سياسية قضاةً ذوي ارتباطات مصلحية يسهل التحكم بهم من قبل الأحزاب السياسية. استبدل الدستور الجديد مجلس الشيوخ والكونغرس بجسم واحد سُمِّي المجلس الوطني، وابتدع منصب نائب الرئيس. كما مدد الولاية الرئاسية من خمس إلى ست سنوات، وسمح بتجديد الانتخاب بشكل فوري. للمرة الأولى أيضاً في تاريخ فنزويلا وضع الدستور آلية لسحب المسؤولين المنتخبين - من عمدة القرية إلى الرئيس - في منتصف ولاياتهم.

أثنى البعض على الدستور لإقدامه على خطوات جريئة مثل الاستفتاء على إلغاء ولاية المسؤولين وانتقده البعض الآخر في مسألة تركيز السلطة في يدي الرئيس. كان المنتقدون قلقين من الفقرة التي تمدد ولايته سنة واحدة وتسمح بتجديد انتخابه، على الرّغم من أن البند الأخير يضع فنزويلا على قدم المساواة مع الكثير من البلدان الأخرى. كانوا قلقين أيضاً من أن تعزيز قانون التخويل (enabling law) يمنح تشافيز الكثير من السلطة لتسريع التشريعات. كما أن منح الجنود الحق بالتصويت زاد من مخاوفهم بخصوص عسكرة الحكومة، على الرّغم من أن الجنود في الولايات المتحدة يملكون الحق نفسه. من جهة رجال الأعمال والليبراليين الجدد، فقد اعترض هؤلاء على مسألة أن الدستور الجديد يسمح بتدخل مفرط للدولة في الاقتصاد. أما بالنسبة لتغيير اسم البلد الذي أقره الدستور الجديد، فقد اعتبره كثير من مناصري تشافيز أنفسهم - بمن فيهم شقيقه أدان - بأنه ليس حاجة ضاغطة لفنزويلا. بيد أن الرئيس أصر عليه، فأصبح ضمن الدستور.

على أي حال، كان التصويت على الدستور استفتاء على السنة الأولى من إدارة

تشافيـز أكثـر مـن كونـه استفتـاء على الوثيقة نفسها. حيث أشـارت بعض استطلاعات الـرأي إلـى أن 2 بالمئـة فقـط مـن الشعب قرأوه فعلاً قبـل 15 كانون الأول؛ مع أنه سيصبـح مقـروءاً علـى نطـاق واسع وسيُناقَش بشغف مع مرور الوقت. إذ أصبح يُباع في الشوارع من قبل الباعة المتجولين. وغالباً ما كان تشافيز يسحبه من جيب قميصه خلال خطاباته التلفزيونية. وقد وصفه بأنه الدستور الأكثر تقدمية في العالم بأسره.

لقد تحولت الحملة التي سبقت التصويت إلى حملة من الاتهامات المتبادلة. حيث حذَّر المنتقدون، بمن فيهم السلطة العليا في الكنيسة الكاثوليكية، من أن الدستور الجديد سيساعـد تشافيـز فـي إقامـة نظـام ديكتاتوري. حتى إن الممثـل البابوي في فنزويلا، الكاردينـال روزاليـو كاستيلـو، قـارن تكتيكات تشافيز بتلك التـي استخدمها الديكتاتور الإيطالي السابق موسوليني.

رد تشافيـز متهمـاً الكاردينـال بالتغاضي عن اللاأخلاقية، وناعتاً الأسقف باتازار بوراس بالجاهل المثير للشفقة، ومهدداً بطرد من سمَّاهم شياطين في ثياب كهنة.

أطلـق تشافيـز هجماتـه العالية النبرة على قطاعـات أخرى من المعارضة، حيث وصـف منتقديـه بمصاصـي الدمـاء، وأشار إلى النخـب الثرية بالأقلية العفنة. كما نعت ميغيل هنريكه أوتيرو، ناشر صحيفة *El Nacional*، إحدى كبريات الصحف اليومية في البلد، بالمنحل. فردَّ أوتيرو عليه قائلاً: «لا أحد في فنزويلا يمكنه الوثوق في مصداقية هوغـو تشافيـر الديمقراطيـة». ولكـن، تبيَّن أن تشافيـز كان يربح معركة الكلمات، إذ ارتفعـت نسبـة التأييـد للدستـور، بعد أسبوع واحد فقط من بدئه حملة الترويج له، من 56 إلى 67 بالمئة.

كان تصويـت 15 كانـون الأول هـو الخامـس من نوعـه في فنزويلا خلال سنة واحـدة. ومثـل سابقيـه، كانـت النتيجة محسومة سلفاً، حيـث وافق نحو 71 بالمئة من الشعب على الدستور الجديد. كان من المفترض أن تكون تلك الليلة ليلة احتفال بتحقيق واحد من أكبر أحلام تشافيز، ولكن، بينما كانت الأصوات تُحصى، كانت هناك مأساة قـد بـدأت تتكشَّـف علـى الجوانب الخضـراء لجبل أفيلا المشرف علـى البحر الكاريبي اللازوردي.

يرتفـع جبـل أفيـلا مـن منطقة قريبة من شواطئ البحـر الكاريبي. ويبلغ ارتفاع أعلـى قممه – قمـة نايغواتـا – 1.7 ميـلاً، وهي والقمم الأخـرى غالباً ما تكون محجوبة بالسحـب. وعلـى جانـب الجبـل تنتشر المئات من مستوطنات الأكـواخ الصفيحية. أما الأبنيـة الشققيـة الفخمـة حيث يقضي أثرياء كاراكاس عطل نهاية الأسبوع فتتموضع في منطقة أقرب إلى البحر.

يبدأ الشتاء أو الفصل الجاف في فنزويلا عادةً في كانون الأول. لكن المطر ظل يهطل في العاصمة وفي أماكن مختلفة من البلد بشكل ثابت خلال الأسبوعين اللذين سبقا

التصويت على الدستور. ومع أن هذا لم يكن اعتيادياً، إلا أن أحداً لم يكن بوسعه التوقع بما سيحدث لاحقاً. فابتداءً من مساء 15 كانون الأول هطلت نسب هائلة من الأمطار على جبل أفيلا. وخلال يومين بلغت كمية المطر المنهمر ضعف الكمية التي تسقط عادة في سنة كاملة.

والنتيجة كانت كارثية. فمع انتقاع جبل أفيلاً مسبقاً من الأمطار السابقة، انهار الجبل على نفسه. وبدأت قطع ضخمة من الصخور والأشجار المقطوعة بالإضافة إلى الطين والماء بالتدحرج من قمة الجبل باتجاه القرى. كان السيل المتدحرج يزداد سرعة وكمية كلما نزل المطر أكثر. وعند وصوله إلى القرى كانت الأشجار قد أصبحت مثل طوربيدات طائرة. أما جلاميد الصخر فكانت أكثر رعباً بما لا يقاس، إذ إن الكثير منها كان بحجم شاحنة أو منزل صغير، بينما بلغ ارتفاع أحدها ثلاثاً وثلاثين قدماً وقُدِّرت زنته بحوالى 840 طناً. سحقت هذه الجلاميد كل شيء صادفته في طريقها. بلغ ارتفاع موجة الطين والحطام في بعض الأماكن عشراً أو عشرين قدماً.

عند انتهاء الكارثة، قُدِّر عدد الضحايا ما بين خمسة آلاف وعشرين ألف قتيل. لم يكن باستطاعة المسؤولين معرفة الرقم الحقيقي، لأن معظم الضحايا إما دُفنوا تحت تلال الحطام أو جُرفوا إلى البحر. بعض السكان حملوا الجثث فوق الشيء الوحيد الذي استطاعوا إيجاده؛ باب مكسور. كما حفرت الموجة خندقاً بعمق ثلاثين قدماً في منتصف قرية كارمن دي أوريا الصغيرة، جارفة كل شيء في طريقها. حيث دفعت السيارات إلى غرف المعيشة وقسمت الأبنية إلى نصفين وجرفت أعداداً كبيرة من القتلى إلى البحر.

أطلقت الحكومة على الفور حملة بحث وإنقاذ هائلة الحجم. حيث توجه نحو اثنا عشر ألف جندي وبحار بالمروحيات والسفن والسيارات إلى منطقة الكارثة من أجل نقل السكان وتقديم الطعام والماء وحماية الشوارع والبحث عن الجثث. وخلال الأيام الأربعة الأولى تمكنوا من نقل ما يزيد عن 140,000 شخص من الشاطئ الغارق بالطوفان إلى بر الأمان. وحتى المسؤولون الأميركيون، الذين أرسلوا بعض الجنود والطائرات والمعدات للمساعدة، قالوا إن ما فعله المنقذون الفنزويليون أثار إعجابهم.

تولى تشافيز بنفسه قيادة عملية الإنقاذ. حيث ارتدى ملابسه العسكرية وطار إلى منطقة الكارثة وزار الملاعب الرياضية والمواقع العسكرية حيث وُضع الناجون مؤقتاً. لقد تبيَّن أن خطة بوليفار 2000 كانت بمثابة تحضير مثالي للجيش للتعامل مع جهود الإنقاذ. وعلى الرّغم من أن الانزلاقات الطينية كانت مأساة مرعبة في المقاييس كلّها، إلا أنها كشفت في الوقت عينه عن إمكانيات تشافيز كقائد للدولة. ففي كل ليلة، كان تشافيز يدلي بخطاب يُبَث في جميع المحطات التلفزيونية المحلية ليقدم للفنزويليين بصبر ورباطة جأش آخر أخبار الجهود الإنقاذية ويحثهم على الحفاظ على إيمانهم. كان يعمل بلا كلل وينام ساعتين يومياً فقط جاعلاً من العملية مهمة شخصية بحتة.

كان العمل الإنقاذي مروعاً، ففي أغلب الأحيان لم تكن السلطات تعثر على جثث كاملة بل على قطع منها فقط - رؤوس، أرجل، أذرع - وبعد ثلاثة أسابيع من الكارثة، عُثر على عشرات الضحايا يطوفون في البحر على بعد مئة ميل من الساحل الغربي لفنزويلا. والكثير منهم كانوا مقطّعي الأوصال.

على الرغم من أن تعامل الحكومة مع الكارثة كان نشيطاً وفعالاً، إلا أن ذلك لم يردع المعارضة عن محاولة إيجاد الأخطاء. وبما أن تشافيز لم يظهر على التلفزيون في ليلة 15 كانون الأول بعد إعلان نتائج الاستفتاء وبدء الانزلاقات الطينية، سرت إشاعات - التقطتها وسائل الإعلام - تقول إنه كان في جزيرة لا أورتشيلا يثمل مع فيدل كاسترو وزعماء أجانب آخرين احتفالاً بنصره الجديد. لكن تشافيز، في حقيقة الأمر، أمضى الليلة في قصر ميرافلوريس في اجتماع مع أعضاء حكومته. وقرابة منتصف ظهر اليوم التالي، ركب تشافيز - مجازفاً بحياته - مروحية وطار فوق جبل أفيلا ووصل إلى المناطق الأكثر تضرراً، مخالفاً تحذيرات الطيارين من خطورة الطيران في طقس إمكانية الرؤية فيه تقارب الصفر مع استمرار سقوط الأمطار. كما منع الصحفيين من الطيران خوفاً على حياتهم.

كما استغل المنتقدون تقريراً يثبت - على حدّ زعمهم - بأن الحكومة تلقت تحذيراً بشأن الكارثة الوشيكة لكنها لم تفعل شيئاً لأنها لم تشأ إيقاف التصويت على الدستور. لكن الأمطار الكثيفة - حسبما ذكر بعض الخبراء لاحقاً - تحدث مرة كل قرن كحدٍّ أدنى، وخدمة الطقس الوطنية أُخذت على حين غرة مثل كل الناس. «لم نحذر الناس في أي وقت من مدى السوء الذي يمكن أن تبلغه هذه الحادثة»، قال ألفارو بالاتشي من خدمة الطقس الوطنية.

جاء الهجوم على تشافيز حتى من السلطة العليا في الكنيسة الكاثوليكية عندما زعم الأسقف خوسيه إغناسيو فيلاسكو من وراء المذبح بأن المأساة كانت عقاباً من الله موجهاً إلى تشافيز.

لكن الرئيس كان يعتقد بأن السبب كان أرضياً وليس سماوياً، ذلك أن الكثير من الناس ماتوا - بحسب رأيه - بسبب انعدام حس المسؤولية لدى الحكومات السابقة التي سمحت بانتشار قرى بأكملها في مناطق معرضة للانزلاقات الطينية. أما بالنسبة للمجمعات السكنية الفخمة، فغالباً ما كانت الرشى التي تُدفَع للمسؤولين الفاسدين وتسرّع إجراءات منح التراخيص لبنائها.

بعد انتهاء الكارثة، تعرض تشافيز أيضاً للهجوم بسبب إدارته للعلاقات مع الولايات المتحدة. فبعد يومين من حدوث الانزلاقات الطينية والصخرية، بدأت أول دفعة من الجنود الأميركيين (120 جندياً) بالوصول إلى فنزويلا للمساعدة في أعمال الإنقاذ. كما جاءت مروحيات بلاك هوك، وطائرة نقل من طراز هيركيوليس

C-130، ومساعدة مالية بقيمة 3.4 مليون دولار. وفي 23 كانون الأول، حطت طائرة غالاكسي C-5 العملاقة - أكبر طائرة مصنوعة في الولايات المتحدة - على أرض مطار سيمون بوليفار الدولي حاملة معها آلات لتنقية المياه.

لكن التنسيق السلس صادف عقبة في منتصف كانون الثاني 2000 عندما أرسلت الولايات المتحدة سفينتين إلى فنزويلا للمساعدة في إعادة بناء الطريق الرئيسي الممتد على طول الساحل المحاذي لجبل أفيلا. كانت السفينتان تحملان بلدوزرات ومعدات هندسية و450 مهندساً تابعاً لسلاح البحرية الأميركية. وقد جاءت السفينتان بناء على طلب وزير دفاع تشافيز، الجنرال رؤول سالازار، في رسالة بعثها في 24 كانون الأول.

لكن، بعد يوم من مغادرة سفينة USS Totuga ميناء نورفولك في فيرجينيا، أعلن تشافيز فجأة (ربما لأن الوزير سالازار أساء الفهم أو لأن تشافيز غيَّر رأيه) بأن مساعدة الأميركيين لم تعد ضرورية، على الرّغم من أنه سيأخذ المعدات. فأمرت الولايات المتحدة السفينة بالعودة، كما منعت السفينة USS Nashville في مدينة مورهيد في كارولاينا الشمالية من المغادرة. كان المسؤولون الأميركيون مستائين ومحتارين وقالوا بأنهم لا يستطيعون إرسال المعدات من دون الرجال.

في الحقيقة، كان تشافيز في وضع دقيق من الناحية السياسية، فعلى الرغم من أن علاقاته مع الولايات المتحدة كانت لا تزال جيدة نسبياً، إلا أن التقارب مع الشمال حافل بتاريخ طويل من قلب الحكومات والحركات اليسارية في أميركا اللاتينية. والسماح لحوالى 450 جندياً أميركياً وسفينتين بالوصول إلى الشواطئ سيكون أشبه بالسماح للإمبرياليين الأميركيين بإجراء تدريب على النزول إلى شواطئ تبعد نصف ساعة عن العاصمة. كان هذا التصرف في الواقع منسجماً مع الطبيعة الثورية للحكومة الفنزويلية، وهو لم يكن الأول من نوعه، ففي الأيام الأولى من ذلك العام منع تشافيز أيضاً - معللاً ذلك بالحفاظ على السيادة الوطنية - الطائرات الأميركية من التحليق فوق الأراضي الفنزويلية في طلعات استكشافية تتعلق بمحاربة تهريب المخدرات. لكن معارضي تشافيز قالوا إنهم يريدون المساعدات بغض النظر عن مصدرها.

تعرَّض تشافيز أيضاً لهجوم آخر بسبب مزاعم تتعلق بإساءات لحقوق الإنسان ارتكبها الجنود ورجال الشرطة الذين أرسلوا إلى منطقة الكارثة من أجل منع حوادث النهب. فقد أصدرت منظمات حقوق الإنسان في 3 كانون الثاني 2000 تقريراً يتهم العملاء الأمنيين بالقتل والضرب والنهب في منطقة الكارثة. كما نشرت صحفية شجاعة من *El Nacional*، تُدعى فانيسا دافيس، سلسلة من المقالات حول الإساءات المزعومة بالاستناد إلى روايات أشخاص تعرضوا لهذه الإساءات ولكن من دون ذكر أسمائهم.

رد تشافيز بطريقة دفاعية، فوصف تقرير مجموعات حقوق الإنسان بأنه مشكوكي وسطحي. وهاجم مصداقية دافيس قائلاً بأن محققي الحكومة لم يجدوا جزءاً واحداً

مـن دليـل يدعـم ادعاءاتهـا. وهذا ما دعا الأمن السياســي DISIP إلى استدعاء دافيس للتحقيق معها.

لكن حكومة تشافيز نفسها نقضت كلامه في 11 كانون الثاني، حيث قال المحقق الحكومــي فــي شـكاوى المواطنين، روجير سيدينو، بأنه يعتقد بأن القوى الأمنية قتلت أكثـر مـن ستيـن شخصـاً بيـن 17 و30 كانون الأول في ولاية فارجاس الساحلية. كما انتقـد وزيـر الخارجيـة خوسيـه فيسينته رانجل - هو نفسـه كان صحفياً محترماً جداً في الماضي - الأمـن السياسـي لاستدعائـه دافيـس. كما أضاف بأنه لم يكن مستغرباً من أن تقدم قوى الأمن على ارتكاب الإساءات، لأن ذلك ليس بجديد على فنزويلا.

فـي خطـوة مذهلـة تثبت مصداقية الرجل، اتصل تشافيز بدافيس ودعاها لمرافقته إلـى فارغـاس وزيـارة العائلات التي تحدثت معها بشأن تلك الإساءات. ركب الاثنان سيارة جيب، وتولى تشافيز، الذي كان يرتدي ملابسه العسكرية، القيادة وانطلقا باتجاه منطقـة الكارثـة مسـاء السبـت 22 كانون الثاني. وهناك أخذ رجل من المنطقة الرئيس ومرافقيه إلى موقع زعم بأنه قبر جماعي. أخبر تشافيز بأن الجنود قاموا بصف بعض الناس ثم أطلقوا النار عليهم. فأمر تشافيز السلطات بحفر الموقع لكنه لم يجد أي جثث فيـه. ثـم تعهـد بتحسيـن سجل حقوق الإنسان في فنزويلا. «لدينا ثقافة رهيبة هنا وهذا لن يتغير بين ليلة وضحاها».

مدحت منظمات حقوق الإنسان موقف تشافيز. ولكن، كان هناك شخص يشعر بالاستيـاء، ذلـك أنـه كان يعتقـد بأن الأمن السياسي DISIP تحول إلى كبش فداء. إنه جيسوس أوردانيتا، أحد الأعضاء المؤسسين لحركة MBR-200، وأول شخص يعيّنه تشافيز في حكومته، حيث تولى رئاسة DISIP في كانون الأول 1998 حتى قبل أن يؤدي تشافيز القسَم الرئاسي.

كان أوردانيتـا يعتقـد بـأن المسؤولين ووسائل الإعلام ألقوا كامل المسؤولية على عاتق وكالته عبر تركيز الاتهامات عليها، على الرّغم من أنها لم ترسل إلى فارغاس سوى حفنة من العملاء التابعين لها بالمقارنة مع آلاف الجنود وأفراد الشرطة: «كان هنـاك ثمانيـة آلاف رجـل ويُزعَـم أن رجالي الستين هـم الذين انتهكوا حقوق الإنسان كلّها». كان هناك أيضاً صراع على السلطة ضمن إدارة تشافيز وبين تشافيز ورفاقه القدامى. بعض البوليفاريين كانوا يعتقدون بأنه يتقرب كثيراً من أشخاص سياسيين مثل لويـس ميكويلينـا وخوسيـه فيسينته رانجل، اللذيـن يعتبرونهما جزءاً من النظام القديم. كان أوردانيتا يشعر بالاستياء ويستعد للانسحاب.

كان تشافيـز علـى وشـك التعرض لأولى الانشقاقـات الكبرى في رئاسته، حيث سيهجره ويخونه - بنظره - الرفاق الذين كانوا ذات يوم أشقاءه بالدم.

الفصل السابع عشر

أولى الانشقاقات

عندما طوى تشافيز سنته الأولى في الرئاسة، كان لا يزال يحظى بشعبية هائلة. فبالنسبة للطبقة الدنيا ظل تشافيز المخلّص الذي سينقذ البلد من الطبقة المتنفذة الفاسدة. غير أن أولى إشارات عدم الرضا كانت قد بدأت تظهر على الرّغم من ذلك. فقبل أسبوعين من التصويت على الدستور، فتح المقيمون في الأحياء الثرية في كاراكاس نوافذهم خلال إحدى خطابات تشافيز التلفزيونية، وقرعوا على القدور والمقالي احتجاجاً عليه وعلى الدستور المقترَح. لقد اشتُهر قرع القدور كمظهر احتجاجي في أميركا اللاتينية بواسطة سيّدات البيوت المنتميات للطبقة الوسطى في تشيلي في بداية السبعينيات قبل الإطاحة بالرئيس سلفادور أليندي بواسطة انقلاب مدعوم من الولايات المتحدة الأميركية.

بالإضافة إلى ذلك، أضاء معارضوه الشموع في الليالي، ووزعوا المنشورات، وأطلقوا العنان لأبواق السيارات. لقد سئموا من لغته المستفزة، من وصفه لهم بالطبقة الثرية العفنة. فالكثيرون منهم لم تكن لهم علاقة بالطبقة الثرية المتنفذة. لم يكونوا من أصحاب الدماء الزرقاء الذين يولَدون وفي أفواههم ملاعق من فضة، بل مجرد مواطنين من الطبقة الوسطى عملوا بجد فحصلوا على ما حصلوا عليه. إن ثورة تشافيز لم تكن تعدهم بالكثير. في تلك الأثناء، تعهَّد عمدة كاراكاس أنطونيو ليديزما من حزب العمل الديمقراطي سيئ السمعة بمواصلة قرع القدور إن استمر الرئيس بخطف أمواج البث لساعات طويلة من أجل شن هجماته اللاذعة.

كانت خطابات تشافيز تفقد معارضيه عقولهم. كان يبدو وكأنه دائم الوجود، إذ كان يدلي بخطابين أو ثلاثة يومياً ويظهر بشكل متكرر على الهواء في وقت ذروة في خطابات تدوم لساعتين وسطياً وعلى محطّات التلفزيون الوطنية كلّها. لقد بدأ شهر شباط بخطاب متلفز دام 171 دقيقة خلال وقت الذروة بمناسبة مرور سنة على اعتلائه سدة الحكم. وعاد مجدداً في 5 شباط ليظهر لمدة 39 دقيقة، وفي 11 شباط لمدة 100 دقيقة، وفي 14 شباط لمدة 104 دقائق، وفي 15 شباط لمدة 88 دقيقة، وفي 16 شباط لساعة أخرى.

كانت خطابات تشافيز تقطع المسلسلات الدرامية التلفزيونية المسائية واسعة الشعبية، وتقطع أرباح الشبكات التلفزيونية أيضاً بما أنها كانت تُبَث مجاناً. والكثير من معارضي تشافيز وحتى بعض مؤيديه كانوا يعتقدون بأنها زائدة عن الحدّ، أو بحسب تعبير أحد مزيّني الشعر: «لا يمكنني أن أتحمّله أكثر من ذلك. إنه يتحدث صباحاً وظهراً

ومساءً، وعلى المحطات كلّها. يبدو الأمر وكأننا نعيش في نظام ديكتاتوري».

غير أن تشافيز كان شخصاً مسلياً بحق. وليس هناك سياسي في الولايات المتحدة أو في معظم البلدان الأخرى يمكنه مجاراته في قدرته على سرد النكات المضحكة. في العام 2001، على سبيل المثال، تضمَّن أحد برامجه بث شريط فيديو مسجل عن زيارته لإحدى البلدات الريفية ومساعدته بعض الأطباء العسكريين خلال إجرائهم عملية جراحية؛ كان يمسك بمصباح كشاف. استدار تشافيز نحو الجمهور وقال: «أترون؟ أصبحت الآن قادراً حتى على إجراء العمليات الجراحية!». كان تشافيز قاصّاً موهوباً بالفطرة مع «حس رائع باختيار التوقيت المناسب»، بحسب تعبير غابرييل غارسيا ماركيز. وبأسلوبه الإيقاعي الذي يشبه أسلوب واعظ معمداني، كان تشافيز يجتذب ملايين المشاهدين، وبين الحين والآخر كان يرتشف القليل من القهوة ويخرج من جيبه الدستور الجديد الحاضر معه دوماً. كانت أفكاره تتأرجح بين حكايات عن طفولته وانطباعاته حول معنى الحب وشرحه لسبب تلقيب أحد أقاربه برجل البندقية. وفي سياق الحديث، كان يستشهد بالكثير من الأعلام، من الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه إلى توماس جيفرسون إلى ماو تسي تونغ.

كانت أحاديث تشافيز العلنية تضفي على حكمه شيئاً من الشفافية، لأن الناس في عهده أصبحوا يعرفون ما يجري حولهم. فهو كان يسائل الوزراء علناً، بل وفي بعض الأحيان يوبخهم أيضاً. ويعلن عن التعيينات الجديدة والأشخاص المقالين، ويُخرج بيانات وخرائط لشرح آخر خططه أو رحلاته الخارجية ما جعلها بالنسبة للكثيرين من الفنزويليين الحاصلين بالكاد على تعليمهم الابتدائي تبدو مثل حصة تعليمية في مادة الجغرافية. في بعض أحاديثه كان يقدم موجزاً تاريخياً عن البلدان التي زارها ويصف الأشخاص الذين قابلهم. بينما كانت أحاديث أخرى تركز على التاريخ الفنزويلي أو السياسات الاقتصادية لحكومته. وما جعلها سهلة الاستيعاب هو أسلوبه البسيط والمسلي. كان يتحدث بلغة الناس. كان شخصاً عادياً من الحي.

كان تشافيز شخصاً حيوياً، وخاصة بالمقارنة مع سلَفه المحتضر رافائيل كالديرا، الذي كان نادراً ما يخاطب الأمة، بل كان في بعض الأحيان يجد نفسه مضطراً لدحض الشائعات التي تقول إنه ميت. يقول بائع ألبسة: «إنه الرئيس الوحيد الذي يهتم بالناس، بحلّ مشاكلنا». ولم يكن تشافيز قلقاً بشأن الوقت الذي يخسره الناس في مشاهدة المسلسلات التلفزيونية التافهة، حسبما قال للصحفيين: «المسلسلات الدرامية، لا، لا! إننا بحاجة للمزيد من الأحاديث كي نشرح للناس ماذا يجري في فنزويلا».

أما بالنسبة لأفراد الطبقة الثرية فقد كانوا يسخرون من تشافيز ويطلقون النكات حول ظهوره المتكرر على التلفزيون. فهو في أعينهم ليس سوى شخصاً أخرق، أحمق، طائشاً، ومثيراً للإحراج بأحاديثه المطولة. من التعليقات الرائجة في أوساطهم، على سبيل المثال، «هل رأيت أميرنا المهرج الليلة الماضية؟». أو «لقد استولى الأجير

على المزرعة». وقد فسَّر مسؤول سابق في وزارة الخارجية سبب ابتعاد معظم رجال الأعمال الفنزويليين عن تشافيز بقوله: «لا أظن أنهم يعرفون كيف يتحدثون إليه. لعلهم لم يقابلوا شخصاً مثله من قبل، باستثناء خادمهم المنزلي». لقد سئم الأثرياء من سماع تشافيز يتحدث عن جدته روزا إنياس أو الإصغاء إليه وهو يقارن أحداث العالم مع مباريات كرة القاعدة. كانوا يعتقدون بأن عليه - بدلاً من التحدث من دون توقف - أن يخرس ويدير الحكومة.

في كانون الثاني، أصدر المشرف المالي السابق، إدواردو روتشي لاندر، تقريراً لاذعاً يدَّعي فيه أن الحكومة كانت تولي اهتماماً شديداً بالشؤون السياسية ولا تهتم بما يكفي بالاقتصاد، والجريمة، والفساد. وأشار إلى أن خطة بوليفار 2000 تحولت إلى بؤرة للفساد وأن الأداء الاقتصادي للبلد كان بالغ السوء: تقلَّص الاقتصاد بنسبة 7.2 بالمئة منذ تولي تشافيز الرئاسة، وانخفض الاستثمار الأجنبي بما قيمته 1.7 مليار دولار، وبلغت رؤوس الأموال المهرَّبة 4.6 مليار دولار، وخسر نحو 500,000 شخص وظائفهم.

اعتبرت حكومة تشافيز التقرير بأنه انتقام سياسي على خلفية إقالة المجلس الدستوري لروتشي لاندر من منصبه قبل فترة قصيرة. كما نوَّه وزير الخارجية خوسيه فيسينته رانجل إلى قيام فنزويلا في عهد تشافيز بعمل غير مسبوق تمثَّل بطرد مئتي قاض فاسد، وأن المزيد من الفاسدين ينتظرون دورهم. وعلى الرّغم من أن الحكومة أقرَّت بضعف الاقتصاد الفنزويلي، إلا أنها ردَّت ذلك إلى الكارثة المالية التي ورثتها عن كالديرا، فضلاً عن كارثة الفيضانات التي أصابت البلد في كانون الأول.

انضم بعض المسؤولين الأميركيين إلى حملة الانتقادات الموجهة لتشافيز، مثل بيتر روميرو - المسؤول الأعلى عن شؤون أميركا اللاتينية في وزارة الخارجية الأميركية - الذي أخبر إحدى الصحف في إسبانيا بأن الولايات المتحدة «مدَّت يدها لتشافيز. لكنك لا ترى أن الحكومة تعمل، مجرد استفتاءات، تصويت، ومزيد من الانتخابات. إنهم يقولون لنا \انتظروا\ مع أننا نحن الإسبان لسنا مشهورين بالصبر». وقد أثار هذا التعليق نوعاً من النزاع الدبلوماسي الثانوي.

كان ذلك أول نزاع علني بين البلدين. إذ قبل ذلك الحين كانت المقاربة الأميركية عموماً نحو تشافيز - عملاً بنصحية السفير جون ميستو بصورة رئيسية - أقرب إلى التعاون منها إلى النزاع. كانوا يريدون تجنُّب أي مواجهة يمكن أن تهدد الصادرات النفطية أو ملايين الدولارات التي تكسبها شركات النفط الأجنبية في فنزويلا. وقد فسَّر خوسيه فيسينته رانجل ذلك بقوله: «أظهرت وزارة الخارجية الأميركية حذراً كبيراً تجاه تشافيز بسبب ما أسميه تناذر كوبا، أي الخوف من أن يدفع تشدد الولايات المتحدة تشافيز إلى أقصى اليسار، كما فعلت مع كاسترو». ويقصد بكلماته هذه محاولات

أميركا لتقويض سلطة كاسترو في السنوات الأولى من عمر ثورته، من غزو خليج الخنازير إلى الحظر الاقتصادي.

برَّر ميستو لروميرو وآخرين في وزارة الخارجية ضرورة تعامل واشنطن مع تشافيز بدلاً من معاداته استناداً لعدة أسباب: أولاً، كان تشافيز يتمتع بشعبية هائلة في وطنه، والدليل على ذلك فوزه بسلسلة من الانتخابات الحرة والنزيهة؛ ثانياً، لم تكن سياساته حتى ذلك الحين متطرفة، وخصوصاً على المستوى الاقتصادي، فبعد أن دفع باتجاه تأجيل الدين الخارجي عندما كان مرشحاً، ظل تشافيز ضمن حدود الاتفاق الذي تفاوض عليه كالديرا مع صندوق النقد الدولي. وثالثاً، بصفته شعبوياً، كان تشافيز يستفيد دائماً من المواجهات - على طراز نحن ضدهم - مع كل من النخب السياسية الفاسدة ورجال الأعمال وحيتان وسائل الإعلام والسلطة والكنسية الكاثوليكية. وميستو لم يشأ أن تنضم الولايات المتحدة إلى قائمة الأعداء.

على أي حال، انقضت حادثة روميرو من دون مشاكل تُذكَر. لكن المزيد منها سيأتي لاحقاً. فالولايات المتحدة كانت على موعد مع رئيس جديد مع قدوم السنة الجديدة. وكان مقدراً لها، على ما يبدو، أن تكرر الأخطاء التي ارتكبتها مع كوبا.

ارتكب تشافيز وأنصاره العديد من الأخطاء التي زودت خصومه بالذخيرة التي يحتاجونها لمهاجمته وأثارت غضب ليس منتقديه فحسب بل الرئيس نفسه. فبعد مصادقة المصوّتين على الدستور الجديد في 15 كانون الأول، حُلَّ الكونغرس والمحكمة العليا بشكل تلقائي. وبعد أسبوع، أعلن المجلس الدستوري رسمياً نهاية هاتين المؤسستين. في مداولات سرية عيَّن المجلس أعضاء محكمة العدل العليا الجديدة إلى جانب النائب العام والمشرف المالي الوطني والمحامي العام واللجنة الانتخابية الوطنية. كما عيَّن كونغرس مصغراً مكوناً من حلفاء تشافيز ليحل محل البرلمان القديم إلى حين إجراء الانتخابات. كانت هذه الانتخابات مقررة في شباط لكنها أُجِّلت لعدة أشهر بسبب الانزلاقات الطينية ووجود مشاكل تقنية في ماكينات الانتخاب.

بما يتناقض مع تصريحات تشافيز التي بشَّرت بانتهاء أيام التعيينات التي تجريها النخب السياسية في الغرف الخلفية، لم يستشر المجلس الدستوري هيئات المجتمع المدني أو غيرها من المنظمات الشعبية في تلك الخطوات. حيث انتقى لويس ميكويلينا - رئيس المجلس الدستوري والكونغرس المصغَّر - بنفسه الكثير من المعيَّنين الجدد، ومنهم شقيق تشافيز أدان. وهذا ما دعا المنتقدين إلى اتهام الحكومة باستغلال الفوضى التي حلَّت بالبلد إثر الانزلاقات الطينية من أجل تمرير التعيينات. حتى تشافيز نفسه انتقد تفويت فرصة الابتعاد عن الطرائق القديمة في ممارسة السياسة مع أن ميكويلينا اعترف لاحقاً بأن تعيينات الغرف المغلقة كانت خطأً. كانت المعارضة محبطة وغاصبة، وتخسر المعركة السياسية في فنزويلا.

لكنهم وجدوا متنفساً مسلياً لهم في عرض مسرحي كان يجتذب الكثير من المشاهدين وهو بعنوان *La Reconstituyente* (إعادة البناء). كان واضحاً أن العنوان ليس إلا لعباً على الكلمات في إشارة إلى المجلس الدستوري المناصر لتشافيز الذي أعاد كتابة الدستور. خلال أحد العروض، ركض أحد الممثلين بمرح حول خشبة المسرح وهو يعتمر قبعة حمراء ويحمل في يده قفازي كرة قاعدة. وبعد ذلك، سخر من تشافيز مقلّداً أسلوبه في إلقاء الخطب وعادته في التوقف في أثناء الخطاب من أجل إلقاء التحية على الأصدقاء الذين يراهم بين الحضور. وفي إحدى الليالي قال أحد الممثلين - الكوميدي لورينو ماركيز - للجمهور إنه يفضل أن يرى المزيد من خطابات تشافيز المطولة، ثم أضاف ساخراً: «عندما يتكلم، إنه لا يحكم، وهذه أفضلية استراتيجية».

بالإضافة إلى الضربات الموجهة في مسرحية *La Reconstituyente*، كانت المعارضة تمتلك أيضاً تيودور بيتكوف، أكثر أصواتها حيوية وفصاحة. كان الزعيم الماركسي المتمرد السابق خلال الستينيات، الذي تحوَّل إلى قيصر الإصلاحات الاقتصادية النيوليبرالية في عهد كالديرا، يمر بمرحلة تقمص جديدة، حيث أصبح يشغل منصب رئيس تحرير جريدة إل موندو اليومية المسائية. كان الرجل مناسباً تماماً لهذا المنصب في الواقع. يبدو أن بيتكوف هذا شخص معارض دوماً، فبعد خلافه مع الحزب الشيوعي السوفييتي على أثر غزو تشيكوسلوفاكيا في العام 1968 عاد وانشقّ عن زملائه في حركة MAS عندما أيّدوا ترشيح تشافيز للرئاسة في العام 1998.

أعاد بيتكوف جريدة إل موندو المملة إلى الحياة مجدداً بما يتمتع به من ذكاء وموهبة ومخيلة واسعة. وبفضل مقالته النقدية المطولة التي كانت تظهر على صفحتها الأولى كل مساء أصبح الإقبال على الجريدة واسعاً جداً بين صفوف معارضي تشافيز بل وبعض مناصريه أيضاً. في أغلب الأحيان لم تكن الحكومة تعرف كيف ترد، على الرّغم من وجود عدد كبير من الصحفيين البارزين في صفوفها، إذ «أظهرت أداء سيئاً جداً في العلاقات العامة، ووجدت صعوبة في مواجهة هجمات الصحافة المعادية»، بما فيها صحيفة بيتكوف. في الواقع، كان حضور تشافيز مهيمناً إلى درجة أن قلة من الأصوات الأخرى في الإدارة عرفت النجاح أو حصلت على فرصتها أمام الميكروفون.

على أي حال، ترك بيتكوف وظيفته في صحيفة إل موندو إثر ضغط - على حدّ زعمه - من مسؤول حكومي رفيع المستوى قد هدد برفع دعوى قضائية على مالكي الصحيفة؛ عائلة كابريليس. لكنه أسس صحيفته الخاصة، تال كوال، في بداية شهر نيسان من العام 2000 وهو بعمر الثامنة والستين. وسرعان ما أثارت الصحيفة غضب الحكومة، فبعد يوم واحد فقط من ظهورها - في 3 نيسان - عرضت صفحتها الأولى مقالة بعنوان السياسة الرسمية وإلى جانبها صورة لتشافيز. كان النص بأكمله يتكون من *Bla, bla, bla* أي كلام فارغ.

غيـر أن الضربـة الأكبـر التـي تعرَّض لها تشافيز فـي بداية سنته الرئاسية الثانية لـم تـأتِ مـن صحيفـة بيتكوف، بل من رفـاق السلاح القدامى. ففـي الذكرى الثامنة لانقـلاب الرابـع مـن شباط، أذهل فرانشيسكو أرياس كارديناس وجيسوس أوردانيتا وجـول أكوستـا تشيرينوس - أبـرز قادة التمرد - الأمة عندما عقدوا مؤتمراً صحافياً في مدينة كورو الواقعة غرب البلاد من أجل انتقاد تشافيز وحاشيته. كانوا يعتقدون بأن ثورته السلمية فقدت وجهتها وخانت المبادئ البوليفارية التي جازفوا جميعاً بحياتهم من أجلها. كانوا يرون بأنها تفتقر إلى الديمقراطية الداخلية، وتنمِّي الفساد، وأن القائمين عليهـا مستبـدون أو قـادة عنيفـون. كما اتهموا تشافيز ببيع نفسه للطبقة الحاكمة الفاسدة التي كانت السبب في ظهور الحركة البوليفارية أساساً، وطالبوه بإقالة وزير الخارجية خوسيـه فيسينتـه رانجـل، ووزير الداخليـة السابق الذي أصبح سفير فنزويلا في الأمم المتحـدة فـي ذلـك الحيـن إغناسيو أركايا، ولويـس ميكويلينا، الذي تحوَّل إلى ما يشبه صانع الملوك في الإدارة وأقرب مستشاري تشافيز، الذي كان يعتبره كوالده.

قال أرياس كارديناس، الذي كان ذات مرة أحد أقرب حلفاء تشافيز وأحد قادة انقلاب الرابع من شباط: «لقد خُدعنا. إنها خيبة أمل كبيرة جداً للأمة». ثم أضاف بأن بعض المساعدين المدنيين للرئيس «تحوَّلوا على ما يبدو إلى مجرمين». وقال أيضاً: «إن الإدارة التي لا تسمح برأي مخالف ولا تناظر ولا تناقش لا وجود لها برأيي».

كـرر أوردانيتـا الشكـوك المتعلقـة بكبار مساعدي الرئيـس المدنيين: «لقد وضع هـؤلاء الرجـال عصابـة علـى عينـي الرئيـس وهم يقودونـه إلى حافـة الهاوية». أما أكوستـا تشيرينوس فقـد قـال إن حكومـة تشافيـز تتحوَّل إلى نسخـة طبق الأصل عن أنظمـة حـزب العمـل الديمقراطـي القديمة التي كانت تعمـل بأسلوب يشبه إلى حدّ كبير الأسلـوب الستالينـي. «لقـد تحـوَّل الحزب إلى نوع مـن منظمة سرية تُؤخَذ قراراتها، على ما يبدو، بطريقة تذكِّرنا بالطريقة التي كانت سائدة خلال الجمهورية الرابعة... الرئيس محاط بمجموعة من الخدم الذين، ببساطة، يحنون رؤوسهم ويقولون حاضر سيـدي». مـع ذلـك، فالرجال الثلاثة لم يكونوا يريدونها قطيعة نهائية مع الرئيس، إذ قالوا بأنهم سيمنحونه فرصة للتصحيح أولاً.

تسبَّـب الهجـوم بصدمـة كبيـرة لتشافيـز، لأنه جاء من أشخاص كانوا ذات يوم مـن أقـرب حلفائـه وأكثرهـم نفوذاً. فأرياس كارديناس كان حاكم ولاية زوليا الغنية بالنفط؛ وأوردانيتا كان رئيس استخبارات تشافيز، الرجل الذي يحفظ الأسرار؛ وأكوستا تشيرينوس كان الرئيس الوطني لحزب MVR (حركة الجمهورية الخامسة). لقد هدد احتجاجهـم بنفـخ الحيـاة فـي حركة المعارضة التي كانت بالـكاد موجودة وأحدث أول صدع كبير في حكومة تشافيز. بالطبع كان أعضاء النظام القديم فرحين بهذا التطور المذهل.

بعـد أسبـوع مـن المؤتمـر الصحافي، رفـع القادة الثلاثة سقـف رهانهم. فذهب

أوردانيتا - رئيس الأمن السياسي السابق الذي شعر بأن وكالته ظُلمت بشدة في مسألة الارتكابات التي حدثت بعد الانزلاقات الطينية - إلى مكتب النائب العام الوطني وسلّمه ملفات قال إنها تحوي دلائل على فساد ستة وأربعين مسؤولاً حكومياً من بينهم ميكويلينا. دفع هذا النبأ المثير تشافيز إلى قطع صمته الذي دام أسبوعاً كاملاً ليدلي بخطاب بُثّ على جميع المحطات المحلية. ومع أنه قال إنه تألّم لهذا الانشقاق، إلا أنه أكّد بأن الثورة يجب أن تواصل مسيرتها. وقد فسر الكثيرون تصريحاته على أنها وداع نهائي لرفاقه السابقين.

لكن، ثمة من يقول بأن الشعور بالغيرة والإحساس بالتضرر والصراع الداخلي على السلطة بين العسكريين والمدنيين داخل حزب MVR هي الأسباب الحقيقية وراء تلك الشكاوى والاتهامات التي تقدَّم بها القادة المتمردون السابقون. فقد تجاهل تشافيز رفيقه أرياس كارديناس مؤخراً في ما يتعلق بمنصب نائب الرئيس المبتكر حديثاً. وطُرد أوردانيتا من منصبه كرئيس للأمن السياسي. أما أكوستا تشيرينوس فقد كان يفتقر إلى السلطة الحقيقية أساساً بصفته رئيساً لحزب MVR. علاوة على ذلك، كان في طريقه لفقدان المنصب أيضاً، لأن تشافيز أعلن بأنه سيستعيد شخصياً سلطته على الحزب بعد «تركهم يفعلون ما يريدون» طوال السنة السابقة.

بعضهم كان لديه خلافات - منها ما هو قديم - مع مساعدي تشافيز المدنيين. فعندما كانوا في سجن يار، أمر ميكويلينا أرياس كارديناس بالتزام الصمت والبقاء بعيداً عن وسائل الإعلام، لأنه كان يعتقد حينئذ بأنه على قادة الانقلاب أن يجعلوا من تشافيز نجماً تتحلّق حوله الحركة. وأرياس كان مستاء من ذلك كثيراً بقدر استيائه من السلطة الواسعة التي حصل عليها ميكويلينا في الحكومة. وأوردانيتا بدوره كان يضمر ضغينة تجاه خوسيه فيسينته رانجل، الذي اتهمه والأمن السياسي (*DISIP*) بترهيب ومحاولة إسكات الصحفيين ومنظمات حقوق الإنسان التي كانت تحقق في جرائم القتل في فارغاس. وهو كان يعتقد بأنه أرغم على الاستقالة من منصبه لأن تشافيز لم يكن يريد أن يُحقّق في قضايا الفساد التي قدَّمها أوردانيتا، على الرّغم من أن الرئيس تعهَّد بالنظر فيها.

كان تشافيز يواجه موقفاً صعباً بالفعل. فهو من جهة كان يتعرض لهجوم بسبب ماضيه كقائد انقلاب سابق ولتعيينه كثير من العسكر في حكومته، مثيراً المخاوف من تكوين نظام عسكري. ولهذا السبب، أدخل إلى الحكومة أشخاصاً مدنيين يساريين يتمتعون بسمعة حسنة بين الناس، مثل ميكويلينا ورانجل، وأسند إليهم مناصب رفيعة المستوى للمساعدة في إدارة حكومة كان الكثيرون من المسؤولين فيها - بما فيهم الرئيس نفسه - يشغلون مناصب رسمية للمرة الأولى في حياتهم. من الجهة الأخرى، كان أرياس وأوردانيتا وأكوستا تشيرينوس رفاقه القدامى، ومن دونهم لم يكن ليصبح رئيساً في المقام الأول. على هذا الأساس، كان على تشافيز أن يختار بين الأمرين، أو

بحسب تعبير أحد الصحفيين، كان هناك خياران أمام تشافيز: إما أن يقطع يده اليمنى أو اليسرى. في النهاية، اختار السير مع المدنيين.

لم تهدأ الاتهامات بل ازدادت سوءاً. حيث تضمنت اتهامات أوردانيتا لميكويلينا ادعاءه بأن الأخير كان مساهماً في شركة للطبع فازت بعقد حصري من اللجنة الانتخابية الوطنية لطبع مليون نسخة من الدستور الفنزويلي الجديد. وادَّعى أيضاً بأن ميكويلينا ساعد صديقاً على الفوز بعقود تأمين مع إحدى عشرة وكالة حكومية، وأن ميكويلينا ضغط عليه من أجل حمل جهاز الأمن السياسي (DISIP) على توقيع عقد خاص به أيضاً.

رد ميكويلينا على أوردانيتا متهماً إياه ببناء منزل مكوَّن من ثماني غرف نوم في حي ثري في كاراكاس بواسطة أموال مأخوذة بطرق غير قانونية من DISIP قبل إقالته. أخيراً، فتح النائب العام تحقيقاً ضد الرجلين، لكن أياً منهما لم يُدَن في نهاية المطاف.

مع ازدياد حدة الاتهامات، وصل الرفاق العسكريون السابقون الثلاثة إلى قناعة مفادها أن الرئيس لن يصحح سياساته وقرروا قطع علاقتهم به، على الأقل في الوقت الحاضر، بما أن السياسة في فنزويلا ليست سوى لعبة هزلية يتبدَّل فيها الحلفاء والأعداء بشكل دائم. وفي 10 آذار عقدوا مؤتمراً صحافياً آخر في مدينة ماراكاي إلى جانب متمردين آخرين من المحاولتين الانقلابيتين اللتين حصلتا في العام 1992، كان بينهم الجنرال المتقاعد فرانسيسكو فيسكونتي أوسوريو والنقيب جيراردو ماركيز، بالإضافة إلى ويليام إيزارا؛ الطيار في القوى الجوية الذي درس في هارفارد وأسس خلية ARMA المتمردة.

أصدر الجنود السابقون إعلان ماراكاي الذي ينتقد حكومة تشافيز، متعهدين بمحاربة الفساد والبيروقراطية والديماغوجية وكبح المحاولات الرامية لتسييس الجيش. كما تعهدوا بحماية الملكيات الخاصة وتحويل السلطة إلى سلطة لامركزية. وقالوا أيضاً بأن بحر سعادتهم سوف يُبنى في فنزويلا ولن يُشكَّل بناء على نموذج كوبا كاسترو.

بعد ذلك، أسقط أرياس قنبلة أخرى حين أعلن بأنه سيرشِّح نفسه للرئاسة ضد تشافيز. فالدستور الجديد يفرض على المسؤولين المنتخبين إعادة تأكيد شرعية ولاياتهم من خلال انتخاب شامل سيجري في أواخر أيار، وعلى أساسه سيتقرر وضع نحو 6200 منصب عام في البلد من الرئيس إلى رؤساء البلديات المحلية. ولم يكتفِ بذلك، بل شن هجوماً لاذعاً على الرجل الذي كان ذات يوم شقيقه الروحي، والذي أصبح خصمه في ذلك الحين، وسيصبح حليفه مجدداً في المستقبل، متهماً إياه بالديماغوجية ومعاشرة النخب الفاسدة وتشجيع الفقراء على السرقة بدلاً من العمل ومحذراً من إمكانية

تحوُّل فنزويلا إلى كوبا أخرى.

> نحن نعتقد بأننا لم نتمرد ونتحمَّل القتلى والإصابات كي يأتي شخص ويتقمص شخصية فيدل كاسترو، نريد أن نقول ذلك بوضوح. إننا نحترم كاسترو، ولكن على جزيرته. يمكننا أن نتفاوض مع كاسترو والكوبيين، ونحترم ثورتهم، لكن ثورتنا ستُبنى هنا من دون نصيحة من الخارج... ليس بوسع أحد أن يعطينا مثالاً عن بحر السعادة ذاك... إننا لا نؤمن بالديكتاتورية. لا نعتقد بأنك قادر على تكرار تلك النزعة لتركيز السلطة والبقاء في الحكم في فنزويلا. لا يمكن أن تقتصر أي ثورة على شخص واحد. هذه هي المعضلة أيها الأصدقاء، فما العمل؟ إن الرئيس لا يُصغي.

كان هجوماً كاسحاً من رجل شارك في قيادة انقلاب الرابع من شباط. لكن تشافيز لم يقف متفرجاً، فانخرط الرجلان في حملة انتخابية قاسية. نشر أرياس إعلانات تضم مجموعة من الدجاجات، في إشارة ضمنية إلى أن تشافيز كان جباناً لأنه لم يترك موقعه في ليلة 4 شباط ويهاجم قصر ميرافلوريس عندما كان رفاقه يُقتَلون. فرد تشافيز ساخراً من قرار أرياس بقبول منصب في حكومة كالديرا يشرف على توزيع الحليب للنساء الحوامل، قاصداً بذلك أنه كان عملاً يصلح لامرأة وليس لرجل حقيقي.

غير أن الجدل الحقيقي لم يكن يتعلق بمن هو الأكثر رجولة بينهما بل بالوجهة التي يأخذ تشافيز البلد إليها. هل كان يسير في طريق يؤدي إلى تأسيس نظام ديكتاتوري آخر مثل كوبا، كما يتهمه أرياس وغيره؟ أم كان يؤسس نظاماً ديمقراطياً تشاركياً حقيقياً يخدم المحتاجين من الغالبية الفقيرة للمرة الأولى في تاريخ فنزويلا؟

في الحقيقة، قدَّم تشافيز بنفسه الكثير من الذخيرة لمنتقديه الذين كانوا يؤمنون بأنه ليس سوى طاغية آخر، ديكتاتور أميركي لاتيني كلاسيكي يضيق صدره من التفاصيل الديمقراطية. فبالإضافة إلى حقيقة كونه زعيم انقلاب سابق، ارتبط تشافيز بعلاقة صداقة مع كاسترو، وكتب رسائل إلى كارلوس، وكان يرتدي زياً عسكرياً ويستخدم عبارات خاصة بالعسكر، وضغط لتمديد ولايته الرئاسية وعيَّن عسكريين في حكومته. كما أن الكونغرس المصغَّر المؤقت الذي شُكِّل ليحلَّ محل الكونغرس الأساسي كان يفتقر إلى أعضاء المعارضة. وصب تشافيز الزيت على النار بعد بضعة أشهر عندما زار صدام حسين ليكون أول رئيس دولي يزور العراق منذ نهاية حرب الخليج.

مع ذلك فالقول بأن تشافيز كان يحاول تأسيس نظام ديكتاتوري فيه مبالغة كبيرة، لأنه ببساطة كان يفتقر إلى مواصفات النظام الشمولي، بعكس كوبا كاسترو. فقد انتُخب تشافيز في انتخابات حرة ونزيهة، وفاز بثلاثة استفتاءات أخرى للموافقة على كتابة

دستـور جديـد. ولـم تكـن السجون تحوي أي سجنـاء سياسيين. ولم يُحظَر أي حزب سياسـي فـي عهـده. ولـم تُفرَض الرقابة علـى أي صحيفة أو شبكة تلفزيونية أو محطة إذاعية على الرّغم من أن غالبيتها كانت تعارضه بقسوة. بالإضافة إلى ما تقدم، كانت الملكيات الخاصة محترمة، إذ لم تؤمِّم الحكومة حتى ذلك الحين الصناعات كلّها كما فعل كاسترو، على الرّغم من أن تشافيز بدأ بالفعل بتأميم بضع شركات في بداية 2007. «ليس باستطاعة حتى أشد منتقديه أن يطعنوا في الأساس الديمقراطي لسلطة تشافيز». بحسب جريدة نيوزويك التي دعته «الأميركي اللاتيني الأبرز في العام».

حتى السفير الأميركي نفسه، جون ميستو، قال إن ثورة تشافيز كانت تسير عبر قنـوات ديمقراطيـة. «سـواء أكانـت ثورة الرئيس تشافيز جيـدة لفنزويلا أم لا، فليس بإمـكان أحـد أن يشـكك فـي شرعيتهـا الديمقراطية». يقول ميستـو في مقالة له بعنوان الديمقراطية تشمخ في فنزويلا.

مع ذلك فهذا لا يعني بأن تشافيز كان يمارس سياسته برفق ولين. وهذا طبيعي فـي الواقـع لأنـه أخـذ علـى عاتقه مهمة القضاء علـى المافيا، وهي مهمة لا تحتاج إلى رجل ضعيف الإرادة. لهذا السبب لعب تشافيز بخشونة، الأمر الذي لم يعجب خصومه بالطبع. وخير مثال على سعيه لتفكيك النظام السياسي والاقتصادي الفاسد، مع البقاء ضمن حدود الديمقراطية. إذ لم يكبح تشافيز نفسه عن مهاجمة ما اعتبره تغطية إعلامية متحيزة، مدّعياً أن وسائل الإعلام نادراً ما كانت تنقل الأمور الإيجابية أو المتوازنة عن حكومته، وأن هناك «حملة دولية لتشويه سمعته».

انتقاداته كانت، في الواقع، مبررة في أغلب الأحيان. ففي مقالة بعنوان هل هوغو تشافيـز مجنـون؟ نُشـرت فـي صحيفة نيوزويك (بعد نحو سنتين من وصفها تشافيز بأنه «الأميركي اللاتيني الأبرز في العام» مع حكومة ذات أسس ديمقراطية لا ريب فيها)، نقلـت الصحيفـة عـن لسان معارض سياسي من حـزب العمل الديمقراطي سيئ السمعة قولـه إن تشافيـز «مختـل عقلياً». فالتقطت صحيفـة سانت بيترسبورغ تايمز الموضوع ونشـرت مقالـة، بعنـوان السلامة العقليـة للزعيم الفنزويلي موضع شك. تصف تشافيز بأنه «رجل ينظر إليه الكثيرون من أبناء بلده على أنه شخص مضطرب عقلياً».

قدمـت وسائـل الإعـلام للفنزويليين والعالم صورة مشوهـة وأحادية الجانب عن تشافيز. وبحسب تعبير المفكرة السياسية مارغريتا لوبيز: «إن وسائل الإعلام المطبوعة وبرامج الرأي التلفزيونية المحلية... عكست حقيقة مناقضة إلى حدٍّ كبير لما أظهرته الانتخابات واستطلاعات الرأي. كان الانتقاد الموجه لتشافيز بالغ القسوة، رفض دائم لا يتغير».

بالإضافة إلى هجوم وسائل الإعلام الشديد والدائم على تشافيز، اتهمته المنظمات الدولية المعنية بمراقبة وسائل الإعلام بأنه يهدد حرية التعبير، مستندة في ادعائها إلى فقرة في الدستور تضمن للمواطنين حق الحصول على معلومات مناسبة وصادقة وغير

متحيزة، حيث قالت إن هذه الفقرة تشرّع الرقابة الحكومية. بيد أن الحكومة قالت إن الفقـرة تهـدف إلـى كبح الإساءات غير الأخلاقية وتطوير صحافة أكثر نزاهة وأخلاقية في بلد يفتقر أساساً إلى قوانين خاصة بالتشهير.

هذا النزاع لم يخلُ من إصابات، ففي شهر أيار، سحبت محطة فينيفيجن، التي يملكهـا المتنفـذ الإعلامـي غوستافـو سيسنيروس، برنامجها الصباحـي الواسع الشعبية، 24 ساعـة، مـن البـث ووضعـت بدلاً منه مبدئيـاً رسوماً متحركة للأطفال. كان مقدِّم البرنامج، نابليون برافو، ناقداً لاذعاً لحكومة تشافيز والحكومات السابقة.

زوجة برافو هذا هي أنجيلا زاغو، الثورية الشيوعية السابقة والعضوة في المجلس الدستوري الذي ألّفت كتاب **ثورة الملائكة** الشهير حول انقلاب 1992. لكنها في فترة أزمة برنامج 24 ساعة لم تعد تؤيد تشافيز بل كانت تعمل في حملة فرانشيسكو أرياس كارديناس الانتخابية.

قالـت فينيفيجـن بأنهـا سترقّـي برافو، الـذي انتقل مؤقتاً إلى ميامي للعمل في قناة كابل التّابعة للشبكة. بينما أنكرت الحكومة بأنها ضغطت على فينيفيجن من أجل طرده. مع ذلك، فقد أثار نقله غضباً عارماً بين الصحفيين والسياسيين والشخصيات التلفزيونية الشهيـرة ودفـع نحـو 500 شخصـ منهم إلى تنظيم مسيرة احتجاجية في كاراكاس. في نهايـة الأمـر، عـاد برافـو وزاغو إلى فنزويلا وأصبحا على صلة مع القوى المعارضة لتشافيز.

قبـل شهـر مـن تلك الحادثة، واجـه الرئيس مزيداً من الاحتجاج من قبل وسائل الإعـلام حيـن امتنـع المراسلـون الصحفيون عن طرح أي سؤال عليه عند ظهوره في مؤتمـر صحافـي فـي مـاراكاي. بدلاً من ذلك، وقفـت الصحفية لدى إحدى المحطات الإذاعية، أميرة موسي، ونظرت مباشرة إلى تشافيز وقالت: «نظراً لموقفك المتكرر الـذي ينـم عـن قلـة احترام لنا، وتقييمـك لأسئلتنا بأنها غير مهمـة، قررنا، باعتبارنا محترفيـن إعلامييـن حقيقييـن، ... ألا نطرح أي سـؤال هذا المساء». فنهض الرئيس المصدوم وغادر المكان بسرعة.

غير أن موسي ورئيس نقابة العاملين في الصحافة، غريغوريو سالازار، اعترفا لاحقاً بأن تشافيز لم يطبق أي رقابة مباشرة على وسائل الإعلام. ولم تُقفَل أي وسيلة إعلامية أو يُسجَن أي صحفي. لكنهم كانوا يعتقدون بأن تشافيز كان يحاول ترهيبهم. لقـد أكـدوا بـأن هجومـه الحاد والمتكرر على الصحفييـن ومالكي وسائل الإعلام يمكن أن يحرِّضـ مناصريـه الغاضبيـن على مهاجمة الصحفيّين وحاملي الكاميرات جسدياً في الشوارع؛ هذا ما فعله بعضهم بالفعل في النهاية.

نتيجة لذلك وجّه تشافيز هجومه ضد مالكي وسائل الإعلام فقط، وحث مناصريه علـى عـدم التعرضـ للصحفييـن. «إن نقدنا موجه ضـد تحريف مالكي وسائل الإعلام ولن أقبل أي اعتداء على الصحفيّين الذين يقومون بعملهم وحسب».

لم تكن حملة تشافيز الانتخابية أقل سخونة من معركته مع وسائل الإعلام. وفيها تنازع الشقيقان السابقان بالدم بلا أي رحمة. وبما أن تشافيز كان يبلي بلاء حسناً في استطلاعات الرأي، لم يكبِّد نفسه عناء إجراء مناظرة مع أرياس، الأمر الذي دعا الأخير إلى توجيه أكبر قدر ممكن من الهجمات على تشافيز، مصرحاً في واحدة منها أنّ «تعليقات تشافيز الكريهة والطائشة» تعطي في بعض الأحيان انطباعاً بأنه يعاني من «مشاكل تتعلق بتوازنه العقلي».

فردَّ تشافيز على أرياس واصفاً إياه «بالخائن الذي باع نفسه للطبقة المتنفذة العفنة». كما أشار في برنامجه الإذاعي الذي يُبث يوم الأحد إلى أن أرياس كان غاضباً لأنه - أي تشافيز - لم يختره لمنصب نائب الرئيس. «لحسن الحظ أنني لم أختره. هل يمكنكم أن تتخيلوا الأمر، وجود خائن كنائب للرئيس؟».

صوَّرت وسائل الإعلام أرياس بأنه الأكثر اعتدالاً بين المرشحين، ووُصف بالمناصر للتجارة، والمؤيد للولايات المتحدة، والرجل الذي سيجتذب الاستثمارات الأجنبية، ويحقق لامركزية السلطة، ويبعد البلد عن كاسترو، وينهي النزاع الطبقي الذي تسبب به تشافيز بين الفقراء والأغنياء، ويلطِّف العلاقات مع الكنيسة الكاثوليكية، ويحسِّن إدارة الحكومة، ويمنح فنزويلا قيادة ناضجة بدلاً من تهريج الرئيس.

لكن، على الرّغم من أن أرياس أبعد نفسه عن الأحزاب التقليدية، إلا أن الكثير من الفنزويليين كانوا يعتبرونه مرشح الطبقة المتنفذة الذي سيعمل على القضاء على الثورة البوليفارية. بالفعل، حتى كارلوس أندرياس بيريز أعلن تأييده له. وبالإضافة إلى ذلك فهو يفتقر إلى سحر شخصية تشافيز وقدرته الخطابية الهائلة. وقد أثبتت حملته الانتخابية ذلك بوضوح لا لبس فيه. هذا ما أكدته استطلاعات الرأي التي أظهرت تقدُّم تشافيز بفارق 20 بالمئة من النقاط عن أرياس. ولم يكن لدى تشافيز ذرة من شك في أنه سيفوز في الانتخاب، حيث قال: «حتى الحجر يعرف ذلك».

غير أن ترشيحه لم يخلُ من المشاكل، مع ذلك. فبعد ترشيح أرياس نفسه للرئاسة وقرار أوردانيتا وأكوستا تشيرينوس بالترشح لمنصب الحاكم في ولايتي أراغوا وفالكون، سمَّى تشافيز لائحة مرشحيه السبعة عشر من أصل ثلاثة وعشرين منصب حاكم متاح. لكن زملاءه القدامى لم يكونوا بين أولئك المرشحين، ما أغضب حزب MAS حركة نحو الاشتراكية وحزب PPT الوطن للجميع فانسحبوا من تحالف القطب الوطني؛ على الرّغم من أن بعض الأعضاء سيعودون مجدداً في وقت لاحق.

كان موقف تشافيز هشاً أيضاً بسبب الأداء الضعيف للاقتصاد على الرّغم من تضاعف أسعار النفط أربع مرات منذ انتخابه. لكنه ألقى اللوم على أسلافه متذرعاً بتسلّمه قيادة طائرة مع محركات معطلة. وطلب من الفنزويليين إعطاءه مزيداً من الوقت واعداً بإطلاق عصر ذهبي فنزويلي. والكثير من الفنزويليين صدَّقوه. ولكن كانت هناك مشكلة واحدة فقط تتعلق بآلية التصويت.

كان الانتخاب الشامل يقضي بإجراء تصويت غير مسبوق في التاريخ الفنزويلي وربما الأميركي اللاتيني برمته. إذ كان هناك نحو 6200 منصب - من بينها الرئيس وأعضاء البرلمان والحكام ورؤساء البلديات المحلية وآلاف الممثلين في المجالس المحلية - سيجري التصويت عليها كلها في وقت واحد. وبالطبع، كان عدد المرشحين مهولاً: 35,000 مرشح. وبما أن الأمر كان في غاية التعقيد، ابتدع تشافيز وحلفاؤه لائحة تضم أسماء المرشحين الذين يدعمونهم، لأن معظم المناصرين لم يكونوا يملكون أدنى فكرة عن الكثيرين منهم.

قبل ثلاثة أيام من بدء الاقتراع الذي كان مقرراً في 28 أيار، علَّقت المحكمة العليا الانتخابات بسبب وجود مشاكل في الحواسيب التي كانت تعمل على نظام اقتراع إلكتروني جديد. وقد تسبب القرار بإحراج كبير للحكومة. فادَّعى تشافيز وآخرون بأن شركة أوماها المسؤولة عن الماكينات كانت جزءاً من حملة لزعزعة الاستقرار. لكن الشركة تذرعت بتلقيها أحد عشر ألف طلب لتغيير بطاقات الاقتراع. على أي حال، لقد أثنى بعض المراقبين الدوليون على قرار التأجيل قائلين إنه قد يساعد على ضمان إجراء تصويت نزيه.

اتهم خصوم تشافيز اللجنة الانتخابية الوطنية، التي انتقاها ميكويلينا، بأنها عاجزة (كان من بين أعضائها العشرة ابنة ميكويلينا وسكرتيرته الشخصية السابقة). وقد اعترف الأعضاء علناً بأنهم لا يملكون خبرة في تنظيم الانتخابات، واعتبروا ذلك ميزة في فنزويلا بالمقارنة مع الانتخابات المدبرة التي كانت تجري فيها سابقاً. وبعد يوم واحد من الموعد المقرر للانتخاب، قدَّمت اللجنة بأكملها استقالتها.

تقرر إجراء الانتخابات في 31 تموز. وبدأت الحملة من جديد.

لم يسمح الوقت الإضافي لأرياس والمعارضة بالتقدم في استطلاعات الرأي، وهذا ما كان قد توقَّعه بعض المراقبين مسبقاً. حقق تشافيز نصراً جديداً حيث نال 59.8 بالمئة من مجموع الأصوات، وهي نسبة أعلى من 56.2 بالمئة التي نالها في 1998. لقد فاز في الولايات كلِّها باستثناء زوليا، وهو إنجاز أفضل مما حققه في العام 1998 حين فاز في ثماني عشرة من أصل أربع وعشرين ولاية. وقدَّم حلفاؤه عرضاً قوياً، أيضاً، في انتخابات حاكمي الولايات، حيث فاز القطب الوطني في أربعة عشر سباقاً من بين اثنين وعشرين، وسبعة عشر سباقاً بالمجمل، من بينها فوزان لحزبي MAS وPTT، اللَّذان سيعودان جزئياً إلى حظيرة تشافيز. بالمقابل، انخفض عدد الانتصارات التي حققها حزب AD في المنافسات على الحاكمية من ثمانية إلى اثنين فقط. فيما حقق COPEI انتصاراً واحداً بعد أن فاز في خمسة سباقات في انتخابات العام 1998. أما حزب مشروع فنزويلا (Proyecto Venezuela) وحزب كالديرا (Convergencia) فقد نال كل منهما فوزاً واحداً فقط.

كما أبلت القوى الموالية لتشافيز بلاء حسناً في سباقات المجلس الوطني أيضاً، على الرّغم من أنها لم تهيمن بشكل كامل. حيث نالت 105 من أصل 165 مقعداً، أي أقل من غالبية الثلثين المطلوبة من أجل المصادقة على تعيينات معينة، مثل أعضاء المحكمة العليا والنائب العام، وإقرار الموازنة وأشياء أخرى غيرها. وهذا يعني أن أنصار تشافيز سيواجهون معارضة حقيقية وسيضطرون إلى التفاوض في بعض الأحيان. وفي هذا الخصوص، قال رئيس تحرير جريدة تال كوال، تيودور بيتكوف: «لقد تم استعادة توازن القوى. والآن علينا أن نرى كيف سيرد تشافيز».

في تلك الليلة، ظهر تشافيز المبتهج على شرفة الشعب في قصر ميرافلوريس وتحدث إلى الآلاف من مناصريه المنتشين بالنصر، واقتبس من الشاعر التشيلي الراحل بابلو نيرودا قوله: «سيمون بوليفار يصحو مرة كل مئة عام». ثم أضاف: «أنتم، أيها الشعب الفنزويلي، استيقظتم نتيجة للتغيير الثوري هذا». كان نصراً مذهلاً بحق، إذ على الرغم من الفوضى التي كان يعاني منها الاقتصاد - بلغت نسبة العاطلين عن العمل 18 بالمئة والانكماش ظل في مكانه منذ بدء ولايته - إلا أن تشافيز فاز بنقاط أعلى بثلاثة بالمئة مما حققه في 1998. إنه إنجاز مدهش أن يحافظ على شعبيته في ظل هذا الوضع الصعب.

مع ذلك، ظلت مشاعر القلق الشرعية تجاه تشافيز مسيطرة على أذهان المعارضة وحتى بعض المتعاطفين معه. وذلك لأنه كان يتحكم بكل شيء بمفرده، والتحالف الذي يدعمه كان يفتقر إلى الأهداف الواضحة وبعيدة المدى. نظراً لخلفيته العسكرية والعدد الكبير من الضباط الذين عيَّنهم، كان البعض يخشون من أن يعمد إلى عسْكرة الحكومة وأن يدير ظهره للقواعد الديمقراطية. فيما كان آخرون يخشون من أن «يقتصر على خطابه العدائي المناصر للتغيير الاجتماعي في حين أنه لا يفعل أي شيء لتحسين أوضاع الفقراء بطرق ملموسة». صحيح أن خطة بوليفار 2000 كانت مفيدة كإجراء طارئ ومؤقت، إلا أنه كان بحاجة للانتقال إلى مرحلة أخرى وتخفيف تركيزه على تفكيك المؤسسة السياسية الفاسدة. كان بحاجة لتحويل انتباهه إلى الاقتصاد والسعي لإيجاد حلول بنيوية بعيدة المدى للفقر المتفشي.

منح الدستور الجديد الجنود الحق بالتصويت في فنزويلا للمرة الأولى في تاريخها. كما أوكل إلى الجيش دور المشاركة الفعالة في التنمية الوطنية على الرّغم من طلبه من الجنود الابتعاد عن الأنشطة الدعائية أو التبشير السياسي. كما شجع تشافيز الجنود على الجهر بأي إساءة يجدونها في المؤسسات العامة. وهي حرية غير مسبوقة في جيوش أميركا اللاتينية.

قبل بعض الجنود عرض تشافيز، ولكن ليس بالطريقة التي توقَّعها. فبعد بضعة أسابيع من تصريح تشافيز، طلب نقيب في الحرس الوطني، يُدعى لويس غارسيا موراليس، إجراء مقابلة في محطة *Globevision* التلفزيونية. لكن المحطة المذكورة

لم تبث المقابلة بل أرسلتها إلى وزير الدفاع. في تلك المقابلة، طلب غارسيا موراليس من تشافيز أن يقدِّم استقالته، وأعلن تشكيل مجلس وطني فنزويلي مؤلف من أشخاص مدنيين وعسكريين. وعلى الرّغم من تأكيده بأن تلك الحكومة كانت تفضِّل القيام بعصيان مدني سلميٍ على القيام بانقلاب، إلا أنه اعترف بأن المجموعة ناقشت إسقاط تشافيز. حتى إنها فكّرت في قتله، بحسب موراليس، حيث قال: «أكَّد أحد رفاقنا، وهو قناص، بأنه من اليسير قتله، إن ذلك سينهي المشكلة».

لكن أصواتاً أخرى حذَّرت من إنهاء ولاية تشافيز قبل الأوان من خلال طرائق غير دستورية. والجنرال المتقاعد فرناندو أتشوا أنتيتش - وزير الدفاع السابق خلال انقلاب تشافيز الفاشل - كان من بين هذه الأصوات. «أنا لا أستبعد إمكانية أن تكون هناك نتيجة عنفية. أنا من بين أولئك الذين يشعرون بأن هذا الاحتمال وارد جداً».

في الولايات المتحدة، كان إليوت أبرامز - أحد الأشخاص المركزيين في حروب رونالد ريغن القذرة في أميركا الوسطى في الثمانينيات - يراقب فنزويلا وتشافيز عن كثب. وأبرامز لم يعجبه ما كان يراه. قال أبرامز الذي كان يشغل منصب مساعد وزير الخارجية لشؤون أميركا اللاتينية في عهد الرئيس ريغن «إن مواطن النقد فيه، وهي واضحة جداً حسبما يعتقد الكثير من الأشخاص في واشنطن، ليست واضحة للكثيرين من الفنزويليين - ليس بعد على أي حال - لا أعتقد بأن سياسته ستتغير، بما فيها سياسته الاقتصادية. يبدو لي أن الأيام السيئة قادمة».

لن يمضي وقت طويل حتى يعود أبرامز إلى مواقع السلطة في واشنطن.

الفصل الثامن عشر

رجل النفط

لم يكد يمضي أسبوع على نصره الانتخابي الأخير حتى شرع تشافيز في مهمته التالية: إحياء منظمة الدول المصدِّرة للنفط أوبك. أراد الحصول على سعر **منصف** في الأسواق العالمية للمنتج الذي يشكّل ثلاثة أرباع صادرات فنزويلا ويوّفر للبلاد أكثر من نصف دخلها. كان رفع أسعار النفط وتفعيل دور أوبك هدفين رئيسيَّين لتشافيز، وكما تبين لاحقاً، كانا بمثابة نجاحين رئيسيَّين تمكن من تحقيقهما خلال الشهور الثمانية عشر الأولى التي أمضاها في الحكم.

عندما فاز بالرئاسة، كانت أسواق النفط العالمية تعاني من أسوأ انهيار في الأسعار منذ خمسين سنة على الأقل. وقد تدنّى سعر النفط الفنزويلي الخام إلى 7.66 دولاراً للبرميل في كانون الأول 1998. كان العضوُ الحادي عشر في أوبك قلقاً من الخلافات الداخلية بين الدول الأعضاء ومن الفشل في الالتزام بالحصص المقرَّرة، علماً بأنه سبق أن خاض في العراق وإيران حرباً من قبل. كان سجلّ فنزويلا من بين أسوأ سجلات دول أوبك في خرق الحصص التي تحددها المنظمة، ورأى العديد من المراقبين أنها ستنسحب من أوبك بكل بساطة، علماً بأن المنظمة لم تعقد منذ تأسيسها في العام 1960 سوى قمّة واحدة فقط طوال أربعين سنة. حدث ذلك في العام 1975، منذ خمس وعشرين سنة تقريباً، عندما كانت أوبك على شفير الانهيار.

إحدى أولى الخطوات التي قام بها تشافيز كرئيس كانت دعم سعر النفط الخام الفنزويلي. من أجل هذا الغرض، أرسل وزير الطاقة والتعدين، زعيم العصابات اليساري السابق والعضو في الكونغرس عن حركة كوزا آر (القضية الجوهرية) علي رودريغيز، من أجل التفاوض على اتفاق مع المملكة العربية السعودية ومع المكسيك. أراد من هاتين الدولتين أن تخفضا من مستوى إنتاجهما وعكس منحى التراجع للأسعار. كانت المملكة أكبر منتج للنفط في العالم بإنتاجها البالغ 7.4 مليون برميل في اليوم. من ناحية أخرى، لم تكن المكسيك عضواً في أوبك ولكنها كانت على الرغم من ذلك منتجاً رئيسياً للنفط. كما كانت فنزويلا المصدّر الأول للنفط للولايات المتحدة بعد كندا، وثالث أكبر مصدّر للنفط في العالم بعد المملكة العربية السعودية وإيران. بالإضافة إلى ذلك، كانت تملك أكبر احتياطيات من النفط في العالم خارج منطقة الشرق الأوسط. تملك شركة النفط العامة، بيتروليوس دي فنزويلا، ست منشآت لتكرير النفط في الولايات المتحدة. كما أنها تملك شركة سيتْغو التي حصلت على حق تشغيل 14500

محطة تعبئة وقود في أميركا.

بعد لقاء لمنظمة أوبك في آذار 1999، تمكن رودريغيز من إقناع المملكة العربية السعودية والمكسيك بخفض إنتاج المنظمة بمقدار مليوني برميل يومياً، وساهمت فنزويلا بنصف مليون برميل في هذا التخفيض. كانت الخطوة ستعيد فنزويلا إلى سقف الإنتاج الذي حددته لها أوبك والبالغ 2.72 مليون برميل يومياً. وقد شجّع الاتفاق الذي توصلت إليه الدول الثلاثُ أعضاءَ آخرين في أوبك على حذو حذوها والالتزام بالحصص المحددة لها. وسرعان ما بدأت الأسعار بالارتفاع.

بعد مضي عام واحد، وتحديداً في آذار 2000، حقق النفط الخام الفنزويلي أعلى إيراد للبلاد في غضون تسع سنوات عندما بلغ 34.37 مليار دولار. جنت البلاد من هذا الارتفاع في الأسعار مردوداً إضافياً بلغ 4.5 مليار دولار. وارتفعت الصادرات بنسبة 33 في المئة لتصل إلى 16 مليار دولار. وقد ساعدت الأسعار المرتفعة على التخفيف من وطأة بعض المشكلات الاقتصادية التي تعاني منها فنزويلا. فبعد أن تقلّص حجم الاقتصاد الفنزويلي بنسبة 7.2 في المئة في العام 1999، بدأت تظهر بعض العلامات التي تشير إلى انعكاس في منحى التراجع الذي سُجل في العام 2000. حقق الاقتصاد الفنزويلي نمواً بلغ 1.5 في المئة بحلول منتصف ذلك العام لترتفع هذه النسبة إلى 3.2 في المئة مع نهاية ذلك العام. وتراجع معدل التضخم ليصل إلى 14.2 في المئة، وهو أدنى مستوى له منذ خمس عشرة سنة.

كما أمل تشافيز في تجنب حدوث تقلبات في أسواق النفط العالمية عبر تعزيز صندوق دعم الاستقرار الاقتصادي الذي أسسته حكومة كالديرا. تلخصت الفكرة في ادّخار المال عندما ترتفع الأسعار واستخدامه عندما تنخفض مما يوفر للحكومة مصدراً أكثر ثباتاً للدخل. كانت الحكومة السابقة قد حددت الأسعار عند مستوى 14 دولاراً للبرميل. عندما تتجاوز الأسعار هذا المستوى، يتم تحويل العائد الإضافي إلى الصندوق. حتى إن رودريغيز تبنّى مقاربة أكثر تحفظاً بتخفيضه ذلك المستوى إلى 9 دولارات للبرميل الواحد. ومع ارتفاع أسعار النفط العالمية، تدفقت ملايين الدولارات إلى الصندوق.

مع استقرار الأسعار، وجّه تشافيز أنظاره نحو هدفه الثاني: توحيد منظمة الدول المصدّرة للنفط شبه المنهارة. كان لديه رؤية بعيدة المدى، حيث أراد تنظيم القمّة الثانية التي تعقدها المنظمة منذ تأسيسها، وأراد أن تُعقد في كاراكاس. وفي سبيل هذه الغاية، بدأ التحضيرات للقيام بجولة سريعة، لكن لكي يدعو بنفسه هذه المرّة رؤساء الدول الأعضاء في منظمة أوبك كافة إلى اللقاء. تضمنت لائحة الرؤساء صدام حسين الرئيس العراقي، لأن العراق كان في نهاية المطاف عضواً في المنظمة.

شكّل تفعيل أوبك مكونة جوهرية في خطط تشافيز لتحديث فنزويلا. كان النفط بمثابة شريان الحياة للبلاد؛ مهما تكن الأحوال. كما أن البعض وصفه بغائط الشيطان،

لأنـه جلـب ثـروات عظيمة للبلاد، وجلب أيضـاً الفساد والقيم المشوّهة والاعتماد على منتج وحيد والتقلبات في الاقتصاد مع تذبذب سعر برميل النفط بدرجة كبيرة. ورأى بعضـ الناسـ أنـه ابتلى الفنزويليين بحس المال السهل. وأشار مواطن أميركي أمضى أربـع سنـوات فـي العمـل كمترجم لدى شركة نفطية فـي فنزويلا «لقد فقد الفنزويليون قيمهـم. وأصبـح مـن الأفضـل بكثير أن تكون ذكياً وماكراً في الشارع على أن تكون مجدّاً في العمل وصادقاً». ورأى أرتورو أوسلار بييتري، أحد أشهر الكتاب والمثقفين في فنزويلا، أن المؤرخين ربما يُجملون تاريخ بلاده بست كلمات: كولومبوس اكتشفها، وبوليفار حرّرها، والنفط أفسدها.

عندمـا ظهـر المستكشفـون الإسبـان لأول مرة عند شواطـئ بحيرة ماراكيبو في ولايـة زوليـا الواقعـة في غـرب فنزويلا، بالكاد لاحظوا المـادة السوداء البارزة عن سطح الأرض الرملية. كان الهنود المحليون يستخدمونها في سدّ الشقوق في قواربهم، وفي صنع الشموع، وحتى في إعداد العقاقير الطبية. لكن الاحتياطيات النفطية المحتملة في فنزويلا لم تجذب الكثير من الانتباه إلاّ في مستهل القرن العشرين ومع بدء إنتاج السيارات على نطاق واسع.

في حين بدأ الفنزويليون إجراء دراسات علمية منذ العام 1839 في مجال النفط بغرضـ تطويـر إنتاجـه، لـم يتم اكتشاف أول حقل كبير للنفط وحفر الآبار فيه إلاّ في العـام 1914. كانـت الشـركات التـي عملت في قِطاع النفط شركات أجنبية في البداية، مثل شركة جون دي روكيفيلر، ستاندارد أويل أف نيوجرسي والتي أصبحت إكسون لاحقـاً، وشركـة شـل. لكـن الزيـادة الكبيرة في إنتاج النفط كانـت ستحدث بعد ثماني سنوات، في كانون الأول 1922 عندما فجّرت شركة فنزويلية تابعة لشركة شل بئراً علـى الشاطـئ الشرقـي للبحيـرة. تلا ذلك تدفق عشرات الشركات الأجنبية إلى البلاد. وسرعان ما برزت مئات من الرافعات فوق سطح المياه وهو ما أعطى الصورة التي تبلـورت فـي العالـم عن فنزويـلا. انتشرت البلدات وسط فورة الذهب الأسود. ووفّر المهندسـون القادمـون مـن تكساسـ ومن أوكلاهوما ما لديهم مـن خبرات تقنية، بينما وفّـر الفنزويليـون اليـد العاملـة. كانت بيئة غريبة على هذه البلـدات المؤقتة. فقد فاق عـددُ بيـوت الدعـارة عـددَ متاجر بيع الأطعمة في بعضـ الأماكن، واتخذت الغانيات ألقاباً مثل خط الأنابيب والصمامات الأربعة.

بحلـول العـام 1928، أصبحـت فنزويـلا ثانـي أكبر منتج للنفـط في العالم وأول مصدّر للنفط فيه. بقيت شركتا ستاندارد أويل وشل الشركتين الرئيسيتين باستحواذهما على 85 في المئة من الكميات المستخرَجة من النفط في فنزويلا في أواخر ثلاثينيات القـرن العشريـن. لـم يُحضر الأميركيون خبراتهـم معهم في استخراج النفط وحسب، بـل وجلبـوا ثقافتهـم أيضـاً. وفي هـذا السياق، أدخلوا لعبة كـرة القاعدة. وقد تميزت شـركات النفـط بأنهـا مندمجة للغاية في المجتمع الفنزويلي لدرجة أن بعض الأشخاص

سمّوا أبناءهم باسم إسّو، الاسم التجاري لشركة إكسون.

لكن على الرغم من كل ما تقدم، بقيت الأرباح بأغلبها في أيدي الأجانب الذين مُنحوا تخفيضات ضريبية كبيرة من قبل الديكتاتور خوان فيسينته غوميز والقادة الآخرين الذين جاؤوا من بعده. وبهدف استعادة السيطرة على هذه الصناعة، عمد الرئيس كارلوس بيريز إلى تأميمها في العام 1976. كان ذلك حدثاً هاماً في تاريخ البلاد ومصدراً للاعتزاز بالنفس في نظر أغلب أفراد الشعب. وبناء على ذلك، وضعت الشركة النفطية العامة الجديدة، بيتروليوس دي فنزويلا، يدها على 11000 بئر نفطيّ، وعلى 11 منشأة لتكرير النفط، وعلى 14 ناقلة نفط. كما وضعت يدها على خطوط الأنابيب، وعلى محطات التصدير في الموانئ، وعلى عدد كبير من المباني المكتبية.

تدفقت الأموال إلى البلاد. فخلال الفترة الواقعة بين عامي 1973 و1983 فقط، جنت فنزويلا من صادراتها النفطية أكثر من 150 مليار دولار، وهو رقم مذهل بالنسبة إلى بلد يبلغ عدد سكانه ستة عشر مليون إنسان. لكن على الرغم من الارتفاع الكبير الذي شهدته الأسعار في سبعينيات ومستهل ثمانينيات القرن العشرين، لم تصل هذه الأموال إلى عامة الشعب. لكن الشعب الفنزويلي تمتع بأعلى مستوى معيشة في أميركا اللاتينية، حتى إنه صار في مقدور العائلات التي تنتمي إلى الطبقة العاملة أن تتناول الطعام في المطاعم المتواضعة مرة في الأسبوع. غير أن النخب استحوذوا على غالبية هذه الأرباح، وجنوا بفضل ذلك ثروات طائلة. وكان أوسلار بييتري قد حث الأمة قبل عقود سابقة على زرع النفط وذلك عبر تنويع صناعاته وتوزيع ثرواته. لكن شيئاً من ذلك لم يحصل على الإطلاق.

في العام 1975، كتب خوان بابلو بيريز ألفونسو، وزير الطاقة الفنزويلي وأحد الآباء المؤسسين لمنظمة أوبك، كتاباً حالماً بعنوان **We Are Sinking in the Devil's Excrement**. فعندما انخفضت أسعار النفط بشكل كبير في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، وضربت البلادَ الهزةُ تلو الأخرى - من يوم الجمعة الأسود في العام 1983 إلى كركازو في العام 1989 إلى الانقلابات العسكرية في العام 1992 إلى توبيخ بيريز بعد سنة من ذلك - بدت تحذيراته تكهنات دقيقة.

في ذلك الحين، تولّى كالديرا منصب الرئاسة في العام 1994 وبدأت مبادرة أبيرتيورا - فتح صناعة النفط - تكسب الكثير من التشجيع. وبموجب هذه المبادرة، دعت فنزويلا الشركات الدولية الخاصة إلى العودة إلى الاستثمار في البلاد. حتى إن مناقشات دارت حول حلّ شركة بيتروليوس دي فنزويلا العامة وخصخصة صناعة النفط بأكملها. وجادل النقاد بأن التأميم لم يحقق النتائج التي كانت تُرتجى منه.

لكن في الليلة التي فاز فيها تشافيز بالرئاسة في كانون الأول 1998، وجّه انتقاداته في أول مؤتمر صحافي يعقده إلى شركة بيتروليوس دي فنزويلا قائلاً إنه كان من

المفترض أن تقوم الشركة بزرع النفط، لكنها تحولت بدلاً من ذلك إلى دولة داخل دولـة؛ فقـد تحولـت إلـى كيان قائم بذاته خارج نطاق سيطرة الحكومة. أضاف تشافيز بـأن الشركـة شجعـت علـى **ثقافة البطاقة الذهبية** بين أفـراد نخب المديرين التنفيذيين والإداريـين الذيـن فقـدوا الاتصـال بالجماهير، وتمتعوا بنمط حيـاة أبعد ما يكون عن نمط حياة أغلب الفنزويليين. وأقسم على إعادة الشركة إلى السيطرة وعلى إخضاعها لمراقبة وزارة الطاقة والتعدين كما كان مزمعاً في الأصل. كان الرجل الذي كلفه بهذا الأمر علي رودريغيز. ورأى تشافيز أن مواجهة الويلات التي تعاني منها فنزويلا لا تكمن في فتح صناعة النفط وإنما في استعادة السيطرة على بيتروليوس دي فنزويلا، وفي إعادة توجيه مواردها بما يصبّ في مصلحة الفقراء الذين يشكلون الأغلبية، وفي إنعاش منظمة أوبك التي كانت في طور الاحتضار.

في آب 2000، بدأ تشافيز مهمته المتمثلة في إعادة صياغة منظمة أوبك، وخطط للقيام بزيارات شخصية إلى كل من الأعضاء العشرة الآخرين فيها ودعوة رؤساء تلك الدول إلى قمّة تُعقد في كاراكاس في أواخر أيلول. لكن زيارته لصدام حسين استحوذت على جلّ الاهتمام على اعتبار أن تشافيز كان أول رئيس دولة يزور العراق منذ أن فرضـت الأمـم المتحـدة عقوبـات على ذلك البلد لمعاقبتـه على غزوه للكويت في العام 1990 ولتجريده من أسلحة الدمار الشامل.

أصيبـت الولايـات المتحـدة، التـي شنّت الحرب ضـدّ العراق قبل عقد من ذلك، بالذهـول مـن هـذه الزيارة. وفي إعلان عـن إنهاء سياسة ضبط النفس حيال تشافيز، وصفت وزارة الخارجية الأميركية هذه الزيارة بأنها مزعجة للغاية. وصرح ريتشارد باوتشر المتحدث باسم وزارة الخارجية بأن هذه الزيارة «تضفي صبغة الاحترام على صدام حسين الذي من الواضح أنه لا يستحقها». وشكك في الأسباب التي تدعو تشافيز إلـى رفـع مكانـة ديكتاتور «غزا البلاد المجـاورة، واحتلّ البلاد المجاورة، واضطهد شعبـه وانتهـك حقـوق الإنسان». شعر تشافيز بالانزعاج من هذا التصريح، وقال قبل قيامـه بالزيـارة بـروح مرحـة «تخيل مـا سيقوله المراؤون عندمـا يرونني مع صدام حسين».

فـي حيـن كانـت الولايات المتحدة غاضبـة للغاية، جادل الفنزويليون بأن تشافيز يقـوم بجولـة جيوسياسيـة مـن أجل تقوية منظمـة أوبك وأنه لا يستطيع أن يتجاهل أحد أعضائهـا الرئيسيّـن. كمـا اتهموا الأميركيين بالنفاق. فلطالما حافظت الولايات المتحدة علـى علاقـات ودّيـة مـع أنظمة عسكريـة وشيوعية مثل الصين متـى وجدت أن ذلك يتلاءم مع غاياتها. حتى إنها ساعدت على بناء بعض أكثر الأنظمة وحشية في أميركا اللاتينية أو قدمت الدعم المالي لها طوال القرن العشرين، مثل نظام الجنرال أغوستو بينوشيه في تشيلي ونظام سوموزاس في نيكارغوا. في الحقيقة، كانت الولايات المتحدة حليفـة لصـدام حسيـن فـي ثمانينيـات القرن العشريـن عندما زاره دونالـد رامسفيلد.

وفـي الثمانينيـات، تعاملـت مـع أسامة بن لادن إلى جانـب القوات التي تدعمها وكالة الاستخبارات المركزية فيما كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في حالة مواجهة مـن خـلال وكلاء فـي أثنـاء الحرب الباردة. فسياسـة التعامل مع الواقع، التي يعرفها كيسنجر حق المعرفة، عمل قذر.

لـم يقلـل تشافيـز مـن أهمية زيارته لبغداد. وقـد استخدم في رحلته تلك طوافتين نقلتاه من طهران إلى مكان قريب من الحدود العراقية ليجتازها بعد ذلك مستقلاً سيارة ليموزيـن قدّمتهـا لـه إيـران علـى اعتبار أن تسيير الرحلات الجويـة إلى العراق كان محظوراً بموجب العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة. وبعد ذلك انتقل بواسطة طوافة إلى مطار صدام الدولي في بغداد حيث التقى بصدام حسين. فرش العراقيون السجاد الأحمـر لتشافيـز وعملـوا علـى الاستفادة سياسياً من هذا الخرق للحظر إلى أقصى حدّ. وجـاء فـي عنـوان رئيسـي تصدّر إحـدى الصحف العراقية التي تصدرهـا الدولة أهلاً بالرئيـس تشافيـز. وكرّسـت صحيفة يومية حكومية أخـرى نصف صفحة لمدح القرار الشجاع الذي اتخذه تشافيز بزيارة العراق. أضافت الصحيفة بأن «الرئيس الفنزويلي يتحدّى العقوبات ويقرر زيارة العراق حتى وإن اضطرّ إلى امتطاء جمل». حتى إن صـدام نفسـه اصطحـب تشافيـز في جولة في أنحاء المدينـة. وترددت أصداء الصورة الفوتوغرافيـة لصـدام وهـو خلـف مقود السيـارة وبجانبه تشافيز فـي مختلف الصحف العالمية.

استغلّت الولايات المتحدة ووسائل الإعلام الدولية تلك الزيارة التي دامت اثنتي عشرة ساعة إلى أقصى حدّ، ولم تترك للعالم فرصة لكي ينساها وذلك بالإشارة إليها فـي تقاريرهـا التاليـة عـن تشافيز. وأصبحت جزءاً من الفقـرات التي تُكتب باستمرار عنه، إلى جانب الصداقة التي تربطه بفيدل كاسترو. لكن في ما عدا حكومة الولايات المتحدة، قلّة هي الدول التي أقلقتها تلك الزيارة، بما في ذلك الكويت نفسها.

بالعـودة إلـى فنزويـلا، نجـد أن القصة لم تتصدّر الصفحات الأولى، لأن الدولة كانت مشغولة بتنصيب الجمعية الوطنية الجديدة. وفشل بعض من أعلى منتقدي تشافيز صوتاً في التعبير عن احتجاجه، فقال العضو المعارض في الكونغرس الفنزويلي جيرادو بليـد: «أعتقـد بأنـه لـو نظرنا إلى الرحلة على أنها تخدم المصالح التجارية الصرفة فلن يكـون هنـاك مشكلـة فـي ذلـك. يمكن لتشافيـز الذهاب إلى العراق مـن غير أن يعني ذلك دعمه لنظامه السياسي». وعلّقت تيودورو بيتكوف، التي غالباً ما تلعن المقالات الافتتاحية التي تتصدر صفحاتها الأولى صور تشافيز، بأن «السبب الوحيد الذي يجعل الزيـارة سبباً لمشكلـة هـو أن الولايات المتحدة لم ترق لها تلك الزيارة وحسب. وأنا لا أعتقد بأن هذه الرحلة تشغل كثيراً بال الفنزويليين».

حتـى إن تشافيـز حصـل علـى بعضـ الدعم فـي أثناء محطته التاليـة في الجولة بإندونيسيـا، عندمـا دعـا إلـى رفع الحظر المفروض على العراق لأنه يعتقد بأنه يؤذي

هوغو تشافيز وأخوه أدان في بلدتهما الأم سابانيتا.

نشأ تشافيز معتقداً أن جدّ جده بيدرو بيريز ديلغادو (على يمين الصفحة)، المعروف أيضاً باسم ميسانتا، كان رجلا خارجاً عن القانون ومتعطشاً للدماء. لكن اطلاعه على كتاب ألّفه طبيب باريناس والتحقيقات التي أجراها تشافيز بنفسه لاحقا كشفا وجها آخر لميسانتا، الذي أصبح واحداً من أبطاله.

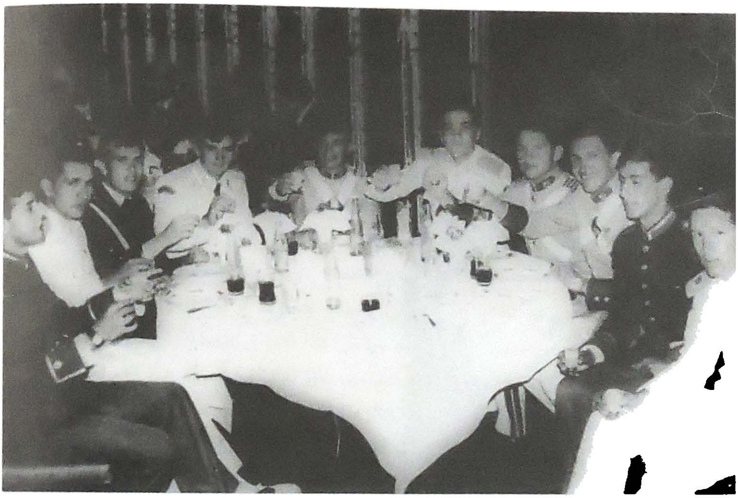

عندما كان طالبا في الأكاديمية العسكرية في فنزويلا، كان تشافيز يزداد إعجاباً وشغفاً بسيمون بوليفار، ولهذا السبب اختير للذهاب في رحلة خاصة إلى البيرو للاحتفال بالذكرى السنوية المائة والخمسين لمعركة أياكوتشو. وقد أمّنت له هذه الزيارة القصيرة أول اتصال مباشر له مع تجربة اشتراكية أطلقها الجنرال التقدمي -على الرّغم من أنه كان رجلاً عسكرياً ديكتاتورياً- خوان ألفارادو فيلاسكو. تشافيز -الثالث من اليمين- يستمتع بتناول العشاء مع طلاب عسكريين آخرين من دول أميركا اللاتينية.

إلى جانب تنقيبه في حياة سيمون بوليفار، وجد تشافيز متسعاً من الوقت للقيام بعدد كبير من الأنشطة عندما كان طالباً عسكريا وضابطاً شاباً، من بينها العمل كمنظم لحفلات انتخاب ملكات الجمال. حدث هذا الاحتفال في 1975 خلال سنته الأخيرة في الأكاديمية العسكرية.

افيز يحمل علم فنزويلا خلال احتفال في إحدى ساحات بارينـاس في 1976.

تشافيز في مهمة تدريبية في 1982.

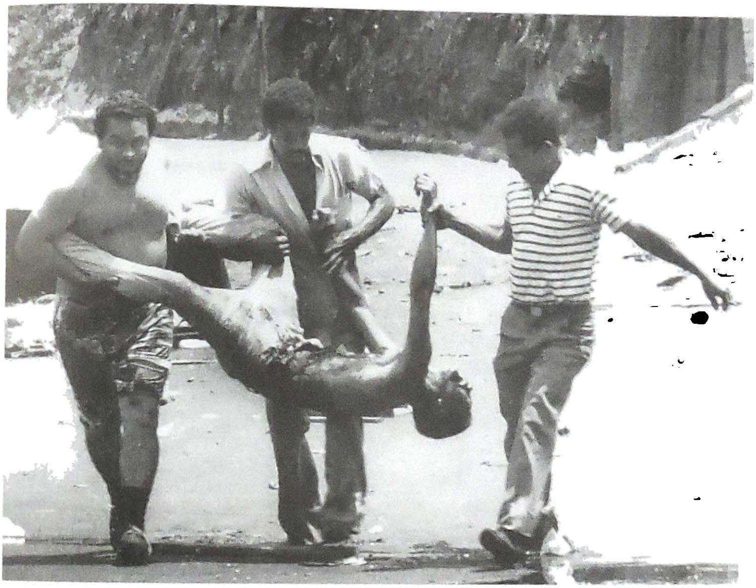

خلفت اضطرابات الغذاء التي وقعت في كاراكاس يوم الجمعة 27 شباط 1989 وما تبعها من قمع على يد القوات الحكومية أكثر من ألف قتيل وشكلت دافعا لتشافيز ورفاقه البوليفاريين على العمل. وبعد ثلاث سنوات من هذا الحدث، تخلوا عن سريتهم ونفذوا انقلابا ضد الرجل الذي أمر بالقمع، الرئيس كارلوس أندرياس بيريز. (فرانسيسكو سولورزانو).

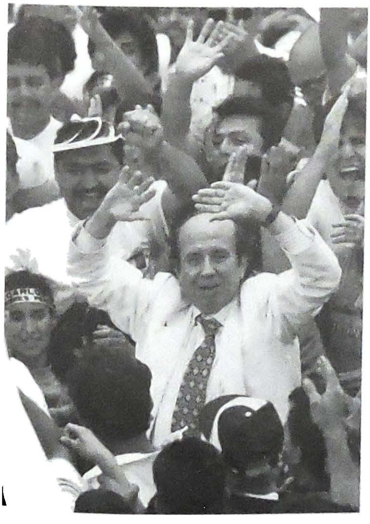

في ذروة مجده، كان الرئيس كارلوس أندرياس بيريز قادرا على دفع النساء إلى الاغماء خلال المناسبات الجماهيرية. لكنه أصبح محتقرا بعد مجزرة كاراكاس (Caracazo)، إحدى أسوأ المجازر في تاريخ أميركا اللاتينية الحديث. ولكن، على الرغم من الدماء التي سقطت ومحاكمته كرئيس، إلا أن ولاية تاتشيرا، مسقط رأسه، بقيت داعمة قوية له. المعجبون يتجمهرون حوله في 1996. (أسوشييتد برس، وايد وورلد فوتوز).

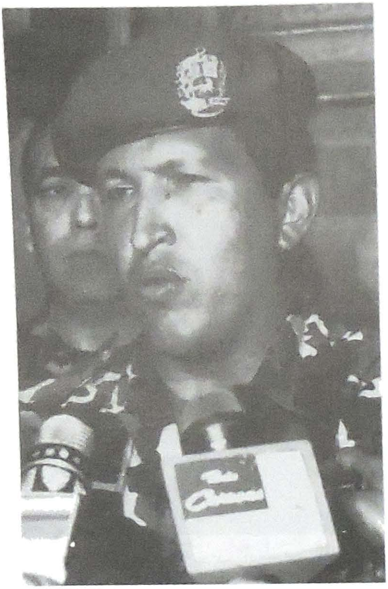

هزّ تشافيز الأمة بالانقلاب الذي قاده في 4 شباط 1992 -كان كولونيلاً مساعداً آنذاك- وأصبح بطلا بالنسبة للملايين الساعين لإسقاط الرئيس كارلوس أندرياس بيريز. وحوّله خطابه الشهير الذي دام اثنتين وسبعين ثانية فقط، والذي أعلن فيه خلال بث حي على التلفزيون الوطني أن المتمردين لم يحققوا أهدافهم في الوقت الحاضر (por ahora)، فجأة إلى نجم ساطع في سماء فنزويلا. لكن هذا التمرد ألقى الرعب في نفوس الطبقة السياسية التقليدية في فنزويلا، وأدانته الحكومات الأجنبية. (أسوشييتد برس، وايد وورلد فوتوز).

بعد يوم من الانقلاب التقط المصورون صورة تُظهر ضباطاً في الجيش يقومون بنقل تشافيز من قاعدة فورت تيونا العسكرية. كان تشافيز، القارئ النهم دائماً، يحمل معه جراند اليوم وأشياء أخرى للمطالعة. (أسوشييتد برس، وايد وورلد فوتوز).

كان تشافيز وفرانشيسكو أرياس كارديناس (الثاني من اليمين) ومتمردون آخرون يعتبرون أبطالاً شجعاناً، لا أشراراً، في نظر الكثيرين من الفنزويليين خلال العامين اللذين قضوهما في السجن بسبب الانقلاب الذي نفذوه. وكان بعض مراسلي الصحف والمصورين قادرين على التسلل إلى السجن مع معداتهم وتصوير المتمردين في وضعيات بطولية ومبتهجة.

بعد إطلاق سراحه من السجن في ١٩٩٤، بدأ تشافيز بحشد الدعم لحركته البوليفارية. وبدلا من تقديم الاعتذار عن الانقلاب. احتفل تشافيز في 1997 بالذكرى السنوية الخامسة للتمرد عبر إقامة احتفال جماهيري في كاراكاس. على الرغم من أنه كان في ذلك الوقت ما يزال يفكر في ما إذا كان سيتحول إلى الحياة السياسية الانتخابية في النظام الفنزويلي المليء بالفساد. (أسوشييتد برس. وايد وورلد فوتوز).

كانت ملكة جمال العالم السابقة آيرين سايز -شقراء فاتنة فارعة الطول خاضت انتخابات ناجحة كرئيسة بلدية في إحدى الضواحي الثرية في كاراكاس- المرشحة المرجحة للفوز بالانتخاب الرئاسي لعام 1998 قبل أن تبدأ بفتح فمها وتنطق بالترهات. في حين جاء تشافيز من العدم -على الأقل بنظر المؤسسة الحاكمة- ليعتلي استطلاعات الرأي بدعواته النارية للثورة. (أسوشييتد برس، وايد وورلد فوتوز).

على الرّغم من أن المحللين السياسيين والدبلوماسيين ومنفذي استطلاعات الرأي لم يعطوا تشافيز أي فرصة للفوز في بداية 1998، لكنه سرعان ما بدأ يجتذب حشوداً هائلة بعد ذلك. وعندما طلب من الناس في هذا الاجتماع الحاشد أن يرفعوا أيديهم إذا كانوا يوافقون على محاولته الانقلابية في 1992، ارتفع بحر من الأيدي في الهواء. (أسوشييتد برس، وايد وورلد فوتوز).

عندما كان صبيا حلم تشافيز بلعب البيسبول في الدوري الممتاز. وعلى الرغم من أنه لم ينجح في تحقيق هذا الحلم. إلا أنه حقق جزءا منه في 1999 عندما قام -بعد اشهر من انتخابه رئيسا لفنزويلا- برمي الكرة الاولى في مباراة لفريق نيويورك ميتز في ملعب شيا. فاجأ تشافيز مدينة نيويورك باجتذابه مستثمري وول ستريت وتقديمه تعليقا حيا خلال المباراة للمشاهدين في فنزويلا. (اسوشييتد برس).

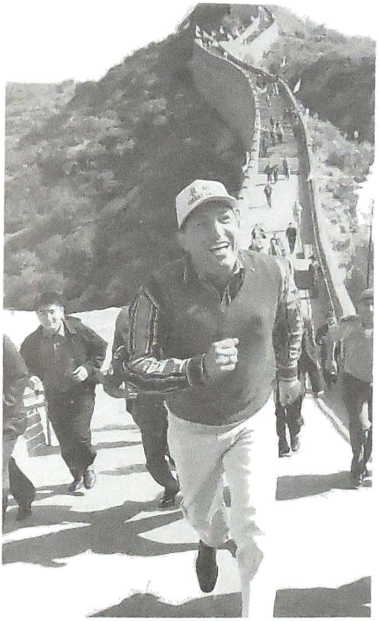

جعل تشافيز. سيد الحركات العفوية وغير المتوقعة، حراسه الشخصيين ورجال الأعمال المرافقين له يلهثون وراءه عندما انطلق بالعدو فجأة فوق سور الصين العظيم خلال رحلة قام بها إلى الصين في تشرين الأول 1999. وفي وقت لاحق، كسب تشافيز ود فلاديمير بوتين حين اتخذ وضعية كاراتيه في أول لقاء لهما كإشارة إلى علمه بأن الزعيم الروسي كان حائزا على الحزام الأسود. (أسوشييتد برس).

حاول تشافيز بسرعة استغلال مواهبه الخطابية الفذة من خلال إطلاق برنامجه الإذاعي الحي الأسبوعي، «مرحبا أيها الرئيس». وبعد فترة قصيرة حول البرنامج الذي كان يُبث يوم الأحد إلى برنامج تلفزيوني، وفي 2007 أصبح يُعرض مرتين في الأسبوع. (أسوشييتد برس).

في حين كانت الطبقة الثرية في فنزويلا تسخر من تشافيز وتحتقره، فإن الطبقة الفقيرة التي تشكل غالبية الفنزويليين كانت تحبه حبًا جمًا. ففي الأحياء المعدمة مثل حي نويفا تاكاغوا، حيث تعمل البعثات التبشيرية الأميركية الشمالية (Maryknoll) وحيث يعيش المقيمون في أكواخ من الصفيح، كان تشافيز محبوبا ومحترما. كان الناس يعلقون صوره على الجدران ويتعهدون بالدفاع عنه حتى الموت. (نواه فريدمان-رودوفسكي).

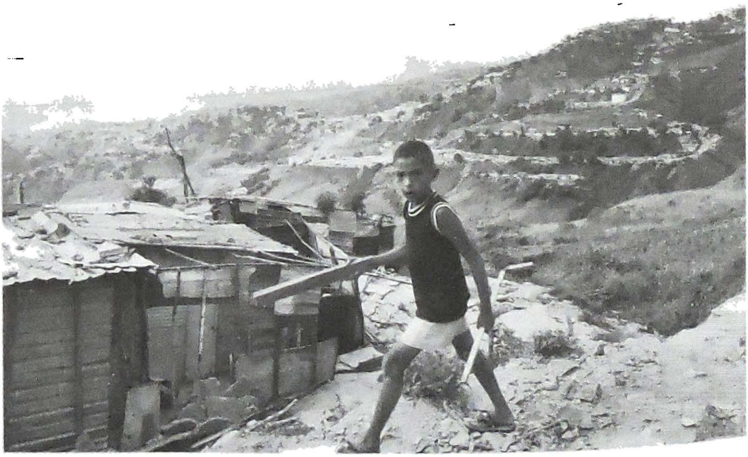

خلّفت الانزلاقات الطينية التي وقعت في كانون الأول 1999 بالقرب من كاراكاس على الساحل الكاريبي نحو خمسة عشر ألف قتيل في أسوأ كارثة طبيعية حلّت بفنزويلا خلال قرن على الأقل. قاد تشافيز بنفسه عمليات الإغاثة في ولاية فاغراس، وقدّم آخر المستجدات للأمة المنكوبة على التلفزيون في كل ليلة. وبالكاد ذاق طعم النوم خلال تلك الفترة. وأرسلت البحرية سفناً لإخراج الآلاف من المواطنين من منطقة الكارثة. (Agencia Bolivariana de Noticias).

بعد ثلاثة أيام من المأساة، قدّم تشافيز بنفسه الإرشادات للمظليين قبل إرسالهم إلى منطقة الكارثة. (Agencia Bolivariana de Noticias).

أصبح فيدل كاسترو معلم تشافيز الأساسي. ما أثار قلق الطبقات العليا في فنزويلا من أن يكون تشافيز يخطط لتحويل العملاق النفطي إلى نسخة القرن الواحد والعشرين من الجزيرة الشيوعية. ولكن، على الرغم من أن تشافيز وكاسترو كانا حليفين، إلا أن تجربتيهما الاشتراكيتين كانتا مختلفتين تماما. (أسوشييتد برس).

عندما ضربت الفيضانات بلدة غواسدواليتو الحدودية في ولاية أبيوري في 2002، زار تشافيز البلدة من أجل الاستماع إلى هموم سكانها والمساعدة في توجيه جهود الإغاثة. (Agencia Bolivariana de Noticias).

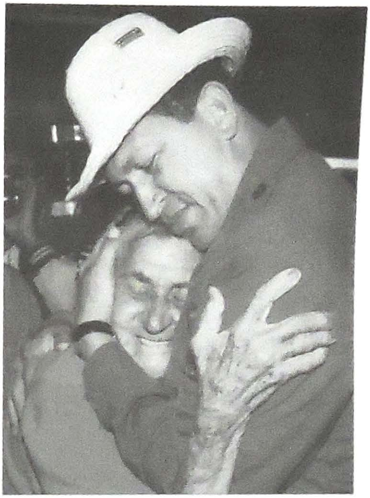

كان تشافيز مشهورا بتعاطفه الصادق مع الغالبية الفقيرة في فنزويلا، الأمر الذي كان يرجع إلى نشأته الفقيرة في ولاية باريناس. وهنا يظهر تشافيز وهو يعانق امراة عجوزا في جزيرة مارغاريتا في 2001. (Agencia Bolivariana de Noticias).

مد تشافيز يد المساعدة إلى السكان الأصليين في فنزويلا، والبالغ عددهم 500,000 نسمة. حيث سعى لكتابة دستور جديد يعترف بلغاتهم وأنظمتهم الاقتصادية، وخصص ثلاثة مقاعد في المجلس الدستوري لممثلين عن قبائلهم. ومع ذلك، لم تحز سياساته البينية في بداية رئاسته على رضا بعض الزعماء الأصليين. في 1999، زار تشافيز أفرادا من قبيلة بياروا في ولاية بوليفار. (Agencia Bolivariana de Noticias).

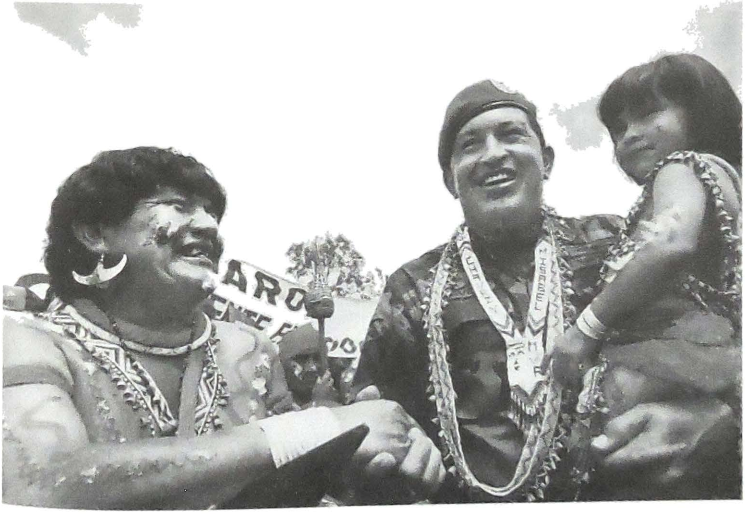

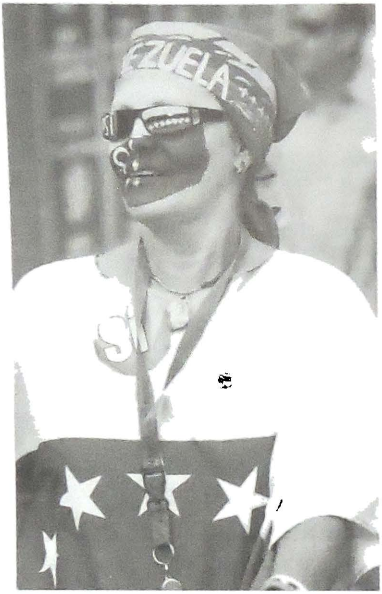

أثار تشافيز حقداً شديداً لدى الكثيرين من أفراد الطبقة الثرية في فنزويلا الذين كانوا يعتقدون بأنه كان يدمر البلد بخبرته الضعيفة في الشيوعية. وهنا تبدو متظاهرة دهنت وجهها بألوان العلم الفنزويلي قبل أيام من إجراء الاستفتاء على تجديد الثقة في انتخابه في آب 2004؛ في تلك الفترة، كانت رئاسة تشافيز على المحك. (نواه فريدمان-ردودفسكي).

في الأحياء الفقيرة والأرياف المحرومة في فنزويلا، كان تشافيز يولد حماسة هائلة. معجبون يهللون له في آب 2004 في أثناء توجهه للمشاركة في الاستفتاء على تجديد الثقة في انتخابه. (نواه فريدمان-ردودفسكي).

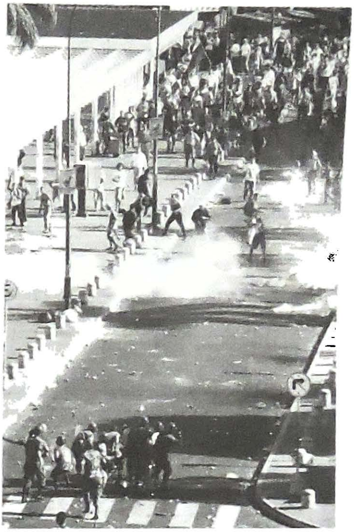

بعد تغيير زعماء المعارضة -بشكل غير قانوني- طريق مسيرة احتجاجية حاشدة مناوئة لتشافيز في 11 نيسان 2002، اقترب بعض المتظاهرين من قصر ميرافلوريس واشتبكوا مع أفراد الحرس الوطني. وعلى الرّغم من كون معظم المتظاهرين مسالمين، إلا أن بعضهم قام برمي الزجاجات والحجارة والكراسي وقشور البطيخ وقطع من الآجر اقتلعوها من مدرسة فيرمين تورو الثانوية القريبة. فرد الحرس الوطني بإطلاق الغاز المسيّل للدموع، والرصاص في بعض الحالات. وفي شارع بارالت وعلى جسر لاغونو المجاورين سقط عدد من الجرحى والقتلى في صفوف متظاهري المعارضة ومؤيدي تشافيز معاً -الكثيرون منهم أصيبوا بأعيرة نارية أطلقها بعض القناصة- خلال أشد المراحل صعوبة وإثارة للجدل في عهد تشافيز. (Agencia Bolivariana de Noticias).

بعد اختفاء تشافيز عن أنظار الشعب لمدة تقارب اليومين خلال انقلاب 2002، تدفق آلاف المناصرين من أحياء كاراكاس الفقيرة وتجمعوا حول قصر ميرافلوريس الرئاسي للمطالبة بعودته. بعضهم علّق لافتة على بوابة القصر تقول «أين تشافيز؟ دعوه يتكلم». لكن تشافيز سرعان ما سيعود بشكل عجائبي إلى القصر والرئاسة. (غوستافو فريسنيدا/ كادينا كابريليس).

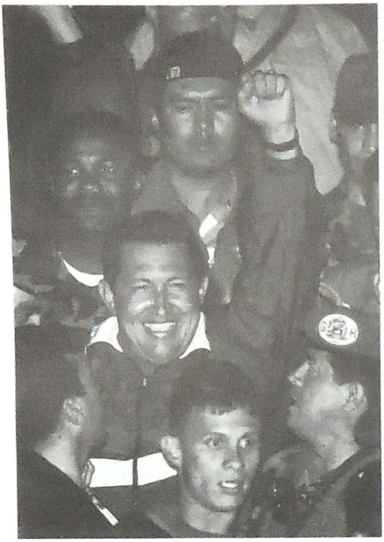

اختفى تشافيز لمدة يومين خلال انقلاب نيسان 2002 وعاد بصورة عجائبية إلى قصر ميرافلوريس الرئاسي في وقت مبكر من صباح 14 نيسان 2002. بالنسبة لمناصريه كانت عودته أشبه بقيامه من الموت. (أسوشييتد برس/ وايد وورلد فوتوز).

شلّ معارضو تشافيز الصناعة النفطية في كانون الأول 2002 في محاولة لخنق الاقتصاد وإجباره على الاستقالة. حيث ألقت بعض ناقلات النفط العملاقة مراسيها ورفضت شحن النفط. فاضطر تشافيز لإعادة بعض القباطنة المتقاعدين من أجل تحريك السفن ثانية. (أسوشييتد برس/ وايد وورلد فوتوز).

تشافيز في لحظة تفكير خلال برنامج «مرحبا أيها الرئيس» في 2001. (Agencia Bolivariana de Noticias).

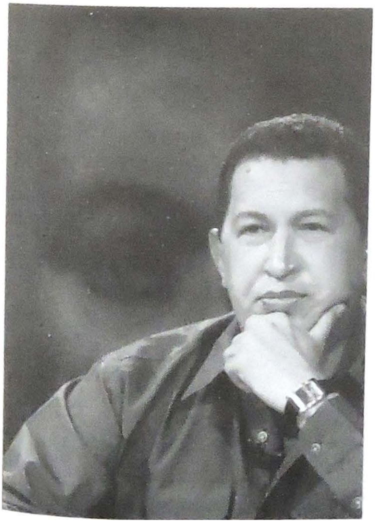

لم يكن سيمون بوليفار يوما بعيدا عن تفكير تشافيز. خلال بث إحدى حلقات برنامج «مرحبا أيها الرئيس» في 2003. تظهر صورة للمحرر وهو يحدق في الرجل الذي أمل بتحقيق حلمه بتوحيد أميركا اللاتينية وجعلها أكثر عدلا

(Agencia Bolivariana de Noticias).

ببساطة المدنيين الأبرياء. ووصف كيف أن ابنه هوغو، الذي رافقه في رحلته، زار مسجداً ورأى طفلاً عارياً وهو يُحتضر من جراء إصابته بمرض السرطان وبسبب عدم قدرتـه علـى الحصـول على العقاقير اللازمة لعلاجه. وقال تشافيز في مناشدة عاطفية: «ليرحم الله أرواح الذين تصرفوا بهذه الطريقة».

عقـب اجتماعـه بتشافيـز، قال الرئيس الإندونيسي عبد الرحمن وحيد بأنه يخطط الآن لزيارة العراق أيضاً وأنه يعتقد بأنه ينبغي رفع الحظر. وبذلك انضمّا إلى النقاد البارزين الآخرين للعقوبات التجارية، بمن فيهم الفاتيكان ومفتش الأسلحة السابق سكوت ريتر. أكّد ريتر بأنه تم تجريد العراق من أسلحته وأنه لم يعد في حوزته أسلحة دمار شامل. وهذه هي الحقيقةَ التي تكشّفت بعد أن غزت الولاياتُ المتحدة العراقَ في العام 2006 لكـي تدمّـر أسلحـة الدمـار الشامـل التي يملكها صدام حسين؛ من غير أن تتمكن من العثور على أي منها.

على الرغم من الجدل الذي أثير حول زيارة العراق، رأى العديد من المراقبين في جولة تشافيز نجاحاً سياسياً دولياً هاماً. فقد زار عشر دول في عشرة أيام، بما في ذلك المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والإمارات العربية المتحدة وليبيا ونيجيريا والجزائر. وأقنع الدول الأعضاء في أوبك كافة بإرسال ممثلين إلى كاراكاس، على الرغـم مـن أنـه كان علـى صدام حسيـن والرئيس الليبي معمر القذافـي إرسال بديلَين عنهمـا مخافـة أن يختـرق أعداؤهما فنزويلا ويحـاولا اغتيالهما. بذلك يكون تشافيز قد خطا خطوة هامة نحو إعادة تفعيل منظمة أوبك. وسبق أن كوفئت بلاده على دورها القيـادي المتجـدد مـن قبـل الأعضاء بأن أسندوا رئاسة المنظمـة لفنزويلا. وعلّق أحد خبراء السياسة في الولايات المتحدة على ذلك بالقول بأنه «من الناحية الجيوسياسية، كانت الجولة التي شملت أعضاء منظمة أوبك عملاً متقناً. فقد أظهرت أن فنزويلا ليست مجرّد بلد مغمور في أميركا اللاتينية»، وأنه على الرغم من شكاوى وزارة الخارجية الأميركيـة، «أصبـح هنـاك المزيد من الأشخاص الذين يعرفون أشياء عن تشافيز أكثر مما يعرفونه عن أي زعيم آخر في أميركا اللاتينية باستثناء فيدل كاسترو».

استحـوذت تلـك القمّـة علـى مجمل النشاطات فـي كاراكاس طوال ثلاثة أيام من شهـر أيلـول. وفـي مشهـد يذكّر بتتويج كارلوس أندرياس بيريز في العام 1989، قدِم الأمراء والرؤساء والشيوخ إلى المدينة من مختلف أنحاء العالم. عمّ الهدوء وسط مدينة كاراكاس التي تشتهر بحالات ازدحام السير الفوضوية. فقد أغلقت السلطات الشوارع التـي تحيـط بمسـرح تيريـزا كارينو المتألّق وأبعدت الباعـة المتجولين عن الطرقات. وسيّـر نحـوّ مـن ثلاثـة آلاف جندي ورجل شرطة دوريات في العاصمة وفي الطريق الجبلـي المتعـرّج الـذي يربـط بين كاراكاس والمطار الدولي علـى الساحل الكاريبي. ونقلت الطوافاتُ ومواكب السيارات الوفودَ جيئة وذهاباً من المسرح إلى الفنادق التي كانوا ينزلون فيها.

استأجر الوفد الإيراني ثلاثة طوابق من فندق يوروبلدينغ الفخم، وامتنعوا عن استخدام اثنين منهما لدواعٍ أمنية. واشتكى بعض الضيوف والصحفيون من الاضطرار إلى الانتظار فترات تمتد لنصف ساعة عند أجهزة كشف المعادن، ولكنّهم حدّقوا جميعاً بالرئيس محمّد خاتمي في أثناء مروره بالقرب منهم. كان يلبس رداءً فضفاضاً وعباءة سوداء، وعمامة سوداء. تميز وفد المملكة العربية السعودية بأنه أكبر الوفود المشاركة بأعضائه الذين بلغ عددهم 380 شخصاً. وقد شغلوا كافة الغرف في فندق ميليا الفسيح.

قام عملاء الاستخبارات بتمشيط الممرات في الفنادق مستخدمين الكلاب الألمانية التي يمكنها اكتشاف وجود قنابل. ترجع الهواجس الأمنية التي انتابت أعضاء أوبك إلى حادثة اختطاف وزراء النفط كافة في القمّة الأولى والأخيرة السابقة والتي انعقدت في العام 1975 في العاصمة النمساوية فيينا. خطط لعملية الاختطاف تلك كارلوس، وهو إرهابي دولي وُلد في فنزويلا وراسله تشافيز في العام 1999 بعد دخوله السجن في باريس.

تحمّل الفنزويليون الكثير من الآلام لجعل زوارهم يشعرون بأنهم في موطنهم. كما جرى إعداد الأطعمة بما يتفق والشريعة الإسلامية. حتى إن فندق تاماناكو إنتركونتيننتال هيّأ أجواء الليالي العربية في مطعمه الذي يعرف باسم كاسيك. وفي المساء، أضاءت الحكومة السماء بالأسهم النارية للاحتفال بهذا اللقاء التاريخي.

ناقشت الوفود في أثناء انعقاد القمّة مسألة ارتفاع أسعار النفط. وألقوا باللائمة على الضرائب والوسطاء والاختناقات، على الرغم من أن التخفيضات في الإنتاج لعبت دوراً رئيسياً في مضاعفة الأسعار بمقدار ثلاثة أضعاف خلال الشهور الأربعة عشر السابقة. آثرت الدول الإسلامية الأكثر ميلاً إلى التسلّح، بما في ذلك إيران والعراق وليبيا، إبقاء الإنتاج عند مستوى متدنٍ ورفع الأسعار. وهذا ما دفع تشافيز إلى التدخل في النقاش والدفاع عن نظام النطاق الذي يسمح بأن تتذبذب الأسعار بين مستوى 22 و28 دولاراً للبرميل مع المحافظة على الاستقرار النسبي للأسعار. وبموجب هذا الاقتراح، تقوم الدول المنتجة بزيادة الإنتاج أو خفضه بما يبقي الأسعار ضمن هذا النطاق.

دافع تشافيز عن الأسعار المحددة في هذا النطاق قائلاً: «ما نطلبه هو العدالة». وفيما كان الشيوخ والأمراء العرب، والرؤساء ينصتون بصبر، توسّع تشافيز، الرئيس الوحيد في الكارتيل من خارج الدول الإسلامية، في الحديث عن العلاقة بين الدول المنتجة للنفط وبين الدول الصناعية. قال تشافيز: «ما الذي يمكنها فعله من دون نفط؟ أين سيكون موقعها؟». هنا، تحوّل صبر الوفود إلى ابتسامات وتصفيق. واصل تشافيز حديثه فقارن بين كلفة السلع الاستهلاكية المتنوعة، بما في ذلك المساحيق التي تصبغ الجلد باللون الأسمر والشامبو وبين سعر برميل النفط. قال تشافيز: «يبلغ ثمن برميل

من شراب الكوكاكولا 78.80 دولاراً؛ ويبلغ ثمن برميل من الحليب 150 دولاراً؛ ويبلغ ثمن برميل من الآيس كريم 1105 دولارات؛ ويبلغ ثمن برميل من الشراب الجيد 1370 دولاراً». أومأ العديد من رؤساء الدول برؤوسهم وضحكوا للتعبير عن موافقتهم على هذه المقارنة. حتى إن بعضهم استمرّ في الحديث بشأنها في أثناء خروج الوفود من قاعة الاجتماع. وقبل ذلك بعدة أيام، قال تشافيز للمستمعين في برنامجه الإذاعي الذي يسمح للمستمعين بالمشاركة الهاتفية فيه، «كم سيكون الأمر جميلاً إذا قاموا أيضاً بتخفيض أسعار الأشياء التي يبيعوننا إياها من الحواسيب، والعقاقير الطبية، والسيارات، والفوائد على الديون الخارجية».

كان تشافيز يستخدم سحره الخطابي في حديثه إلى الوفود، كما فعل تماماً مع ممولي نشاطات وول ستريت، ومع ساكني الأحياء الفقيرة ومع أي شخص آخر يعيش في ضائقة. لكنّ اقتراحاته تجاوزت مسألة نطاق أسعار النفط. فقد كان لديه رؤية أوسع نطاقاً لجهة دور أوبك. أراد من المنظمة أن تتصدى لمشكلة الفقر العالمي، والديون الخارجية، والميزان التجاري، وغيرها من القضايا التي تواجه البلدان النامية. واقترح تأسيس مصرف لأوبك ليكون بديلاً عن صندوق النقد الدولي. وحثّ بيان كاراكاس الذي صاغته الوفود المشاركة «الدول المتقدمة على الاعتراف بأن المأساة البيئية الكبرى التي يعاني منها العالم هي فقر الإنسان».

في حين اعتبر بعض من ينتقصون من شأن تشافيز القمّة بأنها لن تتجاوز إطار الكلام، رأى العديد من الأشخاص أنها نجاح كبير في تقوية منظمة بدت قبل سنتين من ذلك على شفير الانهيار في غمرة انهيار أسعار النفط. بعد يوم على اختتام القمّة، التقى الرئيس الإيراني بنائب الرئيس العراقي في جناح الرئيس الإيراني في فندق يوروبلدينغ لمحاولة ترميم العلاقات المتردّية بسبب الحرب التي اندلعت بين البلدين بين عامي 1980 و1988. كان ذلك اللقاء الأول على هذا المستوى بين ممثلي البلدين منذ العام 1997.

بالنسبة إلى البعض، برز تشافيز من القمّة وقد تعززت مكانته على المسرح العالمي. فكتبت صحيفة لوموند الباريسية بأن تشافيز تحوّل من كونه مدافعاً عن «ثورة سلمية ضدّ حكم القلّة في بلاده وضدّ الطبقة السياسية الفاسدة إلى المتحدث الرسمي الأساسي باسم طرف مهاجم - على المستوى العالمي في هذه المرّة - ومعاد للرأسمالية المتوحشة». كان الارتفاع الذي شهدته أسعار النفط قبل أيام من انعقاد القمّة قد أجبر الولايات المتحدة على استخدام احتياطاتها الاستراتيجية للمرّة الثالثة فقط منذ خمس وعشرين سنة. وباتت على استعداد لطرح مليون برميل آخر في اليوم بدءاً من شهر تشرين الأول.

بالعودة إلى شهر آذار، اتصل الرئيسُ كلينتون بتشافيز من القاعدة الجوية وان وهو في طريقه إلى الهند وطلب من الرئيس الفنزويلي زيادة الإنتاج. فإلى جانب

حقيقـة أن نصـف الإنتـاج الفنزويلـي يصـدَّر إلى الولايات المتحـدة، كان ذلك اعترافاً ضمنياً بأن تشافيز قوة دافعة تقف خلف انبعاث كارتيل النفط الذي ينتج 40 في المئة من النفط الخام في العالم.

لـم تكـن علاقـات تشافيز بالولايات المتحدة لتعود إلى سالف عهدها، على الرغم مـن هـذا الاتصـال، بعـد أن زار العـراق. كانت تلك الزيارة بداية النهاية بالنسبة إلى السياسة الأميركية القائمة على المرونة وعلى المشاركة البنّاءة. ففي الشهر نفسه الذي التقـى فيـه تشافيـز بصدام حسين، انتهت مدة بعثة جون ميستو، السفير الأميركي لدى فنزويلا والمؤيد الرئيسي لسياسة المشاركة. وحلت محله المتشددة دونا هريناك، السفيرة السابقة لدى البرازيل. وبعد انقضاء شهر على قمّة منظمة أوبك، أعطى تشافيز الولاياتِ المتحـدة سبباً آخـر للشعـور بالقلق. فقد قام زعيم عالمي آخر بزيارة لفنزويلا، وكان ذلك الزعيم فيدل كاسترو، ملهم تشافيز.

كان كاسترو قد حضر حفل تنصيب تشافيز في شباط 1999، لكنه كان من بين أصحـاب المقامـات الرفيعـة الأجانـب الذين سافروا إلـى فنزويلا من أجل حضور تلك المناسبة. كان من المقرر أن تكون زيارة رسمية للزعيم الكوبي، والزيارة الأولى له لفنزويـلا منـذ أربعيـن عامـاً. يُذكر أن آخر زيارة له لفنزويلا كانت في العام 1959، بعد وقت قصير من انتصار ثورته والإطاحة بالرئيس الكوبي السابق فولغينشيو باتيستا. أراد كاسترو أن يختلي بتشافيز هذه المرّة وأن يجتمع به وجهاً لوجه. كانت صداقة قد بدأت مع زيارة تشافيز لكوبا في كانون الأول 1994 بعد إطلاق سراحه من السجن وتعمّقـت بعـد مباراتهمـا التـي لا تُنسـى في كرة القاعدة التي جـرت في تشرين الثاني 1999، لتـزداد عراهـا خـلال الأيـام الخمسة التي قام بها الرجلان بكل شيء بدءاً من العودة إلى لعب كرة القاعدة مجدداً إلى التوقيع على اتفاقية هامة لتصدير النفط. قال تشافيز إنه يأمل بأن «يزوّد كوبا بالأكسجين» بالتوقيع على هذه المعاهدة.

وصل كاسترو في 26 تشرين الأول ليلقى استقبال الأبطال. وزار برفقة تشافيز ضريح سيمون بوليفار بالقرب من سجن سان كارلوس حيث سُجن تشافيز لفترة قصيرة فـي العـام 1994. كمـا تسلّـم كاسترو مفاتيح المدينـة، وزار المنزل الذي كان يسكنه بطل الاستقلال الكوبي خوسيه مارتي في العام 1881. ولوّح مئات المعجبين بالأعلام الكوبية والفنزويلية وصاحوا «أهلاً وسهلاً بفيدل».

توجّه الرجلان إلى إلانوس، وتناولا طعام الغداء مع والد تشافيز في بارينـاس، وسافرا إلى سابانيتا، مسقط رأس تشافيز. زار كاسترو المنزل المصنوع من الخرسانة والمطلي باللونين الأزرق والأبيض حيث عاش تشافيز مع جدّته روزا إنياس بعد أن غادرا أخيراً الكوخ المصنوع من الطين قبالة الشارع. سار الزعيمان مشياً على الأقدام إلـى بوليفـار بـلازا حيـث ارتقى كاسترو مسرحاً رُفعـت خلفه ستارة مع شعار يصوّر البطل الثوري الذي شارك في ثورة كوبا، إيرنستو تشي غيفارا. ووصف بلدة سابانيتا

بأنها مهد الثورة البوليفارية وقال للحشود المبتهجة المؤلفة من ثلاثة آلاف شخص بأنه: «كما أن الناس يذهبون إلى كاراكاس لزيارة منزل بوليفار، سيذهب الناس في يوم من الأيام لزيارة سابانيتا حيث وُلد تشافيز».

في أثناء زيارته لبلدة غونار المجاورة، سحر كاسترو المزارعين بأسئلته التي تتعلّق بتفاصيل استخدام سماد البوتاس وكيفية تصنيف التربة. في تلك الأمسية، والتي صادفت يوم السبت، اتفق كاسترو مع تشافيز على إعادة تنظيم مباراة كرة القاعدة في هافانا، على أن تُجرى في مدينة باركويزيميتو في هذه المرّة. لعب تشافيز الكرة الأولى لفنزويلا. وأدار كاسترو الفريق الكوبي الذي تألف من لاعبين متقاعدين إلى أن شارك بنفسه كضارب للكرة في الجولة الأخيرة منتعلاً حذاءً رياضياً ومعتمراً قبعة حمراء ومرتدياً بزّة عسكرية وفوقها سترة زرقاء . وعندما طلب الحكم رمي الكرة للمرة الثالثة، ناقش الحكم في قراره وتوجه ببساطة إلى القاعدة الأولى. لم يجادل أحد بعد ذلك وفازت كوبا بنتيجة 17 مقابل 6.

أمضى الرجلان يوم الأحد بالمشاركة في برنامج تشافيز الإذاعي ألو بريزيدنت. وللاحتفاء بهذه المناسبة، أضاف المنتجون حرف الجمع إلى اسم البرنامج. تكلّم الزعيمان على مدى خمس ساعات، حتى إنهما أدّيا أغنية معاً. وبدا أن الزعيمين على استعداد لمواصلة البرنامج طوال اليوم لولا أنه كانت لديهما التزامات أخرى. في تلك الأمسية، أثنى كاسترو على تشافيز لمساعدته على تفعيل منظمة أوبك، كما ألمح إلى أنه ينظر إلى الزعيم الشاب على أنه خليفته الإيديولوجي والروحي. قال كاسترو: «أنا أثق بك. في هذه اللحظة، وفي هذا البلد، لا يوجد أحد يمكن أن يحلّ محلّك». وأسدى إلى تشافيز بعض النصائح المتعلقة بالحكم، وأشار إلى تشافيز لن يستطيع مراجعة كل ملاحظة توضع في يده أو كل رسالة تُرسَل إليه لكي يحل مشكلات الآخرين بنفسه، وقال له إنه ينبغي عليه تفويض هذه المهمة إلى أشخاص آخرين. قال كاسترو: «لا يمكن لتشافيز أن يكون عمدة فنزويلا بأسرها».

كان كاسترو قد أسدى بعض النصائح لتشافيز عندما خطب في الجمعية الوطنية قبل عدة أيام، فحثّ القائد الشاب على حماية نفسه. قال كاسترو: «ما من شك في أن أعداءه هنا وفي الخارج سيسعون إلى التخلّص منه». ويبدو أنه كان يعرف شيئاً عن هذا الموضوع، وهو نفسه كان هدفاً لعدد كبير من محاولات الاغتيال والتي نفّذتها في الأغلب وكالة الاستخبارات المركزية والمنفيون الكوبيون في ميامي.

جاء الحدث الأهم في هذه الزيارة على صعيد الأعمال الملموسة في اليوم الأخير منها، وذلك عندما قاما بالتوقيع على اتفاقية تتعلق بالطاقة. بموجب تلك الاتفاقية، وافقت فنزويلا على تزويد كوبا بثلاثة وخمسين ألف برميل من النفط يومياً بموجب شروط تفضيلية. وبناء على ذلك، يُسمح لكوبا بأن تسدد ثمن هذا النفط بمزيج من المال والسلع والخدمات. كان يوجد أصلاً 450 طبيباً يعيشون ويعملون في منطقة

فارغـاز التـي أصيبـت بكارثة إثر تعرضها لانـزلاق طيني. وبناء على الاتفاق، سيتم توسيع مهمة هؤلاء لتشمل البلاد بأسرها وتصبح السمة المميزة لرئاسة تشافيز، ميسيون باريو أدينترو (داخل البلد المجاور). بناء على ذلك، سيتم إرسال الأطباء إلى الأحياء الفقيرة في المدن وإلى القرى الريفية حيث قلة من الأطباء الفنزويليين يجرؤون على الذهاب إلى هناك. بالنسبة إلى العديد من الفقراء الفنزويليين، كانت تلك الخطوة ثورة في حدّ ذاتها.

كما يمكن لكوبا أن تسدد ثمن النفط من خلال معالجة المرضى الفنزويليين بكوبا، وتوفيـر اللقاحـات، والمعـدات الطبية، والمساعدة علـى تصنيع العقاقير الطبية، وعلى تصديـر المعلميـن، والمدرّبيـن الرياضيين، والمستشارين في قطاع السياحة، والخبراء في قطاع الزراعة، إلى فنزويلا. كما يمكنها سدّ ثمن بعض من هذا النفط نقداً وذلك نظير ربع الكمية المستوردة على أقصى حدّ وبناء على شروط تمويلية تفضيلية. كذلك يمكـن لكوبـا سـدّ المبالـغ المترتبة عليها على مدى خمسـ عشرة سنة، مع فترة سماح مقدارها سنتين، وبمعدل فائدة نسبتها 2 في المئة، وذلك بناء على سعر متدنّ يصل إلى 20 دولاراً للبرميل؛ وهو سعر أفضل بكثير من سعر الثلاثين دولاراً الذي كان سائداً حينهـا. قُـدّرت قيمـة الصفقة بأكملها بنحو من 500 مليون دولار في السنة. وستحصل كوبا بموجبها على ثلث حاجاتها النفطية، وهو ما جعلها نعمة بالنسبة إلى النظام الكوبي الغارق في المعارك.

وصف النقاد تلك الاتفاقية بالجائزة، خصوصاً أن المستفيد منها رجل ينتهك حقوق الإنسان. وقالوا إنه كان يمكن استخدام المال بطريقة أفضل في بناء المدارس، وفي إصـلاح الطرقـات، وفـي الاستثمار في المستشفيات الحكومية العاجزة، وفي سدّ الدين الخارجـي. لكـنّ فنزويـلا كانـت قد وقّعت للتو على اتفاقات مشابهة مع اثني عشر بلداً آخر يطل على البحر الكاريبي وفي أميركا الوسطى. يرجع تاريخ هذه الاتفاقات إلى ثمانينيـات القـرن الماضـي عندمـا عرض عملاقا النفط، المكسيـك وفنزويلا، صفقات لتصدير النفط للدول المجاورة الأشدّ فقراً بأسعار مخفّضة.

بعد مرور تسعة أشهر على زيارة كاسترو، قرر كاسترو الاحتفال بهذه المناسبة التاريخيـة باحيـاء ذكـرى ميـلاده الخامس والسبعين ليس فـي كوبا وإنما في فنزويلا، برفقة تشافيز. عندما حطت طائرته في كاراكاس في 11 آب 2001، أعلن بأنه: «أراد الاحتفال بذكرى ميلاده الخامس والسبعين في أرض المحرِّر». أحاط تشافيز المبتهج كاستـرو بذراعـه وقـال: «نحن نرحّب بشقيقنـا، ونحن نرحّب بصديقنا، ونحن نرحّب بقائدنا الثوري الذي يعتبر مثالاً للكرامة في أنحاء هذه القارّة كافة».

توجّها إلى سيوداد بوليفار، مهد حركة الاستقلال عن إسبانيا في أميركا الجنوبية. كانـت تلـك المدينـة الواقعـة فـي شرق فنزويلا والتي خطط فيهـا بوليفار للاستقلال ثم أطلـق مسيرتـه الشهيـرة فعبـر مدينة إلانوسـ المشبعة بالرطوبة إلى أن وصل إلى قمم

جبال الأنديز المكلّلة بالثلوج في كولومبيا. في الساحة المركزية في المدينة، ضحك الآلاف من الأشخاص بعد سماعهم النكات التي قالها كاسترو، وهتفوا لخطابه، وغنّوا «ذكرى ميلاد سعيدة». ثم انتقل مع تشافيز بالطائرة إلى داخل غابة الأمازون وتوجّها إلى منتزه كانايما الوطني. ثم حلّقا بواسطة طائرة فوق شلالات أنجيل الرائعة، أعلى الشلالات في العالم من ارتفاع يبلغ 980 متراً؛ وهو ارتفاع يزيد بمقدار خمسة أضعاف عن ارتفاع شلالات نياغرا. كما حلّقا فوق الجبال المسطحة القديمة والغامضة والتي تسمى تيبيوس، والتي كانت المصدر الذي استوحى منه السير أرثور كونان دويل قصة المغامرات الكلاسيكية **The Lost World**.

وصف كاسترو تلك المناسبة بأنها أروع ذكرى ميلاد احتفل بها في حياته. لكن على الرغم من كل ما تقدم، اتسمت صداقته بتشافيز بالتعقيد على اعتبار أنها كانت بمثابة سيف ذي حدّين. فالعديد من الفنزويليين يتذكرون دعم كاسترو للعصابات الفنزويلية الماركسية في ستينيات القرن الماضي ولا يزالون مستائين من ذلك. أرادوا ألاّ يكون هناك شيء على علاقة بالأسلوب الكوبي في الحكم في فنزويلا. وفي حين جذبت زيارته آلاف المؤيدين، فقد أثارت سيلاً من الاعتراضات. لكن الفنزويليين الآخرين، وعلى الخصوص أولئك الذين ينتمون إلى الطبقة الفقيرة، أعجبوا بوقوفه في وجه الولايات المتحدة. لكن كان هناك العديد من الفنزويليين الذين يرون في كاسترو بطلاً ولكنهم لا يريدون نظاماً شيوعياً في فنزويلا.

كان كاسترو قد تحمّل الآلام خلال زيارته السابقة في تشرين الأول للتخفيف من المخاوف بأن حليفه الفنزويلي سيقوم بتكرار الثورة الكوبية في فنزويلا. وأصرّ حينها على القول إنها «كذبة تلك الحكاية التي تقول بأن تشافيز يريد تطبيق النموذج الكوبي في فنزويلا». رأى بعض المراقبين أن الحديث الذي أدلى به كاسترو لم يكن مجرّد خطاب فارغ أو غطاء لتشافيز. فقد كانت جانيت كيلي، وهي محللة سياسية وُلدت في الولايات المتحدة ومعلّقة بارزة في فنزويلا ولم تكن متعاطفة مع تشافيز، على قناعة بأن القائد الفنزويلي يريد أن يشقّ مساراً مستقلاً على الرغم من نظرته إلى كاسترو بوصفه الشقيق الأكبر أو الوالد. من الواضح أن تشافيز كان يبتهج من استهزائه بالولايات المتحدة علناً من خلال تباهيه بالصداقة التي تربطه بالقائد الثوري الكوبي، أو من خلال زيارته لصدام حسين، أو عبر القيام بأعمال استفزازية أخرى، ولكنه لم يكن كاسترو آخر.

قالت كيلي: «هناك إعجاب بفيدل، ولكنه ليس مرتبطاً بالنظام المحلّي القائم بكوبا والذي لا أعتقد بأن تشافيز مهتم بتجربته بقدر ما هو مرتبط بتبنّي بعض من أساليب فيدل. إنه تلميذ لفيدل الجريء أكثر مما هو تلميذ لفيدل الشيوعي».

لكن تلك لم تكن وجهة النظر السائدة في واشنطن العاصمة في أوساط إدارة جديدة على وشك أن تتولّى الحكم. كان جورج دبليو بوش قد فاز بشقّ الأنفس على

آل غور في انتخابات رئاسية كثر فيها الخلاف بعد مرور أسبوع على زيارة كاسترو لفنزويلا. وبغرض إدارة سياسته في أميركا اللاتينية، سارع بوش إلى تجنيد العديد من الشخصيات التي تلطخت سمعتها في السابق من جراء فضيحة إيران - الكونترا ومن الحروب القذرة التي شنّتها الولايات المتحدة في أميركا الوسطى في ثمانينيات القرن الماضي. كان بعضهم يكره الزعيم الكوبي إلى حدّ الهوس وكان هؤلاء على قناعة بأن تشافيز ما هو إلاّ فيدل كاسترو جديد. لقد شعروا بنذير الخطر في الصداقة العلنية التي تربط تشافيز بالثائر الكوبي، وفي تعاطفه مع العصابات اليسارية في كولومبيا المجاورة، وفي انتقاده لخطة كولومبيا التي ستمنح واشنطن بموجبها مساعدات بقيمة 1.3 مليار دولار لكولومبيا بهدف استئصال زراعة المخدرات والثوار الذين يستفيدون - على غرار الكثير من أبناء المجتمع الكولومبي - من أكبر صناعة للكوكايين في العالم. وقد لخّصت مقالة افتتاحية نشرتها الواشنطن بوست في 2 تشرين الثاني 2000 المسألة ووصفت تشافيز بأنه: «فيدل كاسترو التالي».

حافظ الفنزويليون في العلن على مظهر من مظاهر الدبلوماسية، بالنظر إلى المشاعر المعادية لأميركا والتي يكنّها العديد من كبار المسؤولين في المنطقة تجاه التاريخ الطويل والفظيع لتدخل الولايات المتحدة في أميركا اللاتينية. فمن ناحية، كانت تربط وزير الخارجية خوسيه فيسينته رانجل علاقات وثيقة مع تشيلي. وهو لم يكن لينسى الانقلاب الذي دعمته الولايات المتحدة في العام 1973 والذي انتهى بالإطاحة بالرئيس سلفادور أليندي ومقتله. ففي بيان صدر مع اقتراب العام 2000 من نهايته، وصف رانجل العلاقات التي تربط فنزويلا بإدارة كلينتون بأنها «طبيعية وودّية». وأضاف بأنه «يُنظر إلى بدء العلاقات مع الإدارة الأميركية الجديدة... بتفاؤل وثقة من قبل حكومة الرئيس تشافيز». لكن هذا التفاؤل لم يكن ليعمّر طويلاً.

الفصل التاسع عشر

أولى الثورات وعودة فريق إيران – كونترا

كان النظـام التعليمـي الرسمـي فـي فنزويـلا في حالة انهيار عندمـا تولّى تشافيز سـدّة الرئاسـة. فقـد كانـت المدارس تفتقر إلى الكتب والأوراق والأقلام. كان الطلاء قد سقط عن الجدران، وكانت السقوف تسرّب الماء، وكانت الصفوف الدراسية تعجّ بعـدد زائـد مـن التلاميـذ. كان معـدّل الانقطاع عن الدراسة ينـذر بالخطر؛ لم يتمكن نصـف الطـلاب مـن إكمـال دراستهـم الثانوية. كما أن واحـداً من أصل كل عشرة لم يدخل مدرسة إعدادية. وكان العديد من المعلّمين ومديري المدارس يأتون إلى عملهم عندما يروق لهم ذلك. وغالباً ما كانت الإضرابات التي تعمّ البلاد تؤدي إلى إغلاق المدارس لعدة أسابيع. حتى عندما كانت المدارس تفتح أبوابها، كان مستوى التدريس موضع تساؤل. في هذا السياق، علّقت ليزا سوليفان، التي تعمل منذ مدة طويلة لدى إرسالية ماري كنول الأميركية، «لست أدري أيهما أسوأ، عندما تكون المدارس في حالة إضراب أم عندما تكون أبوابها مفتوحة».

جعل تشافيز من محاربة الفساد أولوية قصوى. ومن أولى الأعمال التي قام بها كان إلغاء رسم التسجيل الذي كانت العديد من المدارس الحكومية تتقاضاه بطريقة غير لائقة من الآباء الذين يريدون وضع أبنائهم فيها. وبموجب هذا القرار، وبعد انقضاء السنة الأولى على إلغاء رسم التسجيل، قُدّر بأن أربعمئة ألف طفل التحقوا بالمدارس، بعـد أن كان مـن المفترضـ أنهـم لن يفعلوا ذلك، وذلك استناداً إلى ما قالته الحكومة. وفي السنة التالية، ارتفع ذلك العدد ليصل إلى مليون طفل.

كمـا تصـدّى تشافيـز لمشكلـة المستوى التعليمـي، فقام بتأسيـس خمسمئة مدرسة بوليفاريـة خـلال السنتيـن الأوليَيـن اللتيـن أمضاهمـا في الحكم حيـث خدمت كبرنامج تجريبي. وقد وفّرت تلك المدارس ثماني ساعات كاملة من التعليم في اليوم بدلاً من ورديـات التدريـس النصـف يوميـة التـي كانت تُتبع في أغلـب المؤسسات العامة. كما قدّمـت للطـلاب وجبـات إفطار، وغـداء ووجبات خفيفة مجانية وذلك كل يوم، فضلاً عـن الـزي الرسمـي والكتب المجانية. حتى إنها وفّـرت الحواسيب للصفوف الدراسية فـي بعضـ الأحيـان. كمـا وفّـر العديد من هذه المدارس فرق رعاية صحّية مؤلفة من أطبـاء أطفـال وعمـال اجتماعييـن واختصاصيين في التغذية وأطبـاء نفسانيين. وأغدق تشافيز المال على المدارس البوليفارية وعلى النظام التعليمي بوجه عام. ونتيجة لذلك، ارتفع حجم الإنفاق على التعليم من 3.3 في المئة من الناتج المحلّي الإجمالي في العام

1999 إلى 5.2 في المئة في العام 2001. وزيدت مرتبات المعلمين بمقدار الضعف، وامتلأت رفوف المكتبات بالكتب، وعمل العمال الحكوميون أو الجنود العاملون في خطة بوليفار 2000 على سدّ الشقوق في السقوف التي تسرّب الماء.

لم تكن المدارس البوليفارية مثالية، ولكنها شكّلت تطوراً كبيراً بالمقارنة مع أغلب المدارس الأهلية. ففي إحدى المدارس البوليفارية التي شُيدت في قاعدة فورت تيونا العسكرية في كاراكاس والتي أشرف عليها في البداية عقيد في الجيش ببزّته الكاكية المزدانه بالأوسمة، كان أولياء التلاميذ يحطمون الأبواب لكي يسجّلوا أبناءهم فيها. وبعد سنة على عملها، امتلأت مقاعدها بالكامل وكان لديها قائمة انتظار تضم أكثر من ستمئة عائلة.

على غرار أغلب المبادرات التي قام بها تشافيز، سرعان ما أصبحت هذه المبادرة هدفاً للهجوم من قبل الطبقات الوسطى والعليا ومن قبل وسائل الإعلام. اتهم هؤلاء تشافيز بأنه ينوي كوبنة المدارس (جعلها شبيهة بالمدارس في كوبا) - بما في ذلك المدارس الثانوية التي يلتحق بها أغلب أبنائهم - واستخدامها في فرض إيديولوجيا يسارية. ومما زاد من حدة مخاوفهم مساعدة زعيم عصابة يسارية سابق وعالم اجتماع يدعى كارلوس لانز على صياغة اقتراح يطلب من الحكومة إجراء مراجعة شاملة للنظام وتحديث المناهج الدراسية.

بحلول تشرين الأول 2000، صعّد تشافيز من حدّة هجومه على الجهاز التعليمي، فأصدر مرسوماً يقضي بتشكيل فريق من المشرفين من أصحاب المناصب العالية كُلِّف بتفحص المدارس الأهلية والخاصة ورفع توصيات بصرف معلّمين ومديرين من العمل في المدارس الأهلية. وقد أطلقت خطة تشافيز، والتي عُرفت باسم المرسوم 1011، موجة اعتراضات بين أوساط العائلات الميسورة التي ادّعت على نحو يجانب الصواب بأن تلك التوصيات بصرف المعلمين يمكن أن تطال المعلمين في المدارس الخاصة. فإلى جانب فرضية الكوبنة، رأوا في هذا المرسوم تدخلاً مباشراً في حياة أبنائهم. ورفعوا شعار: «لا تعبث مع أولادي!».

أصرّت الحكومة على القول إنها لا تسعى إلى كوبنة المدارس، تماماً كما أنها لا تسعى إلى كوبنة الاقتصاد أو النظام السياسي. وقال وزير التعليم هيكتور نافارو بأن الحكومة تريد ببساطة القضاء على حالات سوء المعاملة، مثل ذلك المعلّم الذي تبين أنه كان يقوم باعتداءات جنسية منتظمة على تلاميذه المراهقين. كما رأى نافارو أن هناك أسباباً أخرى تقف وراء هذه الجلبة. فقد كانت الماكينات الحزبية الفاسدة التابعة لحزب العمل الديمقراطي والحزب المسيحي الاجتماعي لا تزال تسيطر على المدارس، وكانت تستخدمها كمراكز لتجميع المناصرين عبر تعيين المعلمين والمديرين غير الكفوئين، أو الذين يتغيّبون عن عملهم باستمرار، أو الفاسدين.

جمع المعارضون للمرسوم 1011 صفوفهم في 19 كانون الثاني 2001 عندما نظّم

خمسة آلاف أب ومعلّم مسيرة احتجاجية للاعتراض على هذا المشروع الإصلاحي.

كانت تلك أول مظاهرة كبيرة تسير في الشوارع ضدّ تشافيز والمرّة الأولى منذ عدة سنين - وربما في تاريخ البلاد - لدرجة أن أغنياء كاراكاس احتلّوا وسط المدينة المتسخة ووضعوا فيه مكبرات الصوت الضخمة واللافتات. وبعد ذلك بنحو أسبوعين، عاد المتظاهرون، لكنهم توجهوا في هذه المرّة إلى المحكمة العليا حيث طالبوا القضاة هناك بإبطال المرسوم 1011.

ردّ تشافيز بعد ذلك بيومين بقيادته لمسيرته الخاصة والتي شارك فيها خمسة آلاف والد ومعلّم وطالب من الذين يدعمون الإصلاحات. ووصف الأشخاص الذين يعارضون المشروع بأنهم نخبة ثرية تنظر إلى الفقراء الذين يشكلون الأغلبية بأنهم حثالة. وتعهد بأن «المرسوم سينفَّذ، وسأكون أنا المشرف رقم واحد».

في النهاية، لم يكن تشافيز المشرف رقم واحد. ففي غمرة الاضطرابات، تراجعت الحكومة عن قرارها. وعمدت بدلاً من ذلك إلى تنفيذ برنامج إصلاحي أقل إثارة للجدل، على الرغم من أنها التزمت بفكرة المدارس البوليفارية، وواصلت فتح المزيد من هذه المدارس. غير أن سحب المرسوم 1011 كان بمثابة الهزيمة الكبرى الأولى التي يُمنى بها تشافيز بعد تحقيقه سلسلة من الانتصارات الساحقة.

بدأ تشافيز يواجه انتقادات متزايدة على جبهات أخرى، بما في ذلك محاولته التدخل في أكبر نقابة في فنزويلا، اتحاد العمال الفنزويليين، كان الاتحاد، الذي يسيطر عليه حزب العمل الديمقراطي منذ مدة طويلة معقلاً للفساد والأساليب البلطجية. وشعر العديد من العمال بأن الاتحاد يمثل مصالح أصحاب المؤسسات التجارية أكثر مما يمثّل مصالح الموظفين. لكن في كانون الأول 2000، فازت القوى المؤيدة لتشافيز في استفتاء عام دعا إلى إجراء انتخابات داخلية ديمقراطية في اتحاد العمال الفنزويليين. غير أن منظمات العمال الدولية اتهمت الحكومة بالتدخل بطريقة غير مشروعة في نقابة خاصة وبمحاولة استبدالها بمنظمة تسيطر عليها الحكومة. وبالعودة إلى الاستفتاء، نجد أنه كان هناك نسبة مرتفعة من المشاركين الذين امتنعوا عن إعطاء رأيهم؛ 77 في المئة.

سلّم قادة اتحاد العمال الفنزويليين بنتائج الاستفتاء، وتنحّوا لإفساح المجال أمام إجراء انتخابات مباشرة يشارك فيها العمال. لكنهم سعوا إلى الانتقام من تشافيز، فنظّموا سلسلة من الإضرابات التي شارك فيها العاملون في القطاع النفطي، والعاملون في صناعة الصلب، والمعلمون في مستهل العام 2001. وفي تشرين الأول، أجرى اتحاد العمال الفنزويليين انتخابات مباشرة. كانت تلك الخطوة في حدّ ذاتها إنجازاً لحكومة تشافيز. غير أن مرشّحها، ويدعى أريستوبولو إيستوريز، مُني بهزيمة منكرة أمام مرشح حزب العمل الديمقراطي، كارلوس أورتيغا، الذي كان يترأس نقابة عمال النفط، فيديبترول. ربما كان اتحاد العمال الفنزويليين فاسداً، لكنه تمكن من تحصيل

بعض الفوائد للعمال على مرّ السنين. وعلى الرغم من أن مؤيدي تشافيز ادّعوا حصول عمليات تزوير في غمرة نسبةٍ عالية من الممتنعين عن التصويت وحصول مخالفات واسعة في العملية، لكن النتائج أقرّت.

تحوّل تشافيز عندئذٍ إلى الحركة الثورية البوليفارية -200 (MBR-200) بدلاً من النقابات لتركيز جهوده التنظيمية السياسية. وفي حزيران 2001، صرّح بأنه سيعيد إطلاق الحركة. ودعا النساء والمزارعين والطلاب والصحافيين النزيهين والمناصرين الآخرين إلى تشكيل دوائر بوليفارية للدفاع عن ثورته السلمية ودفعها إلى الأمام. كان الهدف من تلك الخطوة تنشيط الحركة الثورية البوليفارية -200 (MBR-200) ورفع المستوى التنظيمي للجماهير المناصرة له والتي تفتقر إلى التنظيم. رأى البعض أنه شعر بالقلق من أن حركة الجمهورية الخامسة، الواقعة تحت التأثير المتنامي للويس ميكويلينا، منخرطة في الأروقة الخلفية لسياسيي حركة الجمهورية الرابعة والتي نذرت حركته نفسها لتدميرها. كما أن شكوكهم قويت عندما استقال ميكويلينا من منصب وزير الداخلية في مستهل العام 2002.

بالاعتماد على دوائر الدراسة الأصلية التي شكّلها تشافيز عندما بدأ التخطيط لمؤامرته عندما كان في الجيش، تألفت الدوائر البوليفارية من مجموعات صغيرة من الجيران، والتي تراوح حجمها المثالي بين سبعة وأحد عشر شخصاً. وقد قامت تلك المجموعات بدراسة الدستور الجديد، وشكّلت تعاونيات للخياطين، وأدارت برامج لتعليم الوظائف، ونظفت الشوارع، ونظمت البرامج الرياضية الخاصة بالأطفال، وأشرفت على صفوف محو الأمّية. بدوره، شجّع تشافيز تلك المجموعات على التقدم بطلبات للحصول على تمويل حكومي للمشاريع المحلية مثل شراء المعدات الخاصة بملاعب الأطفال أو ترميم الطرقات والجسور. كان ذلك جزءاً من فكرته القائمة على الديمقراطية التشاركية في مقابل الديمقراطية التمثيلية. ووفقاً لبعض التقديرات، انضمّ مليون ونصف المليون من الأشخاص، أو نحو من 10 في المئة من السكان اليافعين في البلاد، إلى هذه الدوائر في نهاية المطاف.

في حين رأى تشافيز أن هذه الدوائر تجسّد تطبيق الديمقراطية، وصفها معارضوه ووسائل الإعلام بأنها مجموعات مسلحة ومجموعات تؤمن بالعنف تشكّل قوام ثورة تشافيز. وأجروا مقارنةً بينها وبين لجان الدفاع عن الثورة في كوبا، وقالوا إن مجموعات الحراسة المشكّلة في الأحياء تهدف إلى إسكات المعارضة. وبعد أن أعلن تشافيز عن تشكيل هذه الدوائر، ألقت المعارضة باللائمة عليها في كل حادثة عنف كانت تقع في الشوارع.

في الواقع، كانت الغالبية العظمى من هذه الدوائر مشغولة بردم الحفر أو دراسة أفكار سيمون بوليفار. صحيح أن بعض المشاركين فيها كانوا مسلحين، ولكن الوصف نفسه ينطبق على أبناء الطبقتين الوسطى والعليا أيضاً. وبالتالي كانت أعمال البلطجة

منتشرة في كِلا الجانبين.

فيما كان تشافيز يشجّع على نمو الدوائر البوليفارية، بدأ يحوّل انتباهه أيضاً إلى السكان الأصليين في فنزويلا. وهو حاز على الثناء بسبب مساعدته على تخصيص ثلاثة مقاعد في الجمعية الدستورية للممثلين عن الهنود في البلاد والذين يبلغ عددهم خمسمئة ألف شخص، ولمساعدته على إقرار دستور يقدّس حقوقهم في طرائق غير مسبوقة. تضمنت هذه الطرائق الاعتراف بالملكية الجماعية للأراضي وتطبيق التعليم ثنائي اللغة. كما أنه رشّح للمرة الأولى في تاريخ فنزويلا شخصاً من السكان الأصليين لتقلّد منصب وزاري عندما قام بتعيين الهندي أتالا يوريانا بوكاتيرا من وايو وزيراً للبيئة.

لكن فيما كان تشافيز يحصد الأوسمة، كان يعاني من مشكلة أيضاً. فقد افتتح سلفه رافائيل كالديرا نصف محمية الغابة المطرية البدائية إماتاكا الواقعة في جنوب شرق فنزويلا أمام عمليات قطع الأخشاب واسعة النطاق وعمليات التنقيب عن الذهب والألماس، فضلاً عن التوقيع على اتفاقية مع البرازيل لبناء شبكة خطوط كهربائية عالية الفلطية بطول 750 كيلومتراً لنقل التيار الكهربائي من المحطة الكهربيمائية عند السد غوري في فنزويلا إلى المناطق الواقعة في شمال شرق البرازيل.

كان من المقرر أن تمر خطوط الشبكة عبر محمية إماتاكا التي تبلغ مساحتها تسعة ملايين فدان والتي تعتبر موطن العديد من القبائل الأصلية. تعتبر إماتاكا، التي تبلغ مساحتها ضعف مساحة سويسرا، فردوس العصر الحديث، وهي تفتخر بتنوع الحياة البرّية فيها والذي لا يوجد له مثيل سوى في أماكن معدودة من العالم. فهذه المحمية موطن حيوانات الجاغوار والبوما والقرود الصاخبة الحمراء والفراشات التي بلون المصابيح، وأكبر النسور حجماً في العالم؛ الخطاف المهدد بالانقراض. كما أنها المكان الذي يوجد فيه منتزه كانايما الوطني.

رأت حكومة الرئيس السابق كالديرا في إماتاكا مصدراً محتملاً لثروات هائلة غير مستغلّة. فهي تحتوي على احتياطيات من الذهب يقدّر بأنها تساوي مليارات من الدولارات. وهي جذبت على مرّ القرون العديد من المستكشفين من بينهم السير والتر رالي الذي كان يبحث عن مدينة إلدورادو الذهبية الأسطورية. تصوّرت حكومة كالديرا تدفق العشرات من شركات التنقيب عن المعادن إلى المنطقة. حتى إنها اقترحت بناء فندق يضم خمسمئة غرفة على أراضي بيمون المقدسة في كانايما.

بحلول أواسط العام 1998، بدأت الجرافات والعمال المزودون بالمناشير الآلية بقطع صف من الأشجار في الغابة، وبإزالة بعض الحقول المزروعة بنباتات اليُكَة، والذرة، والموز، والأناناس في منطقة بيمون. لم يتأخر ردّ أبناء بيمون الذين ارتدى بعضهم ألبسة حمراء، وطلوا وجوههم بألوان الحرب، وقاموا بسدّ الطريق العام الوحيد الذي يمرّ في المنطقة بجذوع الأشجار الضخمة. وعندما نصب العمال أبراجاً فولاذية ضخمة، قام أبناء القبيلة بتخريب بعضها في منتصف الليل بل وأسقطوا بعضاً منها على

الأرض. ومع تواصل الأعمال في المشروع، أسقط أبناء القبيلة ثلاثين منها على الأقل. وتعين على الحكومة آنذاك إرسال الجنود لحراسة الأبراج.

تولى تشافيز حلّ هذه المشكلة، وقال في تشرين الأول 2000 بأنه على استعداد للتحدث إلى القبائل. كما قام بتعيين لجنة لضمان أخذ هواجس الهنود بعين الاعتبار. لكنه صرّح بأن «المشروع لا يتسبب بأضرار بيئية» وبأنه يتعين المضي فيه قدماً. فقد وقّعت فنزويلا والبرازيل على عقد قانوني كان سيكبّد فنزويلا غرامات كبيرة في حال لم تلتزم به.

في شهر آب التالي، وفيما كان كاسترو يقف إلى جانبه، دشّن تشافيز والرئيس البرازيلي فرناندو هنريكه كاردوسو شبكة الخطوط الكهربائية التي قدرت كلفتها بأربعمئة مليون دولار. وكان ذلك حدثاً باعثاً على السرور بين أوساط رجال الأعمال، فيما أعلن المدافعون عن البيئة وبعض قادة القبائل الأصلية بأن تشافيز خانهم.

لم يكد يمضي شهر واحد حتى وقعت أحداث هزت العالم على مسافة 3000 كيلومتر. فقد قام إرهابيون باختطاف عدد من الطائرات واصطدموا بمركز التجارة العالمي في نيويورك وبمبنى البنتاغون في واشنطن العاصمة. وكان لهذا الهجوم أثر عميق في العلاقات بين الولايات المتحدة وفنزويلا.

بعد مرور يومين على وقوع تلك الهجمات، أدان تشافيز في خطاب بُث في مختلف أرجاء البلاد تلك الأعمال الإرهابية، ودعا إلى الوقوف دقيقة صمت حداداً على الضحايا. لكنه حثّ في اليوم التالي الولايات المتحدة على عدم شنّ «أولى الحروب في القرن الحادي والعشرين» رداً على تلك الهجمات. وبعد مرور أسبوعين على ذلك التصريح، حثّ تشافيز قادة العالم على البحث عن مسببات الإرهاب بدلاً من مجرّد تعقّب الإرهابيين ومعاقبتهم.

كانت الولايات المتحدة تستعد بالطبع لشنّ أولى الحروب في القرن الحادي والعشرين. وفي 7 تشرين الأول، بدأت عمليات القصف في أفغانستان بعد أن رفضت حركة طالبان تسليم أسامة بن لادن. وقد حظيت الولايات المتحدة بدعم واسع لهذا العمل. لكنّ تشافيز شعر بالانزعاج من الأضرار الجانبية التي لحقت بالمدنيين نتيجة لعمليات القصف.

وفي 29 تشرين الأول، عاد إلى الظهور على شاشات التلفزيون مجدداً حاملاً صوراً فوتوغرافية لأطفال قُتلوا في أفغانستان. بدت على تشافيز علامات الاشمئزاز عندما قال: «يتعين علينا إيجاد حلول لمشكلات الإرهاب. يتعين علينا العثور على الإرهابيين». ثم خفض نبرة صوته وأضاف «لكن ليس بهذه الطريقة». وتوقف للحظة فيما كانت عدسة الكاميرا تركّز على الصور الفوتوغرافية المروّعة. ثم استأنف تشافيز حديثه بصوت هادئ وقال: «انظروا إلى هؤلاء الأطفال. بالأمس، كان هؤلاء الأطفال على قيد الحياة. كانوا يتناولون طعامهم مع والديهم عندما سقطت قنبلة عليهم. لا

يمكن تبرير هذا العمل، كما أنه لا يمكن تبرير الهجمات التي وقعت في نيويورك أيضاً. يتعين وقف أعمال القتل في أفغانستان... فأنتم لا تستطيعون محاربة الإرهاب بالإرهاب». ووصف حملة القصف التي تشنّها الولايات المتحدة بأنها «مذبحة تُرتكب بحق الأبرياء».

أثارت تلك التصريحات سخط الولايات المتحدة، ووصفت وزارة الخارجية تعليقات تشافيز بأنها «غير لائقة بالمطلق»، وعبّر الرئيس بوش عن أسفه لهذه التصريحات. وفي يوم الثلاثاء، أمرت الولايات المتحدة سفيرتها دونا هريناك بالعودة إلى واشنطن من أجل التشاور. وبعد ذلك بيومين، حاول تشافيز إصلاح الضرر فأكّد في برنامجه الإذاعي على أن تعليقاته أسيء فهمها وقال باللغة الإنكليزية: «أنا أريد أن أكون صديقكم».

لم تؤدّ تعليقاته الأخيرة إلى إصلاح الضرر. وقد شكّلت تلك الحادثة نقطة تحوّل في علاقته مع الولايات المتحدة. ففي نظر إدارة بوش، خرق تشافيز أحد المبادئ الرئيسية التي أعلن عنها الرئيس في الحرب على الإرهاب عندما قال «إما تكونون معنا، وإمّا تكونون مع الإرهابيين». حتى إن بعض مناصري تشافيز اشتكوا من أن تعليقاته لم تكن مناسبة، فعلّق العضو الجمهوري في الكونغرس عن ولاية كارولاينا الشمالية والذي استضاف تشافيز في حفلة شواء في بلدته، «شرحتُ له شعور الشعب الأميركي بأنه في حالة حرب. وقلت له بأنه ينبغي أن يتنبّه إلى ما يقوله».

أمضت هريناك أسبوعاً في واشنطن حيث عقد المسؤولون الأميركيون اجتماعات وأجروا مراجعة غير عادية شملت مختلف الوكالات للعلاقات الأميركية الفنزويلية. والتقى مسؤولون من وكالة الأمن القومي ووزارة الخارجية والبنتاغون في الفترة الواقعة بين يومي 5 و7 تشرين الثاني. وعندما عادت السفيرة هريناك إلى كاراكاس، طلبت الاجتماع مع تشافيز. وخلف أبواب مقفلة في قصر ميرافلوريس، بدأت بقراءة رسالة بعثتها واشنطن. واستناداً إلى رواية تشافيز، طلبت الرسالة من تشافيز التراجع بشكل علني ورسمي عن تصريحاته المتعلقة بعمليات القصف التي تتعرض لها أفغانستان. ووفقاً لرواية تشافيز، فقد عمد إلى مقاطعتها قبل أن تواصل هريناك قراءة الرسالة وقال: «أنتِ تتكلمين مع رئيس هذا البلد. وأنتِ سفيرة في بلدي، وقد تجاوزتِ حدودكِ. أرجو منكِ أن تغادري مكتبي حالاً». أصيبت هريناك بالذهول، فهي لم تتوقع مثل ردّ الفعل هذا على طلب تقدمت به أقوى دولة على وجه الأرض. قدّمت اعتذارها وسألت إن كان في مقدورها الانتهاء من قراءة الرسالة على الأقل. وافق تشافيز، ولكن الاجتماع انتهى ما إن فرغت من قراءتها.

من الواضح أن الحقبة التي كانت الولايات المتحدة تقول فيها: «انتبهوا إلى ما يفعله تشافيز لا إلى ما يقوله» قد انتهت. في الواقع، كان انتهاء تلك الحقبة أمراً محتماً منذ اليوم الذي دخل فيه بوش البيت الأبيض في كانون الثاني السابق. وقام حينها بترشيح

مؤقت لمهندس سياسة المشاركة، جون ميستو، كمبعوث أول له في أميركا اللاتينية، لكنه كان ينظر في الحقيقة إلى منفيّ كوبي متشدد ومحارب من حقبة الحرب الباردة حاز شهرة في الحروب التي اندلعت في أميركا الوسطى وبسبب فضيحة إيران-الكونترا في ثمانينيات القرن الماضي، وكان شغوفاً بفكرة الإطاحة بفيدل كاسترو، وكان يرى في هوغو تشافيز الخليفة البديهي لكاسترو.

بدأ أوتو ريتش (Otto Reich) العمل في السلك الحكومي منذ أواخر الثمانينيات بعد أن تكشفت فضيحة إيران-كونترا. كان مواطناً كوبياً سبق أن فرّ والده اليهودي من النمسا في العام 1938 هرباً من النازيين، ورأى شبيهاً لهتلر ينذر بالشرّ عندما تقلّد فيدل كاسترو زمام السلطة. وسرعان ما فرّت عائلة ريتش إلى الولايات المتحدة حيث كتب أوتو في النهاية أطروحة الماجستير عن السمات الشمولية في أنظمة الحكم الديكتاتورية.

كان لمؤهلاته بوصفه محافظاً متزمّتاً وناشطاً معادياً لكاسترو وللشيوعية دور كبير في حصوله على سلسلة من الوظائف في وزارة الخارجية في عهد الرئيس رونالد ريغن. خدم ريتش في الفترة الواقعة بين عامي 1983 و1986، في ذروة الحروب التي كانت ترعاها الولايات المتحدة في أميركا الوسطى، كرئيس لمكتب الدبلوماسية العامة. أنشئ هذا المكتب في العام 1983 للردّ على الانتقادات العنيفة التي كانت توجَّه إلى سياسات ريغن في أميركا الوسطى. وقد وصفت إحدى الصحف الأميركية هذا المكتب بأنه «جهاز لبثّ الدعاية والمعلومات المضللة». كانت مهمة هذا المكتب «إلصاق قبعات سوداء برؤوس اليساريين الساندينستيين وإلصاق القبعات البيضاء» برؤوس ثوار الكونترا الذين أوجدتهم الولايات المتحدة، وكانوا عبارة عن جيش من العصابات التي تسعى إلى الإطاحة بالحكومة اليسارية في نيكاراغوا، والتي ارتكبت العديد من جرائم الاغتصاب، والقتل والسلب في سياق ذلك.

كان المكتب تابعاً لوزارة الخارجية من الناحية الرسمية، ولكنه كان يرفع تقاريره في الحقيقة إلى مجلس الأمن القومي حيث كان المقدّم أوليفر نورثيدير يدير برنامجاً سرّياً معادياً للساندينستيين رتّب أمر صفقة الأسلحة السرّية التي حصلت عليها إيران وحوّل عائداتها إلى الكونترا بغرض التحايل على تعديل بولاند الذي يحظر تقديم المساعدات المالية الأميركية إلى الثوار المنتمين إلى الجناح اليميني. ترك ريتش العمل في مكتب الدبلوماسية العامة في العام 1986 أي وقت تفجّر فضيحة إيران-الكونترا. أرسله ريغن إلى فنزويلا كسفير للولايات المتحدة هناك. وعلى الرغم من أنه لم يُدَن بمخالفة القانون، لكن المراقب العام التابع لوزارة العدل وجد أن مكتبه متورّط في «نشاطات دعائية سرّية محظورة».

بقي ريتش في فنزويلا طوال الفترة الممتدة بين تنصيب كارلوس أندرياس بيريز وأحداث الشغب التي عُرفت باسم كركازو والتي اندلعت في شباط 1989 والتي شهدت

عمليات قتل واسعة. وبعد ذلك، ترك منصبه الحكومي ليعمل على حشد الدعم للشركات الأميركيـة، بمـا فـي ذلك شركة باكاردي مارتينـي التي تصنّع مشروبات الرام - التي دفعت له مبلغاً فاق 600000 دولار - وشركة تصنيع الأسلحة لوكهيد مارتن. كان لكلتا الشركتيـن مصالـح تجاريـة فـي أميركا اللاتينية. كما أن الجـدل بقي يثار حوله بسبب مساعدتـه المزعومـة عندمـا كان يعمـل سفيراً على منح إرهابـيّ اسمه أورلاندو بوش تأشيرة دخول للولايات المتحدة. ساعد بوش، الذي عمل في السابق كطبيب أطفال، على التخطيط لتفجير طائرة ركاب كوبية في العام 1973 مما أدّى إلى مقتل الركاب الثلاثـة والسبعيـن كافـة الذيـن كانوا على متنها. وكان يقبع في سجن في فنزويلا وهو البلد الذي أقلعت منه الطائرة.

فـي آذار 2001، اقتـرح جـورج دبليـو بوشـ اسم ريتش ليكـون مساعد وزير الخارجيـة لشـؤون نصـف الكـرة الجنوبية؛ المسؤول رقم واحـد في وزارة الخارجية في شؤون أميركا اللاتينية. وكان وقع الصدمة شديداً على شخصيات بارزة في الحزب الديمقراطـي، وعلـى الجماعـات المدافعة عن حقوق الإنسان، وعلى المنظمات التقدمية التي تدافع عن مصالح أميركا اللاتينية. فقد كانوا يرون في ريتش شخصاً خارجاً عن السيطرة ومصدراً للإحراج. ورأى العديد من المراقبين في اقتراح هذا التعيين مكافأة للكوبيين المقيمين في ميامي على مساعدتهم لبوش على الوصول إلى سدّة الرئاسة.

رفض السيناتور كريستوفر دود، وهو ديمقراطي من كونكتيكوت ومتطوع سابق فـي فيلـق السـلام في جمهوريـة الدومينكان ورئيس لجنة العلاقـات الخارجية الفرعية الخاصـة بنصـف الكـرة الجنوبـي والتابعة لمجلس الشيوخ، السمـاح للجنة بمنح ريتش جلسـة استمـاع للمصادقـة علـى ترشيحه. وفي هذه الأثنـاء، تخلّى ريتش عن عمليات حشـد الدعـم وانتقـل إلـى العمل في وزارة الخارجية مـن دون راتب. استمرّت حالة المراوحة قريباً من سنة. أخيراً، استخدم بوش في كانون الثاني 2002 حقّه الدستوري «بمـلء الشواغـر فـي أثنـاء عطلـة مجلس الشيوخ» في الفترة التي لم يكن فيها المجلس يعقد جلساته من أجل الالتفاف على السيناتور دود وحلفائه ومنح ريتش فرصة تعيينه في المنصب لمدة سنة واحدة.

سُـرّت الجاليـة الكوبيـة المنفيـة المقيمـة فـي ميامي بهذا التعييـن. ففي وقت كان كاستـرو لا يـزال يمسـك بالسلطـة في كوبا، وفيما كان تشافيز، الشخصية المرعية من قبل كاسترو، يحكم قبضته على فنزويلا، وفيما تزايدت فرص انتخاب الزعيم العمالي اليساري السابق لويز إناسيو لولا دا سيلفا رئيساً في البرازيل في تشرين الأول، وفيما كانـت الأرجنتيـن تعانـي مـن انهيـار مالي بعد تخلّفها عن سدّ ديونهـا الخارجية البالغة 312 مليار دولار، بدا ريتش المرشّح المثالي لعكس اتجاه - أو على الأقل إبطاء - المدّ المتصاعـد للسياسييـن اليسارييـن فـي أميـركا اللاتينية. وعلّقـت العضو الجمهوري في الكونغرسـ عـن ولايـة فلوريـدا، إلينا روزليهتين، المدافعة عـن قضايا الجالية الكوبية

المنفيــة، بالقــول: «أميــركا الجنوبيــة تحترق، ونحن ننظــر في الاتجاه الآخر. سيكون أوتو عامل إطفاء حرائق ممتازاً».

لـم يكـن ريتش عامـل إطفاء الحرائق الوحيد الذي أعـاده بوش إلى السلطة من بيـن جماعـة إيران-كونتـرا المخزية. كان الرجل الآخر إليوت أبرامز، مساعد وزير الخارجية لشؤون أميركا اللاتينية في إدارة رونالد ريغن، وأحد المصممين الرئيسيين للحـروب القـذرة التـي كانت الولايـات المتحدة تشنّها في أميركا الوسطى في ثمانينيات القـرن الماضـي، ولاعـب أساسي في فضيحة إيران-كونترا. وصفه كاتب مقالات في إحدى الصحف «بالسياسي العدواني» الذي يرفع شعار «الموت أفضل من الشيوعية» الـذي تبنّتـه الإدارة فـي أميـركا الوسطـى، «وبحـالات ظهوره الغاضبـة في جلسات الاستمـاع [التـي تعقدهـا لجان الكونغرس]، وبدفاعه عن فرق الموت والديكتاتوريين، وإنكاره وقوع المجازر، والكذب بشأن نشاطات أميركية غير قانونية هدفت إلى دعم ثوار كونترا النيكاراغويين».

دافـع أبرامـز باستماتـة عـن الدعم الذي قدمته الولايـات المتحدة لحكومة «فرق الموت» في السلفادور، حيث كان الجنود والقوات شبه العسكرية تقطع رؤوس ضحاياها غالبـاً وتعلّقهـا علـى أعمدة الأسياج بقصـد إخافة الشعب. خلّفت الحرب خمسة وسبعين ألـف قتيـل، وكان أغلبهـم مـن ضحايـا الجيشـ أو فرق الموت التـي موّلتها الولايات المتحدة.

سعـى أبرامـز، إلـى جانـب مسؤولين أميركييـن آخرين، إلى التّعتيـم عن أسوأ مجـزرة ارتُكبـت فـي الحـرب. ففي كانـون الأول 1981، حاصر جنود سلفادوريون مـن فـرق النخبـة التـي درّبتها الولايات المتحدة قرية جبلية منعزلة تدعى إل موزوتي وقتلـوا نحـواً مـن ألـف امرأة وطفل ورجل مسنّ. وألقوا الأطفال في الهواء وطعنوهم بحراب البنادق. واغتصبوا الفتيات المراهقات قبل قتلهن. وأجبروا بعض الرجال على دخـول دار عبـادة ثـم أضرمـوا فيها النار. وبعد مرور أقل من شهرين، وتحديداً في 8 شباط 1982، وصف أبرامز للجنة تابعة لمجلس الشيوخ القصص التي وصفت تلك المجـزرة وتصـدّرت الصفحـات الأولى في صحيفتي ذي نيويـورك تايمز والواشنطن بوست «بأنها غير جديرة بالثقة». وأشار إلى أن هذه التقارير ممارسات دعائية يقوم بها رجال العصابات اليساريون لكسب التعاطف.

صرّح أبرامز ذات مرّة بأن «سجلّ الإدارة في السلفادور من أروع الإنجازات». وقال إن الولايات المتحدة تحارب الشيوعية.

عمل أبرامز عن قرب مع أوليفر نورثيدير في الإشراف على العمليات الهجومية التي كانت تقوم بها كونترا في نيكارغوا. وقال مراراً وتكراراً للكونغرس بأنه لا يعرف شيئاً عن إرسال أسلحة إلى إيران وتحويل أرباح تلك الصفقات إلى ثوار كونترا. وفي العام 1991، أقرّ بأنه مذنب بتضليله الكونغرس مرّتين. لكن الرئيس جورج بوش الأب

عفا في أيامه الأخيرة في البيت الأبيض عن أبرامز عشية الميلاد في العام 1992.

كان شخصاً موصوماً بالعار، لكن ذلك لم يمنع بوش الابن من إعادته إلى العمل الحكومي وإسناد منصب رفيع إليه. وبعد مرور شهور قليلة على تشكيل الإدارة، قام بوش بتوظيفه في مجلس الأمن القومي، حيث كانت وظيفته الترويج للديمقراطية ولحقوق الإنسان في العالم أجمع. وأشارت صحيفة نيوزداي إلى أن «هذا التعيين تم بقرار حازم، علماً بأن إسناد هذا المنصب لشخص لا يتطلب موافقة مجلس الشيوخ. وكل ما يلزم لإتمامه هو رئيس لديه استعداد لتعيين مجرم مدان وكاذب غير تائب في منصب عام رفيع المستوى».

أشرف على جمع فريق الأشرار العائدين من حقبة إيران-كونترا رجل يدعى جون دي نيغْروبنتي، وهو الشخص الذي رشّحه بوش لكي يخدم كسفير للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة. بعث بوش باسم نيغْروبنتي في آذار 2001، وبعد مرور ستة شهور، كان لا يزال يتلمّس موافقة إحدى اللجان التابعة للكونغرس لأن الأسئلة بدأت تثار حول ماضي نيغْروبنتي عندما كان سفيراً لدى هندوراس في الفترة الواقعة بين عامي 1981 و1985.

وفّرت الولايات المتحدة في فترة ثمانينيات القرن الماضي برامج تمويلية وتدريبية مكثفة للجيش في الهندوراس خدمت كقاعدة أساسية لثوار كونترا الذين كانوا يهاجمون حكومة نيكاراغوا. ووفّرت وكالة الاستخبارات المركزية التدريب لوحدة سرّية على الخصوص عُرفت باسم الكتيبة 316 التي زُعم بأنها خطفت وعذّبت وقتلت المتعاطفين مع الجناح اليساري بمن فيهم مواطن أميركي واحد يدعى جوزيف كارني. ودفنوا جثث بعض الضحايا في قبور سرّية وزُعم بأنهم قذفوا آخرين من الطائرات. وفي العام 1995 كشف تحقيق قامت به ذي بولتيمور صن والذي نال جائزة بولتزر عن النشاطات التي يقوم بها الجيش والكتيبة 316.

أكدت صحيفة الصن أنه يتعين أن يكون نيغْروبنتي، بوصفه سفير الولايات المتحدة المتمتع بصلاحيات كاملة، على علم بهذه الانتهاكات. لكن الصحيفة قالت بأنه حاول إخفاء الأدلة التي تشير إليها. فلو تبين أن هندوراس دولة تنتهك حقوق الإنسان، فلن تكون مؤهلة للحصول على مساعدات عسكرية من الولايات المتحدة. وإذا لم تحصل على تلك المساعدات، فلن تتمكن من توفير قاعدة انطلاق لثوار كونترا.

لكن الجدل الدائر بشأن ماضي نيغْروبنتي في أميركا الوسطى طواه النسيان بسرعة عندما وقعت الهجمات الإرهابية في 11 أيلول 2001. وبعدها بثلاثة أيام، وافق مجلس الشيوخ بهدوء على تعيينه سفيراً لدى الأمم المتحدة. وكتب المحرر فرانك ديل أولمو في صحيفة لوس أنجلوس تايمز، «بوضع نيغْروبنتي في منصب رئيسي على علاقة بالسياسة الخارجية، يكون بوش قد كافأ دبلوماسياً أميركياً يعتبره العديد من أبناء أميركا اللاتينية إرهابياً، وإن يكن حسن التنشئة وأحد خرّيجي الجامعات المرموقة».

لـم يقـم بوشـ ببساطة بتعيين متعاطفين مع كونترا في المناصب الحكومية الرفيعة وحسب، بل عيّن عضواً حقيقياً في كونترا. فقد عمل روجيليو باردو موريير عن قرب مع القيادة السياسية للكونترا في أثناء الثمانينيات ، وخدم كرئيس فريق في مكتب أسسته الحركة في واشنطن العاصمة. وقد رشّحه بوش لمنصب مساعد وزير الدفاع لشؤون القارّتين الأميركيتين، وهو ما جعله المسؤول الأول في البنتاغون في ما يختص بشؤون أميركا اللاتينية. كان نسخة مطابقة عن أوتو ريتش في الجيش الأميركي.

في أواخر العام 2001 وفي مستهل العام 2002، كان المرشح الذي اختاره بوش للحلول محل هريناك كسفير لدى فنزويلا، وهو تشارلز شابيرو، لا يزال في انتظار تأكيد تعيينه في الأروقة. خدم شابيرو، وهو من مواطني أغوستا بولاية جورجيا، في سفارة الولايات المتحدة لدى السلفادور كمسؤول سياسي بين عامي 1985 و1988. وفي مرحلـة معينـة فـي العـام 1986، شهد في محكمة الولاية في لوس أنجلوس مدافعاً عن السياسات الأميركية في السلفادور في مواجهة قضية رفعها مهاجرون كانوا يسعون إلى الحصول على اللجوء السياسي. رفضت الولايات المتحدة طلبات الحصول على اللجوء السياسي كافّةً والتي تقدم بها لاجئون سلفادوريون. ويرجع سبب هذا الرفض إلى أنها فـي حـال قبلـت بتلـك الطلبات، تكون قد اعترفت من الناحية العملية بأن الحكومة التي تدعمها في السلفادور بمبلغ مليون دولار في اليوم غارقة في حرب قذرة تنتهك فيها حقـوق الإنسـان. وبعـد أن يشجبـوا الحكومةَ السلفادورية في الولايات المتحدة، يواجه اللاجئـون السلفادوريـون الذيـن خسروا دعاوى اللجوء السياسي استقبالاً أقل من ودّي بعد أن يتم ترحيلهم إلى بلادهم.

بعد انقضاء عقد من الزمان على مغادرة شابيرو للسلفادور، قامت إدارة كلينتون بتعيينـه رئيساً لمكتـب كوبـا في وزارة الخارجية في العام 1999، حيث واصل انتهاج سياسـة الولايـات المتحـدة الهادفة إلـى إضعاف فيدل كاسترو. وفي حال تأكد ترشيحه لمنصبه الجديد في فنزويلا، سيرفع شابيرو تقاريره إلى أوتو ريتش مباشرة.

كانـت عـودة جماعـة إيران-كونتـرا إلـى واشنطن باعثة علـى الصدمة والنفور فـي نفوسـ الكثيـر مـن أعضاء الكونغرسـ ذوي الميول اليساريـة، ورعاة الكنائس، والمجموعـات السياسيـة الأميركيـة اللاتينية، ناهيك عن أبناء أميـركا اللاتينية أنفسهم. وقـال بيتـر كورنبلـو الـذي يعمل فـي أرشيفات الأمن القومي، وهـو متعهّد بحثي في واشنطن العاصمة متخصص في رفع السرّية عن الوثائق الحكومية، «لا يمكن وصف عـودة مرتكبـي فضيحـة إيران-كونتـرا بأقـل من كونها عودة المؤمنيـن بالشمولية في هـذه الإدارة. هـذه ليسـت تعيينات من واقع القرن الحادي والعشرين، ولكنها تعيينات رجعية، وردّة إلى حقبة النزعة التدخلية عندما كانت الولايات المتحدة المستأسد الكبير في المنطقة».

قال روبرت وايت، الذي خدم سفيراً للولايات المتحدة لدى السلفادور في مطلع

ثمانينيات القرن الماضي وراقب بوجه عابس جثث الراهبات الأميركيات الأربع في أثناء سحبها من قبورها السرّية: «لا يوجد قائد ديمقراطي واحد في أميركا اللاتينية لا يرفض أو يستنكر بشدّة الدور الذي لعبته حكومتنا في أميركا الوسطى خلال الثمانينيات. إن اختيار رجال من أمثال إليوت أبرامز وأوتو رايش يعدّ إهانة». مضت مجموعة مراقبة وسائل الإعلام، فير، إلى حدّ القول بأن «أيدي نيغروبنتي وأبرامز ملطخة بالدماء». وأعلنت فير بأن «ماضي ريتش ملطخ بالسواد. لقد تعامل نيغروبنتي وأبرامز باللين مع مرتكبي عمليات التعذيب، ووفرا الحماية لفرق الموت، وساعدا على قتل المزارعين في أميركا الوسطى. لقد تلاعب ريتش بوسائل الإعلام».

بدأت الولايات المتحدة تلعب دوراً سرّياً في صياغة الأحداث في فنزويلا حتى قبل أن يتولّى ريتش منصبه بشكل رسمي في كانون الثاني 2002. فمع اقتراب العام 2001 من نهايته، بدأ موكب من السياسيين ورجال الأعمال والصحافيين والضباط العسكريين الفنزويليين المعارضين لتشافيز بزيارة واشنطن العاصمة، والسفارة الأميركية في كاراكاس للاجتماع بالمسؤولين الأميركيين. وفي هذا السياق، التقى أحد الجنرالات الفنزويليين، ويدعى لوكاس روميرو رينكون، ورئيس أركان الجيش الفنزويلي بياردو مورير في 18 كانون الأول 2001 في واشنطن. ومن الزوار الآخرين رجل أعمال صغير يدعى بيدرو كارمونا. كان رئيس غرفة التجارة الوطنية، فيديكمارس، في فنزويلا. وقد التقى برفقة سبعة من رجال الأعمال الآخرين بريتش، وميستو، ومسؤولين آخرين في تشرين الثاني. أصرّ كارمونا على أن يُناقش في اللقاء موضوع فنزويلا ضمن مجموعة من الدول الأندية التي تحظى بمعاملة تجارية تفضيلية. وادّعى آخرون بأنه كان للرحلات التي قام بها هؤلاء الفنزويليون غاية أخرى وهي معرفة رأي الولايات المتحدة بشأن دعم انقلاب عسكري. وادّعى مسؤولون أميركيون في وقت لاحق بأنهم «عبّروا بوضوح تام وبشكل متكرر لقادة المعارضة بأن الولايات المتحدة لن تدعم انقلاباً عسكرياً»، وذلك وفقاً لما ورد على لسان المتحدث باسم البيت الأبيض آري فلايشر. لكنّ مسؤولاً في وزارة الدفاع تحدث عن رواية أخرى، فقال لصحيفة ذي نيويورك تايمز بأننا «لم نكن نعيق هؤلاء الأشخاص، ولكن كنا نطلق إشارات مهذبة بأننا لا نحبّ هذا الرجل».

في الوقت نفسه تقريباً، سافر بيدرو كارمونا إلى واشنطن للاجتماع بريتش وآخرين. وفي كاراكاس، قامت السفيرة اللطيفة دونا هريناك بخطوة غير عادية عندما أمرت الملحق العسكري في السفارة بوقف لقاءاته المتكررة مع الضباط العسكريين الفنزويليين المنشقّين. كان أحد هؤلاء الضباط، ويدعى العميد البحري كارلوس تامايو مولينا، وهو معارض بارز لتشافيز يفكر في تنظيم انقلاب عسكري. وفسّر مسؤول في وزارة الخارجية في وقت لاحق ذلك الأمر بأن هريناك منعت اللقاءات لأن المسؤولين في الولايات المتحدة عرفوا أن الاتصالات التي كان يجريها الملحق العسكري «تضمنت

القيام بنشاطات غير قانونية أو ما يمكن أن يكون نشاطات غير قانونية».

في حين كان المسؤولون الأميركيون يلتقون بهدوء بمنتقدي تشافيز، كانت حكومة الولايات المتحدة والوكالات المتحالفة معها تضخّ أيضاً مئات الآلاف من الدولارات لتمويل المنظمات التي تعارضه. إحدى هذه المجموعات كانت جمعية التعليم التي يترأسها ليوناردو كارفيال. كان سيتزعّم الحركات المناوئة للإصلاحات التعليمية والمظاهرات الكبيرة التي سارت في الشوارع ضدّ تشافيز. كانت القناة الرئيسية لإيصال المال إليه وإلى المنظمات المعارضة الأخرى مؤسسة تدعى المنحة الوطنية من أجل الديمقراطية (NED).

سعت وكالة الاستخبارات المركزية على مدة عدة عقود إلى التأثير في الأحداث التي تقع في البلدان الأجنبية ودفعها في اتجاهات ترى أنها مواتية للولايات المتحدة؛ وعلى وجه التحديد، استباق الحركات والحكومات الراديكالية بما يصبّ في مصلحة حكومات أكثر اعتدالاً وتأييداً للسوق الحرّة. وبناء على ذلك، دعمت سرّاً أحزاباً سياسية ونقابات وصحفاً يومية ودور نشر الكتب وجماعات طالبية ومنظمات مدنية في مختلف أنحاء العالم. لكن في منتصف سبعينيات القرن العشرين، تفجّرت فضيحة عندما كشفت تحقيقات أجراها الكونغرس بما في ذلك التحقيق الذي أجرته لجنة تشيرش التابعة لمجلس الشيوخ (التي حققت في العمليات الحكومية المرتبطة بالنشاطات الاستخبارية) ومنشقّين عن الوكالة مثل فيليب أغري عن أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تستخدم أيضاً تقنيات أخرى لصياغة الأحداث العالمية. تضمنت تلك التقنيات تنفيذ عمليات اغتيال، وعمليات تخريبية تطال الاقتصاد، وتنظيم انقلابات عسكرية، وتنصيب حكام ديكتاتوريين. وعلى سبيل المثال، أشرفت وكالة الاستخبارات المركزية في العام 1954 على تنظيم عملية انقلابية أدت إلى الإطاحة بالحكومة الإصلاحية المنتخبة ديمقراطياً والتي كان يترأسها جاكوبو أربينز في غواتيمالا، ودعمت في العام 1973 انقلاباً عسكرياً أدى إلى إسقاط سلفادور أليندي في التشيلي، وهو أول رئيس ماركسي يُنتخب بطريقة ديمقراطية في نصف الكرة الجنوبي.

سرّعت الفضائح التي ثارت في سبعينيات القرن العشرين بحثاً قام به صنّاع السياسة في واشنطن للتوصل إلى طريقة لتنفيذ بعض الأعمال السياسية نفسها التي كانت تنفّذها عناصر من وكالة الاستخبارات المركزية لكن من غير أن يُفتضح أمرهم. وكان الجواب في NED (المنحة الوطنية من أجل الديمقراطية). كان الغرض من هذه المؤسسة القيام في العلن بما اعتادت وكالة الاستخبارات المركزية القيام به في السرّ. واستناداً إلى كورنبلو، وهو خبير في النشاطات السرّية الأميركية، «أُنشئت NED لدعم النشاطات التي تقوم بها وكالة الاستخبارات المركزية». وفي مقابلة أجريت في 22 أيلول 1991 مع صحيفة ذي واشنطن بوست، قال ألين وينستاين، الذي ساعد على صياغة تشريع يمهد لتشكيل NED والذي كان أول رئيس مؤقت للمجموعة: «هناك الكثير من الأعمال

التي نقوم بها اليوم كانت تقوم بها وكالة الاستخبارات المركزية في السرّ قبل خمسة وعشرين عاماً». كانت المهمة المعلَن عنها NED الترويج للديمقراطية، لكن مهمتها النهائية كانت الترويج لمصالح الولايات المتحدة في الخارج؛ والتي قد تتطابق أو لا تتطابق مع السعي إلى الترويج للديمقراطية. هناك بعض من الأعمال التي تقوم بها المؤسسة والتي تستحقّ الثناء عليها، مثل دعمها لحركة التضامن بقيادة ليش فاليسا في بولندا في ثمانينيات القرن العشرين. لكن هناك مشاريع تقوم بها المؤسسة وتطرح علامات استفهام كبيرة.

أنشئت منظمة NED في العام 1983 عندما كانت الحملة المعادية للشيوعية التي شنّها ريغن في أميركا الوسطى في أوجها. كان ريغن داعماً رئيسياً للمنظمة، كما أصبح جورج دبليو بوش كذلك لاحقاً. كانت منظمة شبه حكومية من الناحية العملية. يقوم مجلس الكونغرس بضخ أمواله إلى NED عبر الوكالة الأميركية للمعلومات والوكالة الأميركية للتنمية الدولية، وكلتا الوكالتين تابعتان لوزارة الخارجية. وكان على نيد التقدم بمشاريع المنح إلى وزارة الخارجية للحصول على موافقتها. كما أنه غالباً ما تقوم السفارات الأميركية في الخارج بإدارة الأمور اللوجستية وتنسيق البرامج التي تشرف عليها نيد.

أحد النجاحات الرئيسية الأولى التي حققتها NED، كما بيّن ويليام آي روبنسون في كتابه **Faustian Bargain**، كان المساعدة على الإطاحة بالحكومة الساندينستية في نيكاراغوا. فخلال سنة واحدة، قامت بضخّ مبلغ هائل وصل إلى 10.5 مليون دولار على شكل منح إلى دولة صغيرة وفقيرة تضمّ ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة في أميركا الوسطى. وصلت تلك الأموال إلى المجموعات التي تعارض الساندينستيين. وبعد أن اعتراهم الضعف أصلاً بسبب مرور عقد تقريباً على عمليات تخريب الاقتصاد التي قادتها الولايات المتحدة وعلى اندلاع الحرب التي أشعلتها جبهة كونترا، خسرت الجبهة الساندينستية أمام المرشح المدعوم من الولايات المتحدة، ويدعى فيوليتا شامورو، في الانتخابات التي أجريت في العام 1990. في بلد بالكاد يساوي حجم اقتصاده حجمَ اقتصاد جزيرة رود أيلاند في الولايات المتحدة، أوجد التدخل العسكري والاقتصادي والسياسي الأميركي الضخم ساحة لعب مائلة بشدّة لم تترك للجبهة الساندينستية فرصة للنجاح.

بعد أن استلم ريتش والشخصيات الأخرى التي تعود إلى حقبة إيران-كونترا مناصبهم في مستهل العام 2002، لم يكن الفنزويليون أغلبهم على دراية بأن NED تتغلغل بسرعة في مجتمعهم بطريقة تعيد إلى الذاكرة تجربة نيكاراغوا. تسارعت المنح التي تقدمها المؤسسة بوتيرة عالية مع تزايد ارتياب وسطاء القوة الأميركية بتشافيز. ومع نهاية العام 2001 وبدء العام 2002، كان حجم الأموال قد تضاعف أربع مرّات ليصل إلى 877000 دولار. وقد وصلت هذه الأموال بأغلبها إلى منظمات المجتمع

المدنـي المعارضـة لتشافيـز، بما في ذلك منظمة تدعـى سومايت (التحق بنا). حصلت رئيستهـا ماريـا كورينـا ماشـادو، وهي امرأة غاية فـي الأناقة وتتكلم الإنكليزية وسبق أن تلقـت تعليمهـا فـي مدرسـة داخليـة خاصة في ويليزلي بولايـة ماساشوستس، على مقابلـة فـي البيـت الأبيضـ مع الرئيس جورج دبليو بوشـ، وهو أمر لم يحصل عليه تشافيز نفسه.

لم يدرك تشافيز وأغلب أبناء البلاد مدى تدخل NED في شؤونهم إلاّ في العام 2004 بعد أن طالبت محامية أميركية من أصل فنزويلي تعمل في بروكلين وصحافي مشهور يعمل في واشنطن العاصمة بتطبيق مرسوم حرّية المعلومات لإرغام NED على نشـر تفاصيـل العمليـات التـي تقوم بها في فنزويلا. وقد أطلقت المعلومات التي تكشفت موجـة غضـب عارمـة لـدى تشافيز ومناصريه. وأصبح الكتـاب الذي قامت المحامية بتأليفه عن NED متوفراً في كل مكان على منصات الصحف المنتشرة على الأرصفة، وأصبحت مؤلفته إيفا غولينغر شخصية محببة ومشهورة في ثورة تشافيز.

مـع اقتـراب العـام 2001 مـن نهايتـه، رفـع تشافيز من وتيـرة نشاطات ثورته البوليفاريـة ممـا أصـاب المعارضة بنوبة من الجنون. ولغاية ذلك التاريخ، كانت أكثر الخطـوات التـي يقـوم بهـا تشافيز تهدف إلى تفكيك المؤسسة السياسية الفاسدة. فبعد أن اختفـت الأحـزاب التقليديـة، تحـوّل إلى تطبيق سلسلة من الإصلاحـات التي استهدفت كل شـيء بـدءاً بصناعـة النفط وانتهاءً بصناعة صيد الأسماك. باستخدام قانون التمكين في 13 تشرين الثاني والذي كانت مدته توشك على أن تنتهي، أصدر تسعة وأربعين مرسوماً.

تناولت هذه المراسيم كل شيء من إلزام المصارف بتقديم بعض القروض لصغار المزارعين إلى توسيع مساحة المنطقة التي يُحظر فيها ممارسة نشاطات الصيد الصناعي من خمسة إلى عشرة كيلومترات قبالة الشاطئ لحماية مصالح صغار الصيادين ولحماية البيئـة. هدفـت تلـك التدابيـر بوجـه عام إلى تعزيز برنامجـه الإصلاحي للمرة الأولى وطرحـه علـى شـكل قانـون يصبّ في مصلحة الغالبية الفقيرة. وبذلك كانت بمثابة تحدّ مباشر للنخبة في البلاد.

أطلـق مرسومـان علـى وجه التحديد عاصفة من الاحتجاجات. استهدف المرسوم الأول الصناعة النفطية. وكان تشافيز قد بدأ باستعادة السيطرة على شركة بيتروليوس دي فنزويلا العامة التي تحتكر صناعة النفط التي كانت، على حدّ وصفه دولة داخل دولة يرى أنها تبيع أضخم شركة في أميركا اللاتينية إلى المصالح الأجنبية وإلى نخبة محلّيـة. فـي هـذا السيـاق، أجرى مراجعة للعمليات التي انتهكت فيها الشركة الحصص التـي حددتهـا لهـا منظمـة أوبك، كما لعب دوراً رائداً فـي تنشيط المنظمة. وهو يريد الآن إكمال ما بدأه من إصلاحات.

ضمِن القانون الجديد حصول شركة بيتروليوس دي فنزويلا على حصة لا تقل

عن 51 في المئة – وبالتالي ضمن لها امتلاك السيطرة – في المشاريع المشتركة التي تنفذها مع شركات النفط الأجنبية. كما رفع معدلات عائدات منح الامتيازات من 16.7 في المئة إلى 30 في المئة. ومن أجل التعويض عن هذه الزيادة، ستقوم الحكومة بتخفيض معدلات ضريبة الدخل من 67.7 في المئة إلى 50 في المئة. وبالإضافة إلى ذلك، عزز القانون حظر خصخصة الشركة في الدستور الجديد.

وصف النقاد، بمن فيهم الرئيس السابق لشركة بيتروليوس دي فنزويلا لويس غويستي وقسم العلاقات العامة الثري في الشركة، هذا الإجراء بأنه خطوة أخرى نحو تدمير شركة نموذجية وتنفير المستثمرين الأجانب. وتجادل آخرون حول المرسوم فقالوا بأن الشركة في الواقع هي إحدى أقل الشركات النفطية كفاءة. فالشركة تدفع تكاليف استخراج برميل واحد من النفط تفوق التكاليف التي تدفعها الشركات النفطية الرئيسية الأخرى، مثل إكسون موبل أو شل أو تشيفرون أو تكساكو، بمقدار ثلاثة أضعاف تقريباً وذلك استناداً إلى تصنيف أعدته مجلة أميركا إكونوميكا. كما أن شركة بيتروليوس دي فنزويلا استخدمت أسعار التحويل إلى الشركات التابعة لها والتي تعمل خارج البلاد لكي تخفض الضرائب التي تدفعها للدولة الفنزويلية. وبناء على ذلك، تراجع مستوى سعر التحويل من 71 سنتاً مقابل كل دولار من المال المكتسَب في العام 1981 إلى 39 سنتاً بحلول العام 2000.

المرسوم الآخر الذي أثار غضب المعارضة تمحور حول الإصلاح الزراعي. ولا يمكن لأحد أن يجادل بجدّية في أنه لم تكن هناك حاجة إلى إصلاح زراعي. فهناك نسبة تتراوح ما بين 1 و2 في المئة من ملاك الأراضي يملكون 60 في المئة من الأراضي الصالحة للزراعة. وقد حصل العديد من هؤلاء على تلك الأراضي عبر الفساد وبسبب عدم وجود سندات ملكية. والأهم من ذلك كله أنهم لا يستغلّونها. واشتكى تشافيز من أنه يوجد مليونا مزارع لا يملكون أراضٍ زراعية ويعيشون في فقر مدقع، في حين أنه يوجد نسبة كبيرة من الأراضي الداخلية المُراحة فيما يعيش مالكوها في كاراكاس.

كما جادل بأن فنزويلا بحاجة إلى تحقيق الأمن الغذائي الوطني عبر إنتاج أغلب طعامها. وفي هذا الصدد، نشير إلى أن فنزويلا تستورد نحواً من 70 في المئة من طعامها من الخارج. أي أنها كانت المستورد الصافي الوحيد في أميركا الجنوبية. وكان أغلب سكانها قد انتقلوا خلال العقود الأربعة الماضية من الأرياف إلى المدن، بحيث باتت هذه المدن تستوعب حالياً 87 في المئة من السكان، مما يعني انقلاب النسبة التي كانت سائدة في السابق تقريباً. وخلال الفترة الواقعة ما بين عامي 1960 و1999، انخفضت حصة الزراعة من الناتج المحلّي الإجمالي من 50 إلى 6 في المئة؛ وهو أدنى معدل في أميركا اللاتينية.

يُذكر أن آخر محاولة للإصلاح الزراعي، في العام 1966، أفضت إلى كارثة.

فقد أعطت الحكومة 113910 كيلومترات مربعة للفلاحين، لكنها لم توفر لهم الوسائل لاستغلال هذه الأراضي. وانتهى أغلبها في نهاية المطاف في أيدي ملاك الأراضي الكبار.

أراد تشافيز أن يصحح الخلل الفاحش في توزيع الأراضي، فاقترح تحديد المساحة القانونية للمزارع بين مئة هكتار وخمسة آلاف هكتار، وفقاً لإنتاجية الأرض. وللمساعدة على اقتطاع أجزاء من الأراضي الكبيرة غير المستغلّة أو تحويلها إلى أراضٍ منتجة، أراد أن يفرض ضريبة خاصة على المزارع التي تبلغ نسبة الأراضي غير المستغلّة فيها 80 في المئة. واقترح توزيع الأراضي غير المستغلة، والتي تملكها الحكومة بالدرجة الأولى، على عائلات المزارعين وعلى التعاونيات الزراعية. وهذا التدبير سمح بمصادرة مساحات محدودة من الأراضي غير المزروعة والأراضي المُراحة من العقارات الخاصة الضخمة. لكن الحكومة لن تستحوذ سوى على قسم من الأراضي غير المستغلة، وفقاً لنوعيتها، وستقدم تعويضات لملاكها وفقاً لأسعار السوق المنصفة. وقد نصّ القانون بشكل واضح على أنه يحق لكبار ملاك الأراضي بوجه عام الاحتفاظ بأغلب أراضيهم.

لم تكن هذه الخطة جذرية مثل عمليات المصادرة الضخمة للأراضي التي قامت بها الثورتان الكوبية والمكسيكية. حتى إن البعض قارنها بمرسوم الأراضي الزراعية الذي أصدره أبرهام لينكولن في العام 1862 والذي ساعد على نشوء طبقة وسطى تعتمد على الزراعة ولعب دوراً هاماً في تطوير الديمقراطية في الولايات المتحدة. رأت الحكومة الفنزويلية أنها تستطيع تلبية معظم حاجات المزارعين من خلال توزيع الأراضي التي تملكها الدولة من غير أن تمسّ بالعديد من الأراضي التي تعود لملكيات خاصة.

لكنّ المرسوم أشعل ثورة بين أوساط ملاك الأراضي. واشتكى العديد منهم من أن الرئيس وصفهم على نحو غير منصف بأنهم لصوص عبر تشكيكه في سندات ملكية الأراضي التي بحوزتهم. وادّعوا بأن تصريحاته الاستفزازية تثير موجة من الغزوات من قبل من يودّون سرقة الأراضي بوضع أيديهم عليها. وانتابهم الذعر من أنهم سيخسرون سبل رزقهم. اعتقدوا أن الحكومة ستجبرهم على التخلّي عن عملهم المربح في تربية الأبقار الحلوب على سبيل المثال لأن التشريعات الجديدة اشترطت عليهم زراعة أشجار موز في معظم أراضيهم الخصبة. وادّعى آخرون بأنه يمكن حتى مصادرة العقارات المنتجة ووصفوا البرنامج بأنه خطر على الملكية الخاصة ورِدّة إلى الاقتصادات التي تتّبع النمط الشيوعي.

أعلن تشافيز عن بدء العمل بالبرنامج في احتفال ضخم في 10 كانون الأول، في الذكرى السنوية لمعركة إزيكويل زامورا الشهيرة التي دارت في سانتا إينيز في العام 1859. سافر تشافيز إلى تلك البقعة التي دارت فيها رحى المعركة في باريناس

للاحتفال ببدء العمل بالبرنامج بشكل رسمي.

لم يستغرق الأمر كثيراً لكي تندلع أعمال العنف. فاشتكى ملاك الأراضي في المنطقة الحدودية من أن الحكومة لا توفر الحماية لهم من الثوار الكولومبيين ومن الغزاة الفلاحين. ولذلك قاموا بتشكيل ميليشيات خاصة أفيد بأن عناصرها تدرّبت على يد المنظمات شبه العسكرية اليمينية الدموية. ولم يمضِ وقت طويل على تشكيل هذه الميليشيات حتى بدأت باغتيال الناشطين في برنامج الإصلاح الزراعي. وقد قُتل أحد هؤلاء، ويدعى لويس مورا، بعد شهر من إعلان تشافيز. توجّه اثنان بسيارتهما إلى منزله في مقاطعة ميريدا الريفية، وشهرا مسدّسيهما، وأطلقا النار عليه على مرأى من ولديه الصغيرين. وقدّر معهد الأراضي الوطني الحكومي بأنه جرت تصفية خمسين من القادة الشعبيين الآخرين في السنة التالية. وبحلول أواسط العام 2005، وصل هذا العدد إلى 130 شخصاً على أقل تقدير.

على الرغم من أعمال العنف، تسارعت وتيرة برنامج إصلاح الأراضي. وبحلول مطلع العام 2005، كانت الحكومة قد وزعت 2.2 مليون هكتار من الأراضي غير المستغلّة والتي تعود ملكيتها إلى الدولة على 130000 عائلة. لم تتم مصادرة أي ملكيات خاصة، على الرغم من أنه ستظهر حالات معدودة مثيرة للجدل تشير إلى حدوث ذلك. وبخصوص هذا البرنامج، أشار بيتر روزيت، وهو منسّق معهد الغذاء وسياسات التنمية الفكري في سان فرانسيسكو وخبير في برامج الإصلاح الزراعي، إلى أن مبادرة فنزويلا غير عادية، وأضاف: «فنزويلا الآن لديها البرنامج الحكومي الوحيد الجادّ لإصلاح الأراضي في أميركا اللاتينية. في الولايات المتحدة، غالباً ما يوصف تشافيز بأنه ساذج أو مجنون، لكنّ إصلاح الأراضي هذا، بقدر ما هو صغير وأوّلي، يثبت أنه يقف إلى جانب الفقراء أكثر من أي رئيس آخر في المنطقة».

لكن فيما كان تشافيز يطلق برنامجه الخاص بالإصلاح الزراعي في تشرين الثاني 2001، كانت الأوصاف كافة تنطبق على المعارضة سوى أنها شغوفة به – أو شغوفة بأي عمل آخر قام به – فشعروا بأنه ضعيف، وأرادوا الإجهاز عليه. كما أن حكومته عانت من الافتقار إلى الخبرة في الحكم، فلم يسبق أن شغل تشافيز منصباً عن طريق الانتخاب قبل أن يصل إلى سدّة الرئاسة. وكان العديد من وزرائه حديثي العهد في العمل الحكومي أيضاً. كانوا يأتون إلى الاجتماعات الوزارية ثم يخرجون منها بخطى متثاقلة. حتى إنه سرعان ما لحق أهم هؤلاء الوزراء، ويدعى لويس ميكويلينا، بركب المنشقين.

لكن الدائرة الضيقة من المستشارين المحيطة بتشافيز كانت لا تزال تضم عدداً من اليساريين المدنيين الآخرين ومن التقدميين الذين التقى بهم في السجن. كان من بين هؤلاء فريق من الأساتذة المدرّسين في جامعة فنزويلا المركزية ضمّ جورج جيورداني، وزير التخطيط وهكتور نافارو وزير التعليم في حكومته.

ربمـا كان خوسيـه فيسينتـه رانجـل الشخصية الأوسع تأثيـراً في الوزارة، وهو الصحافي السابق الذي خدم وزيراً للخارجية، ووزيراً للدفاع، ونائباً للرئيس في نهاية المطاف. كان رانجل، وهو مرشح سابق للرئاسة عن حزب الحركة نحو الاشتراكيّة اليساري، يشاطر تشافيز آراءه المعادية للإمبريالية، والتزامه بالإطاحة بالنظام الفاسد في فنزويلا، ورغبته في بناء مجتمع أكثر عدلاً. وبحكم أنه أكثر ميلاً إلى الاشتراكيّة منه إلى الشيوعية، فقد حاز على احترام واسع كصحافي بسبب تقاريره الجريئة التي تفضح الفساد. كان متقدماً في السنّ بما يكفي لكي يكون والد تشافيز بحيث إنه تحوّل إلى معلّم له؛ إلى جانب مرشد تشافيز الرئيسي بالطبع، فيدل كاسترو. وبعد أن خرج ثلاثـة مـن رفـاق السـلاح القدامى لتشافيـز من الإدارة، ازدادت أهميـة هيئة الخبراء المدنيين المحيطة به. وعلى الرغم من أن الرئيس العازم بقي شخصية شامخة، كان يوجد رجال عسكريون آخرون في الجوار، وكان كاسترو على مسافة مكالمة هاتفية منه.

واجـه تشافيـز سلسلـة مـن الاحتجاجات والإضرابات؛ شـارك فيها عمال النفط، والمعلّمون، وعمال الألمنيوم، وموظفو شركة الهاتف، والأطباء والممرضات، وعمال النقل. وهو ورث ديناً ثقيلاً يبلغ 21 مليار دولار لعمال الدولة فقط لقاء أجور مستحقة وتعويضـات. وعـادت أسعـار النفـط إلـى التراجع بعد أن شهـدت ارتفاعاً في العامين 1999 و2000، لدرجة أن سعر برميل النفط الواحد انخفض في مستهل كانون الأول إلـى 15.30 دولاراً، علمـاً بـأن ميزانيـة العام 2002 استندت إلى سعر 18.50 دولاراً للبرميل الواحد.

تجـاوزت التهجمـات علـى تشافيز مستوى الهواجس الشرعيـة والنقاشات الدائرة حـول سياساتـه لتتحـول إلـى هستيريـا وحملة تشويه سمعة. وطلب قـادةُ حزب العمل الديمقراطـي مـن المحكمـةَ العليـا تعييـن هيئة مـن الأطباء النفسيين لتحديـد ما إذا كان تشافيـز يعانـي مـن قصـور عقلـي لكي يكـون في المقدور تنحيته عـن السلطة بموجب البنـد رقـم 233 مـن الدستور الجديد. وصـرّح الأمين العام لحزب العمل الديمقراطي رفائيـل ماريـن بـأن «أطباءنـا النفسيين قارنوا شخصيات تعاني من أمراض نفسية مثل هتلـر وموسولينـي وعيـدي أمين والرئيس الإكـوادوري عبد الله بوكرم»؛ أقيل الأخير من منصبه في العام 1997 على أساس فقدانه الأهلية العقلية. وتناولت وسائل الإعلام هـذا الموضـوع بشغـف، واقتبست النيوزويك فـي مقالة سيئة السمعة عن مارين قوله: «هل هوغو تشافيز مجنون؟».

مع بلوغ حملة تشويه سمعة تشافيز ذروتها، حشدت المعارضة الفنزويلية صفوفها للتهجم عليه بطريقة منظمة وشاملة للمرّة الأولى في تاريخها. ففي يوم الاثنين الواقع في 10 كانون الأول، وهو اليوم نفسه الذي ترأس فيه تشافيز حفل إطلاق وضع قانونه الخاص بالإصلاح الزراعي موضع التنفيذ، دعى فيديكمارس، وهو أقوى تجمّع مهني

في البلاد، واتحاد العمال الفنزويليين، وهو أكبر النقابات في البلاد، إلى إضراب عام لمدة أربع وعشرين ساعة للاحتجاج على المراسيم التسعة والأربعين. صحيح أنهم لم يصيبوا البلاد بالشلل، لكنهم أصابوا أقساماً واسعة منها بالجمود التام، بعد أن تلقّوا دعماً من أصحاب المؤسسات التجارية الذين أقفلوا أبواب مؤسساتهم. وفي حين فتحت المحال في الأحياء الفقيرة أبوابها، بدت أغلب الشوارع في وسط كاراكاس والقطاع الشرقي الراقي من المدينة مثل مدينة أشباح. كما لم يجرِ توزيع الصحف اليومية. وأقفلت المدارس وسوق الأسهم والمتاجر والمصانع والمصارف أبوابها. وبدا الطريق العام فرانسيسكو فاياردو، الذي عادة ما يكون مكتظاً بالسيارات في ساعة الذروة، شبه خالٍ من السيارات.

سُرّت المعارضة بنجاح الإضراب، وأقنعت نفسها بأن الدعم الذي كان يحظى به تشافيز قد تلاشى. وصرّح كارلوس فيرنانديز المتحمس، وهو نائب الرئيس الأول لفيديكمارس، بأن «كل شيء أصيب بشلل كامل». وادّعى بأن 90 في المئة من البلاد شاركت في الإضراب. لكن تشافيز رفض الإذعان للهزيمة، فحشد مناصريه في بلازا كاراكاس للاحتفال بإقرار قانون الإصلاح الزراعي.

لكنّ المعارضة كانت تملك الزخم وبدأت تتحول إلى حركة احتجاجية أكثر تماسكاً واتحاداً. وفي هذه الأثناء، كان تشافيز يمرّ بأصعب لحظاته منذ تولّيه سدّة الرئاسة. وساد الاعتقاد في أوساط المعارضة ووسائل الإعلام أن أيامه باتت معدودة، وأنه سيترك منصبه قبل أن تنتهي مدّة ولايته بطريقة أو بأخرى. ودعا المرشح الرئاسي السابق عن الحزب المسيحي الاجتماعي أوزوالدو ألفاريز باز، فضلاً عن العديد من الأشخاص الآخرين، الجيشَ إلى التدخل. قال أوزوالدو: «لا يوجد حل قانوني، وبالتالي، ما الذي يمكننا فعله؟ في رأيي، إن تدخل الجيش أمر لا مفرّ منه». وقالت يورومونـي: «لا يوجد أحد في البلاد يمكنه أن يتخيل بقاء تشافيز الفترة المتبقية له من رئاسته في الحكم». بدت الأجواء أشبه بحملة الدخان والمرايا في العام 1954 ضدّ جاكوبو أربينز في غواتيمالا أو الحملة التي شُنّت في العام 1973 ضدّ سلفادور أليندي في التشيلي.

أشارت صحيفة سان بيترسبورغ تايمز إلى فترة ولاية تشافيز الجديدة من المقرر أن تنتهي في شباط 2007، لكن «المحللين يقولون إنه لا يوجد سبيل أمامه لكي يبقى في الحكم طوال تلك المدة. وهناك العديد من السيناريوهات التي ستؤدي إلى رحيله، منها تنامي حالة التذمّر في الجيش والعصيان المدني». ثم اقتبست الصحيفة عن الكاتب ألبيرتو غاريدو قوله: «كل شيء يشير إلى أن تشافيز سيترك السلطة. لكن طريقة حصول ذلك تقل أهمية كل يوم».

الفصل العشرون

الانقلاب

بدأ الانقلاب ضدّ هوغو تشافيز يتكشف في مستهل العام 2002. ففي سحابة ثلاثة أسابيع من شهر شباط، هاجم أربعة من كبار الضباط في الجيش، بمن فيهم ضابط برتبة جنرال وآخر برتبة عميد بحري، الرئيس علناً وطالبوه بالاستقالة، حتى إن أحدهم وصفه بأنه الطاغية. وفي تصريح شاجب وهو الأشد عنفاً، ظهر العميد البحري كارلوس مولينا تامايو على شاشات التلفزيون بلباسه الرسمي الكامل الأبيض، وبالأوسمة التي تملأ صدره وقال إنه إذا لم يقدم تشافيز استقالته طوعاً، ينبغي على المحاكم والمجلس التشريعي توبيخه.

ذكر الضباط جملة من الشكاوى منها أن تشافيز يعمل على تنفير الولايات المتحدة بسبب الاتصالات التي يجريها مع المتمردين الكولومبيين ومع المنبوذين الدوليين، وأنه يشكل خطراً على حرّية التعبير عن الرأي، وأنه يقوّض أسس الديمقراطية، وأنه يشوّه دور القوات المسلحة بإرساله الجنود لكي يبنوا المدارس ويوزعوا الأطعمة بدلاً من الدفاع عن حدود البلاد.

رأى تشافيز وحلفاؤه أن هناك دوافع أخرى لهذا التذمّر. فأحد هؤلاء الثائرين، العقيد في سلاح الجو بيدرو سوتو وهو أحد المستشارين السابقين لكارلوس أندرياس بيريز، لم تتم ترقيته إلى رتبة جنرال. وزعم تقرير لصحيفة الواشنطن بوست في وقت لاحق بأن كلا من سوتو ومولينا تامايو حصل على مبلغ 100000 دولار من حسابات في مصرف ميامي بسبب شجبهما لتشافيز. في الواقع، كان مولينا تامايو قد شرع أصلاً في مباحثات مع ضباط آخرين للتخطيط لإزاحة تشافيز عن السلطة.

قبل يومين من ظهور سوتو الدراماتيكي في 7 شباط، عبّر وزير الخارجية الأميركي كولن باول عن قلقه من «فهم تشافيز لحقيقة ما يعنيه النظام الديمقراطي... نحن لا نشعر بالسرور من بعض التعليقات التي أدلى بها في ما يتعلق بالحملة الموجّهة ضدّ الإرهاب... وهو يحطّ في بعض من أغرب البلدان لكي يزورها». في إشارة إلى زيارة تشافيز لكل من العراق وليبيا وكوبا. «أنا لست واثقاً بالإلهام الذي يظنّ أنه يحصل عليه أو بالفوائد التي يجنيها للشعب الفنزويلي، بزيارته لبعض من هذه الأنظمة».

في اليوم التالي، أضاف مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينت بأنه يشعر «بالقلق على الخصوص» من الأحداث التي تجري في فنزويلا، وتكهن بأنه

«مـن المرجّـح أن تـزداد أجـواء الأزمة سوءاً» في وقـت أصبحت فيه أميركا اللاتينية «منطقة متفجرة على نحو متزايد».

تصدّرت التعليقات التي أدلى بها باول وتينت الصفحات الأولى للجرائد الفنزويلية. أقـرّ المسؤولـون الأميركيـون بـأن شخصيـات المعارضة التي التقـوا بها في واشنطن العاصمة وفي كاراكاس تحدثت عن فكرة القيام بانقلاب عسكري. وأصرّ المسؤولون في تصريحاتهم العلنية على أنهم أدانوا تلك الفكرة. غير أن المعارضة فسّرت التعليقات التـي أدلـى بهـا بـاول وتينت وآخرون في اللقاءات الخاصة كانت مختلفة. وكما شرح اثنان من المحللين المسألة بالقول: «كان يُنظر إلى تلك التصريحات على أنّها إشارات منسّقـة. وشعـرت المعارضـة بأنهـا حصلت على الضوء الأخضـر لإزاحة تشافيز عن السلطة».

كان مولينـا تامايـو أحـد الذيـن راودهم ذلك الشعور بالتأكيد، حيث قال في وقت لاحق «شعرنا بأننا نتصرّف بدعم من الولايات المتحدة. نحن متفقون على أننا لا يمكننا السمـاح بوجـود حكومـة شيوعيـة هنا». وبعد مرور يومين على شجبه لتشافيز، اتصل اثنان من المعهد الجمهوري الدولي، مايكل فيربر وإليزابيث وينغر إتشيفيري، بمولينا تامايو في فندق تاماناكو. كان يوجد لمنظمتهما، التي تعتبر واحدة من بين أربعة معاهد أساسية تابعة لمؤسسة المنحة الوطنية من أجل الديمقراطية، مكتب خاص في كاراكاس. أراد المسؤولان في المعهد الجمهوري الدولي، كما قال مولينا تامايو، «التحدث عن حقوق الإنسان، وعن الديمقراطية، وعن العملية التي يقومان بها في واشنطن».

كان تشافيـز يـرزح تحـت الضغـط من عدة جبهات. وفي أواخر كانون الثاني، قـدّم أقـرب مستشاريـه السياسييـن، ويدعـى لويس ميكويلينا، استقالتـه. حثّ ميكويلينا رئيسَـه تشافيـز علـى التفاوضـ مع قادة المهن التجارية وقـادة العمال وإلغاء المراسيم التسعة والأربعين. لكن تشافيز رأى أنه لا يوجد رجعة إلى الوراء، وسبق لحكومته أن قامـت ببعضـ الأعمـال التـي تفصلها عن الماضي. ولم يمض وقت طويل حتى بدأ ميكويلينا بالعمل مع المعارضة.

فـي غمـرة سلسلـة متنامية من المظاهرات التـي نظمتها المعارضة في الشوارع، واجـه تشافيـز أيضـاً مشـكلات في شركة بيترولوس دي فنزويلا. وفي شباط، مضى إلـى تعزيـز الخطـط التـي شرحها في مرسوم النفط والتي تحـدد الزيادات أسعار منح الامتيـازات، والالتـزام بالحصـص التي تحددها أوبك، وضمان حصول فنزويلا على حصـة مقدارهـا 51 فـي المئـة في أي مشروع مشترك مع الشـركات الأجنبية. وبناء علـى ذلـك، طـرد الرجـل الـذي كان قد عينه قبل خمسة عشـر شهراً لكي يدير شركة بيترولـيوسـ دي فنزويـلا، العميـد غوايكايبـورو لاميدا. كما طرد خمسة من المديرين السبعة في الشركة أيضاً.

أراد لاميـدا والحرسـ القديـم الاستمـرار في سياسة أوبيرتيـورا أو الانفتاح التي

بـدأت علـى عهـد كالديـرا والتي تدعو إلى زيادة مشاركة الشركات الأجنبية وإلى رفع إنتاج النفط بمعدل كبير؛ من 3.3 مليون برميل في اليوم في العام 1997 إلى 6 ملايين برميل في العام 2006. لكن تشافيز لم يوافق على هذه السياسة. فقد اعتقد بأن خفض الإنتاج سيرفع الأسعار ويجلب المزيد من العائدات إلى البلاد. كما اعتقد بأن جماعة مؤيدي سياسة الأوبيرتيورا يريدون خصخصة الشركة في نهاية المطاف.

مع تحركه لتولي السيطرة على الشركة، انتقد تشافيز مديري شركة بيتروليوس دي فنزويـلا علـى تمتعهـم برواتـب ضخمة تتجاوز الخيـال؛ بلغ حجم الراتب 24000 دولار فـي الشهـر فـي بلـد يجني فيه أغلب العمال الفنزويليين 180 دولاراً في الشهر. واشتكـى مـن الشاليهـات الفخمة في جبال الأنديز حيـث يقيمون حفلات العربدة. أراد تشافيز تحويل عائدات الشركة إلى الأغلبية الفقيرة. وفي هذا السياق، قال تشافيز لوزير الخارجيـة لويـس ألفونسـو دافيلا: «لطالما كانت بيتروليوس دي فنزويلا الدجاجة التي تضع البيض الذهبي. لكنها تأكل اليوم أكثر من نصف البيض الذي تنتجه».

استبـدل تشافيـز لاميـدا بالخبيـر الاقتصـادي اليسـاري غاستون بـارا الذي تعهد بمواصلة السياسة النفطية التي يتّبعها تشافيز وفتح تحقيقاً شاملاً في الممارسات المحاسبية التي تتبعها الشركة، وحظي بتأييد مجلس الإدارة الجديد في الشركة.

تسببت التعيينات بعاصفة من الاحتجاجات؛ تقويض استقلال الشركة الذي تعتزّ به عـن الحكومـة وتجـاوز التقاليد المتبعة في الترقيات والتي استمرت عدة عقود بالاستناد إلى الجدارة. وبحلول نهاية شباط، بدأت سلسلة من الاستقالات وبدأ التباطؤ في عمل الشركة.

شكّلـت الاحتجاجـات صدمـة في بلد كانـت شركة بيتروليوس دي فنزويلا تعمل فيه بوجه عام على مدار الساعة. بالنسبة إلى بعض الأشخاص، بدت توليفة التوترات الشديـدة فـي الشركـة النفطيـة، والمنشقين في الجيش الذين شجبـوا الرئيس، ووسائل الإعلام التي وجهت إليه اللعنات عند كل نقطة تحوّل، أشبه بالأيام التي سبقت الإطاحة بسلفـادور أليـنـدي فـي العـام 1973. وكثـر تداول الحديث عـن قرب وقوع انقلاب، وانتشـرت الكتابـات علـى جـدران الطرقات العامة باللون الأحمر والتي تدعو إلى قتل تشافيـز. وظهـرت الفتيـات الجميـلات اللواتي تنتمين إلـى الطبقة الوسطى في سراويل الجينـز الضيقـة والكنـزات الخفيفـة في محيط قواعد الجيشـ وألقت ثيابهنّ التحتية على الجنود، في إشارة إلى نعت الرجال بالمخنّثين لأنهم فشلوا في الوقوف في وجه تشافيز، وإلى أنه ربما كان من الأفضل لهم أن يرتدوها.

ممـا زاد مـن حـدّة الهجمـات الكلامية ما أشار إليه رئيس بلدية كاراكاس ألفريدو بينـا، وهـو حليـف لتشافيـز مـا لبث أن تحوّل إلى عدو له، من أن الرئيس ربما كانت تسكنـه أرواح شرّيـرة. ودعـا الكنيسـة الكاثوليكية إلى رقيته لطردها. قال بينا: «هناك شياطين في جسده وهي تعمل على تحويل كل شيء إلى جحيم. سيقوم الشارع بإزاحة

تشافيز. فهو حاكم مستبدّ».

اعتقد جايمس بيتراس، بروفسور في جامعة ولاية نيويورك في ألباني عاش في تشيلي في مستهل سبعينيات القرن العشرين، أنه سبق أن رأى هذا المشهد من قبل، وقال في آذار: «إن الأساليب التي يستخدمونها شبيهة إلى حدّ بعيد بتلك الأساليب التي استُخدمت في التشيلي. فقد استُخدم المدنيون في إيجاد شعور بالفوضى وتم رسم صورة خاطئة عن تشافيز بأنه ديكتاتور، ثم جرى تحريض الجيش على القيام بانقلاب من أجل إنقاذ البلاد». كما أن وسائل الإعلام المعادية في فنزويلا أثارت ذكريات الصحافة اليمينية في التشيلي في أثناء فترة الانقلاب، حيث كانت تنشر «قصصاً سامّة تشكك في رجاحة عقل تشافيز».

كان يوجد فرع واحد على الأقل تابع لحكومة الولايات المتحدة يشارك بيتراس في اعتقاده بأن انقلاباً عسكرياً في طور الاختمار، وهو وكالة الاستخبارات المركزية. فقد أصدرت الوكالة في 11 آذار «إيجازاً استخبارياً تنفيذياً عالي المستوى» وفائق السرّية ووزعته على مئتين من كبار المسؤولين الأميركيين جاء فيه «ربما سيتحرك الجيش للإطاحة به». وبحلول 1 نيسان، قالت وكالة الاستخبارات المركزية: «تشير التقارير إلى أن الضباط الساخطين داخل الجيش لا يزالون يخططون للقيام بعملية انقلاب، وربما في هذا الشهر».

بعد مرور خمسة أيام على ذلك، صدر تقرير حمل العنوان «فنزويلا: الظروف تنضج للقيام بمحاولة انقلابية». جاء في هذا التقرير «إن الفصائل المنشقة في الجيش، بما في ذلك بعض كبار الضباط الساخطين ومجموعة من صغار الضباط الراديكاليين، يصعّدون جهودهم للقيام بانقلاب ضدّ الرئيس تشافيز، وربما في وقت مبكر في هذا الشهر... يستهدف الانقلاب في الخطط المشار إليها [معلومات سرّية] تشافيز و10 من كبار المسؤولين لوضعهم قيد الاعتقال، ويوجد ما يؤكد صحة هذه المعلومات، لكن الاتصالات مع العسكريين ومع المدنيين تشير إلى أنه لا يبدو أن كلتا المجموعتين جاهزتان للقيام بمحاولة انقلابية ناجحة، وربما تفسد تلك المحاولة إذا جرى التحرّك في وقت مبكر جداً».

بعد ذلك، شرح الإيجاز الذي صدر في 6 نيسان كيف يمكن أن يقع الانقلاب. «من أجل التحريض على القيام بعمل عسكري، ربما يسعى المخططون إلى استغلال الاضطرابات التي ستثيرها المظاهرات التي ستنظمها المعارضة في وقت لاحق من هذا الشهر أو الإضرابات المستمرّة في الشركة النفطية بيتروليوس دي فنزويلا التي تملكها الدولة». لكنه أضاف بأن «احتمالات القيام بانقلاب ناجح في هذه المرحلة محدودة. فالمخططون يفتقرون إلى الغطاء السياسي للقيام بانقلاب، وقاعدة الدعم الأساسية لتشافيز بين أوساط الفنزويليين الفقراء لا تزال سليمة، وربما حملت التحذيرات المتكررة من أن الولايات المتحدة لن تدعم أي خطوات دستورية إضافية لإسقاط تشافيز المخططين

على التريّث».

كان المخططون يفتقرون إلى الغطاء السياسي لتنظيم انقلاب. احتاجوا إلى سبب مقنــع لكــي يظهــروا للعالــم أن إطاحتهم برئيس منتخَب بطريقة ديمقراطية عمل مبرر. كان بعضهم يعمل على العثور على مثل هذا السبب. وكما تكهنت وكالة الاستخبارات المركزيــة، عزمــوا علــى استغــلال الاضطرابــات في شركــة بيتروليوس دي فنزويلا واستغلال إضراب كان يخطط له قادة المعارضة.

قبل يوم من إصدار وكالة الاستخبارات المركزية لإيجازها في 6 نيسان، انتقلت معارضــة تشافيــز فــي شركــة بيتروليوس دي فنزويلا إلى مرحلة أكثر تطرفاً. فقد بدأ المديــرون التنفيذيــون والعمــال الإداريون بإقفــال الشركة. لزم آلاف من العمال غير اليدوييــن منازلهــم، وأغلقــوا البوابات التي تــؤدي إلى المنشآت، وأعاقوا تسليم كميات البنزيــن وحركــة ناقــلات النفــط. وعــمّ الشلل اثنتين من أصــل خمس محطات تصدير رئيسية للنفط الخام والمنتجات المكرَّرة.

في اليوم التالي، استمرّ غياب العمال غير اليدويين أساساً، في حين أعلنت أكبر النقابــات فــي البــلاد، وهي اتحاد العمــال الفنزويليين بزعامــة كارلوس أورتيغا، عن إضــراب عــام لمــدة أربــع وعشرين ساعة لدعم المحتجين فــي شركة بيتروليوس دي فنزويــلا. فــي اليــوم التالــي، وتحديــداً يوم السبت الواقع فــي 7 نيسان، أعلنت غرفة التجارة الأكبر في البلاد، فيديكمارس بقيادة بيدرو كارمونا، بأنها ستنضم إلى الإضراب أيضاً. كان ذلك بمثابة تكرار للتوقف عن العمل في 10 كانون الأول؛ اتحدت الإدارة والعمــال معــاً. كانــوا قــد وثّقوا من عرى الشراكة التــي تجمع بينهم قبل شهر بمباركة الكنيســة الكاثوليكيــة عندمــا وقّعــوا علــى ميثاق ممارسة السلطة فــي جامعة أندريز بيلو الكاثوليكيــة فــي كاراكاس. وقــف كارمونا وأورتيغا على المســرح، فيما رفع رئيس جامعــة جيسويــت، الأب لويــس أوغالــدي، يدَيهما في الهواء كما لو أنهما فازا معاً في مباراة في الملاكمة.

حدد اتحاد العمال الفنزويليين وفيديكمارس موعداً لتنظيم الإضراب في يوم الثلاثاء الواقــع فــي 9 نيســان. لكــن تشافيز ردّ علــى تلك المحاولة. ففي يوم الأحد 7 نيسان، طــرد سبعــة مديريــن تنفيذيين قــادوا احتجاجات وإضرابات استمــرت شهراً بأكمله في شركــة بيتروليوســ دي فنزويــلا، وأجبر اثني عشــر مديراً آخرين على التقاعد. وفي أثنــاء حديثــه فــي برنامجــه التلفزيوني الأسبوعي، أمسك بصفارة ونفخ فيها، وفي تقليد لحكم في لعبة كرة القدم، قال: «حالات تسلل!». ثم أعلن عن عمليات الفصل. وحذّر من حركة تخريبية تسعى إلى تخريب حكومته وقال: «لا أشعر بالانزعاج إذا كان عليّ أن أطردكم جميعاً». وأصرّ على أن السياسات تقف خلف التعيينات في بيتروليوس دي فنزويلا منذ عدة عقود، وعدد رؤساء الشركة الذين انتموا إلى الأحزاب التي حكمت في عهودهم وقال «لطالما كانت بيتروليوس دي فنزويلا تدار بواسطة نخبة سياسية.

والخطة هي إعادة الصناعة النفطية إلى الفنزويليين».

كان لدى اتحاد العمال الفنزويليين تفسير آخر لعمليات الطرد تلك، فردّ عليها بالقول إن حكومة تشافيز «أقدمت على الانتحار» للتو.

في تلك الليلة، جمع تشافيز حكومته والقيادة العليا في الجيش لمناقشة كيفية الردّ على الإضراب. كانت الحكومة والجيش قد أعدّا سلفاً خطة عامة لاستعادة النظام العام في لحظات الفوضى أو الصراع. عُرفت تلك الخطة باسم خطة أفيلا، وهي نصت على أن ينتشر الجيش في النقاط الاستراتيجية مثل القصر الرئاسي ميرافلوريس، ومبنى الكونغرس، والمحكمة العليا ليكون ذلك بمثابة استعراض للقوة يثني المتآمرين. في تلك الليلة، سأل تشافيز قادةَ الجيش، بمن فيهم الضابط المكلف بتنفيذ خطة أفيلا الجنرال مانويل روزيندو، إن كانوا على استعداد لوضع الخطة موضع التنفيذ إذا تطلب الأمر ذلك. وأكدوا له على أنهم على أتم استعداد للقيام بذلك.

بدأ الإضراب يوم الثلاثاء الواقع في 9 نيسان، فعمد العمال في قطاع النفط إلى إبطاء عمليات الإنتاج في منشأة باراغوانا الحيوية، وامتنعت الصحف عن الصدور، وألغت المحطات التلفزيونية برامجها المعتادة لتغطية الإضراب. وألغت الإعلانات التجارية المنتظمة، وبثت دعاياتها الخاصة المناوئة لتشافيز والتي أُعدّت على عجل على شكل إعلانات خدماتية مجانية. ووجّه سيل من السياسيين ورجال الأعمال والمحللين انتقادات لاذعة متواصلة لتشافيز. كما عرض بعض المحطات في أسفل الشاشة الشعار ني أون بازو أتراس؛ لا رجعة إلى الوراء.

وصفت فيديكمارس واتحاد العمال الفنزويليين الإضراب بأنه نجاح مذهل. أما الحكومة فشككت في ادعائهما، وزعمت بأن الإضراب كان في الأساس عمليات إقفال قام بها أصحاب المؤسسات من دون دعم أغلب العمال فيها. وأمر تشافيز ببثّ سلسلة من الكاديماس أو الإرسالات التلفزيونية الإلزامية لعرض وجهة نظر الحكومة. عرضت تلك التقارير التلفزيونية العمال وهم يفرّغون صناديق الفاكهة في الأسواق أو يمشون في الممرات التي تؤدي إلى المباني المكتبية.

في مساء يوم الثلاثاء، أعلن أورتيغا وكارمونا عن تمديد فترة الإضراب مدة أربع وعشرين ساعة إضافية. وتجمّع المحتجون في مكاتب شركة بيتروليوس دي فنزويلا في تشاو، ولوّحوا بالأعلام الفنزويلية وصاحوا: «تشافيز اخرج، تشافيز اخرج». وفي القسم المقابل من المدينة، تجمع أنصار تشافيز قبالة قصر ميرافلوريس للقيام بحركة احتجاجية معاكسة. وعسكر بعضهم ليلته في الخيام لحماية القصر، حتى إن بعضهم جلب خيامه معه.

في اليوم التالي، في 10 نيسان، بدأ الإضراب يتلاشى بالتدريج، ففتحت العديد من المدارس الصفوف الدراسية، وفتحت المزيد من المؤسسات التجارية أبوابها، وازدادت حركة المرور. لكن الشبكات التلفزيونية واصلت تغطيتها من دون توقف.

وشــارك تشافيــز فــي الإرســالات التلفزيونية الإلزامية لمواجهــة التقارير التي تعرض وجهــة نظــر واحــدة، لكــنّ شبكات التلفزيون قسمت الشاشة إلى نصفين في هذه المرّة، فأظهــرت الرئيســ فــي جانب، ومشاهد الإضــراب في الجانب الآخر. كان ذلك عملاً غير قانوني - إذ إن الرئيس يملك الحق في المطالبة ببثّ برامج إلزامية - لكن ذلك لم يمنعهم من القيام بذلك.

في تلك الليلة، أعلن أورتيغا وكارمونا عن تمديد الإضراب العام إلى أجل غير محــدد هــذه المــرّة. بــدا ذلــك الإعلان منافيــاً للمنطق. فمن الذي يستطيــع إطالة فترة إضراب، بدأ يضعف، إلى أجل غير محدّد؟ دعا الزعيمان الناس إلى حضور مسيرة ستنطلــق فــي صبــاح اليوم التالي مــن باركي ديل إيستي إلى مكاتب شركة بيتروليوس دي فنزويــلا فــي تشــاو حيــث ستُتوَّج المسيرة بتجمع شعبي. لكن كان لديهما في السرّ فكــرة أخــرى. كانــا سيعلنــان فــي اليوم التالي عن أن ذلك التجمــع الشعبي جاء نتيجة لقــرار عفــوي ولّدتــه حماســة الحشود. وخططا لتغيير خط سيــر المسيرة والتوجّه إلى القصر الرئاسي ميرافلوريس لإجبار الرئيس على التنحّي.

في وقت مبكر من ذلك اليوم، أصبح العميد نيستور غونزاليس غونزاليس آخر ضابــط عسكــري ناشــط يطالب باستقالة تشافيز. قــال غونزاليس غونزاليس في حديث أمام المراسلين وسط آلاف من الكاميرات التلفزيونية في مؤتمر صحافي نُظّم في فندق في كاراكاس: «سيدي الرئيس، لقد خنتَ البلاد. احترم القوات المسلحة». ثم أصدر إنــذاراً فقــال: «ينبغــي علــى القيادة العليا في الجيش أن تقول للرئيس، سيدي الرئيس، أنــت سبــب كل ذلــك. وقــد آن الأوان لكــي تتنحّى. ستتخذ القيادة العليا في الجيش هذا الموقف لأنها إذا لم تفعل ذلك، فإن جهة أخرى ستقوم بذلك نيابة عنها». وما إن أنهى حديثــه وهــمّ بالمغــادرة حتى وجّه إليه أحد المراسلين السؤال التالي: «سيدي الجنرال، هل تعني القيام بعملية انقلابية؟». وضع غونزاليس غونزاليس قبّعته العسكرية، وسمح بأن ترتسم ابتسامة خفيفة على شفتيه ولم يقل شيئاً، ثم غادر بعد ذلك.

كان للتصريــح الــذي أدلــى بــه غونزاليس هدف معيّــن. فقد كان من المقرر أن يسافر تشافيز إلى كوستاريكا بالطائرة في فترة ما بعد الظهر من اليوم التالي لحضور قمّــة منظمــة الــدول الأميركيــة. أراد المخططــون أن يبقى تشافيز في البلاد لكي تنجح خطتهــم. ومهمــا يكــن مــن أمر، فقد ألغى تشافيــز رحلته بعد أن شعر بوجود ما يكفي من نذر الخطر بسبب المسيرة والدعوات المتمرّدة التي أطلقها غونزاليس.

كانــت الحكومــة قــد علمت، وفقاً لبعضــ الروايات، بشأن الخطة السرّية القاضية بتغييــر خــط سيــر المسيرة. فقد تمكنت مــن اختراق الاجتماع الذي ناقش فيه كارمونا وقــادة آخــرون تلــك الخطــة. وفي تصريح علني، وصف وزير الدفاع خوسيه فيسينته رانجــل القــرار بتمديــد الإضــراب إلى أجل غير محــدود بأنه «حركة عصيان». كانت المعارضة تتطلع إلى إسقاط الحكومة.

وفي هذه الأثناء، قال مسؤول في وزارة الخارجية رفض ذكر اسمه للمراسلين في واشنطن العاصمة بأنه يعتقد بأن أيام تشافيز في الرئاسة باتت معدودة، وأضاف: «من الصعب حقاً بقاؤه صامداً لغاية شباط 2007». وهو تاريخ انتهاء مدّة ولايته.

في أعقاب إعلان كارمونا وأورتيغا عن تنظيم المسيرة في اليوم التالي، مضت وسائل الإعلام إلى حدّ الترويج لها، فبدأت ببثّ إعلان عاجل كل عشر دقائق يقول: «أيها الفنزويليون، لينزل كل واحد منكم إلى الشوارع. يوم الثلاثاء عند الساعة العاشرة صباحاً». وجاء في إعلان آخر: «لنشارك معاً في المسيرة من أجل فنزويلا، من باركي ديل إيستي إلى تشاو. أحضروا أعلامكم معكم. من أجل الحرّية والديمقراطية، فنزويلا لن تستسلم. ولن يتمكن أحد من هزيمتنا». وجاء في إعلان آخر: «لا رجعة إلى الوراء اخرجوا من منازلكم. اخرجوا الآن!».

في صباح الثلاثاء الواقع في 11 نيسان، أراد أريستوتليس أرانغورين مشاهدة التلفزيون. كان المعلمّ المتجّعد الوجه الذي يعمل في مدرسة خاصة لأبناء الطبقة الوسطى ساخطاً من تشافيز مثل أي شخص آخر. لم يستطع أن يُخرج من رأسه تصريح تشافيز الشهير الذي تحدث فيه عن أن فنزويلا وكوبا متجهتان إلى «بحر السعادة» نفسه. كان أرانغورين قد سافر إلى كوبا مرتين، وهو يعتقد بأنه يعرف بحر السعادة ذاك الذي يسبح فيه الكوبيون. رأى أنهم كانوا يغرقون فيه في الواقع. ولا يزال يذكر كيف أنه مشى في شوارع هافانا القديمة ورأى الناس يتسوّلون من أجل الحصول على ملابس، أو صابون، أو معجون أسنان أو أي شيء. وتذكر الشقق الخالية من أي أثاث والتي لا يوجد فيها ثلاجات، وهو لم يشأ أن يكون مثلهم.

فيما كان يشاهد التلفزيون عند الساعة العاشرة والنصف صباحاً تقريباً، رأى الناس يتجمعون عند باركي ديل إيستي ويتوجهون نحو تشاو. كان مشهداً ساحراً. جاء في بعض الروايات أنه وصل عدد المشاركين فيه في نهاية المطاف إلى نصف مليون شخص، وربما أكثر. بدا أنها أكبر مسيرة احتجاجية شهدتها فنزويلا منذ الإطاحة بماركوس بيريز جيمينيز في العام 1958. ارتدى أرانغورين سرواله الجينز الأزرق وانتعل حذاءه الرياضي، وأمسك بكتاب لكي يقرأه في القطار، وأغلق الباب.

عندما وصل إلى باركي ديل إيستي، كان الوضع أشبه بمهرجان ضخم يقام في الهواء الطلق. كان الناس مبتهجين، وكانوا يلوّحون بالأعلام الفنزويلية، وطلى بعضهم وجهه بألوان العلم: الأحمر والأصفر والأزرق. كانوا يصفرون أو يرفعون شعارات تقول فيتي اخرج. وضع الآباء أولادهم في عربات الأطفال أو مشوا متشابكي الأيدي. وتعانق الأشخاص الذين لم تكن تجمع بينهم معرفة سابقة.

كان بيدرو يصافح الأيادي ويبتسم، فقد برز كشخصية رئيسية في المعارضة. كان رجلاً صغير الحجم، أصلع الرأس، وكانت الصحافة الدولية ستصفه عما قريب بالمهذب. كان خبيراً بالاقتصاد حاز على شهادة عليا من جامعة بروسيلز فري، وقد

أمضى ثلاثين سنة في السلك الدبلوماسي الفنزويلي قبل أن ينضمّ إلى عالم الأعمال في شركة تصنّع المواد البتروكيماوية. وفي شهر تموز الفائت، انتخبته فيديكمارس رئيساً لها. والآن، يرى كثير من الناس أنه سيكون الرئيس المقبل لفنزويلا.

في قصر ميرافلوريس، كان هوغو تشافيز يحاول المحافظة على برنامج نشاطات عادي بعد أن ألغى رحلته إلى كوستاريكا. كان قد خطط لعقد اجتماع في القصر مع مجموعــة مــن حــكام الولايات، وكان والــده في طريقه إلى القصر قادماً من باريناس لحضــور ذلــك الاجتمــاع. فالمناسبة الأخرى هي ذكرى ميلاد شقيقه الأكبر أدان الذي رافــق والــده أيضــاً ومعــه والدة تشافيــز، إيلينا، التي شعرت بالقلــق على ابنها الثاني وقررت الذهاب معهما. عرف الرئيس أن المعارضة تغلب عليها روح التمرّد، لكنه اعتقــد بأنــه يتمتــع بدعــم القوات المسلحة التي يمكن أن تقمع أي حالة شغب. وافترض بأن الحرس الوطني سيمنع المتظاهرين من الوصول إلى القصر إن هم حاولوا ذلك. كانت خطة أفيلا جاهزة للتنفيذ.

وفي فورت تيونا، كان وزير الداخلية خوسيه فيسينته رانجل يحلل في مكتبه الكائن في الطابق الخامس الوضع مع القيادة العليا في الجيش. كانت شاشات التلفزيون لديهم تعرض مشاهد عن المسيرة، وكانوا على أتم الاستعداد. فقد اشتبهت الحكومة في أن المعارضــة تخطــط لأمــر معيّــن، لكنها لم تعرف مــا هو هذا الأمر على وجه التحديد. واقتنــع رانجــل فــي وقــت لاحق بأن الأجهــزة الاستخبارية خذلت الحكومة لأنها كانت مختَرَقة من جانب المعارضة.

كان عمــلاق الإعــلام غوساتافــو سيسنيروســس منهمكاً فــي نشاطاته الخاصة. فقد أقــام مأدبــة غــداء فــي منزلــه الضخم لبعض مــن رجال الأعمال، والنخــب السياسية والأكاديمية والإعلامية. كان ضيف الشرف تشارلز شابيرو، السفير الأميركي الجديد. أراد سيسنيروســس وآخــرون الترحيــب بقدومــه إلى فنزويــلا. وكان شابيرو قد وصل إلــى البــلاد فــي أواخــر شباط والتقى بتشافيــز في الأسبوع السابق. وفي حينٍ اختلفت الروايــات بشــأن مــا إذا كان قــد أشار إلى تحذيرات وكالة الاستخبارات المركزية من وقوع انقلاب، شابيرو رأى أن الأمر لا يستحق النقاش على أي حال. فكل ما عليك فعله هو مشاهدة التلفزيون أو قراءة صحيفة لكي تدرك بأن خصوم تشافيز يخططون للقيام بانقلاب.

قال شابيرو في مقابلة أجريت معه بعد سنتين: «كان هناك أشخاص غير سعداء أبــداً بتلــك الحكومــة وكانــوا يخططون للإطاحة بها. كان الجميع على علم بهذا الأمر. ومــن الواضــح أنــه كانــت هنــاك مؤامرات تُحاك. لا أقول مؤامــرة واحدة وإنما عدة مؤامــرات... كان يجــري العمــل علــى عدد كبير مــن المؤامرات لدرجة أنك لم تكن قادراً على التمييز بين المؤامرة الجدّية وبين المؤامرة التي يحيكها ثلاثة أشخاص جلسوا سوية في بار لتبادل الحديث».

فـي حفـل الاستقبـال الـذي أقامه سيسنيروس في ذلك اليوم، وفيما كان النُّدل في زي السهرة يخدمون الضيوف، تركز موضوع المحادثة الرئيسي على تشافيز وعلى كيفيـة التخلّـص منـه. واستنـاداً إلى رواية شابيرو، قال لمضيفيه بأن الولايات المتحدة لن تدعم أي انقلاب.

فـي وقـت متأخـر من الصباح، تجمّع المتظاهرون أمام مكتب شركة بيترووليوس دي فنزويلا في تشاو. هتفوا بأصوات عالية فيما كانت مكبرات الصوت تهاجم الرئيس بعنف على مسمع من الناس الذين لوّحوا بأيديهم في تعبير عن الوحدة وهم يصرخون «اخـرج، اخـرج». وقبيـل الظهر بقليل، بدأ بعض المتكلمين يطالبون الحشود بالتوجه إلى قصر ميرافلوريس. شكل ذلك مفاجأة للعديد من المتظاهرين. لكن العميد البحري كارلوس مولينا تامايو صاح في الحشود قائلاً: «هيا، نحن ذاهبون إلى ميرافلوريس». اتهم كارلوس أورتيغا الرئيسَ تشافيز بسرقة موارد الدولة، ثم أضاف: «أنا لا أستبعد إمكانية أن يزحف هذا الحشد، وهذا النهر البشري، إلى ميرافلوريس لطرد من خان الشعب الفنزويلي».

علت أصوات الحشود تعبيراً عن الموافقة، وشرعوا بالتوجه نحو القصر الذي يبعد مسافـة عشـرة كيلومتـرات. رددوا شعارات تقول: «تشافيز، أنت مطرود»، و«ارحل إلى كوبا»، و«إنه راحل، إنه راحل». كان بعضهم يلوّح بالأعلام، وبعضهم يصفر، بينما حمل بعضهم لافتات كُتب عليها «اخرج، الموت لتشافيز. بن لادن وفيدل كاسترو = هوغو تشافيز».

أطلـق القـرار بتغييـر مسار المسيرة بطريقة غيـر قانونية في الدقيقة الأخيرة كما أُطلقـت مـن دون إذن رسمـي صفـارات الإنذار في الحكومـة. صرخ خوسيه فيسينته رانجـل فـي مكتبـه: «لقـد أصبحـوا مجانين». كان يوجود آلاف مـن مناصري تشافيز فـي باحـة القصـر أصـلاً، وهـو مـا يعنـي أن مواجهة عنيفة يمكن أن تقـع إذا تصادم الطرفان. وظهر رئيس بلدية كاراكاس فريدي بيرنال على شاشة القناة 8 التي تملكها الدولـة ودعـا أورتيغـا والقـادة الآخرين إلى وقف خططهـم بالتوجّه إلى القصر وقال: «إنه عمل غير مسؤول منكم أن تدعوا إلى التظاهر أمام ميرافلوريس فيما أنتم تعرفون أن آلافـاً مـن الأشخاص يتجمعـون هنـاك أصلاً». ثم دعا بيرنـال أنصار تشافيز إلى التوجّه إلى ميرافلوريس للدفاع عن الرئيس. قال بيرنال: «اليوم، هناك مؤامرة يجري تنفيذها».

أمسـك رانجـل بالهاتـف، واتصل ببعض عمالقة الإعـلام الذين يملكون محطات تلفزيونية طالباً منهم مناشدة الناس عدم التوجّه إلى القصر، لكنهم قالوا إنه لا يمكنهم فعـل شـيء حيـال ذلك. واتصل الجنرال لوكاس روميرو رينكون، الضابط العسكري الأعلـى رتبـة فـي البلاد، بكارمونا مرّة وبأورتيغا ثلاث مرّات على هاتفيهما الخلويّين لمحاولـة إقناعهـم بالعـدول عن التوجّه بالمسيرة إلى القصر. وعندما تمكن من التحدث

إلــى كارمونــا، قــال لــه رئيس فيديكمارس بأنه لا يستطيع فعل شيء أيضاً، وأن وقت الحوار قد انتهى.

راجت أقاويل في المناطق الجبلية المحيطة بكاراكاس بأن المتظاهرين في طريقهم إلى القصر. فركب مئات من أنصار تشافيز دراجاتهم النارية أو استقلّوا الحافلات العامة وتوجّهوا إلى ميرافلوريس. وفي حي غواراتو الذي يبعد مسافة كيلومتر ونصف عن القصــر، اغتســل الخبّــاز بيــدرو ليناريس العاطل عن العمــل، وارتدى ملابسه وغادر منزلــه للدفــاع عــن الرئيســ. لكنه لم يكد يبتعد مسافة خمسين متراً حتى قفل عائداً إلى منزله. جمع أولاده الستة في غرفة الجلوس وقال لهم: «أنا ذاهب، لكنني لا أعرف إن كنت سأعود».

كان ليناريســ، وهــو رجــل طويــل القامــة، ملتح وكــثّ الحاجبين، فــي الثانية والأربعيــن مــن عمــره، وكان عضــواً مخلصاً في إحدى الدوائر البوليفارية. وكان قد ذهــب إلــى مكاتــب شركــة بيتروليوس دي فنزويلا في تشاو مساء الثلاثاء الفائت عندما اصطدمــت مجموعــة مــن أنصار تشافيز مع متظاهرين معارضين لتشافيز وسقط بعض أسنان صديقته المخلصة باستورا بينا في الاشتباكات. والآن، قال ليناريس لأبنائه بأنه في حال حصل له أي مكروه، فهو يريد منهم أن يتصرفوا بشكل جيد مع أمّهم وأن يعاملوها باحترام. ثم غادر المنزل.

شقّت المسيرة طريقها سالكة الطريق العام فرانسيسكو فاياردو ذا المسارب الستة، وانعطفت بالقرب من فندق الهيلتون، ووصلت إلى بولفار أفينيدا ذي المسارب الستة والذي يؤدي إلى قصر العدل الذي لا يبعد أكثر من كيلومتر ونصف عن ميرافلوريس. كان أحد المساعدين في رأس المسيرة العميد البحري مولينا تامايو وغوايكايبورو لاميدا، وهــو الجنــرال الــذي كان تشافيــز قــد فصله من عمله كرئيســ لشركة بيتروليوس دي فنزويلا. عند الساعة الثانية من بعد الظهر تقريباً، أوقف أحد المراسلين لاميدا وسأله «علــى الرغــم مــن الوضــع الحالي، أنت تصرّ على قطع كل تلك المسافة والتوجّه إلى ميرافلوريســ؟». أجــاب الجنــرال: «لا تــزال الدعوة لغايــة الآن الوصول إلى بولفار أفينيــدا. لكــن إذا طالــب الناس بالتوجه إلى ميرافلوريس، فسنمضي إلى ميرافلوريس. هــذه مسيــرة سلميــة». صــاح المتظاهرون وصفقوا فــي الخلف. وهزّ لاميدا بكتفيه كما لو أنه يريد أن يقول، كيف يمكنني أن أمنعهم من ذلك؟.

كانــت محطــات التلفزيــون قــد بدأت تتحدث عن شائعات تقــول إن تشافيز غادر القصر وقدّم استقالته. وعند الساعة الثانية وعشر دقائق من بعد الظهر، ظهر الجنرال رينكــون لدحضــ تلــك التقاريــر. وقف وسط بعض من ضباط القيادة العليا في الجيش وقال: «قيل بأن رئيس الجمهورية محتجَز في فورت تيونا أو في ميرافلوريس، وهو الأمر الذي أنكره بشكل مطلق. فالسيد الرئيس موجود في مكتبه». كما أنكر رينكون صحة الشائعات التي تقول بأن القيادة العليا في الجيش قد استقالت.

فــي الحقيقــة، كان تشافيــز موجــوداً في مكتبه ولم يقدّم استقالته. لكنه عرف بأن الوضع يشتدّ تفاقماً. لم يكن يوجد سوى عدد قليل من رجال الشرطة والحرس الوطني في الشوارع التي تحيط بالقصر لمنع المسيرة من الاقتراب منه. كانت الشرطة تخضع لإمرة رئيس بلدية المدينة ألفريدو بينا المعارض لتشافيز، وكان يساعد المتظاهرين على التقـدم نحـو القصــر. لكــن بعد انتصاف الظهيرة بقليل، قــرر تشافيز تنفيذ خطة أفيلا، فحــاول الاتصــال بالجنــرال مانويــل روزيندو عبر الهاتف وجهــاز اللاسلكي مستخدماً أسمــاء مستعــارة قــد أعطيت بموجــب الخطة. كان اسم تشافيز تيبيورون أونو: القرش رقــم واحــد. لكــن روزينــدو لــم يردّ على النداء. كان حليفاً يثق به تشافيز، أو هذا ما اعتقده الرئيس. والآن لم يعد بالإمكان العثور عليه في أي مكان.

تناهــى إلــى أسمــاع حليــف آخر لتشافيــز، وهو الجنرال جــورج لويس غارسيا كارنييرو، أن الرئيس يحاول الاتصال بروزيندو ولكنه توقف عن ذلك بعد أن يئس مــن تلقّــي الــردّ. عرضــ غارسيــا كارنييرو تولّــي أمر تنفيذ الخطــة بنفسه. كان قائد الفرقــة الثالثــة فــي الجيشــ، وهــي أكبر وحدة عسكرية في كاراكاســ. تخرّج غارسيا كارنييــرو مــن الأكاديميــة العسكريــة مع تشافيز في العام 1975. وعلى الرغم من أنه لــم يشــارك فــي انقــلاب العام 1992، فقد كان متعاطفــاً مع البرنامج الإصلاحي الذي اقترحه الرئيس.

لكــن فيمــا كان يعرضــ علــى تشافيز تنفيذ الخطــة أفيلا، كانت أحداث غريبة تقع فــي فــورت تيونــا حيــث تتمركز الوحدة. فقد قطع الجنــود الطريق العام بان أميركان بواسطة شاحنات كبيرة وحوّلوا وجهة السير إلى القاعدة. بدأت الحافلات والشاحنات والسيارات تتدفق عليها، ولم يعد في استطاعة جنود غارسيا كارنييرو الخروج منها. وبالتالي، لم يكن يتوفر لتشافيز أي وسيلة لمنع المتظاهرين من محاصرة القصر.

تجــاوزت المسيــرة قصــر العدل بعد الساعــة الثانية من بعد الظهر بقليل، وتدفق المتظاهــرون فــي الشــوارع التــي تؤدي إلى القسم إيل سيلينسيــو التاريخي من المباني المطلية باللونين الأبيض والأزرق. وباتوا على مرمى حجر من القصر الأبيض المتألّق والذي ينتصب فوق تلّ صغير في أفينيدا أوردانيتا. شقّت الحشود طريقها نحو السلالم الرخاميــة البيضــاء المرتفعــة لمنتــزه إيل كالفيريو، حيث توقــف مئات من المتظاهرين للاستراحــة. وحــاول آخــرون الاقتــراب أكثر من ميرافلوريس، لكــن صفاً من أفراد شرطة العاصمة الذين يرتدون سترات واقية من الرصاص وخوذات واقية من أعمال الشغب مع دروع بلاستيكية تغطي الوجه وقفوا في عرض الشارع ومعهم دراجاتهم لمنع المتظاهرين من مواصلة سيرهم.

علــى مسافــة شــوارع قليلة، وقف مئات من مناصري تشافيز فوق جسر لاغونو الــذي يمــرّ فــوق تقاطــع الشارعين أفينيدا أوردانيتا وأفينيــدا بارالت. طلى العديد منهم وجهه باللون الأحمر، وهو لون قبعة تشافيز الشهيرة. ولوّحوا بقبضاتهم في الهواء،

وصاحــوا فــي وجــه المتظاهرين الذيــن عبروا شارع بارالت الذي يبعد عدة مئات من الأمتــار عنهــم، وتوجهــوا عائديــن إلــى القصر بالقرب من إيــل كالفاريو. كان بعض أنصــار تشافيــز يحملــون العصــيّ، والحجارة، والزجاجات. أحضــرت باستورا بينا، صديقــة ليناريســ كميــة مــن البهــار الأحمر الحارّ من متجر محلّــي. تصوّرت أن في إمكانهــا إلقاءهــا فــي وجــه العدو لتعمي بصره في حال وقع اشتباك بالأيدي، علماً بأن أغلــب المشاركيــن فــي الحشــود لــم يتوقــع حدوث شيء أكثر من ذلــك. وعلى الرغم من التوتر السائد، بدا الجو احتفالياً على نحو غريب. فكان الباعة المتجولون يبيعون الفشار، والسجق والمياه المعبأة.

كان هنــاك صفــوف قليلــة من أفراد شرطة العاصمة والحرس الوطني تفصل بين المجموعتين، اللتين بالكاد بات يفصل بينهما مئة متر في بعض النقاط.

ساد جو من التوتر الشديد. وتجمّع المتظاهرون المعارضون لتشافيز بالقرب من مدرسة فيرمين تور الثانوية التي تبعد بضع مئات من الأمتار عن القصر. كان في مقدورهم رؤية الجدران المرتفعة التي تحيط بميرافلوريس.

بالقــرب مــن ملتقــى شارعيــن عنــد إل كالفاريو، أوقف رجــال شرطة العاصمة المتظاهرين لبضع دقائق. لكن المتظاهرين اندفعوا نحوهم واخترقوا صفوفهم، وأسقطوا في طريقهم بعض الدراجات، وتقدموا نحو شارع تصطف على جانبيه أشجار النخيل يــؤدي إلــى القصــر. لــم يبدر عن رجال الشرطة أي ردّ فعل. قاد المتظاهرين لاميدا ومولينا تامايو الذي بقي يحثّهم على الاندفاع إلى الأمام من أجل شنّ هجوم مباشر على القصر الذي لم يكن يبعد سوى مئتي متر عنهم. وفي الطرف الآخر من الجادّة كان يوجد نحو خمسة عشر عنصراً من الحرس الوطني يعملون على وقف أنصار تشافيز. عمد الحرس الوطني إلى إطلاق الغاز المسيل للدموع لإبقاء المتظاهرين المنتمين إلى المعارضة بعيداً. تراجع هؤلاء المتظاهرون، لكنهم واصلوا محاولات التقدم ليتراجعوا مجــدداً بعــد أن بــدأوا يتقيــأون بفعل الغاز. صاح مولينــا تامايو في الحشود عبر مكبّر للصوت وقال: «يتعينّ علينا تجاوز المنطقة التي ينتشر فيها الغاز. الريح تهبّ في هذا الاتجاه... علينا أن نجري في الاتجاه الآخر. اعبروا الممرّ عندما يطلقون الغاز المسيل للدموع، انتقلوا إلى الأمام بسرعة. يتعين علينا تجنب الغاز المسيل للدموع».

عنــد الساعــة الثانيــة عشــرة والنصف من بعد الظهــر تقريباً، تفجّر غضب بعض المتظاهرين في فيرمين تورو فبدأوا يلقون كل ما يمكن أن تلتقطه أيديهم على الحرس الوطني وعلى أنصار تشافيز الذين كانوا يبعدون عنهم مسافة قريبة. ألقوا بالزجاجات، والحجارة، والكراسي، والأنابيب، والقضبان المعدنية، وحبات السانغا والتفاح والموز وقشور البطيخ الأحمر. كما قاموا بتحطيم جدار الثانوية العامة، وإلقاء حجارته أيضاً. رمــى أفــراد الحرســ الوطني بعضــاً من هذه الأشياء على المتظاهرين. وتبادل أنصار المعارضة وأنصار تشافيز الشتائم.

تواصل تدفق أنصار المعارضة إلى وسط المدينة، وكان أريستوبولو إيستيوريز في مكان ما وسط المسيرة. وعندما اقترب من أفينيدا بارالت، تفاجأ من سماح السلطات لهم بالوصول إلى هذه المسافة القريبة جداً من القصر. اعتقد أنه كان في مقدور الحرس الوطني إيقافهم قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى وسط المدينة. رأى أمامه دخان الغاز المسيل للدموع يملأ الشوارع الجانبية الضيقة. وبما أنه تلقّى تدريبات عسكرية، صاح أرانغورين في الحشود، وطلب منهم أن يجثوا على ركبهم والتقدم زحفاً لتجنب الغاز. غطّى بعض الأشخاص أفواههم بواسطة مناديل مشرّبة بالخل، فيما أدار بعض الأشخاص ظهورهم وبدأوا بالجري.

وصل أرانغورين إلى أفينيدا بارالت ووقف في وسط الشارع وبدأ يفكر في ما ينبغي عمله بعد ذلك. ربما ينبغي عليه الرحيل أيضاً. وفيما كانت الخيارات تجول في رأسه بسرعة، صاح أحدهم فجأة: «انتبهوا، جاء بعض الأشخاص على دراجات نارية». اعتقد أرانغورين بأنهم ينتمون إلى الدوائر البوليفارية القادمة لمهاجمة المتظاهرين. لكنه عندما رآهم، تبين له أنهم أفراد من شرطة العاصمة. كانوا يتوجهون شمالاً نحو أقصى الشارع، دافعين الحشود في اتجاه الممر العلوي وأنصار تشافيز. عندئذٍ، ولّى أرانغورين هارباً نحو لاغونو.

لم يكد يبتعد مقدار مئة متر حتى تقدمت دبابة مكافحة الشغب سالكة طريق أفينيدا بارالت قادمة من شارع جانبي وتوجهت شمالاً نحو أنصار تشافيز. أطلقت الطلقة الأولى، وتلاها سيل من الرشقات. احتمى أرانغورين خلف الدبابة، وراقب مفزوعاً فيما كانت مجموعة من الرجال تركض في الشارع حاملة أولى الضحايا. كان يرتدي زياً أسود وكان الدم يسيل من رأسه.

بدأ أرانغورين بالجري ورأى ضحية ثانية تسقط على الأرض بعد أن أصيبت برصاصة في الرأس. نظر إلى المباني المقابلة ولم يرَ شيئاً، لكنه كان على قناعة بأنه يوجد قنّاصة يطلقون النار على الناس. كانت الأعيرة النارية تُطلق من فوق. وتوجه جنوباً عبر أفينيدا بارالت وصاح في الناس طالباً إليهم التراجع وقال: «يوجد قنّاصة».

كان هنري رودريغيز يمشي على مسافة عدة مبانٍ عائداً إلى مجموعة من أنصار تشافيز قادماً من مدرسة فيرمين تورو الثانوية إلى ميرافلوريس. وفي أثناء عبوره كاسا دي إسباغيتي - بيت السباغيتي - في شارع جانبي، رأى أربعة رجال يركضون في الشارع حاملين رجلاً ممتلئ الجسم لا يرتدي سترة. كان الرجل يعرج والدم يغطي صدره.

عند الساعة الثالثة والثلث من بعد الظهر تقريباً، وعلى مدى الساعات القليلة التالية، انهمر الرصاص على كل من أنصار المعارضة وأنصار تشافيز. كان دخان البنادق ينبعث من نوافذ فندق عدن على شارع أفينيدا بارالت. كانت أنوار حمراء

شبيهة بالليزر تومض مع سماع أصوات الطلقات. وبدا أن الأعيرة النارية تُطلق من مبـانٍ أخـرى أيضـاً، بمـا في ذلك فندق أوسونيا الذي يقـع قبالة ميرافلوريس والمبنى الحكومـي لا ناسيونـال فـي بارالـت. راقب أرانغورين الناس فيمـا كانوا يتفرقون في الاتجاهـات كلّهـا. لـم يعرفـوا إلى أين يذهبون، أو المصـدر الذي تنبعث منه الطلقات النارية. وبدا وكأنّها تنبعث من كل مكان.

أصيـب مصـوّر صحفـي، ويدعى جورج تورتـوزا، بطلقة في رأسه وتوفي في وقت لاحق. وأصيب حارس شخصي لنائب الرئيس ديوزدادو كابيلو، ويدعى طوني فيلاسكويز، بجروح خطيرة. وأصيبت متظاهرة تدعى مالفينا بيزاتي بطلقة في الرأس ولكنهـا نجـت بأعجوبـة. تم تصويـر الهجوم على شريط فيديو مرعب ظهر فيه رأسها وهو يميل إلى الأمام قبل أن تسقط على الأرض. وأصاب طلق ناري يسينا فيينتيس، وهـو مـن أنصـار تشافيـز كان يبيع الإمبناداس على جسـر لاغونو، في وجهه. وكما فيينتيس، أصيب العديد من الضحايا بجروح في الرأس أو في الرقبة.

بالعودة إلى استديوهات المحطات التلفزيونية، لم يكن بعض ممن يذيعون النشرات الإخباريـة متأكـداً ممـا يجري لأنه لم يكـن يستطيع رؤية المشهد بأكمله. وعند الساعة الثالثـة والأربعيـن دقيقـة من بعد الظهـر، وفيما كانت إحدى المحطات تعرض لقطات للحارس الشخصي فيلاسكويز وهو يُنقل في اتجاه قصر ميرافلوريس، قالت مذيعة بأنه ربما سقط مغشياً عليه من جرّاء تعرّضه لضربة شمس.

بعـد مـرور خمسـ دقائـق، وفيما كان الوضع في الشارع يخرج عن السيطرة، سُمـع صـوت تشافيـز علـى موجات الأثير. كان ذلـك الجهد الأخير للدعوة إلى التزام الهـدوء وتجنّـب مـا اعتبـره عصياناً مسلّحاً. دعا إلى كادينا، أي وقف عرض المشاهد التي تُلتقط في الشوارع. أذاع الرئيس رسالته من صالون أياكوشو تحت سطح الأرض وبدا أنه لا يعرف شيئاً عن أعمال العنف التي اندلعت في الشوارع فوقه. تحدث لمدة عشرين دقيقة تقريباً، ناشد فيها المتظاهرين التزام الهدوء وعدّد الإنجازات التي حققتها إدارته.

لكن على مدى نصف ساعة، عادت المحطات التلفزيونية إلى تقسيم شاشاتها في أثناء بثها لرسالته إلى قسمين من جديد، فعرضت تشافيز وهو يتحدث في قسم، وأعمال العنف في القسم الآخر. كما أنها عمدت إلى التشويش على البثّ بحيث بات من الصعب سماع ما يقوله الرئيس. ورسم مساعدٌ إشارات بيده إلى تشافيز لكي يلفت انتباهه إلى ما يجري. وأعلن الرئيس الغاضب بأنه أمر حكومته بالتشويش على إرسالات المحطات التلفزيونيـة لأنهـا تحرّضـ علـى العصيان. قال الرئيس إن هذه المحطات حصلت على رخصـ مـن الدولـة بالعمـل، لكنهـا «لا تستطيـع استعمال ذلك الحـق في التهجم على الدولـة نفسهـا، أو فـي التحريضـ علـى العنف، أو في دعمه، علـى اعتبار أنها على علـم بوجـود خطـة لإعلان العصيان... بلغـت تلك الخطة مستوى متطرفاً، بلغت حدّ

الجنون... عندما جمعت الناس، بعض الفنزويليين - حتى إنها كذبت عليهم - وقالت لهم إن تشافيز قيد الاعتقال أصلاً، وإنّ علينا التوجّه إلى ميرافلوريس... وإننا سنسقطه بدفعة خفيفة.

فيما كانت الحكومة تعمل على قطع الإرسال التلفزيوني، كان لدى محطات التلفزيون خطة طارئة، فبدأت ببثّ إرسالها عبر الأقمار الصناعية مما سمح لكل شخص لديه طبق لاقط باستقبال بثّها. بالنسبة إلى هذه المحطات، بدأت الأحداث المرعبة تتكشف، وهي بحاجة إلى إذاعة الأخبار التي تتحدث عنها. اعتقدت تلك المحطات بأن تشافيز يحاول التغطية على أعمال العنف. وفيما كان يتابع إلقاء خطابه، سلّمه أحد الضباط قصاصات من الورق عليها لائحة بأعداد القتلى. شعر تشافيز بالارتباك عندما رآها، لكنه واصل خطابه فيما كانت الشاشات المقسمة تعرض لقطات تظهر إراقة الدماء في الشوارع. تطرّق في خطابه إلى كل شيء من برنامجه الجديد لدعم المركبات إلى أسعار النفط. وختم تشافيز حديثه بالقول: «الوضع ليس خطيراً، وهو تحت السيطرة». كانت عبارة غريبة لأن شاشات التلفزيون كانت تعرض العكس. وبذلك يكون تشافيز قد ارتكب خطأه الأكبر في ذلك اليوم بإصداره أمراً بقطع بث المحطات التلفزيونية والإدلاء بحديث يتناقض مع حقيقة ما كان يجري في الخارج.

عندما أنهى خطابه عند الساعة الخامسة والخمس عشرة دقيقة من بعد الظهر، وصلت أعمال العنف إلى مسافة قريبة جداً من القصر لدرجة أن الحراس الشخصيين أعادوه إلى مكتبه عبر نفق بدلاً من السير في باحة القصر. كان الوضع أخطر من أن يُسمح له بالخروج. والآن، أدرك المدى الذي وصلت إليه أعمال العنف الدائرة في الشوارع. صعد السلالم، وارتدى بزّته وربطة عنق، وارتدى سترته العسكرية المموهة واعتمر القبعة الحمراء، ثم وضع مسدساً بجانب قدمه، وأمسك ببندقية هجومية. اعتقد بأن الثورة دخلت مرحلتها الثانية، وأن الثوار المسلحين سيهاجمون القصر. اتّصل بالرئيس البرازيلي هنريكه كاردوسو. كان ذلك أول اتصال يجريه مع شخص خارج البلاد. أراد الرئيس إطلاع الجارة الكبرى لفنزويلا على ما كان يجري.

اتصل تشافيز برينكون في فورت تيونا وطلب إليه المجيء إلى ميرافلوريس برفقة القيادة العليا من أجل تحليل الوضع. استقلّ الضباط طوافة عسكرية عند الساعة السادسة والنصف من بعد الظهر تقريباً في رحلة قصيرة. وعاد الجنرال مانويل روزيندو، الذي اختفى عندما حاول تشافيز الاتصال به في وقت سابق من ذلك اليوم لكي يطلب إليه تنفيذ الخطة أفيلا، وظهر وصعد إلى متن الطوافة. وكذلك فعل غارسيا كارنييرو ووزير الدفاع خوسيه فيسينته رانجل. لكن قائد الجيش، الجنرال إفريان فاسكويز فيلاسكو، لم يُعثر له على أثر. في هذه الأثناء، أمر تشافيز أحد مرؤوسي كارنييرو في فورت تيونا بإرسال الدبابات. كان بحاجة إلى حماية. وصل عدد قليل منها، لكن فاسكويز فيلاسكو أمرها لاحقاً بالعودة إلى فورت تيونا، فهو لم يعد إلى جانب الرئيس

الآن؛ لقد انضم إلى الحركة الانقلابية.

فيما كان تشافيز يصارع من أجل الردّ بسرعة على الأحداث الجارية، سارعت المعارضة إلى الاستفادة من أعمال العنف، فألقت باللائمة على تشافيز، ووصفته بأنه قاتـل سفـاح أمـر بقمع المعارضة لمنـع المتظاهرين المسالمين من إزاحته عن السلطة، ثم حاول التغطية على فعلته تلك بقطع إرسال المحطات التلفزيونية. فرّ لاميدا ومولينا تامايـو وكارمونـا وأورتيغـا وقادة المعارضـة الآخرون من وسط كاراكاس على متن دراجـات نـاريـة قبـل دقائـق مـن بدء إطلاق النار. كان العديـد منهم قد تواعدوا على الذهاب إلى فينيفيجن، وهي المحطة التلفزيونية التي يملكها غوستافو سيسنيروس الذي كان يقيـم مأدبـة غـداء علـى شـرف السفير الأميركي تشارلـز شابيرو في فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم. وعند الساعة الخامسة والعشرين دقيقة من بعد الظهر، أي بعد خمسـس دقائـق مـن إنهاء تشافيز خطابه، ظهر لاميـدا وتامايو على شاشات التلفزيون. قال تامايو: «إلى كافة أفراد القوات المسلّحة، نرجو أن تفعلوا شيئاً. هذه الحكومة لم تعد شرعية الآن. لا رجعة إلى الوراء».

بعـد ساعـة مـن خطاب كارمونا، بدأ سيل مـن زعماء المعارضة، وحتى لويس ميكويلينا كبير مستشاري تشافيز الأسبق، بالظهور على شاشات التلفزيون وإدانة تشافيز علـى عمليـات القتـل. وفـي الوقـت نفسه تقريباً، صُعقت البـلاد عندما ظهر عشرة من كبار الضباط العسكريين غير المعروفين على شاشات التلفزيون وقالوا بأنهم ما عادوا يعترفـون بتشافيـز رئيسـاً للبـلاد. أعلن هؤلاء الضباط: «لقـد قررنا التوجه إلى الناس للإعلان عن أننا نرفع دعمنا عن الحكومة وعن سلطة هوغو تشافيز وعن القيادة العليا في الجيش بسبب انتهاكهم المبادئ والضمانات الديمقراطية الرئيسية، وبسبب انتهاكهم حقـوق الإنسـان فـي فنزويلا... لقد خان رئيسُ الجمهورية ثقة الشعب، وهو يرتكب مجزرة في حق الناس الأبرياء بواسطة القنّاصة. لقد سقط الآن ستة أشخاص آخرون وأصيب العشرات بجروح في كاراكاس».

بلغـت الأحـداث ذروتهـا عند الساعة السابعـة والنصف مساء تقريباً، عندما بدأت محطة فينيفيجن ببث شريط فيديو بدا أنه يدين تشافيز من دون أدنى شك. ففي وقت سابـق مـن فتـرة مـا بعـد الظهر من ذلك اليوم، كانت المحطـة التلفزيونية قد وضعت كاميرا ومراسلاً على سطح أحد المباني المطلة على شارع أفينيدا أوركيناتا بين جسر لاغونو وقصر ميرافلوريس. قاموا بتصوير مشهد واضح للجسر، على الرغم من أنه لم يكن بمقدورهما تصوير أفينيدا بارالت حيث كانت تدور أعمال عنف. صوّر فريق فينيفيجـن شريـط فيديـو يظهر بوضوح أشخاصاً أمكـن التعرف عليهم بأنهم من أنصار تشافيـز بقبعاتهـم الحمـراء أو سترات حركة الجمهورية الخامسة وهم يطلّون برؤوسهم مـن محيـط مبنـى يقـع في زاوية في جانب الجسر ويطلقون النار من مسدساتهم. كان مضمون ذلك المشهد واضحاً: أنصار تشافيز هم الذين قتلوا المتظاهرين.

ظهر في المشهد رجل تبين أنه أحد أنصار تشافيز ورجل آخر من مجلس البلدية ويدعى ريتشارد بانيلفار وهما منحنيان على الأرض ويختلسان النظر من زاوية المبنى الذي يقع بعد الممر الفوقي. وبعد ذلك، مدّ يده اليمنى وضغط على زناد المسدس عدة مـرات. كان يقـف خلفـه نحـو من عشرة أشخاص من أنصار تشافيز، بمن فيهم رجل يرتـدي قبعـة حمـراء اللـون ورجل آخر يحمل بندقيـة. كان مشهداً لا يُحتمل: مسؤول منتخَب يحصد متظاهرين سلميين.

بـدأت محطـة فينيفيجـن تبثّ هذا المشهـد ومشاهد أخرى على شاكلته للجسر على نحـو متكـرر، مـع عرض شريـط إخباري في أسفل الشاشة يسـرد أسماء المتظاهرين القتلـى أو الجرحـى. وقـدّم مذيـع فـي الأستوديو شرحاً لمـا كان يجري. قال المذيع: «انتبهـوا الآن. انظـروا إلـى هـذا الرجل الذي يرتدي كنزة حركة الجمهورية الخامسة والستـرة الرماديـة، وكيـف يقوم بإطـلاق النار من مسدسه، وكيف يفرغ طلقاته. لقد أطلق هذا الرجل النار للتو على خمسة متظاهرين جاؤوا إلى هذا المكان بطريقة سلمية من دون أسلحة من أي نوع... إنهم يطلقون النار على مئات من المتظاهرين العُزل المرّة تلو المرّة».

فيمـا كان يظهـر علـى الشاشـة بعض الأشخاص وهم ينقلـون بعض الضحايا في اتجاه ميرافلوريس، أضاف المذيع: «يمكنكم أن تروا الآن هؤلاء الجرحى الذين سقطوا إثـر تعرضهـم للطلقـات النارية وقد وصلوا إلى ميرافلوريس. يبدو أنهم كانوا يتوقعون حدوث ذلك سلفاً. لقد توقعوا وقوع ذلك بلا شك لأنهم سبق أن أقاموا مستشفى نقّال فـي ميرافلوريـس حيـث تجـري معالجة هـؤلاء المصابين، كما شاهدتم في فترة ما بعد الظهر من هذا اليوم هؤلاء الأشخاص الذين أصيبوا بطلقات نارية، ضحايا النيران التي أطلقها أنصار حركة الجمهورية الخامسة والدوائر البوليفارية المسلّحة».

ثـم وجّـه المذيـع أصابـع الاتهـام إلى أنصار تشافيز لأنهـم خططوا لنصب كمين مسلّح للإيقاع بالمتظاهرين. وفيما ظهر في أسفل الشاشة أنصار تشافيز وهم ممدّدون في الشارع خلف درابزين معدني، قال المذيع: «انظروا، إنهم متمركزون هناك في وضع هجومي. هؤلاء هم أعضاء الدوائر البوليفارية وهم يطلقون الصواريخ من أجل زرع البلبلة ومحاولة التمويه بطريقة ما على أعمال يوشكون على القيام بها باستخدام أسلحتهم النارية».

كانـت تلـك صـوراً مذهلـة التقطتها الصحافة التلفزيونيـة، وكانت البلاد في حالة غضب شديد. وحتى مناصرو تشافيز المقربون شعروا بالاشمئزاز مما وقع وقرروا أنه لـم يعـد فـي وسعهم الاستمرار في دعم رئيس أمر أنصاره المسلحين بارتكاب مجزرة بحقّ متظاهرين عُزل. كان شريط الفيديو مؤثراً ومرعباً لدرجة أن فريق الأخبار في محطة فينيفيجن فاز بعد عدة شهور بجائزة الملك الإسباني للصحافة المرموقة.

لكـن كان يعيـب الشريـط الإخبـاري الذي عرض في أسفـل الشاشة أمر واحد.

كشف هذا الشريط عن عملية تلاعب.

أثبتــت التحقيقــات والأفــلام الوثائقيّــة التالية بأنه ربمــا لم يتسبب إطلاق النار من جانــب أنصــار تشافيــز الذين كانوا منتشريــن على الجسر في قتل أحد. فعندما التقطتهم عدســات الكاميــرا، لــم تكــن طلقاتهم موجهة إلى المتظاهريــن، وإنما إلى أفراد شرطة العاصمــة والقنّاصــة الذيــن كانوا يطلقــون النار عليهم. كانوا يدافعون عن أنفسهم وعن مئات من أنصار تشافيز غير المسلحين المنتشرين على الجسر الذين انبطحوا في الشارع لمحاولة تجنب النيران التي كانت تُطلق عليهم، فهم لم ينصبوا كميناً. وشريط الفيديو التي التقطته محطة فينيفيجن لم يظهر الهدف الذي كان أنصار تشافيز يصوّبون نيران أسلحتهم تجاهه في شارع أفينيدا بارالت، وإنما أظهرهم فقط وهم يطلقون النار.

كمــا أظهــر الفيلــم الوثائقي جسر لاغونا – Keys to Massacre – لاحقاً، يتبين أنه باستخــدام أشرطــة الفيديــو والصور الفوتوغرافيــة الرقمية المسجلة وفقاً للزمن الحالي، فــإن أغلــب أنصــار المعارضــة الذين قُتلــوا تعرّضوا لإطلاق النار بيــن الساعة الثالثة والعشريــن دقيقــة مــن بعد الظهر، عندما أصيب طوني فيلاسكويز، الحارس الشخصي لنائب الرئيس، والساعة الثالثة والخمس والخمسين دقيقة. ولم يبدأ أنصار تشافيز الذين صورتهم عدسات الكاميرا بإطلاق النار من فوق الجسر إلاّ في الساعة الرابعة والثّماني والثلاثين دقيقة من بعد الظهر. أي أنه مرّ خمس وأربعون دقيقة بين الحادثتين. لكنّ محطــة فينيفيجــن دمجــت بينهمــا وجعلت الأمــر يبدو كما لو أن أنصــار تشافيز يقتلون المتظاهرين.

بالإضافــة إلــى ذلــك كله، سقط أغلب ضحايــا المعارضة على مسافة تبعد ثلاثمئة متر على الأقل عن الجسر، وهي مسافة أطول بكثير من مدى المسدسات التي كانت بحوزة أنصار تشافيز. في الواقع، كان بعض الضحايا، مثل المصوّر جورج تورتوزا والمتظاهــر فــي صفــوف المعارضــة مالفينا بيزاتي، في شارع جانبــي بعيد عن أفينيدا بارالــت. أي أنــه مــا مــن سبيــل إلــى إصابتهم بالنيران التي أطلقــت من الممر الفوقي لعدم توفر زاوية للتصويب عليهم من هناك. حتى إن أحد القتلى، ويدعى خوان ديفيد كويراليســ، سقــط علــى مسافــة أبعد من الجسر، وكان محجوباً بشكل كامل عن أنظار مطلقي النار المنتشرين على الممر الفوقي لأنه لم يكن يقف في شارع بارالت.

يضاف إلى ذلك أنه تبين أنّ العديد من الأشخاص التسعة عشر الذين قُتلوا، إن لــم يكــن أغلبهــم، لــم يكونوا من أنصار المعارضة وإنما كانوا من أنصار تشافيز. كان ثلاثــة منهــم يقفــون قبالــة قصــر ميرافلوريس على مسافة شارعيــن من جسر لاغونو، وراحــوا بشــكل شبــه مؤكد ضحية النيران التي أطلقها القنّاصة. والمستشفى النقّال الذي أشــار إليــه المذيــع فــي محطــة فينيفيجن أقيــم في الواقع قبل تلك الحــوادث بثلاثة أيام لمعالجة من أصيبوا بنوبات قلبية خلال التجمعات التي عقدها أنصار تشافيز. كما قُتل ثلاثــة مــن أنصــار تشافيــز على الأقل، منهم بيدرو ليناريســ، على الجسر أو بالقرب

منه، لكنهم لم يظهروا في الشريط الذي بثّته المحطات التلفزيونية، حتى إنها لم تأتِ على ذكرهم على الإطلاق.

كانت هناك مشكلة أخرى في التصريحات التي أدلى بها اللواء البحري راميريز وآخرون. كانت تصريحات مسجَّلة. فقد قال أوتو نويدْستال، وهو مراسل يعمل لدى محطة سي أن أن الناطقة باللغة الإسبانية، في وقت لاحق في مؤتمر عام بأن راميريز وآخرين استدعوه إلى مكتب في كاراكاس في وقت سابق من ذلك اليوم لتسجيل التصريحات، وأنهم أدلوا بتصريحاتهم تلك قبل بدء إطلاق النار على المتظاهرين. بدا أن الضباط العسكريين كانوا على علم مسبق بأن هناك أشخاصاً سيُقتلون. حتى إنهم ذكروا عدد من سقط من المتظاهرين حتى تلك اللحظة: مقتل ستة متظاهرين على الأقل، وإصابة العشرات بجراح.

بدا واضحاً أن العديد من الضحايا سقطوا جرّاء تعرّضهم لإطلاق نار من قنّاصة كانوا منتشرين على السطوح أو في الطوابق العلوية في المباني المجاورة. وقُتل العديد من المتظاهرين أو جُرحوا من جرّاء إصابتهم بطلقات في الرأس أو في الصدر. كان مسار المقذوفات من أعلى إلى أسفل. في الواقع، سرعان ما ألقى العملاء الحكوميون القبض على سبعة رجال مسلّحين عُثر عليهم في فندق أوسونيا، لكن تم إطلاق سراحهم في غمرة الفوضى التي سادت وقت الانقلاب. ووجد المحققون في وقت لاحق ظروف طلقات فارغة في فندق عدن. كان من شبه المستحيل أن يلحق أنصارُ تشافيز المنتشرون فوق الجسر هذه الإصابات الدقيقة في هذا العدد الكبير من الضحايا الذين كانوا على مسافة بعيدة جداً عنهم. ولا بدّ أن هذا العمل كان من تدبير قنّاصة تلقّوا تدريبات عالية، واستخدموا بنادق فائقة القدرة، ولم يكن ذلك من أعمال إطلاق النار بواسطة المسدسات الرخيصة. من الممكن من الناحية النظرية طبعاً أن يعمد بعض الأشرار من أنصار تشافيز ممن لديهم خبرة في استعمال الأسلحة إلى تسلّق سطوح المباني وقتل بعض المتظاهرين، كما كان من الممكن أن تكون الحكومة الجهة التي أمرت بفعل ذلك، كما أنه من الممكن أيضاً أن بعضاً من أنصار تشافيز المنتشرين في الشوارع فضلاً عن عناصر الحرس الوطني أطلقوا النار فقتلوا بعض أنصار المعارضة أو أصابوهم بجراح. لكن الأرجح هو أن الإصابات وقعت عندما بدأ القنّاصة بإطلاق النار على الجانبين من أجل إحداث فوضى وإراقة الدماء، ومن أجل تحريض المسلحين من أنصار تشافيز على الردّ على إطلاق النار بالمثل. كما أن حوادث القتل تلك طرحت السؤال التالي: من هو المستفيد من حصول ذلك كلّه؟ من الواضح أنه ليس تشافيز. لكن في تلك اللحظة، ومع جريان الدماء في شوارع كاراكاس، ومع امتلاء شاشات التلفزيون في البلاد بالتقارير المرعبة التي تتحدث عن وقوع مجزرة، توفّر للمعارضة الغطاء السياسي لتدبير انقلاب، وهو الغطاء الذي أشارت تقارير وكالة الاستخبارات المركزية قبل خمسة أيام إلى افتقار المعارضة إليه. فإذا كان تشافيز قاتلاً عديم الرحمة، من

الذي يمكنه أن يلوم الجيش على التدخل وإزاحته عن السلطة؟.

تبنّـت وسائـل الإعـلام الدولية روايـة وسائل الإعلام المحلّية عن عمليات القتل، مـع شـرط مسبـق بالقبـول بحكايـة المعارضـة عما جرى من أحـداث من دون نقاش واعتبـار وجهـة نظـر الحكومة بأنها سخيفـة. قامت وسائل الإعلام الدولية ببثّ شريط الفيديـو سيّـئ الذكـر الـذي يصـوّر ما وقع على جسر لاغونـو إلى مختلف أنحاء العالم وأعادت بثّ التصريحات التي أدلت بها المعارضة والتي لامت فيها تشافيز على وقوع تلك المجزرة.

قال المراسل المستقل والمساهم في ميامي هيرالد، ويدعى فيل غانسون، لمستمعي الإذاعـة العامـة الوطنيـة فـي الولايات المتحدة بأنه: «يبـدو أن حالات القتل والإصابة بجـروح كانـت مـن فعـل قنّاصـة، وأن من الواضح أنهم إلى جانـب الحكومة، وأنهم أطلقـوا النـار مـن سطـح مبنـى كان يسيطر عليه أنصـار الحكومة، كما كانت من فعل الحرس الرئاسـي». وعندمـا سأله أحد الضيـوف في الأستوديو عن ردّ الحكومة على هذا الاتهام، أجاب غانسون: «حسناً، تحدثتُ إلى شخص في القصر قبل وقت وجيز من الآن وقال لي بأن الرواية التي حصلوا عليها تتحدث عن أن أفراد شرطة العاصمة هم الذين قاموا بعمليات القتل تلك، وهي قوة تسيطر عليها المعارضة. لكن هذا الكلام عارٍ عن الصحة بالتأكيد بحكم المعلومات التي أعرفها. لقد قام تشافيز بدقّة بالعمل الذي قالٍ بأنه لن يقوم به أبداً». وأضاف: «وهو إصداره الأمر إلى القوى الأمنية بإطلاق النار على المتظاهرين في الشوارع».

تبنّـت أغلـب وسائـل الإعلام التجارية المتبقية وجهـة النظر نفسها، فقال مراسل محطـة سـي بـي أسـ الإخبارية، أنطوني ماسون، للملايين مـن المشاهدين بأنه: «في النهايـة، هـذا مـا دفـع إلـى الإطاحة بهوغو تشافيـز: عصابات مسلّحـة موالية للرئيس الفنزويلـي أطلقـت النـار على آلاف مـن المتظاهرين المعارضيـن للحكومة». أشارت سـان بيترسبـورغ تايمـز إلـى أنـه: «مع اقتراب المتظاهرين مـن القصر، فتح الجنود الحكوميـون النـار مستخدميـن الطلقات الحيّة والغاز المسيّل للدموع، وذلك استناداً إلى ما رواه شهود عيان». واقتبست الصحيفة من أحد الصحافيين الفنزويليين قوله: «كان كميناً مدبّراً». وقالت ذي نيويورك تايمز بأن تشافيز «ملزم أخلاقياً بتقديم استقالته بعد أن قُتـل مـا لا يقـل عـن 14 شخصـاً على يد رجال مسلّحين أمكن تحديد هوياتهم بأنهم مـن أنصـاره». وذكـرت ذي ميامي هيرالد بأن: «الجنـود والمدنيين الموالين لتشافيز فتحوا النار على مسيرة حاشدة في الشوارع طالبت الرئيس بالتنحّي». وسمع مشاهدو برنامـج نيـوز أور المرمـوق الـذي تبثّه محطة بـي بي أس ضيفاً اعتمد من دون شك على التقارير الإخبارية الدولية وهو يصرّح بأن: «تشافيز أمر عناصر الحرس الوطني والمسلحين المدنيين بإطلاق النار على نحو من مئتي ألف متظاهر لمنعهم من الوصول إلى قصره».

مساء ذلك اليوم، وبعد مضي وقت قصير بُثّ شريط جسر لاغونو لأول مرّة على شاشة فينيفيجن، وصل قائد الجيش، إفريان فاسكويز فيلاسكو، إلى المحطة التلفزيونية ووجّه ما بدا أنه الضربة الأخيرة لتشافيز. وفيما كان يحيط به ضباط آخرون من أصحاب الرتب العليا، قال: «اليوم، جرى انتهاك الحقوق الإنسانية المكرَّسة في دستور فنزويلا البوليفاري كافّة. مات فنزويليون بسبب عدم قدرة الحكومة على الدخول في حوار». وبعد أن صرّح بأنه ليس من واجب الجيش إيذاء المدنيين أو محاربتهم، اعتذر إلى الشعب الفنزويلي وأمر جنوده كافّة بالبقاء داخل ثكناتهم، وأضاف: «هذا ليس انقلاباً عسكرياً، وهذا ليس عصياناً. إنه موقف تضامن مع شعب فنزويلا». في عبارة ترددت في شتى أرجاء البلاد مثل صوت باب زنزانة تم إقفاله، قال: «سيدي الرئيس، لقد كنت مخلصاً لك حتى النهاية. لكن لا يمكن القبول بانتهاك حقوق الإنسان وعمليات القتل التي ارتُكبت اليوم». ثم وجّه انتباهه إلى باقي أفراد القيادة العليا وقال: «قوموا بواجبكم. أنتم رجال شرفاء».

كان تشافيز واقعاً في مشكلة خطيرة. أراد إيصال رواية الحكومة عما جرى في فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم، لكن المعارضة كانت تسيطر على وسائل الإعلام. ولم تعمد أي محطة تلفزيونية على إجراء مقابلة معه أو مع أي من المسؤولين الحكوميين الآخرين. كما أن عناصر الشرطة التي يرأسها هنريكه مندوزا حاكم ميرندا اقتحمت المحطة رقم 8 التي تديرها الدولة، واستولت عليها. أعلن مندوزا بأن: «قمامة القناة 8 ستغيب عن الأثير في غضون الساعات القليلة القادمة. وواصل الموظفون بثّ آخر شريط قبل أن يفرّوا – شريط وثائقي قديم يحكي عن الطبيعة وطيور البط – جرى عرض الشريط مرات ومرات فيما كانت البلاد على وشك أن تندلع فيها النيران.

في ساحات ميرافلوريس، استخدم العديد من كبار حلفاء تشافيز، بمن فيهم وزير التعليم أريستوبولو إيستيوريز، وحدة نقّالة لمحاولة إذاعة رسالة. نظر إيستيوريز إلى ساعته وقال إنها التاسعة والعشرين دقيقة مساءً، كما لو أنه يريد الإشارة إلى أن الرسالة تُنقل على الهواء وليست مسجَّلة. وحاول العضو في الكونغرس الفنزويلي خوان باريتو عرض رواية الحكومة عن الأحداث. وخاطب الجيش، الذي كان يسعى مدبّرو العملية الانقلابية إقناع ضباطه بالانضمام إلى الثورة، بالطلب منهم مشاهدة صور إراقة الدماء على شاشات التلفزيون والاستماع إلى التقارير التي تتحدث عن أن تشافيز أمر أنصاره بارتكاب مجزرة بحق المتظاهرين. قال باريتو: «أقول للضباط الذين ربما شعروا بالارتباك بسبب هذا الشريط بأن وسائل الإعلام تكذب... كان الطرف الآخر الذي ارتكب مجزرة في حقنا». لكن البث اختفى عن الشاشة بعد دقائق معدودة. لقد انقطع بثّ القناة 8، حبل النجاة الأخير لتشافيز وخط اتصاله مع الشعب الفنزويلي.

بعد مرور أقل من ساعة، أمر تشافيز بإخلاء زوجته ماريزابيل، وابنتهما البالغة من العمر أربع سنوات، واسمها روزينياس، من العاصمة بواسطة طائرة. كما أمر

أبنــاءه الثلاثــة الآخريــن، هوغــو رافاييل وروزا فيرجينيا وماريــا غابرييلا، بمغادرة كاراكاس. كان يخشى على أرواحهم. لكن ما لم يكن تشافيز يعرفه هو أن أبويه كانا داخل القصر حيث بقيا طوال اليوم. فرّ أبناؤه الكبار إلى منزل يقع على الساحل الكاريبي. وفرّت ماريزابيل وروزينياس إلى باركويزيميتو. وبعث النشاط الذي كان يدور في قاعدة لا كارلوتا العسكرية الواقعة في شرق كاراكاس، والتي كان يُحظر فيها عادة القيام برحلات بعد حلول الظلام، الأمل في أوساط معارضي تشافيز بأنه يستعدّ لمغــادرة البــلاد. وفــي إعادة لمشهد يعود إلى العام 1958 عندما انهار نظام ماركوس بيريز جيمينيز وفرّ الديكتاتور من البلاد، أضاء معارضو تشافيز الشموع خارج المطار متوقّعيــن قــرب رحيلــه. كمــا كتبوا أسماء كبار حلفاء تشافيز على الجدران. كانوا على لائحة المطلوبين؛ أحياءً أو أمواتاً.

فيمــا كان تشافيــز منقطعــاً عن وسائل الإعلام وحتى عن المحطة التلفزيونية التي تديرها الدولة، كانت المعارضة تتمتع بقدرة كاملة على استخدام وسائل الإعلام. بحلول ذلـك الوقــت، كانــوا قد تمكنوا من إعــادة إرسالهم التلفزيوني العادي. وظهر كارمونا علــى شاشــات التلفزيــون مجــدداً وقــال: «ما يهمنا الآن هو أنــه يتعين على الرئيس أن يتحمّــل مسؤولياتــه... ويستقيــل الآن ومن دون قتال». وتوجّه لاميدا، رئيس شركة بيتروليوس دي فنزويلا المطرود، إلى الجيش مباشرة وقال: «أيها العقداء، أيها الضباط وضباط الصف، أيها الجنود، أنتم الذين ترابطون في ثكناتكم. بما أنني أعرف القوات المسلّحة فأنا أعرف أنكم تشاهدون ما يحدث الآن ولكنهم لستم متأكدين مما ينبغي عليكم فعله. استفيدوا من هذه الرسالة. فكّروا واتخذوا القرار الصحيح».

عند الساعة العاشرة والعشرين دقيقة مساءً، ظهر الجنرال ألبيرتو كاماشو كيروز من الحرس الوطني على شاشات التلفزيون وصرّح بأن تشافيز غادر مكتبه. وأضاف: «إن جميع المناطق في البلاد تحت سيطرة القوات الوطنية المسلّحة. لقد تخلت الحكومة عــن القيــام بأعمالهــا». ولكي يضيف إلى الأسطــورة التي لفّقتها وسائل الإعلام والتي تحدثت عن تعرّض المتظاهرين للقتل على أيدي أنصار تشافيز، وصفهم بأنهم شهداء الديمقراطيــة. وألقــى كاماشــو اللوم على تشافيــز وقال بأن المتظاهرين «راحوا ضحية مجــزرة مــن جــرّاء إطلاق النار عليهم من سطــوح المباني». ورفع رامون إسكوفار سلــوم، وهــو مــدع عــام سابق على عهد كارلوســ أندرياس بيريز، سقف الادعاءات عندما قال: «إنه إرهاب الدولة. ويتعين على الأسرة الدولية إدانة عمليات القتل هذه. هــذه الحكومــة مجرمــة». وانضــمّ ألفريدو بينا رئيس بلدية كاراكاس إلى الجوقة وقال: «لقــد كشــف تشافيــز عــن وجهه الحقيقي. لقد أمر تلاميذ هــذا الديكتاتور بقمع مظاهرة سلميــة بوحشيــة». وبمــا أن تلــك الادعاءات كانت تُبَثّ بشكل متكرر ومن دون توقف على شاشة فينيفيجن المرّة تلو المرّة، كان من الصعب التشكيك في صحتها.

فــي الواقــع، لــم يتخــلّ تشافيز عن الرئاسة؛ بل تحصّــن في مكتبه. كان يحاول

تحديد خطوته التالية. أراد إشراك الكنيسة الكاثوليكية من أجل التوسط والتوصل إلى حل بعد أن خرج الوضع عن السيطرة. وبناء على ذلك، حاول الاتصال برئيس الأساقفة إغْناسيو فيلاسكو، لكنه لم يتمكن من الوصول إليه. ثم اتصل بالأسقف بالتزار بوراس الذي وافق على المجيء إلى القصر ولكنه لم يفعل ذلك في النهاية. واتصل تشافيز بسفراء فرنسا والصين والمكسيك وكوبا ودول أخرى. أراد إطلاعهم على ما كان يجري والحصول على مساعدتهم كوسطاء.

عند منتصف الليل تقريباً، اتصل كاسترو من هافانا، وفوجئ تشافيز من تمكنه من التحدث إليه. ألحّ كاسترو على تشافيز بألاّ يقدم على التضحية بنفسه، وحذره من إبداء مقاومة عسكرية لا معنى لها في مواجهة المتمرّدين أو إنهاء الأزمة مع الجيش على غرار ما فعل سلفادور أليندي في التشيلي في العام 1973. «اتصلت بتشافيز لأنني عرفت أنه عاجز عن الدفاع عن نفسه ولأنه رجل ذو مبادئ، وقلت له لا تقتل نفسك يا هوغو. لا تفعل كما فعل أليندي. أليندي كان رجلاً وحيداً، ولم يكن يقف إلى جانب جندي واحد. أنت تسيطر على قسم كبير من الجيش. لا ترحل، لا تقدم استقالتك».

كان تشافيز شخصية أصغر بكثير وأعظم أهمية بكثير بالنسبة إلى اليسار في أميركا اللاتينية من أن يسمح لنفسه بأن يُقتل في انقلاب عسكري. وقد لعبت نصيحة كاسترو دوراً هاماً فيما كان تشافيز يجادل في ما ينبغي عمله في وقت أصبحت رئاسته وحياته على المحك. وعلّق خوسيه فيسينته رانجل، الذي بقي برفقة تشافيز أكثر الوقت من تلك الليلة، في وقت لاحق قال: «كانت مكالمة كاسترو حاسمة في استبعاد خيار التضحية بالنفس. كانت عاملاً حاسماً. لقد سمحت له تلك النصيحة بالرؤية في الظلام بشكل أفضل».

تلقّى تشافيز الغارق في الظلام وفي بيئة مفعمة بالتوتر والارتباك الشديد، مكالمة هاتفية أخرى من الجنرال رؤول بادويل. كان بادويل أحد مؤسسي الحركة الثورية البوليفارية (MBR-200) في العام 1982، وهو مكلف بقيادة وحدة المظليين القديمة الموالية لتشافيز والمتمركزة في مراكاي. لم يُفاجأ بادويل بهذه المحاولة الانقلابية، فهو سبق أن كتب في يومياته في 5 نيسان بأن «الانقلاب أمر وشيك». وكتب ملاحظة يذكّر فيها نفسه بوجوب الاتصال بالرئيس وتحذيره. لكنه لم يتمكن من الوصول إليه أبداً. وهو يتصل به الآن لكي يتعهد له بتقديم دعمه الكامل حتى الموت. أراد أن يجتاح كاراكاس. شكره تشافيز على ولائه فيما بدأت المكالمات تنهال على الرئيس من قادة عسكريين آخرين تتعهد بتقديم الدعم أيضاً. كما قال كاسترو، لم يكن تشافيز بمفرده. قال تشافيز لبادويل بأن دعمه ودعم الآخرين يخدم «كعامل في النضال وبالتالي فهم لن يأتوا لمهاجمتنا هنا في القصر وقتلنا». لو أراد تشافيز المقاومة، فقد كان يملك القوة النارية اللازمة. لكن استناداً إلى بادويل، أمره الرئيس بالامتناع عن

ذلـك وقـال لـه: «يـا أخـي، أنا أصدر لك أمراً، بل هو أكثر من أمر، أنا أتوسل إليك ألاّ تتحـول أنـت أو وحدتـك إلـى عامل في حمام دم». كان قصر ميرافلوريس محاطاً بـآلاف مـن مناصـري تشافيز، وفي حال اشتبكـت القوتان في القصر، فستقع مجزرة لا محالة.

عيّن تشافيز اثنين من الجنرالات، مانويل روزيندو وإسماعيل هورتادو سوكري، لكـي يعمـلا كمبعوثَيـن لـدى المتمرّدين الذين باتـوا يسيطرون الآن على فورت تيونا. قـام بإرسالهمـا لكـي يتوصـل إلى طريقة للخروج؛ ربما باستقالته أو تنحّيه عن منصبه. ولم يكد يمضي وقت طويل على ذلك حتى أرسل الجنرال لوكاس روميرو رينكون، الضابط الأعلى في الجيش، إلى فورت تيونا لكي يطلعه على ما كان يجري.

في الطابق الخامس من مقرّ قيادة الجيش في فورت تيونا، وفيما كانت الشوارع فـي كاراكاسـ لا تـزال غارقـة بالدماء، كان قادة الانقلاب يحتفلون في جو صاخب. فقد اعتقدوا أن خطتهم الهادفة إلى إقصاء تشافيز قد نجحت. اعتقدوا أنه محاصَر وأنه فـي طريقـه إلـى الهـرب. وكانت البلاد بأكملها تقريباً مقتنعة بأن يديه ملطختان بالدماء والفضـل فـي ذلـك يعود إلـى الشريط الإخباري الصاعق الـذي بثّته محطة فينيفيجن. كان كبـار الضبـاط يتعانقـون ويهنّـئ بعضهم بعضـاً، وبدوا في حالة تشبه الهذيان كما لـو أنهـا كانـت عشيـة رأس السنة. كان في عداد هذه المجموعة الجنرال هنريكه ميدينا غوميـز، الملحـق العسكـري الفنزويلي لدى واشنطن العاصمة، وكان قد عاد بالطائرة إلى كاراكاس في وقت مبكر من ذلك اليوم.

عند منتصف الليل تقريباً، ظهر شخص مدني لكي ينضم إلى الضباط العسكريين. كان اسم هذا الشخص بيدرو كارمونا. وكما يروي رئيس فيديكمارس القصة، اتصل به الضباط وقالوا بأنهم بحاجة إليه لتشكيل الحكومة الجديدة. ردّ كارمونا على مكالمتهم وغادر محطة فينيفيجن وتوجّه إلى فورت تيونا. كان كل ذلك جزءاً من ردّ فعل عفوي على الأحداث المرعبة التي وقعت في فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم، وذلك استناداً إلى كارمونا والمتمرّدين. كما قال الضباط العسكريون بأنهم تمرّدوا لأن تشافيز أمرهم بتنفيذ الخطة أفيلا التي بدأوا يصفونها الآن بمخطط رهيب لذبح أناس أبرياء.

ظهر دليل آخر أشار إلى أنه لم يكن يوجد شيء من العفوية في كل ما جرى من أحداث في ذلك اليوم؛ كانت تلك الأحداث جزءاً من تمرّد جرى التخطيط له وتنسيقه بدقّـة بهـدف الإطاحـة بتشافيـز. فقد ظهر أحد هـؤلاء المتآمرين، ويدعى العقيد خوليو رودريغيـز سالاسـ، علـى شاشات التلفزيون بعد الساعة الحادية عشرة مساء بقليل في ذلك المساء وأذهل المشاهدين عندما قال للصحافي إبيسي باشيكو الذي يؤيد للمعارضة بـأن «حركـة بـدأت بتنظيم نفسهـا قبل تسعة أشهر بطريقة محكمة، وأنها حركة جدّية. ومن حسن الحظ أنها بدأت تقطف ثمارها اليوم».

عـاد جـورج لويـس غارسيا كارنييرو، حليف تشافيز والجنرال الذي حاول من

دون نجـاح تنفيـذ الخطـة أفيـلا فـي وقت سابق من ذلك اليـوم، من ميرافلوريس إلى فـورت تيونـا، حيـث وُضـع قيـد الاعتقال من قبل المتمردين فـي الطابق الخامس بعد منتصـف الليـل. أخبـره بعضهم، بمن فيهـم ميدينا، بأن العمل على الخطة الهادفة إلى إقصاء تشافيز بدأ منذ عدة شهور، إن لم يكن منذ فترة أطول من ذلك، وأنهم خططوا لقتـل الناس لتبريـر الانقـلاب على تشافيز. في هذا الصدد، قال غارسيا كارنييرو في وقـت لاحـق فـي إحـدى المقابـلات: «قالوا لي بأن ما حـدث كان مخططاً له منذ عدة سنين لأنه كان الطريقة الوحيدة للتسبب بعدد أقل من القتلى. حتى إنهم خططوا لبعض عمليات القتل التي وقعت فعلاً. لقد نشروا القنّاصة في القطاع الذي لم يمرّوا من خلاله [أي المخططون]. أرادوا أن يُقتل أشخاص من كِلا الطرفين لإحداث بلبلة... في تلك اللحظة، أقنعتُ نفسي بأن كل شيء كان منظّماً في الواقع بطريقة جيدة وبأنهم خططوا لارتكاب مجزرة على جسر لاغونو لتبرير تدخّل القوات المسلّحة ضدّ الرئيس».

كانـت تلـك روايـة عـن الأحداث أنكرها المخططون جملـة وتفصيلاً، لكن عندما قدم لوكاس رينكون إلى فورت تيونا بعد منتصف الليل، سمع روايات مشابهة، وذلك استناداً إلى شهادة أدلى بها في وقت لاحق أمام الجمعية الوطنية. وقال اللواء البحري هكتور راميريز، وهو الضابط الذي أدلى بالتصريح الدراماتيكي المسجَّل عند الساعة السابعة صباحاً، بأنه بدأ المشاركة في هذا المخطط منذ ستة أشهر. قال راميريز بأنه سيتم تشكيل لجنة سياسية يرأسها رجل أعمال على الأرجح.

واصـل كارمونـا ومدنيـون آخرون انضمّوا إليه العمل على إكمال مرسوم يجعله الرئيـس التالـي. كان مـن جملـة هؤلاء المدنيين دانييل روميرو، وهو محام وسكرتير سياسي سابق لدى كارلوس أندرياس بيريز. في الحقيقة، كان كارمونا قدْ أعدّ أصلاً مسوّدة الوثيقة المفصلة. كانت مؤرخة بتاريخ مبكر في 10 نيسان، أي قبل يوم، من قِبَل روميرو، إلى منتقد تشافيز والمفكر البارز جورج أولفاريا لكي يعلّق عليها. لكن أولفاريـا فوجـئ بالوثيقـة وقـال لروميرو إنها تشكل انتهاكاً للأعراف الديمقراطية وإنها ستثير ردّ فعل دولي.

إلى جانب هذه الأدلة التي تكشفت عن المخطط، فوجئ غارسيا كارنييرو أيضاً بوجـود شخصيـن رآهمـا مع المتآمرين. كانـا ضابطين من البعثة العسكرية الأميركية. عرّفـا عـن نفسيهمـا فـي وقـت لاحـق بأنهما المقـدّم جايمس روجـرز والعقيد رونالد ماكمامـون. كان لا يـزال لـدى الأميركييـن مكتب في فـورت تيونا، على الرغم من أنـه سبـق أن طلبـت الحكومـة الفنزويلية منهم المغـادرة قبل نحو السنة. بدا الأمر كما لو أن لدى فنزويلا مكتباً في البنتاغون. وكان وجود روجرز وماكمامون، بالإضافة إلى التقارير التي تحدثت عن السفن والطوافات الأميركية المنتشرة قبالة الساحل الغربي لفنزويلا، سبباً لإثارة أسئلة في وقت لاحق حول دور الولايات المتحدة في الثورة.

قالـت الولايـات المتحـدة لاحقـاً بأن روجرز وماكمامون توجها بسيارتيهما ببساطة إلى فورت تيونا في فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم للتأكد من التقارير التي تحدثت عن تحرّكات يقوم بها الجنود في الجيش وأنه من المحال أن يكونا قد شاركا في أي ثورة. وأضافت الحكومة الأميركية بأن سفنها كانت تشارك في مناورات تدريبية روتينية.

بدأ المتمرّدون وتشافيز سلسلة مربكة من المفاوضات، فكان روزيندو وهورتادو يتنقلان جيئة وذهاباً بين ميرافلوريس وفورت تيونا ويتحدثان إلى تشافيز عبر الهاتف. وقد اتّسمت المفاوضات بالتعقيد لأن المتمرّدين كانوا مختلفين في ما بينهم بشأن المناصب التي سيتولاها كل منهم في الحكومة الجديدة، وبشأن ما ينبغي عمله مع تشافيز. أبدى البعض استعداده للسماح لـه بمغادرة البلاد والعيش في المنفى. وأراد آخرون إبقاءه في البلاد وإخضاعه للمحاكمة بسبب جرائم القتل التي ارتُكبت في فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم.

في مرحلة معينة بعد منتصف الليل، اجتمع وزراء تشافيز وكبار حلفائه في مكتبه للتداول في ما ينبغي عمله. تصوّروا أنه يوجد ثلاثة خيارات. رأوا أن بإمكانهم نقل مقرّ الحكومة إلى ماراكاي حيث يحظى تشافيز بدعم بادويل. ورأوا أنه يمكنهم البقاء في القصر والمقاومة؛ خوض المعركة عسكرياً ضدّ المتمردين عندما يهاجمون القصر. كما رأوا أنه يمكن لتشافيز أن يذعن لمطالب المتمردين ويستقيل.

آثرت آنا إليسا أوزوريو، وزيرة البيئة الجديدة لدى تشافيز ووزير التعليم العالي هكتور نافارو، إلى جانب آخرين، الخيار الأول. قال نافارو: «لنذهب إلى ماراكاي، فنحـن نملـك قـوة هنـاك». لكن تشافيز رأى أن ذلك ليس متيسراً. اعتقد بأنه سيقع في أسـر المتمرديـن الـذي سيشقّون طريقهم نحو ماراكاي التي تبعد مسافة 145 كيلومتراً. لـم يكـن يوجـد دبابـات ترافقهم في رحلتهم، وهي الدبابات التي كان قد أصدر أوامره بإحضارها إلى ميرافلوريس والتي أعادها إلى قاعدتها في فورت تيونا الجنرال إفريان فاسكويز فيلاسكو.

مـن ناحيـة أخرى، آثـر خوسيه فيسينته رانجل وأدان، شقيق تشافيز، وآخرون الخيار الثاني. كان رانجل قد نُفي إلى تشيلي على عهد الديكتاتور بيريز جيمينيز وكان صديقاً لسلفادور أليندي. أراد قتال المتمردين على الأقل علماً بأن ابنه خوسيه فيسينته رانجـل أفيلـو، وهـو محـام محلـي، كان معه في القصـر. وفي مرحلة معينة، قال له رانجـل الأب: «أخـرج مـنّ هنا، لأننا سنمـوت». لكن نجله رفض المغادرة. عندئذ، اتصل رانجل بزوجته أنيتا وقال لها: «لديّ أخبار سيئة لكِ وهي أنكِ ستصبحين أرملة ومن دون ولد».

لكـن كان يوجـد أيضـاً آلاف مـن أنصار تشافيز في الشوارع خارج القصر. وفي حال اندلع قتال، فسيسقط عدد كبير من القتلى. واستناداً إلى نجل رانجل، قال تشافيز للمجموعة بصوت هادئ: «سيكون هناك حمام دم. وأنا لن أسمح بقتل أناس أبرياء».

بـدا أن الطريقـة الوحيـدة لتجنـب حمام الدم هي في الإذعـان لمطلب المتمرّدين والتنحّي. ولذلك، قال تشافيز للمجموعة بأنه سيفكر في التنحّي في حال وافق المتمردون على أربعة شروط. الشرط الأول هو احترام السلامة الشخصية لكبار المسؤولين في حكومته، ولعائلته، وسلامته شخصياً. والشرط الثاني هو احترام الدستور بأن يسمحوا له بتقديم استقالته أمام الجمعية الوطنية وبأن يخلفه في المنصب نائب الرئيس وفقاً لما ينصّ عليه ميثاق الحرّيات إلى حين الدعوة إلى إجراء انتخابات جديدة. والشرط الثالث هـو أن يلقـي خطابـاً فـي الأمة على الهواء مباشرة تبثّه محطـات التلفزيون. وأخيراً، أراد ضمـان ممـرّ آمـن للخروجِ من البلاد لوزرائه، ولحرّاسه الشخصيين، ولعائلته، ولنفسـه. وبنـاء علـى ذلـك، فكّر تشافيز في التوجّـه إلى كوبا وفي الأمان الذي يمكن أن يعطيه له كاسترو.

بعـد انتهـاء اجتماعـه مـع وزرائه، طلب تشافيز مـن المجموعة أن يدعوه يختلي بنفسـه. أراد الحصـول علـى وقـت للتفكير. وفيما همّ الحاضـرون بالمغادرة، أخرج المسدس من حزام حذائه ووضعه على الطاولة. كانت تلك واحدة من أصعب اللحظات في حياته. قُتل العشرات من الأشخاص أو أصيبوا بجراح في الأحداث التي وقعت في ذلك اليوم. وهو بات مقطوعاً عن وسائل الإعلام. وقد تعرّض للخيانة من قبل بعض مـن أكثـر مـن يثـق بهـم من حلفائه في الجيش، وبـدا أن رئاسته شارفت على نهايتها بعـد أن غرقـت فـي حمـام دم فـي الشوارع خارج القصر. انتاب بعضهم الخوف من سمـاع صـوت طلـق ناري. خافوا مـن احتمال اختيار تشافيز إنهاء الأزمة مع الجيش على غرار ما فعل أليندي في العام 1973: بالإقدام على الانتحار.

عاد روزيندو وهورتادو في نهاية المطاف من فورت تيونا، وأبلغا تشافيز بأن المتمرّديـن وافقـوا علـى شروطه الأربعة. أرادوا منه التنحّي بأسرع ما يمكن. وكانوا بحاجـة إلـى كتـاب استقالـة موقّع لكي لا تبدو الثورة انقلاباً وإنما رحيل طوعي جرى وفقاً للأعراف الدستورية. وبناء على ذلك، بعثوا عبر الفاكس بكتاب استقالة معدّ سلفاً إلى ميرافلوريس. وفي مرحلة معينة، أحضر ثلاثة من المتمرّدين النسخة الأصلية إلى القصر لكي يوقّع عليها تشافيز. وفيما كانت الدقائق تمرّ، بدأ صبرهم بالنفاد. ومع بقاء ساعـات قليلـة علـى بزوغ الفجـر، بدأوا يهددون بقصف القصر إذا لم يستسلم. وقالوا إن القنابل ستبدأ بالسقوط بعد خمس عشرة دقيقة.

اتصـل تشافيـز، الـذي أدار ظهره للحائط برينكـون في فورت تيونا قبل الساعة الثالثـة فجـراً بقليـل. قـال للجنرال بأنه قبل بمطلـب المتمرّدين القاضي بأن يتنحّى عن الرئاسـة. لـم يكـن أمامـه خيار سـوى ذلك. وبعد نصف ساعـة، ظهر رينكون على شاشـة التلفزيـون الوطنـي وأسقـط قنبلة. كانت عيون أغلب الناس مسلطة على شاشات التلفزيـون أو يستمعـون إلـى المحطـات الإذاعية. في الحقيقة، لم يكن أحد يعرف ماذا كان يجري. بدا أن رينكون أنهى حالة الارتباك. ففي تصريح مليء بالأخطاء النحوية،

قال: «إن قيادة الجيش تشعر بالاشمئزاز من الأحداث التي وقعت اليوم. وعلى ضوء هذه الأحداث، طُلب من الرئيس أن يستقيل من منصبه، وهو قبل بذلك». كما أعلن بأن القيادة العليا ستستقيل.

بـدا الأمـر بالنسبـة إلـى أغلـب الناس كما لو أن تشافيز قـد رحل وخلّف وراءه مـا سارعـت المعارضـة إلـى وصفـه بفاسيو دي بودر أي الفراغ فـي السلطة. احتفل المواطنـون المنتمـون إلـى الطبقـة الوسطى، وأطلّوا من النوافذ من طوابقهم العليا وهم يهتفون ويصيحون. وأوقف الناس سياراتهم في الطرقات العامة ونزلوا منها وهم في حالة من الابتهاج الشديد. وبدأت المحطات التلفزيونية تبثّ رسالة رينكون كل عشرين دقيقة على مدى الساعات الست والثلاثين التالية. وتردد الخبر في مختلف أنحاء العالم بأن تشافيز قد استقال.

لكن استناداً إلى رواية تشافيز، لم يكن الأمر بتلك البساطة، كما قال في مقابلة مع مارتا هارنيكر. فمن ناحية، أجبر على الاستقالة بعد أن صُوّب مسدس إلى رأسه:

> كنت قد أجزت للجنرال رينكون، الذي بقي معي طوال فترة المساء والليـل، بالذهـاب إلـى فـورت تيونا لمعرفة ما الـذي كان يريده هؤلاء الأشخاصـ فعـلاً. وفـي غمرة هذه الأحـداث، اتصل بي وقال: «سيدي الرئيسـ، إنهـم يطالبـون باستقالتك وهم يضغطون علـيّ لكي أستقيل أنا أيضاً. لكني قلتُ بأنني سأطيع أي قرار تتخذه». ثم قلتُ له: «انظر يا لوكاسـ، لقـد وصـل روزيندو وهورتادو وقالا لي بأنهم قبلوا بالشروط التي وضعتُها لكي أقدّم استقالتي. قلت أجل، سأستقيل». أعطيته الضوء الأخضر. غادر لكي يقول ما قلتُه له. وبدوره قال لهم: «لقد قبل الرئيس طلـب تقديـم استقالتـه وكذلك أنا. لقد وضعـت نفسي في تصرّف القيادة العليا». ولذلك، أنا واثق تماماً بأنه قال لهم ما قلتُه له عبر الهاتف.
>
> لكن ما الذي حدث في الدقائق العشر أو العشرين التالية؟ كان عليه أن يعلن عن استقالتي ويرحل، لكننا تلقينا في الدقائق القليلة التالية كلمة بأنهـم لـن يقبلوا بالشروط التـي وضعتها. كانت طريقة للمماطلة وكسب الوقت. وبعد ذلك طلب منّي الذهاب إلى هناك كسجين، وهددوا في حال رفضـتُ إجابتهـم إلـى ما طلبوا بمهاجمة القصر... وتلك كانت النهاية، غادرتُ كسجين.

خارج مكتب تشافيز، لم يكن وزراؤه قد رأوه منذ نحو من ساعتين. أرادوا أن يعرفوا ماذا كان يجري. وقد شعروا بالارتباك بسبب التصريح الذي أدلى به رينكون. بـدأوا يقرعـون البـاب لكـي يُسمح لهم بالدخـول. وأخيراً فتح لهم حارس الباب. كان

تشافيز جالساً على كرسي عندما دخلوا المكتب. بدا هادئاً، وشرع في شرح الوضع. قال إنه لن يستقيل وبأنه سيسلّم نفسه كرئيس سجين، وأضاف بأنه لا يوجد لديه خيار آخر. كان المتمردون سيبدأون بالقصف في أي لحظة. عمل تشافيز بنصيحة خوسيه فيسينته رانجل الذي حثّه على عدم التوقيع على كتاب استقالة. قال رانجل: «لا توقّع على كتاب. هذا انقلاب يا تشافيز».

خرجت أوزوريو، وزيرة البيئة من مكتب الرئيس، لإبلاغ الحشود بما كان يجري. قالت أوزوريو: «من الناحية السياسية، من الواضح أن هذا انقلاب. لكن ذلك لا يعني أن الرئيس استقال. الرئيس لم يستقل، ولكنه محتجَز كسجين لأنه انقلاب». ثم علا صوتها وترقرقت الدموع في عينيها وقالت: «ليعرف العالم: هذا انقلاب». بدأت الحشود بالتصفيق والصراخ دفاعاً عن تشافيز. صاحت أوزوريو: «هذا انقلاب. هذا انقلاب على الشعب، على شعب فنزويلا الذي يحبّ رئيسه». ومسحت دمعة جرت على خدها. عندئذ، صاحت الحشود: «هوغو، هوغو، هوغو». صفّق الناس وأيديهم فوق رؤوسهم، فيما لوّح آخرون بقبضاتهم في الهواء.

داخل مكتبه، استعدّ تشافيز لوداع وزرائه. وطلب هورتادو منهم الإسراع. فقد هدد المتمردون ببدء القصف. عانق الرئيس وزراءه فرداً فرداً. أرادوا الذهاب معه لحمايته. اعتقدوا بأن قتل خمسة عشر وزيراً سيكون أصعب على المتمردين من قتل تشافيز وحده، حيث سيكون من السهل الادعاء بأنه أقدم على الانتحار أو راح ضحية سقوط طائرة. لكن المتمردين رفضوا ذلك. «عانقتُ [جورج] جيورداني و[هكتور] نافارو وودعت مبعوثيّ بالقول إنّ النافذة الاستراتيجية قد أغلقت. لم ينبسا ببنت شفه. اعتقدت بأنني سأموت. راودتني تلك الخاطرة المشؤومة للحظات: قلت وداعاً لكل من وقف بجانبي في القصر.

سلّم تشافيز مسدسه إلى وزير الداخلية رامون رودريغيز شاسين، وخرج من مكتبه. وعندما ظهر في الممر، بدأ أنصاره بإنشاد النشيد الوطني، **غلوريا أل برافو بيبلو** أو المجد للشعب الباسل. مشى تشافيز ببطء بين الحشود وهو يعانقهم ويصافحهم. بالنسبة إلى نافارو، اتخذ تشافيز قراراً تاريخياً. «آثر أن يضحي بنفسه على أن يتسبب بحمام دم».

وفيما كان تشافيز يخترق الحشود، بدا المشهد أشبه بصف استقبال أقيم في جنازة. لم يكن الناس يعرفون إن كانوا سيرونه حياً مجدداً. انهمرت الدموع على وجوه العديد منهم. ودسّ جاكتينو بيريز أركاي، وهو أحد مدرّبيه في الأكاديمية العسكرية، تذكاراً صغيراً في يد تشافيز وقال له: «خذ هذا معك. باركك الله»، وأضاف الجنرال العجوز: «هذه المسألة لن تنتهي هنا». رأى تشافيز خوسيه فيسينته وهو مستند إلى حائط. أراد أن يعانقه، لكن كان في وسعه الإشارة إليه بيده فقط. نظر رانجل إلى الرئيس وابتسم ابتسامه غامضة تراوحت بين الأمل واليأس، كما لو كان يريد أن

يقـول، حسنــاً، سنــرى بعضنــا هنا مجدداً، من غير أن يقتنع بأن هذا الأمر سيحصل. وقال له نوهيلي بوكتيرا، أحد زعماء سكان البلاد الأصليين الذين اختارهم لشغل مقاعد في الجمعية الدستورية، بصوت هامس: «ماذا سنفعل نحن الهنود من دونك؟».

جثا الشباب اليافعون من حرس الشرف الذين كانوا يخدمون تشافيز على ركبهم وسألـوا تشافيـز أن يمنحهـم بركتــه. كان العديـد منهم ينتحب. أرادوا القتال دفاعاً عن رئيسهم، أرادوا تحويل القصر إلى حصن والدفاع عن الرئيس. لكن تشافيز قال لهم لا، فأنتم لا تزالون في مقتبل العمر، وأمامكم سنوات طويلة في انتظاركم. ومع اقترابه من الباب الذي يؤدي إلى خارج القصر لكي يستقل سيارة كانت ستنقله بعيداً، بدأت الحشود بالتصفيق. قال تشافيز: «لن أغيب سوى مدة وجيزة. وسنعود».

اخترقـت والدتـه، التــي لزمـت القصــر طوال فتــرة المحنة، الحشــود وأمسكت ببــاب السيــارة وحاولـت أن تدخلهــا. لكن شخصاً أوقفها وقال: «سيدتي، نحن ذاهبون الآن».

غــادر الرئيســ قصــر ميرافلوريس عند الساعــة الرابعة فجراً تقريباً، وجلس بين روزينــدو وهورتــادو علــى المقعد الخلفي. وتبعه إيستيوريز وبعض الوزراء الآخرون فــي مركبــة أخــرى. أرادوا الذهــاب إلى فورت تيونا معه، على الرغم من أن الجنود أوقفوهم. لم يتحدث تشافيز كثيراً في أثناء الرحلة. عبرت السيارة شوارع كاراكاس ومرت بالقرب من المقبرة الجنوبية العامة حيث دُفن محبوبه لاعب كرة القاعدة إساياس لاتيغـو تشافيــز، قبــل أن تنعطــف في اتجاه ساحة فورت تيونــا المألوفة. توجهوا نحو مبنى قيادة الجيش في الحرم الفسيح، ثم خرج تشافيز من السيارة. التقت به كتيبة من الجنود، وأظهرت إحدى الكاميرات التلفزيونية مؤخر رأسه والقبعة الحمراء فيما كان يشقّ طريقه ببطء عبر الحشود نحو المدخل. ثم توارى عن الأنظار داخل المبنى.

بعد حوالى نصف ساعة، عند الساعة الرابعة والخمسين دقيقة فجراً، ظهر بيدرو كارمونا على شاشات التلفزيون وأعلن أنه سيتولّى قيادة البلاد.

الفصل الحادي والعشرون

الرئيس مفقود

ساد الصمت الغرفة التي كانت تعجّ بالضباط العسكريين المحتفلين عندما دخلها هوغو تشافيز. كان رينكون قد أعلن عن استقالة الرئيس قبل ساعة، ولم يعد تشافيز بالنسبة إلى المتمردين رئيساً. لكنهم شعروا بأنهم مرغمون على معاملته بطريقة تفضيلية نوعاً ما. كان في عداد المنتظرين في الغرفة معهم الأسقفان بالتزار بوراس وخوسيه لويس أزوي. وفي عودة بالذاكرة إلى تلك اللحظة، قال تشافيز: «جلست بجانبهما، وتبادلت كلمات الترحاب معهما وجلسنا هناك لمدة في صمت».

بعد أن أصبح الآن في فورت تيونا وبين رفاقه في الجيش، اعتقد تشافيز أنه ربما يكون قادراً على حلّ الأزمة. لاحظ أن العديد من الضباط كانوا يتجادلون في ما بينهم. عرف أن كارمونا داخل المبنى. مشى الجنرال رومل فينمايور ليون نحو الجدار الأمامي في الغرفة حاملاً كتاب الاستقالة الذي كان المتمرّدون قد أعدّوه سلفاً، وتحدث باسمهم . يتذكر تشافيز تلك اللحظات فيقول:

> عرض تحليلاً للوضع وقال باسم هؤلاء الحاضرين كلّهم أنه يطلب منّي تقديم استقالتي على ضوء ما اعتبره حالة فقدان السيطرة على الحكم. قلتُ له بصوت هادئ أعلى بقليل من نبرتي المعتادة لكي يكون كلامي واضحاً لدى الجميع، بأنه ينبغي عليهم التفكير ملياً وطويلاً في ما يفعلونه وفي ما خططوا للقيام به - المسؤولية التي يتولّونها في ما يختص بفنزويلا والعالم الخارجي - وقلت له بأنني لن أستقيل. كان يحمل في يده ورقة يريد منّي أن أوقّع عليها، فقلت له بأنني لن أنظر إليها.

وأعاد تشافيز القول بأنه قبل أن يوقّع على أي كتاب استقالة، ينبغي على الضباط الوفاء بشروطه الأربعة أولاً. لكن الضباط لم يتفوهوا بكلمة.

> قلتُ لهم بأنني لست متأكداً من قدرتهم على السيطرة على الجيش، وأنني سبق أن تحدثتُ إلى العديد من القادة العسكريين والذين أكّدوا لي بأنهم لن يقبلوا بأي انقلاب عسكري... كان في مقدوري ملاحظة أنني استحوذتُ على انتباههم، بما أنه بدا واضحاً أنه جرى التلاعب ببعضهم. وبدأ آخرون يراقبون الوضع باهتمام.

قاطع الجنرال نيستور غونزاليس غونزاليس، الضابط الأصلع الذي سبق أن عقد المؤتمر الصحافي في 10 نيسان والذي ألمح فيه إلى أن انقلاباً عسكرياً بات وشيكاً. كان في مقدور غونزاليس ملاحظة أن الرئيس المخلوع بدأ يؤثر في الحاضرين، ولم يرد أن يواصل الرئيس كلامه. قال غونزاليس بغضب للحاضرين «نحن لم نأتِ إلى هنا لمناقشة أي شيء. نحن نعرف ماذا يتوجب علينا فعله. وأنا أطلب منكم الانتقال إلى الغرفة المجاورة».

غادر الضباط وتجادلوا خلف أبواب مغلقة بشأن ما إذا كان ينبغي الموافقة على الشروط التي وضعها تشافيز. بقي تشافيز في الغرفة الأولى ومعه الأسقفان وأحد الحرّاس. بقوا بمفردهم مدة ساعة تقريباً. سأل تشافيز الأسقفَ بوراس عن سبب عدم مجيئه إلى ميرافلوريس كما وعد. أجاب الأسقف ببساطة بأنه لم يتمكن من المجيء. طلب تشافيز، الذي كان قد وصف بوراس بأنه أحد «شياطين الكنيسة في ثياب الكهنوت»، من الأسقف المغفرة. لكنه ذكّر الأسقفين أيضاً بدورهما في الصراع. قال لهما بأنه يشعر بأنه مرتاح الضمير «لأنه مهما كان مصيري، ومهما حصل لي، أنا موجود هنا لأنني مخلص للشعب الذي انتخبني للردّ على مصالحه لا على مصالح الأقلّية. وأنا لم أسمح لتلك القوى، القوى الاقتصادية والقوى الإعلامية، بأن تلوي ذراعي».

يتذكر بوراس بأن تشافيز كان أبعد من أن يوصف بأنه هادئ. فقد خانه أقرب حلفائه إليه، وتملّكه الخوف على حياته، ولم يعد متأكداً من الأشخاص الذين يمكنه الوثوق بهم في الجيش. قال بوراس: «كان رجلاً مصدوماً فعلاً، ومتأملاً، ولم يكن باستطاعته فعل شيء سوى إثارة سلسلة من المشاهد التي تعود إلى أيام طفولته، وذكرياته في المناصب العسكرية المتنوعة التي خدم فيها». وبدا تشافيز في بعض الأوقات بأنه على وشك البكاء وذلك استناداً إلى ما قاله الأسقف.

عندما عاد الضباط إلى الغرفة، تولّى اللواء البحري هكتور راميريز بيريز الحديث. قال لتشافيز بأن الضباط لن يقبلوا بشروطه وأنه لا يستطيع مغادرة البلاد، وأن عليه البقاء في فنزويلا «لكي يجيب عن أسئلة الناس حول الجرائم التي ارتكبها». ردّ تشافيز بأنه لن يوقّع على كتاب الاستقالة وأن الحل الوحيد المتوفر لهم هو اعتقاله. وأضاف: «لكن لا تنسَوا أنكم تعتقلون رئيس الجمهورية، وافعلوا ما ترونه ضرورياً».

نقلوا تشافيز إلى غرفة نوم صغيرة تقع في نهاية ممرّ طويل، وأمروه بخلع بزّته، وارتداء سروال جينز، وانتعال حذاء رياضي ولبس كنزة كان مساعدوه قد وضعوها في حقيبة صغيرة قبل أن يغادر ميرافلوريس. وأحضر له المتمردون طعاماً للإفطار، وطلب تشافيز إحضار طاولة صغيرة وكرسي. مرّ عليه يومان لم يذق فيهما طعم النوم، لكنه لم يكن يشعر بالتعب. كما طلب جهاز تلفزيون أيضاً.

عندما شغّل التلفزيون، لم يقتنع بما شاهده في البرامج الإخبارية الصباحية. كان

المعلقـون فـي المحطـات التلفزيونية، والمحللون السياسيـون، وشخصيات المعارضة، وحتـى رفيـق السـلاح السابـق فرانشيسكو أرياس كارديناسـ، يصرّحون بأن الرئيس قـدّم استقالتـه وأن كارمونـا مـلأ «الفراغ في السلطة». وصفوا تشافيز «بالسفاح» لأنه أمر مناصريه بإطلاق النار على مسيرة سلمية. وظهر في أسفل شاشة محطة فينيفيجن الرسالة التالية: استعادت فنزويلا حرّيتها.

عرض برنامج نابليون برافو الشهير 24 ساعة الذي تبثّه فينيفيجن إفادات شهود عيـان أدلـى بهـا ضيـوف يغمرهم الطرب كانت تشير إلى أن خلع تشافيز يمكن وصفه بـأي شـيء سـوى أنـه انتفاضة عفوية قام بها الجيش ولعبت فيها وسائل الإعلام دوراً حاسماً. قال فكتور مانويل غارسيا، مدير المعهد الإحصائي سيكا والذي كان في فورت فيونا عندما وقع الانقلاب: «لدينا نقص في منشآت الاتصالات، وعليّ أن أشكر وسائل الإعلام على تضامنها وتعاونها في مساعدتنا على بناء خطوط اتصال مع العالم الخارجي وتمريـر التعليمـات التـي أعطاني إياها الجنرال غونزاليس غونزاليس». وتقدم غارسيا بالشكـر مـن برافـو علـى السماح لـه باستخدام منزله في تسجيل مكالمة إلى الثورة من قبل غونزاليس. وهذا ما دفع برافو الضاحك إلى الردّ بقوله: «أنا مجرّد صحافي».

شرح غارسيا أهمية إعلان غونزاليس أمام وسائل الإعلام يوم الأربعاء الفائت، في 10 نيسان، وقال: «عندما قررنا أنه ينبغي على الجنرال نيستور غونزاليس مخاطبة الشعـب، كان مـردّ ذلـك أن تشافيـز عـزم على السفر إلى كوستاريكا، وكان علينا أن نبقي تشافيز في فنزويلا. كان المراد من إعلان الجنرال غونزاليس غونزاليس ضمان عدم توجّه تشافيز إلى كوستاريكا وبقائه في فنزويلا. وكانت تلك اللحظة التي وضعنا فيها الخطة النهائية موضع التنفيذ».

سـأل برافـو: «مـاذا كانت تلك الخطة؟». أجاب العميـد البحري كارلوس مولينا تامايو بأنه بعد قيادة التقدم نحو ميرافلوريس في فترة ما بعد الظهر من النهار الفائت، ارتدى بزّته الرسمية البحرية البيضاء. «نصّت الخطة الأصلية على أنه عندما يصل الدعم المسبـق للمجتمـع المدنـي إلـى أقصاه، يُترجم هذا الدعم من جانب المجتمع الديمقراطي بوجه عام إلى تبرير لاستخدام القوات المسلّحة».

وفي هذه الأثناء، كانت الصحف الصباحية مليئة أيضاً بالانتقادات اللاذعة التي تلـوم تشافيـز علـى سفـك الدماء في اليـوم السابق. وقالـت إل ناسيونال على صدر صفحتهـا الافتتاحيـة الأولـى «لقـد خصصنا قبراً لك بجانـب الرؤساء الفنزويليين كافّة الذيـن يُذكـرون بسبـب الفظاعات التي ارتكبوها». وقالت أسي إل نوتيسيا في عنوان رئيسـي كُتـب بحـروف حمـراء كبيرة: «لقد سقط السفـاح». وكتب المحرر روبرتو غويستـي، وهـو مساعـد سابـق لكارلوسـ أندرياس بيريز، تحليـلاً بعنوان **الجريمة الأخيرة لديكتاتور**.

> إذا كان يوجد لدى أحد في وقت ما شكّ في الطابع الفاشي والدموي لهذا النظام، ينبغي أن يكون هذا الشك قد تبدد البارحة... بعد سنوات وسنوات من حلف اليمين بأنه لن يأمر كرئيس بإطلاق النار على الشعب، عـاد هوغـو تشافيـز البارحة ولطّخ يده بالدمـاء. في النهاية، رفع قناع الديمقراطيـة وكشـف عـن طبيعتـه الحقيقية كقاتل لا يعـرف التردد فأمر مناصريـه بإطـلاق النـار علـى حشد سلمي ومـن دون سلاح. كان هذا القاسـي علـى استعـداد للاحتفـاظ بالسلطة على جبل من الجثث إذا تطلب الأمر، فيما كان يتحدث بكلام فارغ عبر أثير الإذاعة والتلفزيون.

فيمـا كان تشافيـز يشاهـد البرامج الإخبارية التلفزيونية وهي تلومه على «مجزرة إل سيلينسـو» وتعيد بـثّ خبـر استقالته، أحسّ بنذير الخطر. خطرت بباله أن الطريقة الوحيـدة لكـي يضمـن المتمـردون عدم إخباره العالم بأن خبر تقديمه استقالته عارٍ عن الصحة هي بقتله. يمكنهم القول بأنه أقدم على الانتحار، كما فعل سلفادور أليندي قبل تسع وعشرين سنة. «شاهدت ما كان يُعرض [على شاشة التلفزيون] وقلت في نفسي: «أنـا ميـت، أنـا ميـت. فالطريقـة الوحيد التي تحول دون تكذيبي لهذه الأخبار هي في إقدامهم على قتلي... كنت متأكداً من أنهم سوف يقتلونني. حتى إني قلت في نفسي، أنا لن أبقى حياً حتى المساء».

احتاج تشافيز إلى الاتصال بالعالم الخارجي، فطلب من الحارس أن يحضر له هاتفاً وقال له بأنه يريد التحدث إلى عائلته لكي يتأكد من أنها بخير. وافق الحارس. لم يكن تشافيز، بوصفه رئيساً، يخابر عائلته مباشرة بنفسه، ولذلك كان عليه أن يطلب مـن الحارس الاتصـال بميرافلوريس والحصول على الأرقـام الهاتفية. عاد الحارس ومعه قصاصة ورقة.

لم يتمكن تشافيز من الاتصال بمنزل الحاكم في باريناس، لكنه تمكن من الاتصال بزوجته ماريزابيل عند الساعة التاسعة صباحاً تقريباً. تحدث إليها بكلمات سريعة فقال «انظري يا ماريزابيل. هذا ما يحصل الآن. أريد منك أن تتصلي بصحافي، أو بوسيلة إعلاميـة محلّيـة أو دوليـة، وأن تقولـي لهـا، بوصفكِ السيدة الأولـى في البلاد، بأن الرئيـس لـم يقـدّم استقالتـه، وبأنّه سجين. أعتقد بأنهم سيقدمون على قتلي، هذه الليلة. أنـا متأكـد مـن أنهـم سيخرجونني من هذا المـكان بهدف قتلي إذا لم نستطع التبليغ عن ذلك مسبقاً. تحركي بسرعة».

كما تمكن تشافيز من الاتصال بابنتيه ماريا غابرييلا وروزا فيرجينيا اللتين كانتا تختبئان على الساحل الكاريبي. ردّت على المكالمة روزا الأكبر سناً والبالغة من العمر أربعـة وعشريـن عامـاً. بعـد أن سيطـرت عليها العواطف، بـدأت تنتحب ولم تستطع الـكلام، فأعطـت الهاتـف إلـى ماريـا التي حاولت أن تحافظ علـى رباطة جأشها فيما

كان والدها يتحدث إليها. «انظري يا عزيزتي. اسمعي ما سأقوله لكِ. هل أنتِ بخير؟ هوّني على نفسكِ. ليس لدي الكثير من الوقت. أريد منكِ أن تتحدثي إلى شخص ما وحسب، أريد منكِ الاتصال بأحد الصحافيين. فكري في كيفية القيام بذلك. يمكنكِ القيام بذلك عن طريق فيدل. ابذلي بعض الجهد بطريقة أو بأخرى، لكي يعرف العالم أنني لم أقدّم استقالتي. قولي لهم بصوتكِ إن والدكِ أخبركِ بأنه سجين، وأنه لم يقدّم استقالته».

أغلقت ماريا سماعة الهاتف واتصلت بنائب الرئيس ديوزدادو كابيلو الذي كان مختبئاً أيضاً. ثم اتصلت بقصر ميرافلوريس. لم يكن باستطاعتها الاتصال عبر هاتفها بالعالم الخارجي، ولذلك كانت بحاجة إلى مساعدة من العاملين في القصر لكي يصلوها به.

لم يقدم المتمرّدون على إبعاد الموظفين في ميرافلوريس من مناصبهم. كان العاملون في قسم الاتصالات لا يزالون موالين لتشافيز. قالت لواحدٍ منهم: «أنا ماريا غابرييلا وأريد أن أتصل بفيدل كاسترو في كوبا».

> عندما سمعتُ بأنهم وصلوني بمكتب فيدل، بدأت بالبكاء. أحسستُ بأنني منهارة. وما إن سمع صوتي حتى قال لي: «ماريا كيف حالك؟». بدا صوته ناعماً جداً. «فيدل، ساعدنا رجاءً». أجاب فيدل «اهدئي يا ماريا». كنتُ يائسة فقلت: «طلب منّي والدي أن أقول لك بأنه إذا مات اليوم، فهو لأنه كان مخلصاً لقناعاته حتى آخر لحظة في حياته. وقال لي بأنه عليّ أن أخبركَ بذلك». أطلعته على الحوار الكامل الذي دار بيني وبين والدي. وفيما كنت أتحدث، شعرتُ بأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلي. عرفتُ بأن فيدل لن يتخلّى عنّا.

بعد ذلك بساعتين، عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، وضع كاسترو ماريا على اتصال مع الصحافي الكوبي راندي ألونسو، الذي يقدّم برنامجاً تلفزيونياً كوبياً اسمه ميزا ريدوندا، أي المائدة المستديرة. أعادت ماريا في اتصال مباشر على الهواء مع التلفزيون الكوبي سرد ما كان يجري.

> قلت له بأنني تمكنت منذ ساعتين من التحدث إلى والدي أخيراً. اتصل بنا عبر الهاتف وقال لنا بأن نخبر العالم أنه لم يقدّم استقالته، وأنه لم يوقّع كرئيس على مرسوم رئاسي بإقالة نائب الرئيس ديوزدادو كابيلو ناهيك عن توقيع كتاب استقالته. قام عدد من الضباط في الجيش باحتجازه ونقله إلى فورت تيونا، حيث يوجد مقر قيادة الجيش. وهو محتجَز حالياً في مقرّ الشرطة العسكرية في فورت تيونا. وهو محتجَز الآن هناك في حبس انفرادي. وهم سمحوا له بالتحدث إلينا فقط، وإلى

أولاده... لكنه لم يقدّم استقالته. هذا عمل انقلابي بكل بساطة، وهم يحاولون تغطيته بالتحدث عن استقالة مزعومة.

يجري الإعداد لديكتاتورية يمينية متطرفة في البلاد وهم يبحثون عن وسيلة لتغطية هذا الأمر بالحديث عن استقالة مزعومة. إنها كذبة. إنهم يبحثون عن المتعاطفين كافة مع الحكومة من أجل اعتقالهم. ولهذا السبب لجأوا إلى التخفّي.

بعد المقابلة التي أجرتها ماريا، كان كاسترو يجري اتصالاً معها كل نصف ساعة لتوفير دعمه. لكن تصريحاتها بأن تشافيز لم يقدّم استقالته وأنه قيد الحبس الانفرادي لم تصل إلى أسماع الشعب الفنزويلي أبداً، ليس من خلال الوسائل الإعلامية المحلية على الأقل. فإلى جانب توبيخ تشافيز ولومه على وقوع تلك المجزرة، فرضوا تعتيماً على كل ما هو موالٍ لتشافيز. ويذكر مدير أحد الأبراج الإخبارية في تلفزيون راديو كاراكاس، ويدعى أندرياس إيزارا نجل ويليام إيزارا مؤسس جماعة ARMA، تلقّي أوامر من رؤسائه ويقول: «كان هناك أمر توجيهي واضح صدر في الثاني عشر من يوم الجمعة، وكان يقضي بعدم عرض أي مظاهر على الشاشة تعبّر عن الموالاة لتشافيز، أو على علاقة بتشافيز أو بأنصاره، أو بأعضاء الكونغرس أو بوزرائه. والفكرة كانت في إيجاد مناخ انتقالي للبدء بالترويج لبزوغ فجر بلد جديد».

في اليوم التالي، وبعد أن شعر بالاشمئزاز من انتهاك أخلاقيات مهنة الصحافة، استقال إيزارا من عمله. وانضم في نهاية المطاف إلى حكومة تشافيز كمتحدث باسمها بعد أن وضعته وسائل الإعلام الفنزويلية على اللائحة السوداء.

بعد أن تحدث تشافيز إلى ابنتيه في ذلك الصباح، وصلت امرأتان من الدائرة القانونية في الجيش لإجراء مقابلة معه. قال لهما تشافيز بأنه لم يقدّم استقالته وبأنه لا يزال رئيس الجمهورية. تحققت المرأتان من حالته الصحية، وملأتا استمارة، وطلبتا من تشافيز التوقيع عليها. لاحظ أنهما لم يذكرا شيئاً عن تصريحاته. لكن بعد أن غادرت المرأتان وتوارتا عن الأنظار، أضافتا بضع كلمات بحروف صغيرة في أسفل الصفحة جاء فيها: «قال بأنه لم يقدّم استقالته».

بعثت المرأتان بنسخة عن التصريح بواسطة الفاكس إلى المدعي العام إساياس رودريغيز الذي أدرك على الفور أهمية ما ورد فيها. أراد الإعلان عنها، لكنه أدرك بأن وسائل الإعلام الفنزويلية لن تسمح له بالقيام بذلك على شاشات التلفزيون أو عبر أثير الإذاعة. ولذلك عمد إلى خداعهم فقال بأنه يريد أن يعقد مؤتمراً صحافياً للإعلان عن استقالته. وبناء على ذلك، جمع مندوبي وسائل الإعلام في مكتبه في كاراكاس وجلس خلف طاولة المكتب. كانت الساعة تشير إلى الثانية من بعد الظهر، وكان مؤتمره منقولاً على الهواء مباشرة على محطات التلفزيون ومحطات الإذاعة. لكن

ما تحدث عنه لم يكن الذي توقعه المراسلون. فبدلاً من توجيه النقد اللاذع لتشافيز، صرّح بأن الرئيس لم يقدّم استقالته:

> وردتنا معلومات من المحاميتين العسكريتين اللتين أجرتا مقابلة معه بأن الرئيس لم يقدّم استقالته. في الواقع، لم يستقل الرئيس ولم يرد حتى هذه الساعة دليل مكتوب يشير إلى استقالته إلى مكتب المدعي العام. وبالتالي فإن الرئيس تشافيز هو رئيس جمهورية فنزويلا.
>
> لكن في الحالة المفترضة التي تفيد بأن الرئيس قدّم استقالته، يتعين تقديم هذه الاستقالة أمام الجمعية العامة. وعندما تقبل الجمعية العامة هذه الاستقالة، يمكن في هذه الحالة فقط اعتبار الاستقالة مقبولة... وبناء على ذلك، وحتى في الحالة المفترضة التي تفيد بأن الرئيس قدّم استقالته، لا يزال تشافيز رئيس الجمهورية لأن الجمعية الوطنية لم تقم بعمل للمصادقة على الاستقالة المفترضة للرئيس.

حاول أحد الصحافيين أن يقاطع تصريح رودريغيز بطرح سؤال، لكن المدّعي العام واصل كلامه. وأضاف بأن تشافيز محتجَز بطريقة غير قانونية في الحبس الانفرادي، من غير أن يُسمح لمكتب المدعي العام حتى برؤيته. «إذا كان محروماً من حرّيته، ما هي الجريمة التي ارتكبها؟ جريمة تقديم الاستقالة؟ وهل الاستقالة تعتبر جريمة؟... إن الوضع خطير حقاً من وجهة نظر دستورية... ليس هناك من قضية دستورية».

في الواقع، لم يتم بثّ تصريح رودريغيز كلّه لأن محطات التلفزيون والإذاعة الفنزويلية قطعت البثّ قبل انتهاء المؤتمر الصحافي واستأنفت برامجها العادية. لكن مضيفي البرامج الإخبارية المهتاجين مثل المذيع الذي يعمل لدى محطة فينيفيجن تلعثم وهو يتفوه بالسطور التالية: «حسناً، يا أصدقاء، كيف حالكم؟ أرغب في أن تمضوا فترة مساء جيدة». لكن بعد أن أضيف هذا التصريح إلى تصريحات ماريا غابرييلا تشافيز على التلفزيون الكوبي، بدأ الكلام يتسرّب ببطء في العالم الخارجي بأن الرواية التي نقلتها وسائل الإعلام الفنزويلية للأحداث مشكوك فيها على أقل تقدير.

على الرغم مما تقدم، سرعان ما فاز الانقلاب بدعم حكومة الولايات المتحدة. فبعد مضي ساعتين على حديث ماريا غابرييلا تشافيز إلى التلفزيون الكوبي، خاطب المتحدث باسم البيت الأبيض آري فلايشر المراسلين في أثناء إيجازه الإخباري اليومي. لام تشافيز على سفك الدماء وأيد المحاولة الانقلابية فقال: «أطلق أنصار الحكومة، بناء على أوامر أصدرتها حكومة تشافيز، النار على متظاهرين مسالمين وغير مسلحين، ما أدى إلى مقتل عشرة أشخاص وجرح مئة آخرين». وأصدرت وزارة الخارجية تصريحاً مشابهاً على لسان المتحدث الرسمي باسمها فيليب ريكر:

رفض الجيش الفنزويلي على نحو يدعو إلى الإطراء إطلاق النار على المتظاهرين السلميين، وأبقت وسائل الإعلام الشجاعة الشعب الفنزويلي على اطلاع بمجريات الأمور... وعلى الرّغم من أن التفاصيل لا تزال غير واضحة، لكن الأعمال المنافية للديمقراطية التي قامت بها إدارة تشافيز أو شجعت عليها أشعلت الأزمة التي وقعت في فنزويلا البارحة... حاولت حكومة تشافيز قمع مظاهرات سلمية. وقام أنصار تشافيز، بإطلاق النار، بعد تلقّيهم أوامر بذلك، على متظاهرين مسالمين وغير مسلحين مما أدى إلى مقتل أو جرح أكثر من مئة شخص. وقد رفض الجيش والشرطة الفنزويلية دعم دور الحكومة في مثل هذه الأعمال التي تنتهك حقوق الإنسان. ومنعت الحكومة خمس محطات تلفزيونية مستقلة من نقل وقائع الأحداث.

كان هذا التصريح ملفتاً للنظر من وجوه عديدة، بما في ذلك الادعاء بأن تشافيز «أشعل» الأزمة. وكانت التقارير فائقة السرّية التي رفعتها وكالة الاستخبارات المركزيّة إلى كبار المسؤولين في الحكومة قد حذّرت بوضوح قبل العصيان من أن انقلاباً عسكرياً في طور الاختمار. فقد جاء في التقرير الذي رُفع في 6 نيسان بأن شخصيات المعارضة ربما «تدفع في اتجاه القيام بعمل عسكري عبر استغلال الاضطرابات الناتجة عن المظاهرات التي ستنظمها المعارضة في وقت لاحق من هذا الشهر أو من خلال الإضرابات المستمرّة في شركة النفط بيتروليوس دي فنزويلا التي تملكها الدولة». حتى إنه أشار إلى وجود خطط لاعتقال تشافيز.

في يوم الجمعة الذي صادف يوم 12 نيسان، كان أوتو ريتش، وهو المسؤول الذي عينه الرئيس جورج دبليو بوش لإدارة الشؤون المتعلقة بأميركا اللاتينية، يعمل داخل مبنى وزارة الخارجية على إقناع دول أميركا اللاتينية على الاعتراف بالحكومة الفنزويلية الجديدة. استدعى ريتش، الذي ملأ مكتبه بالأجهزة التلفزيونية التي تعرض ما تنقله شبكات التلفزيون الفنزويلية والذي كان يحصل على آخر الأخبار من غوستافو سيسنيروس، صاحب محطة فينيفيجن التلفزيونية في كاراكاس، السفراء التابعين لدول المنطقة للحضور إلى مكتبه. حاول أن يثبت أن تشافيز قمع المسيرة بعنف وأنه تنحّى عن الرئاسة طوعاً. وحثّ السفراء على الاعتراف بالحكومة الجديدة برئاسة بيدرو كارمونا.

كتب أحد المراسلين: «بالكاد كانت إدارة بوش تستطيع إخفاء فرحها في يوم الجمعة بالإطاحة بالرئيس هوغو تشافيز». وقال مايكل سكول، السفير الأميركي السابق لدى فنزويلا، لمستمعي الإذاعة الوطنية العامة بأن «البيت الأبيض كان مسروراً، وأنا متأكد من ذلك، بطرد تشافيز، حتى إنه كان أكثر سروراً لأنه لم يكن للولايات المتحدة

علاقـة بذلـك». وقـال السيناتور الجمهوري جيسي هيلمز عن ولاية نورث كاليفورنيا: «على الرغم من حوادث القتل المأساوية التي راح ضحيتها عدد من الفنزويليين، كان يُنظـر إلـى استقالـة هوغـو تشافيز من منصب الرئاســة في وقت مبكر من هذا الصباح على أنها نعمة وعلى أنّها إرادة الشعب».

لكـنّ سفـراء دول أميـركا اللاتينيـة الذيـن استدعاهم ريتش لم يـروا جميعهم في إبعـاد تشافيـز «نعمـة» أو «إرادة الشعـب». فقـد أصدر رؤساء العديد من دول أميركا اللاتينيـة، الذيـن اجتمعـوا فـي قمة كوستاريكا التي لم يحضرها تشافيز، بياناً أدانوا فيه انتهاك النظام الدستوري.

علـى الرغـم مـن ذلك الرفض، حصـل المجلس السياسي الجديد على دعم قطاع آخر في الولايات المتحدة المعهد الجمهوري الدولي، وهو أحد الفروع الرئيسية الأربعة للمنحة الوطنية من أجل الديمقراطية. أصدر رئيس المعهد جورج فولسوم بياناً صحافياً أثنـى فيـه علـى مـن ثاروا في وجه تشافيز وتباهى بأن منظمته خدمت «كجسر» العديد من المجموعات التي عارضته:

> ليلة البارحة، هبّ الشعب الفنزويلي، بقيادة أطياف المجتمع المدني كافّة، للدفاع عن الديمقراطية في بلاده... وملأ الآلاف من الأشخاص شوارع كاراكاس للمطالبة باستقالة المقدم هوغو تشافيز. وقد ردّ تشافيز باستخدام القنّاصة ودوائره البوليفارية شبه العسكرية مما أدى إلى مقتل أكثـر مـن اثنـي عشر مدنياً وإصابة أكثر من مئة آخرين بجراح. وعلى النقيضـ مـن ذلـك، يثني المعهد الجمهـوري الدولي على وطنية الجيش الفنزويلي الذي رفض أن يطلق النار على شعبه.
>
> كما يمتدح المعهد الجمهوري الدولي شجاعة قادة المجتمع المدني... الذيـن عرّضـوا أرواحهـم للخطر في نضالهم من أجل إعادة الديمقراطية الحقيقية إلى بلادهم.

فيمـا كانـت الولايـات المتحدة تعمل على إضفاء صفة الشرعية على النظام الجديد فـي فنزويـلا، شنّـت حكومـة كارمونا المؤقتة حملة شعـواء ضدّ أنصار تشافيز، فبدأت باعتقال حلفاء تشافيز البارزين الذين زعمت أنهم متورّطون في المجزرة التي وقعت فـي وسـط كاراكاسـ. وانضمّـت المحطات التلفزيونية إلى حملـة البحث. وبدأت تبث شريـط فيديـو جـرى التلاعـب فيه يظهر مطلقي النـار على جسر لاغونو على شاشاتها وقالـت بـأن السلطـات تبحـث عنهـم. ففي برنامج 24 ساعة الـذي تبثّه محطة نابليون برافو التلفزيونية، ورد النداء التالي: «إذا أمكنكم التعرّف على أي من هؤلاء المجرمين والمغتالين، فهؤلاء من جملة المطلوبين لأنهم متهمون بارتكاب جريمة جماعية». وقالت المحطة أيضاً بأنها أُصدرت مذكّرات اعتقال بحق حلفاء تشافيز، بمن فيهم رئيس بلدية

كاراكاس فريدي بيرنال ووزير التعليم أريستوبولو إيستيوريز. وقال تلفزيون راديو كاراكاس بأن إيستيوريز مطلوب حياً أو ميتاً.

حاصر جمع تملّكه الغضب بسبب «مجزرة إل سيلينسيو» المبنى الذي يسكن فيه وزير الداخلية رامون رودريغيز شاسين في كاراكاس. وأوقفته الشرطة التي تسيطر عليها المعارضة ووضعت الأصفاد في يديه. حاول الجمع الغاضب الإمساك به وتوجيه اللكمات إليه وجذبه بقوة من شعره فيما كانت الشرطة تقتاده إلى سيارة دورية لنقله إلى مكان آخر. وعلّق تقرير إخباري على ذلك المشهد بالقول: «كاد أن يُشنق من دون محاكمة».

كان حليف آخر لتشافيز، وهو العضو في الكونغرس طارق ويليام صعب وأحد قدامى الناشطين في الدفاع عن حقوق الإنسان والملقّب بشاعر الثورة، قد أمضى ليلته مختبئاً مع أعضاء آخرين في الكونغرس خوفاً من الشرطة التي تسيطر عليها المعارضة. لكنه عاد في اليوم التالي إلى منزله عند الساعة التاسعة صباحاً تقريباً. كان قلقاً على زوجته وأولاده. وعندما وصل إلى هناك، وجد ملاحظة ملصقة على الباب جاء فيها: «المجلس السياسي الحكومي يبحث عنك أيها المجرم».

سرعان ما وصل رجال الشرطة المدججون بالسلاح إلى المنطقة وأوقفوا حركة المرور عند طرفي الشارع. وكان مئات من السكان في الأحياء المجاورة قد حاصروا المنزل وهم يلوّحون بالعصي، ويقذفون الأحجار، ويقرعون الباب، ويطلقون الإهانات. شعرت صوفيا، ابنة صعب، التي تبلغ من العمر ثلاث سنوات بالارتباك، لأن عيد ميلادها كان قريباً. لكن خطر ببال صعب فكرة مختلفة تماماً، فقد اعتقد بأنهم سوف يُقتلون جميعاً.

سلّم نفسه إلى الشرطة التي اقتادته بعيداً في مركبة مقفلة. وعرضت المحطات التلفزيونية مشهد اعتقاله على الهواء مباشرة، وظهر صعب وهو يشجب اعتقاله غير القانوني ويطلب المساعدة. وقد أثارت هذه الحادثة حفيظة بعض منتقدي تشافيز. فقد بدأت الحكومة المؤقتة تأخذ شكل ديكتاتورية فاشية. وتوارى صعب عن الأنظار.

وفي هذه الأثناء، كان جمع آخر يحاصر السفارة الكوبية. فقد اعتقد الحشد الذي ضمّ نحواً من ألف شخص أن المسؤولين في حكومة تشافيز، بمن فيهم نائب الرئيس ديوزدادو كابيلو مختبئون فيها. طالبوا بتسليمهم. لكن حتى ولو كانوا في الداخل، فهذا أمر لا يمكن أن يحصل لأن السفارات تتمتع بالحصانة الدبلوماسية. والسفارات تعتبر بمثابة ملاذات آمنة مقدسة بالنسبة إلى الأشخاص الذين يبحثون عن ملجأ يحميهم من الهجمات السياسية. لكن ذلك لم يكن يعني شيئاً بالنسبة إلى ذلك الحشد. حطموا نوافذ ثلاث سيارات تحمل لوحات دبلوماسية، وثقبوا إطاراتها، وقفزوا عليها. ورشقوا جداراً خارج السفارة بالبيض، وقطعوا الكهرباء والماء، وهددوا باقتحام المبنى، وحطموا كاميرات المراقبة المركبة في الخارج.

كان ذلك هجوماً وحشياً، لكن الشرطة التي تسيطر عليها المعارضة راقبت المشهد من غير أن تفعل شيئاً تقريباً. وظهر رئيس البلدية هنريكه كابريليس راونسكي من حزب بريميرو جاستيسيا المعارض وتحدث إلى السفير الكوبي داخل السفارة. لكنه لم يحاول تفريق الحشد الذي أبقى موظفي السفارة، بمن فيهم بعض الأطفال، رهائن من دون طعام حتى هبوط الظلام. صاح أحد المحتجين: «أيها السادة، أيها الأشخاص الموجودون في الداخل، ديوزدادو كابيلو وأصدقاؤك. ستضطرون إلى أكل السجاد. ستضطرون إلى أكل الكراسي والطاولات التي في الداخل، لأننا لن نسمح بإدخال الطعام». وعند منتصف الليل تقريباً، سمحوا أخيراً بإدخال بعض الطعام، شريطة أن يكون مخصصاً للأطفال فقط.

ذهب قسيس من جوسيت، ويدعى أرتورو بيرازا، وكان من بين المشاركين في مسيرة المعارضة في اليوم السابق، إلى السفارة عند الساعة التاسعة والنصف مساءً تقريباً، وكان يرتدي زيّه الكهنوتي. اعتلى ظهر السيارة وحاول تهدئة الحشد وإقناعه بالابتعاد عن السفارة. لكنّ قلة من الناس استمعت إليه. كان موظفو السفارة في خطر عظيم. وقال بيرازا في وقت لاحق: «لو خرجوا من السفارة، لكان مصيرهم الموت، لا يوجد لديّ أدنى شك في ذلك». غادر القسيس المكان، ثم عاد في وقت قريب من منتصف الليل وأعاد المحاولة. كان هناك عدد أقل من الناس، لكنهم كانوا مهتاجين وكان بعضهم ثملاً.

فيما كان الحشد يهاجم السفارة الكوبية في فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم، تجمع في الطرف الآخر من البلدة العديد من النخب الفنزويلية عند قصر ميرافلوريس. كان كارمونا يستعدّ لحلف اليمين رسمياً والإعلان عن الأعمال الأولى التي سيقوم بها كرئيس. وسارعت التقارير الإخبارية الدولية إلى وصفه بالرجل «المهذب والمحترم». وقالت صحيفة فاينتشال تايمز بأن كارمونا «حاسر الرأس لين الحديث، وهو يتمتع بسمعة نظافة اليد». كان من المرجح أن يشرك في حكومته الانتقالية «تأثيرات مهدئة أخرى». وعرضت ذي نيويورك تايمز صورة «رجل في الأخبار» في عددها الصادر يوم السبت الموافق في 13 نيسان مع عنوان المدير والمُصلح. ووصفت كارمونا بالنحيل والوديع وأضافت بأن «السيد كارمونا، كما يقول الخبراء، مدير متزن يُعرف عنه أيضاً بأنه مصلح».

لكن بالكاد كان يمكن لأوّل الأعمال التي قام بها كارمونا كرئيس لفنزويلا في يوم الجمعة وصفه بأنه وديع أو مُصلح أو متزن. ففي حركة واحدة، مسح كل مؤسسة ديمقراطية في البلاد تقريباً ونصّب الدّيكتاتورية. فأغلق الجمعية العامة، وتخلّص من المحكمة العليا، ومزّق الدستور، وصرف كل مسؤول يتقلّد منصباً عاماً من المدعي العام إلى حكام الولايات وإلى رؤساء البلديات. وقال بأنه ستُجرى انتخابات رئاسية جديدة في غضون عام. حتى إنه غيّر اسم البلاد فأصبح جمهورية فنزويلا، بحذفه الإشارة

الدستورية إلى بوليفار، وأمر برفع صور المحرِّر عن جدران القصر الرئاسي.

فيما كان دانييل روميرو، المساعد السابق لكارلوس أندرياس بيريز الذي كان برفقة كارمونا في فورت تيونا في الليلة السابقة، يقرأ المراسيم التي أصدرها كارمونا، صاحت النخب المجتمعة في قصر ميرافلوريس: «ديموكراسيا، ديموكراسيا». بدأ روميرو بتعليل هذه التدابير الدراكونية فقال للنخب المجتمعة: «بما أن الرئيس تشافيز قدّم استقالته إلى هيئة أركان الجيش وبما أن نائب الرئيس ديوزدادو كابيلو تخلّى عن منصبه، يتعين علينا ملء الفراغ في السلطة، ولهذا السبب أمرت بتشكيل حكومة وحدة وطنية ديمقراطية».

بعد أن قرأ روميرو مرسوم كارمونا، تقدم مندوبون عن المؤسسات المهنية، ووسائل الإعلام، والكنيسة، والقطاعات الأخرى للتوقيع على الوثيقة. وكان من بين هؤلاء رئيس الأساقفة إغناسيو فيلاسكو وروسيو غويجارا، اللذان حصلت مؤسستهما التجارية سيديسي على منحة ماليّة من مؤسسة المنحة الوطنية من أجل الديمقراطية (NED). كما رشح كارمونا أشخاصاً آخرين من المستفيدين من منح NED لشغل مناصب في وزارته، فرشح ليوناردو كارفجال لمنصب وزير التعليم وليوبولدو مارتينز لمنصب وزير المالية. كما كان من بين الموقعين على قائمة تضم أربعمئة شخص قدموا إلى ميرافلوريس في فترة ما بعد ظهر ذلك اليوم وفي المساء لدعم مرسوم كارمونا رئيسة منظمة سومات لمراقبة الانتخابات والتي تمولها مؤسسة NED، وتدعى ماريا كورينا ماشادو. وادّعت ماشادو في وقت لاحق بأنّها جاءت لزيارة زوجة كارمونا، بوصفها صديقة قديمة للعائلة، واعتقدت أن الورقة التي وقّعت عليها لم تكن أكثر من ورقة دخول مثل التي تُستخدم في المكاتب الحكومية. وادعت بأنه لم يكن لديها أدنى فكرة بأن كارمونا أعطى نفسه صلاحيات ديكتاتورية وألغى المؤسسات الديمقراطية كافة على الرّغم من أن حفل التوقيع على المرسوم نقلته المحطات التلفزيونية والإذاعية الرئيسية كافة على الهواء مباشرة إلى أنحاء البلاد كافّة، بحيث يكاد يكون من المستحيل عدم التنبّه إلى ما كان يجري.

كما رشّح كارمونا العديد من القادة العسكريين الرئيسيين الذين ثاروا في وجه تشافيز لتولّي أعلى المناصب. وبناء على ذلك، عيّن العميد البحري كارلوس مولينا تامايو مسؤولاً أمنياً عن قصر ميرافلوريس، وأعاد لاميدا إلى منصبه كرئيس لشركة بيتروليوس دي فنزويلا. ورشّح أيضاً اللواء البحري هكتور راميريز بيريز لمنصب وزير الدفاع.

أحد الذين لفت الأنظار غيابهم عن المجلس السياسي كان شريك كارمونا في تزعم حركة المعارضة، الزعيم النقابي كارلوس أورتيغا، والجنرال إفريان فاسكويز فيلاسكو قائد الجيش الذي قدم استقالته فيما كانت شوارع كاراكاس غارقة مساء يوم الثلاثاء في حمام دم وتفوّه بالتصريح المدمر الذي خاطب فيه تشافيز: «سيدي الرئيس، لقد كنت

مخلصاً لك حتى النهاية...». ولذلك، كان على كارمونا أن يدفع ثمن هفواته.

بعد أن أدلى بقسم اليمين الرئاسي، ألقى كارمونا خطاباً موجزاً أمام مناصريه الذين انتابهم الخوف الشديد من تشكيله نظاماً ديكتاتورياً قال فيه: «يتعين علينا العودة إلى حكم القانون. سيصبح حكم الرجل القوي خلفنا».

لكن بالعودة إلى فورت تيونا، كان في مقدور تشافيز سماع الجلبة التي تحدثها مجموعة صغيرة من أنصاره في الشارع احتجاجاً على حادثة اختفائه. كانت الألسنة، والهواتف الخليوية، والمحطات الإذاعية البديلة، والمواقع الإلكترونية تنقل الأخبار التي تقول بأن تشافيز لم يقدّم استقالته وأن المتمردين يحتجزونه في مقرّ قيادة الجيش. راقب فيما كان محتجَزاً داخل غرفة في الحصن مشهد ميرافلوريس على شاشة التلفزيون. بدا تشافيز مشدوهاً. وقال في وقت لاحق: «رأيت كارمونا على شاشة التلفزيون وهو يدلي بالقسم. شاهدت ذلك كلّه وشاهدت الوجوه التي كانت في صالون أياكوشو وهي تصرخ الديمقراطية، الديمقراطية، فيما كانوا يطعنون الدستور».

قرّر المتمردون نقله من المكان. ومع هبوط الظلام، نقلوه إلى عدة مبانٍ مختلفة، ثم نقلوه إلى خارج المبنى وأمروه بالصعود إلى طوافة، فيما تملّكه القلق.

> بدأت الفكرة تنمو، الفكرة التي راودتني في الصباح والتي تتمحور حول إمكانية إقدامهم على قتلي، فكرة الاغتيال. لكن بما أنني سلّمت نفسي، فكرت في تسليم أمري لله، مثل شخص سمح للتيار بأن ينقله إلى حيث يشاء، ولم أسألهم عن المكان الذي ينوون نقلي إليه. مررنا فوق كاراكاس. وأذكر أنني سألت نفسي بصمت عن المكان الذي يريدون نقلي إليه. هل سيذهبون إلى مايكيتيا (المطار الدولي)؟ سينقلونني إلى مايكيتيا، ربما لإخراجي من البلاد بالقوة. نظرت إلى كراكاس من أعلى، لكن لا. فقد واصلت الطائرة تحليقها غرباً بموازاة الخط الساحلي.
>
> في تلك الرحلة، تملّكني ذلك الإحساس، ذلك الشعور بأنني أساق نحو حتفي... كنت أضع تعويذتي في يدي. كنت مسترخياً، وكنت مستعداً للموت.

كانت تلك التعويذة الزرقاء الصغيرة التي كان معلّمه القديم في الأكاديمية العسكرية، الجنرال بيريز أركاي، قد أعطاه إياها لحظة مغادرته ميرافلوريس لتسليم نفسه. بدأ تشافيز يفكر الآن بأولاده، وزوجته، ووالديه، وأصدقائه، والشعب الفنزويلي ككل. بدت وكأنها رحلة أبدية. وفي النهاية، حطت الطائرة في قاعدة توريامو البحرية البعيدة بالقرب من بويرتو كابيلو على الساحل الغربي.

خطر بباله أنهم سيقتلونه رمياً بالرصاص ثم يدّعون بأنه قتل نفسه أو حاول

الهرب. شعر كما لو كان تشي غيفارا في اللحظات الأخيرة من حياته، بعد احتجازه في غابات بوليفيا. بدت توريامو مقفرة ومعتمة. بدت مكاناً جيداً للتخلّص من تشافيز.

وصلنا بحراً إلى توريامو في مكان معتم. وهناك، نقلوني إلى منزل صغير، تصوّرت أنه مستودع للتخزين، شبه معتم. تركوني وحدي في ذلك المنزل تحت الحراسة. لكن على مسافة بضعة أمتار، ما بين خمسة وعشرة أمتار عنّي، رأيت مركبة قادمة من وراء الطوافة. أطفأوا أنوار المركبة وترجلوا منها. سمعت ضجيجاً وسط الظلام، وظهر فجأة ما بين خمسة عشر وعشرين جندياً في صف في الظلام، وجوه معتمة، مع أسلحتهم بالطبع. اعتقدت بأنهم سيقتلونني. وبدا أن هناك الكثير من التوتر في أوساط الضباط والجنود.

ثم وصل ضابط في وقت لاحق وقال لي: «حسناً، سننقلك إلى المنزل الرئاسي»... وضعوني في شاحنة، وتقدمت بنا بسرعة بطيئة للغاية على الطريق. وأقلعت الطوافة فيما كان الجنود يمشون على جانبي الطريق. توقفنا لمرة واحدة لبضع دقائق في مكان لم أجد سبباً لكي نتوقف فيه، في الطريق المعتم. وما لبث أن ترجّل الضباط وبدأوا يتحدثون في ما بينهم.

لاحظ تشافيز وجود صراعات بين بعض الجنود. اعتقد بأن بعضهم جاء لكي يقتله، في حين أراد البعض الآخر منعهم عن ذلك.

كان يوجد اثنان منهم يريدان قتلي، لكن الآخرين رفضوا ذلك، كانوا دستوريين. وفي اللحظة التي عزموا فيها على تنفيذ الأمر، كنت أقف هكذا. مشى أحد المرتزقة ووقف خلفي. قلت في نفسي: «هذا هو الشخص الذي سيطلق عليّ رصاصة من الخلف». التفتّ ونظرت إلى وجهه وقلت له: «فكّر في ما تنوي القيام به». وفي تلك اللحظة، قفز ضابط صغير آخر إلى جانبي وقال: «إذا قتلتَ الرئيس هنا، فسوف نقتل بعضُنا بعضاً». وهذا ما حيّد الجنديين من المرتزقة وأنقذ حياتي.

واصلت المجموعة سيرها نحو المنزل الرئاسي في القاعدة، لكن لم يتمكن أحد من العثور على المفتاح. لم يكن يوجد شيء لديهم مهيأ لاستقبال تشافيز، ولا حتى غرفة نظيفة واحدة. وأخيراً، نقلوه إلى مركز الممرضات، حيث أعطوه سريراً وكرسياً وطاولة صغيرة وحماماً. كان معظم أبناء الأمة لا يعرفون أي شيء عن مكانه. كان قد مضى نحو من أربع وعشرين ساعة منذ أن شوهد آخر مرة وهو يدخل فورت

تيونا. كان الرئيس مفقوداً.

ظهر بيدرو كارمونا في قصر ميرافلوريس في وقت مبكر من صباح يوم السبت 13 نيسان. كان من المفترض أن يكون اليوم الكامل الأول له كرئيس بعد أن أقسم اليمين مساء يوم الجمعة وتخلص من الديمقراطية. وخطط لكي تدلي وزارته بقسم اليمين في الساعات الأولى من بعد ظهر ذلك اليوم. وأول زوار اليوم كان تشارلز شابيرو، السفير الأميركي لدى فنزويلا.

تناول الرجلان برفقة السفير الإسباني طعام الإفطار معاً عند الساعة التاسعة صباحاً تقريباً. ووفقاً لرواية شابيرو، ألحّ على كارمونا أن يعيد تفعيل الجمعية العامة ويدعو إلى إجراء انتخابات في أقرب فرصة ممكنة. لكن كارمونا لا يذكر القصة بهذه الطريقة. قال بأن شابيرو لم يتطرّق إلى هذا الموضوع أبداً. وعلى أي حال، فسّر العديد من المراقبين وجود السفير الأميركي في القصر الرئاسي بعد يوم من استيلاء كارمونا على السلطة بأنه دعم أميركي له.

بعد أن أنهى شابيرو طعام الإفطار مع كارمونا، تدفق عمالقة الإعلام في البلاد إلى باحات القصر بسيارات الليموزين السوداء من أجل الاجتماع بكارمونا الذي طلب منهم فعل كل ما يمكنهم فعله لدعم النظام. كان من بين هؤلاء غوستافو سيسْنيروس، صاحب محطة فينيفيجن التلفزيونية، ومارسيل غرانيير صاحب تلفزيون راديو كاراكاس، وألبيرتو رافيل صاحب محطة غلوبفيجن التلفزيونية وعمر كاميرو صاحب محطة تيليفين التلفزيونية. كما حضر أيضاً محرّرا اثنتين من الصحف الرائدة في البلاد أيضاً؛ ميغيل هنريكه أتيرو المحرّر في صحيفة إل ناسيونال، وأندرياس ماتا المحرّر في صحيفة إل يونيفرسال. وفي الوقت نفسه تقريباً، بدأت نخب السلطة الأخرى بالوصول من أجل الإدلاء بالقسم. وبدأ الأسقف بالتزار بوراس يتبادل المعانقات الحارة مع الأصدقاء. كما حضر رئيس الأساقفة إغناسيو فيلاسكو أيضاً.

كان كارمونا يتلقى دعم الصفحات الرئيسية الأولى في الصحف التي تصدر في الولايات المتحدة. تغاضت أميركا عن الانقلاب، ولامت تشافيز على المجزرة، ورحبت باستعادة الديمقراطية. قالت صحيفة ذي نيويورك تايمز: «مع استقالة الرئيس هوغو تشافيز بالأمس، لم تعد الديمقراطية الفنزويلية مهددة بعد اليوم بحاكم يتحول إلى ديكتاتور». ووصفت الصحيفةُ تشافيز بأنه: «ديماغوجي هدام»، وتحاشت استخدام عبارة انقلاب، وقالت بأن الجندي المظلي السابق: «تنحّى بعد أن تدخل الجيش وسلّم السلطة إلى رجل أعمال محترم اسمه بيدرو كارمونا». وأضافت بأن فنزويلا بحاجة إلى «قائد يملك تفويضاً ديمقراطياً قوياً لإزالة هذه الفوضى».

ونشرت نيوز داي التي تصدر في جزيرة لونغ آيلاند مقالة افتتاحية حملت العنوان التالي طرد تشافيز لا يعدّ خسارة عظيمة. ووصفته شيكاغو تريبيون «بالرجل القوي المنتخب» وصرحت بأنه «ليس في كل يوم تستفيد الديمقراطية من تدخل الجيش لإجبار

رئيس منتخب على التنحّي».

كما انهال الدعم من المؤسسات التجارية أيضاً. فقد نشرت بيل ساوث الأميركية والشركة تيلسيل الفنزويلية التابعة لها إعلاناً على صفحة كاملة في صحيفة إل يونيفرسال اليومية التي تصدر في كاراكاس وعرضت على العملاء مكالمات خارجية مجانية للاحتفال «بحرّية فنزويلا والمستقبل اللامع الذي ينتظرنا».

لكن في ذلك الصباح الذي استعد كارمونا فيه لتنصيب حكومته المؤقتة، كانت الأحداث التي تجري خارج القصر تميل كفة ميزان القوى السياسية. فقد انتشرت شائعة في الأقاليم تقول بأن تشافيز لم يقدم استقالته أبداً وأنه محتجَز في الحبس الانفرادي ضدّ إرادته. ازداد حجم المظاهر الاحتجاجية التي بدأت مساء يوم الجمعة خارج فورت تيونا مع طلوع شمس يوم السبت. كما عمّت المظاهرات الشوارع بالقرب من القصر الرئاسي ميرافلوريس. وتدفق الناس إلى وسط المدينة وهم يحملون لافتات كُتب عليها «دوندي إيستي تشافيز؟ أو أين هو تشافيز؟ وحمل آخرون صوراً فوتوغرافية ضخمة للرئيس المفقود. أطلقت الشرطة التي تسيطر عليها المعارضة الغاز المسيل للدموع والأعيرة المطاطية. كما انتشرت في مدن الأقاليم عبر العاصمة، فقمعت الاحتجاجات وأطلقت الأعيرة الحيّة.

اكتظت المستشفيات بالضحايا. وقال رجل يدعى إدغار باريديس لمراسل أميركي: «إنهم يطلقون النار علينا هناك». وقالت متظاهرة أخرى من أنصار تشافيز، وتدعى جوانا شيرينوس، والدموع تسيل على خدّيها فيما كانت تراقب سيارات الإسعاف الواحدة تلو الأخرى وهي تدخل باحة المستشفى: «فيما كنا نحضر قتلانا الواحد بعد الآخر، يحتسي السكان الأغنياء في الشرق مشروباتهم ويروّحون عن أنفسهم».

لو أن السكان الأغنياء الذين كانوا يروّحون عن أنفسهم شاهدوا شاشات التلفزيون، لما كانوا سيشاهدون الاحتجاجات وحمامات الدم التي تنهمر في الأقاليم فيما يطالب الناس بعودة تشافيز. كان التعتيم الإعلامي على الأخبار مطلقاً. لكن مع تكشف أخبار إحدى أضخم القصص في التاريخ الحديث لفنزويلا، رفضت وسائل الإعلام نقل مشاهد الجماهير التي تطالب بعودة تشافيز، أو نقل مشاهد أعمال القمع التي كانت تجري في الشوارع، أو حتى الإشارة إلى أن الرئيس مفقود. وبدلاً من ذلك، عرضت المحطات التلفزيونية أفلام الكرتون، وبرامج تعليم الطبخ، وأفلام هوليوود مثل فيلم **بريتي وومان**.

سعى النظام الجديد إلى خنق المنبر الوحيد المتوفّر للأشخاص الذين لا يمكنهم استقبال المحطات الكابلية أو الإنترنت للاطلاع على الأخبار التي تتحدث عن الانتفاضة؛ وسائل الإعلام البديلة. فأغارت الشرطة وأغلقت محطة إذاعية محلية ومحطات تلفزيونية غالباً ما كانت تعمل في المنازل والتي كانت حكومة تشافيز قد شجعت عليها لتكون مكافأة صغيرة للوسائل الإعلامية العملاقة.

لم تكن الاضطرابات بسبب اختفاء تشافيز تنتشر في الشوارع وحسب، بل وداخل الثكنات العسكرية أيضاً. فقد كان الجنرال رؤول إيسياس بادويل، الذي كان ذات يوم أحد مؤسسي الحركة الثورية البوليفارية (MBR-200)، وهو الآن قائد وحدة المظليين القديمة التي خدم فيها تشافيز في ماراكاي، يحاول الإعلان عن معارضته للنظام الجديد على الملأ. ولذلك أعدّ بياناً أعلن فيه عن امتناعه عن تقديم الدعم لنظام كارمونا. وأمل في أن يتمكن بطريقة ما من نشره. كما وقّع على البيان بعض كبار الضباط في الجيش أيضاً. وفي هذه الأثناء، تجمع آلاف من أنصار تشافيز خارج مقر كتيبة المظليين، وطالبوا بعودة تشافيز.

تحدث بادويل عبر الهاتف إلى العديد من القادة المخلصين، بمن فيهم العقيد جيسوس ديل فالي موراو كاردونا، الذي كان قائد حرس الشرف في قصر ميرافلوريس. بعد أن تولّى كارمونا السلطة، واصل الجنود إلى جانب موظفي القصر الآخرين تنفيذ مهماتهم لصالح النظام الجديد. كانوا يقدمون لهم القهوة، وعزفت فرقة حرس الشرف التي يقودها موراو النشيد الوطني لرئيس الدولة الجديد، حتى وإن بكى بعضهم في أثناء قيامه بذلك. اعتقد كارمونا وأصدقاؤه بأن الجنود يدعمونهم. لكنهم كانوا في الواقع يتحينون الفرصة للمساعدة على الإطاحة به.

كان الجنود التابعون لموراو كاردونا متمركزين في ثكنة تبعد مسافة شارع واحد عن ميرافلوريس. وكان بمقدورهم دخول القصر عبر الأنفاق. ومع تزايد أعداد الحشود خارج ميرافلوريس، اتصل ضابط مخلص آخر بموراو من فورت تيونا وقال: «أيها العقيد، اليوم هو الثالث عشر. الآن وإلاّ فلا».

أجاب موراو: «تعال إلى هنا. أنا لم أعد أستطيع تحمّل هذا الوضع أكثر من ذلك». واتصل موراو ببادويل الذي قال له بأن يمضي في تنفيذ خطة استعادة قصر ميرافلوريس واعتقال كارمونا. اعتقدا بأنهما يتمتعان بدعم الثكنات العسكرية معظمها في البلاد. صحيح أن الضباط الذين أطاحوا بتشافيز كانوا من أصحاب الرتب العليا، لكن لم تكن لديهم سلطة مباشرة على الجنود تقريباً.

في وقت متأخر من ذلك الصباح، تقدم جنود موراو عبر الأنفاق المحفورة تحت الأرض واندفعوا نحو القصر. أمسك الجنود بنحو من عشرين شخصاً - بمن فيهم دانييل روميرو - الذين كانوا في غرفة اجتماعات مجلس الوزراء. وتمكن كارمونا ومولينا تامايو ولاميدا وآخرون من الفرار، وشقّ قادة الانقلاب طريقهم نحو فورت تيونا للانضمام إلى المتآمرين الآخرين. والتقطت عدسات الكاميرا مشاهد مذلّة لسيدات أنيقات من الطبقة العليا في فنزويلا وهن يغادرن القصر بأقصى سرعة في أثناء اقتحام الجنود الموالين له. تركوا خلفهم أنواع المشروبات ووشاحاً رئاسياً. كانت جوقة تناسب الأحجام كافّة.

لم يمضِ وقت طويل على فرار كارمونا من القصر حتى دعا بعض العسكريين

المتآمرين إلى عقد اجتماع في فورت تيونا. كان بعض صغار الضباط يتساءلون عما كان يجري على اعتبار أن تشافيز لم يقدّم كتاب استقالة ولا يعرف أحد مكانه. راقبوا مشاهد العنف التي وقعت على أفينيدا بارالت يوم الثلاثاء واستمعوا إلى المعلّقين التلفزيونيين وهم يُلقون باللائمة على تشافيز بسبب أعمال القتل التي وقعت. لكنهم أصبحوا الآن متشككين. اعتقدوا بأن رؤساءهم كذبوا عليهم عندما أخبروهم عن استقالة تشافيز. كما كانوا غاضبين من إقدام كارمونا على حل المؤسسات الديمقراطية ووقف العمل بالدستور.

كما تملّك الخوف بعض كبار الضباط الذين لعبوا أدواراً هامة في الثورة أيضاً. وكان الجنرال إفريان فاسكويز فيلاسكو، قائد الجيش، واحداً منهم، إذ إنّ كارمونا لم يسند إليه أي منصب.

تمكن حليف تشافيز، الجنرال لويس جورج غارسيا كارنييرو، بصعوبة من حضور الاجتماع الذي بدأ عند الساعة الواحدة من بعد الظهر تقريباً. كان مشهداً مربكاً. كان كل ضابط يصيح في وجه الآخر. وفي الخارج، كان بمقدورهم سماع أصوات أنصار تشافيز وهم يصيحون باسم الرئيس ويطرقون بالعصيّ والأنابيب على درابزين معدني.

وافق الضباط على مسودة إعلان يعترف بكارمونا رئيساً للدولة ولكن يطالب بإعادة الدستور والمؤسسات الديمقراطية في البلاد. وكان على فاسكويز فيلاسكو قراءته. وقبل أن يقوم بذلك، أمسك غارسيا كارنييرو بالبيان فيما كان فاسكويز يتحدث إلى الضباط الآخرين وقد أدخل بعض التعديلات عليه، فشطب العبارة التي تشير إلى الاعتراف بكارمونا رئيساً للدولة، ولم يلحظ فاسكويز فيلاسكو في غمرة الارتباك ما قام به كارنييرو.

لم تكن وسائل الإعلام الفنزويلية ستذيع بيان فاسكويز فيلاسكو، ولذلك كان عليه أن يقرأه عبر الهاتف على أثير محطة سي أن أن في أتلانتا. كان للبيان وقع القنبلة. فالرجل الذي سبق أن أدلى ببيان تاريخي ضدّ تشافيز يوم 11 نيسان قائلاً بأنه كان «مخلصاً حتى النهاية» يناقض الآن نفسه. كان الانقلاب في طور الانهيار. كما تحدثت ماريزابيل، زوجة تشافيز، إلى محطة سي أن أن أيضاً، وقالت بأن زوجها لم يقدّم استقالته.

زارت إحدى الممرضات في توريامو في الليلة السابقة تشافيز للتأكد من حالته الصحية. بعد أن نجا تشافيز بصعوبة مما اعتقد بأنه محاولة اغتيال، دخل في مرحلة اكتئاب مؤقت. وقال في وقت لاحق للجنة تابعة للجمعية العامة حققت في الانقلاب: «ساورتني الشكوك وأنا في توريامو، فيما كنت أنظر إلى النجوم، إن كان الأمر يستحق البقاء على قيد الحياة بضع دقائق. وتوصلت إلى الاستنتاج بأن الأمر لا يستحق البقاء على قيد الحياة». لكن تلك الفكرة تلاشت عندما فكر في الجنود الذين أيدوه،

وبالشعب الفنزويلي. والآن، أحضرت الممرضة معها بعض الدعم المعنوي. قالت لتشافيز والدموع تترقرق في عينيها: «لطالما رغبت في الالتقاء بك، لكن ليس وأنت في هذه الحالة. أمّي متيّمة بك».

أثارت المقابلة شيئاً في أعماق تشافيز. قال في نيسان 2007، كان هناك الكثير من الأحاسيس التي تعجّ في صدري. كانت تختلج في قلبي. لست أدري كم مرّة راودتني أحاسيس الألم، والإحباط، وفقدان الأمل. لكن تلك الفتاة ودموعها جعلت سدّاً في داخلي ينفجر، وجاء الطوفان على شكل دموع سالت من عينيّ. بكيت كثيراً. غادرتُ الغرفة وتوجهتُ إلى الحمام وبكيت وبكيت وبكيت. لكن نوبة البكاء تلك كانت أشبه بإخراج الأشياء من داخلي. خرجت من الحمام كالثور، كما لو أنني عدت حياً من جديد. لكن كانت هناك لحظات شعرت فيها بأنني ميت».

نام بضع ساعات، وفي صباح اليوم التالي، الثالث عشر من يوم السبت، وبدأ يشعر بأن إل بيبلو (الشعب) سيردّ على اختفائه. قال تشافيز في نيسان 2007: «الشيء الوحيد الذي لم يخطر ببالي هو مقدار رد الفعل ذاك. عندما استيقظت، استعدت الأمل والرغبة في الحياة، وأكثر من ذلك، العودة إلى الحكم. قلت، كلا، سنعود، لا أعرف إن كان ذلك سيستغرق شهراً، أم ستة شهور، أم ست سنوات، لكننا سنعود. لكن الشيء الوحيد الذي لم أتوقعه هو أنني سأعود إلى القصر مجدداً في اليوم التالي».

في ذلك الصباح، أحضر أحد الجنود طعام الإفطار لتشافيز وتحدث إليه بصوت خافت. سأل تشافيز إن كان قد قدّم استقالته، فأجابه تشافيز بأنه لم يفعل. قال الجندي: «إذن فأنت الرئيس وهؤلاء الأشخاص قد انتهكوا الدستور. إنهم يخدعوننا».

قدّم الجندي لتشافيز المعلومات الأولى عما كان يجري داخل البلاد. قال له بأن الجنود المظليين في ماراكاي بإمرة بادويل قد انتفضوا وهم يرفضون الاعتراف بكارمونا رئيساً للبلاد، وأن الناس يتجمعون خارج ثكنة بادويل. وقال الجندي لتشافيز بأنه يعتقد بأن بادويل وقادة آخرين يخططون لعملية إنقاذه.

وحتى في توريامو بدا أن الوضع آخذ في التغير. كان الجنود يعاملون تشافيز باحترام، كما لو أنه لا يزال الرئيس. سألوه إن كان يرغب في الهرولة، وأعطوه سترةً بيضاء اللون، فبدأ يهرول برفقة مجموعة من الرقباء الذين كُلفوا بحراسته. وفيما كانوا يهرولون، كان الرقباء ينادونه مستخدمين عبارة «سيدي الرئيس» وقالوا بأن المتآمرين يتسببون بكارثة. وبعد أن فرغوا من جولتهم، جلسوا يتحدثون إلى بعض الجنود الآخرين. شعر تشافيز بأنه في موطنه. سألهم عن عائلاتهم، وعن حياتهم كجنود، وعن التجهيزات البالية التي يتعين عليهم استخدامها في توريامو.

دخل غرفته لكي يستحم، ولبس كنزة بيضاء أخرى وانتعل حذاء جديداً أحضره له الجنود، وأحضر له طعامَ الغداء ذلك الجنديُّ نفسه الذي تحدث إليه في الصباح. سأل تشافيز الجنديَّ إن كان على استعداد لحمل رسالة مكتوبة وتوزيعها بطريقة ما،

فوافـق الجنـدي علـى ذلـك. أراد تشافيـز تنبيه العالم إلى أنه لم يقدم استقالته. وما إن هم بالكتابة حتى سمعوا هدير طوافة حطت في الخارج. كان على الجندي المغادرة، لكنه طلب من تشافيز الاستعجال ووضع الورقة في أسفل صندوق النفايات في الغرفة، ووعده بأن يعود ليأخذها في وقت لاحق.

أنهى تشافيز كتابة رسالته بسرعة. ومما جاء فيها: «توريامو، 13 نيسان 2002، الساعـة 14:45. إلـى الشعـب الفنزويلـي... (وإلى كل مـن يهمه الأمر). أنا، هوغو تشافيز فرياس، الفنزويلي، رئيس جمهورية فنزويلا البوليفارية، أعلن بأنني لم أتنازل عن السلطات الشرعية التي منحني إياها الشعبُ الفنزويلي». وأنهى رسالته بعبارة «إلى الأبد!» - وهي عبارة تشي غيفارا الشهيرة.

كان علـى تشافيـز الخـروج من الغرفة للالتقاء بالضباط العسكريين الذين وصلوا علـى متـن الطوافـة. كانـوا مزودين بخطة جديدة. وبموجـب هذه الخطة، كان عليهم أن ينقلـوا تشافيـز إلـى لا أورشيـلا، وهي جزيرة قبالة الساحل الكاريبي. قاوم تشافيز قائـلاً لهـم بأنـه لا يمكنهـم إجباره على المغادرة. وقال لهم بأنه رئيس البلاد المنتخَب بطريقة دستورية، وأنه في حبس انفرادي، وأنه محروم من الاجتماع بمحام. أجاب الضباط بأنهم موجودون من أجل ضمان سلامته. حاول تشافيز المماطلة لكنه صعد على متن الطوافة أخيراً. وفي هذه الأثناء، تسلل الجندي المخلص إلى مركز الممرضات، وأخـرج الرسالـة مـن صندوق النفايات، وغادر المكان محـاولاً إيصالها إلى الجنرال بادويل في ماراكاي.

خارج قصر ميرافلوريس في فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم، كانت الجموع الغفيـرة المناصـرة لتشافيـز تـزداد. كان الأنصار يتدفقون إلى وسط كاراكاس لا لأن تشافيـز مفقـود وحسـب، بـل ولأن حلمهم كان يُحتضـر. كان تشافيز أكثر من مجرد رئيـس. بالنسبـة إليهـم، كان رمـزاً للأمـل. لقد آمن بحق بشعبـه. كان قد طلب منه المساعدة على بناء دولة أحلامهم، وكانوا يسيرون على ذلك الطريق معاً.

بدا اختفاؤه شبيهاً إلى حد ما باغتيال جون أف كنيدي ومارتن لوثر كينغ جاي آر فـي الولايـات المتحـدة؛ لـم يكن الرجل الوحيد الـذي اختفى، بل اختفى معه الأمل والأفكار والأحلام التي زرعها. وكان ذلك كلّه سيُنتزع منهم من قبل الأشخاص أنفسهم الذين منعوهم من تحقيق تلك التطلعات في الماضي. شعرت الجماهير المحرومة، إلى جانـب تشافيـز والجمعيـة الدستورية، بأنها كتبت الدستور بأيديها. وهذا الدستور ينصّ على أنه في حال استقال الرئيس، كما تدعي المعارضة، فإن نائب الرئيس يحلّ محلّه. لـم يأخـذ الانقلابيـون تشافيـز وحسب، بل إنهـم داسوا على الدستور وتخلصوا من كل شخـص عمـل فـي إدارته. وبالإضافة إلى هذا كله، وضعوا رئيساً صورياً للأقلية لكي يحكم البلاد.

بعد يوم من الشعور باليأس والضياع، والبكاء والغرق في القنوط بسبب قائدهم

الـذي سقـط، عـادت الجماهيـر لكي تقاتل من جديد. وفـي الأقاليم، أذيعت كلمة على مكبـرات الصـوت والهواتـف الخليويـة: تودوس أميرافلوريـس أي ليتوجه الجميع إلى ميرافلوريس. خرج الناس من منازلهم وتزاحموا في الحافلات والسيارات، أو حتى مشوا عدة كيلومترات متوجهين إلى القصر. ويذكر أحد المحتجين ذلك المشهد فيقول: «كان أشبه بنهر بشري ينحدر من سفوح الجبال».

لم تعد الشرطة التي تسيطر عليها المعارضة تستخدم الكثير من أعمال القمع بعد أن بـدأ الانقـلاب ينهـار. وضغطت الحشود على القضبان الحديدية السوداء التي تحيط بالقصر. كان بعضهم يحمل شرشف سرير أبيض كُتب عليه بخط أحمر: دوندي إيستا تشافيز؟ كوي هابلي؛ أين هو تشافيز؟ دعوه يتكلم. علّقوا الشرشف على البوابات بالقرب مـن باحـات القصـر. وتسلق أحد المحتجين عمـود إنارة عند المدخل، وتسلّق آخرون عمـوداً إسمنتيـاً أبيضـ اللون. ورفع آلاف من الأشخاص صوراً فوتوغرافية لتشافيز، ولوّحوا بقبضات أيديهم في الهواء ورددوا: «تشافيز، تشافيز». وصاح أحد المحتجين: «لقد منحنا أصواتنا لتشافيز. ونحن لا نريد ديكتاتورية».

بعـد أن استولـى مـوراو وجنـوده علـى القصـر، صعـد ثلاثـة منهـم إلى سقف ميرافلوريس ولوحوا بقبضات أيديهم في الهواء. ورسم أحدهم شعار النصر بأصابعه، فثارت حماسة الحشد. وفي أعلى مبنى آخر مجاور، لوّح الجنود بعلم فنزويلي كبير ولوّحـوا بقبضـات أيديهـم، ممـا زاد من تجمهر الناس. مد المحتجون أيديهم من خلال القضبـان المعدنيـة وصافحـوا بعضـ الجنود الذين كانوا فـي الداخل. انهمرت الدموع على خدود بعض أنصار تشافيز تعبيراً عن الامتنان. لقد ارتفعت موجة المدّ، وولّى الانقلابيون الأدبار مذعورين.

لكـن أيـاً مـن هذه المشاهد لم يُنقل على شاشـات التلفزيونات الفنزويلية. والسبيل الوحيد تقريباً لكي يتمكن الناس من الاطلاع على ما كان يجري في بلادهم كان مشاهدة المحطات الإخبارية الدولية مثل محطة سي أن أن، إذا كانوا ميسورين بما يكفي لكي يتمكنوا من استقبال بثّ محطة كابلية. وفي فترة ما بعد الظهر من يوم السبت، حاصرت مجموعـات مـن أنصـار تشافيز – التـي انتابها الغضب لأن الشبـكات الفنزويلية رفضت إذاعـة أخبـار المظاهـرات الضخمة – بعضـ المحطات التلفزيونيـة مستخدمة الدراجات النارية وطالبت ببثّ روايتهم للأحداث على الهواء. دبّ الذعر في نفوس العمال في المحطات التلفزيونية مخافة أن تقدم الحشود على قتلهم. وتوسّلوا في بثّ حيّ المحافظة علـى أرواحهـم. وعلـى الرّغم من أن المحتجيـن حطموا النوافذ في إحدى المحطات، لكنهم لم يهاجموا أحداً.

في الساعات الأولى من بعد ظهر ذلك اليوم، انتشرت أخبار مفادها أن الانقلاب بـدأ ينهـار، وأنّ بعضـاً مـن وزراء تشافيـز قد عـادوا إلى القصر. ظـل أريستوبولو إيستيوريز متوارياً في منزله الذي لا يبعد كثيراً عن القصر. وقام بتحويله إلى مركز

قيادة غير رسمي لكبار المسؤولين الحكوميين. لم يكن إيستيوريز بحاجة إلى الاختباء لأنــه كان يحظــى بحمايــة طبيعيــة فــي الإقليم الذي يعيش فيــه. وإذا حاولت السلطات الانقلابية احتجازه، فسوف يأتي سكان الإقليم للدفاع عنه.

كان إيستيوريــز أحــد أول الواصليــن إلــى ميرافلوريس. اعتلى بجهد أعلى إحدى السيــارات برفقــة مسؤوليــن آخريــن وقادوا الحشــود في الهتاف لتشافيــز. وفي نهاية المطاف، اصطحبه الجنود إلى ثكنة حرس الشرف قبالة الشارع، ونقلوه عبر الأنفاق إلى ميرافلوريس. كانوا لا يزالون غير متأكدين من أن القصر آمن من هجوم يمكن أن تشنّــه القــوات الانقلابيــة، وأرادوا ضمان عدم تعرّضه لإطلاق نار. كانت الساعة تشيــر إلــى الثانيــة مــن بعــد الظهر تقريباً. وفي ما شــقّ وزراء آخرون، بمن فيهم آنا إليسا أوزوريو، طريقهم إلى ميرافلوريس، تجمهر الحشد المبتهج حولهم وحملهم إلى بوابات القصر. وصل مدع عام بدا عليه الانزعاج، إساياس رودريغيز، وكان قميصه منزوع الأزرار يتدلى خارج سرواله. وجاء رئيس هيئة أركان الجيش لدى تشافيز، رفائيــل فارغاســ ميدينــا فــي مظهر جديد؛ كان قد صبغ شعره الرمادي باللون الأسود في محاولة لإخفاء شخصيته.

بعــد أن قــرأ فاسكويــز فيلاسكــو بيانــه على محطة الســي أن أن، خرج الجنرال جورج لويس كارنييرو إلى الخارج للتحدث إلى الحشود المتنامية خارج فورت تيونا. ارتقى ظهر دبابة، وقال للحشد بأن القوات المسلحة لا تعترف بكارمونا رئيساً للبلاد، وقــال بــأن الجيشــ سيقاتــل إلى أن يعود تشافيز إلى السلطــة. وقال غارسيا كارنييرو للمتظاهريــن: «مــن الأهميــة بمــكان أن تبقوا هنا. ونحــن لن نغادر هذا المكان إلى أن يظهــر هوغــو تشافيــز». كان المتظاهرون قد أحضروا مكبراً للصوت وكانوا يستمعون إلــى موسيقــى علــي بريميــرا. وكان غارسيا كارنييرو وآخرون يقطعون الموسيقى كل عشر دقائق تقريباً لإذاعة آخر الأخبار عن إفادة ثكنة أخرى بأنها تدعم الرئيس.

في تلك الأمسية، حصلوا على نسخة عن الرسالة التي كتبها تشافيز في توريامو، وقرأتها العضو في الكونغرس إريس فاريلا، بعد أن عصبت حول رأسها عصابة الحركة الجمهورية الخامسة الحمراء، بصوت عالٍ. انفجر الجمهور بالهتاف. كان الجندي في قاعدة توريامو قد نقل الرسالة من القاعدة وسلّمها للجنرال بوديل في ماراكاي. وعلى ضــوء مصبــاح صغيــر يستخدمــه الجنرال للرؤية ليلاً، قــرأ الرسالة بصوت عالٍ على مسمع من الحشود في ماراكاي، مما أثار موجة من الهتاف هناك أيضاً.

مع انهيار المحاولة الانقلابية، قرر غارسيا كارنييرو إلقاء القبض على كارمونا وعلــى قــادة الانقــلاب الآخريــن. كانوا مجتمعين في فــورت تيونا، وهم في حالة من اليأس، بهدف التخطيط لخطوتهم التالية. وعند الساعة السابعة مساءً تقريباً، صعد عدد مــن الضبــاط إلــى الطابــق الخامس في مقرّ قيادة الجيش، وقطعــوا التيار الكهربائي، وخلعوا الباب الذي يؤدي إلى مكتب قائد الجيش، واحتجزوا عدداً من قادة الانقلاب

من العسكريين، بمن فيهم مولينا تامايو. كما اعتقلوا كارمونا الذي كان مختبئاً في غرفة نوم مجاورة.

مع اعتقال كارمونا، أراد وزراء تشافيز إعادة تفعيل الحكومة الشرعية. لكنهم احتاجوا إلى الرجل الذي ينبغي أن يخلفه بموجب الدستور على اعتبار أن الرئيس مفقود. كان هذا الشخص نائب الرئيس، ديوزدادو كابيلو. كان كابيلو، وهو أحد مجنّدي الحركة الثورية البوليفارية (MBR-200) الموالية لتشافيز من الأكاديمية العسكرية في الثمانينيات من القرن الماضي، قد اختبأ في فترة ما بعد الظهر من يوم 11 نيسان عندما بدا واضحاً أن هناك محاولة انقلابية. وأمضى اليومين التاليين في التنقل من مكان إلى آخر، ومن شقة لصديق إلى مزرعة في ولاية فارغاس القريبة التي لا يوجد فيها كهرباء ولا تغطية للهاتف الخلويّ.

بحلول مساء يوم السبت، تمكن كابيلو بصعوبة من الاتصال بمحطة سي أن أن الناطقة باللغة الإسبانية، وقال للمذيع: «أنا الرئيس في هذه اللحظة. إن الرئيس تشافيز غير موجود في مكتبه. وبالتالي فأنا المكلف بتسيير الأمور». وأضاف: «لا يمكنني النزول إلى الشارع لأن حياتي في خطر».

تلقّى كابيلو خبراً عند الساعة الواحدة من بعد الظهر تقريباً مفاده أن الجنود الموالين لتشافيز استعادوا السيطرة على قصر ميرافلوريس، لكنهم طلبوا منه التريث قبل الذهاب إلى هناك. أرادوا أن يعرفوا أولاً إن كان قادة الانقلاب سيشنّون هجوماً معاكساً. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، بدا أن الوضع تحت السيطرة. كان على كابيلو أن يصل إلى كاراكاس من الساحل الكاريبي في فارغاس، لكن الطريق العام كان مقطوعاً بحواجز من الشاحنات، ومستوعبات النفايات، والعصيّ التي وضعها أنصار تشافيز الغاضبون والذين كانوا يطالبون بعودة الرئيس. ولذلك، تعين على كابيلو ومسؤول حكومي آخر المشي على الأقدام، والجري، وتبديل السيارات لاجتياز الحواجز. وعندما عرف الناس حقيقتهما، بدأوا يركضون خلفهما لتوفير الحماية لهما.

عندما وصل إلى كاراكاس، كانت الحشود تنهب المتاجر تعبيراً عن غضبها من اختفاء تشافيز. كانت الأعيرة النارية تُطلق في الهواء، وكانت النيران تشتعل في السيارات في الشوارع. وكان على كابيلو أن يغيّر مساره. قال الحرّاس في ميرافلوريس بأنهم سيلتقون به في سوق في أسفل أفينيدا بارالت. وصلوا في سيارة إسعاف كانت تطلق صفاراتها، وأحاطوا كابيلو بغطاء واقٍ من الرصاص، ووضعوه على أرضية المركبة. ثم جلس الجنود عليه لتوفير مزيد من الحماية له.

عندما وصل كابيلو إلى ميرافلوريس عند الساعة التاسعة مساء تقريباً، أطلق الوزراء والحلفاء الآخرون صيحات الفرح، حتى إن البعض بكى من شدّة الفرح. وفي فورت تيونا، كان كارمونا يكتب استقالته كرئيس. وعند الساعة العاشرة مساءً تقريباً، قرأ كتاب استقالته على أثير إحدى المحطات الإذاعية، وبعد بضع دقائق،

أقسم كابيلو اليمين في القصر. وفي البلدة، ساعد الجنودُ المخلصون موظفي القناة الثامنة على استعادة المحطة التلفزيونية التي تملكها الدولة، لتعود الحياة إليها بالتدريج من جديد. وأطلّ العضو في الكونغرس خوان باريتو على الهواء مباشرة وأعلن بأنه «تمت إزاحة الطاغية».

وفي ماراكاي، كان يجري الإعداد لخطة لإنقاذ تشافيز. وبحلول مساء السبت، عرف بادويل وضباط موالون آخرون بأن المتمردين يحتجزون تشافيز في لا أورشيلا. وبناء على ذلك، بدأوا الإعداد لمهمة إعادته إلى العاصمة، وأطلقوا عليها اسم عملية إنقاذ الكرامة الوطنية. أقلعت ثلاث طوافات على متنها فريق من نخبة رجال الكوماندوس وطبيب ومحامٍ في الجيش عند منتصف الليل تقريباً. كانوا قد حصلوا على معلومات مفادها أن طائرة تحمل شارات أميركية جاثمة على أرض الجزيرة الصغيرة. خشي الجنرال علي أوزكاتيغوي دوكوي، الذي كان يقود العملية، من احتمال أن يقدم المتمردون على وضع تشافيز في الطائرة، والإقلاع بها ثم تفجيرها أو إسقاطها، والادعاء بأن الرئيس قضى نحبه في حادث. كان الموالون يسابقون الزمن. كما كانوا مستعدين للدخول في معركة، لم يعرفوا ما الذي كان ينتظرهم في الجزيرة.

حطت الطائرات من دون حوادث، وكم كانت مفاجأتهم عندما تبين لهم أن أول شخص وقعت عليه عيونهم كان قسيساً يدعى الكاردينال خوسيه إغناسيو فيلاسكو. وكان رئيس أساقفة كاراكاس قد قدم إلى لا أورشيلا في مسعى أخير لإقناع تشافيز بالتوقيع على كتاب الاستقالة. كان برفقته قائد انقلابي آخر يدعى العقيد خوليو رودريغيز سالاس. أمضى تشافيز بضع ساعات في الجزيرة برفقة رئيس الأساقفة. واستناداً إلى رواية الرئيس، جلس الرجلان على الشاطئ معاً، وأدّيا الصلاة، وحدّقا في النجوم، حتى إن كلاً منهما أمسك بيد الآخر فترة من الوقت. طلب تشافيز منه المغفرة وتحدث عن حاجة شرائح المجتمع معظمها إلى العمل معاً. لكن لم يكن لديه أي فكرة عن أن فريق إنقاذ كان في طريقه إليه.

عندما وصل علي وفريقه، أصيب تشافيز بالذهول. تعانقوا، وبكى العديد من فريق الإنقاذ. وقام الطبيب بإجراء الفحوصات اللازمة لتشافيز للتأكد من عدم إصابته بأي جروح. وقرأ المحامي على مسامعه بياناً معداً سلفاً يعلن بأنه بعد التمكن من تحديد مكان تشافيز، يكون تشافيز قد عاد بطريقة قانونية من جديد رئيساً للبلاد. وبعد ذلك أقلعت الطوافات متوجهة إلى كاراكاس. لم يتحدث تشافيز كثيراً في أثناء الرحلة، فقد كان منهكاً، وكان مصاباً بدوار، وكان بحاجة إلى وقت للتفكير.

مع دخول الطائرات المجال الجوي لكاراكاس، رأى أعمدة الدخان ترتفع من كاتيا ومن الأقاليم الأخرى. سأل مرافقيه عما كان يجري. شعر بالقلق من أن المدينة تشتعل كما حصل في بوغوتا في العام 1948 عندما اغتيل الزعيم السياسي الشعبي جورج

غايتان، مما أطلق موجة من أعمال الشغب الدموية أدت في وقت لاحق إلى اندلاع حرب أهلية لا تزال مستعرة إلى الآن. وفي كاراكاس، كان الآلاف من مناصري تشافيز الغاضبين ينهبون المتاجر التي أضرمت النيران في بعضها.

أمضت الحشود الليل بأكمله خارج قصر ميرافلوريس في انتظار عودة تشافيز. وانتشرت شائعة تقول بأنه في جزيرة لا أورشيلا، وأنه في طريق العودة. وعندما سطع نور في السماء الحالكة، انفجرت الحشود معبّرة عن فرحها. وفيما كانت الطوافات تحوم في الجو وقد أضاءت أنوارها الكاشفة التي اخترقت الضباب، بدا المشهد سريالياً لحفلة موسيقية لبينك فلويد. غنّت الحشود «لقد عاد، لقد عاد». وتعانق الناس وبكوا ورقصوا. حطت الطائرات عند الساعة 2:45 بعد منتصف الليل، وترجّل تشافيز مرتدياً سترة جلدية قصيرة وحذاءً رياضياً. بدا تعباً ولكن مبتهجاً. والتفّت مجموعة من الجنود والحلفاء حوله فيما كان يمشي بعيداً عن مهبط الطوافات، ثم وصل إلى سلّم يؤدي إلى باحات القصر التي باتت تعجّ الآن بالمناصرين. ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ورفع يده اليسرى في الهواء. التهبت حماسة الحشود فبدأوا يصيحون، ويغنّون. صلّى بعضهم، وسقط آخرون مغشياً عليهم. كانوا في حالة من الانفعال الشديد. بدا كما لو أن تشافيز بُعث من الموت. وأشار أحد سكان كاراكاس: «اعتقدوا بأنهم يستطيعون قتله، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك».

بعد مضي ساعة على وصول تشافيز، ألقى الرئيس خطاباً نُقل إلى شتى أرجاء البلاد من القصر. لقد شهدت البلاد ثلاثة رؤساء في يومين. وعلى مدى سبع وأربعين ساعة، لم يعرف الملايين من الناس أين كان تشافيز ولم يعرفوا حتى إن كان لا يزال حياً. كانت كلماته الأولى: «دع ما لله لله، ودع ما لقيصر لقيصر وما للشعب للشعب». كان لا يزال مذهولاً من انعطاف مجرى الأحداث، لكنه كان لا يزال يحاول استيعاب ما حدث. كان مهزوزاً، ولكن مطمئناً. قال تشافيز: «كنت واثقاً، كنت واثقاً تماماً بأننا سنعود. لكني لم أعتقد بأن عودتي ستكون سريعة إلى هذا الحد».

الفصل الثاني والعشرون

ما بعد الانقلاب

لم تمضِ بضع ساعات على عودة تشافيز إلى الرئاسة حتى بدأت الولايات المتحدة بتقديم المواعظ له. فقد أصدرت مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس، في إطلالة على البرنامج الإخباري ميت ذا برس الذي تبثّه يوم الأحد صباحاً محطة أن بي سي التلفزيونية، تحذيراً تناول موضوع الأعراف الديمقراطية. الملفت للنظر أن التحذير لم يكن موجهاً إلى كارمونا بل إلى تشافيز. قالت رايس: «آمل بأن يستلم هوغو تشافيز الرسالة التي أرسلها له شعبه والتي تقول بأن سياساته لا تفيد الشعب الفنزويلي. إنه بحاجة إلى احترام العمليات الدستورية... ونحن نأمل بأن يتنبّه تشافيز إلى أن العالم كله يراقب وبأن يستغل هذه الفرصة لتصحيح مسار سفينته، التي لا تزال تبحر، بصراحة، في الاتجاه الخاطئ منذ مدة طويلة جداً».

تبعها المتحدث باسم البيت الأبيض آري فلايشر بتعليقات خاصة به فقال: «لقد بعث شعب فنزويلا برسالة واضحة إلى الرئيس تشافيز بأنه يريد الديمقراطية والإصلاح. والفرصة سانحة لإدارة تشافيز لكي تردّ على هذه الرسالة بتصحيح مسارها وممارسة الحكم بطريقة ديمقراطية بالكامل». وتدخل الرئيس بوش بعد أربعة أيام، فلام تشافيز على تدخله بحريّة الصحافة عندما قطع إرسال المحطات التلفزيونية التي كانت تبثّ أخبار أعمال العنف في 11 نيسان، وأضاف: «عندما تتصاعد حدة الأمور في فنزويلا، يعمد إلى إسكات الصحافة. لطالما آمنت بحرّية الصحافة. أنا لا أبالي بمدى صعوبة الأسئلة ولا بكيفية تحريرها للروايات الإخبارية. لكن على الرّغم من ذلك؛ بما أنني أحترم الصحافة، فكذلك ينبغي أن يفعل الرئيس تشافيز».

كانت الولايات المتحدة بمفردها تقريباً في العالم في تأييد الانقلاب علناً. لكنّ تشافيز التزم الحذر في البداية من اتهامها بلعب أي دور في محاولة إسقاطه. ففي حديث إلى الأمّة يوم الاثنين الواقع في 15 نيسان، بدا أنه يوفر للولايات المتحدة فائدة الشك في ما يتعلق باتهاماتها المتعددة بأنه أمر بتنفيذ أعمال القتل خارج قصر ميرافلوريس والتي أدت إلى إسقاطه. قال تشافيز: «أعتقد بأنهم كانوا ضحايا المعلومات المضللة». لكن موقفه هذا تحول في غضون شهر، عندما قال لصحيفة الواشنطن بوست بأن «تفاصيل مقلقة» تتكشف وتفيد بأن يداً أجنبية ربما لعبت دوراً في الانقلاب. جاء في التفاصيل أساساً أن الرادارات اكتشفت وجود سفن وطائرات وطوافات أميركية تعمل في الأراضي الفنزويلية وفي أثناء الانقلاب أيضاً. ومع مرور الوقت وتدهور

العلاقات، اتهم تشافيز علناً الولايات المتحدة بالمساعدة على الإطاحة به. لكن الولايات المتحـدة أنكـرت تلـك التقاريـر وقالت بأن سفنها كانت منتشرة قبالة السواحل الفنزويليّة لإجراء مناورات روتينية.

أثـار طعـن تشافيـز العلنـي بالولايات المتحدة علـى خلفية الإطاحة به عاصفة من الانتقادات التي تردّدت في أرجاء قارّة لا تزال حذرة من التدخلات الأميركية. ولام العديـد مـن المحلليـن اثنيـن من شخصيات إيران-الكونترا علـى هذه الكارثة السياسية، وهما أوتو ريتش وإليوت أبرامز، رئيس المنظمات المدافعة عن الديمقراطية، وحقوق الإنسـان، والمنظمـات الدوليـة في مجلس الأمن القومي. وأدلى السيناتور الديمقراطي كريستوفـر دود عـن ولايـة كونكتيكـوت بتعليق ساخر قال فيه بأن ريتش بحاجة «إلى مراقبة أكثر رشداً».

ردّ ريتشـ بالقـول بـأن الإدارة لـم تفعل شيئاً لتندم عليه. قال ريتش: «الاعتذار عـن مـاذا؟»، فالتصريحـات التي أدلت بها الحكومـة المتعلقة باستقالة تشافيز وإصداره أوامـر بقتـل المتظاهريـن «عكسـت أفضل المعلومات التـي وصلتنا حينها». وبناء على طلب السيناتور دود، أجرت وزارة الخارجية مراجعة داخلية للتصرفات التي قامت بها الحكومة الأميركية ومنظمة المنحة الدولية من أجل الديمقراطية في ما يتعلق بالانقلاب. ووجدت أن منظمة NED ووزارة الدفاع، ووكالات أميركية أخرى قدّمت مساعدات لمنظمات وأفراد شاركوا في الانقلاب، لم يكن هناك دليل على أن هذا الدعم «ساهم بشكل مباشر أو أن المقصود منه كان المساهمة» في المحاولة الانقلابية.

وفـي حيـن أخلـت وزارة الخارجية ساحتها من تهمة تعمّد الإساءة، فتلك الحادثة لـم تمـرّ مـن دون إصابـات. ففـي أواخر تشرين الثاني، أرغـم ريتش على الاستقالة مـن منصبـه ككبيـر الموظفيـن المختصين بشؤون أميركا اللاتينيـة. وفي إعادة توزيع مفاجئـة للمناصـب، أصبـح مستشاراً خاصاً لوزير الخارجية كولن باول لشؤون أميركا اللاتينيـة. وطلـب منـه المسؤولون إخلاء مكتبـه الفسيح التابع لوزارة الخارجية الكائن في الطابق السادس.

وبالعـودة إلـى نيسـان، وبعد مـرور أقل من أسبوع على الانقلاب، فجّرت ذي نيويـورك تايمـز قصـة مفادهـا أن الولايـات المتحـدة كانـت تضخّ مئـات الآلاف من الدولارات إلى فنزويلا من خلال منظمة المنحة الدولية من أجل الديمقراطية (NED). وأشارت إلى أنه في السنة التي سبقت الانقلاب، ضاعفت NED حجم عملياتها التمويلية فـي فنزويـلا بمقـدار أربعـة أضعاف تقريباً، ليصل إلـى 877000 دولار. وقد وصل بعضـ مـن هـذه الأمـوال إلى اتحاد العمال الفنزويليين، المنظمـة العمالية التي يقودها كارلوسـ أورتيغـا والتـي ساعد المحتجـون المنتمون إليها على قيادة الحركة التي أدت إلى إسقاط تشافيز.

بعـد نشـر مقالـة التايمـز، تقدمت المحامية إيفا غولينغـر التي تقيم في لونغ آيلاند

والمراسـل المحقـق جيرمـي بيغ وود المقيم فـي واشنطن العاصمة بطلب تنفيذ مرسوم حرّيـة المعلومـات للاطـلاع علـى آلاف الوثائق التي تستعرضـ تفاصيل الأعمال التي قامـت بهـا منظمـة المنحـة الدوليـة من أجل الديمقراطيـة، والوكالـة الأميركية للتنمية الدوليـة، وغيرهـا مـن الوكالات الأميركية في فنزويلا. وقد أظهرت تلك الطلبات أن الكثيـر مـن الأمـوال التـي أنفقتها NED كانت مخصصة لجماعـات المعارضة، بما في ذلك بعض الجماعات التي أيد زعماؤها الانقلاب أو رُشّحوا لتقلد مناصب وزارية في حكومـة كارمونـا. كمـا أصـدرت وزارة الخارجية في الفترة التي تلت الانقلاب منحة خاصـة مقدارهـا مليـون دولار لمنظمة NED لتخصيصهـا لميزانيتها العادية المخصصة لفنزويلا.

وفي آب 2002، افتتحت الوكالة الأميركية للتنمية الدولية مكتب مبادرات الانتقال في كاراكاس. أشار الاسم في حدّ ذاته إلى أن فنزويلا بحاجة إلى الانتقال إلى حكومة جديـدة، وإلـى أن الحكومـة الأميركيـة موجودة هناك «للمساعـدة» على هذا الانتقال. وجاء في الإعلان عن وظيفة شاغرة في مكتب مبادرات الانتقال في كاراكاس الذي نشرتـه الوكالـة الأميركيـة للتنميـة الدولية في الشهـر نفسه الذي وقع فيه الانقلاب بأن الرئيس الفنزويلي «يعمل ببطء على خطف ماكينة العمل الحكومية وعلى تطوير هياكل حكم موازية وغير ديمقراطية... أظهر تشافيز احتقاره المتزايد للمؤسسات الديمقراطية وعدم التسامح مع المعارضة».

وفقاً للوصف الخاص للوكالة الأميركية للتنمية الدولية، يراد من مكتب مبادرات الانتقـال تقديـم مبـادرات علـى مدى سنتين في المناطـق المعرّضة للنزاعات. لكن بعد مرور أربع سنوات على ذلك، لا يزال المكتب يعمل في فنزويلا. وأظهر تحقيق قامت بـه الأسوشياتيـد برسـ ووكالات إخبارية أخرى أن حجم الأموال التي تضخها الوكالة الأميركيـة للتنميـة الدوليـة فـي فنزويلا يفوق حجم الأموال التي تضخها NED. أشرف مكتب مبادرات الانتقال على صرف نحو من 26 مليون دولار في الفترة الواقعة بين عامي 2002 و2006. وقد رفضت الوكالة الأميركية للتنمية الدولية الكشف عن معظم الجهـات التـي وصلـت إليها أموال دافعي الضرائب الأميركيين. وحرصت على شطب أسماء العديد ممن يحصلون على هذه الأموال من التقارير التي تُنشر بناء على طلبات تنفيذ مرسوم حرّية المعلومات.

في حين خرجت الولايات المتحدة من الانقلاب بسمعة ملطخة في أميركا اللاتينية، برز تشافيز كرئيس أقوى من وجوه عديدة. فأشارت بعض استطلاعات الرأي إلى أن شعبيته قفزت على الفور بمقدار 10 في المئة. بالنسبة إلى أنصار تشافيز، أخذت نجاته وعودته إلى الرئاسة طابعاً أسطورياً. كانت قصة خرجت من هوليوود مباشرة.

تبنّـى تشافيـز مقاربـة تصالحيـة بعد الانقلاب، فخفف من نبرته الخطابية، وأعلن عـن تشكيـل «طاولـة مستديـرة وطنية» للجلوس مع قـادة المعارضة، ونقل بعضاً من

الـوزراء المثيريـن للجـدل داخل حكومته إلى مناصب أخـرى، فاستبدل غاستون بارا بعلي رودريغيز، مندوب فنزويلا لدى أوبك، كرئيس لشركة بيتروليوس دي فنزويلا، وأعـاد العديـد مـن منشقـي شركة بيترو ليوس دي فنزويـلا الذين سبق أن طردهم من مجلس إدارة الشركة إلى مناصبهم.

وفـي حيـن احتُجـز بعضـ الضباط العسكريّـون، فقد تم إطلاق سـراح أكثرهم فـي نهايـة المطـاف. وقلّـة منهم أمضـوا مدةً طويلة في السجـن. ووضع كارمونا قيد الإقامـة الجبريـة، لكنـه تسلـل مـن شقتـه الفخمة في أواخر أيار وشـق طريقه وصولاً إلـى السفـارة الكولومبيـة حيث طلب اللجـوء السياسي. وقد منحته كولومبيا هذا الحق، وسمحت له فنزويلا بمغادرة البلاد جواً في 29 أيار، على الرّغم من أنه كان مطلوباً لدى السلطات.

طلـب العميـد البحـري كارلوس تامايو مولينا اللجـوء السياسي في نهاية المطاف مـن السلفـادور، وهـي حليفـة مقربة من الولايات المتحـدة والدولة الوحيدة في أميركا اللاتينية التي اعترفت بنظام كارمونا. وانتهى الأمر بأشخاص آخرين يُشتبه في ضلوعهم فـي المحاولـة الانقلابيـة في الولايات المتحدة. فقد فرّ إسحق بيريز ريكاو، وهو تاجر أسلحـة معـروف ووريـث ثروة نفطيـة فنزويلية زُعم أنه شارك في التخطيط للمحاولة الانقلابية إلى جانب كارمونا، إلى جنوبي فلوريدا وفقاً لما أوردته مصادر صحافية. تملـك عائلتـه عـدة منـازل في كي بيسْكاين، بما في ذلك منزلاً يقع قبالة الشاطئ ويبلغ ثمنه 2.4 مليون دولار حيث يقال بأنه يعيش برفقة زوجته.

وُجهت اتهامات لأربعة من كبار الضباط العسكريين، بمن فيهم الجنرال إفريان فاسكويـز واللـواء البحـري هيكتور راميريز بيريز، تهمة المشاركة في الانقلاب. لكن المحكمة العليا أسقطت التهمة في 14 آب في تصويت حاز أحد عشرَ صوتاً مقابل ثمانية أصـوات، مستشهـدة بعـدم توفـر الأدلة الكافية. واتهم تشافيز المحكمة بالرضوخ لنفوذ المعارضـة وإنـكار وقـوع انقـلاب، لكنه قبل بالحكم وقـال: «هذا قرار سخيف تماماً. لكنـه قـرار... نحـن مرغمون على ابتلاعه مثل ابتلاع سمكة مع عظامها». وأضاف بأن أسماء القضاة «ستبقى ملطخة طوال الأعوام الخمسة آلاف القادمة».

لكـن مسـؤولاً انتهـى بـه الأمـر في نهاية المطاف إلى دخـول السجن مدة أربعة أشهر وهو هنريكه كابريليس راونسكي، رئيس بلدية باروتا الذي ظهر أمام السفارة الكوبية في اليوم الذي هاجمتها فيه جموع غاضبة. وقد تحول بدخوله السجن في العام 2004 إلى قضية مشهورة بالنسبة إلى المعارضة وإلى أغلب وسائل الإعلام الدولية. زعـم هـؤلاء بأنـه سجيـن سياسي وبأنه ذهب إلى السفارة لمحاولة تهدئة الحشد. لكن بالنسبـة إلـى الحكومـة، لـم يقم كابريليس بـأي عمل لوقف الهجوم على الرّغم من أنه كان صاحب أعلى سلطة محلية وأنه كان مكلفاً بالمحافظة على النظام العام.

كانت قضية كابريليس قضية غير عادية. فقد أُطلق سراح معظم قادة المعارضة

والمتمردين العسكريين الذين تورّطوا في الانقلاب؛ وهي إشارة فسرها العديد من المعارضين بأنها علامة ضعف من جانب الحكومة. وكان المشتبه بتزعّمهم للحركة الانقلابية يتمشون في البلدة بحرّية، وكانوا يدخلون مقرّ فورت تيونا ويغادرونه كما يحلوا لهم فيما كانوا يشجبون الرئيس.

عمّت مشاعر الكراهية، فكتب أحد الصحافيين في تموز: «يتوق قادة المعارضة علناً إلى موت تشافيز». وأشار مراسل يعمل لدى صحيفة لوس أنجلوس تايمز أمضى أسبوعاً في إجراء مقابلات مع الناس في فنزويلا إلى أن المعارضين «استخدموا العبارات التالية في وصف تشافيز: هتلر، مجرم، مهووس، إرهابي، مخلّص مسيحي، ستاليني، شيوعي، فاشي، استبدادي، ريفي، والعديد من النعوت الأخرى التي لا تتناسب مع القراءة على مائدة الإفطار». وكتب مؤرخ بارز في مقالة على الصفحة الرئيسية لإحدى الصحف حملت العنوان: لا بأس بقتل قائد لا ينفذّ الأوامر.

أخذ تشافيز هذه التهديدات على محمل الجدّ. وبناء على ذلك، تجنّب حالات الظهور العلني، وهو المعروف بدس نفسه في الحشود المعجبة، طوال عدة أشهر وأبقى برنامج عمله طيّ الكتمان حتى الدقيقة الأخيرة. وعندما ظهر في مناسبة علنية، ارتدى سترة واقية من الرصاص تحت قميصه. وفي أواخر حزيران، أمر بتركيب بطاريات صواريخ مضادة للطائرات في محيط ميرافلوريس بعد أن كشفت الأجهزة الاستخبارية عن تقارير تفيد باحتمال وقوع هجوم جوي.

كانت كراهية النخب لتشافيز نابعة من جملة من العوامل، بما في ذلك الإحباط والشك والطبقية والخوف من الاستبعاد عن مشروع تشافيز. وقد تعززت هذه المخاوف بالسيل المتواصل على مدار الساعة للدعاية المعادية لتشافيز على شاشات التلفزيون والتي غسلت أدمغة شريحة من السكان وتراكمت لتبلغ حدّ الهستيريا الجماعية.

لم يكن تشافيز سياسياً دبلوماسياً وكان لديه أسلوبه الخاص في تخويف معارضيه الذين شبههم بالأعداء في الحرب. كان يوجّه الإهانات إليهم علناً بالاسم، وكان يقلل من شأنهم، ويذلّهم، ويصفهم بأنهم حثالة لا قيمة لها. ومن جانبهم، لم يكن بمقدور أبناء النخب القبول بأن ريفياً فظاً مثل تشافيز كانوا أكثر اعتياداً على رؤية أمثاله في ثياب السهرة وهو يخدمهم في نواديهم وقد أصبح الآن رئيساً عليهم. وعلى نطاق أوسع، كان برنامجه السياسي وخطته الهادفة إلى إعادة توزيع الثروة النفطية للبلاد خطراً واضحاً يهدد مصالحهم.

في النهاية، اعتقد البعض بأن الكراهية العميقة التي يكنّها أبناء النخب لتشافيز تنبع من أمرين رئيسيّين هما العنصرية وخسارة السلطة. وفي حين أن الطبقات الثرية في فنزويلا تنكر ذلك، كانت العنصرية قوية وراسخة في فنزويلا. وكما أشار أحد المبشرين الكاثوليك السابقين وأحد الذين أقاموا فترة طويلة في فنزويلا، ويدعى تشارلز هاردي، يوجد «ضغينة في فنزويلا عمرها عقود، لكن لا يوجد أحد يتحدث عنها. وإذا

فعلـوا، فإنهـم ينكرونهـا. فـلا يوجد معلّق معروف أسود البشرة في محطات التلفزيون الفنزويلية. كما لم يسبق أن تم انتخاب ملكة جمال سوداء فنزويلية. والدعايات التجارية التي تروّج للمشروبات يقدمها غالباً أشخاص شُقْر».

كان – تشافيـز – شخصـاً داكـن البشـرة يرأس البلاد. وأغلب أنصاره يشاركونه لون البشرة نفسه.

مثّل بروز تشافيز الحالة الأولى في تاريخ البلاد التي تصل فيها الأغلبية المحرومة داكنـة البشـرة إلـى السلطـة. فبعد عقود، وحتى قرون، من إدارة البلاد كما لو كانت البلاد مزرعة كبيرة خاصة بها، أزيحت قبضة النخب التي كانت تمسك بالنظام المفعم بالفساد والاستغلال فجأة. وأظهر تشافيز، منذ اللحظة التي وصل فيها إلى السلطة، أنه لـن يمارس اللعبـة الشعبيـة التقليدية، وبل سيهـزّ أركان النظام؛ وهو الأمر الذي فاجأ العديد من أبناء تلك النخب الذين أملوا بإبرام صفقة معه. كانت الطبقات الميسورة تبذل كل ما في وسعها للتخلص منه، ومع فشلها في تحقيق ذلك، ازداد شعورها بالإحباط وازدادت حدة انتقاداتها. وكما قال هاردي: «هناك طريقة قديمة وشريرة للعيش في طور الاحتضار والأشخاص الذين استمتعوا بها بكثرة يرفضون هذا المصير».

أجرى مقارنة بينهم وبين شخص يعاني من مرض عضال ويمرّ في خمس مراحل من الإنكار: الغضب، والمساومة، الاكتئاب، والقبول؛ باستثناء أنهم أظهروا علامات قليلة تشير إلى أنهم قريبون من مرحلة القبول السلمي.

بقي العديد من الحقائق بشأن تلك الحادثة التي أبرزت الصراع إلى السطح – انقلاب 11-14 نيسان – لغزاً غامضاً. فلم يتم فتح تحقيق جدّي في عمليات القتل أو التخطيط للمحاولـة الانقلابيـة. وتـم إلقـاء القبض على أربعة مـن مطلقي النار على الجسر من أنصـار تشافيـز وأودعـوا السجـن لمدة عام، لكن تمت تبرئتهم في نهاية المطاف. قال القاضـي بأنـه لا يوجـد دليـل علـى أنهم قتلوا أياً من المتظاهريـن. وفي العام 2006، وجّـه المدّعـون تهمـاً للعديـد من المسؤولين في شرطة العاصمة التي زُعم بأن ضباطها قتلوا بعضاً من أنصار تشافيز، وأخضعوا للمحاكمة. لكن المحاكمة أرجئت إلى العام 2007.

في حين نجا تشافيز من الانقلاب، فإن زواجه لم يحالفه الحظ. فالتوترات التي نشأت عن الجلبة السياسية، إلى جانب الخلافات الأخرى التي شابت العلاقة الزوجية، كانت تفوق قدرة زوجته، ماريزابيل، على التحمل. وفي مستهل حزيران أي بعد أقل مـن شهريـن علـى الانقلاب، أعلنت بأن الزوجين الرئاسيَّين سيحصلان على الطلاق. واستشهدت «بتناقض الشخصيات» بوصفه السبب الرئيسي، لكنها أضافت بأنها وأبناءها أرغمـوا علـى الهـرب من القصـر الرئاسي ثلاث مرّات بسبب الاضطرابات السياسية. وقالت: «هذه ليست حياة يرغب فيها أي إنسان». وقد دام زواجهما خمس سنوات.

عاد تشافيز وحيداً مرة أخرى، وبدأت تلوح في الأفق المزيد من المشكلات.

الفصل الثالث والعشرون

إضراب عمال النفط

عندما كانت الولايات المتحدة تسعى إلى الإطاحة بالرئيس سلفادور أليندي في مستهل السبعينيات، أمر ريتشارد نيكسون وكالة الاستخبارات المركزية بجعل «الاقتصاد يصرخ» في تشيلي. تلخصت الفكرة في إثارة الفوضى الاقتصادية وجعل البلاد «عصية على الحكم»، مما سيرغم أليندي على الخروج من الحكم؛ إما بأصوات الناخبين أو بانقلاب عسكري. وفي فنزويلا، تبنّت المعارضة الاستراتيجية نفسها بعد فشل المحاولة الانقلابية. ولذلك، هاجموا شريان حياة الاقتصاد الفنزويلي: صناعة النفط.

دعا قادة المعارضة في يوم الاثنين الواقع في 21 تشرين الأول 2002 إلى إضراب عام آخر، وهو الإضراب الثالث في أقل من عام. أقفلت المصانع والمتاجر والمحال أبوابها في مختلف أنحاء البلاد، وتحوّلت حركة المرور التي تتسم بالفوضوية في كاراكاس في العادة إلى حركة بطيئة للغاية. وألغت شركات الطيران العديد من الرحلات المحلية بسبب النقص في أعداد المسافرين. وامتنعت معظم الصحف عن الصدور، وعلّقت محطات التلفزيون برامجها العادية ووفرت تغطية شاملة للإقفال، وفعلت ما هو أكثر من الإخبار عنه، إذ إنها شجعت عليه.

كان للإضراب العمالي هدف واضح، وهو إرغام تشافيز على التخلّي عن السلطة. وضعت المعارضة تشافيز أمام ثلاثة خيارات للخروج من الأزمة. إما أن يستقيل تشافيز، أو يوافق على إجراء انتخابات مبكرة، أو يسمح بإجراء استفتاء غير ملزم على رئاسته. اعتقد المعارضون بأنه في حال خسر في الاستفتاء، فسوف يُحرج ويُضطرّ إلى الاستقالة. لكن تشافيز لم يكن مهتماً بأي من هذه الخيارات. احتج بأن الدستور يسمح بالدعوة إلى استفتاء ملزم في منتصف مدة ولايته، وهو ما يعني شهر آب القادم. لكن ذلك لم يكن مقبولاً في نظر المعارضة. كان على تشافيز الرحيل، الآن.

ما إن انتهى الإضراب الذي أُعلن عنه ليوم واحد، والذي لم يؤثر في صناعة النفط، حتى برز احتجاج جديد. ففي اليوم التالي للإضراب، احتل أربعة عشر ضابطاً منشقاً إحدى الساحات في منطقة ألتميرا الراقية، وأعلنوا بأنها «أرض محرَّرة»، ودعوا إلى إشعال ثورة ضدّ تشافيز. زعموا بأنهم لا يقصدون من وراء ذلك إثارة انقلاب، وإنما العمل بموجب المادة 350 من الدستور والتي تدعو المواطنين إلى الثورة في وجه حكومة يعتبرونها غير ديمقراطية. وسبق للعديد من هؤلاء الضباط أن ساعدوا على قيادة ثورة نيسان وطُردوا من الجيش على يد تشافيز. قاد مجموعة الضباط تلك

الجنرال هنريكه ميدينا، الملحق العسكري السابق في السفارة الفنزويلية بواشنطن.

تحوّل ميدينا والمتمردون العسكريون الآخرون في ساحة ألتميرا إلى أبطال على الفور في نظر المعارضة. وفي فترة ما بعد الظهر من اليوم التالي، تدفق عدة آلاف مـن النـاس إلـى الساحـة بعد انتهاء عملهم. كما قدم المزيد من الضباط أيضاً. وبحلول يوم الجمعة الواقع في 25 تشرين الأول، التحق ما مجموعه 100 بالحركة الاحتجاجية. وأعلنت فيديكمارس، وهي غرفة التجارة الوطنية التي تزعمها ذات يوم بيدرو كارمونا، عـن دعمهـا للضبـاط، وكذلك فعل اتحاد العمال الفنزويليين بزعامة كارلوس أورتيغا. كمـا أيـدت أحـزاب المعارضة الرئيسية الثلاثة، حـزب العمل الديمقراطي، وبريميرو جاستيسيا، والحزب المسيحي الاجتماعي (كوبي) المنشقين العسكريين أيضاً.

تحولـت الساحـة إلـى رمـز للمقاومة على مدار الساعة فـي وجه تشافيز. نصب الناس خيام كولمان وناموا ليلتهم هناك. وتم رفع لافتة كُتب عليها: "نحن في أرض محرَّرة". كما تم رفع بالون ضخم حمل الشعار الأورولياني: "هذا ليس انقلاباً". وتم تركيـب شاشـة رقميـة كبيـرة تعلن عن الوقت الـذي مضى على الاحتلال بدقة الثانية. وأقام المنظمون منصة اعتلاها الضباط المنشقون لكي يدلوا بخطاباتهم. وفي الفترات التـي تخللـت الخطابـات، أبقى قادة الهتـاف والراقصون الفولكلوريون الحشد في حالة إثارة. بدا الأمر أشبه بمهرجان خطابي لطلاب الثانوية العامة.

عاملت الحشودُ الضباطَ كما لو كانوا من نجوم الروك، فتزاحمت الفتيات اللّواتي في مقتبل العمر على المسرح وقبّلن الضباط. وصاحت فتيات أخريات في تعبير عن البهجـة. وعلّـق اللـواء البحـري دانييـل كوميسو أوردانتا، وهو أحـد الضباط الأربعة الذيـن أخلـت المحكمـة العليـا ساحتهم في آب عندمـا أسقطت تهمة تدبير انقلاب عنهم، علـى هـذا الحـدث بالقـول: «لا يزال لدينا أكثر الانقلابات المسلّية في العالم منذ الشهر الماضي».

اِتهم الضباطُ المنشقون تشافيز بتحويل البلاد إلى ديكتاتورية على النمط الكوبي. لكن تلك كانت ديكتاتورية غريبة. فالمتمردون العسكريون الذين أطاحوا برئيس منتخَب بطريقة ديمقراطية يمشون في الشوارع أحراراً، ويرتدون بزاتهم العسكرية ويدعون صراحـة إلـى الثـورة فـي وجه تشافيز. اِعتقد فيدل كاسترو بأن تشافيز أصبح مجنوناً. قال كاسترو: «في أي بلد يمكن أن يقع فيه انقلاب ثم يلتقي المشاركون كافّة في تنظيمه في ساحة لتمضية خمسين يوماً في إثارة الناس على شاشات التلفزيون. هل يقترحون تنظيم انقلاب آخر؟ لا يمكن أن يحدث ذلك في أي بلد في العالم».

اِعتقد الجنرال ميدينا، الذي ظهر في الساحة وهو يلوّح بعصا الماريشالية بيده، بـأن المنشقيـن يحظـون «بكثيـر مـن الدعم فـي التكنات في الوقـت الحالي. ويبدو أن الولايـات المتحـدة باتـت تفهـم الآن مـدى خطورة الأزمة التي تعصـف بالبلاد، وأن شخصاً غريب الأطوار يديرها».

لكـن ميدينـا كان مخطئـاً، فالمنشقـون لم يتمتعوا بكثير من الدعم في الثكنات لأن تشافيز قام بتطهير القوات المسلحة من العديد من هؤلاء الخصوم. كما أنه كان يعالج مشكلة الاحتجاج في الساحة بمهارة. فقد اكتفى بتجاهله. استمر الاحتجاج عدة أسابيع، لكنـه أخفـق فـي النهايـة، ولم يجذب أساسـاً في نهاية المطاف سوى حفنة من السيدات الطاعنات في السنّ اللّواتي كنّ يروّحن عن كلابهنّ.

بعـد فشـل عمليـة احتلال ساحة ألتميرا في إزاحـة تشافيز، انتقلت المعارضة إلى خطتهـا التاليـة، وهـي تنظيـم إضراب آخر. كان مـن المقدر أن يصبح التحدّي الأكثر خطـورة لرئاسـة تشافيـز منـذ الانقلاب. بدأ الإضراب يوم الاثنين الواقع في 2 كانون الأول وحقق نتائج مختلطة. ففي حين أغلقت أكثر المحلات التجارية أبوابها في الجزء الشرقي الغني من كاراكاس، عجّ العديد من الشوارع في وسط المدينة والجزء الغربي منها بالمشاة، وفتحت أبواب العديد من المتاجر. وفي إقليم كانتيا الواسع، بدت الحياة شبه طبيعية. فالعديد من أصحاب المؤسسات التجارية كانوا يؤيدون تشافيز ولم يرغبوا في المخاطرة بأرزاقهم من أجل سياسات أطراف آخرين.

وفـي اليـوم التالـي، فقـد الإضراب زخمه في العديد من المناطق. وأعلن تشافيز بأنه كان «لهذا الإضراب، على غرار سائر الإضرابات الأخرى، أجندة سرّية: محاولة انقلابيـة أخـرى». وأصـرّ على القول بأن المحتجيـن لن يصيبوا صناعة النفط الحيوية «بالشلـل». لكـن هـذا مـا كانوا يحاولون فعله أصلاً. فقد حاول المضربون إغلاق قناة ملاحـة بواسطـة القـوارب الصغيـرة في بحيرة ماراكيبو التي تبحـر فيها ناقلات النفط لتصديـر ملاييـن البراميـل مـن النفط الخام يومياً. لاحقـت زوارق البحرية المضربين وطردتهـم مـن القنـاة. كما انضمّ الموظفـون الإداريون والمدراء التنفيذيون في شركة بيتروليوس دي فنزويـلا إلـى الإضـراب أيضاً وبدأوا بمحاولـة وقف الصناعة، على الرّغم من أن آلاف العمال بقوا في وظائفهم. وفي كاراكاس، اشتبك المحتجون خارج مكاتب شركة بيتروليوس دي فنزويلا مع عناصر الحرس الوطني الذين أطلقوا الغاز المسيل للدموع لتفريق المتظاهرين. لكن الصراع ساعد على مدّ الاحتجاجات المناوئة لتشافيز بالحيوية.

في غمرة الاشتباكات، توصل المجلس الانتخابي الوطني إلى ما كان يعتبر حلاً لهـذا الصـراع. فقـد صـوّت المجلس بنسبة أربعة أصوات مقابـل صوت واحد لصالح إجراء استفتاء وطني غير ملزم في 2 شباط يُسأل فيه الفنزويليون عما إذا كان ينبغي أن يبقـى تشافيـز رئيسـاً للبـلاد. وقرر قـادة المعارضة المضي في الإضراب على أي حال. وعلى العكس من رغبات تشافيز، وافق المجلس على واحدة من الطرائق التي اقترحتها المعارضة لإنهاء الأزمة، لكن قادة المعارضة اختاروا تجاهل هذا القرار.

بدا يوم الأربعاء أن الإضراب اعتراه مزيد من الضعف مع فتح مزيد من المتاجر

أبوابها. لكنّ آلافاً من المحتجين ساروا في شوارع كاراكاس إلى أن وصلوا إلى فندق ميليا المتألق حيث سلّموا رسالة إلى سيزار غافيريا مطالبين بإجراء انتخابات جديدة. كان الرئيس الكولومبي السابق يرأس وفد منظمة الدول الأميركية الذي يحاول التوسط والتوصل إلى تسوية للصراع.

في ذلك المساء، أصيبت البلاد بالذهول بسبب قبطان ناقلة نفط عملاقة تدعى بيلين ليون (ملكة جمال فنزويلا). ظهر القبطان على شاشات التلفزيون، وأعلن عن انضمامه إلى الإضراب. أرسى القبطان سفينته الضخمة التي يبلغ ارتفاعها ثمانين طابقاً مع حمولتها البالغة 280000 برميل من البنزين المكرر في وسط قناة إبحار السفن في بحيرة ماراكيبو ورفض تحريك الناقلة من مكانها. صرّح القبطان دانييل ألفارو بأن «الحكومة تدفعنا إلى وضع شبيه بكوبا». وسرعان ما حذا أسطول بيتروليوس دي فنزويلا، بناقلاته الثلاث عشرة، حذو القبطان، فأرسى سفنه في البحر أو رفض مغادرة الموانئ. وفي غضون أيام، انضم نحو من عشرين ناقلة نفط تملكها شركات دولية إلى الإضراب أيضاً.

كان من شأن وقف حركة السفن، إلى جانب الإضراب الذي أعلنت عنه شركة بيتروليوس دي فنزويلا، التهديد بإصابة صناعة النفط في فنزويلا بالشلل. وفي حال حدوث ذلك، سيكون من الصعب على الرئيس الفنزويلي الخروج سالماً من الأزمة، لأن حصة النفط تبلغ ثلث الناتج المحلي الإجمالي للبلاد البالغ 100 مليار دولار، وتشكل نصف العائدات الحكومية، و70 في المئة من صادرات البلاد. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه في حال نفد مخزون البلاد من البنزين، فسوف يتوقف قطاع النقل، وهو ما سيتسبب في نقص الإمدادات الغذائية. ومن دون طعام، سينتفض السكان الجوعى لإسقاط أي حكومة، بوليفارية كانت أم غير ذلك.

اجتمع تشافيز في قصر ميرافلوريس بوزرائه ودرسوا إمكانية التوصل إلى حلّ للأزمة. فقد أخذوا على حين غرّة بالإضراب الذي أعلن عنه القباطنة؛ لم يتوقع الوزراء مثل هذا العمل. وصف تشافيز الإضراب الذي دعا إليه قبطان الناقلة بيلين ليون بأنه «عمل قرصنة» وحذّر من أنه سيستعين بالجيش في حال رفض طاقم الناقلة العودة إلى العمل. قال تشافيز: «الأمر أشبه بالطبيب الذي من المفترض أن يتابع حالتك القلبية عندما يقرر فجأة محاولة وقفه».

تحوّل ألفارو والقباطنة الآخرون إلى آخر الأبطال الفوريين بالنسبة إلى المعارضة. وتجمع مئات من الأنصار على شاطئ بحيرة ماراكيبو حيث كان باستطاعتهم رؤية بيلين ليون. وأحاط آخرون الناقلة باليخوت والقوارب البخارية، والزوارق الطويلة الخفيفة وحتى قوارب الكاياك من أجل توفير الحماية لها في حال حاول الجنود الصعود على متنها. وفي نهاية المطاف، ذهبت ليون نفسها، والتي كانت ملكة جمال الكون في العام 1981 وأصبحت في الأربعينيّات من عمرها الآن، إلى شاطئ بحيرة ماراكيبو

لدعم المحتجين. وتحولت الناقلة إلى رمز لمقاومة المعارضة لتشافيز. تجدر الإشارة إلــى أنــه تــم إطــلاق أسمــاء بعض من أكثر ملكات الجمال حظوة في البلاد على بعض ناقلات النفط الفنزويلية العملاقة، بما في ذلك ملكة جمال الكون أو ملكة جمال العالم سوزانا دويم وباربرا بلاكيوس وماريتزا سياليرو.

بعد مرور يومين على رسوّ سفينة ألفارو في بحيرة ماراكيبو، وقع حادث مروّع آخــر زاد مــن تصلّــب المعارضــة في وجه تشافيز. فعند الساعة 7:15 مساء تقريباً من يــوم الجمعــة، وبعد دقائــق من إعلان كارلوس أورتيغا والزعيم الجديد لفيديكمارس، ويدعــى كارلوس فيرنانديــز، علــى شاشات التلفزيــون الوطنية في ظهور جريء عن تمديــد فتــرة الإضــراب مجــدداً، فتح رجل مسلح النــار على الحشود في الساحة، فقتل ثلاثــة أشخاصــ، بمــن فيهــم فتــاة تبلغ مــن العمر ثمانية عشر عامــاً كانت قد تخرّجت للتــوّ مــن الثانويــة العامــة، وأصيب ثمانية وعشرون شخصاً آخرين بجروح مع سقوط المحتجين على الأرض.

ومــع شهــر العسكريين المنشقيــن أسلحتهم على المسرح، سارعت المعارضة إلى إلقاء اللوم على تشافيز بسبب حمام الدم هذا، على الرّغم من أنه لم يكن لديهم دليل يثبت ذلك. وفي النهاية، تبين أن الرجل المسلح سائق سيارة أجرة مخبول من التابعية البرتغاليــة اسمــه جــواو دي غوفيــا. اعترف دي غوفيا بأنه المسؤول عن إطلاق النار ولم يكلّف نفسه عناء الهرب من مسرح الجريمة. لكنّ حادثة القتل قوّت عزيمة حركة المعارضة وزادت من تطرّفها. وبناء على ذلك، مدد القادةُ فترة الإضراب إلى أجل غير محدود، وأعلنوا عن الحداد لمدة ثلاثة أيام، وقالوا بأن الحل الوحيد لهذا الجمود هو استقالة تشافيز على الفور.

نجح الإضراب على الفور في إلحاق ضرر بالغ بصناعة النفط. وفي 9 كانون الأول من يوم الاثنين، ظهر رئيس شركة بيتروليوس دي فنزويلا، علي رودريغيز، علــى شاشــات التلفزيــون الوطنيــة ليعلن عن أن صناعة النفط تمرّ في ظرف عصيب. قــال رودريغيــز: «إننــا مهــدَّدون بكارثة وطنية». فقــد توقف العمل في أكبر مصفاتين لتكريــر النفــط، باراغونــا وإل باليتــو. وحــذّر رودريغيز من أن نقص الإمدادات من البنزين وانقطاع التيار الكهربائي بات وشيكاً.

دبّ الذعر في البلاد، وهرع الناس إلى محلات السوبر ماركت لتخزين الطعام والميــاه. وتوجــب علــى سائقــي السيارات الانتظار مدة ربما وصلت إلى أربع ساعات فــي بعضــ محطــات الوقود للتزود بالبنزيــن. وامتدت طوابير السيارات على مسافات وصلــت إلــى كيلومتريــن تقريبــاً. وأصبح الانتظار مدة أربــع وعشرين ساعة أو حتى أكثــر مــن ذلــك أمــراً شائعــاً، وامتدت طوابير السيارات بعد ذلــك مسافة ربما وصلت إلــى خمســة كيلومتــرات. وصــار من النادر العثور على مياه للشرب ونقود سائلة عند

ماكينات الصرف الآلي. وألغت شركات الطيران العشرات من الرحلات المحلّية. وقيدت المصارف المشاركة في الإضراب مدة العمل بثلاث ساعات في اليوم. وانضم ثمانية من قضاة المحكمة العليا البالغ عددهم عشرين قاضياً إلى الإضراب أيضاً، واقتصروا على العمل في الحالات الملحّة فقط. حدث كل ذلك في موسم الذروة في فترة التسوق استعداداً لذكرى الميلاد، لكن العديد من المتاجر والمؤسسات التجارية أقفلت أبوابها. وأعلن المنسق الديمقراطي، وهي مظلة المعارضة، عن إلغاء الاحتفالات بذكرى الميلاد، وأمروا معارضي تشافيز بالتضحية الآن لكي يتمكنوا من تحقيق «النصر الأخير» لاحقاً. وتبنّى قادة المعارضة الشعار الذي يقول: «العام 2002 من دون ذكرى ميلاد، والعام 2003 من دون تشافيز».

أصبحت المسيرات الاحتجاجية حدثاً يومياً تقريباً، وجذبت في بعض الأحيان مئات الآلاف من الأشخاص. وكان أنصار المعارضة يفتحون النوافذ ويقرعون القدور مساء كل يوم عند الساعة الثامنة في تعبير عن مطالبتهم باستقالة تشافيز. حتى إن ماريزابيل، زوجة تشافيز السابقة، انضمت إلى طائفة المنتقدين وقالت في مقابلة تلفزيونية فيما كانت ابنتها روزينياس جالسة بجانبها: «أيها الرئيس، رجاءً، باسم ابنتك، باسم عائلتك، باسم البلاد، أنصت إلى ما يقوله الناس». انضمت إلى النقاد الذين يعتقدون بأن تشافيز متعجرف ويترفع عن القبول بنصائح الآخرين وعن محاولة التوصل إلى تسويات.

قامت شبكات التلفزيون بتغطية أخبار التجمعات والنشاطات المتعلقة بالإضرابات من دون توقف تقريباً. كما ألغت الإعلانات التجارية العادية وعرضت مشاهد على مدار الساعة لمواقع ينتشر فيها المؤيدون للإضراب والمعارضون لتشافيز. وأجرت البرامج الحوارية الإخبارية مقابلات مع شخصيات تنتمي إلى طرف واحد. حتى إن مقدمي النشرات الإخبارية انتقدوا تشافيز. وفي كل مساء، كانت شبكات التلفزيون تنقل أخبار أورتيغا وفيرنانديز المتنقلَين والمبتهجَين بالنصر. واعترف غوستافو سيسنيروس، مدير محطة فينيفيجن، علناً بأن شبكته تأمل برحيل تشافيز. وقال فكتور فيريرس: «نحن موحّدون مع الإضراب».

مع وصول صناعة النفط إلى حالة الجمود التام، اعتقد المحللون السياسيون بأن تشافيز يواجه وضعاً شبه مستحيل وفقاً لما أوردته صحيفة ذي نيويورك تايمز. قلّة من الناس اعتقدت بأن تشافيز يمكن أن يخرج من هذه الأزمة سالماً. فقد تأخرت فنزويلا في الوفاء بعقودها النفطية الدولية، بما في ذلك تلك الموقعة مع زبونها الرئيسي، أي الولايات المتحدة. حدث ذلك للمرّة الأولى منذ اكتشاف النفط في البلاد قبل نحو من قرن. حتى إنه لا الحزب العالمية الثانية، ولا الحظر الذي فرضته الدول العربية على تصدير النفط في السبعينيات من القرن الماضي، ولا أحداث الشغب في كركازو التي وقعت في العام 1989 أو انقلابات العام 1992 أدت إلى حدوث ذلك.

إعتقدت المعارضة الفنزويلية أن تشافيز سيسقط في غضون أسبوع أو أسبوعين من بدء الإضراب. والمدراء التنفيذيون في بيتروليوس دي فنزويلا الذين توقفوا عن العمل غادروا مكاتبهم بعد أن تركوها على حالها ظناً منهم بأنهم سيعودون إليها بعد وقت قصير في بلد لا يعود محكوماً من قبل تشافيز. كانوا على استعداد للمخاطرة بكل شيء لأنهم راهنوا بكل شيء. كانت شركة بيتروليوس دي فنزويلا «الدجاجة التي تضع البيض الذهبي» على حدّ وصف أحد الوزراء في حكومة تشافيز. وكانت السيطرة على هذه الشركة مسألة مصيرية لمعرفة المكان الذي تذهب إليه هذه الأموال؛ التي تقدّر بمليارات الدولارات. عملت الشركة على مدى عقود ككيان مستقل من غير أن تطاله أعمال الرقابة الحكومية تقريباً. وعاش مدراؤها التنفيذيون حياة مترفة، وكانوا يسافرون إلى الولايات المتحدة وإلى أوروبا لتمضية عطلاتهم هناك. وهم من كان يملي سياسة الشركة. وفي هذا السياق، أمل العديد منهم بخصخصة الشركة والاحتفاظ بأرباحها الضخمة لأنفسهم.

لكنّ تشافيز يهدد الآن بالقضاء على كل ذلك. أراد وضع اليد على بيتروليوس دي فنزويلا وتحويل أرباحها إلى الأغلبية الفقيرة، وإغلاق الشاليهات في جبال الأنديز وبيع أسطول الطائرات التي تملكها الشركة، وإلغاء خطط الخصخصة، وإلحاق رجاله بالشركة لإدارة عملاق النفط. وإذا تمكن من ذلك، يكون عهد حصول النخب على الدجاجة وعلى بيضها الذهبي قد ولّى.

لم يكن في نية تشافيز الاستسلام بسهولة للمضربين. وقامت الحكومة بتحليل ثلاثة سيناريوهات محتملة يمكن أن يتمخض عنها الإضراب. يمكن للحكومة أن تتفاوض مع المعارضة على إجراء انتخابات مبكرة؛ وهو احتمال استبعدته الحكومة. كما يمكن أن تواجه انقلاباً آخر؛ وهو أمر أصبح تشافيز أكثر حذراً منه مقارنة بنيسان. والسيناريو الأخير كان ترك الإضراب يتلاشى من تلقاء نفسه ببساطة على غرار الاعتصام الذي قام به العسكريون المتمردون في ساحة ألتاميرا. ورأى تشافيز أن تلك هي الاستراتيجيّة المثلى. قال تشافيز في لقاء رفيع المستوى: «دعونا نحاربهم. فنحن نحظى بدعم الشعب، ودعم القوات المسلّحة، ودعم العمال» في شركة بيتروليوس دي فنزويلا.

كان الإضراب في بيتروليوس دي فنزويلا في الحقيقة أقرب ما يكون إلى وقف للأعمال الإدارية لأن العمال من أصحاب الرتب المتوسطة والدنيا تجاهلوه وواصلوا القيام بوظائفهم. حاول المضربون ومؤيدوهم وقفهم، فحاصروهم في مؤسساتهم ومارسوا أعمال التخويف في حقهم لدى وصولهم إلى مراكز أعمالهم. كما عمد المحتجون إلى تخريب الصناعة، فدمّروا خطوط الكهرباء، وأوقفوا العمل في منشآت التكرير، وملأوا خزانات الوقود في السفن بالماء، وتسللوا إلى حواسيب مكاتب بيتروليوس دي فنزويلا لتخريبها.

تحرّك تشافيز بسرعة لمحاولة استعادة السيطرة على المنشآت، فأرسل الجنود

لتأمين مراكز الصيانة، وآبار النفط، ومنشآت التكرير، ومراكز توزيع البنزين. ثم دعا أنصاره في 13 كانون الأول، إلى محاصرة المنشآت النفطية الرئيسية بهدف تشكيل سلاسل بشرية توفر الحماية لها.

كان الوضع باعثاً إلى اليأس. فإمدادات البنزين بدأت تشحّ، ومحطة الوقود رفعت خراطيمها. وهذا ما دفع تشافيز إلى القيام بما كان يعتبر في السابق عملاً غير وارد في بلد يضم بعضاً من أكبر احتياطيات النفط في العالم، عمد إلى استيراد البنزين. اتصل بالبرازيل وترينيداد وتوباغو والمكسيك وروسيا ودول أخرى طالباً منها إرسال ما تستطيع إرساله من الوقود. وعندما شحّت السلع الغذائية الأساسية، أقام على عجل شبكة غير رسمية أخرى للحصول على الإمدادات، فأقنع كولومبيا وجمهورية الدومينيكان ودولاً أخرى بإرسال الأرز والطحين والحليب واللحوم والمنتجات الأخرى.

تبنّى تشافيز في تعامله مع شركة بيتروليوس دي فنزويلا موقفاً متشدداً فطرد في 12 كانون الأول أربعة مديرين تنفيذيين - بمن فيهم خوان فيرنانديز - ممن كانوا يتزعمون الإضراب. وسبق أن فصلهم تشافيز بالإضافة إلى مديرين آخرين في نيسان قبيل وقوع الانقلاب، لكنه أعادهم إلى مراكزهم بعد الثورة لتنفيس التوترات. وقد قرر الآن تنظيف الشركة برمّتها. كان يطرد في كل يوم المزيد من المديرين التنفيذيين والإداريين المضربين، إلى أن وصل عدد من فُصلوا من العمل إلى نحو من ثلاثمئة مدير بحلول مطلع كانون الثاني. وتبعهم آلاف من العمال. وتكهن الخبراء في الصناعة والمديرون التنفيذيون المنشقون في الشركة بأن الحكومة لن تتمكن من إعادة تشغيل الشركة أو العودة إلى مستويات الإنتاج السابقة من دون خبرات الموظفين الذين تم طردهم.

بدا في أكثر فترات شهر كانون الأول أنهم كانوا محقّين لأن الشركة تلقت ضربة مدمّرة. هبط الإنتاج إلى مستوى متدنّ جداً بلغ 150000 برميل في اليوم بالمقارنة مع مستوى الإنتاج العادي الذي كان يبلغ 3 ملايين برميل في اليوم. وانخفضت الصادرات التي كانت في حدود 2.5 مليون برميل في المتوسط في اليوم إلى مستوى قريب من الصفر. ومن ناحية أخرى، أمرت المحكمةُ العليا المديرين الإداريين والتنفيذيين المضربين في الشركة بالعودة إلى أعمالهم، لكنهم تجاهلوا أمرها بكل بساطة. وتباطأ إنتاج النفط الذي يعتبر شريان الحياة بالنسبة إلى الاقتصاد بحيث بات يتم إنتاج النزر اليسير من النفط. كانت البلاد تشهق من شدة عجزها عن التنفس.

رأت الحكومة أن الفترة الحرجة لهزيمة الإضراب وإنهاء أعمال التخريب تمتد بين 16 و21 كانون الأول. وفي حال لم تتمكن من إحراز تقدم حينها، تكون قد وقعت في مشكلة عويصة. ولذلك توصلت إلى استراتيجية عرفت باسم الخطة 1621.

كان تشافيز بحاجة ماسة إلى البنزين. كانت بيلين ليون راسية في بحيرة ماراكيبو

وهي محمّلة بنحو من اثني عشر مليون غالون منه. ولذلك أمر الجنود بالاستيلاء على الناقلة واعتقال قبطانها. تسلّق الجنود جانب الناقلة مستعينين بالحبال ووجهوا أسلحتهم إلى طاقمها. لكنّ البحارة رفضوا المغادرة، وقالوا بأنهم يحمون الناقلة وبأنهم لن يسلّموها إلى طاقم غير مؤهل. كان تشافيز يعاني من مشكلة في العثور على فريق بديل. وفي نهاية المطاف، أقنعت الحكومةُ عدداً من البحارة المتقاعدين، بمن فيهم القبطان كارلوس لوبيز بتولّي هذه المهمة.

صعد لوبيز وآخرون إلى متن الناقلة في 19 كانون الأول بحماية الجنود فيما أحاط أنصار المعارضة الناقلة مستخدمين القوارب. أمضى الطاقم الجديد يومين من العمل من دون توقف للاستعداد لإعادة تشغيل الناقلة بيلين ليون. كانت مهمة خطرة لأن الناقلة كانت أشبه بقنبلة ضخمة عائمة. وفي حال سارت الأمور في منحى خاطئ - مثل ارتفاع درجة حرارة المحرّك، أو انطلاق شرارة في خزان للغاز - فسوف يقع انفجار مفاجئ وعنيف. كما كان على الناقلة أن تبحر أسفل جسر ماراكيبو الضخم لكي تصل إلى الميناء. وفي حال خرجت عن مسارها، يمكن أن تصطدم بأحد الأعمدة وتوقع الجسر الذي يعتبر الأطول في أميركا اللاتينية. ومما زاد من تعقيد جهودهم أن الطاقم المنصرف قام بتخريب الناقلة، وترك خلفه أشراكاً يصعب ملاحظتها في نظام الحواسيب وفي غيره من الأنظمة بحيث يمكن أن يقع انفجار.

نشرت وسائل الإعلام تقارير تحدثت عن أن تشافيز أحضر كوبيين أو أجانب غير مؤهلين آخرين لتشغيل الناقلة. لكن هذه التقارير لم تعمل سوى على إثارة حنق لوبيز ومساعديه وزادت من عزمهم على تنفيذ تلك المهمة الخطرة.

كان معظم المواطنين يشاهدون شاشات التلفزيون عند منتصف الظهيرة تقريباً من يوم 21 كانون الأول فيما كان لوبيز ومساعدوه يحاولون إعادة تشغيل الناقلة بيلين ليون. في حال سارت الأمور على نحو خاطئ، سيقع اللوم على تشافيز لأنه أرسل على نحو غير مسؤول طاقماً غير مهيأ في مهمة انتحارية لخدمة غاياته السياسية الخاصة. كان الرئيس موجوداً في ميرافلوريس وهو يراقب المشهد بعصبية إلى جانب باقي أفراد الشعب. عرف أن مصير الإضراب وربما مصير رئاسته بات على المحك.

وفجأة، تصاعد الدخان من مدخنة الناقلة. عاد هذا الغول العملاق إلى الإبحار مجدداً. أمر لوبيز بالتقدم بالسفينة إلى الأمام، لكن ما إن بدأت السفينة بالتحرك حتى ارتفعت درجة الحرارة في المحركات إلى مستويات خطيرة. عمد إلى الإبحار بالسفينة في مسار دائري لتجنب الإبحار مباشرة نحو الجسر فيما حاول المهندسون السيطرة على ارتفاع درجة الحرارة. نجحوا في ذلك، وتوجهت الناقلة إلى ماراكيبو. وعندما وصلت إلى مسافة ثلاثمئة متر تقريباً من الجسر، أطلق الطاقم صيحة هتاف. فحتى لو حدث خطب ما، باتت الناقلة تملك قدراً كبيراً من الزخم الآن يحول دون تغييرها لمسارها قبل أن تمرّ من أسفل الجسر بأمان. كانت الناقلة ستنجح في ذلك.

وضع الجنود قبضات أيديهم في أكفّهم فيما كانوا يمسكون بأذرعهم فوق رؤوسهم في إيماءة باتت شهيرة بفضل تشافيز. وفي ميرافلوريس، صاح الرئيس المبتهج تعبيراً عن سعادتـه وقـال: «هـذه هـي بيلين ليون تبحـر». وأضاف كما لو كان يعلّق على مباراة في كرة القدم، «هدف».

كانت عودة الناقلة إلى الميناء نصراً كبيراً وهاماً لتشافيز. ففي الوقت الذي بدأت إمدادات البنزين فيه تشحّ، مما جعل شبح حدوث نقص في الإمدادات الغذائية يلوح في الأفق، استولى على الرمز المركزي للإضراب. طار في تلك الليلة إلى ماراكيبو لتهنئة الطاقم. وأصبح أليخاندرو غوميز - الذي ساعد على تنظيم مهمة بيلين ليون وكان في الكابينـة مـع القبطـان فـي أثناء إعادة تشغيل الناقلة والعبور بها أسفل الجسر - في وقت لاحق رئيس القسم البحري في الشركة النفطية.

بينمـا كان تشافيـز يصـارع مـن أجل إعادة تشغيل الناقـلات مجدداً، كان يسعى أيضـاً إلـى استئنـاف إنتـاج النفط. فاستناداً إلى تشافيز ومسؤولين حكوميين آخرين، لم يكتـفِ المديـرون التنفيذيـون والإداريـون بالإضراب عن العمـل، بل إنهم عمدوا إلى تخريب الشركة لجعل إعادة تشغيلها أمراً صعباً وخطراً. عمدوا إلى تخريب الأنابيب، وسرقة الملفات، والأخطر من ذلك، أخذوا معهم عناصر نظام شركة بيتروليوس دي فنزويلا المؤتمن. وقد أتاح لهم ذلك استخدام الحواسيب البعيدة في منع إعادة تشغيل المنشـآت. ولذلـك، تعيـن تشغيل منشآت الشركـة بطريقة يدوية بشكل كامل أو جزئي وعلى مدى عدة شهور فيما كانت تحاول استعادة نشاطها الإنتاجي الطبيعي. وفي هذا السيـاق، ألقـى تشافيـز خطابـاً في كانون الثاني 2003 شـرح فيه إحدى الطرائق التي استخدموها في التخريب:

> أنتـم تعرفـون أن هـذه الأنظمة كافـة - أي الصناعة برمتها - مؤتمنة ومنظمـة... ركـزت عمليـة التخريب على تغيير نقاط التعديل في أنظمة المراقبة. وبناء على ذلك، جرى إدخال متغير في الحواسيب المستخدَمة في نظام المراقبة لكي لا ترتفع درجة الحرارة في الغلايات عن ستمئة درجـة وهـو أعلـى سقف لدرجة الحرارة الـذي يمكن السماح به. وفي حال تجاوزت درجة الحرارة هذا السقف، فهذا يعني أن المنشآت بلغت مرحلة خطيرة.
>
> حسنـاً، هـؤلاء السـادة لم يكتفوا بترك مراكز أعمالهم، وإنما غيّروا نقاط التعديل قبل رحيلهم. أي أنهم رفعوا السقف من ستمئة درجة إلى ثمانمئة درجة مئوية. ماذا كان سيحصل لو أن تقنيينا الوطنيين والمدرَّبين جيداً لم يتحققوا من نظام المراقبة ونقاط التعديل جيداً؟ ماذا كان سيحصل

> لو أنهم بدأوا بتشغيل النظام وفتح الصمامات وأجزاء نظام التشغيل كافّة؟ لو أن درجة الحرارة تجاوزت سقف الستمئة درجة ووصلت إلى ثمانمئة درجة، لكانت وقعت كارثة؛ انفجار.

من أجل محاولة استعادة السيطرة على النظام الحاسوبي في شركة بيتروليوس دي فنزويلا، كان على حكومة تشافيز إحضار مقتحمي حواسيب لمحاربة تقنيي الشركة المضربين الذين كانوا يقتحمون حواسيب الشركة من الداخل. وفي غمرة الإضراب، قال تشافيز للمراسلين:

> أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع، لكني أتعلم الكثير الآن. كنت في أحد المكاتب مع الوزير، هذا قصف إلكتروني تتعرض له الحواسيب، لقد خرج النظام عن السيطرة عبر التحكم به عن بُعد. ولذلك وصل شاب يافع، مقتحم حواسيب، حاملاً معه جهازاً. مازحته قائلاً: «هل أنت عرّاف قبيلة؟». وبما أنه وصل إلى مبنى الشركة حاملاً جهازه، أجابني بالقول: «هناك حرب إلكترونية دائرة». وبالتالي كانت حرباً بين مقتحمي الحواسيب ومقتحمي حواسيب آخرين. طرف يطلق النار من هنا، وأطراف يطلقون النار من هناك. كان أمراً مدهشاً. لقد درست أساليب الحرب على مدى عدة سنين، لكني لم أتصور أبداً أن الحرب ستؤول إلى هذه الحرب الإلكترونية.

من العوامل التي عقدت جهود تشافيز لاستعادة السيطرة الإلكترونية على منشآت بيتروليوس دي فنزويلا - وزيادة الشكوك التي تساور الحكومة من تورّط خفي للولايات المتحدة - وجود عقد كانت عملاقة النفط قد وقّعته مع شركة تقدم الخدمات التكنولوجية توجد مقراتها في الولايات المتحدة تدعى إنتيسا ومع الشركة سياك (الشركة الدولية للتطبيقات العلمية) التابعة لها. تضمنت قائمة كبار المسؤولين العاملين في سياك ضباطاً عسكريين أميركيين سابقين ومسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية. وكان من بين هؤلاء الجنرال واين داونينغ الذي عيّنه الرئيس جورج دبليو بوش رئيساً لمكتب محاربة الإرهاب في البيت الأبيض؛ والجنرال جاسبر ويلش، وهو منسّق سابق لدى مجلس الأمن القومي؛ والفريق البحري بوبي راي إنمان، المدير السابق لوكالة الأمن القومي ونائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية. وفي نهاية المطاف، قطعت شركة بيتروليوس دي فنزويلا علاقاتها كافة مع شركة سياك.

وفيما كان يتعين على تشافيز البحث عن مقتحمي حواسيب وعن فرق جديدة لتشغيل الناقلات، كان عليه أن يجد أيضاً أشخاصاً يديرون بيتروليوس دي فنزويلا

بمـا أنـه فـي طـور عمليـة طرد الآلاف من العامليـن فيها. ولذلك بحث عن عمال من أصحـاب الرتـب الدنيـا والمتوسطـة لتولّي مهمة تنفيذ العمليات التـي كان يديرها سابقاً مشرفون ومديرون رفيعو المستوى، أو أحضر موظفين متقاعدين مثل القبطان الذي أدار دفّة الناقلة بيلين ليون وأعادها إلى الميناء. وعلى غرار المجتمع الفنزويلي بوجه عام، كانت بيتروليوس دي فنزويلا مستقطَبة بين نخبة ثرية تحتقر تشافيز وبين عمال يتقاضون أجوراً متدنية يناصرونه أو لم يرغبوا على الأقل في استخدام الشركة كسلاح سياسي.

شكلـت منشـأة التكريـر بتـرو لا كروز مثالاً قياسيـاً وأصبحت ميداناً للجهود التي تبذلها الحكومة لإعادة تنشيط الصناعة. توقف أكثرية المديرين التنفيذيين رفيعي المستوى تقريبـاً عـن العمـل، لكـن نسبة تقل عن 20 في المئة من العمال والميكانيكيين والتقنيين حذوا حذوهم. وبالاستعانة بالحد الأدنى من أطقم العاملين الذين عملوا لساعات مطولة، تمكنـت الحكومـة مـن إعـادة المنشأة إلى العمـل من جديد. وقال عامل محنك يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، «في أواخر كانون الأول، كانت المنشأة تنتج ستين ألف برميل مـن البنزيـن يوميـاً. وهـذا يوازي 70 في المئة مـن طاقتها الإنتاجية وسُبع الاستهلاك اليومي للبلاد البالغ أربعمئة ألف برميل من البنزين يومياً».

اعترف رئيس بيتروليوس دي فنزويلا علي رودريغيز نفسه بأن الشركة واجهت عوائق كبيرة في العودة إلى مستوى إنتاجها السابق. فقد رحل الموظفون المفصولون وأخذوا معهم معرفة تقنية وخبرات واسعة. وكجزء من خطة الحكومة لإعادة تشغيل الشركـة، قـررت أن تقسمهـا إلـى كيانين إقليميَّيـن: واحد في الشرق وآخر في الغرب حيـث توجـد آبـار النفـط فعـلاً. وبذلك عملت على تفريغ المقـرّ المركزي للشركة في كاراكاس حيث عمل العديد من المديرين التنفيذيين المضربين.

وبحلـول أواخـر كانـون الأول، ادّعى رودريغيز بأن الإنتاج ارتفع إلى سبعمئة ألف برميل يومياً، وهو رقم شكك فيه المديرون التنفيذيون المنشقون في بيتروليوس دي فنزويلا. لكن تشافيز أبقى البلاد في حالة اكتفاء ذاتي بصعوبة بالغة. ففي 28 كانون الأول، وصلـت أولـى الشحنـات الخارجية من البنزين، حيث قامت البرازيل بإرسال 525000 برميل من البنزين. كان ذلك حدثاً مدوّياً آخر. فقد أصبح أحد أكبر البلدان المنتجة للنفط في العالم يستورد البنزين.

لكن البنزين البرازيلي كان قطرة في بحر بالنسبة إلى فنزويلا. وبناء على ذلك، بقيت أكثر محطات تعبئة الوقود مقفلة. وعندما بدأت إحدى هذه المحطات بالعمل، انتظر النـاس فـي الطابـور مدة يوميـن لكي يتقدموا ببطء إلى المضخة. قام البعض بالتناوب علـى البقـاء فـي الطابور، بحيث اتفق الأصدقاء والجيران والأقارب على الجلوس في السيـارات بالمناوبـة. وبغرض الاستعداد للرحلات الطويلة، كان الفنزويليون يمضون أسابيـع فـي تخزيـن الأباريـق البلاستيكيـة المليئـة بالبنزين في منازلهـم، لأنه لم يكن

بمقدورهم الاعتماد على إمكانية العثور على محطة وقود عاملة على طريقهم.

أصبح غاز البروبان الذي يُستخدم في الطهو نادراً أيضاً. وفي 26 كانون الأول، تجمّع ثلاثمئة شخص وقطعوا أحد الطرقات العامة في كاراكاس لمدة ساعتين للمطالبة بالحصــول علــى المزيــد مــن هذا الغاز. قال البعض بأنه لا يزال يستخدم الفحم النباتي والكاز في الطهو منذ أسبوعين. وقال آخرون من سكان المدينة بأنهم يحرقون أثاثهم. وفــي إحــدى الزوايــا فــي أحد الشوارع، ظهر مشهــد غير مألوف؛ كان الناس يبيعون الحطب.

شــكل هــذا الاحتجــاج أحد المؤشرات الأولى على قرب وقوع اضطرابات، على الرّغــم مــن أن أغلبهــا استهــدف قــادة المعارضة الذين نظموا الإضــراب في الأقاليم. ونُظمــت مظاهــرات أخــرى منفصلــة فــي محطات تعبئة الوقــود الفارغة. كان الوضع حرجــاً. بــدأت رفــوف المتاجر تفرغ من البضائع بالتدريج، وبخاصة من المشروبات مثل الحليب، والمياه المعبّأة، وشراب الشعير. وكان على الأشخاص الذين يحاولون متابعة حياتهم بشكل طبيعي عبر عقد مناسبات، مثل الاحتفال بذكرى الميلاد الخامس عشــر القــادم، تمضيــة عــدة أيــام فــي التجول فــي مدنهم وقراهم لجمع مــا يكفي من المرطبات.

لكن كم كانت دهشة المعارضة شديدة عندما تبين لهم أن تشافيز لا يزال ممسكاً بالسلطــة. أثبــت أنــه أكثــر عناداً وأوسع دهاءً مما كانت تتوقع. وجد أن لديه أصدقاء، إذ إن جزيرة ترينيداد وتوباغو، التي تقع إلى الشرق من فنزويلا على البحر الكاريبي هبّت للمساعدة بغرض التخفيف من حدة الأزمة، فأرسلت أربعمئة ألف برميل إضافي مــن البنزيــن. وأرسلــت جمهورية الدومينيــكان الأرز. وفي 8 كانون الثاني، وصلت سفينــة شحــن فنزويليــة إلــى كولومبيا لنقل خمسمئة طن من السلع الغذائية والمؤن، بما في ذلك الطحين والذرة والقمح والمشروبات الغازية وصلصة الطماطم والزبدة وورق الحمــام والحفاظــات. كمــا كانــت هناك سفينتان أبحرتا من فنزويلا أيضاً لنقل مزيد من المواد الغذائية. وعندما وصلت هذه المؤن إلى فنزويلا، حرص تشافيز على إيصالها إلى قاعدته القوية في الأحياء الفقيرة.

بــدا أن الإضــراب يفشــل فــي إزاحتــه عــن السلطــة لسبب آخر. فبعــد أن أُجبر الفنزويليون على الانتظار في صفوف طويلة لتعبئة البنزين، قاموا بما يبرعون به. بدأوا بالالتفــاف حــول بعضهــم وتحويل الأوضاع إلى مناسبات. فبدأ الناس بلعب الدومينو، والتجمــع تحــت الأشجــار، وتقاسم الحلوى واحتســاء القهوة. أمضوا ساعات في تبادل الأحاديــث، والنــكات، وروايــة القصص البطولية التي تحكي كيف أن الناس استطاعوا في السابق تجاوز الإضرابات. كما أن الانتظار في صفوف طويلة لم يكن حدثاً جديداً بالنسبة إلى المواطن الفنزويلي العادي. فهذا ما يقوم به أبناء الطبقة العاملة يومياً في انتظــار الحافــلات التــي تقلّهــم إلى مراكز أعمالهم. لكن قــادة المعارضة، الذين فقدوا

الاتصـال بالجماهيـر، فشلـوا فـي التكهن بمقـدار الصبر الذي يمكن أن يتحلّى به العديد من الفقراء الفنزويليين في مواجهة الشدائد التي كانت تتسبب بها المعارضة. حتى إن العديد من أبناء الطبقة الوسطى بدأوا يشعرون بأن الإضراب عمل سخيف.

مـع إطلالـة السنـة الجديـدة، بدأت تظهر علامات التعـب. فقد تزايد عدد رجال الأعمال الذين لم يعودوا مستعدين لتدمير سبل أرزاقهم في مسعى إلى إسقاط رئيسهم. وحاولت المعارضة في سياق يأسها المتزايد أن تصعّد من الضغوط لتخرج تشافيز من ميرافلوريس. ولذلك دعوا إلى الامتناع عن دفع الضرائب ونظموا مسيرة إلى وكالة الضرائـب الفدراليـة. وعرضـت شبكات التلفزيون إعلانـات مجانية لتشجيع المواطنين علـى التوقـف عـن دفـع ضرائب المبيعات. لكنّ الحكومة ذكّرتهم بأن التهرب من دفع الضرائب جريمة يعاقب عليها القانون بالسجن مدة يمكن أن تصل إلى سبعة أعوام.

أقفلت المصارف، التي كانت لا تزال تعمل لمدة ثلاث ساعات في اليوم، أبوابها بالكامـل لمـدة يوميـن. أمـا كارلوس أورتيغا، الـذي كان قد صرّح قبل أسبوعين بأنه لـن يدعـو المحتجيـن إلـى تنظيم مسيرة إلى ميرافلوريـس لأن ذلك سيكون عملاً غير مسـؤول بعـد أحـداث العنـف التـي وقعت في نيسان، ناقض نفسـه الآن، فهدد بتنظيم مسيـرة أخـرى إذا لـم يسمـح تشافيز بإجراء استفتاء غير ملزم والذي بات مقترناً الآن بطعـون قُدّمـت إلـى المحاكم. قال أورتيغا عشيـة رأس السنة الجديدة: «أقول، دعونا نذهب. وإذا كانوا ينوون قتلنا، فليقضوا علينا نهائياً».

كما تسبب تشافيز ببعض الأعمال المتهورة بنفسه. ففي 17 كانون الثاني، أغار رجـال الحرس الوطنـي علـى منشأتيـن تملكهما شركتان من القطـاع الخاص بغرض الاستيلاء على المياه المعبأة، والمياه الغازية، وشراب الشعير في مدينة فالنسيا. كانت تملـك المنشـأة الأولـى شركـة بانامكو العائدة إلى سيسنيروس، وهي الشركة التي تعبّئ منتجـات كوكاكـولا فـي فنزويلا، وكانت تملك المنشـأة الثانية شركة إمبريسباس بولار التـي تعبـئ منتجـات بيبسـي، والتي تعتبر أكبر منتج للمواد الغذائية وشراب الشعير في البلاد. ادّعت الشركتان بأنهما عاجزتان عن توزيع المنتجات بسبب النقص في الوقود وإضـراب العمـال. وادّعـت الحكومة بأن الشركتين تكتنزان هذه الموادّ للمساعدة على تجويع السكان وحملهم على الإطاحة بتشافيز.

قـاد الغارتيـن الجنـرال في الحرس الوطنـي لويس فيليب أكوستا كارلوس، وهو شقيق فيليب أكوستا كارلوس مؤسس الحركة الثورية البوليفارية (MBR-200) الذي قُتل في أثناء أعمال الشغب في كركازو. كان عليه شقّ طريقه عنوة وسط حلقة المحتجين لدخـول المنشأتيـن. وبعـد أن نجـح في ذلك، ظهـر على شاشات التلفزيون وقال: «لا تنسـوا أن الحقـوق الجماعيـة تُقـدّم على الحقوق الفردية، ونحن نعمل على توزيع هذه المنتجات على السكان. لقد صُنعت من أجل الناس». وأمسك بزجاجة مياه غازية دافئة

وشربها. ثم تجشأ في وجه كاميرات تلفزيون المعارضة.

دبّ الرعب في نفوس معارضي تشافيز. اعتقدوا بأن ذلك كان عرضاً مقززاً يرمز إلى سوقية أنصار تشافيز وعدم مشروعية إغارة تشافيز على ملكيات خاصة. لكن المواطنين في معظم الأقاليم سرّوا بهذه الغارة، بل وبذلك التجشؤ أيضاً. بالنسبة إلى هؤلاء المواطنين، كان ذلك عملاً عادلاً لافتاً للنظر في حقّ النخب التي تسعى إلى تخريب الاقتصاد وإجبار تشافيز على التنحّي.

بحلول ذلك الوقت، ظهرت علامات واضحة على أن الإضراب سيفشل. ظهرت كتابات على جدران المصارف تقول: «المصرفيون لصوص، ومخططون للانقلابات». كما أن العديد من المؤسسات التجارية الصغيرة لم تشارك في الإضراب أصلاً. وفي كانون الثاني، فتحت العديد من المؤسسات التجارية التي شاركت في الإضراب أبوابها، على الرّغم من أن الشركات الكبيرة متعددة الجنسيات التزمت بالإضراب. وزادت كثافة حركة المرور في كاراكاس مع فتح مزيد من المحال والمطاعم والأسواق أبوابها. كان الإضراب في طريقه إلى التحول إلى شكل من أشكال الانتحار الاقتصادي أو تدمير الذات. ولم يعد أصحاب العديد من المهن التجارية يرغبون في الاستمرار في الإضراب.

بحلول منتصف كانون الثاني، بدأ قادة الإضراب بإطلاق رسائل في الخفاء لبعض من تضرروا بشدة من رجال الأعمال بأنه لا بأس في استئناف أعمالهم، على الرّغم من أنهم أصرّوا في العلن على أن الإضراب لا يزال ساري المفعول. وبعد أن اعتراهم الضعف، تراجعوا عن مطالبتهم باستقالة تشافيز كشرط مسبق لإجراء انتخابات جديدة. وركّزوا بالمقابل على الاستفتاء غير الملزم المزمع إجراؤه في 2 شباط والذي عُلق في النهاية بقرار من المحكمة العليا بسبب نقطة قانونية.

بحلول الأسبوع الأخير من كانون الثاني، قال قادة المعارضة علناً للمدارس والمطاعم والمتاجر بأنه يمكنها إعادة فتح أبوابها في شباط بدوام جزئي على الأقل. كما بدأ العديد من قباطنة ناقلات النفط بالعودة إلى أعمالهم أيضاً. ووصف خبير في إدارة المخاطر في مؤسسة إنرجي ميرشانت أل سي سي بنيويورك قرار منظمي الإضراب بأنه «أول صدع في الدرع».

ويوم 23 كانون الثاني، نزل مئات الآلاف من أنصار تشافيز إلى شوارع كاراكاس في تجمّع حاشد لدعم الرئيس. صاحوا: «أواه آه تشافيز لن يرحل». وتحصن أبناء الطبقتين المتوسطة والعليا حيث كان يجري تشكيل ميليشيات خاصة، خلف بوابات منازلهم مخافة اجتياح لم يحصل أبداً. وبعد أربعة أيام، في 27 كانون الثاني، فُتحت بورصة كاراكاس لأول مرّة منذ تسعة أسابيع. لكنها التزمت بالعمل مدة ساعتين ونصف الساعة في اليوم لإظهار دعمها للإضراب. وفي اليوم التالي، حقق تشافيز نصراً آخر: فقد تجاوز إنتاج النفط مستوى مليون برميل في اليوم. وكان ذلك حدثاً مفصلياً اعترف

به حتى المديرون التنفيذيون المنشقون في بيتروليوس دي فنزويلا على مضض.

بعد مرور أسبوع، وبينما كان تشافيز يحتفل بالذكرى السنوية الحادية عشرة للمحاولة الانقلابية التي وقعت في شباط 1992، انهار الإضراب في كافة القطاعات عدا قطاع النفط. ففتحت المدارس الخاصة والمؤسسات التجارية والمطاعم والمتاجر والمصارف أبوابها بدوام كامل. لقد انتهى الإضراب، وحقق تشافيز أمراً اعتقد العديد من المراقبين بأنه كان مستحيلاً: لقد تجاوز إضراباً قامت به صناعة النفط.

خرج من الأزمة أقوى مما كان عليه عندما خرج من أزمة انقلاب نيسان عندما شعر بأنه مرغم على تقديم تنازلات إلى المعارضة. الآن، أثبت معارضوه أنهم فاشلون على نحو متزايد. في هذه المرّة، لم يُعد تشافيز أياً من المديرين التنفيذيين أو المديرين الإداريين المنشّقين إلى عمله في شركة بيتروليوس دي فنزويلا. وبدلاً من ذلك، فصل ما مجموعه ثمانية عشر ألفاً منهم بحلول نهاية آذار، وهو عدد قريب من نصف عدد الموظفين في عملاق النفط البالغ عددهم ثمانية وثلاثين ألف موظف.

لم يُسمح لقادة الإضراب بالسير في الشوارع بحرّية من أجل مواصلة التآمر أو احتلال الساحات التي أعلنوا بأنها أراضٍ محرّرة. وبالمقابل، أصدر القضاة مذكرات اعتقال بحقهم. واعتقلت الشرطةُ السياسية كارلوس فيرنانديز، رئيس فيديكمارس، في 19 شباط بينما كان يغادر مطعماً في سيارة مرسيدس فاخرة. وتوارى رفيقه في اتحاد العمال الفنزويليين، كارلوس أورتيغا، عن الأنظار وفرّ في وقت لاحق إلى كوستاريكا، حيث حصل على اللجوء السياسي. وادّعى هو وآخرون بأنهم ضحايا الاضطهاد السياسي. حتى إن بعضهم وصف فيرنانديز بأنه سجين سياسي.

لكنّ تشافيز لم يرَ في قادة الإضراب أكثر من إرهابيين ومدبّري انقلاب حاولوا إقصاءه عن الحكم عبر إحداث فوضى اقتصادية مدمّرة. كان ذلك تكراراً للانقلاب الذي دعمته وكالة الاستخبارات المركزية في التشيلي في العام 1973، باستثناء أن المحاولة لم تنجح في فنزويلا. فالجيش وقف بجانب تشافيز. والثورة التي اندلعت في العام 2002 كانت انقلاباً إعلامياً، في حين أن هذه المحاولة كانت انقلاباً اقتصادياً. وفي حين أن تشافيز نجا من المحاولة، ألحق الإضراب أضراراً اقتصادية مدمّرة بفنزويلا. فقد اقترب الاقتصاد من حافة الانهيار، وانكمش بنسبة 27 في المئة في الشهور الأولى من العام 2003. وبالإجمال، تكبدت صناعة النفط خسائر بلغت 13.3 مليار دولار.

وعلى الرّغم من هذا الضرر الاقتصادي، بات تشافيز يتمتع بدرجة أكبر من الحرّية لمواصلة برنامجه الإصلاحي الجذري وتمضية وقت أقل في درء المحاولات الهادفة إلى إسقاطه. قال تشافيز: «حصلتْ المعارضة الفاشية المتاجرة بالانقلابات على دورها في استخدام المضرب، وضربت الكرة ثلاث مرات. والآن، جاء

دورنـا لاستـلام المضـرب». حـوّل انتباهه إلى برامجه الاجتماعية. كانت لا تزال في مراحلهـا الأولـى خـلال السنوات الأربع التي قضاها في الحكم. والآن ستصبح مفخرة الإنجازات التي تحققها إدارته.

بنـاء علـى اقتـراح أليخاندرو غوميـز، وهو الرجل الذي ساعد على تنظيم عملية إنقاذ ناقلة النفط بيلين ليون، قام تشافيز بخطوة أخيرة لإبراز نهاية الإضراب الكارثي. عمد إلى تغيير أسماء ناقلات النفط التي تملكها بيتروليوس دي فنزويلا والتي رفضت إفـراغ محتوياتهـا. فبـدلاً من إطلاق أسماء ملكات الجمال عليها، حملت أسماء بطلات استقـلال فنزويـلا. وبنـاء علـى ذلـك تغير اسم سوزانا دويم إلـى مانويلا سايينز وهو اسم رفيقة درب بوليفار وزميلته في الثورة. وتغير اسم باربرا بالاسيوس إلى لويزا ساسيريس دي أريسْمندا، وهو اسم المرأة التي أنجبت، في أثناء فترة إقامتها في سجن إسباني في جزيرة مارغريتا، طفلة ماتت فور ولادتها.

جرى تكريم ناقلتين أخريين بتسميتهما باسمي امرأتين سوداوين لعبتا دوراً حاسماً فـي مطلـع حيـاة بوليفـار، فتحـول اسم مارتيـزا سايالِيرو إلى نيغـرا هيبوليتا، تكريماً للمرضعـة التـي ساعـدت علـى تنشئة بوليفار والتي أشـار إليها المحرر اليتيم مرة بأنها أمّـه وأبـوه. وأعيـد تعميـد بيلِيـن ليون، وهي الناقلة التي ساعـدت على تغيير مجرى الأحـداث لمصلحـة تشافيـز، وأطلـق عليها اسم نيغـرا كاتي وهي الحاكمة التي ساعدت علـى تنشئـة بوليفـار. ففـي أعقاب الإضراب المدمّر لقطـاع النفط، أراد تشافيز تذكير البلاد بجذورها الثورية لأن ثورته الخاصة باتت مهيّأة للانطلاق.

الفصل الرابع والعشرون

المهمات الاجتماعية

نشـأت ديليـا مـاري دافيلا في إحـدى القرى الريفية بفنزويلا ولم تلتحق بمدرسة لتتعلّم كيفية القراءة والكتابة. عندما كانت في الثامنة من عمرها، أرسلتها عائلتها الفقيرة إلى العمل كخادمة مقيمة لأنها بالكاد تستطيع تأمين الطعام لها. عاشت طفولة حرمان ولم يكن هذا بالأمر غير الشائع في أوساط الملايين من الناس من أبناء الطبقات الدنيا في فنزويلا.

بعد انقضاء نحو من ثلاثة عقود على رحيلها عن عائلتها، حصلت دافيلا أخيراً على فرصة لكي تتعلم. اِشتركت في أحد برامج تشافيز الاجتماعية، المهمة روبنسون. تعلّمت كيفيـة القـراءة والكتابـة، وفي غضون عام، أتقنت عمليات القسمة والضرب الحسابية. وفي العام 2004، عندما أصبحت في سنّ الرابعة والثلاثين، وصلت إلى مرحلة الصف الرابـع التعليميـة. كانـت قبل ذلك لا تستطيع مساعدة ابنها الذي في المدرسة الإعدادية علـى أداء فروضـه المنزليـة لأنهـا لـم تكن تفهم معنى الكلمـات المكتوبة على الورق. والآن، صار في مقدورها مساعدته. حتى إنها بدأت تحلم بالالتحاق بالكلّية.

كانـت دافيـلا واحـدة مـن أصل مليـون ونصف مليون فنزويلـي التحقوا بالمهمة روبنسون، وهي واحدة من أولى البرامج الاجتماعية التي شكلت مرحلة جديدة وأكثر راديكالية من رئاسة تشافيز في المرحلة التي تلت العملية الانقلابية وفي المرحلة التي تلـت إضـراب قطـاع النفـط. بدأت هذه المهمات في العـام 2003، وهي نموذج أكثر توسعاً وتنظيماً من خطة بوليفار 2000 المؤقتة التي بدأها تشافيز في مرحلة مبكرة من رئاسته للوفاء بالحاجات الفورية إلى الطعام، والرعاية الطبية، والطرقات، والمدارس. أصبحـت هـذه المهمـات التـي توفـر كل شيء من أسواق السلـع الغذائية المدعومة إلى صفـوف محـو الأمّيـة إلـى الخدمات الصحية واسعـة الشعبية في الضواحي المكتظة في محيط كاراكاس وغيرها من المراكز العمرانية وفي الأرياف الفقيرة. وقد حققت هذه المهمـات نجاحـات كبيـرة لدرجـة أن خصوم تشافيز أنفسهم أعلنوا في النهاية بأنهم في حال وصلوا إلى السلطة، فسوف يواصلون تمويل هذه البرامج.

عاشت دافيلا في القطاع ألف، ويدعى لا كاسيتا (المنزل الصغير)، وهو جزء من لا فيغـا، وهـي منطقـة جبليـة آخذة في التوسع في محيط كاراكاس ما لبثت أن تحولت إلـى إحـدى تحـف التجربة الاجتماعية لتشافيز. جذبت الزوار والصحافيين من مختلف أنحاء العالم، على الرّغم من أن وسائل الإعلام في فنزويلا تجاهلتها، ولغاية منتصف

العــام 2004 لــم يزرهــا أي صحافــي مــن الولايات المتحدة. كان هذا الحيّ عبارة عن تشكيلة من المنازل البسيطة المصنوعة من الأحجار البركانية، المتقاربة والمنتشرة على امتداد أزقّة ضيقة ومتعرّجة بالكاد يبلغ اتساعها اتساع الذراعين المفتوحتين.

إحــدى أولــى المهمــات التي وصلت إلى لا فيغـا وأكثرها دراماتيكية كانت باريو أدينترو، أو داخل الحيّ. بدءاً من العام 2003، أرسل تشافيز ورئيس بلدية كاراكاس فريدي بيرنال مئات من الأطباء الكوبيين إلى الأحياء في كاراكاس مثل لا فيغا، كما أرسـلا آلافـاً مـن الأطبـاء الآخرين إلى المناطق الفقيرة في أنحاء البلاد المختلفة. وهذا البرنامج يرجع إلى الاتفاقية التي وقعها تشافيز مع كوبا في العام 2000 والتي نصّت علــى إمــداد كوبــا المتعطشــة إلى الطاقة بالنفط بأسعــار مخفضة، مقابل إرسال كاسترو الأطباء والمعلمين والمدرّبين الرياضيين والخبراء الآخرين إلى فنزويلا.

عندمــا تولّــى تشافيــز الحكــم، كان قطاع الصحة العام فــي فنزويلا، الذي يعتمد عليه معظم السكان في الحصول على الرعاية الصحية، في حالة انهيار. كانت الرعاية الطبية في الأحياء وفي الأرياف الفقيرة في حالة يُرثى لها، حتى إنه لم يكن لها وجود فــي بعض الأحيــان. يقول رفاييــل فارغاس، الذي كان قائد هيئة أركان الجيش لدى تشافيز في الفترة التي وقع فيها الانقلاب والذي أدار في وقت لاحق برنامج الأطباء الكوبيين: «لم يسبق أن زارت النساء الحواملُ طبيباً قبل الولادة، وكنّ ينجبن أطفالهنّ على الأرض في منازلهنّ. كما يوجد فتيان، تتراوح أعمارهم بين عشر سنوات وأربع عشرة سنة، لم يسبق لهم أن زاروا طبيب الأسنان».

كان على سكان هذه الأحياء مغادرة منازلهم قبل الفجر للقيام برحلة طويلة إلى عيــادة أو إلــى مستشفــى لكــي يراهــم الطبيب. وكان علــى الأشخاص الذين يخضعون لجراحــة طبيــة إحضــار المستلزمــات الطبية بأنفسهم، مثل الشاشــ، والعقاقير الطبية، والشراشــف، وحتــى الأشرطــة الطبيــة اللاصقة. والنكتة الرائجــة في فنزويلا هي أن الشــيء الوحيــد الــذي لا يحتــاج المرضــى إلى إحضاره هــو الطبيب. حتى إنه لم يكن لهذا الطبيب وجود في بعض الأحيان، بحيث أصبح من المعتاد أن يبقى المرضى في المستشفــى لمــدة أسابيــع فــي انتظار حضور طبيب أو إصلاح معدات جراحية متعطلة. وكان بعض المرضى الذين يحتاجون إلى رعاية عاجلة يُتوفون بكل بساطة.

لــو عدنــا إلــى كوبــا، لوجدنا أنهــا قصة مختلفة تماماً. تملك هــذه الجزيرة نظاماً صحياً وصفته منظمة الصحة العالمية بأنه نموذج لدول العالم الثالث، على الرّغم من أن المشــكلات الاقتصاديــة التــي عصفت بالبلاد فــي التسعينيات من القرن الماضي بعد انهيــار راعيهــا الأساســي، الاتحاد السوفييتي، حرمتها من بعض الإمدادات الأساسية. أرسلــت كوبــا أطباءهــا إلى مختلف أنحــاء العالم، من هاييتي إلى هندوراس في أميركا اللاتينيــة ومــن الــدول المطلــة على البحر الكاريبي إلى أنغــولا في أفريقيا، كجزء من تضامنها الثوري مع دول العالم الثالث الأخرى. أصبحت فنزويلا ميدان عمليات كوبا

الأكبر، بحصول فنزويلا على عشرين ألف طبيب وعامل صحي في نهاية المطاف. ووفقاً لبعض الروايات، شكّل الأطباء الأربعة عشر ألفاً الذين يعملون في فنزويلا خُمس الأطباء الكوبيين في العالم. وفي حين سعت الحكومات السابقة إلى إيصال الرعاية الصحية إلى تلك الأحياء، أصبحت تلك المحاولات في ذلك الحين ذكريات ولم تصل بحال من الأحوال إلى حجم المشروع الذي قام به تشافيز.

كان الأطباء يُستقبلون كأبطال في هذه الأحياء. وكان أبناء هذه الأحياء يتشاجرون في ما بينهم لكي يعرضوا عليهم دعوات لمآدب العشاء. وكانت استضافتهم شرفاً لمضيفيهم. وفي بعض المناطق، كان أبناء الأحياء يتبرعون بكميات وفيرة من الطعام لدرجة أن الأطباء اضطروا إلى أن يطلبوا منهم التوقف عن ذلك. أقام الأطباء في المراحل الابتدائية في منازل السكان وأداروا عيادات مؤقتة مستخدمين كل شيء من غرف المعيشة إلى أفنية الحانات. وفي النهاية، شيدت الحكومة مئات المباني السداسية الشكل المصنوعة من الطوب بارتفاع طابقين. وفي هذه المباني، وفّر الأطباء الخدمات الطبية في الطابق الأول، وأقاموا في الطابق الثاني. وعادة ما كانوا يخدمون في بعثات مدتها سنتان ويتقاضون 250 دولاراً في الشهر من الحكومة الفنزويلية.

ركّز هؤلاء الأطباء على الطبّ الوقائي، على أمل استباق الأمراض قبل أن تتحول إلى أمراض أشد خطورة وتستدعي تدخلاً طبياً مكثفاً. وإلى جانب المتطوعين المحليين، أجرى الأطباء مسحاً للمجتمعات فتنقّلوا من منزل إلى آخر لتسجيل الماضي الطبّي للعائلات، وحددوا الأشخاص المصابين بالأمراض، وحاولوا تأمين العقاقير اللازمة. كما درّبوا المتطوعين من أبناء هذه المجتمعات على إقامة ورش عمل تتناول مواضيع التغذية والطب الوقائي. وفي السنة الثانية من البرنامج، التحق بهم أطباء الأسنان والعيون، فأحضروا معهم كراسي عيادات الأسنان الحديثة المصنوعة في الصين أو في البرازيل، وماكينات فحص العيون وصنع العدسات، ووحدات مجهزة بالكامل للكشف عن حالات سرطان الرحم.

لم تكن المهمة سهلة دائماً. ففي بعض الأقاليم، أقنع السكانُ رجالَ العصابات بمرافقة الأطباء في أثناء قيامهم بجولاتهم أو مساعدتهم على الانتقال من منطقة تسيطر عليها إحدى العصابات إلى منطقة تسيطر عليها عصابة أخرى. لكن هذه التدابير الأمنية لم تكن تنجح دائماً، حيث قام مجرمون محليون بمهاجمة عدد قليل من الأطباء الكوبين وقتلهم.

كما أن البرنامج لم يحظَ بالترحاب على صعيد عالمي. فقد انتقد لوبي أطباء هذا البرنامج. قائلاً بأنه لا توجد حاجة إلى الكوبيين؛ يمكن لثمانية آلاف طبيب فنزويلي عاطل عن العمل أن يحلّوا محلّهم. وانتقد تشافيز الفشل في تحسين المستشفيات العامة حيث كان يلجأ معظم الفنزويليين للحصول على العلاج الطبي المكثف الذي لا يمكن للأطباء الكوبيين توفيره في العيادات المنتشرة في الأحياء. كما شككوا في مؤهلات

الكوبيين، واتهموا بعضهم بالتقصير. ومضى دوغلاس ليون ناتيرا، رئيس الفدرالية الطبية الفنزويلية، إلى حدّ الزعم بأن الكوبيين ليسوا أطباء على الإطلاق. قال ناتيرا: «نحن لا نكره الأجانب. لكن لدينا معلومات تفيد بأن هؤلاء الأشخاص، بنسبة تقارب المئة في المئة منهم، ليسوا أطباء. إنهم أشخاص يتظاهرون بأنهم أطباء، فيلبسون الرداء الأبيض ويضعون السماعات على رقابهم».

في حين كان هذا الاتهام يثير الضحك بكل بساطة في نظر تشافيز وأنصاره، كانت هناك جملة من الحقائق البسيطة التي تضعف الحجج الأخرى التي ساقها ليون. فعندما تنشر الحكومة إعلانات تعرض فيها المساكن والوظائف في الأقاليم، قلّة من الأطباء الفنزويليين كانوا يتقدّمون بطلبات. والسبب هو أنهم ينتمون أساساً إلى الطبقة الوسطى، ولذلك فهم أكثر اهتماماً بعلاج المرضى الأكثر ثراءً في العيادات الخاصة المربحة حيث كانت الأعمال مزدهرة في مجالات مختارة، مثل عمليات تكبير الثدي وغيرها من العمليات التجميلية في بلد مهووس بملكات الجمال. وكان العديد من الأطباء يخشون من أن تطأ أقدامهم تلك الأحياء. كما بدا أن المزاعم التي تتحدث عن التقصير لا أساس لها، فالنّظام الصحي الكوبي يحظى باحترام على نطاق واسع.

وفي ما يتعلق بالمستشفيات العامة سيئة السمعة، لم تكن لتتحول بطريقة عجائبية إلى نماذج عالية الكفاءة بين ليلة وضحاها في ظل حكم تشافيز، لكن الأوضاع تحسنت فيها فعلاً حيث صارت اللوازم الطبية متوفرة، وتحسن مستوى الرعاية فيها، وزاد عدد مبانيها. كما ارتفع الإنفاق الاجتماعي للدولة للفرد الواحد في القطاع الصحي بنسبة هائلة تبلغ 74 في المئة بين عامي 1999 و2005 فقط وذلك استناداً إلى البيانات الحكومية. كما ارتفع بنسبة 10 في المئة بالإضافة إلى ذلك في العام 2006 وواصل الارتفاع في العام 2007، علماً بأن معظم هذه الأموال جاءت من شركة بيتروليوس دي فنزويلا. فقد وضع تشافيز صندوقاً خاصاً في عملاق النفط لتمويل البرامج الاجتماعية، وارتفاع أسعار النفط العالمية ساعد على تحقيق ذلك.

سافر آلاف من المرضى الفقراء الذين لا يمكنهم تلقّي العلاج في فنزويلا إلى كوبا لتلقّي العلاج المتطور والخضوع لعمليات جراحية لمعالجة السكتة، وإصابات الظهر، والمشكلات الجسدية الأخرى في قسم آخر من البرنامج الطبي الذي أصبح شعبياً للغاية. ففي أحد هذه البرامج، مهمة ميلاغرو أو المهمة المعجزة، سافر عدد قليل من المرضى إلى كوبا للخضوع لجراحات مجانية في العين. وقد اعتبر العديد من الفقراء هذا البرنامج بمثابة نعمة، على الرّغم من أن بعض الكوبيين استاؤوا من المعالجة الخاصة التي يتلقونها. وفي نهاية المطاف، وسّع تشافيز ذلك البرنامج وبات يشمل نقل المرضى القادمين من جامايكا وبوليفيا وبلدان أخرى في أميركا اللاتينية إلى كوبا جواً للخضوع لجراحات في العين. حتى إنه طرح فكرة نقل الفقراء من أفريقيا وغيرها من المجتمعات الفقيرة في الولايات المتحدة إلى كوبا. وبموجب هذا البرنامج،

وفرت كوبا الخبرات الطبية في حين وفرت فنزويلا المال اللازم.

كان العديد من المرضى المصابين بإعتام في عدسة العين كفيفي البصر أو كان بصرهم يعاني من ضعف شديد. وبعد إجراء العلميات اللازمة، صار في مقدورهم الرؤية مجدداً. قال إلينور شيرلوك، سفير جامايكا لدى كوبا: «هذا مثال على التكامل والتعاون بين دول الجنوب. يمكنك أن تراهم، وبخاصة الأشخاص الفقراء الذين لا يمكنهم تحمّل نفقات الرعاية الصحية، وهم يحدقون بدهشة طوال ساعات من النافذة بعد أن خضعوا لعمليات جراحية. إنها معجزة حقاً».

ادّعى بعض معارضي تشافيز بأنه يستخدم الأطباء الكوبيين للفوز بالأصوات، لكن في النهاية، من الصعب المجادلة بأن إرسال أطباء بدوام كامل إلى الأحياء الفقيرة كان عملاً سيئاً، بصرف النظر عن المكان الذي جاء منه هؤلاء. قال رئيس البرنامج رفاييل فارغاس: «إذا توجب الذهاب إلى المريخ أو إلى القمر لمساعدة هؤلاء الفقراء، فسوف نجلب الأطباء من المريخ». وادعى تشافيز بأنه في الشهور القليلة الأولى من بدء العمل بالبرنامج، أنقذ الأطباء الكوبيون حياة ثلاثمئة شخص.

وفي نهاية المطاف، انتقلت الحكومة إلى مرحلة ثانية من برنامج مهمة داخل الحيّ الذي يتجاوز مبادرات الرعاية الصحية التي تعتمد الوقاية ليركز على تطوير المنشآت أو بنائها لمعالجة الحالات الأكثر خطورة. أنفق البرنامج 52 مليون دولار على بناء مستشفى راقٍ لعلاج مرضى القلب من الأطفال، وأنفق مليار دولار على ترميم المستشفيات الأربع والأربعين، وعلى بناء نحو من ستمئة مركز للتشخيص أو إعادة التأهيل، وفتح أكثر من ألفين ومئة عيادة في الأحياء بموجب برنامج مهمة داخل الحيّ. وأجرى الأطباء عدداً متزايداً من العمليات الجراحية مع إعادة الحكومة تفعيل النظام الاستشفائي المترهل. كما أرسلت مئات من الشباب إلى كوبا لدراسة علوم الطب بالمجان، ليعودوا إلى بلادهم ويخدموا القطاعات المحرومة.

كان للمهمات الطبية أثر إيجابي هائل في سكان الأقاليم. ووفقاً لبعض التقديرات، تلقّى نحو من أربعة عشر مليوناً ونصف المليون، أي 54 في المئة من السكان، رعاية صحية مجانية من خلال برنامج باريو أدينترو.

أحد المستفيدين كان مارغريتا مينديز البالغة من العمر ثلاثة وستين عاماً والتي بقيت حبيسة منزلها الإسمنتي الصغير طوال عدة سنين. فقد أدت إصابتها بحالة حادة من الدوالي إلى انتفاخ ساقيها اللتين علتهما البثور المتقيحة وردية اللون. ولكي تغادر منزلها في الحي الحقير والكئيب في سان بابليتو، كان على أقاربها أن يحملوها على سلّم خارجي حادّ الميل وعالي الارتفاع يؤدي إلى شارع رئيسي في الأسفل. ولكي تعود إلى منزلها، كان عليها أن تتسلّق درجات ذلك السلّم، بحيث إنّها بالكاد كانت تستطيع القيام بذلك. ولذلك لم تصعد ذلك السلّم أكثر من خمس أو ست مرات طوال عشر سنين للذهاب في رحلة تستغرق ثلاثين دقيقة إلى أقرب مستشفى عام. وفي

زيارتها الأخيرة، قال لها الأطباء بأنهم سيضطرون إلى بتر ساقيها، ولذلك امتنعت عن الذهاب إلى المستشفى.

تغيرت حياة مينديز عندما وصل الطبيب الكوبي روبيرتو هيرنانديز إلى المنطقة. كان هيرنانديز الضخم ذو الشاربين قد خدم في هاييتي وفي أنغولا كجزء من المهمات الطبية الدولية التي تشرف عليها كوبا. وفي سان بابليتو بكاراكاس، بدأ بإجراء مكالمات هاتفية مع مينديز ثلاث مرات في الأسبوع، وتسلّق السلّم وحنى رأسه تحت حبال الغسيل. ورافقه رجال العصابات وساعدوه على الانتقال من منطقة إلى أخرى. أتت هذه الزيارات ثمارها، إذ إن حالة مينديز تحسنت، وقامت بخطواتها المترددة الأولى بنزول درجات السلّم بعد مرور عدة شهور من العلاج. قالت: «كان الطبيب هيرنانديز نعمة من الله».

في حين أن كوبا برعت في ميدان الرعاية الصحية على الرغم من غياب الحرّيات الديمقراطية واقتصادها الضعيف الذي تسيطر عليه الدولة، تتباهى كوبا أيضاً بجهاز تعليمي قوي. فمن أوائل الإنجازات العظيمة التي تحققت في السنين الأولى لثورة كاسترو كانت حملة محو الأمّية حيث نزل آلاف من المتطوعين إلى الشوارع وتوجهوا إلى المناطق الريفية لتعليم الأمّيين كيفية القراءة والكتابة. واستطاعوا محو الأمّية، وإلى جانب توفر نظام مدعوم للتعليم العالي، استطاعوا تحويل الكوبيين إلى شعب هو الأرقى تعليماً من بين سائر الشعوب في أميركا اللاتينية. واستناداً إلى مصادر الأمم المتحدة والمنظمات المستقلة الأخرى، تتمتع كوبا بنسبة أعلى من المتعلمين من الولايات المتحدة. والفقراء الكوبيون السود الذين لم يحلموا أبداً بالالتحاق بالكلّيات في فترة حكم باتيستا الديكتاتورية صار في مقدورهم تحقيق ذلك الحلم الآن.

اِستعار تشافيز النموذج الكوبي في تنفيذ حملته الهادفة إلى محو الأمّية، بعد إضافة بعض التعديلات التي تلائم الواقع الفنزويلي. وفي هذا السياق، أرسلت كوبا مئات من المدرّبين في مجال محو الأمّية إلى فنزويلا لتعليم مئات الآلاف من المتطوعين الفنزويليين على كيفية إعطاء الدروس التعليمية. وفي حين كان الكوبيون قبل جيل مضى يتوجهون إلى الحقول ومعهم أقلام الرصاص والدفاتر لتعليم الناس كيفية القراءة، أحضروا معهم في هذه المرّة أجهزة التلفزيون، وآلات التسجيل الفيديوية، ونظارات القراءة.

أعطى المتطوعون الدروس في المدارس بعد انتهاء دوام الصفوف العادية، وفي الطوابق السفلى من الكنائس، وفي المكتبات العامة. في إحدى الأمسيات في حيّ كوشي بكاراكاس، كانت الطالبة روزانا ألفياريز البالغة من العمر اثنين وعشرين عاماً تدرّس أربع سيدات مسنّات اشتركن في مهمة روبنسون. جلسن في مرآب خانق على أرضية دير محلّي فيما كانت مروحة تعمل من دون جدوى على تلطيف الهواء في الغرفة.

كررت السيدات العبارات التي كانت ترددها ألفاريز لتوضيح الفرق في اللغة الإسبانية بين الحرف r العادي وبين النطق بهذا الحرف مكرراً. وبعد ذلك، أثنَين على تشافيز لإتاحته الفرصة لهنّ لتعلّم كيفية القراءة والكتابة والمبادئ الأساسية في علم الرياضيات. قالت ماريا باريو البالغة من العمر ثمانية وستين عاماً: «إنه رئيس جيد لكل الفنزويليين. لقد وضع برامج جيدة جداً لم نشهد لها مثيلاً هنا من قبل».

أُطلق على برنامج محو الأمّية اسم سيمون رودريغيز، وهو اسم موجّه بوليفار الذي أطلق على نفسه - عندما ذهب إلى المنفى - الاسم المستعار صموئيل روبنسون تكريماً لروبنسون كروزو. كما استحدث تشافيز برنامجاً تعليمياً آخر، وهو ميسيون ريباس، على اسم بطل الاستقلال خوسيه فيليكس ريباس الذي تزوج من إحدى عمّات بوليفار. وفي النهاية، خانه أحد العبيد وسلّمه إلى الإسبان الذين قطعوا رأسه ووضعوه في الماء المغلي وعرضوه في قفص بكاراكاس.

هدف برنامج ميسيون ريباس إلى السماح للأطفال الذين هجروا مقاعد الدراسة بإكمال تعليمهم الثانوي. شارك في البرنامج الكثير من الأشخاص المؤهلين والذين جاؤوا بأعداد ضخمة ممن لم يكملوا تعليمهم الثانوي أو حتى الإعدادي. اِلتحق بالبرنامج ستمئة ألف طالب في سنته الأولى، ووصل هذا العدد في النهاية إلى 1.4 مليون طالب. تلقى هؤلاء تعليمهم في المساء بشكل أساسي، مع التركيز على الرياضيات، وقواعد النحو المتقدمة، والجغرافيا، واللغة الإنكليزية كلغة ثانية. وحصل بعض الطلاب على رواتب صغيرة للتعويض عن الوقت الذي يعملون فيه ولتوفير الرعاية للأطفال أو أجرة التنقل بواسطة الحافلات. وكان هذا البرنامج المضغوط مصمماً لكي يُستكمل في غضون سنتين.

وأخيراً، استحدث تشافيز برنامجاً آخر للأشخاص الحائزين على شهادات الثانوية العامة ولكنهم بحاجة إلى مساعدة مالية للالتحاق بالكلّية. وفّر هذا البرنامج الذي أطلق عليه اسم الجنرال أنطونيو خوسيه دي سوكري، الذي ساعد بوليفار على غزو بوليفيا، المساعدة لمئة ألف طالب في كل عام. كما بنى تشافيز جامعة جديدة للطلاب من أصحاب المداخيل المتدنّية وهي جامعة فنزويلا البوليفارية. وفي إيماءة رمزية، جرى افتتاح الجامعة في مبنى شركة بيتروليوس دي فنزويلا الذي أفرغ بعد أن فصل تشافيز آلاف المديرين التنفيذيين والمديرين الإداريين الذين شاركوا في إضراب قطاع النفط. كما افتتحت الجامعة فروعاً لها في وقت لاحق في مختلف أرجاء البلاد، ووفرت اختصاصات شملت الصحة العامة والهندسة المعمارية والطبّ وعلوم الحوسبة وإدارة البيئة، إلى جانب نشاطات أخرى مثل الرقص وكرة القدم.

وفي حين حازت البرامج التعليمية على ثناء واسع من الطبقات الدنيا في فنزويلا، فهي لم تنجُ من الانتقاد. فقد شكك البعض في نوعية الصفوف، وبخاصة في برنامج ميسيون ريباس، حيث عبّر المنتقدون عن شكوكهم في إمكانية ضغط مقرّر التّعليم

الثانوي في سنتين. واشتكى آخرون من أن جامعة فنزويلا البوليفارية تقوم بتدريس المبادئ السياسية لتشافيز أكثر مما تدرّس مقررات التعليم العالي.

لكن بالنسبة إلى فقراء فنزويلا، كانت هذه المهمات ثورية. وعلى الرّغم ممّا فيها من عيوب، كانت بمثابة جهد صادق وهائل للمساعدة على تحسين أوضاع الطبقات الفقيرة باستحداث برامج لم تشهدها البلاد من قبل. ووفقاً لبعض التقديرات، انخرط بحلول العام 2006 نحو من ثلاثة ملايين شخص في المهمات التعليمية منذ بدء العمل بها في العام 2003.

لم تتوقف البرامج عند حدود الرعاية الصحية والتعليم. فقد فتح تشافيز أيضاً آلافاً من الأسواق التي تبيع السلع الغذائية المدعومة في شتى أرجاء البلاد باسم ميركال. عرضت هذه الأسواق الطحين والمعجنات والخبز والأرز والحبوب واللحوم والمنتجات الأخرى بأسعار مخفضة جداً على ساكني الأحياء الفقيرة والفلاحين. وبحلول العام 2006، قُدّر بأن ما بين 40 و47 في المئة من السكان تسوّقوا في أسواق ميركال التي باعت السلع الغذائية بأسعار مخفضة بنسب تراوحت ما بين 41 و44 في المئة. كما أقامت الحكومة آلاف مطابخ الحساء في المناطق الفقيرة مثل لا فيغا. وتبرّعت الحكومة بالقدور، والأطباق والطعام للجماعات الصغيرة من النساء في الأحياء واللّواتي أعددن مطابخ في منازلهنّ لطهو وجبات ساخنة مغذّية كل يوم لنحو من 150 شخصاً يعيشون في فقر مدقع.

وفي حين ركّزت الحكومة على رفع المستوى التعليمي وعلى الرعاية الصحية - على المستوى الأساسي المتمثل في إيصال الطعام إلى أفواه الأشخاص الجائعين - شرعت أيضاً في برامج تهدف إلى إيجاد فرص عمل. وعلى سبيل المثال، صُمم برنامج ميميون فولفان كراس، أو مهمة التغيير، لتخفيض مستوى البطالة ورعاية تطوير المجتمعات عبر استحداث آلاف من التعاونيات صغيرة الحجم في المناطق الزراعية وفي غيرها من المناطق. استندت هذه البرامج إلى مفهوم يدعى التطوير الذاتي، أو التطوير الذي ينشأ من الداخل.

وبهدف تجنّب الطابع الماركسي اللينيني التقليدي، تصوّر هذا المفهوم استخدام التعاونيات المحلية لجعل فنزويلا بلداً يتمتع بالاكتفاء الذاتي عبر تفضيل المنتجات المحلية على المنتجات المستوردة التي أحضرتها، على حدّ وصف أحد المسؤولين الحكوميين، أقلّية حاكمة طفيلية لتبيع هذه المنتجات بعد ذلك وتحقق أرباحاً طائلة. فغالباً ما كانت المنتجات مثل عربات الأطفال والحواسيب تباع بأثمان تساوي ضعفين أو ثلاثة أضعاف الأثمان التي يدفعها المستهلكون في الولايات المتحدة التي كانت المصدر الذي يستورد رجال الأعمال الفنزويليون تلك المنتجات منه. كان السياح الفنزويليون يذهبون في رحلات إلى ميامي حاملين أموالهم ليشتروا كل شيء من مكيفات الهواء إلى أجهزة

التسجيـل ويحمّلونهـا علـى الطائـرات في رحلة الإياب. أراد تشافيـز استخراج الموادّ الخـام فـي فنزويـلا، وإبقاءهـا في البلاد، بدلاً من شحنهـا إلى الولايات المتحدة وإلى الـدول الصناعيـة الأخـرى، لتصنيـع المنتجات محلياً. وعلى حد تعبير كارلوس لانز، وهو أستاذ مدرّس طاعن في السنّ في الجامعة ساعد على ترأس هذا المجهود: «نحن نسلّم الموادّ الخام الرخيصة إلى الإمبراطورية الولايات المتحدة وإلى الشركات متعددة الجنسيـات، والتـي بدورهـا تبيعنـا إياها على شكل سلـع باهظة الثمن. وبالتالي من هو المستفيد من كل ذلك؟ الناس الذين يعيشون في الشمال».

أقامت حكومة تشافيز مثالاً على نموذجها الاقتصادي الجديد على تل يشرف على إقليم كاتيا الآخذ في الاتساع والذي يسكنه أبناء الطبقة العاملة، فبنت تعاونية للصناعة والزراعة في حيّ غراموفين. وقد شيدت هذه التعاونية في موقع لمنشأة قديمة لشركة بيتروليوس دي فنزويلا حيث كانت تتم تعبئة شاحنات النقل ذات يوم بالبنزين. هُجرت المنشأة منذ أكثر من عقد، لكن الخزانات الضخمة الفارغة كانت لا تزال منتصبة على ذلك التل.

قامت الحكومة بترميم مستودع كبير في الموقع وتحويله إلى منشأة يمكن للعمال تصنيـع الأحذيـة فيهـا. وخُصص مستودع محوَّل آخر لإنتاج السترات وأنواع الألبسة الأخـرى. كمـا تضمّـن الموقـع عيادة صحيـة متألقة جديدة، ومدرسـة بوليفارية تقدّم الوجبـات المجانيـة وتتوفـر فيهـا حواسيب موصولـة بالإنترنت، وسقيفـة يعقد السكان تحتها لقاءاتهم الاجتماعية الأسبوعية. وخارج الموقع، زرع الأعضاء المشاركون في التعاونية الطماطم والمحاصيل الأخرى في مزرعة صغيرة بجانب التل. وقد شكّل هذا المشروع، في مجتمع فقير لم يكن للحكومات السابقة وجود فيه تقريباً، مصدراً لأمل كبير واعتزاز السكان.

فـي مـا عـدا مهمـة فولفان كراس، نجد أن أحد أكثر الجهود التي بذلتها الحكومة أهمية والذي لم يحظَ باهتمام أغلب الناس كان برنامج تسليم صكوك ملكية الأراضي لسـكان الأحيـاء. فهنـاك العديـد من الأحياء فـي كاراكاس وفي سواها من المدن بدأت بالظهـور علـى يـد الفنزويلييـن الفقـراء الذين اجتاحـوا الأرض بكل بساطـة، وأقاموا منـازل مؤقتـة فيهـا مصنوعـة من الكرتون أو حتى نصبوا خياماً مصنوعة من الأكياس البلاستيكية، وبنوا في نهاية المطاف منازل بسيطة من الأحجار البركانية، كان العديد منها منازل من عدة طوابق. كما أن بعض هذه الأحياء امتدّ على المنحدرات الجبلية المعرضـة لخطـر حـدوث انزلاقـات طينية من النوع الـذي أدى إلى مقتل الآلاف في كانون الأول 1999. شرعت حكومة تشافيز ببرنامج لإعطاء ساكني هذه الأحياء البعيدة عن مناطق الكوارث صكوك ملكية لمنازلهم. كان ذلك نقطة تحول بالنسبة إلى سكان هذه الأحياء لأن البرنامج وفر لهم مجموعة هائلة من الإمكانيات للحصول على قروض من المصارف وبدء أعمال تجارية صغيرة.

توالت لائحة المهمات. فكانت مهمة آيدنتداد حافزاً لتسجيل أصوات المقترعين وقد هدف إلى تسجيل كافة من يحق لهم التصويت في اللوائح الانتخابية. فهناك الآلاف من الفنزويليين الذين أضاعوا بطاقات هوياتهم الوطنية، أو أنها صارت بحاجة إلى تجديد، أو أنهم لم يحصلوا عليها أصلاً. والآن، صار في مقدورهم الحصول على بطاقات هوية بسرعة من دون الحاجة إلى إجراء معاملات بيروقراطية مضنية. وصف المشككون البرنامج بأنه حيلة من جانب تشافيز لملء اللوائح الانتخابية بالمؤيدين، غير أن آخرين شبهوا البرنامج بمحفزات تسجيل أسماء المقترعين في الولايات المتحدة في الستينيّات من القرن الماضي والتي هدفت إلى جذب السود المحرومين إلى النظام السياسي. كما سمح البرنامج لمئات الآلاف من الأجانب الذين يقيمون في فنزويلا منذ عدة سنوات ولم يحصلوا على الجنسية بالحصول على أوراق قانونية وامتلاك حقّ التصويت.

كما كانت بطاقة الهوية، أو السيدويلا، وثيقة هامة في فنزويلا لأنه من المستحيل الحصول على رخص حكومية أو الالتحاق بالبرامج الحكومية، أو الحصول على وظيفة في العديد من الحالات من دونها. والحصول على البطاقة جعل الناس يتمتعون بحق المواطنية الكاملة للمرة الأولى في حياتهم.

عالجت المهمات الأخرى النواحي الحياتية كافّة، من السكان الأصليين إلى المنقبين عن الذهب. فسعى برنامج مهمة زامورا إلى تقديم المساعدات للمزارعين. واستهدفت مهمة غوايسابورو القبائل الهندية وأفرادها البالغ عددهم خمسمئة ألف شخص في بعض من أبعد المناطق في البلاد. وساعدت مهمة بيار عمال المناجم الذين يستخدمون خراطيم المياه عالية الضغط في تنقية الأوساخ في غابة الأمازون المطريّة بحثاً عن الذهب، والذين كانوا يعيشون غالباً في ظروف تعيسة.

هاجم منتقدو تشافيز هذه المهمات واتهموه بمغازلة الفقراء وبالقيام بأعمال شعبوية؛ وهي كلمة هجائية تستخدم في أميركا اللاتينية لوصف المِنح الحكومية وعمليات التحايل الرخيصة والقصيرة المدى لكسب الأصوات. وانتقدوا نموذجه الاقتصادي المحلّي بأنه ليس أكثر من تقليد ضعيف لسياسات تأمين بدائل الاستيراد التي سبق أن اجتاحت أميركا اللاتينية في الستينيّات والسبعينيّات من القرن الماضي، ولم تحقق سوى نجاحات محدودة. رأوا أن المهمات تدار بشكل سيئ وأنها فشلت في الوصول إلى جذور المشكلات الرئيسية المتفشية التي ابتُليت بها فنزويلا مثل النظام القضائي الفاسد، والبيروقراطية الحكومية التي تعتبر واحِدة من أكثر البيروقراطيات تضخماً في أميركا اللاتينية، وارتفاع معدلات الجريمة والفقر، والبطالة المنتشرة.

يدّعي لويس بيدرو إسبانا، وهو أستاذ جامعي درس الفقر في جامعة أندرياس بيللو في كاراكاس، بأن «الحكومة ليس لديها في الحقيقة سياسة اجتماعية. وما تملكه هو مسرح اجتماعي». وتكهن هو ونقاد آخرون بأن المهمات الاجتماعية التي ينفذها تشافيز ستنهار جميعها - ومعها رئاسته - عندما تتراجع أسعار النفط.

طرحت هذه الحجة سؤالاً مشروعاً. لكن أنصار تشافيز يطرحون بدورهم السؤال التالي: ما العيب في إنفاق أموال النفط على الغالبية الفقيرة طالما أن عائدات النفط تتدفق على البلاد؟ لم يكن تشافيز يقوم بأكثر من اتّباع الوصفة التي يؤيدها صندوق النقد الدولي والتي حوّلت كوريا الجنوبية وسنغافورا ودولاً أخرى إلى نمور آسيا بزيادة الإنفاق على قطاعي الصحة والتعليم، وهو الأمر الذي ساعد على المدى الطويل على ارتفاع معدلات النمو الاقتصادي إلى مستويات قياسية. وتساءل العالم في السياسة الفنزويلية إدغاردو لاندر إن كان يوجد معايير مزدوجة عندما يتعلق الأمر برؤساء مثل تشافيز يعملون على إعادة توجيه موارد الدولة إلى الشرائح الأشد فقراً في بلدانهم. يقول لاندر: «لماذا توصف هذه الأعمال بالشعبوية؟ لماذا لا يُعتبر ذلك بمثابة قيام الدولة بواجباتها؟».

في الواقع، كانت مهمات تشافيز أكثر من مجرد مِنح حكومية. كانت تخدم في تحفيز المجتمعات وتعبئتها وتنظيمها كما لم يفعل أي برنامج حكومي آخر من قبل. فالجيران الذين بالكاد كانوا يقولون مرحباً عندما يلتقون ببعضهم في الشارع تجمّعوا الآن لتشكيل لجانِ أراضٍ جعلت الحكومة من تشكيلها شرطاً مسبقاً لتسلّم صكوك الملكية. كانوا يعملون معاً في مطابخ الحساء ويدرسون جنباً إلى جنب ليلاً في مهمة روبنسون أو مهمة ريباس. كانوا ينفذون مشاريع لصالح المواطنين العاديين لإصلاح أنظمة إمداد المياه البالية، وتركيب حواجز معدنية لمنع الأطفال من القفز إلى الشوارع المزدحمة، ويعلّقون الملصقات لإرشاد الناس إلى كيفية محاربة حمّى الضنك؛ وغالباً ما تكون بمساعدة قليلة أو من دون مساعدة حكومية على الإطلاق.

لم يكن الأمل المُعدي الذي انتشر في الأحياء نابعاً من الخدمات التي يحصل عليها الناس من الحكومة للمرّة الأولى في حياتهم وحسب، بل إنه نابع من مشاركتهم الشخصية كعناصر تحفيزية في العملية. ففي حين أن الحكومات السابقة لم تقدّم الكثير، فهي لم تطلب الكثير أيضاً. لكنّ تشافيز تحدّى الناس بأن يعطوا بقدر ما يأخذون. تملّك آلاف المتطوعين الذين شاركوا في طهو الوجبات وفي صفوف محو الأمّية، وفي تنظيم لجان الأراضي حسٌّ جديد بالانتماء والكرامة التي لا يمكن لأحد أن ينتزعها منهم.

ربما يكون من المحتمل أن ينهار مشروع تشافيز بأكمله عندما يأتي يوم رحيله أو عندما تختفي عائدات النفط. لكن الأكثر احتمالاً هو أنه أيقظ الأغلبية الفقيرة على نحو لا رجعة فيه. فبعد عقود من الإذعان، انتفضت الطبقة الفقيرة واستلمت السلطة. ولن تعود فنزويلا كما كانت سواء مع تشافيز أو من دونه.

بالنسبة إلى بعض الأنصار، لا يهمّ إن كانت برامج تشافيز قد حققت نجاحاً فورياً. فتشافيز هو رئيسهم، وهو أول رئيس يمثلهم بحقّ. علّق الناس صوراً له على جدران منازلهم بالقرب من صور محبيهم. ووضعت السيدات ملصقات له فوق أسرّتهنّ. وهبّ الرجال للدفاع عنه حتى الموت. يقول خوليو سيزار، وهو أحد ساكني

الأحياء الفقيرة بكاراكاس: «أفضّل أن أجوع مع تشافيز على أن تعود المعارضة». لقد بُترت كلتا رجليه بعد أن تعرّض لإطلاق نار في أثناء عملية سرقة، لكن عندما زار تشافيز الحي الذي يقيم فيه وسمع قصته، أمر الرئيس بتزويده بأطراف صناعية. ويضيف سيزار: «تشافيز هو الرئيس الوحيد الذي قدِم إلى هنا لزيارة الحيّ. إنه يحبّ الناس».

بالنسبة إلى أنصار تشافيز، كانت الشكاوى من حكومته مدفوعة بحقيقة أساسية واحدة وهي أن الفقراء وصلوا إلى السلطة في فنزويلا للمرّة الأولى في تاريخ البلاد، وأن النخب الثرية التي تعيش في منازل فخمة مزودة ببوابات وتملك منازل أخرى في منهاتن أو في باريس لم يرق لها هذا الأمر. يقول العالم السياسي لاندر، الذي تلقّى تعليمه في جامعة هارفارد: «بالنسبة إلى الشرائح الثرية في البلاد، المشكلة ليست في أنه يوجد فقر، لكن المشكلة في أن الفقراء ينظمون صفوفهم ويعبئونها. وهذا ما يزيد من تهديد الطبقات الخطيرة. فالطبقات الخطيرة تتحول إلى تهديد إذا عبّأت صفوفها، وإذا تحرّكت، وإذا طالبت».

يشبّه لاندر هذا الوضع بحفلة يقيمها بعض أبناء المجتمع الراقي من «الأشخاص بيض البشرة، والأشخاص المهذبين، والأشخاص الذين يعرفون كيفية التحدث بطريقة لبقة، والذين يعرفون كيف يمسكون بأكواب الكريستال لاحتساء الشراب. وفجأة، يقتحم الحفلةَ أشخاص لا يعرفون شيئاً عن التصرّفات اللبقة، والذين يرتدون ثياباً متواضعة والذين لم يستحمّوا قبل مجيئهم لدرجة أن تفوح منهم رائحة كريهة. يمسكون بأطباق الطعام ويتناولون ما فيها بأيديهم. هناك إحساس بأنهم استولوا على البلاد».

ولّدت مهمة - أو مهمات - تشافيز اهتماماً متزايداً لدى شعب فنزويلا، فتحولت السياحة الثورية إلى تجارة مزدهرة، حيث تدفق الأكاديميون والناشطون والقادة المدافعون عن الحقوق المدنية والعمال في الكنائس وزعماء النقابات إلى البلاد. فالبلاد تحولت إلى قبلة لليسار. وكان القادمون الجدد هم التجسيد الأخير للناشطين الذين زاروا كوبا في الستينيات أو السبعينيات من القرن الماضي أو الذين زاروا نيكاراغوا والسلفادور في الثمانينيات. شكك العديد من الناس بروايات وسائل الإعلام المهيمنة عن الثورة البوليفارية ولذلك أرادوا أن يروا الحقيقة بأمّ العين.

عندما زاروا الأحياء، وجدوا الأجواء مفعمة بالنشاط. وجدوا النساء والرجال الطاعنين في السنّ وهم في العقد السابع يتعلمون قراءة كلماتهم الأولى. قال أحد الطلاب الأستراليين لصحيفة ذي نيويورك تايمز: «تستحوذ عليك فكرة أن بلداً وقائداً يحاولان توفير بديل لليبرالية الجديدة وللسياسات التي خرّبت أميركا اللاتينية على مدى عشرين عاماً. ولهذا السبب يأتي الناس إلى هنا. هناك حسّ بأن تلك الزيارة تشكّل إحدى لحظات التاريخ». وقال زائر آخر، وهو رئيس اتحاد نيويورك سيتي بريندا ستوكلي:

«يحاول الرئيس تشافيز أن يوفر لشعبه الفقير الرعاية الصحية والتعليم والوظائف ذات الأجـور المحترمـة. وكل مـن يعارضـ ذلـك إما أنه يدفن رأسه في الرمال أو لا يكنّ احتراماً للبشر الذين يعيشون في الفقر».

نظّمـت مجموعـات مثـل غلوبال إكستشاينج في سـان فرانسيسكو جولات سياحية إلـى فنزويـلا حيـث رأى الـزوار كل شيء من التعاونيات إلى المهمات الطبّية. وينكر المشككون هذه الوقائع ويجادلون بأن الزوار يحصلون على فكرة منحرفة عن فنزويلا لا تأخذ بعين الاعتبار الانتقادات التي يعبّر عنها خصوم تشافيز. ويربط عالم الاجتماع أماليـو بيلمونتـي بيـن السياح الإيديولوجيين «بالمختصين بعلم الإنسان في القرن التاسع عشـر الذيـن كانـوا يتجولـون في أنحـاء العالم بحثاً عن الثقافـات البدائية. ثم يعودون لحياتهـم المريحـة فـي العالم المتقدم ويكررون خطـاب تشافيز الثوري، لكن من غير أن يهتموا بمعرفة الجانب الآخر من القصة».

في الحقيقة، التقى العديد من جماعات السياح بقادة المعارضة فعلاً للاستماع إلى الجانـب الآخـر مـن القصـة. خرجوا بفهم أعمق لديناميات الثـورة البوليفارية من فهم العديد من المعارضة، الذين لم يسبق أن وطأت أقدامهم أحد هذه الأحياء.

كان في عداد هؤلاء الزوار تشيزا بودين، نجل كاثرين بودين وديفيد غيلبرت، وهما عضوان سابقان في جماعات ويذرمان الراديكالية التي ظهرت في السبعينيات من القرن الماضي. دخل تشيزا بودين لفترة وجيزة في قسم الشؤون الدولية في الحكومة الفنزويلية. وأكثر الزوار الأميركيين شهرة ممن أيدوا تشافيز كانوا القادة الأميركيين السـود، بمـن فيهـم جيسي جاكسون، والمغنّي هـاري بيلافونتي، والنجم ليثال ويبون وكولـور بوربـل، ودانـي غلوفر. وقال زائـر آخر، وهو الأستاذ الجامعي في جامعة برينستون البروفيسور كورنيل ويست، بأن الدافع إلى هذه الرحلات هو تجاوز وصف وسائل الإعلام المهيمنة لفنزويلا. قال ويست: «نحن في الولايات المتحدة نسمع الكثير من الأكاذيب عن الرئيس هوغو تشافيز وعن الثورة البوليفارية».

في إحدى الرحلات التي قام بتنظيمها جماعة من الأميركيين السود تدعى منتدى ما وراء أفريقيا، توقف بيلافونتي وغلوفر وغيرهما في المكان الذي دشنت فيه فنزويلا مدرستهـا البوليفاريـة الأولـى تكريمـاً لمارتن لوثر كينغ جي آر. تقع المدرسة في بلدة نايغوتا على الساحل الكاريبي والتي يغلب عليها السكان السود. كانت البلدة قد أصيبت بأضرار فادحة من جراء الفيضانات والانزلاقات الأرضية التي حدثت في العام 1999. أشـرف علـى الاحتفـال أريستوبولو إيستيوريز، وهـو أول فنزويلي من جذور أفريقية يخدم كوزير للتعليم. وفي خطاب مثير، أشار رئيس المنتدى بيل فليتشر إلى القواسم المشتركة بين الثورة البوليفارية التي أعلنها تشافيز نيابة عن الغالبية العظمى في فنزويلا وبين قيادة كينغ لحركة الحقوق المدنية في الستينيات:

> لم يكن الدكتور كينغ رجلاً يهتم بتغيير القوانين بشكل أساسي، بل كان همّه الأول العدالة الاجتماعية. كان رجلاً يشمئز من تعرّض مليارات من الناس للقمع على هذا الكوكب ويكره مصاصي الدماء الذين يمتصون الثروة لصالح عدد ضئيل من الناس. كان رجلاً يمقت الحرب وكان يملك الشجاعة للتعبير عن رأيه المعارض للحرب في فيتنام... وأي حركة تطرح هذا النوع من السياسة هي حركة منسجمة مع ميراث الدكتور كينغ.

في حين كان الفنزويليون من أبناء الطبقة العليا يكنّون كراهية شديدة لتشافيز، قلّة منهم سارت على دربه، إن لم تكن اعتنقته بالكلّية. فعندما اجتاحت 457 عائلة من أنصار تشافيز عقاراً تملكه إحدى أوسع العائلات ثراء في فنزويلا ومنزل صاحب أقدم شركة لتقطير الشراب في البلاد، لم يطلب المالك، ويدعى ألبيرتو فولمير، اعتقالهم ولا وظّف رجالاً مسلحين لطردهم. وبدلاً من ذلك، أبرم معهم صفقة. عرض عليهم بعض الأراضي لكي يبنوا منازل عليها إن هم وفّروا اليد العاملة واحترموا حرمة بقيّة أملاكه.

كان فولمير في الثلاثينيات من عمره وكان سليل إحدى أعرق العائلات في البلاد. ذهب والده ألبيرتو إلى المدرسة الإعدادية مع الرئيس بوش الأب وشغل مرة منصب سفير فنزويلا لدى الفاتيكان. وكانت والدته كرستين دي مارسيلوس، سيدة مرموقة في بالم بيتش وناشطة مناهضة للإجهاض في الدوائر الكاثوليكية الرفيعة. اشترت العائلة سانتا تيريزا روم في العام 1885. تأسست العزبة التي شُيد فيها المصنع في العام 1796. وبعد مرور قرنين على ذلك الزمان، أي في العام 1996، وصل المصنع إلى شفير الإفلاس. عندئذٍ، التحق فولمير الشاب، وكان طالباً سابقاً في أكاديمية فالي فورج العسكرية التي تقع بالقرب من فيلادلفيا، بالعمل وساعد على إعادة تنشيط هذا المصنع.

تعرضت العائلات في شباط 2000 إلى عملية اجتياح، غير أن ردّ فولمير تحول إلى نموذج للتعاون بين النخب الثرية في فنزويلا والجماهير الفقيرة. بنت العائلة مئة منزل على أرض تبلغ مساحتها ستين فداناً في مشروع حاز على اعتراف الخبراء في حل الصراعات في جامعة هارفارد فضلاً عن مؤسسات أخرى. كما دعمت الحكومةُ المشروع فشقّت الطرقات وبنت البنية التحتية للخدمات العامة بما في ذلك مدّ خطوط الكهرباء والهاتف. واشتُرط على العائلات أن تدفع رهوناً إلى وكالة الإسكان الحكومية.

لم يتوقف المشروع عند هذا الحد. فعندما بدأت عصابات الشوارع في الأحياء الحقيرة المجاورة بإزعاج عمال الشركة، وبعد اعتقال اثنين منهم بسبب سرقتهما سلاحاً

من أحد الحراس، أبرم فولمير صفقة أخرى. عرض على أفراد العصابة عدم رفع دعوى قضائية في حال وفروا اليد العاملة على مدى ثلاثة شهور في العقار، في مقابل الحصول على حصص أسبوعية من الطعام. وافق أفراد العصابة على ذلك. وفي نهاية المطاف، تطور البرنامج بحيث بات يضمّ خمسة وسبعين شاباً من ثلاث عصابات متنافسة. وبعد انقضاء شهور العمل الثلاثة، حصل أفراد العصابات على مشورة مدرسية ونفسية. كما ساعدهم فولمير على العثور على وظائف في المؤسسات التجارية المحلية. وأطلق على البرنامج اسم ألكتراز على اسم سجن يقع خارج فرانسيسكو. وفي نهاية المطاف، أرسل أحد أفراد العصابات الذين تم تأهيلهم جواً على مقاعد الدرجة الأولى إلى سراييفو لحضور مؤتمر نظمه البنك الدولي حول البرامج الاجتماعية.

لم يغب عن تشافيز أهمية الإشارة إلى برنامج فولمير في خطاباته ووصفَه بأنه نموذج لما يمكن أن تكون عليه فنزويلا. حتى إن فولمير، الذي لم يصوّت أبداً لصالح تشافيز، ظهر على شاشات التلفزيون إلى جانب تشافيز، مما دفع العشرات من الأشخاص الذين اعتبروه خائناً للطبقة إلى إرسال رسائل إلكترونية غاضبة إليه. حتى إن بعض الزبائن تعهدوا بعدم شراء منتجاته أبداً. لكن بالنسبة إلى سكان المشروع، كان نعمة كباقي مهمات تشافيز التي تعمل على تغيير حياتهم. قال أحد السكان: «لو كان ربع الأشخاص الأغنياء مثل ألبيرتو لكنا نعيش في بلد مختلف».

الفصل الخامس والعشرون

الاستفتاء

فيما كانت مهمات تشافيز تترسخ وشعبيتها تزداد قوة، بدأت خيارات المعارضة التي تريد إسقاطه بالنفاد. فالإضرابات فشلت في إسقاطه، كما أن انقلاب العام 2002 لم ينجح في ذلك أيضاً. صحيح أن إضراب عمال النفط في الفترة الممتدة بين كانون الأول 2002 وشباط 2003 دمّر الاقتصاد، لكن تشافيز بقي في ميرافلوريس، بعد أن أصبحت المعارضة أقل شأناً مما كانت عليه بعد إلغائها احتفالات عيد الميلاد وقضائها على آلاف من المؤسسات المهنية.

ما إن انتهى إضراب عمال النفط حتى استخدمت المعارضة أسلوباً جديداً لإخراج تشافيز من السلطة. احتوى دستور العام 1999 الذي صاغته الجمعية الدستورية الموالية لتشافيز ووافق عليه الشعب بأغلبية ساحقة في كانون الأول 1999 على فقرة تعتبر فريدة في نصف الكرة الغربي وربما في العالم: فقد سمحت بإجراء استفتاء ملزم حول ما إذا كان ينبغي على الرئيس التنحّي من منصبه.

ومن أجل إجراء الاستفتاء، كان على المعارضة أن تجمع تواقيع 20 في المئة من المقترعين المسجَّلين، أي حوالى 2.4 مليون شخص. لكن لا يمكن الدعوة إلى إجراء استفتاء إلّا بعد انتصاف فترة الرئاسة التي تبلغ ست سنوات أي في 19 آب 2003. ومن أجل الفوز في الاستفتاء، كان على المعارضة الحصول على أصوات تزيد عن عدد الذين صوّتوا في الأصل لانتخاب الرئيس أي نحو من 3.8 ملايين صوت في هذه الحالة. كما يتعين بالطبع أن تكون الأصوات الداعية إلى استقالة الرئيس أكبر من الأصوات التي صوتت لصالح بقائه في الحكم. وفي حال فازت المعارضة في الاستفتاء، يصار إلى إجراء انتخابات جديدة في غضون ثلاثين يوماً لاختيار رئيس جديد. وفي حين أن القوانين لم تكن واضحة تماماً، بدا أنه باستطاعة تشافيز الترشح للرئاسة من جديد.

مع استمرار أجواء التوتر بين الحكومة والمعارضة، وقّع الطرفان على اتفاقية هامة في أيار 2003 تعهدا فيها بالتوصل إلى حل دستوري للأزمة. جاء هذا الميثاق ثمرة ستة شهور من المفاوضات المضنية بين الطرفين أشرف عليها مركز كارتر الذي يقع مقرّه في أتلانتا والذي يديره الرئيس الأميركي السابق جيمي كارتر، بالإضافة إلى عدد من الهيئات الأخرى. بدا المزاج باعثاً على التفاؤل. كانت المعارضة على ثقة بأنها تستطيع الفوز بسهولة في الاستفتاء. فاستطلاعات الرأي تشير إلى تقدمهم، حيث

تكهن أحد هذه الاستطلاعات، والتي أجراها معهد غرينبيرغ كوينلان روزنر للبحوث واستراتيجيات الرأي العام الذي يجري استطلاعات رأي لكل من الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري في الولايات المتحدة، بأنه بحلول نيسان، سيخسر تشافيز في الاستفتاء بهامش اثنين إلى واحد. وأفادت المقالات الإخبارية بشكل روتيني عن أن سياسات تشافيز، على حدّ تعبير أحدهم، قلبت أغلب الفنزويليين ضده.

لم يكن يوجد في فنزويلا منظمة للإشراف على إجراء الاستفتاء. وفي أواخر آب، كسرت المحكمة العليا حالة الجمود بين الحكومة والمعارضة بتسمية خمسة أعضاء للعمل في المجلس الانتخابي الوطني. رحّب الطرفان إلى جانب الولايات المتحدة بهذه التعيينات، قائلين بأن المجلس متوازن، عضوان تدعمهما المعارضة، وعضوان تدعمهما الحكومة. وترأس المجلس فرانسيسكو كراسكويرو، وهو أستاذ جامعي يميل إلى اليسار.

صدر القرار الأول عن المجلس ضدّ المعارضة، إذ إنه حكم بعدم صلاحية الالتماسات التي تسلّمها منها في آب، والتي أفيد بأنها تضم ثلاثة ملايين توقيع. وقال المجلس بأن هذه التواقيع جُمعت من دون أي إشراف رسمي منذ شباط 2003، أي قبل أن تنتصف فترة ولاية تشافيز. لكنّ المعارضة ادّعت بأن الحكومة تحاول إرجاء إجراء الاستفتاء وأنها تخوّف الناس من التوقيع على الالتماسات عبر نشرها لوائح بأسماء الموقّعين على الإنترنت وحرمانها إياهم من نيل وظائف حكومية، أو الحصول على جوازات سفر، أو بطاقات هوية وطنية، أو منح دراسية. وردّت الحكومة على هذه الادعاءات بأن الشركات الخاصة ترغم موظفيها على التوقيع أو الاستقالة من وظائفهم.

وفي النهاية، وافق قادة المعارضة على التقدم بالتماس جديد. وقد حدث ذلك في آخر عطلة نهاية الأسبوع في شهر تشرين الثاني. اصطفّ المواطنون في طوابير طويلة في المدارس والساحات والكنائس لتوقيع أسمائهم. وكان أنصار تشافيز قد أعدّوا لائحة جديدة قبل أسبوع من ذلك في محاولة لسحب أصوات أعضاء المعارضة الثمانية والثلاثين في الكونغرس. بدا أن هذه العملية بديلاً أفضل بكثير عن تدبير الانقلابات وتنظيم الإضرابات في قطاع النفط. وأعلن سيزار غافيريا المسرور، وهو الأمين العام لمنظمة الدول الأميركية، بأن فنزويلا «توصلت إلى طريقة ديمقراطية لحل المشكلة».

لدى الانتهاء من إعداد لوائح الدعوة إلى الاستفتاء التي استغرقت يومين، ادّعت المعارضة بأنها حصلت على عدد التواقيع المطلوب للدعوة إلى الاستفتاء. لكنها رفضت الإفصاح عن ذلك العدد على الفور. ثم انتظرت مدة ثلاثة أسابيع قبل أن تسلّم لوائحها. أثارت هذه الأعمال شكوك تشافيز وأنصاره، ووصفوا جهود المعارضة بأنها تزوير كبير، وعرض الرئيس عدة لوائح في تجمّع حاشد عُقد في 6 كانون الأول ادّعى فيه

بـأن اللوائـح تضمنـت أسماء أشخاص لم يسجّلوا أصواتهم كمقترعين، وتواقيع تكررت مرتيـن أو ثـلاث مـرات، أو أسمـاءً تعـود لموتى. كما اتهم جامعـي التواقيع بدخول المستشفيـات، ودور العجـزة، والمؤسسـات التي تعالج الأمراض العقلية والضغط على الناس لحملهم على التوقيع.

بعد إجراء مراجعة مكثفة، أعلن المجلس الانتخابي في أواخر شباط بأن المعارضة سلّمت نحواً من ثلاثة ملايين توقيع، وليس 3.8 ملايين توقيع كما زعمت سابقاً. وحكم بـأن هنـاك 1.83 مليـون توقيـع صحيح. ورفض المجلـس 375000 توقيع على الفور واصفاً إياها بأنها تواقيع مزورة. ووُضع 876000 توقيع آخر في دائرة الشك بسبب تشابـه خـط اليـد فـي اللوائـح. وقال المجلس بأنه يمكن القبول بهـذه التواقيع في حال تقـدم أصحابهـا وأكّـدوا علـى صحتها. كانـوا بحاجة إلى تأكيد صحة نحو من 530000 توقيع للدعوة إلى الاستفتاء.

انفجـر غضـب المعارضـة التـي اتهمت المجلس بالتلاعـب وبالوقوف إلى جانب تشافيـز. ونظمـت سلسلـة احتجاجـات فـي الشـوارع متبعة أسلوباً جديـداً تحت عنوان العصيـان المدنـي، وأطلقـوا علـى الحملة اسم عملية غواريمبـا. أمروا أنصارهم بإقامة الحواجز على الطرقات الرئيسية بالقرب من منازلهم أو في مواقع آمنة، ثم التراجع عندما تأتي قوات الشرطة أو السلطات الأخرى. وبعد أن تغادر القواتُ الساحةَ، يمكن للمحتجين النزول إلى الشوارع من جديد. الفكرة كانت في إحداث فوضى ومنع الناس مـن الذهـاب إلـى أعمالهم ومدارسهم والمتاجـر والمستشفيات. اعتقد روبرت ألونسو، شقيق الممثلة الفنزويلية ماريا كونشيتا ألونسو وصاحبة موقع إلكتروني أعلن عن زمان ومكان كل عملية لغواريمبا، بأن أعمال الشغب ستدفع القوات المسلحة إلى التدخل وأن تشافيز يمكن أن يسقط في غضون أيام.

سرعـان مـا أشعلـت العمليـة غواريمبا اشتباكات عنيفة مع قـوات الأمن. أحرق المحتجون الإطارات والمركبات والأكياس المليئة بالقمامة فيما تجمعوا في الشوارع، وبخاصـة فـي القسـم الشرقـي الثـري مـن كاراكاس. قـذف بعضهم الحجـارة وقنابل المولوتوف على الجنود، وحاول اختراق صفوف رجال الحرس الوطني الذين جرى استدعاؤهم ونشرهم في الشوارع للسيطرة على الحشود. أطلقَ بعض الجنود النار على المحتجيـن، فيمـا رفـض رؤسـاء البلديات المنتمون إلـى المعارضة في المناطق الثرية حيـث اندلعـت الاضطرابـات إرسال الشرطة لاستعادة الأمن. ودافع هنريكه كابريليس راونسكي، رئيس بلدية باروتا الذي فشل في السيطرة على المشاغبين الذين حاصروا السفارة الكوبية في أثناء المحاولة الانقلابية التي وقعت في نيسان 2002، عن حقوق المتظاهريـن المشاركيـن فـي عمليـة غواريمبـا. قـال بأنهم «لا يفعلون شيئـاً أكثر من ممارستهم لحقهم القانوني في الاعتراض».

جـرت المظاهـرات التـي امتـدت طـوال أيام الأسبوع في لحظـة حرجة، عندما

بـدأ قـادة مجموعـة الـدول الخمس عشرة المتقدمة بعقد قمّتهم في كاراكاس. وبناء على ذلك، حذّرت الحكومةُ المحتجين من مغبّة اقتحام مكان اللقاء في فندق هيلتون، على الرّغـم مـن أن بعضهـم حـاول ذلك. أدت أعمالُ الشغب إلى حمل المصارف الخاصة علـى إقفـال عشريـن فرعـاً، وإلى توقف عمليات جمـع القمامة، وإلى إغلاق محطات تعبئة الوقود، والتسبب في حالات ازدحام خانقة، وأعاقت حركة مركبات الإسعاف. وقـد ألحقـت هـذه الأعمـال في الأسبوع الأول خسائر في الشوارع بلغ مقدارها مليون دولار في كاراكاس وحدها.

اتهمت الجماعات المدافعة عن حقوق الإنسان، بما في ذلك منظمة العفو الدولية، قواتِ الأمن باستخدام القوة المفرطة في قمع الاحتجاجات، بما في ذلك التقارير التي تحدثـت عـن عمليـات تعذيب وضرب. واستناداً إلى المعارضة، جرى اعتقال أربعمئة شخصـ آخـر بطريقـة غيـر قانونية، وادّعـت بأنهم كانوا يمارسـون حقهم الذي يكفله الدستور بالاحتجاج. وانتهز المنتقدون هذه الاشتباكات لوصف تشافيز بأنه منتهك كبير لحقـوق الإنسـان يذكّـر بالحـكام الديكتاتوريين الدمويين في أميـركا اللاتينية. واستقال سفيـر فنزويـلا لـدى الأمـم المتحـدة، ميلوس ألكلاي، قائلاً بـأن عمليات القمع شديدة الشبـه بالطـرق التـي اتّبعتها أنظمة الحكـم الديكتاتورية العسكرية اليمينية في السبعينيات من القرن الماضي.

لكـن عمليـة غواريمبـا لـم تكن في نظر الحكومـة سوى محاولة أخرى على نمط محاولات وكالة الاستخبارات المركزية لإسقاط تشافيز عبر القيام بأعمال عنف وفوضى في الشوارع، مما يدفع السلطات إلى الردّ، وهو ما سيغري الجيش بالتدخل لإسقاط الرئيس «الذي ينتهك حقوق الإنسان».

اتهمت المعارضةُ تشافيز بأنه يسعى إلى إعاقة الدعوة إلى إجراء الاستفتاء. كما ادعت بأن المجلس الانتخابي الوطني، التي كانت قد امتدحه بوصفه أنه متوازن، بات الآن تحـت سيطرتـه. وجادلـت بأن الانتهـاكات الإجرائية، إن وقعت، كانت ثانوية. وأشارت الوكالات الإخبارية الفنزويلية والدولية إلى أن المجلس رفض مئات الآلاف من التواقيع بسبب وجود أخطاء تقنية.

لكـن الأمـر الـذي حمـل المجلس على رفض التواقيع كان أكثر من مجرّد أخطاء تقنيـة. فقـد وضـع المجلـس الانتخابـي ونشر قواعد معينة تحكم عمليـة جمع التواقيع. تضمنت هذه القواعد شرطاً يوجب على الموقّعين كافّة عدا ذوي الحاجات الخاصة ملء استمـارة بمعلومـات تتضمـن اسـم الموقّع ورقم بطاقة هويته الوطنية بنفسه. لكن عندما تسلّـم المجلـس اللوائـح، تبيـن له أن عشـرة آلاف استمارة ملئت بخط اليد نفسه. حتى إن بعضـ التواقيـع بـدت متشابهـة. ومن جانبها، أقرّت المعارضة بأن المتطوعين في بعض الأكشاك ملأوا الاستمارات بأنفسهم، لكنها أصرّت على أن التواقيع شرعية.

في النهاية، لم يرفض المجلس الانتخابي التواقيع المشكوك في صحتها برمّتها، بل عرض حلاً وسطاً. وبموجب هذا الحل، يمكن للمواطنين خلال فترة تأكيد تمتدّ لخمسة أيام التأكيد على أنهم هم من وقّعوا على القائمة.

شكك أنصار تشافيز في الجهود المبذولة لإجراء الاستفتاء، ويعود ذلك جزئياً إلى الجهة التي كانت تديره: مجموعة سومايت التي تموّلها مؤسسة NED (المنحة الوطنية من أجل الديمقراطية). ففي مستهل العام 2004، تزايدت الأدلة التي تشير إلى بروز تدخل NED في شؤون فنزويلا بعد طلبات تطبيق مرسوم حرّية المعلومات التي تقدم بها اثنان من مواطني أميركا الشمالية، إيفا غولينغز وجيرمي بيغ وود، والتي نتج عنها نشر آلاف الصفحات من الوثائق الداخلية التي تفصّل النشاطات التي تقوم بها المنظمة. وتبين أن معظم عمليات التمويل التي تقوم بها هذه المنظمة والتي يصل حجمها إلى مليون دولار تقريباً تخصص لجماعات المعارضة، بما في ذلك بعض القادة الذين وقّعوا على مرسوم كارمونا الذي مسح الديمقراطية في أثناء انقلاب نيسان 2002 أو زاروا القصر في ذلك اليوم. من بين هؤلاء كانت ماريا كورينا ماشادو، وهي مؤسسة سومايت ورئيستها. أصرّت ماشادو، المرأة الجذّابة والأنيقة والتي تتحدث الإنكليزية بطلاقة وابنة إحدى أوسع العائلات ثراء في فنزويلا، على أن سومايت منظمة مستقلة داعمة للديمقراطية كرست جهودها لتثقيف المقترعين.

مع انطلاق عجلة جهود الاستفتاء، شنّت الحكومة هجوماً معاكساً، ففتح المدّعون تحقيقاً في أعمال ماشادو وشريكها في رئاسة سومايت المدعو أليخاندرو بلاز ووجهوا إليهما تهمة التآمر من أجل ارتكاب الخيانة. وفي حال أدينا، فسوف يواجهان حكماً بالسجن يمكن أن يصل إلى ست عشرة سنة.

أطلق التحقيق عاصفة من الاحتجاجات الدولية. وصوّر المدافعون عن ماشادو بأن رئيسة سومايت ناشطة شجاعة ومؤيدة للديمقراطية تحارب أشراراً في حكومة ديكتاتورية تسحق أقل مظهر من مظاهر المعارضة. وكتب محرر في الواشنطن بوست: «إنها معركة بطولية. ماريا كورينا ماشادو تبتسم بشجاعة لكنها تعترف بأنها مذعورة. تقول إنهم يلاحقونها، وهي تعني بذلك ماكينة الدولة». وسلّط مواسيس نعيم، المحرر في مجلة فورين بوليسي وأحد أبناء الطبقة المثقفة التي دعمت رزمة الصدمة الاقتصادية لكارلوس أندرياس بيريز في العام 1989، على النشاطات التي تقوم بها ماشادو أنواراً دينية فقال: «هذا عمل الله». وفي تشرين الثاني 2004 وقّع أكثر من سبعين شخصية هامة على رسالة حظيت بتأييد NED وتصف محاكمة ماشادو وآخرين بأنها خطر عظيم يهدد الديمقراطية. كان من بين الموقعين وزيرة الخارجية الأميركية السابقة مادلين أولبرايت والسيناتور جون ماكاين الذي انضمّ إلى NED.

بالكاد كان يرى تشافيز وأنصاره ماشادو مدافعة بريئة عن الحرّية تناضل من أجل إنقاذ الديمقراطية الفنزويلية. وبدلاً من ذلك، رأوا فيها أداة في يد الولايات

المتحـدة وفـي حملتهـا الهادفـة إلى إزاحته عن السلطة. وافقت NED على منح 53400 دولار لمنظمتها. لم يشكك تشافيز وأنصاره في حق سومايت بتنظيم دعوة إلى إجراء استفتـاء، لكنهـم شككـوا فـي حقهـا في الحصول على أموال من حكومة أجنبية من أجل الدعوة إلى إجراء استفتاء. وعبّروا عن المسألة بالطريقة التالية: ماذا سيكون رد فعل الولايات المتحدة لو أن حكومة أجنبية ساعدت على تمويل حملة لإخراج الرئيس بوش من البيت الأبيض؟ هل سيكون ذلك عملاً شرعياً؟.

عمـل تمويـل NED فـي مصلحـة تشافيز الذي وصف الحملة الداعية إلى الاستفتاء بأنها مكيدة من تدبير بوش والإدارة الأميركية بهدف الإطاحة به. كان داوود يحاول صدّ هجوم آخر يشنّه جالوت غير اللاتيني. ففي تجمّع حاشد عُقد في 29 شباط، رفع المنظمـون صـورة ضخمـة لسمكـة بيرانا تمثل الولايات المتحـدة، وفي جوارها سمكة صغيرة تمثل فنزويلا.

استمرّت المشادّات بين تشافيز والمعارضة عدة أسابيع إضافية إلى آخر شهر أيار عندمـا أنهـت المعارضـة أخيراً فترة التأكيد لتأكيـد صحة التواقيع المشكوك فيها. وبناء على ذلك، حكم المجلس الانتخابي الوطني بأنه تم الحصول على ما يكفي - بالكاد - من التواقيع لإجراء الاستفتاء. شعرت المعارضة بفرحة غامرة، فقد كانت مقتنعة بأن نتائج الاستفتـاء ستكـون محسومـة لصالحهـا سلفـاً. وكان تشافيز واثقاً من فوزه بالمثل، ففي حزيـران، توقّـع الحصـول على خمسة ملايين صوت والخروج من الاستفتاء منتصراً بكل سهولة.

سـرى اعتقـاد شائـع بيـن المحللين والدبلوماسيين ووسائل الإعـلام الرئيسية بأن تشافيـز واقـع فـي مشكلـة خطيـرة وبأنه سيخسر على الأرجـح، أو أنه سيفوز بهامش ضئيـل علـى أبعـد تقديـر. وقبـل أسبـوع واحد فقط من التصويت فـي 15 آب، تكهن خبيـران رائـدان فـي استطلاعات الرأي هما لويس فيسينته ليون وألفريدو كيلر، وكانا أيضاً من منتقدي تشافيز، بأن نتيجة الاستفتاء ستكون متعادلة. وأشارت ذي واشنطن بوست إلى أن شعبية تشافيز قد تراجعت بشكل واضح منذ انتخابه للمرة الأولى.

إلـى جانـب الناقديـن التقليدييـن الذين يتهمون تشافيز بإدارة حكومة استبدادية ولا تتمتـع بالكفـاءة وتقمـع حرّيـة الـرأي وتسير على الدرب الذي تسيـر عليه كوبا بقيادة كاسترو، تعرّض تشافيز للهجوم على جبهات أخرى. فقد أقرّت الجمعية الوطنية قانوناً جديداً في حزيران يسمح بزيادة عضوية المحكمة العليا من عشرين عضواً إلى ثلاثين عضواً ويلغي تعيينات القضاة الحاليين. واتهمت هيومان رايتس واتش وجماعاتٌ أخرى تشافيـز بتهيئـة المحكمـة للمساعـدة على تحديد نتيجـة الاستفتاء في حال برزت نزاعات حول النتائج.

كان لـدى تشافيـز سبـب لكي يحتاط من المحكمة. فقد جرى تعيين بعض القضاة

بمساعدة مرشده السياسي السابق لويس ميكويلينا الذي انقلب ضدّه وتبنّى علناً موقفاً معادياً للحكومة بعد أن دبّ الشقاق بين الرجلين في مستهل العام 2002. كما أنه بعد انقلاب نيسان 2002، أخلت المحكمة سبيل المشتبه بهم كافة وأعلنت بأنه لم يقع انقلاب.

في حين أنه لا يمكن لأحد المجادلة بأن تشافيز هو الرئيس المنتخب شرعياً لفنزويلا، شدد بعض النقاد على أنه ديمقراطي مزور، كما يشير عنوان مقالة لبيرنارد أرونسون نُشرت على صدر الصفحة الأولى لصحيفة ذي نيويورك تايمز. أصبح أرونسون، وهو مساعد وزير الخارجية السابق لشؤون الدول الواقعة في القارتين الأميركيتين، الآن منشغلاً في استثمارات فنزويلية. فقبل يوم من إجراء الاستفتاء، كتب بأن تشافيز «يمثل صنفاً جديداً من الحكام المستبدين اللاتينيين، إنه قائد منتخب بطريقة شرعية لكنه عمد إلى استخدام منصبه في تقويض إجراءات المساءلة والتدقيق الديمقراطية وفي زرع الرعب في نفوس المعارضين السياسيين». وأشار إلى تهيئته للمحكمة العليا في القضية المرفوعة ضد ماريا كورينا ماشادو رئيسة سومايت، وإلى احتجاز رئيس البلدية هنريكه كابريليس راونسكي في أيار والذي وُضع في السجن بعد عملية غواريمبا في إطار التحقيق في أعمال الشغب التي وقعت في محيط السفارة الكوبية في أثناء المحاولة الانقلابية في العام 2002. قال أرونسون بأنه محتَجَز «بناء على تهمة ملفقة بوضوح بأنه حرّض على القيام بأعمال شغب». لكن السفير الكوبي لم يوافق على ذلك، فهو بقي محتَجَزاً داخل السفارة طوال ذلك النهار وليله ومعه الموظفون في السفارة وأطفالهم، من دون طعم أو ماء، بعد قطع التيار الكهربائي عنهم. وكان في الخارج جمع غاضب فشل رئيس البلدية وشرطته في تفريقه.

كانت مقالة أرونسون شبيهة بمقالة افتتاحية أخرى نشرتها التايمز قبل سنة من ذلك التاريخ وكتبها نعيم، وزير التجارة والصناعة الأسبق في حكومة كارلوس أندرياس بيريز، تحت عنوان هوغو تشافيز وحدود الديمقراطية: كيف أدت انتخابات حرّة إلى الاستبداد في فنزويلا. وبعد أن استشهد نعيم باستطلاعات الرأي سيئة الذكر في فنزويلا، ادّعى بأن اثنين من بين كل ثلاثة فنزويليين يعيشون تحت مستوى الفقر يعارضان تشافيز. وأكّد نعيم على أنه بالجمع بين هذه الادعاءات والمشاعر العارمة المعادية لتشافيز في أوساط الطبقتين الوسطى والعليا، يُستنتَج بأن الغالبية العظمى من الفنزويليين يعارضون الرئيس. وكل ما تحتاج إليه المعارضة هو انتخابات لطرد المستبدّ من الحكم.

جادل أرونسون في التايمز بأنه «يلزم وضع أجندة جديدة توفر حركية متزايدة وقوة سياسية للفقراء في نصف الكرة الجنوبي. وهذا لن يتطلب تعميق الإصلاحات الاقتصادية الهيكلية والانضباط المالي وحسب، بل ويتطلب تركيزاً جديداً على منح الفقراء صكوكاً بالأراضي التي يعيشون عليها، وقروضاً لإنشاء مؤسسات تجارية

صغيرة، وتسهيل انتقال المؤسسات الصغيرة من الاقتصاد غير الرسمي إلى الاقتصاد الرسمي، واتخاذ إجراءات صارمة ضدّ التهرّب من الضرائب وضدّ الفساد السياسي، ووقف دعم التعليم العالي على حساب التعليم الابتدائي والثانوي».

لكن في ما عدا الاستثناء الأهم لفشل تشافيز في القضاء على الفساد الوبائي، يشرح العديد من الخطوات التي عرضها أرونسون ما كان يقوم به تشافيز بالضبط. فبرامجه التعليميـة والإصـلاح الزراعـي مثالان رئيسيان على ذلك. والإجراءات الصارمة التي ينبغـي أن تُتخـذ فـي حـق المتهرّبيـن من دفع الضرائب بما فـي ذلك الشركات متعددة الجنسيات مثل كوكاكولا وماكدونالدز وتشيفرون كانت ستزيد عما قريب.

فـي حيـن أن أكثـر وسائـل الإعلام قللت من أهمية ما يقوم به تشافيز أو سخرت منه، كان تشافيز يعمل على إعادة توجيه المبالغ الضخمة من الثروة النفطية لفنزويلا نحـو الشرائـح الأكثـر فقـراً في البلاد. وقدّر وزير التعليـم أريستوبولو إيستيوريز بأن الحكومـة تنفـق 4.5 مليـار دولار أو 20 فـي المئـة مـن ميزانيتها علـى التعليم. وهذا يساوي 6.1 من الناتج المحلي الإجمالي لفنزويلا، أي حوالى ضعف النسبة التي كانت في السنة الفائتة. ومن ناحية أخرى، كانت شركة بيتروليوس دي فنزويلا تضخ 1.7 مليـار دولار مـن ميزانيـة الرسملـة البالغة 5 مليار دولار في البرامج الاجتماعية التي تنفذها الحكومة مثل المهمة روبنسون. وهذا يتضمن مبلغ 600 مليون دولار أنفق على التعليم وعلى برامج الرعاية الصحية، ومبلغ 500 مليون دولار أنفق على بناء المساكن، وشقّ الطرقات، وما إلى ذلك من مشاريع البنية التحتية. وفي حين أن معظم وسائل الإعـلام والنخـب مثـل نعيم وأرونسون ركّـزت على شكاوى المعارضة، كانت ثورة المواطنيـن العاديين - بصـرف النظـر عن العيوب التـي شابتها - تندلع في الأحياء وفي المناطق الريفية. غير أن فقاعة المعارضة حالت دون تمكنهم من رؤيتها.

عمـد تشافيـز إلـى تحويـل الشعبية واسعة الانتشار لمهماتـه الاجتماعية إلى حملته الهادفـة إلـى الفـوز فـي الاستفتاء. وفي معرض ولعه بالتسميات التاريخية، أطلق على حملتـه المعارضـة للاستفتـاء اسـم معركة سانتا آنيس. كان ذلك الموقع الذي دارت فيه رحى معركة شهيرة في القرن التاسع عشر وانتصر فيها إزيكويل زامورا في باريناس، عندمـا أغـرى الإسبـان الغافليـن للوقوع في كمين. قام تشافيـز بإدارة حملة معارضة الاستفتـاء بنفسـه، فعيّـن فريقاً جديـداً لإدارة الجهد الانتخابي. وأطلق على الفريق اسم كوماندو ميزانتا على اسم والد جدّه. غلب على الفريق، الذي ضم زمرة من الكوادر السياسيـة، الفنّانـون والأكاديميون والناشطـون الاجتماعيون ممن كانت لديهم مشاركة محـدودة فـي السياسـة. وبمـا أنه لم يكن لهـم ماضٍ ملطّخ، فقد أضفوا الهيبة والحيوية على الحملة.

بعـد أن أصبحـت رئاسـة تشافيـز علـى المحك، توصل هو وأنصـاره إلى فكرة

مبتكرة. وبموجب هذه الفكرة، نظّموا وحدات معارك انتخابية صغيرة داخل الأحياء. تألفت كل وحدة من عشرة أشخاص على الأكثر تولّوا مهمة إقناع عشرة أشخاص آخرين بالتصويت ضدّ الاستفتاء والتأكد من إدلائهم بأصواتهم في صناديق الاقتراع. ثم تعمد كل وحدة بعد ذلك إلى تأمين مئة صوت. وبدلاً من العمل باستخدام لوائح انتخابية معدّة، نظّم العديد من وحدات المعركة الانتخابية أنفسهم تبعاً للشوارع أو المباني. وركّز آخرون على الأحياء التي يعيشون فيها وكذلك على الأماكن التي يعملون فيها. أثبتت هذه الوحدات أنها أداة انتخابية فاعلة، حيث يقدّر بأن 1.2 مليون شخص، أو 4 في المئة من السكان، انضمّوا إلى هذه الوحدات. كان العديد من أفراد هذه الوحدات ناشطين في الحركات الاجتماعية القديمة، أو أعضاءً في لجان الإصلاح الزراعي أو الصحي التي انتشرت في الأحياء في غمرة الثورة البوليفارية. لكن بالنسبة إلى أغلبية المشاركين، كانت تلك تجربتهم الأولى في النشاط السياسي. طلب منهم تشافيز الذهاب إلى صناديق الاقتراع في وقت مبكر.

أطاعت تلك الوحدات تشافيز. ففي يوم السبت الواقع في 15 آب، استيقظ مئات الآلاف من سكّان الأحياء الحقيرة على أصوات المفرقعات النارية والدعوات التي وُجهت عبر مكبرات الصوت. كان أفراد وحدات المعركة الانتخابية يستدعون أنصارهم إلى المشاركة. كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل، علماً بأن صناديق الاقتراع كانت ستُفتح عند الساعة السادسة. وفي القطاع الشرقي الثري من كاراكاس وفي جيوب التأثير الأخرى، كان السكان متحمسين بالمثل. فقد سنحت لهم الفرصة أخيراً للتصويت، كانوا فرحين ومقتنعين بأن الكابوس الوطني بات على وشك أن ينتهي.

جاءت نسبة المشاركين في الاقتراع مذهلة، فقد اصطفّ آلاف من الأشخاص قبل ساعة من موعد فتح صناديق الاقتراع. ومع تواصل العملية الانتخابية، امتدت تلك الصفوف مسافة عدة مبانٍ في محيط مراكز الاقتراع؛ مسافة ربما وصلت إلى 2 كيلومتر. انتظر الناس بصبر تحت أشعة الشمس الحارقة. وكانت مدة الانتظار في المتوسط تبلغ سبع ساعات. وسارت عملية الاقتراع بأجواء سلمية ونظامية في الغالب.

فوجئ المراقبون الدوليون الذين سبق أن أشرفوا على عمليات انتخابية في مختلف أنحاء العالم. فلم يسبق لهم أن رأوا مشهداً كهذا. وقال جيمي كارتر بأنها أعلى نسبة مشاركة شهدها في العشرات من العمليات الانتخابية التي أشرف عليها، من نيجيريا إلى إندونيسيا وإلى موزمبيق. تحوّل الاستفتاء إلى احتفال مدهش وجميل للديمقراطية. كان الناس يعبّرون عن آرائهم. وعندما ذهب تشافيز للإدلاء بصوته في حي 23 دي أنيرو الفقير في أحد المباني الشاهقة، علّق بالقول «إلى كل من يقول بأن الديكتاتور تشافيز لن يوافق على التصويت... حسناً، هذا هو البرهان». وحظي كارتر وفريقه بالترحاب والهتافات الحارّة في كل مكان حلّوا فيه.

بدا واضحاً في فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم أن الوقت المتبقي لن يكون كافياً لكـي يدلـي كلٌ مـن الواقفيـن في الصفـوف بأصواتهم. وبناء على ذلك، مدد المجلس الانتخابي فترة الإدلاء بالأصوات مدة ساعتين بحيث تنتهي عند الساعة الثامنة مساءً. لكن ذلك لم يكن كافياً أيضاً، فجرى تمديد فترة التصويت مجدداً، لغاية منتصف الليل. وحتـى فـي ذلـك الوقـت المتأخـر، كان الناس لا يزالون يدلـون بأصواتهم. حتى إن التصويـت استمـرّ فـي بعضـ الأحياء لغاية الساعة الثالثة بعـد منتصف الليل، وبخاصة في المناطق الفقيرة. اِستمرّ الماراتون الانتخابي إحدى وعشرين ساعة. وفي النهاية، ذهـب نحـو مـن عشـرة ملايين مقترع من أصل أربعة عشر مليون مقترع مسجَّل إلى صناديق الاقتراع. وكان ذلك بمثابة رقم قياسي في فنزويلا.

بحلول الساعة الرابعة فجراً، أصبحت السلطات جاهزة لنشر أولى النتائج الرسمية. وعندما ظهر فرانسيسكو كراسكويرو، رئيس المجلس الانتخابي الوطني، على شاشات التلفزيون للإعلان عن النتائج، كان معظم أفراد الأمّة مستيقظين ويراقبون بانتباه. كل من الطرفين كان على قناعة بأنه سيفوز. تجمّع أنصار تشافيز خارج قصر ميرافلوريس فيمـا تجمّـع قـادة المعارضة في الشطر الشرقي الغني من كاراكاس. كانوا غير مهيئين تمامـاً لمـا كان كراسكويـرو علـى وشـك أن يعلن عنه. ويعود سبب ذلك إلى محطات التلفزيون.

أمضـت شبـكات التلفزيـون الرئيسية في البـلاد، التي يسيطر عليها عمالقة وسائل الإعلام الذين يعارضون تشافيز، اليوم بأكمله في إظهار الصفوف الطويلة من الناس الذيـن ينتظـرون أدوارهـم للتصويت في الأحياء المعارضـة لتشافيز مثل ألتاميرا. ولم تتكبّـد مشقـة الذهـاب إلى الأحياء الأكثر عدداً والتـي يسكنها أصحاب المداخيل المتدنّية حيث كانت الصفوف مشابهة على الأقل لصفوف الناس في الأحياء الثرية وحيث كانت مشاعر التأييد لتشافيز قوية جداً. وبذلك تكون شبكات التلفزيون التي لعبت دوراً رائداً في انقلاب العام 2002 وفي الإضرابات الاقتصادية قد ولّدت انطباعاً خاطئاً بأن القوى المعارضة لتشافيز ستحقق نصراً ساحقاً في الاستفتاء. كان تشويههم للحقائق كبيراً لدرجة أن ناقداً بارزاً لتشافيز، ويدعى تيودورو بيتكوف، والمحرر في صحيفة يومية اتصل بصاحب إحدى محطات التلفزيون لحثه على إرسال الكاميرات إلى الأحياء الحقيرة من أجـل نقـل صـورة أكثـر دقـة وتوازناً لما كان يجري. واستنـاداً إلى بيتكوف، رفض صاحب المحطة الامتثال لرغبته.

هـذه التغطيـة التلفزيونية المشوّهـة، واستطلاعات الرأي التي أفادت عنها وسائل الإعلام والتي أظهرت تقارباً في النتائج، والقناعة المسبقة لدى المعارضة بأنها تتحدث باسم الأغلبية في البلاد جعلت إعلان كراسكويرو عند الساعة الرابعة فجراً أكثر إثارة للصدمـة ولا يمكـن أن يصـدَّق فـي نظر معارضـي الرئيس. أعلن بأن تشافيز فاز في الاستفتاء بأغلبية كبيرة. كان هامش انتصاره ساحقاً؛ 58 في المئة مقابل 42 في المئة

كما قال كراسكويرو. ومع صدور مزيد من النتائج لاحقاً، ازداد هامش انتصار تشافيز فوصـل إلـى 59 مقابـل 41 فـي المئة. حتى إن النتائج تجاوزت هامش الانتصار الذي حققه تشافيز في العام 1998 عندما فاز بهامش 56 إلى 44 في المئة. وبذلك يكون قد تجاوز مستوى الخمسة ملايين صوت الذي تكهن في حزيران بأنه سيحصل عليه، حيث حصل على عدد قياسي من الأصوات بلغ 5.6 مليون صوت. ومن ناحية أخرى، جمعت المعارضـة 3.9 مليـون صـوت. وعلـى الرّغم من أن هذه النتيجة تعبّر عن خسارتها، غيـر أنهـا أشـارت إلـى أنـه لا يزال لها تأثير كبير. فهنـاك أربعة من بين كل عشرة فنزويليين يعارضون تشافيز.

أطلق إعلان كراسكويرو وابلاً من المفرقعات النارية في الأحياء المؤيدة لتشافيز وهـو مـا أحـدث صدمـة في المدينـة. وبعد مرور ساعة على الإعلان ومع دنوّ طلوع الصبـاح، توجّـه الرئيـس المبتسـم إلى الشرفة في الطابق الثاني من قصر ميرافلوريس للترحيـب بحشـود المناصريـن المبتهجـة. لقـد انتصر من جديد. فإلـى جانب انتخابات الكونغرس والانتخابات الرئاسية، كان هذا انتصاره الثامن على التوالي منذ العام 1998 عندمـا فـاز بالرئاسـة. كمـا أنها كانت الهزيمة الكبـرى الثالثة التي تُمنى بها المعارضة فـي غضـون سنتيـن، بعـد إخفاق المحاولة الانقلابية في نيسـان 2002 وفشل إضراب قطاع النفط. قال تشافيز للحشود المنتشية بأن النجاح في الاستفتاء يوازي القيام بدورة صاروخيـة تنطلـق مـن كاراكاس وتبحر نحو كوبا وتحط علـى أرض البيت الأبيض الذي يشغله الرئيس جورج دبليو بوش. قال تشافيز: «لقد تغيرت فنزويلا إلى الأبد. وليس هنـاك رجعـة إلـى الوراء. والبلاد لن تعود إلى حالـة الديمقراطية الزائفة التي كانـت سائـدة فـي الماضـي عندما حكمتها النخب». وأضاف: «هـذا انتصار للمعارضة لأنها هزمت العنف، والمؤامرات الانقلابية والفاشية. وأنا آمل بأن تقبل بهذه النتيجة على أنها انتصار لا هزيمة».

لكنّ المعارضة لم تكن في وارد القبول بالنتائج بسهولة. فبعد مضي ساعة على إعـلان كراسكويـرو، ظهـرت على شاشات التلفزيون وادّعت حدوث عمليات تزوير. استندت المعارضة في ادعاءاتها بدرجة كبيرة إلى استطلاع آراء المقترعين بعد إدلائهم بأصواتهم والذي أجرته مؤسسة بين شوين أند بيرلاند التي توجد مقراتها في نيويورك. أظهـر ذلـك الاستطـلاع أن تشافيـز يخسر بهامش الانتصار نفسـه الذي أعلن المجلس الانتخابـي بـأن تشافيـز نجـح في تحقيقه. وفي خرق لقانون يحظر نشر نتائج استطلاع آراء المقترعيـن بعـد إدلائهـم بأصـواتهـم قبل أن تنتهـي عملية الاقتراع، بعثت مؤسسة بيـن شويـن أنـد بيرلانـد برسالة فاكس وبريد إلكتروني عنـد الساعة الثامنة صباحاً إلى وسائل الإعلام وإلى مكاتب المعارضة. جاء في العنوان: «تشير نتائج استطلاع آراء المقترعين بعد إدلائهم بأصواتهم إلى هزيمة كبيرة مُني بها تشافيز». وانتشر خبر هذا

الاستطـلاع فـي الساعـات الأولـى من بعد ظهر ذلك اليـوم بواسطة الهواتف الخلويّة، ممـا ساهـم فـي توليـد انطباع عارم بين أوساط المعارضة بأنها في طريقها إلى تحقيق انتصار ساحق ومحتوم.

إلـى جانـب انتهـاك القانـون الذي يحظـر نشر نتائج استطلاعـات الرأي فيما لا يـزال الناس يدلـون بأصواتهـم، عانـى المسح من مشكلة أخـرى، وهي أن المؤسسة التـي أجرتـه لـم تكن مؤلفة مـن مراقبين محايدين مدرّبين على استطلاع آراء الناس، وإنما كانت مؤلفة من متطوعين من مؤسسة سومايت، وهي الجماعة المعارضة لتشافيز التي ترأست الدعوة إلى إجراء الاستفتاء والتي تمولها مؤسسة NED. كما أن هذا النوع من الاستطلاعات لا يمكن الاعتماد عليه على الإطلاق - كما أثبت السباق الرئاسي في الولايات المتحدة في العام 2000 - علماً بأن مشاركة سومايت فيه زادت من الشكوك في شرعيته. وعلى حدّ تعبير وزير الاتصالات جيسي شاكون: «إذا كنت تستخدم ناشطاً في إجراء استطلاع رأي، فسينتهي به الأمر إلى التصرف كناشط».

رأى جيمي كارتر أن المعارضة استخدمت استطلاعاً مشكوكاً في صحته لمحاولة تحويل عملية التصويت بما يصبّ في صالحها ولتوليد انطباع بأن النصر بات وشيكاً ولا يمكن منعه. وقال للمراسلين في وقت لاحق: «ما من شك في أن بعض قادة المعارضة تعمّـدوا توزيـع نتائـج هـذا الاستطلاع الخاطئ من أجل إيجـاد توقعات بإحراز النصر وكذلك من أجل التأثير في الأشخاص الذين لا يزالون ينتظرون في الصفوف».

لكـن المعارضــة لـم تأبـه لأي مـن هـذه الملاحظـات. فهي لم تشـكك في نتائج الاستطـلاع. وبـدلاً مـن ذلـك، رأت فيـه دليلاً على أن الحكومـة قامت بعملية تزوير كبيرة. وأصرّت على القول بأنها فازت في الاستفتاء. فقد ورد في العناوين الرئيسية للصحـف التـي تسيطـر عليهـا المعارضة عبارات مثل «كارثـة»، و«التزوير الدائم»، و«شكوك خطيرة».

كان ذلـك رأيـاً يعبّـر عـن الأقليـة، إذ إنّ كارتر أيد صحة نتائج الاقتراع واصفاً العمليـة بأنهـا حـرّة ونزيهـة ودقيقـة. وكذلك فعل سيـزار غافيريا مـن منظمة الدول الأميركيـة. حتـى إن الحكومـة الأميركيـة أعلنـت بأن تشافيز فاز فـي الاستفتاء، على الرّغم من أنها رفضت أن تهنّئه بهذا الفوز. قال المتحدث باسم وزارة الخارجية جاي آدام إريلـي بـأن «شعـب فنزويـلا عبّـر عن رأيه». حتـى إن إحصاء سريعاً لعينة من الأصوات أجرته سومايت بشكل منفصل عن استطلاع المؤسسة أظهر أن الحكومة فازت في الاستفتاء. لكن المعارضة اختارت تجاهل هذا الإحصاء ولزمت الصمت حياله.

اجتمـع كارتـر وغافيريـا بأصحـاب وسائـل الإعلام وبقـادة المعارضة في وقت مبكر من يوم الاثنين في جناح الفندق الذي ينزل فيه كارتر قبل إعلان كراسكويرو عـن النتائـج لمحاولـة تهدئتهم وإقناعهم بالقبول بالنتائـج. كان الرجلان موجودَين في مقـرّ المجلـس الانتخابـي عنـد الساعة 12:30 بعد منتصف الليل تقريباً لمشاهدة الجداول

الإلكترونية الأولى التي أظهرت تقدماً كبيراً لتشافيز بعد إحصاء 6.6 ملايين صوت. والآن، وفي جناح الفندق، قال كارتر وغافيريا بأنهما يعتقدان بأن إحصاء عدد الأصوات كان عادلاً وبأن استطلاعاً خاصاً أجرياه لعينات الأصوات أكد النتائج التي توصل إليها المجلس الانتخابي. بدا على بعض القادة علامات الحنق الشديد وذلك استناداً إلى رواية كارتر. «كانت وجوههم بيضاء، ووجّهوا إلينا اتهامات بالافتقار إلى الموضوعية والعدالة». وأفاد أحد التقارير الإخبارية بأن قادة آخرين من المعارضة مثل هنريكه مندوزا، حاكم ولاية ميراندا، بدوا مندهشين بشكل واضح ولزموا الصمت.

كما زعمت المعارضة بأن نظام التصويت الإلكتروني الجديد الذي يعمل بواسطة لمس الشاشة في فنزويلا معرّض للتلاعب، وبأن الحكومة تلاعبت به لتحويل هزيمة ساحقة إلى نصر كبير. لكنّ خبراء في الانتخابات مثل جنيفر ماكوي -الذي بالكاد يمكن وصفه بأنه متعصب لتشافيز- من مركز كارتر كان مقتنعاً بأن هذا الاحتمال مستبعد بالكلّية. قال ماكوي بأن هذه الماكينات أوجدت أكثر العمليات الانتخابية تطوراً من الناحية التقنية من بين سائر العمليات التي راقبناها. فعندما يدلي الناس بأصواتهم، تأخذ هذه الماكينات بصمات أصابعهم، وترسلها بواسطة الأقمار الصناعية وتقارن في ما بينها بشكل شبه فوري لمنع التصويت المتكرر من جانب شخص واحد. وإلى جانب ذلك، تنتج الماكينات أوراق اقتراع يضعها المقترعون في صناديق. ومن أجل تعديل النتائج النهائية، يتعين على شخص ما التلاعب بالماكينات بطريقة إلكترونية. وهذا يعني، كما كتب ماكوي في وقت لاحق في ذي إكونوميست، بأنه ينبغي على الجيش -الحارس على مرّ التاريخ للمواد الانتخابية في فنزويلا- إعادة برمجة «19200 ماكينة تصويت لطباعة إيصالات ورقية جديدة تحمل التواريخ والأوقات والأرقام التسلسلية المناسبة وتتضمن العدد الصحيح للأصوات الموافقة والرافضة بحيث تتطابق الأعداد مع النتائج الإلكترونية، ثم يتوجب عليه بعد ذلك إعادة إدخال هذه الأوراق في صناديق الاقتراع المناسبة. ويتعين حدوث ذلك كلّه في المراكز العسكرية الموزّعة على الولايات الفنزويلية الاثنتين والعشرين، بين يومي الاثنين والأربعاء، من غير أن يكتشف أي شخص عملية التزوير. ونحن نرى أن ذلك غير وارد إطلاقاً».

بدت المعارضة سخيفة على الخصوص لأنها كانت قد شاركت في عملية التحقق التي سبقت الاستفتاء من الماكينات بعد أن تم تركيب برمجيات آمنة من التلاعب في أعقاب الجدل الذي ثار حول الشركات التي توجد مقراتها في فلوريدا والتي كان من المزمع أن توفر الماكينات والبرمجيات. كانت تلك العملية الانتخابية الأولى بالنسبة إلى هذه الشركات التي كانت تُدار من قبل فنزويليين وكان لها مكاتب في كاراكاس. ومنحت وكالة تسليف تديرها الحكومة الفنزويلية شركةَ البرمجيات الصغيرة، بيزتا، قرضاً مقداره 150000 دولار، لكن الشركة أعادت المبلغ بعد وقت وجيز بعد أن اشتكى نقاد من احتمال بروز تضارب في المصالح بما أن بيزتا استثمرت حصة وصلت

إلى 28 في المئة في الشركة كضمان إضافي للقرض. أظهرت عملية التحقق التي سبقت إجـراء الاستفتـاء أن الماكينـات تعمل بطريقة مثاليـة. ووافقت المعارضة ونقّاد تشافيز المتعصبون مثل تيودورو بيتكوف على القبول بها وبنتائج التصويت.

والآن، وغـداة الهزيمـة، طالبـت المعارضـة بإحصاء عـدد الأصوات. ووافق المجلـس الانتخابـي علـى إجـراء إحصاء جزئي. جرت عمليـة الإحصاء تحت إشراف مركـز كارتـر ومراقبيـن دولييـن محترمين آخرين. غيـر أن المعارضة انسحبت من عمليـة المراجعـة التـي طالبت بها أصـلاً، مدّعية بأنها اكتشفت دليلاً جديداً على تزوير لا يمكن لعملية المراجعة اكتشافه.

بدت المعارضة وكأنها جماعة من المجانين. فقد رفضت القبول بالحقيقة، وهي الحقيقـة التـي تفيـد بأنهـا خسرت فـي الاستفتاء. وفي مقالـة افتتاحية في ذي نيويورك تايمـز، وهـي عـادة مـا تنتقـد تشافيز، كتب المحرر: «بأن الوقـت قد حان لمعارضي الرئيس هوغو تشافيز للتوقف عن الادعاء بأنهم يتحدثون باسم معظم الفنزويليين. فهم ليسـوا كذلـك». واعتقـد بعض المحللين بأن نوعاً من الاضطراب العصبي الجماعي أو الهستيريـا قـد سيطـر علـى شريحة واسعة مـن المعارضة. كانت تتلقّى على مدار أربع وعشريـن ساعـة وابـلاً من الدعاية القاسية والساخرة والكاذبـة غالباً والمناوئة لتشافيز على شاشات التلفزيون. وتوصلت الخبيرة في علم الاجتماع مارغريتا لوبيز مايا من جامعة فنزويلا المركزية إلى استنتاج مفاده أنه «لا يمكنهم رؤية الحقيقة. يوجد عائق ذهني... إنه أقرب ما يكون إلى المرض». واعتقد أرتورو بيرازا، راعي جيسويت والمحامي المدافع عن حقوق الإنسان والناقد لتشافيز، وقد سبق أن شارك في المسيرة التـي نظمتهـا المعارضـة فـي 11 نيسان 2002، بأن رفض قيادة المعارضة الاعتراف بنتائج الاستفتاء يولّد انطباعاً في العالم الخارجي بأنهم مجموعة من الأشخاص المجانين. وقـارن بيـن المعارضـة وطفـل يبلـغ من العمر ثمانية أعوام ثار جنونه لأن الأمور لم تسـر علـى هـواه. قـال بيـرازا: «لقد جرّدوا أنفسهم مـن المصداقية التي كانوا يتحلون بها. هذا انتحار».

خشي بيرازا وآخرون من أنه مع خسارتهم للاستفتاء، في أعقاب انقلاب فاشل وإضرابـات اقتصاديـة، يمكـن أن تلجـأ العناصر اليمينيـة الراديكالية في المعارضة إلى الخيـار الوحيـد المتبقـي: اِغتيـال تشافيز. أسوأ كابوسـ بالنسبة إلى بيرازا وآخرين هو نمـوذج فنزويلـي «لأيـل بوغـوازو» فـي كولومبيا، عندما تسبب اغتيـال قائد الحزب الليبرالي الشعبي جورج إلييسير غايتان في العام 1948 في اندلاع أعمال شغب دموية استمرّت ثلاثة أيام، وحيث لا تزال الحرب الأهلية مستعرة هناك منذ ذلك الحين.

قاسمهـم تشافيـز المخـاوف مـن احتمـال تعرضه لهجوم جسـدي؛ ولم يكن خوفاً مـن دون سبـب. فبعـد شهرين على إجراء الاستفتاء، ظهر الممثل الفنزويلي أورلاندو أوردانيتـا، الـذي ذهـب إلى منفـى اختياري، في برنامج حواري تلفزيوني في ميامي

ودعا إلى اغتيال تشافيز. ففي حديث في برنامج ماريا ألفيرا كونفرونتا، قال أوردانيتا: «لا يوجد مجال للشك. لا توجد طريقة أخرى للخروج من الأزمة سوى الاختفاء الجسدي وبشكل نهائي». وعندما سُئل عن كيفية حدوث ذلك، أجاب: «يحدث ذلك باستخدام زمرة من الرجال المزودين ببنادق ومناظير تلسكوبية لا تخطئ... هذا أمر أصدره الآن. لنتحرك، أسرعوا».

ذُهل المسؤولون الفنزويليون من سماح الولايات المتحدة لأوردانيتا بالتحدث على الهواء والدعوة علناً إلى اغتيال رئيس دولة منتخَب بطريقة ديمقراطية. ولو أنه دعا إلى قتل بوش، لجرى اعتقاله على الفور. وقال أندرياس إيزارا، وزير الإعلام الجديد في حكومة تشافيز، وهو منتج البرامج الإخبارية التلفزيونية الذي قدم استقالته في أثناء المحاولة الانقلابية التي وقعت في نيسان عندما أمر رؤساؤه في تلفزيون وراديو كاراكاس بالتركيز على تشافيز في التغطية التلفزيونية: «نحن نرغب من الحكومة الأميركية في هذا الوقت بأن تشرح لنا كيف يمكن لأوردانيتا الدعوة إلى ارتكاب جريمة قتل من دون اتخاذ أي إجراءات في حقه».

كما انضم أندرياس بيريز، خصم تشافيز، إلى جوقة الداعين إلى التصفية الجسدية للرئيس. فقبل وقت قصير على الاستفتاء، قال بأنه «يتعين قتل تشافيز كما تُقتل الكلاب لأنه يستحق ذلك. وأنا أعمل على إزاحة تشافيز عن السلطة. والعنف سيسمح لنا بإزاحته. وهذا هو السبيل الوحيد المتوفر أمامنا». كما قال بيريز، الذي وصفته صحيفة ذي واشنطن بوست المحافظة بأنه رمز الحكم النفعي وانعدام الكفاءة والذي ساعد في الأصل على بروز تشافيز، بأنه «لا يمكننا التخلص من تشافيز وبناء حكم ديمقراطي على الفور... سنكون بحاجة إلى فترة انتقالية مدتها سنتان أو ثلاث سنوات لوضع أسس دولة يسود فيها حكم القانون».

تغاضت المعارضة ومعظم وسائل الإعلام الإشارات المتكررة من جانب تشافيز لمخططات الاغتيال التي تحاك ضدّه واصفة إياها بأنها تعبير عن الهوس. لكن كانت توجد علامات واضحة - والمنطق البديهي يقول - بأن هذا احتمال حقيقي على اعتبار أنه بإمساكه السلطة ازداد قوة وأن فرص المعارضة في العودة إلى السلطة عبر الوسائل الديمقراطية قد تلاشت. ففي تشرين الثاني 2004، قُتل المدعي دانييلو أندرسون، الذي كان يحقق مع أربعمئة مشتبه بهم في ضلوعهم في انقلاب نيسان 2002، بما في ذلك بعض الذين حصلوا على أموال من مؤسسة المنحة الوطنية من أجل الديمقراطية، عندما أدى تفجير قنبلة مزدوجة عن بُعد إلى تطاير سيارته. اهتزت البلاد بهذه الجريمة، وهي التي لم تعتد على اغتيال سياسيين على هذا المستوى، بخلاف جارتها كولومبيا أو حتى الولايات المتحدة، حيث قُتل فيها في العقود الأخيرة فقط الأخوان كنيدي، ومارتن لوثر كينغ جي آر، ومالكوم إكس الذي أُردي بالرصاص، في حين أن كلاً من رونالد ريغن وجورج والاس نجا من محاولة اغتيال.

بعـد أن بـات واضحـاً أن الهجـوم الجسـدي على الرئيس احتمـال واقعي، رفع تشافيـز مـن مستـوى الإجراءات الأمنية. تلقّى مساعـدة من الكوبيين الذين نجا قائدهم فيـدل كاستـرو مـن عشـرات مخططات الاغتيال على مدى أربعة عقود. وعندما سافر تشافيز إلى نيويورك في أيلول 2006، وقف الحرّاس في لباسهم المدني بالقرب منه فـي دوائـر فـي كوبـر يونيون في إيست فيلادج وفي الكنيسة المعمدانية ماونت أوليفت في هارلِم. وكانوا يحملون في أيديهم حقائب سوداء رقيقة تنذر بالشر تتحول بعد أن تُفتح إلى دروع واقية من الرصاص.

علـى الرغـم مـن تزايـد الخطر الذي يهـدد سلامته الجسدية، خـرج تشافيز من الاستفتـاء أقـوى مـن الناحيـة السياسيـة من أي وقت مضى. فقـد حصل خصومه على مـا أرادوا - تصويت - وخسـروا فيـه. فشلـوا في تقديم بديل جذّاب لتشافيز. والبرنامج السياسي الوحيد الذي لديهم هو الكراهية لكل ما قام به. والآن، أصبح تشافيز الرئيس المنتخَب ديمقراطياً بلا منازع لفنزويلا، وحظي بدعم أغلبية الشعب الفنزويلي في كل عملية انتخابية. وبدت شرائح من قيادة المعارضة المدعومة من الولايات المتحدة كما لـو أنهـا لا ترغـب فـي التقيد بقوانين اللعبـة الديمقراطية على نحو متزايد. فهي تطالب بصخب بالديمقراطية، لكن فقط في حال أعطتها النتائج التي تتمنّاها.

بعـد أن تلاشـت قـوى المعارضـة، أصبـح تشافيز طليقاً في تركيـز انتباهه على تعزيز برامجه الاجتماعية التي أوصلته إلى الفوز في الاستفتاء، وكذلك تعزيز مكانته على المسرح العالمي بوصفه الوريث الحالي لسيمون بوليفار. استطاع تشافيز تحويل أحد أكبر التحديات التي واجهت رئاسته إلى تفويض أوسع لثورته البوليفارية، وأثبت خطـأ الخبـراء فـي استطلاعات الرأي ووسائل الإعلام التـي تكهنت برحيله السياسي. وحلمـه بمحاولـة توحيـد أميركا اللاتينية ونشر السعي البوليفاري إلى العدالة الاجتماعية في القارّات الأولى بدت ملامح تحقيقه، على الرّغم من أنه سيواجه مقاومة وعثرات كثيرة بسبب بعض الأخطاء التي سيرتكبها بنفسه بعد أن استحوذ على انتباه العالم.

الفصل السادس والعشرون

الرّد المعاكس

قبلت إدارة بوش من الناحية الرسمية بالانتصار الساحق الذي حققه تشافيز في الاستفتاء، لكن شيئاً لم يتغير من الناحية العملية. سعت إلى إضعاف الثقة به بكافة السبل الممكنة. فبعد مرور شهر على التصويت، أعلنت الحكومة الأميركية بأنها «تجرّد فنزويلا من جدارتها» في الحرب العالمية على تهريب البشر. وفرضت عقوبات جعلت من الصعب على فنزويلا الحصول على مئات الملايين من الدولارات على شكل قروض من المؤسسات المالية الدولية، بما في ذلك بنك الدول الأميركية للتنمية. وهذا يعني أن فنزويلا يمكن أن تخسر ما يصل إلى مليار دولار على شكل قروض مخصصة لمنشأة كهربيمائية تبلغ كلفة إنشائها 750 مليون دولار، ولمشاريع أخرى تهدف إلى تنقيه مياه الشرب، والمحافظة على غابات الأمازون المطريّة، وإصلاح الجسم القضائي، وتحسين المدارس، وجباية الضرائب.

بدا الادعاء سخيفاً ووليد الكراهية الواضحة التي تكنّها الإدارة الأميركية لتشافيز. فقد اتهمت فنزويلا بأنها إحدى أسوأ ست دول في مجال تهريب البشر في العالم. حتى إنها كانت قبل سنة من ذلك واحدة من بين أسوأ خمس دول عدوانية في نصف الكرة الغربي لوحده، وذلك استناداً إلى التقرير السنوي الذي تعدّه وزارة الخارجية الأميركية. والآن، ضمّتها الإدارة الأميركية فجأة إلى مجموعة الدول التي صدف أنها تتضمن الأعداء الرئيسيين لإدارة بوش - كوبا، وكوريا الشمالية، والسودان، وميانمار (بورما سابقاً)، وغينيا الاستوائية. لكن الخبراء في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان لم يجدوا شيئاً يمكن أن يدعم ادعاءات إدارة بوش في حقّ فنزويلا.

لم تتوقف الحملة الموجَّهة ضدّ تشافيز عند مسألة تهريب البشر. فبعد سنة من ذلك، جرّدت إدارةُ بوش فنزويلا من جدارتها مجدداً، لكن بسبب هفوات مزعومة في الحرب على المخدرات. والبلد الآخر الوحيد في العالم إلى جانب فنزويلا كان ميانمار. لكن هنا أيضاً، لم تتطابق اتهامات الحكومة الأميركية لفنزويلا مع الواقع.

تواصل الهجوم الأميركي على تشافيز على الرغم من غياب أحد مهندسيه الرئيسيين، أوتو ريتش. فقد استقال هذا المتشدد الأميركي الكوبي الأصل المعارض لكاسترو من منصب المبعوث الخاص لبوش في أميركا في أيار 2004 بعد أن أمضى سنتين في الإدارة. لكن ريتش لم يغادر ساحة المعركة. فسرعان ما نشر قصة رئيسية في ناشونال ريفيو بعنوان محور الشرّ... نموذج نصف الكرة الغربي. وأظهر الغلافُ

صورة فوتوغرافية لتشافيز ولفيدل كاسترو.

بالكاد يمكن وصف بديل ريتش في منصب مساعد وزير الخارجية بأنه أكثر تنوّراً. كان روجر نورييغا مساعداً قديماً للسيناتور جيسي هيلمز ولعب دوراً رئيسياً في صياغة مرسوم هيلمز-بيورتون الذي شدد في العام 1996 الحظر الأميركي المفروض على كوبا. واصل نورييغا نهج ريتش المتشدد تجاه تشافيز. وبرز العداء الأميركي في أيار 2005 عندما استقبل بوش إحدى الشخصيات الرئيسية المعارِضة لتشافيز، وهي ماريا كورينا ماشادو في البيت الأبيض لعقد لقاء دام خمس عشرة دقيقة. وتصدّرت صورة فوتوغرافية لبوش وماشادو وهما يتحدثان في البيت الأبيض الصفحات الرئيسية في الصحف التي تصدر في فنزويلا.

وبعد مرور شهر على ذلك اللقاء، اختلت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس بماشادو في اجتماع خاص عُقد على هامش الجمعية العامة لمنظمة الدول الأميركية في فورت لودردايل. كان قد مضى شهران على بيرناردو ألفاريز، سفير فنزويلا لدى الولايات المتحدة، وهو ينتظر عقد لقاء مع رايس من دون جدوى. وفي جلسات الاستماع المخصصة لتأكيد ترشيحها والتي عُقدت في كانون الثاني الفائت، وصفت رايس الرئيسَ تشافيز بأنه قوة سلبية في المنطقة.

التزم تشافيز بالامتناع من الانتقاد العلني للحكومة الأميركية، حتى في المرحلة التي تلت انقلاب العام 2002 مباشرة عندما أيدت الولايات المتحدة المحاولة الانقلابية وعندما ألقت رايس عليه محاضرة حول احترام الأعراف الديمقراطية. لكنه لم يعد يستطيع كبح نفسه مدة أطول، فانتقد الهجمات التي تشنّها رايس وآخرون مستخدماً عباراته الشخصية القدحية التقليدية والأسلوب الفنزويلي في إطلاق النكات التي تروق للجماهير في البلاد ولكنها تبدو إهانات بالنسبة للأجانب. ففي فنزويلا، المعروفة بهوسها بمهرجانات الجمال ومِشية السيدات الجميلات في الشوارع بلباسهنّ الضيّق الذي بالكاد يغطّي صدورهنّ، يبدو أن كل تعليق ساخر آخر يتضمن معنى مزدوجاً يحمل إشارة جنسية. ففي اجتماع حاشد حضره آلاف المناصرين، أشار تشافيز إلى أن المشكلات مع رايس، وهي امرأة عزباء، ربما تكون نابعة من افتقارها إلى رفيق ذكر. وبالإضافة إلى ذلك، ربما كانت مفتونة به، وأضاف: «لكني لن أقوم بتلك التضحية من أجل بلادي». وهو تعليق أثار موجة من الضحك في أوساط الحشد، لكنه بالكاد بدا مسلّياً بالنسبة إلى الإناث خارج البلاد.

وصف تشافيز الرئيسية السابقة لجامعة ستانفورد بالأميّة على صعيد فهمها لأميركا اللاتينية وأشار إليها بعبارة كونوليزيا التي تعني المواساة. وفي واحد من أشهر تعليقاته اللاذعة، وصف بوش بأنه بنديجو. لكن وسائل الإعلام الدولية أخطأت في ترجمة العبارة عندما أوردتها بمعنى أخرق. لكن المعنى الأكثر دقة للعبارة في فنزويلا هو أحمق أو شخص يستغلّه الآخرون. لكنها بقيت عبارة لاذعة. كما وصف تشافيز الرئيسَ

الأميركي بأنه سكّير وحمار وجبان. وأشار إليه على نحو متكرر بعبارة السيد خطر، وهو شخصية أميركية زرقاء العينين سرقت الأرض من الفلاحين الأميركيين الغافلين في رواية **دونا باربارا** لروماريو غاليغوز الكلاسيكية التي صدرت في العام 1929.

تبادل الطرفان إطلاق العبارات اللاذعة. قارن وزيرُ الدفاع دونالد رامسفيلد تشافيز بأدولف هتلر (وهذا ما دفع تشافيز إلى الردّ عليه بالقول: «سيكون هتلر أشبه بطفل رضيع بالمقارنة مع جورج دبليو بوش»). وشبّه رئيسُ قسم أميركا اللاتينية في البنتاغون، روجيليو باردو مورير، تشافيز بالضبع. حتى إن القس البروتستانتي بات روبرتسون، الذي يتمتع بعلاقات وثيقة مع إدارة بوش، دعا إلى قتل تشافيز. وادعى روبرتسون في آب 2005 في برنامجه التلفزيوني الكابلي *The 700 club*، بأنه «إذا كان يعتقد بأننا نسعى إلى اغتياله، أعتقد بأنه يجدر بنا المضي في المحاولة والقيام بذلك»، وهو ما أطلق ضجيجاً دولياً. وأضاف: «فهذا الحل أقل كلفة بكثير من شنّ حرب».

لم تعمد السلطات إلى اعتقال روبرتسون أو حتى التحقيق معه بعد إدلائه بتعليقه العلني الذي حظي بانتقادات عارمة. وهذا ما أدهش تشافيز، فاتهم الولايات المتحدة بالتحريض على «الإرهاب الدولي». قال تشافيز: «المكان الوحيد الذي يمكن فيه لشخص المطالبة باغتيال رئيس دولة آخر هو الولايات المتحدة، وهو الأمر الذي حصل مؤخراً مع القس بات روبرتسون، وهو صديق مقرَّب من البيت الأبيض. لقد طالب علناً باغتيالي وهو لا يزال يمشي في الشارع».

لم تؤدّ مطالبة روبرتسون بموت تشافيز والهجمات الأميركية في البداية إلى التقليل من شعبية تشافيز داخل البلاد أو إبطاء انتشار القادة اليساريين الآخرين في أميركا اللاتينية. ففي البلاد المحيطة به، وصل معارضو إجماع واشنطن لليبرالي الجديد ممن يتبنّون فكراً مشابهاً لفكر تشافيز بالوصول إلى السلطة بعد أن فشلت ثورة السوق الحرّة التي أيدتها وول ستريت، وصندوق النقد الدولي، وآخرون في خفض مستوى الفقر.

بدأ بروز هؤلاء القادة مع انتخاب لويز إناسيو لولا دا سيلفا في تشرين الأول 2002، وهو أول رئيس في تاريخ البرازيل يأتي من الطبقة العاملة. ثم تلاه نيستور كيرْشنير في الأرجنتين وتاباري فازكويز في تشرين الثاني 2004، وهو أول اشتراكي يُنتخَب رئيسياً في أوروغواي.

غير أن النصر الأكثر إثارة للذهول كان في كانون الأول 2005 عندما أصبح إيفو موراليس أول رئيس منتخَب لبوليفيا يتحدّر من المواطنين الأصليين. من بين كافة القادة الجدد، الذين تباينت معارضتهم لإجماع واشنطن، بدا أن موراليس هو الأكثر شبهاً بتشافيز. نشأ موراليس في عائلة كانت تعيش في فقر مدقع لدرجة أنه

كان يجـري خلـف الحافـلات وهـو صبي لالتقاط قشور حبـات البرتقال والموز والتي كان الركاب يلقونها من النوافذ. وفي بعض الأحيان، كانت هذه القشور كل ما يتوفر له من طعام ليأكله.

استمـر الجنـوح نحـو اليسـار بعـد أن انتخبـت التشيلي أول رئيسـة اشتراكية في تاريخهـا. وفـي تشريـن الثاني 2006، أعادت نيكارغوا أيقونة الحرب الباردة، دانييل أورتيغا، وثورته الساندينستية إلى السلطة. ولم يكد يمضي شهر على ذلك حتى انتخبت الإكوادور رفائيل كوريا، وهو خبير اقتصادي يساري حائز على شهادة الدكتوراه من جامعة إلينوي، دأب على انتقاد إجماع واشنطن بعنف، وتعهد بإغلاق القواعد العسكرية الأميركيـة كافـة فـي بلاده، وأمسك بمشعل تشافيز، سيمون بوليفار. قال كوريا: «إن حلم بوليفار في القرن الحادي والعشرين هو أكثر من حلم. إنه قرار بالبقاء».

حاول منافس كوريا، المليونير ألفارو نوبوا، اتّباع أسلوب أكثر شعبية لكي يهزم كوريا، عندما شبهه بتشافيز. من غير المفاجئ أن تلك الاستراتيجية ساعدت نوبوا إلى حدّ ما. فقد شنّعت الولايات المتحدة ووسائل الإعلام الدولية تشافيز لدرجة أن العديد في أميركا اللاتينية اعتقدوا بأنه يجسد الشيطان.

في حين أن استراتيجية تشافيز فشلت في الإكوادور، فقد نجحت في بلدان أخرى. ففـي البيـرو، أصبـح المقـدم المفصول أولانتا هيومالا نسخـة هندية أنكية لتشافيز بثنائه علـى الجنـرال خـوان فيلاسكـو ألفارادو، الديكتاتور اليسـاري الذي حكم البيرو الذي خبـر تشافيـز تجربتَـه الاشتراكيـة بيـن عامي 1968 و1975 مباشـرة عندما كان طالباً فـي الكلّيـة العسكريـة. حتـى إن هيومـالا قاد عملية انقلابية فاشلة ضـدّ حكومة ألبيرتو فوجيمـوري الفاسـدة. وفـي النهاية خسر الانتخابات الرئاسية. ولامه العديد من الناس على علاقاته بتشافيز.

واجه تشافيز أكبر هزيمة في المكسيك، عندما خسر رئيس بلدية مكسيكو سيتي، أندريـاس مانويـل لوبيـز أوبرادور، بهامش ضئيـل أمام المحافظ فيليب كالديرون في تموز 2006. كان أوبرادور هو الأول في استطلاعات الرأي إلى أن شهر كالديرون سلاحه السرّي؛ هوغو تشافيز. فبدأ بعرض دعيات تلفزيونية تربط أوبرادور بتشافيز. لـم يسبـق أن التقـى أوبـرادور بتشافيـز أو تحدث إليه. وهـو أصر على أنه لن يصنع نسخة مكسيكية للثورة البوليفارية. لكن هذا الرد لم يُجد نفعاً. ونجحت الحملة الدعائية وتراجع أوبرادور في استطلاعات الرأي.

واجه تشافيز اتهامات من قبل المنتقصين من شأنه بأنه يحاول التأثير في السباقات الرئاسية من المكسيك إلى أوروغواي ومروراً بنيكاراغوا، وبأنه يسعى بوجه عام إلى كسب نفوذ في مختلف أنحاء العالم عبر توزيع بعض من الثروات النفطية التي تتمتع بهـا بـلاده. كان يدعـم علنـاً بعض المرشحين مثل هيومـالا وأورتيغا. ففي نيكارغوا، أبرم صفقة تقوم فنزويلا بموجبها بتزويد واحد وخمسين مجتمعاً متحالفاً مع الساندينستيين

بعشـرة ملاييـن برميـل مـن النفط في العام بأسعار تفضيلية. ووزع في مناطق أخرى مليـارات الـدولارات علـى شـكل مساعدات وفي شراء سندات خزينة، وإبرام صفقات نفطية مدعومة. وتبرّع بمبلغ 260 مليون دولار لجامايكا لتعبيد طريق سريع، وبمبلغ 17 مليون دولار لتحديث المطارات في أنتيغوا وفي دومينيكا، وبمبلغ 3 ملايين دولار على شكل مساعدات غذائية طارئة لبوركينا فاسو موريتانيا والنيجر.

بالنسبـة إلـى تشافيـز، كان يقـوم بما تقوم بـه الولايات المتحدة والدول الأخرى طوال الوقت: بناء علاقات ودّية وبناء تحالفات. كان ذلك كله جزءاً من خطته لتطوير نموذج معاصر لحلم بوليفار بأميركا لاتينية موحَّدة، ونشره في الخارج ليشمل الدول النامية في مختلف أنحاء العالم بحيث يمكن تشكيل تعددية قطبية بديلة عن هيمنة الولايات المتحدة. كما أن الولايات المتحدة، التي تملك موارد أكبر بكثير من موارد فنزويلا، تتدخل بشكل مباشر أيضاً في الانتخابات التي تُجرى في أميركا اللاتينية. فعندما ترشح إيفو موراليس لمنصب الرئيس في بوليفيا في العام 2002، حذّر السفير الأميركي مانويل روشـا، البوليفييـن مـن أن انتخـاب زعيم الكـوكا يمكن أن يؤدي إلى قطع للمساعدات الأميركيـة. لكـن تهديـده لـم يؤدّ الغرض منه، وحـلّ موراليس في المركز الرابع في استطلاعـات الـرأي ليخسـر فـي الانتخابات بفارق 1.5 فـي المئة فقط. وأشار بطريقة مازحـة إلـى روشـا بعد ذلك بأنه مدير حملته. لكن المسؤولين الأميركيين تحلّوا بمزيد من الحكمة في العام 2005، لكن معارضتهم لموراليس لم تكن تخفى على أحد.

وفي نيكارغوا، هددت الولاياتُ المتحدة علناً بقطع مساعداتها في حال فاز دانييل أورتيغـا فـي الانتخابـات الرئاسيـة. وقبل ذلك بسنتين، حـذّر أوتو ريتش بأن انتخاب زعيـم العصابـات الماركسـي السابـق شفيق هندال رئيساً للسلفادور سيكون بمثابة تغيير جـذري يمكـن أن يؤثـر سلبـاً في العلاقات الثنائية. وخسر هندال في الانتخابات، وإن لم يكن تدخل ريتش السبب الوحيد الذي أدى إلى ذلك.

علـى الرغـم مـن الجهود التي بذلهـا ريتش والحكومة الأميركية لتهميش تشافيز، نمـت شعبيتـه فـي بعضـ القطاعات بكل بساطة. وبعـد أن كان عرضة لتجاهل اليسار بسبب تاريخه كجندي ومدبّر عملية انقلابية، أصبح على نحو متزايد الشخصية الأبرز في الحركة العالمية المعارضة للعولمة المتعطشة لزعيم كاريزمي.

في أثناء انعقاد قمّة المنتدى الاجتماعي العالمي في بورتو أليغري في البرازيل في كانون الثاني 2005، رحب به المعجبون كما لو كان أحد نجوم الروك. كان المنتدى حدثاً سنوياً يراد منه الاحتجاج على المنتدى الاقتصادي العالمي الذي كان يُعقد في وقت متزامن في سويسرا بإشراف نخب سياسية ومهنية. ارتدى قميصاً أحمر اللون رُسمت عليـه صـورة لتشـي غيفـارا، فأحدث جلبة عبّرت عن إعجاب خمسة عشر ألف ناشط تجمعـوا فـي إستـاد رياضـي ورحبوا به بصيحـات: «ها قد أتى الرئيس». وردّ تشافيز بشجـب الرأسماليـة التـي ترعاها الشـركات وأعلن بأن اتفاقية التجارة الحرّة التي أملت

الولايات المتحدة بأن تشمل البلدان الواقعة بين ألاسكا والأرجنتين قد «ماتت».

وقبل ذلك بيوم، سمع لولا رئيسُ البرازيل ملاحظات ساخرة في المنتدى، حيث اتهمه بعض المشاركين بالفشل في الوفاء بوعوده باستئصال الفقر واسع الانتشار في البرازيل وبالإذعان لمصالح الشركات ولصندوق النقد الدولي وللولايات المتحدة. كان على تشافيز أن يدافع عنه فصاح في الإستاد: «أنا أحبّ لولا، وأنا أحترمه. إنه رجل طيب».

وبينما كانت شعبية تشافيز تتصاعد لدى الملايين من الناس، بقيت صورته في الوسائل الإعلامية الرئيسية سلبية في الأغلب، والتي تشدد في الغالب على رواية النخب للأحداث ولا تشرح بالكامل الأسباب التي تجعله يحظى بمثل تلك الشعبية داخل البلاد ويحقق الفوز في كل عملية انتخابية. حتى إنها لم تكتفِ بأن تكون لسان حال النخب، بل وجعلت من نفسها سلاحاً يُشهر ضدّه. وأدرك تشافيز بأنه ينبغي أن يفعل شيئاً لوضع وسائل الإعلام المحلّية تحت السيطرة.

تسارعت جهوده بعد انقلاب العام 2002، فأجازت الجمعية الوطنية قانون المسؤولية الاجتماعية للتلفزيون والراديو والذي هدف إلى رسم حدود لوسائل الإعلام. وبناء على ذلك، حظر القانون استخدام اللغة البذيئة وعرض العديد من المشاهد الجنسية ومشاهد العنف النفسي أو الجسدي بين الساعة السابعة صباحاً والحادية عشرة مساءً، وهي الأوقات التي تبث فيها الشبكاتُ التلفزيونية بشكل روتيني مشاهد الدماء والقتل واللحم العاري التي تتجاوز بكثير ما هو مسموح به في المحطات الأميركية غير الكابلية في أي ساعة من اللّيل أو النّهار. كما زادت من مدّة الأحكام بالسجن من ثمانية أيام إلى سنة عقاباً على تشويه السمعة أو التفوه بعبارات تقدح بشرف، وسمعة واحترام شخص ما، بما في ذلك سمعة المسؤولين الحكوميين. ويمكن أن تؤدي هذه الانتهاكات إلى تغريم مرتكبها غرامات ثقيلة أو سحب تراخيص البثّ التلفزيوني.

وصف النقاد هذا التشريع بقانون غاغ. وبعد أن تم إقرار القانون في كانون الأول 2004، اقتطعت شبكات التلفزيون في البداية المشاهد الجنسية الفاضحة ومشاهد العنف الحية من المسلسلات الجنسية التي تتضمن مشاهد تثير الغرائز الجنسية غالباً أو مشاهد مليئة بأعمال العنف. ومارست بعضُ البرامج الإخبارية الرقابةَ الذاتية - بدرجة مبالغ فيها في بعض الأحيان لإيصال وجهة نظر سياسية - مثل القول بأنه وقع حادث سير مأساوي في كاراكاس اليوم، لكن بسبب قانون غاغ، لا يمكن إذاعة تفاصيل الحادث إلاّ بعد الساعة 11 مساءً. وقامت إحدى شبكات التلفزيون بقطع بثّ مجموعة من البرامج التي تستضيف معارضين لتشافيز مثل نابليون برافو في تلفزيون فينيفيجن (الذي احتفل بالإطاحة بتشافيز عبر استضافة بعض قادة الحركة الانقلابية في برنامجه 24 ساعة). وحذّر النقاد من أن القانون يصل إلى حدّ قمع تشافيز لحرّية الصحافة.

وأشـاروا إلـى أن العديـد مـن الصحافيين الفنزويليين تعرّضوا للهجوم الجسدي من قبل أنصار تشافيز في الشوارع، على الرّغم من أن مراسلي التلفزيون الحكومي تعرّضوا للهجوم أيضاً من قبل المعارضة وأن تشافيز أدان كافة الاعتداءات.

رأى تشافيز أن وسائل الإعلام الخاصة الفنزويلية خارجة عن السيطرة وبحاجة إلـى مـن يكبـح جماحهـا. علماً بأن المدافعين عن قانون الإعلام أشاروا إلى أن العديد مـن بنـود القانـون لا تختلف بشـيء عن تشريعات لجنة الاتصالات الفدرالية الأميركية التـي سعـت إلـى حمايـة الأطفال فـي أثناء ساعات البثّ العادية. والأهم من ذلك كله، أمل هؤلاء بأن يؤدي القانون إلى تغطية إعلامية أكثر توازناً من قبل وسائل الإعلام التي لم تكن توجّه انتقادات لاذعة إلى تشافيز وحسب، بل وشاركت في الجهود التي هدفت إلى الإطاحة به؛ فلا يمكن اعتبار كل هذه الأعمال قانونيّة.

إن إعطاء بعض الأمثلة على ذلك ليس بالأمر الصعب. فعندما نظّمت الجماعاتُ المؤيدة للحكومة والجماعاتُ المؤيدة للمعارضة مظاهرات تنافسية ضخمة في آذار 2002 على سبيل المثال، أمر مدير المحطة في القناة 2 التابعة لتلفزيون راديو كاراكاس مديرَ العمليات الإخبارية أندرياس إيزارا بتقديم تغطية شاملة لمسيرة المعارضة. وبناء على ذلـك، أرسـل إيـزارا عشـرة أطقم تلفزيونية. لكنه أمـر بعدم تغطية المسيرة التي كان ينظمها أنصار تشافيز. وهذا الأمر ينطبق على الشبكات الرئيسية الأخرى.

اعترف بعض الصحافيين بأنهم توقفوا عن العمل كصحافيين يمثلون وجهات نظر كلا الطرفيـن وتحولـوا بـدلاً مـن ذلك إلى ناشطين سياسيـن يحاولون تدمير الرئيس. من ذلك أن لورا ويفير، وهي مراسلة سياسية تعمل لدى إل ناسيونال، اعترفت أمام كاتب في كولومبيا جورناليزم ريفيو بأن: «الموقف المشترك هو أننا نستطيع أن نترك أخلاقيـات المهنـة وقواعـد العمـل الصحافي جانباً». لكنّ نتائج هذه الأعمال كانت تزيد من حدّة الكراهية التي يشعر بها الأشخاص الذين يقطنون في الأقاليم الجبلية من الذين باتـوا ينظـرون إلـى الصحافييـن الذين كانوا محترمين ذات مرّة على أنهم عبيد لعمالقة الإعـلام والنخـب الثريـة. وقال مراسل يعمل لـدى أولتيماس نوتيسياس لسي جي آر: «عندما كنا نتوجه إلى التلال سابقاً، كان الناس يستقبلوننا بالترحاب كما لو كنّا أعضاء فـي هيئـة الصليـب الأحمر. وبعـد ذلك صار المراسلون يمطروننـا بالحجارة والقناني الفارغة عند أسفل التل». وقالت صحافية أخرى، والدموع تنهمر من عينيها، لويفير كيـف أن الناسـ نادوهـا باسـم بيوتا، أي عاهـرة، عندما حاولت دخول حيّ فقير وقد وضعت على قميصها بطاقة الصحافة.

ولو عدنا إلى وسائل الإعلام الدولية، نجد أنها لم تكن بمثّل سوء وسائل الإعلام الفنزويلية، فكانت توفر بين الحين والآخر تغطية أكثر إنصافاً للأحداث الهامة مثل تعبئة أنصار تشافيز في الشوارع للمطالبة بعودته في أثناء الانقلاب. لكنها تبعت بوجه عام وسائل الإعلام المحلية.

عمـدت وسائـل الإعـلام هـذه إلى تقديم تغطية منحازة لتسليط الضوء على وجهة نظر معارضي تشافيز والتقليل من شأن رأي أنصاره الذين صدف أنهم يشكلون أغلبية السـكان. إحـدى الطـرق التي كانوا يتبعونها للقيـام بذلك كانت اختيار مصادر بعينها. من ذلك أن الغالبية العظمى من المحللين الذين تستشهد بهم المنافذ الإعلامية الأميركية الرئيسية هم من نقّاد تشافيز بدلاً من أن تستشهد بمراقبين حياديين أو أشخاص يميلون إلى التعاطف مع موقف تشافيز. وفي إحدى الدراسات، تتبعت الأخصائية في شؤون أميركا اللاتينية جوستين ديلاكور المحللين المستقلين الذين غالباً ما تستشهد بأقوالهم خمسُ صحف أميركية رئيسية هي ذي ميامي هيرالد، وذي نيويورك تايمز، وذي واشنطن بوست ولوس أنجلوس تايمز وشيكاغو تريبيون. وجدت ديلاكور أن المحللين الأربعة الذين غالباً ما يُستشهَد بأقوالهم هم من نقاد تشافيز؛ مايكل شيفتر من مؤسسة الحوار بين الدول الأميركية في واشنطن العاصمة، والمؤرخ الفنزويلي ألبيرتو غاريدو، والكاتب الصحافـي تيـودورو بيتكـوف ومنظّـم الاستفتاءات لويس فيسينتـه ليون. وحده المحلل الخامس الذي يُستشهَد بأقواله، ويدعى لاري بيرنز، من مجلس شؤون نصف الكرة في واشنطن يمكن وصفه بأنه متعاطف نوعاً ما مع الحكومة الفنزويلية. حتى إنه حلّ خامسـاً وبعيـداً جـداً عـن سابقيه، استُشهد به 16 مـرة في حين استُشهد بالآخرين 107 مرات.

وبالمقارنــة، تبيـن أن ثمانيـة دارسين فنزويليين ظهرت مقالاتهم في إصدار آذار 2005 لمجلة لاتن أميركان بيرسبكتيف وتبنّوا فيها آراءً معتدلة أو مؤيدة لوجهات نظر تشافيز لكن لم يجرِ الاستشهاد بأقوالهم ولو لمرّة واحدة طوال فترة الدراسة التي دامت نحـواً مـن سنتيـن. تضمـن هؤلاء ستيف إيلنر، وهو عالم سياسي أميركي محترم عاش فـي فنزويـلا نحـواً من ثلاثة عقـود. والآخرون هم بومونا كوليج، أستاذ ميغيل تينكر سالاس؛ وإدغاردو لاندر، وديك باركر، وجيسوس ماريا هيريرا سالاس، ومارغريتا لوبيز مايا، ولويس لاندر، وماريا بيلار غارسيا غواديلا.

بالكاد سمع العديد من المراسلين الأجانب بهؤلاء الخبراء بما أنهم مغمورون في عالـم المعارضـة. وبـدا العديـد منهم ببساطة كمن أُسقط بالمظلة في البلد من أجل رفع تقارير دورية، وحجز في فنادق من فئة خمس نجوم، وأمضى الكثير من وقته يتحدث من دون كلفة مع النخب ويتبادل الملاحظات مع الآخرين. وهذا ما حدا بالخبيرة جوليا بوكستون إلى وصف هذا الواقع بالصحافة من فئة فندق الهيلتون. حتى إن العديد منهم أقـام فـي البـلاد طـوال الوقت حيث كان أقرب إلى الطبقات العليا والمتوسطة منه إلى الطبقة العاملة في الأحياء التي نادراً ما قام بزيارتها. وبدلاً من القيام بتلك الزيارات، كانـوا يتسكعـون فـي الأحياء الراقية ويرتـادون المطاعم الفاخرة والمشارب. حتى إن الوقاحــة بلغـت بإحـدى الصّحفيّات اللواتي يكرهـن تشافيز إلى وضع لوحة على مكتبها تقول ساكيموس أل لوكو: لنتخلص من هذا المجنون.

كان المراسلـون الأجانـب يسخـرون بانتظام من تشافيز في أثناء تبادلهم الحديث وكانـوا يشتكـون مـن خطاباتـه الطويلـة. وكانـوا يتأوهون عندما يظهـر على شاشات التلفزيون ويسخرون من تصريحاته. أمل بعضهم بأن يخسر تشافيز الانتخابات الرئاسية أو بأن تتم إزاحته عن السلطة لكي لا يضطروا إلى البقاء عدة ساعات وهم ينصتون إلى خطاباته. ووصفوا علناً برامجه بأنها تصل إلى حد الجنون وتبدو متناقضة بشكل أعمى مع تفكير المعارضة. وكانت أكثر مصادرهم مرتبطة بالمعارضة بالطبع. وفي مرحلة معينة، كرر أحدهم شعاراً رفعته المعارضة يقول بأنه على تشافيز أن يرحل.

كانت الشجارات تندلع بين الحين والآخر في أحد المكاتب الإخبارية بين صحافيين يريدون تقديم صورة أكثر توازناً لتشافيز وبين أولئك الذين من الواضح أنهم في مهمة للقضاء عليه. وتحول النقاش حول كيفية تغطية أخبار الرئيس إلى معركة دائمة. وفي النهايـة، انتصـر الصحافيـون المعادون لتشافيـز، وبأعداد كبيرة على الصحافيين الذين آثـروا مقاربـة أكثـر حياديـة. ولـم يكن ذلـك تجربة غريبة عن التجربـة التي مرّ بها أندرياس إيزارا في أثناء عمله لدى محطة تلفزيون راديو كاراكاس.

بالنسبة إلى العديد من المراسلين الأجانب، كان تشافيز أضحوكة وشخصاً مخبولاً. والروايـات التـي كانـوا ينقلونهـا عكست ذلـك. ففي قصة إخبارية تقليديـة أُرسلت إلى مختلـف أنحـاء العالـم فـي شباط 2003 مع انهيار إضراب عمال النفط، كتبت رويترز بـأن معارضـي تشافيـز «يتهمونـه بالحكم مثل ديكتاتور، وبأنه يدمر الاقتصاد بسياساته المعاديـة للرأسماليـة، وبأنـه يهدد حرّيـة الإعلام ويحاول أن يجعل من فنزويلا نسخة عن كوبا الشيوعية». في الصحافة العادية، يجري اتباع تلك العبارة المغرضة بدفاع يستعرض الجانبَ الآخر من القصة وبالصورة التي ترتسم في أذهان أنصار تشافيز عن رئيسهم، أعني أن حكومته هي أكثر الحكومات تمسكاً بالديمقراطية في تاريخ البلاد، وبأن الانقلاب وإضراب قطاع النفط الذي نظمته المعارضة هو الذي يعمل على تدمير الاقتصاد، وبأنه يمكن المجادلة بأن وسائل الإعلام الفنزويلية هي الأكثر تمتعاً بالحرّية في العالم فتنشر وتذيع أخبار الهجمات الفظيعة الموجهة ضدّ الرئيس والتي تشجع على الإطاحة به، وأن تشافيز أبعد ما يكون عن كوبا الشيوعية، بما يتوفر فيها من صحافة حرّة واقتصاد مبنيّ على السوق الحرّة بدرجة كبيرة، ونظام سياسي متعدد الأحزاب يُجري انتخابات حرّة ونزيهة. حتى إنه يتميز بآلية تسمح بإسقاط الرئيس والمسؤولين المنتَخبين الآخرين وهم في منتصف فترة شغلهم لمناصبهم.

لكـنّ الكاتـب لـم يقـدّم تلك المعلومات. كان إجراء عملياً قياسياً في رويترز وفي العديـد مـن المنافـذ الإخباريـة الأميركيـة أو الدوليـة. وكان يتـم تسليـط الضوء على المعارضين لتشافيز، وعلى نشر أقوالهم في مقدمة الرسائل الإخبارية، ووصفهم بدقائق الأوصاف الجميلة. ومن ناحية أخرى، كان يتم ذكر وجهة النظر الأخرى التي تميل إلى تأييد تشافيز في آخر الرسالة الإخبارية أو لا يتم الإشارة إليها مطلقاً، ومع الإشارة

إلى القليل من التفاصيل المسهبة والأدلة الداعمة، في حال أشير إليها أصلاً، للتهم الزائفة التـي توجههـا المعارضـة غالباً. والنتيجة هي انطباع عام بأن تشافيز ديكتاتور مجنون يميـل إلـى تدميـر إحدى أعرق الديمقراطيات المزدهرة في أميركا اللاتينية. وعلى حد تعبيـر مجموعـة مراقبـة وسائل الإعلام فير، «لـم تسنح لهوغو تشافيز فرصة التحدث إلى الصحافة الأميركية».

وجـدت ديلاكـور، التـي تتعاطف مـع تشافيز، أيضاً أن الميل إلى معاداة تشافيز وصـل إلـى الصفحـات الرئيسيـة في الصحف الأميركيـة. في الواقع، كان الميل هناك أسـوأ. فعندمـا تتبّعـت صفحـات الآراء في خمس وعشرين صحيفة من الصحف الأكثر مبيعـاً فـي الولايـات المتحـدة خلال الشهور الستة الأولى من العام 2005، وجدت أن «95 فـي المئـة مـن أصـل نحـو من مئة تعليق صحافي تنـاول مواضيع سياسية خاصة بفنزويـلا عبّـر عـن عدائية واضحة لرئيس البلاد المنتخَب بطريقة ديمقراطية». ونادراً مـا نُشـرت آراء الكتّـاب علـى الصفحة الأخيرة، مثل الخبير الاقتصادي التقدمي مارك ويزبورت الذي ينتقد السياسة الأميركية تجاه تشافيز ويمدح بعضاً من برامج الأخير. وبالمقابـل، تُنشـر مقـالات منتظمـة لكتّاب شديدي الانتقـاد لتشافيز مثل ماري أنستازيا أوغـرادي فـي ذي وول ستريـت جورنـال وجاكسون دايل فـي ذي واشنطن بوست والتـي يوجهـون فيهـا انتقاداتهـم العنيفة لتشافيز من على منبر اثنتين من أقوى الصحف الأميركيـة مـع الإشـارة إلـى القليـل من الأدلة التي تدعم حججهـم الخادعة غالباً. ولا يوجد في أي صحيفة عمود منتظم في صحيفة يدافع فيها كاتب عن تشافيز. ويبدو أن الكتّـاب فـي الصفحـات الافتتاحيـة للصحف اليومية في مختلـف أنحاء الولايات المتحدة ينظرون إلى تشافيز نظرة ازدراء. وخلصت ديلاكور إلى أنه:

> علـى الرغـم مـن حقيقـة أن آخـر استطلاعات الـرأي يشير إلى أن معـدلات الموافقـة المحليـة علـى سياسات تشافيز تجـاوزت نسبة 70 في المئة، عرض كافة المعلقين في فنزويلا تقريباً وجهات نظر أقلية صغيرة في البلاد، بقيادة نخبة اقتصادية تقليدية سعت مراراً وتكراراً إلى إسقاط الحكومة بطرائق غير ديمقراطية.
>
> لـدى عرضـ الآراء التـي تصب في خانـة معارضة حكومة تشافيز بشكل شبه حصري، يقوم المعلقون الأميركيون على الأحداث التي تقع فـي فنزويـلا بحملة تلقيـن ضد مشروع سياسي ديمقراطي يتحدى سياسة الولايات المتحدة وهيمنتها الاقتصادية على أميركا الجنوبية. والغياب شبه المطلـق لوجهـات النظـر البديلة حـول ما يجري من أحداث في فنزويلا منعت القراء الأميركيين من وزن الحجج التي يدلي بها الطرف الآخر بما يساعدهم على تكوين آراء شخصية في حكومة تشافيز.

أراد بعض الأميركيين الشماليين التحقق بأنفسهم مما يجري في الثورة البوليفارية المثيرة للجدل والتي أشعلها تشافيز. ولذلك سافروا إلى فنزويلا وقاموا بجولات لاستطلاع الحقيقة حيث زاروا الأحياء والمشاريع الأخرى التي غالباً ما يتجاهلها الصحافيون وكاتبو المقالات والمحللون أو التي لم يسبق لهم أن زاروها حتى في معرض انتقادهم اللاذع لتشافيز. ما وجده الزائرون تناقض في الغالب مع الرؤية أحادية الجانب التي تعرضها معظم وسائل الإعلام. تقول دونا سانتييغو، وهي إحدى المستفيدات من فيلادلفيا من برنامج فنزويلي يوفر زيت التدفئة المنزلية بأسعار محسومة: «هذا الرجل أبعد ما يكون عن ذلك. إنه شخص لطيف المعشر حقاً. وأنا أريد أن آتي به إلى هنا وأضعه في البيت الأبيض». وأشار المنسق في إحدى المحطات الإذاعية الفنزويلية إلى أن تجربة سانتييغو ليست تجربة غير عادية، وأضاف: «يعود الناس إلى الولايات المتحدة ويقولون إنهم ذهبوا إلى فنزويلا ورأوا شيئاً يتناقض تماماً مع ما تقوله محطة سي أن أن».

لم يواجه تشافيز التغطية الإعلامية أحادية الجانب بطريقة سلبية. فإذا كانت وسائل الإعلام المهيمنة لا تريد نشر تقارير تتحدث عن مشروعه السياسي بطريقة أكثر توازناً، فهو يملك حلاً لمواجهة ذلك. سيقوم بإنشاء منافذه الإعلامية الخاصة.

لم يُترك لتشافيز في أثناء انقلاب العام 2002 سوى مصدر إعلامي واحد؛ محطات إذاعية صغيرة غالباً ما كانت توجد في الشقق السكنية في الأحياء فضلاً عن قلّة من المحطات التلفزيونية المحلية التي لا تتمتع بميزانيات كبيرة. كانت هذه المنافذ الإعلامية البديلة الوحيدة التي تحدثت عن اختطاف تشافيز، ولعبت دوراً هاماً في تنظيم المقاومة للانقلاب. كما أنها كانت من بين الأهداف الأولى للقمع خلال الفترة القصيرة التي أمضاها بيدرو كارمونا في الحكم. فقد أغارت الشرطة الموالية للانقلابيين على هذه المحطات، وصادرت معداتها، واحتجزت فرقها العاملة وربما انهالت عليها ضرباً في بعض الأحيان.

في أعقاب عودة تشافيز إلى الحكم، عمل على توسيع وسائل الإعلام البديلة وتقويتها. وبناء على ذلك، منحت الحكومةُ رخصاً بالبث الإذاعي للعشرات من المحطات الإذاعية التي كانت تعمل من دون إذن. كما قدمت 2.6 مليون دولار في العام 2004 لمحطات إذاعية وتلفزيونية، بما في ذلك تلفزيون كاتيا في حي كاتيا الآخذ في التوسع في الشطر الغربي من كاراكاس. وكان من نتائج ذلك أن قفز عدد المحطات الإذاعية والتلفزيونية البديلة من نحو من خمسين محطة كانت منتشرة في البلاد قبل الانقلاب إلى ثلاثمئة محطة في مستهل العام 2004.

لم يكن بثّ وسائل الإعلام البديلة هذه قوياً. فإذاعة راديو بيرولا، وهي إحدى المحطات التي أغار عليها الانقلابيون، كانت تبثّ من محطة بقوة ثلاثة عشر كيلوواط

في مستودع سابق في مشروع سكني. وبالكاد كانت رسائلها تتجاوز بضع مئات من المنازل. والإذاعة الأخرى، راديو أون نيوفو ديا، كانت تبث من محطة بقوة خمسة كيلوواط فقط. وأقيم عمود إرسالها وسط غرفة نوم في منزل لإحدى السيدات مصنوع من الأحجار البركانية. كانت تلك المرأة تعلّق شراشف الأسرة من السقف لكي تفصل المعدات عن السريرين اللذَين ينام عليهما ولداها. كانت المحطات البديلة، التي يديرها متطوعون أساساً، تبثّ موسيقى السالسا وتركز على المشكلات التي تعاني منها المناطق التي تعمل فيها مثل جمع القمامة أو ردم الحفر في الشوارع.

قررت الحكومة في تشرن الثاني 2003 المضي إلى ما هو أبعد من تمويل المحطات البديلة، فأنشأت محطتها التلفزيونية الخاصة؛ تلفزيون فايف. والفكرة من إنشاء هذه المحطة هي تقديم صورة لفنزويلا، ولأميركا اللاتينية وللعالم تكون مختلفة عن الصورة التي تقدمها المحطات التلفزيونية الضخمة مثل فينيفيجن أو راديو تلفزيون كاراكاس التي تفضّل عرض المسلسلات التلفزيونية التي تثير الغرائز والبرامج استهلاكية التوجه والمعدة وفقاً للنموذج الأميركي مثل كوين كويري سير مليوناريو (من يريد أن يصبح مليونيراً). هدف تلفزيون فايف إلى التركيز على حياة ملكات الجمال والنجوم السينمائيين، وكذلك التركيز على الطبقة الفقيرة المنتشرة في أميركا اللاتينية. وفي الشهور الأخيرة من العام 2004، وصل إرسالها إلى نسب تتراوح ما بين 60 و70 بالمئة من الشعب الفنزويلي.

لكن الشبكات التلفزيونية العملاقة ظلت تهيمن في فنزويلا وفي أميركا اللاتينية. ولذلك، توصل تشافيز إلى فكرة أخرى لمجابهة سيطرتها. اقترح إنشاء شبكة تلفزيونية إخبارية يعمّ إرسالها المنطقة كلها على مدار الساعة على أن تتعاون الدول المتنوعة على إدارتها. ستكون ردّ أميركا اللاتينية على محطة سي أن أن. وصرّح المدير العام للمحطة، الصحافي المحنّك آرام أهرونيان بأن «الهدف من إنشائها أن تكون قوة مكافئة لوسائل الإعلام التي ترسم صورة سلبية عن تشافيز والتي تهيمن في البرامج الإخبارية الدولية في أميركا اللاتينية، مثل سي أن أن إسبانيول، وتلفزيون إسبانولا الإسباني وفينيفيجن التي يملكها غوستافو سيسنيروس».

أطلقوا على المحطة الجديدة اسم تيليسور؛ تلفزيون الجنوب. كانت المحطة في البداية ثمرة جهد مشترك من جانب فنزويلا والأرجنتين وكوبا والأوروغواي. وانضمّت بوليفيا إلى المجموعة في وقت لاحق أيضاً. كما عرضت البرازيل شبكتها التلفزيونية التي تديرها الدولة في بادرة تعاونية. وتكفّلت فنزويلا بتغطية معظم تكاليف تشغيل المحطة فقدمت أغلب الرأسمال التأسيسي البالغ 2.5 مليون دولار، وفتحت مكاتب في مختلف أرجاء المنطقة وفي واشنطن العاصمة.

غير أن النقاد شرعوا في مهاجمة تيليسور حتى قبل أن تبدأ بثّها واصفين المحطة بأنها الناطق باسم تشافيز. وأطلقوا عليها اسم «تيليتشافيز» وقارنوا بينها وبين محطة

الجزيـرة، وهـي القنـاة الإخبارية الفضائية الناطقـة باللغة العربية التي أريد منها توفير منظور غير غربي للأحداث التي تقع في الشرق الأوسط وفي العالم. ومضى العضو الجمهوري في الكونغرس عن ولاية فلوريدا، كوني ماك، إلى حد التقدم باقتراح إلى الحكومـة الأميركيـة بـأن تقوم بتوجيه ترددات إذاعية وتلفزيونية إلى فنزويلا لمواجهة المحطـة الجديـدة. وأطلـق اتهامـاً سخيفـاً بأن فنزويلا كمّمت فـاه الصحافة فيها. وقال للكونغرس: «فـي فنزويـلا التـي يحكمها تشافيز، لا يوجد صحافـة حرّة، وإنما دعاية معادية لأميركا تديرها الدولة».

إذا وضعنـا هذيـان مـاك جانبـاً، كان الحديث عما إذا كانت تيليسور ستتحول إلى مجرّد مناصر متحمس لتشافيز تساؤلاً مشروعاً. فالمحطة ذات طابع يساري بالتأكيد، وهـي تعرض صـوراً لتشـي غيفارا وسلفـادور أليندي في شريـط فيديو دعائي تقدمه الشبكة. ورئيسها هو أندرياس إيزارا، الذي سبق أن قدم استقالته من تلفزيون راديو كاراكاس بسبب اشمئزازه من الدور الذي لعبته في انقلاب العام 2002 وأصبح وزير الإعـلام فـي حكومـة تشافيـز. وبالنظر إلى التضارب في المصالح، استقال إيزارا من منصبه الحكومي.

لكن كان إيزارا، الذي عمل مرة لدى محطة سي أن أن في أتلانتا إلى جانب أهرونيـان ومديريـن آخريـن، قـد أدرك بأنه يتعين أن تتخطـى الشبكة إطار الخطاب الموالـي لتشافيـز لتجـذب جماهيـر المشاهدين وتحافظ عليهم. فـإذا كانت ستقتصر على بـثّ الخطابـات التـي يلقيهـا تشافيز والرؤساء الآخرون، يقـول أهرونيان: «ينبغي أن نسلّم بأن أحداً لن يشاهدها. وإذا كانت هذه المحطة ستتحول إلى أداة دعائية، فسوف نرحل جميعاً. فهذه ليست قناة نردد فيها جميعاً: يحيا تشافيز».

لم تكد تمضي سنة على بدء تيليسور ببثّها التلفزيوني حتى اقترحت حكومة تشافيز توسيع الفكرة بحيث تشمل محطات إذاعية. أطلقوا على شبكة المحطات هذه اسم راديو سور، وتصوّروا اتحاد المحطات الإذاعية القائمة في مختلف أنحاء المنطقة ضمن شبكة وحيدة. وبالمقارنة مع إنشاء محطة تيليسور، سيكون إنشاء شبكة إذاعية إقليمية متكاملة أمراً سهلاً نسبياً.

واصل تشافيز أيضاً خطوات الردّ الإيجابي داخل الولايات المتحدة نفسها، فأنشأ مكتب المعلومات الفنزويلي في واشنطن العاصمة لمحاربة ما وصفه بالتضليل الإعلامي واسع الانتشار الذي تبثّه وسائل الإعلام الكبيرة عن فنزويلا. هدف هذا المكتب إلى تقديـم مـا يعتبـره تشافيز وحلفاؤه وصفـاً أكثر دقة للثورة البوليفارية. استحدث المكتب الذي عُرف باسم في آي أو موقعاً إلكترونياً يقوم بجمع التقارير ويطلب من المناصرين الاتصال بالمنافذ الإعلامية. لكن المكتب لا يضارع وسائل الإعلام الضخمة.

توسعت جهود تشافيز لمواجهة وسائل الإعلام الإخبارية الضخمة إلى حد محاولة

إنقاذ الثقافة الفنزويلية والأميركية اللاتينية من وسائل الإعلام التي تهيمن فيها الولايات المتحدة. أراد تشافيز من مواجهة الهجوم الضاري الذي يُشنّ بواسطة بريتني سبيرز، وباكستريت بويز، والأيقونات الأخرى في الساحة الموسيقية الأميركية أن يحافظ على الموسيقى الفنزويلية الرائعة التي وُلدت في إيلانوس، هضاب الأنديز، وفي الشوارع النشطة في ماراكيبو الغنية بالنفط. وبناء على ذلك، تضمن قانون مسؤولية وسائل الإعلام بنداً يشترط ألاّ تقل فترة بثّ الموسيقى الفنزويلية عن خمسين في المئة في المحطات المحلية، على أن يكون نصفها على الأقل «يتسم بناحية تقليدية مثل استخدام الهارب (آلة وترية موسيقية)».

أدّى القانون إلى ازدهار أعمال الفرق الموسيقية الفنزويلية التقليدية التي تعزف على الهارب، والماراكاس (ثمرة جوز النخيل المليئة بالبذور الجافة)، والفلوت، والكمان، والكواترو الشهيرة (آلة موسيقية مزودة بأربعة أوتار). وفجأة، ذاع صيت الأغاني الحزينة، أو الفرحة أو المرحة والأغاني الشعبية التي تُشتهر بها هضاب إيلانوس، موطن تشافيز، والمناطق الأخرى والتي تحكي عن الجياد السريعة، أو عن غروب الشمس الرومانسي، أو عن الحب الضائع، أكثر من أي وقت مضى. من آثار ذلك أن سيمون دياز، وهو شاعر غنائي في أواخر السبعينيات من عمره يتمتع بشهرة دولية، وجد أن أغانيه عادت لتركب موجات الأثير مجدداً. وباتت الأوركسترا الوطنية التقليدية، التي كانت تعتبر نفسها محظوظة إن استطاعت أن تبيع قرصاً مدمجاً واحداً في حفلاتها، تبيع الآن مئتي قرص مدمج في الحفلة الواحدة.

وجّه تشافيز نظره صوب أيقونة أخرى من أيقونات وسائل الإعلام الأميركية: هوليوود. ففي حزيران 2006، أنشأ مجمع استوديوهات لإنتاج الأفلام السينمائية في كاراكاس أطلق عليه اسم سينما تاون. كان الهدف منه توفير بديل للأفلام السينمائية التي غالباً ما تركّز على الجنس وعلى العنف وتصوّر اللاتينيين بأنهم أفراد عصابات أو تجار ممنوعات. اشتكى تشافيز في أثناء إجرائه جولة على صالات العرض وقال وهو جالس على كرسي المدير: «إنهم يُشْربوننا رسائل لا تنتمي إلى تقاليدنا... هذه الأفلام تتحدث عن طريقة عيش الأميركيين، الإمبريالية».

كما وسّع تشافيز ثورته الثقافية لتشمل الأدب. كان من الصعب الحصول على الكتب في فنزويلا؛ لأنها باهظة الثمن، ولأن المكتبات العامة نادرة. ولذلك أمر تشافيز الحكومة بأن تطبع بعض الكتب وتوزّعها مجاناً. وفي الذكرى السنوية الأربعمئة للرواية الكلاسيكية **دون كويكسوتي** التي كتبها ميغيل دي سيرفانتيس سافيدرا، أمر بطبع مليون نسخة. كما وزّع خمسمئة ألف نسخة لرواية **البؤساء** لفكتور هوغو، التي يكنّ لها حبّاً خاصاً.

على الصعيد الدولي، كان لا يزال يُنظر إلى تشافيز على أنه «ديكتاتور ماركسي متوحش»، على حدّ تعبير رئيس الجامعة المدنية المسيحية في ماين. كان تشافيز يعاني

من مشكلة خطيرة متمثلة في صورته المشوَّهة. ولمحاولة تصحيح تلك الصورة، توصل إلى فكرة مبتكرة. ففي غمرة أسعار النفط القياسية، قرر توزيع زيوت التدفئة المنزلية بأسعار محسومة لأصحاب المداخيل المتدنية في الولايات المتحدة.

بدأ العمل بالبرنامج في شتاء العام 2005-2006 مع تعهد شركة سيتغو بتروليوم التي تملكها الدولة الفنزويلية بتوفير اثني عشر مليون غالون من زيت التدفئة المنزلية للسكان في ولاية ماساشوستس وبتوفير ثمانية ملايين غالون للسكان في برونكس في الولايات المتحدة. وبموجب هذا العرض، يحصل المستفيدون على حسم تبلغ نسبته 40 في المئة. ولعب العضو السابق في الكونغرس جوزيف بي كنيدي الثاني، نجل الراحل روبرت كنيدي الذي يدير الآن شركة سيتزنز إنرجي غير الربحية، على إبرام صفقة ماساشوستس.

كانت الخطة بمثابة ضربة موفقة لم يستطع حتى أشدّ منتقدي تشافيز شراسة التهجم عليها بفاعلية، وبخاصة بعد أن رفضت كافة الشركات النفطية الأخرى المناشدة التي رفعتها مجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي بالتبرع ببعض من أرباحها القياسية للسكان الفقراء. ووصفها أحد المحللين بالخطوة التكتيكية الذكية. حتى إن الحكومة الأميركية الحاقدة رحّبت بها. ولم تفشل فنزويلا في الاستفادة من العلاقات العامة الإيجابية، فقد نشرت دعايات على صفحات كاملة في ذي واشنطن بوست وذي نيويورك تايمز. وجاء في أحد العناوين: «كيف تعمل فنزويلا على إبقاء نيران مواقدنا المنزلية مشتعلة في ماساشوستس».

مع انتشار الحديث عن البرنامج، انهالت الطلبات على شركة سيتغو. وبناء على ذلك، توسّع البرنامج، قبل أن ينتهي فصل الشتاء، ليشمل ماين وفيرمونت وررود آيلاند، وكونكتيكوت، وديلاوير، ومنطقة فيلادلفيا. في ماين، يضم المستفيدون أفراد أربع قبائل هندية. وسهلت سيتغو أمر سفر بعضهم بالإضافة إلى آخرين إلى فنزويلا في نيسان 2006 للاجتماع بتشافيز. انهمرت دموع دونا سانتييغو، وهي أمّ وحيدة من فيلادلفيا، وهي تقول: «لقد عاملتَ الشعبَ الأميركي كما لو كان أبناؤه أشقاء وشقيقات لك. بصنيعك أنقذت أرواحنا، وهذا أمر لا يقدّر بثمن... في زمن اليأس، أرسل لنا الله ملَكاً. وأنت أيها الرئيس تشافيز ملَكنا».

أهدر تشافيز أغلب ثمار هذا العمل الودّي بعد خمسة شهور عندما وصف بوش بالشرّ في الخطاب الذي ألقاه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة. كان قد خطط ليعلن بلهجة تعبّر عن النصر في أثناء زيارته لنيويورك بأن برنامج دعم أسعار زيت التدفئة سيتضاعف حجمه في العام 2006-2007، من أربعين مليون إلى مئة مليون غالون. وكان سيستفيد نحو 400000 عائلة - ما يصل إلى 181000 فرد - يتوزعون في ست عشرة ولاية أو مدينة، بما في ذلك ميشيغان، ومينيسوتا، وويسكونسن، وفيرجينيا، وماريلاند، وبيتسبورغ وواشنطن العاصمة. وكان من المقرر أن يشمل البرنامج قبائل

هندية تعيش في مناطق نائية مثل ألاسكا التي حصلت على 8 ملايين غالون من زيوت التدفئة.

لكـنّ الهجـوم الشخصـي، وهـو أمر يبدو أنه لا طاقة لتشافيز على مقاومته بوجه عام، أثار ردّ فعل معاكس حتى بين أوساط بعض المستفيدين من البرنامج. فقد قالت ليندا كيلي التي تقيم بكوينسي بولاية ماساشوستس، بأن تشافيز تجاوز حدوده بتعليقاته تلك التي تضمنت أيضاً وصف بوش بأنه مدمن على الكحول ورجل مريض في أثناء زيارة قام بها لهارلم. وقالت آغنيس كروسون البالغة من العمر خمسة وسبعين عاماً: «أنا لست مؤيدة لبوش، صدقني. لكني امتعضتُ مما قاله فعلاً». وقال حاكم ماين بأنه سينسحب من البرنامج. حتى إن بعض القبائل الهندية في ألاسكا انسحبت من البرنامج. وعادت شركة سيتغو لتنشر إعلانات شغلت صفحات كاملة في الصحف الرئيسية مجدداً. لكنها حاولت هذه المرة تصفية الأجواء بينما اقترح محامون ومواطنون مقاطعة الشركة ومحطات الوقود الثلاث عشرة التي تملكها في الولايات المتحدة.

بالعودة إلى فنزويلا، نجد أنه بالكاد انزعج بعض الناس من تهجم تشافيز على بوش. رأى العديد منهم أن الأمر لا يعدو عن كونه وصفاً لرجل يعتبرونه مضحكاً. لكنّ تشافيز واصل سيرته بلا هوادة. كانت البلاد تستعدّ لإجراء انتخابات رئاسية أخرى في غضون شهور قلائل. وكان يتقدّم استطلاعات الرأي، فهو لا يزال يتمتع بشعبية واسعة في فنزويلا وفي العديد من بلدان أميركا اللاتينية. ومع توفر فرصة الحصول علـى رئاسـة جديـدة مدتهـا ستّ سنوات، بدأ بالتأهّب لمرحلة جديدة أكثر راديكالية في رئاسته. ولذلك عزم على تنفيذ خطته الأكثر تطوراً وهي إعادة بناء البلاد.

الفصل السابع والعشرون

اشتراكية القرن الحادي والعشرين

وقف هوغو تشافيز أمام خمسة وعشرين ألف معجب مبتهج في إستاد لكرة القدم في مار ديل بلاتا في الأرجنتين. حدث ذلك في تشرين الثاني 2005، وكان رؤساء ثلاث وثلاثين دولة من دول أميركا اللاتينية فضلاً عن جورج دبليو بوش يتجمّعون لعقد قمّة الأميركيتين الرابعة. كان أحد أهداف هذه القمة كسب الدعم لتحقيق هدف الولايات المتحدة بإقامة منطقة تجارة حرّة تمتدّ من ألاسكا إلى الأرجنتين. لكن ما إن بدأت أعمال القمّة حتى بدأ تشافيز بالتعامل مع بوش بعجرفة. كان يقف بجانبه في الإستاد في القمّة المقابلة أكبرُ أسطورة في لعبة كرة القدم في الأرجنتين، دييغو مارادونا. حمل المتظاهرون لافتات قارنت بوش بأدولف هتلر وهتفوا بصوت واحد في أثناء دخولهم الإستاد: «بوش الفاشي، بوش الإرهابي». الجدير بالذكر أن استطلاعات الرأي أظهرت أن بوش هو أقل الرؤساء الأميركيين شعبية حتى في دول أميركا اللاتينية.

أثار تشافيز صيحات الموافقة عندما قال بأن بوش يضيع وقته في محاولة تنفيذ منطقة التجارة الحرّة الخاصة بالأميركيتين، التي تعتبر إحدى المكونات الرئيسية في إجماع واشنطن. قال تشافيز في خطابه الذي استغرق ساعتين: «أحضر كل واحد منّا رفشاً، لأن مار ديل بلاتا ستكون مقبرة منطقة التجارة الحرّة الخاصة بالأميركيتين. هذه الاتفاقية ميتة، ونحن، شعوب الأميركيتين، من سيدفنها». وفي مبادرة قارنها تشافيز بالحلف من أجل التقدم الذي شكله جون أف كنيدي، أعلن عن برنامج مساعدات بقمة 10 مليارات دولار على مدى عشر سنوات لاستئصال الجوع من أميركا اللاتينية.

وفيما كان تشافيز يتحدث، تحوّل الغضب من بوش ومن السياسات المدعومة من الولايات المتحدة التي ساعدت على إغراق الأرجنتين في أسوأ ضائقة اقتصادية في تاريخها، إلى أعمال عنف في الشوارع. حاول المتظاهرون اختراق الحواجز المعدنية للوصول إلى الأماكن التي تُعقد فيها القمّة، بما في ذلك شيراتون مار ديل بلاتا. قذفوا الحجارة، وحطموا النوافذ، ونهبوا المتاجر، وأضرموا النار في أحد المصارف بواسطة قنبلة مولوتوف. وردّ رجال الشرطة بإطلاق القنابل المسيلة للدموع والأعيرة المطاطية. وبحلول المساء، بلغ عدد من أدخل السجن من المتظاهرين خمسين شخصاً.

وفي اليوم التالي، تصدّر تشافيز الصفحات الأولى في ذي نيويورك تايمز

والصحف الرئيسية الأخرى بعد أن خطف الأضواء من بوش. وصفت ذي واشنطن بوست تشافيز بأنه يلعب «دور المرح الذي يحرّض على القيام بأعمال تخريبية». حتى إن النقاد اللاذعين مثل أندرياس أوبنهايمر الكاتب في ميامي هيرالد اعترف بأن تشافيز عاش يوماً مشهوداً لأنه سلب بوش شهرته بحيث بدا الأخير تائهاً كما لو أنه تلقّى ضربة في العلاقات العامة. فقد انتهت زيارته لأميركا اللاتينية، التي كان المراد منها أن تكون لحظة انتصار، بأعمال شغب وإطلاق للغاز المسيل للدموع في الشوارع، فغادر القمّة قبل أن تنهي أعمالها، من غير أن يحصل على اتفاقية تجارة. وتباهى تشافيز بالقول: «الخاسر الأكبر اليوم هو جورج دبليو بوش. رحل الرجل وهو مثخن بالجراح. وبإمكانكم أن تروا ملامح الهزيمة على وجهه».

نظمت فنزويلا قبل يوم من انعقاد القمّة غزواً وهمياً لأراضيها من جانب الولايات المتحدة. كانت المناورة جزءاً من الجهود التي يبذلها تشافيز استعداداً لهجوم محتمل يشنّه الجيش الأميركي. قفز الجنود الذين كانوا يرتدون البزّات المموهة من القوارب وتقدموا نحو ساحل فنزويلا وقابلهم مئات من السكان على الشاطئ وهم يصيحون: «أيها الغرباء، عودوا إلى دياركم»، و«الحرّية». وفي حين سخر المسؤولون الأميركيون من مخاوف تشافيز بأنها تعبير عن جنون الاضطهاد، لكن التاريخ المعاصر للمنطقة والحافل بعمليات الغزو لم يغب عن ذاكرة القائد الفنزويلي وحلفائه. تضمنت تلك التدخلات غزو باناما للإطاحة بمانويل نورييغا في العام 1989، وبغزو جزيرة غرينادا لإسقاط الخلفاء الراديكاليين لليساري موريس بيشوب في العام 1983، وغزو جمهورية الدومينيكان للإطاحة بخوان بوش في العام 1965، وغزو كوبا في الهجوم الذي وقع في خليج الخنازير الفاشل بهدف الإطاحة بفيدل كاسترو في العام 1961. والأعذار التي قدّمها الأميركيون لتبرير عمليات الغزو هذه كانت مضحكة. ففي معرض تبرير غزو غرينادا، ادّعت إدارة ريغن بأنها أرادت إنقاذ طلاب أميركيين يدرسون الطبّ. وفي باناما، جعلت إدارةُ بوش الأب من نورييغا شيطاناً بوصفه تاجر مخدرات، على الرّغم من أنه أمضى سنوات على جداول رواتب وكالة الاستخبارات المركزية التي كان بوش الأب نفسه مديرها.

كما يذكر تشافيز كيف أن الولايات المتحدة وقفت موقف المتفرّج وسمحت للثوار اليمينيين المسلحين، بمن فيهم عملاء وكالة الاستخبارات المركزية السابقين، بطرد الرئيس جون بيرتراند أريستيد المنتخَب بطريقة ديمقراطية من البلاد في شباط 2004. كما أن أكبر غزو أميركي حدث في العراق، عندما ادّعت إدارة بوش زوراً بأن صدام يملك أسلحة دمار شامل وبأنه لعب دوراً في هجمات 11 أيلول. وإذا تمكنت الولايات المتحدة من تشويه صورة تشافيز بما فيه الكفاية، ربما تستطيع تهيئة الأجواء التي تجعل العالم يدعم أو حتى يرحب بغزو أميركي لفنزويلا.

قـام تشافيـز بخطـوات أخرى استعداداً لغـزو محتمل، فقام بتشكيل قوات احتياط مـن ميليشيـا مدنيـة أمـل بأن يصل عدد أفرادهـا إلى مليوني شخص على الأقل. وبناء علـى ذلـك، أمضـت سيّدات البيـوت والمعلمون وسائقو سيارات الأجرة عطلات نهاية الأسبـوع فـي تعلّـم الإسعافات الأولية، وفـي الرماية باستخدام الأسلحة الأوتوماتيكية، والسيـر فـي تشكيـلات عسكرية. اتهـم النقادُ تشافيز بأنه يعمل على تشكيل ميليشيا على الطـراز الكوبـي للتجسـس على المعارضين، وخنـق المعارضة الداخلية، والدفاع عن رئاسته مهما تكن التكاليف. لكن لم يظهر دليل يثبت صحة ذلك، واحتمال إقدام إدارة بوش علـى شـنّ هجـوم لا يمكن استبعـاده تماماً. قال الجنـرال المتقاعد ألبيرتو مولر روجاسـ، مستشـار الأمـن القومي لـدى تشافيز: «دخلت الولاياتُ المتحدة الحرب في العراق بناء على أكاذيب، وهي الآن تتفوه بالأكاذيب بشأن الحكومة الفنزويلية، ولذلك يتعين علينا أن نكون مستعدين».

زد على ذلك أن إدارة بوش كانت تقوم بخطوات لإضعاف الدفاعات العسكرية لتشافيـز. فقـد رفضـت أن تبيـع فنزويلا قطع غيـار لطائراتها النفاثة أف -16 أميركية الصنع. ثم أعلنت في أيار بأن فنزويلا لا تبدي تعاوناً في الحرب على الإرهاب. وقد جاء هذا الكلام بعد الحديث عن الفشل المزعوم لفنزويلا في التعاون في الحرب على المخـدرات وفـي الحـرب على تهريب البشر. فحوى هذه الإدانة الأخيرة أن الولايات المتحـدة تفرضـ حظـراً على كافة مبيعـات الأسلحة لفنزويلا. لن يتم إرسال مزيد من قطع الغيار للطائرات أميركية الصنع التي يملكها الجيش الفنزويلي. وهذه ليست بالمسألة السهلـة، لأنـه وفقـاً لبعضـ التقديرات، يوجـد 177 طائرة من صنع أميركي من أصل 277 طائرة يملكها سلاح الجو الفنزويلي.

إذا كانـت الولايـات المتحـدة لـن تبيـع أسلحة لفنزويلا بحيـث يمكنها الدفاع عن نفسهـا، فهـذا يعنـي أنـه ينبغي علـى تشافيز البحث عن مصادر أخـرى. حاول إبرام صفقات مع إسبانيا ومع البرازيل، لكن الولايات المتحدة ساعدت على منع إتمام تلك الصفقات برفضها بيع قطع الغيار. ولذلك تحول إلى روسيا. وقّع تشافيز على اتفاقية يحصل بموجبها على مئة ألف بندقية هجومية من نوع كلاشنكوف لكي يستخدمها الجيش الفنزويلي بدلاً من بنادق فال البلجيكية القديمة والتي سيتم توزيعها على عناصر الاحتياط المدني. واشترى رخصة من الروس لبناء أول مصنع لبنادق الكلاشنكوف في أميركا الجنوبيـة. وبالإضافـة إلـى ذلـك، طلب شراء أربع وعشرين طائرة نفاثة متطورة من طراز سوخوي 30 وخمس عشرة طوافة.

وصفت الولايات المتحدة مشتريات الأسلحة تلك بأنها تنذر بالخطر، وحذّرت من أن بعضاً من هذه الأسلحة يمكن أن يصل في النهاية إلى أيدي العصابات الكولومبية. غير أن فنزويلا أنفقت على مشتريات الأسلحة أقل من جارتها كولومبيا على سبيل المثال والتي أنفقت 6.3 مليار دولار على الدفاع في العام 2005، أو التشيلي التي أنفقت 3.9

مليـار دولار خـلال السنـة نفسهـا. كما أنها أنفقت مبلغاً أدنى بكثير مما أنفقته الولايات المتحدة التي قُدِّرت نفقاتها الدفاعية في العام 2006 بخمسمئة مليار دولار بما في ذلك نفقات الحرب في كل من العراق وأفغانستان. أقسم تشافيز على استخدام كل وسيلة في تصرفه لمقاومة غزو أميركي. حتى إن الجيش الفنزويلي طلب مساعدة خمسمئة هندي وتزويده بأسهم ذات رؤوس مسممة. قال تشافيز: «إذا استطاعوا الرماية بدقة على أي غازٍ فسوف يتم القضاء عليكم في غضون ثلاثين ثانية يا عزيزي الغريب».

إلـى جانـب الغـزو المحتمل من جانب الولايـات المتحدة، الخيار الحقيقي الوحيد الذي بقي لدى المعارضين المحليين لإزاحة تشافيز عن السلطة هو اغتياله، وهو خيار لم يكن بعيد الاحتمال. لكن ربما أدركت المعارضة أيضاً بأن اغتيال تشافيز لن يكون بمثابة نهاية لإيديولوجية تشافيز السياسية (شافيزمو)، بل سيغرق البلاد في حرب أهلية عنيفـة. سينـزل مئـات الآلاف مـن أنصار تشافيز الغاضبين، والعديد منهم مسلح، إلى الشـوارع. قـال أحـد أنصـار تشافيز لمراسل صحافي: «لن تعود فنزويلا أبداً إلى حكم النخبـة القـذرة. لـن نرجـع مـرة أخرى إلى بلد تُستخدم فيه أموال النفط من أجل أقلية لا مـن أجـل الأحيـاء. وبالتالـي، مـاذا سيحصل لو قُتل تشافيـز؟ ستندلع حرب أهلية. ونحن مستعدون لذلك».

ولبغض إدارة بوش لتشافيز أسباب عديدة، على الرغم من أنه يعتقد بأن العامل الرئيسي هو الحصول على النفط. غالباً ما حذّر تشافيز من أن فنزويلا ستقطع إمدادات النفط أو تفجر الحقول النفطية على الطريقة العراقية في حال غزت الولاياتُ المتحدة بـلاده أو إذا مـا اغتيـل، علـى افتراضـ أن ذلـك جـاء بمباركة أميركيـة. كان يعمل علـى صياغـة نمـوذج اقتصـادي بديـل يقف في وجه مقاربة السـوق الحرّة التي تبنّاها إجمـاع واشنطـن. كان يعـدّ مثـالاً خطراً وراديكالياً ربما تحذو حذوه بلدان أخرى من العالـم الثالـث فتتحـدّى هيمنة الولايات المتحدة. وعلى غـرار التجربة الساندينستية في نيكارغـوا فـي الثمانينيـات، وتجربة أليندي في التشيلي في السبعينيات، وتجربة خوان في جمهورية الدومينيكان في الستينيات، وتجربة أبينز في غواتيمالا في الخمسينيات من القرن الماضي، وكل تجربة يسارية أخرى أو كل مشروع تقدمي في أميركا اللاتينية منذ بزوغ فجر مبدأ مونرو في العام 1923، كان يتعيّن سحق الثورة البوليفارية في فنزويلا. لم يتعلم الأميركيون الشماليون شيئاً من قرنين تقريباً من التاريخ في فنائهم الخلفـي أو لـم يتنبّهـوا حتـى إلـى ملاحظة جون أف كنيدي الشهيـرة التي ذكرها أمام دبلوماسيـي أميـركا اللاتينيـة في العام 1962 عندما قال: «إن الأشخاص الذين يجعلون الثورة السلمية مستحيلة إنما يجعلون الثورة العنيفة محتّمة». كان تشافيز يبذل أقصى ما بوسعه للمحافظة على الطابع السلمي لثورته في وجه عدائية أميركية لا هوادة فيها.

أشـار لأول مـرّة إلـى عبـارة اشتراكيـة القـرن الحادي والعشريـن في المنتدى الاجتماعـي العالمـي الخامسـ فـي بورتو أليغري فـي البرازيل وذلك في كانون الثاني

2005. كانت لا تزال فكرة غير منقحة مثالية وبديلة للنموذج الليبرالي الجديد الذي جلب الدمار إلى أميركا اللاتينية. كانت شيئاً وسطاً بين الرأسمالية المتوحشة والشيوعية الفاشلة. لكن بصرف النظر عن موقعها، لن تكون هذه الفكرة تكراراً لاشتراكية الدولة في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية وحتى كوبا العزيزة. عرف تشافيز أن ذلك النمط من الاشتراكية مشوب بالعيوب، وأن أغلب الفنزويليين لن يتحملوا تجربة شبيهة بشيوعية كاسترو. لكنّه لم يكن معجباً بالرأسمالية مطلقة العنان والتي تُشاهَد نتائجها مباشرة في فنزويلا وفي كافة أنحاء أميركا اللاتينية. قال تشافيز: «إن النموذج الرأسمالي فاسد. فهو يحابي أقلية ويسلب ثروات الأكثرية». وأضاف بأن مهمته هي «البحث عن العدالة الاجتماعية، والبحث عن المساواة».

لكنّ تطبيق نموذجه الاقتصادي الجديد لم يتبع نمطاً ثابتاً دائماً. فأحد مدراء إحدى شركات النفط التي تملكها الدولة شبّه هذا النموذج «بتغيير إطار في أثناء سير السيارة». غير أن بعض العناصر الواضحة برزت في أثناء استعداد تشافيز لخوض معركة تجديد رئاسته في كانون الأول 2006. أبرز هذه العناصر كان المهمات الاجتماعية، حيث كانت الدولة تلعب دوراً مباشراً في رفع المستوى التعليمي، وتحسين الرعاية الصحيّة وزيادة كميات المعروض من السلع الغذائية، وتأمين المساكن، والحاجات الأساسية الأخرى.

العنصر الأساسي الآخر كان نموذج التطوير المحلي الذي هدف إلى جعل فنزويلا دولة تتمتع بالاكتفاء الذاتي. بدأ العمل بهذا النموذج في شطر غراموفين من كاتيا، حيث قامت شركة بيتروليوس دي فنزويلا بتحويل منشأة تخزين نفطية مهجورة إلى تعاونية يصنع فيها الرجال والنساء الأحذية، والسترات الخفيفة، وأشياء أخرى، ويديرون تجارتهم بطريقة جماعية. كما تضمنت مهمة التغيير الكامل تعليمات شجعت على التضامن التعاوني في مواجهة المنافسة الرأسمالية التي لا ترحم. وبناء على ذلك، رعت الحكومة إنشاء آلاف من التعاونيات المشابهة التي أنتجت كل شيء من الذرة إلى اللبن.

كما عمدت الحكومة إلى تنفيذ شيء آخر يسمى كوجستيون أو التعاون في الإدارة. والفكرة هي مساعدة العمال على شراء حصص وعلى تولّي مهام إدارية في الشركات التي تفشل أحياناً. وأحد أبرز النماذج الخاصة بذلك مصنع الألمنيوم ألاسكا الذي تملكه الدولة في منشأة توليد الكهرباء الصناعية سويداد غوايانا. فقد انتخب العمال هناك مديريهم وحوّلوا نمط الإدارة من الأعلى إلى الأسفل إلى نمط طاولة مستديرة حيث يوفر العمال مزيداً من المدخلات. كما أن شركة توليد الكهرباء كادافي التي تملكها الدولة والتي تنتج 60 في المئة من الطاقة في فنزويلا، طبقت نموذج التعاون في الإدارة.

وسّع تشافيز هذا النموذج ليشمل العديد من المعامل الفاشلة أو العاطلة عن العمل، والتي صادرتها الدولة بغية المحافظة عليها. من بين أشهر هذه المعامل مصنع الورق

فينيبال، وهو مصنع رئيسي ينتج الورق والكرتون. عمل فيه عندما كان في ذروة عطائه ستمئة عامل وامتلك مجمعاً كبيراً تضمن آلاف الفدادين من الأرض، والعديد من المنازل، ومدرسة، وملعباً لكرة القاعدة، وفندقاً مع حوض سباحة، ومطاراً خاصاً.

أغلق مالك فينيبال المجمّع طوال فترة إضراب قطاع النفط بين كانون الأول 2002 وشباط 2003، وهو ما أدى إلى انهيار الشركة. وبعد سلسلة مضطربة من عمليات إعادة الافتتاح والإغلاق والتي تضمنت فترة احتل فيها العمال المصنع وأداروه لمدة سبعة وسبعين يوماً، أفلس نهائياً في أواخر العام 2004. وبعد مضي عدة أسابيع، أعلن تشافيز في كانون الثاني 2005 بأن الحكومة قامت بتأميم مصنع فينيبال. ودفعت لأصحابه ثمنه وفقاً لقيمته في السوق، وساعدت على إعادة تشغيل الشركة المفلسة بقرض قيمته 6.8 مليون دولار، وأعطت أكثر من نصف أسهمه للعمال فيه. أشار تشافيز إلى أن هذه المصادرة، وإن كانت تبشّر بمنعطف جديد للثورة البوليفارية، لا تعني بدء عمليات تأميم شاملة. قال تشافيز: «المصادرة التي حصلت اليوم هي استثناء، وهي ليست سياسة حكومية»، على الرغم من أن النقاد بقوا متشككين. أشرف العمال على إدارة المصنع وفقاً لنمط التعاون في الإدارة وتصوروا استخدامه في خدمة الثورة عبر إنتاج الورق أو الدفاتر للمهمات التعليمية. وراودتهم أحلام بتحويل الملاعب الرياضية والمنشآت الأخرى لصالح المجتمع.

إذا كان تشافيز سيسعى وراء المصانع العاطلة، فسوف يسعى بالمثل وراء الأراضي العاطلة. وكجزء من اشتراكيته الخاصة في القرن الحادي والعشرين، أعلن بأنه سيزيد من وتيرة تطبيق برنامج الإصلاح الزراعي الذي تباطأ بعد مراسيم تشرين الثاني 2001 التي قادت إلى الانقلاب في نيسان 2002. وكما أن تشافيز أراد استخدام الموارد الطبيعية لفنزويلا وعمالها في تصنيع بضائعها الخاصة، أراد تحويل فنزويلا إلى بلد يتمتع باكتفاء ذاتي في الغذاء. فعلى الرغم من امتلاك فنزويلا أراضٍ شاسعة صالحة للزراعة، فهي تستورد 70 في المئة من طعامها. لم يكن ملاّك الأراضي يستغلون أراضيهم كما يجب، لدرجة أنه جاء في أحد التقديرات الحكومية، إنّ 5 في المئة من ملاّك الأراضي الزراعية والمزارع يملكون 75 في المئة من الأراضي الصالحة للزارعة. قال تشافيز: «لا يمكن لأي ثورة تحترم نفسها أن تقبل بهذا الوضع. هذه علامة على الإقطاع، شيء يرجع إلى ما قبل التاريخ».

بالكاد حمل أحد أهدافه الأولى شيئاً أكثر من وزنه الرمزي. ذهب المحققون الحكوميون إلى مزرعة تبلغ مساحتها اثنين وثلاثين ألف فدان يملكها اللورد فيستي، وهو أرستقراطي إنكليزي وأحد عمالقة إنتاج اللحوم. طرحت السلطات الحكومية أسئلة عما إذا كان أحفاد اللورد قد حصلوا على هذه الأراضي الشاسعة بطريقة قانونية على اعتبار أن امتلاك الأراضي في فنزويلا عملية تُشتهر بفسادها. أقسم ممثلو فيستي أن

باستطاعتهم تقديم الأوراق القانونية المطلوبة كافة، وصوروا أنفسهم على أنهم ضحايا برنامج إصلاحي حكومي مضلِّل. زاد تشافيز من سخونة خطابه المتعلق بالإصلاح الزراعي منذ زمن طويل، مما شجع مئات المزارعين على اجتياح إل شاركوتي (المستنقعات) وبناء الأكواخ، والبدء بزراعة الأرض. وأصرّ المسؤولون الحكوميون على أنهم اقتصروا على مصادرة الأراضي غير الصالحة وعلى أنهم سددوا ثمنها لأصحابها. وكانوا يعمدون إلى وضع أيديهم على الأراضي مباشرة فقط في حال تم الحصول عليها بطريقة غير قانونية.

ادّعى النقاد بأن تشافيز يقوم بمهمة وهمية عميقة شديدة التكلّف من المحتم لها أن تفشل، على غرار العديد من الجهود الأخرى التي بُذلت في مشاريع الإصلاح الزراعي على مرّ تاريخ أميركا اللاتينية. وأشار البعض إلى أن الأفكار التي تراوده هي نفسها الأفكار التي راودت القادة الآخرين الذين حاولوا تطبيق برامج للإصلاح الزراعي وأطيح بهم في انقلابات دعمتها وكالة الاستخبارات المركزية، بما في ذلك سلفادور أليندي في تشيلي في العام 1973 وجاكوبو أربينز في غواتيمالا في العام 1954. فحوى الرسالة التي أرادوا إيصالها هي: لا تُتعب نفسك بالمحاولة.

انتقد المدافعون عن البيئة تشافيز أيضاً لمحاولة تقسيم محميات هامة مثل مزرعة هاتو بينيرو التي تبلغ مساحتها 195000 فدان في ولاية كوجيديس. تعتبر هذه المزرعة موطن فصائل معرضة للانقراض أو فصائل غير عادية مثل الجغوار، وطائر القرّاز المرقط بدوائر صفراء، وخنزير الماء – أكبر القوارض في العالم – والتابير الذي يجمع في شكله بين الخنزير وآكل النمل. كما يربّى في المزرعة نحو أحد عشر ألف رأس من الماشية، وهي تستضيف علماء يجرون أبحاثاً، وتجذب السائحين من مختلف أنحاء العالم والذين يدفع الواحد منهم مئة دولار أو أكثر في اليوم مقابل رؤية شيء من الحياة البرّية الأكثر غرابة في أميركا الجنوبية. وحذّر علماء البيئة من أن تجزئة المزرعة إلى ممتلكات صغيرة ستمحو قيمة المحمية وتدمّر واحداً من آخر الأمثلة على الأراضي التي لم تلمسها أيدي البشر في هضاب الأنديز البرّية.

لكن هاتو بينيرو لم تكن في نظر بعض أنصار تشافيز إلاّ حصناً مسوّراً يمكن للسائحين الأجانب الذين يحملون الدولارات وللفنزويليين الأثرياء فقط التمتع به في الوقت الذي بالكاد يستطيع العديد من الفنزويليين تدبير طعامهم. وشككوا في مزاعم الملاّك بأنهم يحافظون على البيئة، وأشاروا إلى عمليات استئصال الأشجار واسعة الانتشار المزعومة في تلك المنطقة. وصوّر تشافيز ملاّك بينيرو بأنهم جزء من نخبة ملاك الأراضي البعيدين عن الواقع وعديمي المبالاة في فنزويلا.

عزم على الدفع قدماً ببرنامجه الخاص بالإصلاح الزراعي. وبذل جهوداً في تصحيح الأخطاء السابقة واشترط تخصيص 15 في المئة من القروض المصرفية للزراعة. وعلى الرغم من المخاوف واسعة الانتشار، احترمت الحكومةُ الملكيةَ الفردية

بوجه عام، بحيث كانت عمليات المصادرة محدودة. وفي النهاية، توصلت الحكومة إلى اتفاق مع ملاك إل شاركوتي. ووافقت الشركة على بيع المزرعة في ولاية كوجيديس مقابل 4.2 مليون دولار، وعلى بيع مزرعة أخرى لها في ولاية أبيور وأراضٍ تبلغ مساحتها 106000 فدان مقابل 4.7 مليون دولار. واحتفظت الشركة بثماني أراضٍ أخرى تبلغ مساحتها 638000 فدان تشكل الغالبية العظمى من ممتلكاتها. وامتدح تشافيز هذه الاتفاقية ووصفها بأنها نموذج لكبار ملاك الأراضي الآخرين. كما أن الحكومة نفسها كانت تملك مساحات شاسعة من المستنقعات التي يمكنها توزيعها.

إذا كان باستطاعة تشافيز تحقيق إصلاح زراعي دائم في فنزويلا، سيكون ذلك إنجازاً ضخماً. وبحلول مستهل العام 2007 كانت الحكومة قد وزعت نحواً من تسعة ملايين فدان على مئة وثمانين ألف عائلة. لكن ثمن ذلك كان باهظاً، فقد اغتيل نحو من مئة وسبعين من قادة المزارعين في الصراع.

وإلى جانب الإصلاح الزراعي وحركة الإدارة بالمشاركة، عمل تشافيز على بناء مؤسسات تملكها الدولة في ميادين الاتصالات، والنقل الجوي والبتروكيماويات، فأسس شركات عامة تنتج كل شيء من الجرارات إلى الحواسيب البوليفارية. ووضع حداً لاستقلالية شركة بيتروليوس دي فنزويلا وأحكم سيطرة الحكومة عليها وزاد الضرائب على شركات النفط الأجنبية. وأشارت دراسة جديدة أجريت في العام 2006 إلى أن الاحتياطيات المؤكدة من النفط في فنزويلا، والتي كانت تقدّر في السابق بثمانين مليار برميل، ربما تصل إلى 316 مليار برميل في حال احتساب النفط الثقيل الموجود في شرق البلاد. وهذا ما سيجعل من فنزويلا صاحبة أكبر الاحتياطيات النفطية في العالم بتجاوزها المملكة العربية السعودية التي تملك 260 مليار برميل من الاحتياطيات النفطية.

لم يلقَ النموذج الاقتصادي الناشئ الذي اقترحه تشافيز الكثير من الترحاب. قال النقاد بأنه لا يشكل عملاً قيد الإنجاز، وإنما جزءاً من عمل. وادّعوا بأن التنمية الذاتية والتعاون في الإدارة ليسا أكثر من نموذجين معدّلَين لسياسات بدائل الاستيراد التي اجتاحت المنطقة في الستينيات وفي السبعينيات من القرن الماضي والتي حققت في نظرهم نجاحات محدودة. وشككوا في أن خطط تشافيز ستؤدي إلى ازدهار بعيد المدى، ورأوا أن مشروعه سينهار برمّته متى تراجعت أسعار النفط.

إن الحديث عن الاعتماد الزائد على النفط يشير إلى نقطة صحيحة، على الرغم من أن تشافيز يجادل بأن التعاونيات تهدف على وجه التحديد إلى تطوير مصادر بديلة للدخل. وهو مقتنع بأن الرأسمالية الحرّة فشلت في المنطقة. وأشار حلفاؤه إلى السجل الاقتصادي للمنطقة الذي يبعث على الكآبة منذ مجيء ثورة السوق الحرّة. فخلال الفترة الواقعة بين عامي 1980 و2005، لم يزد مدخول الفرد عن 10 في المئة

فقط وذلك استناداً إلى صندوق النقد الدولي. لكنه نما بنسبة 82 في المئة في الفترة الواقعة بين عامي 1960 و1980 قبل تبنّي الإصلاحات. وخلص الخبير الاقتصادي مارك ويزبورت، الذي وصف هذا النمو بأنه أسوأ أداء اقتصادي بعيد المدى عرفته المنطقة منذ قرن: «كانت السنوات الخمس والعشرين الماضية فشلاً غير مسبوق في أميركا اللاتينية».

وفي هذه الأثناء، عاد اقتصاد فنزويلا إلى النهوض بعد أن عانى من الاضطرابات التي ترافقت مع انقلاب العام 2002 ومع إضراب قطاع النفط. وارتفعت معدلات النمو بشكل صاروخي فبلغت نسبته 28 في المئة في العامين 2004 و2005، وهو أعلى معدل في المنطقة. واستمرّت هذه الزيادة في العام 2006 مع تحقيق معدل نمو بلغ 10.3 في المئة. حتى إن ذي إكونوميست خلصت، بعد الإشارة إلى بعض الميول المقلقة، إلى أن سياسات تشافيز الاقتصادية لا تقارَن بحال من الأحوال بالشيوعية الكوبية. ووفقاً لبعض التقديرات، بات القطاع الخاص يملك حصة أكبر من الاقتصاد من الحصة التي كان يملكها قبل وصول تشافيز إلى السلطة. وفيما كان يتكلم عن اشتراكية القرن الحادي والعشرين، رأى العديد من الخبراء الاقتصاديين أن سياساته عبارة عن إصلاح تدريجي لديه من القواسم المشتركة مع الديمقراطية الاجتماعية على النمط الأوروبي أكثر مما لديه من قواسم مشتركة مع الشيوعية الكوبية. حتى إن العصابات الماركسية وزعماءها مثل دوغلاس برافو رأوا أن حليفهم السابق خائن. وبدلاً من أن يكون ثورياً، قال برافو بأن تشافيز أصبح ليبرالياً جديداً.

إن فكرة تشافيز التي تتحدث عن اقتصاد جديد لا تعتمد على الأفكار التقليدية القائمة على التجارة بين الدول بل تعتمد ببساطة على حصول دولة ما على أقصى قدر من الأرباح لنفسها. في الواقع، يتحدث تشافيز عن فكرة التضامن. فبدلاً من المنافسة، رعى مبدأ التعاون. وأوضح مثالاً على ذلك هو الاتفاقات النفطية التي وقّع عليها مع بلدان عدة في أميركا اللاتينية. فبعض هذه الاتفاقات قدّمت حسومات مالية سمحت للبلدان المعنية بسدّ ما يصل إلى 40 في المئة من الفاتورة على فترات يمكن أن تصل إلى خمسة وعشرين عاماً، وبمعدلات فائدة تقل عن 1 في المئة. وفي المقابل، تحصل فنزويلا على كل شيء من الأطباء الكوبيين إلى الأبقار الأرجنتينية إلى الأرز الكاريبي. أي أنه لم يكن يوزع النفط من دون مقابل. وكما قال تشافيز: «كم تبلغ كلفة 20000 طبيب كوبي؟».

استخدم الصفقات النفطية في دعم رؤيته لأميركا لاتينية موحدة كما سبق أن اقترح بطله سيمون بوليفار قبل قرنين من الزمان. وبناء على ذلك، قام بتشكيل تحالفات إقليمية من خلال مواثيق مثل بترو كاريبي الذي وفّر لأربع عشرة دولة كاريبية ما مجموعه 198000 برميل نفط في اليوم مع شروط تمويل سهلة. وميثاق بتروسور وحّد البرازيل والأوروغواي والإكوادور والبيرو وبوليفيا. تصور تشافيز توحيد هذه

الدول من خلال مسعى مشترك ضخم أطلق عليه بترو أميركا.

أحد أكبر مشاريعه الهادفة إلى توحيد المنطقة طموحاً هو خط الغاز الطبيعي المقترَح الذي من المزمع أن يمتدّ مسافة 9000 كيلومتر من فنزويلا إلى البرازيل ثم ينعطف جنوباً نحو الأرجنتين. وستعمل الخطوط الفرعية على وصل هذا الخط بالأوروغواي والباراغواي وبوليفيا. قُدِّرت كلفة المشروع بعشرين مليار دولار، على الرغم من أن بعض الخبراء يعتقدون بأن التعقيدات المصاحبة له يمكن أن تزيد هذا الرقم بمعدل الضعف. سيبلغ طول هذا الخط ضعف طول الحدود الأميركية مع المكسيك وربما يكون أطول خط أنابيب لنقل الغاز في العالم. أطلق تشافيز على هذا المشروع اسم خط أنابيب الجنوب. ووصفه بأنه رمز لعهد جديد من التعاون الإقليمي وتراجع حجم التأثير الأميركي في أميركا اللاتينية. قال تشافيز: «سيُنهي هذا المشروع إجماع واشنطن. إنه بداية إجماع الأميركيين الجنوبيين».

وصف بعض الخبراء في مجال الطاقة المشروعَ بأنه حلم، ورأوا بأنه مدفوع بالطموحات السياسية لتشافيز أكثر مما هو مدفوع بالاعتبارات الاقتصادية. وأشاروا إلى الصعوبات التي تكتنف اجتياز نظم بيئية شاسعة ودقيقة في غابات الأمازون المطريّة في كل من فنزويلا والبرازيل. وحذّر الخبراء في مجال البيئة من الضرر الذي لن يلحق بفصائل الطيور والحيوانات الغريبة التي تستوطن في المنطقة وحسب، بل وسيعزل القبائل المحلية أيضاً. وهناك جماعات مثل غرين بيس لا تنظر بإعجاب إلى سجل تشافيز في هذا المجال، على الرغم من أنه بدأ بإظهار تحسس أكبر لهمومها، فأصدر تحذيرات تتعلق بالاحتباس الحراري، وحثّ على وضع ضوابط لانبعاثات الكربون، وحثّ أنصاره على التقليل من استخدامهم لسياراتهم الخاصة وعلى استخدام وسائل النقل العام، وشجع على توزيع الملايين من مصابيح الإنارة الفلورسنتية ذات الاستهلاك المتدني من الطاقة، وعلى تركيب أعمدة إنارة في الشوارع تعتمد على الطاقة الشمسية. لكن القائد الفنزويلي أصرّ على أن مشروع الغاز الطبيعي مشروع عملي. وأشار إلى أنه سبق أن بنت روسيا خط أنابيب لنقل الغاز يمتد آلاف الكيلومترات وصولاً إلى أوروبا. كما حظيت الفكرة بدعم لُولا رئيس البرازيل، وكيرشنير رئيس الأرجنتين. ويعتقد بعض الخبراء بأن الوقت اللازم لاستكمال المشروع يتراوح ما بين خمس وسبع سنوات، في حين أن تشافيز يؤكد على أنه سيغطي كلفته بعد خمس إلى ثماني سنوات من اكتماله.

طرح تشافيز مشاريع أخرى لتعزيز الوحدة الإقليمية، فاقترح إنشاء مصرف الجنوب الذي سيكون بمثابة نسخة أميركية لاتينية عن صندوق النقد الدولي. واقترح استخدام عملة أميركية لاتينية مشتركة مثل اليورو الأوروبي. وانضمّ إلى اتحاد تجاري يعرف باسم ميركوسور ويضمّ البرازيل والأرجنتين والبارغواي والأوروغواي. حتى إنه اقترح إطلاق قمر صناعي خاص بأميركا اللاتينية إلى الفضاء وتشكيل حلف لاتيني

على غرار حلف الناتو. لكن تلك الفكرة لم تحظ بكثير من الدعم في منطقة لديها تاريخ حافل بالديكتاتوريات العسكرية الدموية.

لكنّ الفكرة المشتركة في هذه المبادرات كافة هي تعزيز الوحدة بين دول أميركا اللاتينية - وهي وحدة كانت تشكل جزءاً من رؤية بوليفار - والتشجيع على عالم متعدد الأقطاب. لم تكن تلك المبادرات تستند إلى معارضة إمبراطورية الولايات المتحدة وحسب، بل وإلى اعتقاد بأن العالم سيكون أكثر استقراراً مع بروز عدد من مراكز القوى.

بناء على هذا الاعتقاد، وسّع تشافيز مشروعه الاقتصادي الجيوسياسي إلى ما وراء المنطقة ليصل إلى العالم. وبعد أن واجه علاقات تزداد عدائية مع إدارة بوش التي تسعى إلى عزله عن الساحة الدولية، بحث عن حلفاء لفنزويلا. أكبر مبادرة دولية خارج أميركا اللاتينية كانت على ارتباط بالصين. فالعملاق الآسيوي خرج من عقود من السيطرة الشيوعية وبدأ بتبنّي عناصر الرأسمالية على نحو متزايد. وقد نمت تجارة الصين مع أميركا اللاتينية بدرجة كبيرة في سياق بحثها عن أسواق جديدة. قرر تشافيز الاستفادة من هذه الفورة. وأسواق الصين المتعطشة إلى الطاقة جعلت ذلك البلد عنصراً مثالياً في خطط تشافيز الهادفة إلى إبعاد نفسه عن الولايات المتحدة إلى أقصى حد ممكن ودعم عالم متعدد الأقطاب. ولذلك أبرم اتفاقاً لتصدير النفط إلى الصين.

بدأت هذه العلاقة بالتزام في العام 2005 بتصدير ثلاثين ألف برميل من النفط في اليوم. وفي العام 2007، قفز هذا الرقم إلى ثلاثمئة ألف برميل، مع هدف نهائي ببلوغ مستوى نصف مليون برميل في اليوم بحلول العام 2009 أو 2010. وكان ذلك جزءاً من خطة لزيادة صادرات فنزويلا من النفط الخام ومن مشتقاته الأخرى إلى آسيا من 15 إلى 45 في المئة.

احتاج تشافيز إلى مزيد من ناقلات النفط لتصدير النفط إلى الصين وإلى أجزاء من آسيا حيث كان يعمل على توسيع شبكة التوزيع، ولذلك أبرم صفقة بلغت قيمتها 1.3 مليار دولار مع الصينيين لشراء ثماني عشرة ناقلة نفط. ووقّع على اتفاقات أخرى مع البرازيل لشراء عشر ناقلات أخرى، ومع الأرجنتين لشراء أربع ناقلات، بما في ذلك ناقلة اسمها إيفا بيرون. وبالإجمال، أمل بمضاعفة حجم أسطول فنزويلا ليصل إلى ثمان وخمسين ناقلة نفط بحلول العام 2012. كما وقّع على اتفاقيات مع الصين للحصول على كل شيء، من بناء المنشآت التي تصنّع الحواسيب إلى الهواتف الخلويّة ومنصات الحفر العائمة في فنزويلا. وفي آب 2006، قام بزيارته الرابعة إلى الصين كرئيس. بحلول ذلك التاريخ، بات لشركة بيتروليوس دي فنزويلا مكتب في بكين.

وصف المشككون الخطة النفطية لتشافيز بغير الواقعية، بالنظر إلى المسافة الشاسعة

التي تفصل بين فنزويلا والصين؛ تستغرق الرحلة بواسطة السفينة خمسة وأربعين يوماً وفقاً لبعض التقديرات. ورأى الخبراء بأن النقل فقط سيكلّف تشافيز ما بين 5 إلى 10 دولارات لكل برميل. ودافعوا عن القول بأن السوق الطبيعية لفنزويلا هي الولايات المتحدة، وهي الدولة التي تستورد 60 في المئة من النفط الفنزويلي. ردّ تشافيز بأنه يستطيع الالتفاف على مشكلات النقل عبر التوقيع على اتفاقيات مقايضة مع حلفاء جدد مثل روسيا وإندونيسيا وأستراليا لإيصال النفط إلى الصين، بحيث لا يعود بحاجة إلى إرسال ناقلاته لتعبر المحيط الهادئ بنفسها.

كانت إيران أكثر أعضاء تحالف تشافيز الدولي الموسع مع الدول النامية لفتاً للأنظار. بدأ تشافيز بأولى اتصالاته مع عملاق النفط الشرق الأوسطي في وقت مبكر من رئاسته عندما نجح في دفع كارتيل أوبك إلى خفض إمداداته وزيادة الأسعار. في العام 2006، ومع حثّ إدارة بوش العلني على إزاحته عن السلطة، زاد تشافيز من وتيرة تعزيز روابطه مع إيران، التي تشكل جزءاً من محور الشرّ بالنسبة إلى جورج دبليو بوش إلى جانب العراق وكوريا الشمالية. رأى تشافيز أنه لا يوجد ما يمكن أن يخسره بإقامة تلك العلاقة. وبما أن تصرفات الحكومة الأميركية تشير إلى أنها ليست حليفة له، كان عليه البحث عن حلفاء في مراكز عالية. وقّع تشافيز على مجموعة اتفاقيات مع إيران دعت إلى بناء مصانع فنزويلية إيرانية مشتركة في تلك الدولة الأميركية الجنوبية لإنتاج كل شيء مثل الجرّارات الحمراء اللامعة والإسمنت، والأدوات التي تُستخدم في الجراحة، والطوب، والدراجات الهوائية، والسيارات، والحافلات. كما اتفقت البلدان على إنتاج النفط والمنتجات البتروكيماوية الأخرى معاً، والبدء ببرنامج لتبادل الطلاب، وتسيير خط طيران مباشر بين كاراكاس وطهران.

وإلى جانب الاتفاقات التجارية، أصبح تشافيز أكثر الداعمين المجاهرين برأيهم عن حقّ إيران بتطوير الطاقة النووية، التي تصرّ إيران على أن المقصود منها توليد الكهرباء فقط على الرغم من ادعاءات الولايات المتحدة بالعكس. وعندما زار تشافيز طهران في تموز 2006، مُنح الوسام الأعلى في البلاد، الوسام الذهبي من الرتبة الأولى للجمهورية الإسلامية. وعندما قام الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد بزيارة فنزويلا بعد عدة أسابيع من ذلك في أيلول، منحه تشافيز بالمقابل وسام شرف سيمون بوليفار. وأشار كل منهما إلى الآخر بكلمة أخ، وجعلا لنفسيهما من تحقير عدوهما المشترك، حكومة الولايات المتحدة بقيادة بوش والحليف الرئيسي لها في الشرق الأوسط أي إسرائيل، قضية مشتركة. قال تشافيز: «دعونا ننقذ الجنس البشري. لنقضِ على إمبراطورية الولايات المتحدة».

كان لتحالفه مع إيران جملة من الفوائد. ففي أعقاب الإطاحة بالشاه واندلاع أزمة الرهائن في العام 1979، بقي في حوزة إيران طائرات حربية أميركية الصنع، منها طائرات أف – 111 وأف – 14 وأف – 5 سبق أن اشتراها الشاه عندما كان في

السلطـة. لكـنّ إيـران توصلـت إلى طريقة لجعلهـا صالحة للطيران بنجاحها في تركيب قطـع غيـار بديلـة عـن القطع الأميركية، وربما تشاطر خبراتها الآن مع تشافيز لإبقاء طائرات أف-16 الفنزويلية وغيرها صالحة للطيران على الرغم من رفض الولايات المتحدة بيع فنزويلا قطع غيار.

أطلـق الحلـف المزدهـر بين فنزويلا وإيران صفـارات الإنذار في إدارة بوش. وتـرددت مزاعـم لا أساس لهـا بـأن فنزويـلا ربمـا تصـدر كميات مـن اليورانيوم المستخـرَج مـن غابـات الأمـازون إلـى إيـران لمساعدتها على تطوير قـدرة نووية. وبـرزت سيناريوهـات مفزعـة ترتكز على إيجـاد الراديكاليين والإرهابيين... موطئ قـدم لهـم فـي فنزويـلا. في الواقع، لم تكن إقامة علاقـات وثيقة بين فنزويلا والدول الإسلاميـة حدثـاً جديـداً، فهـي تعود إلى تشكيـل أوبك في بغداد في العام 1960 والتي يعـود تشكيلهـا بدرجـة كبيرة إلـى الجهود التي بذلها وزير النفط الفنزويلي خوان بابلو بيريز ألفونسو. ولا يوجد فرق كبير بين تحالف تشافيز مع إيران وبين العلاقات الوثيقة التـي تربـط الولايـات المتحـدة بأنظمة مثيرة للجدل كجزء ممـا وصفه هنري كيسنجر بالسياسة الواقعية.

وعلى الرغم مما تقدم، تبرز صداقة تشافيز المتنامية لأحمدي نجاد تطرّفه المدفوع بعدائية إدارة بوش له. ولو أنها انتهجت سياسة أكثر اعتدالاً على غرار إدارة كلينتون، سيكون من المنطقي التساؤل عما إذا كان تشافيز سيتودد إلى أكثر النظم عداء للولايات المتحدة على وجه الأرض. لكن عهد أوتو ريتش وجماعته جعلت هذا التساؤل في غير محلّـه. فسياستهـم المحافظـة علـى نحو مبالغ فيه والتـي ترجع إلى التعصب الذي كان سائـداً فـي الحـرب البـاردة ساعدت على تطرّف تشافيز وعلى تنفيره. ومع أنه جرى استبدال روجر نوريغا، خليفة ريتش، بالدبلوماسي توماس شانون في تشرين الأول 2005، لكـن السياسـات تجـاه فنزويـلا بقيت على حالها تقريبـاً. ووصف أحد الخبراء المحليين ذلك «بدبلوماسية الطعن بالحربون».

لـم تسـع الولايـات المتحـدة إلى التخفيف من حـدة التوتر في علاقاتها مع تشافيز حتـى عندمـا غرقـت الولايات المتحـدة في الحرب في العراق وبعد أن ارتفعت أسعار النفط بشكل صاروخي. وفي هذا الصدد، أشارت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس إلـى فنزويـلا وإلـى كوبـا بأنهما «صديقتـان تابعتان» لإيران. وأعلنـت بأن الولايات المتحدة تتبنّى استراتيجية التلقيح في البلدان الأخرى في أميركا اللاتينية للحد من تأثير فنزويـلا فيهـا. وفـي آب 2006، عيّنـت إدارة بوشـن مسـؤولاً عمـل لفترة طويلة في وكالـة الاستخبـارات المركزيـة يدعى جـاي باتريك ماهر للإشراف على عمليات جمع المعلومـات الاستخباريـة المتعلقـة بفنزويلا وكوبا. سبق أن شغل ماهر مناصب مشابهة تختصّ بشـؤون إيـران وكوريـا الشمالية فقط. وبذلك باتـت فنزويلا تُعتبر الآن على

نحو منافٍ للعقل تهديداً يرقى إلى مستوى «محور الشرّ».

لم يكن تصاعد حدة العدائية الأميركية لتشافيز وحكومته بعيداً عن انتباه الفنزويليين العاديين. فعندما زار السفير ويليام براونفيلد، الذي حلّ محل تشارلز شابيرو، أحد الأحياء في كاراكاس في نيسان 2006 للتبرع بمعدات خاصة بلعبة كرة القاعدة، تجمّع بعض أنصار تشافيز خارج الإستاد وصاحوا: «عد إلى بلادك، عد إلى بلادك». وأمطروا سيارته بالبيض والطماطم والبصل عندما غادر الإستاد. كما لحق العشرات من سائقي الدراجات النارية سيارةَ براونفيلد على أحد الطرقات العامة، ورشقوها بالطعام، وركلوها عندما علق السفير في زحمة السير. كان ذلك تكراراً لما حدث في العام 1958 عندما كاد فنزويليون غاضبون من دعم الولايات المتحدة للديكتاتور بيريز جيمينيز أن يسحبوا نائب الرئيس ريتشارد نيكسون من سيارته. ويبدو أن الولايات المتحدة تتعلم القليل من أخطائها السابقة.

منذ أن بات تشافيز يُعتبر خطراً على الديمقراطية وعلى الاستقرار في أميركا اللاتينية، ومنذ إدراج فنزويلا، بناء على أدلة مشكوك فيها، على لائحة الدول الإرهابية، تحولت الولايات المتحدة إلى التحقيق في حلفاء تشافيز، بمن فيهم الأشخاص الذين يدرسون في الجامعات الأميركية. ففي آذار 2006، دخل ضابطان يعملان لدى الشريف في مقاطعة لوس أنجلوس برفقة وحدة خاصة من مكتب التحقيقات الفدرالي مكتبَ البروفيسور ميغيل تنكر سالاس في جامعة بومونا. كان تنكر سالاس، المولود في فنزويلا، أستاذاً جامعياً يدرّس تاريخ أميركا اللاتينية، ومتعاطفاً مع تشافيز بوجه عام. حقق معه الضابطان لمدة خمس عشرين دقيقة، فسألاه عن علاقاته المحتملة بالحكومة الفنزويلية وبالمجتمع الفنزويلي المحلي. حتى إنهما حققا مع بعض من تلاميذه الذين صدف أنهم زاروا مكتبه وتفحصا الرسومات الكرتونية المعلّقة على باب مكتبه.

قال ديفيد أوكستوبي، رئيس الجامعة، بأنه كان للتحقيق أثر يثير القشعريرة، في حين قال تنكر سالاس بأن طلابه شعروا بالخوف. بالنسبة إلى بعض الأشخاص، حمل ذلك الاستجواب المضامين المخيفة للتحقيقات التي كان يجريها مكتب التحقيقات الفدرالي على عهد جاي إدغار هوفر والمتعلقة بقادة حركة الحقوق المدنية مثل مارتن لوثر كينغ جي آر والفنانين المعارضين للحرب، بمن فيهم جون لينون في برنامج التجسس السري والابتزاز والتخويف في ستينيات القرن العشرين.

على الرغم من جهود الولايات المتحدة لتشويه سمعة تشافيز وتخويف أنصاره، سار نحو تحقيق انتصار في الانتخابات الرئاسية التي جرت في كانون الأول 2006. وسجل رقماً قياسياً ضمن له تحقيق انتصار ساحق بحصوله على نسبة 63 في المئة من أصوات المقترعين مقابل 37 في المئة في انتخابات حُسمت نتائجها قبل بضعة شهور. كان منافسه الرئيسي مانويل روزاليس حاكم زوليا، وهو عضو سابق في حزب العمل الديمقراطي في عداد الموقعين على مرسوم كارمونا سيئ الذكر الذي

ألغى كافة المؤسسات الديمقراطية في انقلاب نيسان 2002. لكنّ المعارضة، التي كانت لا تـزال تعيش فـي أوهامهـا، اعتقدت بأنها ستحقق نصراً ساحقاً بترشيحها روزاليس. وعندما خسر في الانتخابات، سحب بعضهم الورقة نفسها التي استخدموها في استفتاء العام 2004 بدعوى وجود عملية تزوير.

لكنّ روزاليس، الذي يستحقّ الثناء، أقرّ بهزيمته، وللمرّة الأولى يعترف بعض من المعارضة، وإن كانوا يشكلون أقلية، بأن تشافيز هو رئيس البلاد المنتخَب بطريقة شرعية. وهذا ما فتح إمكانية تجاوز فنزويلا مرحلة الانقلابات والتخريب الاقتصادي الذي ميّز فترة الرئاسة الأولى لتشافيز، والانتقال إلى عهد جديد من السياسات الانتخابية العادية.

بعد أن قويت شوكة تشافيز بهذا النصر الساحق، اتخذت خططه الخاصة باشتراكية القرن الحادي والعشرين منعطفاً حاداً بعد الانتخابات. كان على وشك الإدلاء بالقسم لبدء مدة ولاية ثانية من ستّ سنوات في كانون الثاني 2007 عندما أعلن بأن الحكومة ستقوم بتأميم العديد من الخدمات في قطاعات الاتصالات والكهرباء والغاز الطبيعي. وقـال أيضـاً فـي 1 أيـار بأن الحكومة تستحوذ على الحصة الأكبر في المشاريع النفطية الأربعـة التـي تبلـغ قيمتهـا عدة مليارات من الـدولارات في شرق فنزويلا حيث تملك الشركات الدولية رخصاً للتنقيب عن النفط. وفي الوقت نفسه، قال تشافيز بأنه سيحلّ الحركة الجمهورية الخامسة ويشكّل حزباً اشتراكياً وحيداً هو الحزب الاشتراكي الموحّد فـي فنزويـلا، لدمـج الجماعـات المتفرقة التي تدعمه. كما أعلن بأن الحكومة لن تجدد رخصة شبكة تلفزيون راديو كاراكاس التلفزيونية عندما تنتهي في أيار 2007. وسعى إلى إصدار مراسيم تمتد فترة العمل بها مدة ثمانية عشر شهراً في مجالات معينة مثل الاقتصاد. وعاد وأجرى تعديلاً وزارياً، فأقال اثنين من أقرب حلفائه - نائب الرئيس خوسيـه فيسينتـه رانجـل وأريستوبولو إيستيوريز الذي حلّ محله أدان، شقيق تشافيز، في منصب وزير التعليم.

بلغـت هـذه التطـورات ذروتهـا عندما أدلى تشافيز بالقسم الرئاسي في 10 كانون الثانـي وكـرر عبـارة كاستـرو الشهيرة: «الوطن الأم، والاشتراكيـة، أو الموت، أنا أقسم بذلك».

أطلقت العبارة والتعليقات النارية التي أدلى بها على مدى عدة أسابيع صفارات الإنـذار فـي مؤسسـات المجتمع، وفي وسائل الإعلام، وفي إدارة بوش. أعلن هؤلاء بأن ذلك بمثابة برهان توكيدي على أن تشافيز انتقل أخيراً إلى ديكتاتورية على نمط كاستـرو. وادّعـى النقـاد بأنـه يقضي على حرّية التّعبير برفضـه تجديد رخصة راديو تلفزيـون كاراكاس، وبأنـه يسحق المعارضة السياسية بتشكيل حزب موحَّد، وبالتحول إلى اقتصاد موجَّه من قبل الدولة بتأميمه الصناعات الرئيسية.

لم يذكر النقاد بالطبع سوى جزء من القصة. فقد اقتصر تشافيز على تأميم شركة الاتصالات كانتيفي فقط، والتي سبقت خصخصتها في العام 1991 وباتت تحتكر الخطوط الأرضية في فنزويلا. وعلى الرغم من أن كانتيفي استطاعت تحسين بعض الخدمات في بلد بلغت الخطوط الهاتفية فيه درجة من السوء جعلت الشركات توظف سكرتيرات بدوام كامل لمجرّد إجراء اتصالات تستغرق اليوم بأكمله، فقد كانت أبعد ما يكون عن الكمال. فغالباً ما كان الأمر يتطلب سنتين فضلاً عن تقديم الرّشى لتركيب خط هاتفي أرضي. كما أغفلت تلك الانتقادات الموجَّهة لتشافيز حقيقة أن الحكومة خططت بوجه عام لتعويض الشركات التي تشتريها بدفع ثمنها المتعارف عليه في السوق. وكان ذلك منسجماً مع سجلها حتى هذا التاريخ، على الرغم من أنها قالت في مسألة كانتيفي بأنها ستأخذ في الاعتبار المبالغ التي تدين بها الشركة للعمال فضلاً عن دين تكنولوجي غير محدد يعود إلى الدولة. رأى تشافيز، بعد أن كادت المعارضة أن تخرجه من الحكم في العام 2003 بوقف العمل في صناعة النفط الحيوية، أنه من الحكمة أن تسيطر الحكومة على القطاعات الاقتصادية الاستراتيجية الرئيسية في البلاد.

لم يكن رفض تجديد رخصة راديو تلفزيون كاراكاس رقابة مكشوفة ببساطة، ولكنه إجراء استند إلى تاريخ الشبكة الحافل برفض دفع ما يتوجب عليها من ضرائب وغرامات للحكومة، والأسوأ من ذلك، دعمها الوقح لانقلاب نيسان 2002 ومشاركتها فيه ودعمها لإضراب قطاع النفط في وقت لاحق من ذلك العام. لقد أدارت الشبكة نفسها بطريقة – عبر تحريض الناس على الإطاحة برئيس منتخَب بطريقة ديمقراطية – لم تكن لتسمح لها لجنة الاتصالات الفدرالية بالعمل مدة دقيقتين في الولايات المتحدة. لكن الأمر تطلب خمس سنوات لكي تغلقها حكومةُ تشافيز، على الرغم من أنه سُمح لها بالبث الكابلي وبواسطة الأقمار الصناعية.

كما أن خطوته الهادفة إلى تشكيل حزب وحيد أسيء فهمها. فهو لم يحظر أي حزب سياسي، بل كان يدعو الجهات التي تدعمه إلى الوقوف في صف واحد. أي أنه لا يزال مسموحاً للمعارضة بأن تعمل. وهي أيضاً دعت إلى تشكيل حزب معارضة جديد وموحَّد. كما أنه لا يوجد سبب يدعو تشافيز إلى حظرها، إذ إنه يمكنه إلحاق الهزيمة بها بسهولة في انتخابات حرّة ونزيهة.

لكن ما من شك في أن ثورة تشافيز كانت في طريقها إلى الانتقال إلى مرحلة أكثر راديكالية، ولا يزال من غير المعروف الغاية التي ستنتهي عندها. حتى إن بعض أنصار تشافيز تساءلوا عن السبب الذي يدعوه إلى إصدار مراسيم في قضايا معينة في الوقت الذي يسيطر فيه أنصاره على الجمعية الوطنية بالكامل. كما أنهم انزعجوا من افتقار حكومته إلى وزراء محترمين مثل أريستوبولو إيستيوريز وخوسيه فيسينته رانجل اللذين وقفا بجانبه – بكل ما في الكلمة من معنى – خلال أحلك الظروف التي

مرّت بها رئاسته.

كان من الممكن بالتأكيد أن يعمد تشافيز إلى تكرار ثورة كاسترو في فنزويلا، فيبني دولة شمولية حيث تسيطر الحكومة على كل شيء بدءاً من منشآت إنتاج النفط إلى محلات بيع الآيس كريم. لكن ما بدا أنه الأكثر احتمالاً هو أنه يسير في اتجاه يؤدي إلى اقتصاد مختلط وديمقراطية اشتراكية عبر تأميم بعض الصناعات الاستراتيجية الرئيسية، وتوحيد قاعدته السياسية لدفع مشروعه الاشتراكي الجديد إلى الأمام، مع المحافظة على حرّية التعبير والمؤسسات الديمقراطية.

مع بدء تشافيز رئاسته الثانية التي تمتد ستّ سنوات في العام 2007، طُرح سؤال حول ما إذا كانت ثورته البوليفارية تعمل على تحسين مستوى معيشة الناس بطريقة مستدامة، أم أنها مجرّد خطاب سياسي حار ومهجور. والسؤال الآخر المطروح هو ما إذا كان تشافيز سيعمّق عمليته الثورية عبر منح الحركات التي تتألف من أفراد عاديين مزيداً من السلطات أو تحويل نفسه إلى رئيس لا يمكن استبداله ما من شك في أن ثورته ستنهار في اليوم الذي يترك فيه منصبه. إذا انفتح على الآخرين وضمّ شخصيات ممن لديها وجهات نظر ناقدة إلى دائرة السلطة، فسوف تبقى الثورة. وفي حال تميز بالغرور وانكمش إلى دائرة التملق والأشخاص الذين يقولون: «نعم»، فقد تنهار الثورة.

كما هو الحال مع سائر الحكومات الأخرى، كانت حكومته عبارة عن تشكيلة من العناصر المتباينة. وفي مقدور معارضيه الإشارة إلى نواحي قصور واضحة. إحدى أهم هذه النواحي كانت الحرب على الفساد. فقد وصل تشافيز إلى السلطة بعد أن تعهد بمحاربة الفساد الذي يعدّ مستواه في البلاد أحد أسوأ المستويات في العالم. لكن بعد أن أمضى ثماني سنوات في هذه المعركة، بالكاد استطاع تحقيق إنجاز يمكنه الإشارة إليه. بقي الفساد أحد مظاهر الحياة في فنزويلا. والمزاعم التي تتحدث عن ارتكاب تجاوزات طالت حتى تعاونية حكومة ضخمة تنتج السكر في مسقط رأسه باريناس. وجادل تشافيز بأنه لا يمكن وصف الفساد بأنه مشكلة ببساطة، بل هو ثقافة في بلد يعتقد فيه العديد من الناس بأنهم وحدهم المجانين الذين لا يستحوذون على كل ما يستطيعون. والحكومة تستحق الثناء لأنها اعتقلت العديد من ضباط الجيش المتورطين في فضيحة مصنع السكر في باريناس. لكن حتى بعض حلفاء تشافيز اعترف بأنه بحاجة إلى محاربة الفساد بمزيد من الشراسة.

أشار النقاد إلى ارتفاع معدلات الجريمة بأنه فشل آخر لتشافيز. في الواقع، كانت معدلات الجريمة مرتفعة أصلاً طوال تسعينيات القرن العشرين ولم تتراجع في عهد تشافيز وإنما ازدادت سوءاً وفقاً لبعض التقديرات. وفي هذا السياق، أكّد تقرير أعدته الأمم المتحدة على أن فنزويلا تعاني من أعلى عدد للوفيات من جراء حوادث

إطلاق النار بالنسبة إلى الفرد في العالم. لكنّ الحكومة أصرت على أنها تحرز تقدماً في معركتها ضدّ الجريمة من خلال محاربة أسبابها، ومحاربة الفقر واسع الانتشار، وإصلاح الفساد المشهور وقوات الشرطة سيئة التدريب والتي لا يتقاضى أفرادها أجوراً كافية. لكن على غرار دول أميركا اللاتينية الأخرى، يبقى حكم القانون في فنزويلا محدوداً والنظام القضائي ضعيفاً، على اعتبار أن القضاة يشعرون بالضعف أمام الإغراءات المالية والضغوط السياسية.

كما كان تشافيز محل انتقادات وجهها معارضوه وحتى بعض أنصاره لفشله في القضاء على ثقافة المحسوبيات في البلاد. في فنزويلا، غالباً ما تكون البلانكا (الصِلات) أكثر أهمية في الحصول على وظيفة في القطاع الخاص أو العام من المستوى التعليمي أو المؤهلات الأخرى. وكذلك الحال بالنسبة إلى الولاء إلى الحزبين الحاكمَين، حزب العمل الديمقراطي والحزب المسيحي الاجتماعي (COPEI). وزعم النقاد بأن تشافيز لم يقم بالكثير لتغيير عقلية المحسوبية، وبأن هذه العقلية تطال حكومته نفسها. ويذكر في هذا السياق أن لويس تاسكون، العضو في الجمعية الوطنية وأحد أنصار تشافيز، حصل على لائحة بأكثر من ثلاثة ملايين شخص سبق أن وقعوا التماسات لإجراء استفتاء ضدّ تشافيز. نشر تاسكون اللائحة على موقع إلكتروني في الأصل بهدف السماح لأنصار تشافيز بالتأكد من أن أسماءهم لم تُدرَج فيها في عملية تزوير. لكنّ أعضاء الحكومة استخدموها في النهاية في حرمان معارضي تشافيز من كل شيء بدءاً بالوظائف ووصولاً إلى رخص القيادة وجوازات السفر. وصف المعارضون ذلك بأنه شكل من أشكال التمييز السياسي الذي ابتُليت به الأنظمة الفنزويلية القديمة والذي ما انتُخب تشافيز إلاّ من أجل التخلص منه. وردّ أنصار تشافيز بأن القلق بشأن المتعاطفين مع المعارضة والذين يشغلون مناصب في القطاع العام لا داعي له، علماً بأن العديد منهم ساعدوا على زعزعة الاستقرار أو على إضعاف الحكومة في أثناء إضراب قطاع النفط.

في النهاية، جرى تعليق العمل مؤقتاً بلائحة تاسكون من قبل حركة الجمهورية الخامسة، ودعا الرئيسُ شخصياً البلادَ إلى دفن اللائحة. لكن الحادثة أثارت تساؤلات حول مقدار التأثير الذي أحدثته الثورة البوليفارية في الثقافة السياسية في البلاد. وهذا يظهر أن انعدام كفاءة الحكومة، وهي مشكلة معمّرة في فنزويلا وفي كافة أنحاء أميركا اللاتينية، لم تختفِ من البلاد.

اشتكى النقاد أيضاً من تركيز السلطات في يد تشافيز، وزعموا بأنه سيطر على الحكومة والمحاكم والمدعي العام والجيش والمجلس الانتخابي الوطني، وكل شيء آخر. صحيح أن تشافيز استخدم تأثيره الهائل في فنزويلا بوصفه قائد الثورة البوليفارية، لكن ذلك لم يكن كله من صنيعه هو، والأمر لا يختلف عن باقي البلدان. ففي الولايات المتحدة، الرئيس هو من يعيّن القضاة في المحكمة العليا؛ رشّح جورج دبليو بوش محافظين متشابهين في آرائهم. كما أن الرئيس الأميركي يعيّن المدعي

العام، فقد رشّح جون أف كنيدي على سبيل المثال شقيقه بوبي. والمعارضة قبلت في البداية بتشكيلة المجلس الانتخابي. وحتى وإن كان المجلس مسيساً، لا يمكن لأحد أن يجادل عن قناعة بأن الانتخابات الفنزويلية لم تكن حرّة ونزيهة. صحيح أن تشافيز يتمتع بأغلبية ساحقة في الجمعية الوطنية - حصل أنصار تشافيز في كانون الأول على 197 مقعداً - لكن مردّ ذلك أن المعارضة قاطعت الانتخابات في ذلك الشهر بعد أن أدركت بأنها ستُمنى بهزيمة منكرة. والهيمنة المطلقة لأنصار تشافيز في الجمعية أعطت المعارضة ما أرادت كالذخيرة التي تتيح لها توجيه التهم بأنها تعيش في بلد ديكتاتوري.

إحدى أشدّ النقاط ضعفاً في الثورة البوليفارية هي هالة الإعجاب التي تحيط بتشافيز. فهو رجل متفرد عندما يتعلق الأمر بقيادة الحركة، وهذا ما يطرح سؤالاً جدّياً حول ما سيحصل عندما يأتي يوم نزوله عن المسرح. وفي الإجابة عن هذا السؤال، لا يتوقع أحد المحللين المتعاطفين مع تشافيز في كاراكاس، وهو غريغوري ويلبرت الذي تلقى علومه في فولبرايت، صورة وردية:

> إذا اختفى تشافيز مدة يوم وليلة، فسوف تنهار الحركة بأكملها على شكل آلاف من القطع لأنها ستفقد المادة اللاصقة التي توحدها. وهذا الاعتماد المفرط على تشافيز يعني أيضاً أنه سيكون من الصعوبة بمكان على أنصار تشافيز توجيه انتقاد له لأن كل انتقاد يهدد المشروع بما أن ذلك سيوفر المادة الخطابية للمعارضة. وهناك نتيجة أخرى وهي أن غياب الانتقاد يضع تشافيز في عزلة مما يجعل من الصعب عليه اختبار أفكاره وسياساته في العالم الخارجي. فالانتقاد من داخل الصفوف نادراً ما يوجَّه، والانتقاد من خارج الصفوف يُردّ بسهولة. والنتيجة هي احتمال قوي بتبنّي سياسات خاطئة.

ويختم ويلبرت كلامه بمثال واحد وهو قانون مسؤولية وسائل الإعلام الذي زاد من العقوبة القصوى لقاء إهانة المسؤولين الحكوميين. وصف ويلبرت هذا القانون بأنه معادٍ للحقوق المدنية ورأى بأنه لا يخدم أي غرض نافع. فالمشهد السياسي المستقطَب في فنزويلا أوجد مناخاً غير صحّي لدى أنصار تشافيز جعل من كل شخص لديه انتقاد يوجهه شخصاً معادياً للثورة. وتساءل بعض الأشخاص عما إذا كان تشافيز سيواجه في النهاية مصير سيمون بوليفار عندما ينهار أكثر مشاريع الرئيس الفنزويلي شعبية (مع انهيار أسعار النفط) بفعل وزنه الخاص، وعندما تنقلب الجماهير بسرعة ضدّه بعد أن كانت تعبده.

لكن في حين أنه من الممكن أن يتحول تشافيز إلى ديكتاتور نمطي تافه آخر

ويثبت القول المأثور عن سيمون بوليفار بأن الأشخاص الذين يخدمون الثورة إنما يحرثون البحر، فالفرصة متوفرة له أيضاً بأن يسقط كأعظم رئيس في تاريخ فنزويلا. يعتقد أنصار تشافيز بأن مهماته الاجتماعية هي أولى الجهود الجدّية والشاملة لإعادة توجيه عائدات النفط إلى الأغلبية الفقيرة. فهذه البرامج نسخة فنزويلية عن برنامج الصفقة الجديدة لفرانكلين ديلانو روزفلت.

يصف الساخرون هذه البرامج بأنها شعبوية، مدّعين بأنها فعلت القليل لتحسين الظروف المعيشية للناس إن على المدى القصير أو على المدى الطويل. وصرّحوا بأنها لا تشكل جزءاً من نموذج اقتصادي قابل للاستمرار يوفر تنمية مستدامة ووقف اعتماد فنزويلا على أسعار النفط العالمي المتذبذبة ووقف اعتماد شعبها على الدولة. ويدعي بعض الصحافيين والمحللين بأنه على الرغم من مليارات الدولارات من العائدات النفطية التي انهمرت على فنزويلا، لا يزال تشافيز عاجزاً عن كسر حلقة الفقر. يبدو ذلك وكأنه برهان لا يقبل الجدل على حماقته وأنه تحول إلى مثال آخر على المعلومات الخاطئة.

عندما وصل تشافيز إلى السلطة في العام 1999، كان معدل الفقر 42.8 في المئة، وقد ارتفع هذا المعدل بالتأكيد إلى 55.1 في المئة مع انتهاء النصف الأول من العام 2003. لم تكن هذه النتيجة مفاجئة، فانقلاب نيسان 2002 وإضراب قطاع النفط في كانون الأول 2002 أغرقا الاقتصاد في دوامة. لكن ما إن فقدت الجهودُ التي تبذلها المعارضة لإحداث الفوضى زخمَها، حتى عاد الاقتصاد إلى النهوض من جديد، فنما بمعدل 17.9 في المئة في العام 2004 وبمعدل 9.3 في المئة في العام 2005 وهما أفضل معدلين في أميركا اللاتينية. وتراجع مستوى الفقر إلى 37.9 في المئة بحلول النصف من العام 2005، أي إلى أقل من مستواه عندما وصل تشافيز إلى الحكم بمقدار خمس نقاط مئوية تقريباً. وهذه المعدلات مبنية على المداخيل النقدية فقط. لكن في حال أُدرج دعم المواد الغذائية والرعاية الصحية المجانية في الحسبان، سيكون المعدل أدنى من ذلك بكثير. اِستمرّ هذا المعدل في التراجع مع توسيع البرامج الاجتماعية التي اقترحها تشافيز. وبحلول العام 2006، وصلت إلى 33 في المئة من دون احتساب دعم المواد الغذائية.

تُظهر المؤشرات الأخرى أيضاً أن الحياة آخذة في التحسن بالنسبة إلى الملايين من الفنزويليين المحرومين. فقد ارتفع مؤشر الأمم المتحدة للتنمية الإنسانية من 0.765 إلى 0.772 بين عامي 1999 و2005. وهذه البيانات اعتمدت بدرجة كبيرة على الأرقام التي ترجع إلى العام 2003 عندما كان الاقتصاد لا يزال يعاني من انكماش شديد. وهذه الأرقام لن تتحول سوى إلى الأفضل مع توفر مزيد من البيانات من السنوات التالية عندما عاد الاقتصاد إلى النهوض مجدداً. وفي هذا السياق، قال الخبير الاقتصادي مارك ويزبورت في تشرين الثاني 2006 بأن «حكومة تشافيز لم تنعم سوى بثلاث

سنوات من الاستقرار والسيطرة على صناعة النفط. في تلك المرحلة، زادت الحكومة بدرجة كبيرة من فرص الحصول على الرعاية الصحية وعلى التعليم... ولا علم لي بمكان آخر في نصف الكرة استطاع تحقيق هذه المكاسب».

شرع تشافيز في مشاريع الخدمات الرئيسية العامة أو إكمالها والتي بلغت ذروتها في أواخر العام 2006 أي قبيل الانتخابات الرئاسية. تضمنت هذه المشاريع كل شيء من المراكز الصحية المزودة بأحدث المعدات التكنولوجية إلى مصانع البتروكيماويات ووصولاً إلى العربات الكابلية التي تساعد على التنقل بين الأحياء المنتشرة على المنحدرات الجبلية بكاراكاس وانتهاءً بمترو الأنفاق. وهو قص شريط جسر بلغت كلفته 1.2 مليار دولار بطول 4 كيلومترات يمتد فوق نهر أورنيكو واستغرق بناؤه خمس سنوات. واحتفل أيضاً بإكمال خط أنفاق بلغت كلفته 850 مليون دولار يربط بين التجمعات السكانية التي يقيم فيها العاملون في مناطق أخرى في لوس تيكيز وكاراكاس. وجلس على مقعد القيادة لتدشين أول رحلة على خط السكك الحديدية الجديد منذ سبعين عاماً إلى مجمّع سكاني آخر يدعى كوا. حتى إنه اقترح بناء خط سكة حديدية يعبر الدول ويمتد جنوباً وصولاً إلى الأرجنتين.

وبغرض تعميق عملية الديمقراطية القائمة على المشاركة في صنع القرار، شجّع على تشكيل الآلاف من المجالس المحلية في الأحياء لديها صلاحية تنفيذ المشاريع الصحية والتعليمية ومشاريع النقل والإسكان والزراعة على المستوى المحلي. ووضعت الحكومة خططاً لضخ 1.8 مليار دولار على الأقل لهذه المجالس في العام 2007.

تجسدت هذه الروح الجديدة في الملايين من الناس الذين كانوا يمشون باعتزاز وهم يحملون نسخاً بحجم الجيب عن دستور العام 1999، وهو المخطط التفصيلي للثورة البوليفارية. يمكن للعديد من الأشخاص الاستشهاد بفقرات معينة ويدّعون الفضل في رفع أحيائهم بإضافة أقسام معينة إلى الجمعية الدستورية. تظهر اقتباسات من الدستور على رزم الأرز والحبوب والطحين والمواد الغذائية الأخرى في أسواق ميركال. وأشار أستاذ في الدراسات الكهنوتية في جامعة منهاتن كان يزور فنزويلا في رحلة استطلاع للحقيقة إلى أن أجندة حقوق الإنسان في الدستور تشبه إلى حد بعيد التعاليم الاجتماعية الكاثوليكية، بما في ذلك الخلاصة الوافية للتعاليم الاجتماعية للكنيسة الذي نُشر مؤخراً. وعلى الرغم من المزاعم التي تتحدث عن وجود ديكتاتورية، فالحقيقة هي أن فنزويلا مفعمة بالنشاط السياسي على مستوى المواطنين العاديين.

بالكاد يجد تشافيز، الذي يشرف على هذه المشاريع كافةً، وقتاً للنوم. فقد شارك بكثافة في الأعمال المنوطة بالرئاسة وهي شديدة الاعتناء بالتفاصيل كافة. بما في ذلك الغامض منها. وفي لقاءاته الوزارية، ما من شك في أنه الشخص الذي يديرها. وفي حين أنه ربما يفتح مجال للنقاش، لكن الواضح أنه الشخص الذي يعود إليه صنع القرارات.

مضت خمس سنوات على طلاقه من زوجته الثانية ولا يزال تشافيز رجلاً غير متزوج. فهو لا يملك الوقت أو أسلوب الحياة الذي يناسب زواجاً تقليدياً. وهو يقول بأن حبّه الكبير هو الشعب الفنزويلي وثورته. وهو يستمرّ في العمل في الغالب حتى ساعة متأخرة من الليل بعد أن يغادر معظم الموظفين القصرَ الرئاسي، فيدقق في التقارير ويقرأ الكتب حتى الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل. وهو يبقي جهاز التلفزيون يعمل بصوت خفيض. وعندما يلفت برنامجٌ حواري انتباهه، لن يكون بالأمر غير العادي أن يقاطِع المذيع بمكالمة هاتفية خاصة! الرئيس على الخط.

يُذكَر أن الأستاذ القديم في الأكاديمية العسكرية، الجنرال خاسينتو بيريز أركاي، قال له ذات يوم بأنه ينبغي عليه ألاّ يشتكي من عيشه وحيداً. فقد عاش بوليفار على هذا النحو عقب وفاة زوجته بعد وقت قصير على زواجه منها، مما وفر له الوقت والدافع لتحرير أميركا اللاتينية. قال له بيريز: «لو أنها لم تمت، لم يكن بوليفار سيحقق شيئاً أكثر من الوصول إلى منصب رئيس بلدية سان ماتيو»، وهي القرية الصغيرة حيث كان يملك منزلاً.

لكنّ لينا رون، زعيمة أحد الأحياء، وصاحبة اللهجة الشديدة والإخلاص الكبير لتشافيز، كتبت مقالة في صحيفة في كانون الثاني 2007 حثّت فيها الرئيس على الزواج واختيار الرفيقة الثورية ونائب وزير الخارجية السابقة ماري بيلي هيرنينديز لتكون زوجة له. كتبت رون: «نحن بحاجة إلى سيدة أولى الآن! قائدي تشافيز يعيش وحيداً ولا يمكنه الاستمرار على هذا النحو». وأضافت بأنه ينبغي على هيرنينديز أن تترك غيرتها عند عتبة الباب لأن تشافيز «هو الرجل المحبوب الأول لدى النساء في البلاد».

سواء أكان تشافيز متزوجاً أم غير متزوج، بل وحتى إن انتهت مدة رئاسته على الفور، سيترك بصماته على فنزويلا. فالبلاد لن تعود كما كانت. فقد استطاع أن يكسر ظهر الأقلية الثرية ذات البشرة البيضاء التي حكمت البلاد طوال عدة عقود كما تفعل المافيا تقريباً. شارف النظام القديم على الموت، وهناك نظام جديد في طور الولادة. يعتقد البعض بأن العملية ستستمرّ مع وجود تشافيز أو من دونه. فهو ببساطة رمز هذا الانتقال التاريخي للسلطة إلى الأغلبية الفقيرة سمراء البشرة التي استُغلّت لفترة طويلة، والتي أصبحت تحكم بلادها الآن لأول مرّة منذ الاحتلال الإسباني قبل خمسة قرون.

في أعقاب تعرّض فيدل كاسترو لمشكلة صحية خطيرة في آب 2006، أصبح تشافيز الوريث الشرعي والقائد الأول لليسار في أميركا اللاتينية وربما في العالم. حتى إنه تجاوز كاسترو من وجوه عدة لأنه جاب العالم وألقى خطابات تحدث فيها عن الثورة التي بدأها بوليفار قبل نحو من قرنين. وبعد أن قضت المعارضة في فنزويلا على نفسها بنفسها، لم يزل تشافيز يزداد قوة. وقد أقسم على إجراء استفتاء على إلغاء

المدة التي تحدد فترة الرئاسة لكي يبقى القائد الذي لا يمكن للثورة البوليفارية الاستغناء عنه في الحكم. حتى إن رفيق السلاح القديم، فرانشيسكو أرياس كارديناس، الذي ساعد على قيادة الانقلاب في العام 1992 ثم انقلب ضدّه، هجر صفوف المعارضة وعاد إلى صفوف تشافيز. وأصبح لاحقاً سفير فنزويلا لدى الأمم المتحدة في العام 2006 وقاد معركة الحصول على مقعد في مجلس الأمن لفنزويلا.

خرج الآلاف من أنصار تشافيز في يوم الانتخاب، في 3 كانون الأول 2006، من منازلهم عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وبثّوا أغاني الثورة بواسطة مكبرات الصوت التي وضعوها على متن الشاحنات لإيقاظ الجيران والتوجه إلى مراكز الاقتراع قبل طلوع الفجر. سجلت نسبة المقترعين في مختلف أنحاء البلاد رقماً قياسياً فاقترع نحو من 75 في المئة ممن يحق لهم التصويت. كانت التوليفة المؤلفة من البرامج الاجتماعية التي طرحها تشافيز والكاريزما التي يتحلّى بها - ومليارات من دولارات النفط التي كانت تمطر البلاد - أصعب بكثير من أن يتغلب عليها أي معارض. في تلك الليلة، وبعد أن حقق انتصاراً ساحقاً بفارق 26 نقطة مئوية، وقف تشافيز على الشرفة في قصر ميرافلوريس وخاطب الحشود الصاخبة التي بقيت تنتظر عدة ساعات تحت المطر الذي كان ينهمر بغزارة. قال تشافيز بصوت يشبه الهدير: «هذه هزيمة أخرى تُمنى بها إمبراطورية السيد خطر. إنها هزيمة أخرى للشيطان الذي يريد السيطرة على العالم». وأعلن بأن الفنزويليين «صوتوا لصالح اشتراكية القرن الحادي والعشرين، ولهذه الحقبة الجديدة من الديمقراطية الاشتراكية».

كانت هناك مرحلة جديدة وأكثر راديكالية من مراحل الثورة توشك أن تبدأ. تشافيز شخصية لا يوجد لها مثيل في تاريخ فنزويلا. فهو في نظر الملايين من الناس نموذج يُحتذى به، لا يتعاطى المسكرات، ويهوى التاريخ، وقارئ نهم، ومدمن على العمل ينتمي إلى الطبقة الدنيا التي تكافح من أجل التخلص من عقود من الظلم. قالت خوانيتا أورتيغا، وهي راهبة وممرضة أميركية عملت طوال خمسين عاماً في الأحياء في مختلف أنحاء البلاد: «هذا شيء حقيقي. ستبقى الثورة طالما أنه لا يوجد تدخل خارجي». وأنصار تشافيز أقسموا على الدفاع عنه مهما بلغت التكاليف، حتى وإن كان ذلك يعني التضحية بأرواحهم. إنه مصدر الأمل بالنسبة إلى الملايين من الفنزويليين، وهو أمر لم يشعروا به منذ مدة طويلة وطويلة جداً.

كلمة ختامية

علـى غـرار باقـي الناسـ فـي العالـم، سمعت عن هوغو تشافيـز لأول مرّة في شبـاط 1992 عندمـا قـام بمحاولتـه الانقلابية الفاشلة. كنـت أستعدّ للسفر إلى فنزويلا، مثل عامل في فيلق سلام كاثوليكي برفقة مجموعة تدعى ماريكنول في البداية، وهي فرع الإرسالية الأجنبية للكنيسة الكاثوليكية الأميركية.

كنت في مدرسة لتعليم اللغات في كوشبامبا في بوليفيا عندما قاد تشافيز الانقلاب، ووصلتُ إلى فنزويلا لأبقى فيها في شهر تموز. وفي تشرين الأول، انتقلت إلى حيّ في باركويزيميتو حيث أمضيت الشهور الثمانية عشر التالية.

وفّـرت لـي إقامتـي هنـاك تجربة مباشرة تعرفت فيهـا على طريقة عيش الأغلبية الفقيـرة فـي فنزويـلا، وهـذا درس لا يقدّر بثمن بالنسبة إلى صحافي. كان العديد من جيراني في بارتي ألتا، أو القسم العلوي، من إل ترومبيلو يعيشون في أكواخ حقيرة مصنوعة من ألواح الصفيح المتموجة، أو حتى يعيشون في أكواخ مصنوعة من الطين، كمـا كان الحـال مـع جيرانـي في الجهة المقابلة من الشارع، مثل الكوخ الذي نشأ فيه هوغو تشافيز.

وفـي أحـد الأيـام، قالـت لي جارتي بأنها لم تذق طعاماً منذ يومين، وأن الشيء الوحيـد الـذي تملكـه هـو القهوة لتشربهـا، لكن لا يوجد لديها طعـام لأطفالها الثلاثة. فاشتريت لها حزمة من الخضروات.

يفتقر الحيّ ذو الشوارع الرملية الوسخة إلى مياه الشرب وإلى الحمامات الداخلية. وعلى غرار العديد من السكان، كنت أستحم بواسطة دلو في حمام خارجي يتألف من أربعة جدران مصنوعة من ألواح الصفيح المتموجة. كان صهريج لنقل الماء يأتي بضع مرات كل أسبوع ويملأ البراميل التي كنا نضعها في الفناء الخارجي.

بعد مرور ستة أسابيع على وصولي، لم تكن الشمس قد أشرقت في صباح أحد الأيام عندما سمعت ما بدا أنه شخص يدق وتداً في الأرض في مكان ما خارج منزلي الإسمنتي الصغير. تبين أن الذين يحدثون الضجيج أشخاص يشعلون المفرقعات النارية. هنـاك عمليـة انقلابيـة تحـدث. حدث ذلك في 27 تشرين الثاني 1992. كان متعاونون مـن المدنييـن فـي القسـم الآخر مـن الحي يبشرون باندلاع الثـورة. ولم يمض وقت طويل حتى تجمع جيراني في الشارع المتسخ. شاهدنا جميعاً قوات الأمن وهي تقتحم المنـازل فـي الحـي الجبلي حيث أُطلقت المفرقعـات النارية. وبعد أن تملّكهم الخوف، هرع الجيران إلى منازلهم، ورأيت أنه من الأفضل أن أفعل الشيء نفسه.

في وقت متأخر من ذلك اليوم، شاهدنا الطائرات المقاتلة الموالية للنظام والمتمردة

عليــه تخوضــ اشتبــاكات جويــة في سماء المدينة. ققفـز بعض الطيارين من طائراتهم، وهبطوا في حي آخر يقع في الشطر المقابل من المدينة. لم أستطع استنتاج شيء مما كان يجري. كنت أساعد أحد الجيران في دروس الإنكليزية في ذلك اليوم، ووصل العديد من جماعتي الماريكنول في سيارة جيب لكي يطلبوا مني ملازمة منزلي. وبحلول المساء، أعلنت حكومة الرئيس كارلوس أندرياس بيريز المهتزة الأحكام العرفية. وهذا يعنــي أن كل مــن يمشــي فــي الشــارع بعــد هبوط الظلام يمكــن أن يتعرض لإطلاق النار.

التقيت بتشافيز لأول مرة في العام 1994، بعد وقت قصير من إطلاق سراحه مــن السجــن. بحلــول ذلك الوقت، كنت قد استأنفــت حياتي المهنية بالكامل كصحافي، فانضممــت إلــى مكتــب الأسوشياتيــد برس في كاراكاس، والذي لم يكن معقلاً لأنصار تشافيز بالتأكيد وبقيت أعمل هناك لغاية العام 2000. ثم انتقلت بعد ذلك بمدة وجيزة إلى حي ألتميرا/لوس بالوس الراقي والذي أصبح حينها معقلاً قوياً للمعارضين لتشافيز، حيث كان الناس يقرعون القدور بقوة من خارج النوافذ ليلاً للمطالبة برحيله. يقع الحي عند أسفل سلسلة جبال أفيلا الخضراء، حيث تنتشر المباني الفخمة، والمطاعم الفاخرة، ومتاجــر البقالــة الراقيــة. يسكن في هــذه المنطقة دبلوماسيون ورجال أعمال دوليون، وأشخاص آخرون من أصحاب النفوذ. وكان بمثابة النقيض لحي إل ترومبيلو، وكان موطني طوال السنوات الخمس التالية.

التقيت بالقائد في مطعم صيني في شطر لاس مرسيدس الراقي من كاراكاس بعد أيــام قلائــل علــى إطلاق سراحه، لأكــون أحد أوائل الصحافيين الأجانب الذين أجروا مقابلــة معــه بعــد خروجــه مــن السجن. ضمــت حاشيته في ذلك اليــوم نجله، هوغو، والمحامي مانويل كويخادا. لم يتوفر لي وقت طويل لطرح الأسئلة، لأن هاتفه الخليوي كان يرنّ من دون انقطاع، وبقي المحبّون يقتربون منه لإلقاء التحية عليه.

أجريــت معــه مقابلــة أخــرى بعد نحو سنة في مكتب مهندس معماري أعاره ذلك المــكان فــي الشطــر تشاو. بعد أن شــرح تشافيز بعض الخطط المسهبة لبلاده، سألني مساعد وضابط سابق في الجيش يدعى لويس ألفونسو دافيلا عما استنتجه من ذلك كله. لــم أكــن واثقــاً ممــا ينبغــي عليّ قوله. كان تشافيز قد أصبح منبــوذاً من المؤسسة – بما فــي ذلــك حقــل الإعــلام الذي أنتمــي إليه – بوصفه رجلاً نصــف مجنون اعترته نزوة طارئة.

في العام 1998، عندما ترشح لخوض المعركة الرئاسية، جلسنا معاً مرة أخرى. كان يتقدم وفقاً لاستطلاعات الرأي وبدا أن لديه فرصة حقيقية للفوز في الانتخابات. لقــد أســاءت المؤسســة الحكــم على ما كان يجري على مستوى المواطنين العاديين. لم تنسَ الأغلبية الفقيرة القائد. وقال لي شقيقه أدان، وهو أحد أقرب معاونيه، في نيسان 2007: «كان ذلك إعصاراً حقاً، إعصاراً لم يتوقف».

بعد تأريخ صعود تشافيز والجزء الأول من رئاسته، عدت إلى الولايات المتحدة وبقيت على اتصال بفنزويلا حيث كنت أزورها في فترات منتظمة. وفي العام 2003، بدأت بالبحث في هذا الكتاب.

مـرّت سنـون عديـدة منـذ أن سنحـت لي الفرصة آخر مرة للتحـدث إلى تشافيز مباشرة، وأردت زيارته مرة أخرى. لكن الوصول إليه لم يعد مسألة سهلة. أمضيت شهـوراً وأنـا أحـاول ترتيب موعد لإجراء مقابلة. استعنت بمساعدين، وبسفير فنزويلا لدى الأمم المتحدة، وسفيرها لدى واشنطن، وبأصدقاء تربطهم صداقات مع من يفترض بأنهم على صلة بالرئيس، واستعنت بكل شخص خطر ببالي. لكن معظم هذه الاتصالات لـم يوصلنـي إلـى نتيجـة. كان بعض المساعدين يأتـون ويذهبون، لغاية نيسان 2007 عندما استُدعيت إلى كاراكاس. لقد اقتربت أخيراً من بلوغ هدفي.

لم يستطع تشافيز المجيء في اليوم المحدد لإجراء المقابلة، ولذلك ذهبت لرؤية نائبه القديم، خوسيه فيسينته رانجل، الذي ترك منصبه الحكومي للتو.

جلسنا في غرفة جلوس مليئة بالأعمال الفنية وبالتماثيل في منزله الكائن في حي ألتا فلوريدا، حيث أعاد رانجل سرد الأحداث التي جرت في انقلاب العام 2002. كان قد بقي بجانب تشافيز معظم ليلة 11 نيسان. قال بأن أكثر الأشياء التي لفتت نظره كان سلوك تشافيز الهادئ والمنهجي، وهو الأمر الذي تناقض بشكل صارخ مع الفوضى والتوتـر والتهديـد بالقصـف الـذي كان يحيط به. وفي لحظة معينة، طلب الرئيس أن يُترك لوحده لكي يفكر في ما يجدر به عمله. قال رانجل بأن إحدى خصائص تشافيز هي أنه يطلب البقاء على انفراد إذا كان عليه أن يتخذ قراراً هاماً.

قـال رانجـل: «كان فـي غايـة الهدوء، على نحو لا يصدَّق. وهو شديد التناقض في هذه الناحية لأنه رجل عاطفي وكثير النشاط. لكنه يتصرف في الظروف الخاصة بهدوء وبرودة أعصاب لا يمكن تصورها. ولهذا السبب، تميزت القرارات التي اتخذها حتى هذه الساعة بأنها جيدة جداً. وأنا أعتقد بأن أحد الأسباب التي تدعوه إلى الاختلاء بنفسه هو عدم السماح للضغوط التي يتعرض لها في تلك اللحظة بأن تؤثر في المسار الذي ينوي اعتماده».

فـي وقـت لاحـق مـن المساء، التقيت بأدان تشافيز فـي مكتبه الفسيح في وزارة التعليـم التـي بـات يترأسهـا الآن. لا يُعرف عن شقيق الرئيـس بأنه يجري مقابلات، ناهيك عن إجراء مقابلات مع صحافيين قادمين من الولايات المتحدة. قال بأنه يملك نصف ساعة من الوقت، لكن الأمر انتهى بنا إلى التحدث مدة ساعة كاملة.

أعدتُ سرد بعضاً من تاريخ التحاقه بالحركة الثورية اليسارية وبالحزب الثوري الفنزويلـي الـذي كان يرأسـه دوغلاس برافو، ثم تطرقتُ إلى الدور الذي لعبه كحلقة وصل بين برافو وبين شقيقه هوغو. سألتُه إن كان ما ذكرتُه صحيحاً. بدا متفاجئاً من إلمامـي بـكل تلـك التفاصيل المتعلقـة بماضيه والتي يجهلها حتى العديد من الفنزويليين،

وقال بأنها دقيقة بالكامل. وأضاف بأن هوغو كان على استعداد فوري للاتصال ببرافو عندما اقترح الفكرة. التقى الرجلان أخيراً في مستهل العام 1979، وأضاف: «كان حدثاً مهماً لأنه شكل بداية عملية بناء حركة مدنية عسكرية».

تحدث قليلاً عن طفولتهما في سبانيتا، وكيف أن والدَيهما كانا يتنقلان بين تلك المنطقة ولوس راستروجوس في السنين الأولى، وتحدث عن مولده وعن نشأته ونشأت هوغو في الكوخ الطيني لدى روزا إنياس. لكنه أنكر التقرير الذي ورد في كتاب نُشر في الأصل في فنزويلا ويدعي بأن هوغو تخاصم مع أمه في مرحلة معينة طوال مدة لا تقل عن عامين. وتحدث عن تطور الحركة البوليفارية في التسعينيّات من القرن الماضي، وعن القرار الحاسم الذي اتخذه هوغو في العام 1997 بخوض الانتخابات الرئاسية.

عندما هممت بالمغادرة، سألت أدان بأن يبلّغ شقيقه عن رغبتي في إجراء مقابلة معه لأنني كنت لا زلت غير مقتنع بأنني سأجري المقابلة. وعدني بأن يفعل، لكنني لم أعرف إن قصد بذلك أن يتصرف بأدب معي وحسب.

بعد أيام قلائل، وبعد أن بدا وكأن أملي بإجراء مقابلة مع الرئيس قد تلاشى، كنت على متن الطائرة الرئاسية برفقة هوغو تشافيز الذي كان جالساً أمامي. كان مكتبه أصغر مما كنت أتوقع، بالنظر إلى الصخب الذي أثاره النقاد بشأن شرائه طائرة إيرباص 319 بمبلغ 65 مليون دولار. بدت الطائرة بوجه عام متواضعة نوعاً ما بالنسبة إلى طائرة رئاسية يتنقّل فيها الرئيس في شتى أرجاء العالم. ولم تكن بحال من الأحوال بمثل حجم الطائرة الأولى في سلاح الجو الأميركي. يوجد في الطائرة نحو أربعين مقعداً للركاب. وتبين لي أن الصنابير والأدوات الأخرى التي قيل بأنها ذهبية والتي تعالت أصوات معارضيه بسببها عبارة عن أدوات ذهبية اللون وحسب.

كان تشافيز لا يزال مرتدياً قميصه الأحمر المميز الذي لبسه في اليوم الأخير من القمّة التي عقدها في عطلة الأسبوع في باركويزيميتو مع الرئيس البوليفي إيفو موراليس والرئيس النيكاراغوي دانييل أورتيغا والقادة الآخرين. رافقته ابنته الكبرى روزا التي جلست على أريكة.

قال تشافيز بأنه سعيد لرؤيتي مجدداً. بدا ودوداً ولكن متحفظاً إلى حد ما، ورسمياً أكثر مما هو معتاد. فلم أحظَ بمعانقته المميزة وتساءلت إن كان يلتزم الحذر عندما يتحدث إلى صحافي أميركي بالنظر إلى النقد اللاذع الذي يتلقّاه من وسائل الإعلام الدولية.

جلسنا إلى طاولة في مكتبه. بدا أن تشافيز تغير بالتأكيد بعد هذه السنوات التي تلت حديثي الأول معه في تسعينيّات القرن الماضي. فلم يعد الفلاكيتو، الرجل النحيل، الذي كان نحيل الجسم وكبير القدمين في شبابه لدرجة أن أصدقاءه أطلقوا عليه لقب تريبيلين، أو الأحمق. بدا وجهه أكثر امتلاءً وجسمه أشدّ قوة.

سألته كيف تغير كشخص وكشخصية عامة منذ أن أصبح رئيساً قبل ثماني سنوات وبعد خروجه سالماً من العديد من المحن بدءاً بالانقلاب ومروزاً بإضراب قطاع النفط ووصولاً إلى الاستفتاء. كان التعرض للاغتيال احتمالاً حقيقياً وبدت الإجراءات الأمنية حوله شديدة.

أجاب تشافيز، فيما كانت ابنته روزا تنصت وهي جالسة، بأنه لم يتغير على الإطلاق. بل إنه قاوم ضغوطاً شديدة بذلتها قوى فاعلة لكي يذعن للنخب ويتخلى عن مشروعه الثوري القائم على تحويل فنزويلا باسم الفقراء. «أعتقد بأنني لا زلت كما كنت، المخرّب نفسه، والرجل نفسه الذي أمضى فترة طويلة في التفكير في كيفية مساعدة الناس، وفي كيفية إفادة الناس، وكيفية قيادتهم إلى مصير أفضل... أنا مخرّب في ميرافلوريس، وأنا أفكر دائماً في كيفية تخريب النظام القديم وفي كيفية قلب الأمور رأساً على عقب».

طلبت منه أن يناقش الأحداث والتجارب التي لعبت الدور الأكبر في تحوله، فبدأ بالحديث عن أنه قرأ كتباً كان لها التأثير الكبير الآخر في مطلع حياته. كان قارئاً نهماً منذ أن كان في مقتبل عمره. قال لي: «أنا مدمن على القراءة. وأنا لا أستطيع العيش من دونها، مثل شخص مدمن على المخدرات». أولى الكتب التي اقتناها وتبنى مضمونها كانت مجموعة من الكتب المرجعية التي أحضرها والده من كاراكاس. جاء في الفصل الأول: «كيف تكون منتصراً في الحياة»، وخُتم الفصل بالقول: «الانتصار في الحياة يأتي أولاً من كون المرء مفيداً للمجتمع».

يصف النقادُ تشافيز بأنه ديماغوجي متعطش إلى السلطة وديكتاتور يعمل على تدمير البلاد، لكن الرئيس أصرّ على أن هذا القول البسيط كان أحد منارات التوجيه في حياته، وأنه يتعارض مع الاعتقاد الجوهري للمجتمعات الرأسمالية: أنت ناجح إذا كنت ثرياً.

قال تشافيز: «تعلمت وأنا لا أزال في سنّ صغيرة جداً كيف أسعد بمساعدة الآخرين. أنا أشعر بالسعادة عندما أمدّ يد العون لشخص لكي أساعده على لملمة نفسه... إذا كان يوجد شخص لا يملك قلم رصاص وكسرتُ قلمي نصفين وأعطيته نصفه، فأنا سعيد». وضع يديه على صدره وابتسم ابتسامة عريضة لكي يظهر سعادته بتلك الفكرة.

تذكر أنه بسبب عدم وجود تلفزيون لدى عائلته وجيرانه في سابانينا فهو لم يشاهد التلفزيون أبداً إلى أن قدم إلى كاراكاس كطالب في الأكاديمية العسكرية في مستهل سبعينيات القرن الماضي، وهو ما أعفاه من سموم التلفزيون عندما كان طفلاً، وهو غالباً ما كان يستمع إلى المسلسلات الإذاعية. أحد أكثر الشخصيات التي يفضلها كانت إل غافيلان (الصقر) وهو رجل يرتدي زياً أسود وكان ينتقم للفقراء.

قال تشافيز بأنه تعرّف في وقت لاحق على شخصيات تاريخية مثل بوليفار

وزامـورا وماسينتـا. وأخـرج ميداليـة عمرهـا قرن من الزمـان كان يملكها ذات يوم بيدرو بيريز دلغادو، وهو لا يزال يضعها حول عنقه منذ أن أعطاه إياها أحد أقربائه عندما كان في السجن.

سألـت تشافيـز عـن ردّه على الادعاءات التي تقـول بأنه مهووس بالسلطة وبأنه أقـام ديكتاتوريـة فـي فنزويـلا. قـال تشافيز: «أي طاغية هذا الـذي يتحمل آلام تعليم النـاس كيفيـة القـراءة والكتابـة؟». في إشارة إلى المهمـات الاجتماعية. «وأي طاغية هـذا الـذي يـوزّع السـلاح على آلاف من المدنيين لتشكيـل قوات احتياط عسكرية؟». أضاف تشافيز: «لم تكن لديّ رغبة في تولّي السلطة. من أجل ماذا أتولّى السلطة؟». وبـدلاً مـن كونـه ديكتاتوراً، يقول بلهجـة جازمة: «أنا أمثّل قوة معاكسة وصراعاً مع قوة الإمبراطورية».

قـال بأنـه لـو كان هدفـه الرئيسـي حصر السلطات في شخصـه، لما كان واصل مشروعـاً يخـدم الأغلبيـة الفقيـرة في فنزويلا وكاد أن يتسبب فـي مقتله. قال تشافيز: «كنت قريباً من حافة الموت في مرات كثيرة. ولو كنت أؤمن ببساطة بمفهوم السلطة الشخصية، لما كنت قريباً من تلك الحافة». تحدث عن ليلة انقلاب العام 2002 عندما نُقل من فورت تيونا إلى توريامو. قال بأن شائعة رددتها وسائل الإعلام الفنزويلية والدولية بأنه استقال من الرئاسة، وأن «السبيل الوحيد لمنعي من إنكار ذلك كان قتلي... لم يعـرف قـادة الانقـلاب ماذا ينبغي أن يفعلـوا بي. ووصل الأمر من ميرافلوريس بأنه ينبغي أن أقتل». واتهم بيدرو كارمونا بأنه «أعطى الأمر بقتلي على أن يبدو كما لو أنه حادث»، وهو ادعاء أنكره كارمونا.

عندما وصل تشافيز إلى توريامو عند منتصف الليل تقريباً، لم يعرف المكان الذي كان فيه. وعندما وصلوا إلى بعض المستودعات وإلى منزل صغير على شاطئ البحر، ظهر المرتزقة الذين أرسلهم قادة الانقلاب في طوافة وكانوا على استعداد لقتله، قال تشافيز: «صليت، ودعوت الله أن يبارك في أولادي. ونظرت إلى نجمة في السماء ... كنت مستعداً لمواجهة مصيري».

قال بأنه تذكر تشي غيفارا في لحظة موته في غابات بوليفيا عندما طلب الثوري الجريـح مـن قاتلـه أن يتوقـف عـن إطلاق النار لكي يتمكن مـن الوقوف ويريه كيف يمـوت الرجـال. قـال تشافيـز: «تذكرتُ تشي وقلت في نفسي، لن أطلب الرحمة، لن أجعل من نفسي رجلاً جباناً».

في اللحظة التي اعتقد فيها بأن المرتزقة على وشك أن يقتلوه، واجههم وسألهم عن العمل الذي يفكرون في القيام به في اليوم التالي، أين سيختبئون، وماذا سيقولون للناس الذين يسألونهم عما جرى له؟ وذكر تشافيز أنه عندما أدرك بعض الجنود العاملين في القاعدة ماذا كان يجري، تدخل أحدهم وقال للمرتزقة: «إذا قتلتم هذا الرجل هنا، فسوف يقتل كل منا الآخر». كان لذلك التعليق وقع القنبلة في ذلك المكان الموحش،

وأنهى حالة الجمود. سيطر الجنود المخلصون على الوضع ونقلوا تشافيز بسرعة إلى مكان بعيد، وأجبر المرتزقة على مغادرة المكان بالطوافة. وقال أحد المخلصين لتشافيز: «لا تقلق. لن يحدث لك مكروه. فنحن نضمن حياتك».

بعد أن أنقذ من التصفية، أحضر تشافيز إلى المستوصف في القاعدة - والغرفة الوحيدة التي يوجد فيها مكيف للهواء - حيث اعتنى به طبيب عسكري وممرضة، وأحضرا له بعض العقاقير. وعندما غادر الطبيب لفترة مؤقتة، قالت الممرضة لتشافيز - والدموع تسيل على خدّيها - بأنها أرادت أن تلتقي به، لكن ليس وهو على هذا الحال.

كان ذلك الحافز الذي حرّك شيئاً في نفس تشافيز. وفي صباح اليوم التالي، الذي صادف يوم السبت 13 نيسان، أصبح على قناعة بأن إل بيبلو (الشعب) ستثور ثائرته رداً على اختفائه وأنه سيعود إلى السلطة.

وفي اللحظة التي أنهى فيها تشافيز سرده لهذه الأحداث، حطت الطائرة على أرض المطار، وسمع رنين هاتفه الخليوي. أردت أن أتأكد من نقطة واحدة بسرعة قبل أن تنتهي المقابلة. في أي عام عاد إلى الأكاديمية العسكرية للتدريس هناك؟ عاد بذاكرته وقال لي، في العام 1981، ثم أجاب عن سؤال سريع آخر: كيف تمكنتَ من تدبير المؤامرة في الأكاديمية؟

تحدث عن نشاطاته كمدرس في الأكاديمية، وأنه بدأ بالإعداد لها بصمت، وبكثير من الانضباط، وبكثير من الانتباه إلى الصبيان أي الطلاب في الأكاديمية العسكرية. شرح كيف أنه ركّز في البداية جهود التجنيد على نحو مئة طالب كانوا تحت إمرته. ثم تحول إلى الطلاب الذين يقوم بتدريسهم وكانوا قرابة الثلاثمئة. ثم انتقل إلى المشاركة في أكبر عدد ممكن من النشاطات لكي يتمكن من زيادة معارفه، بدءاً من أداء مسرحيات تاريخية إلى تنظيم الفرق الرياضية.

حان وقت الذهاب. كان وزراء تشافيز والمساعدون الآخرون على أرض المطار في انتظار أن ينهي مقابلته. وقف وعانق روزا وتحدث إليها بعبارات رقيقة وودعها. وكم كانت مفاجأتي عندما دعاني إلى مرافقته في سيارته في جولة في كاراكاس.

جلست في المقعد الخلفي مع تشافيز. والشخصان الآخران اللذان كانا في السيارة هما السائق وأحد المساعدين وهي ضابطة برتبة عقيد وكانت المرأة العسكرية الوحيدة التي شاركت في انقلاب العام 1992 الذي نظمه تشافيز. سارت أمامنا بضع مركبات وحراس على دراجاتهم النارية، بينما سار خلفنا باقي الموكب الذي كان ينقل الوزراء. قدّم لي تشافيز بعض الحلوى وكوباً بلاستيكياً صغيراً من المياه الغازية. كان الوقت قريباً من الحادية عشرة مساءً، ولم يتناول أي منّا عشاءه.

بدا الرئيس أكثر لطفاً معي، وانحنى فيما كان يعطيني إرشادات كما لو أننا في جولة سياحية في أثناء صعودنا أحد جبال سلسلة أفيلا المؤدي إلى كاراكاس. تحدث

بعبارات لطيفة وبدا أشبه بوالد فخور بنفسه وهو يشرح مزايا مولوده الجديد.

أشار إلى كيفية تمكن حكومته من إزالة مقصورات تحصيل الأجرة التي كان على العمال المتوجهين من الساحل إلى كاراكاس الوقوف عندها كل يوم. كما أشار إلى ما قامت به الحكومة من إزالة أعمدة الإنارة الخفيفة المنتشرة في وسط الطريق العام ونقلها إلى جانب التل حيث يمكن أن توفر مزيداً من الإنارة للطريق. وفي أثناء سيرنا في النفقين اللذين يخترقان الجبال وصولاً إلى كاراكاس، تباهى بشأن تنظيف الجدران الداخلية والتي بقيت ضعيفة التهوئة سنين عديدة وكيف أنها كانت مليئة بالقاذورات فبدا مثل كهف تسكنه الذئاب.

تحدث بعد دقيقة عن خططه الكبيرة لبناء مدينة اشتراكية قبالة الطريق العام على سلسلة جبال أفيلا. وفجأة، أمر السائق بالتوقف لكي يريني مدخلها وهو ما أطلق موجة من الاتصالات اللاسلكية في الموكب. تبين أننا وقفنا في المكان الخطأ فواصلنا سيرنا.

شرح لي تشافيز عن رؤيته لمدينة اشتراكية تتضمن مكاناً يسير فيه الناس ولا تسير في المركبات الآلية. سيُطلب من الناس إيقاف سياراتهم خارج المدينة، ثم المشي مسافة خمسمئة متر تقريباً وصولاً إلى المدينة نفسها. ستُبنى المدينة بحيث تتعايش مع الطبيعة بانسجام. وسيتم استخدام الطاقة الشمسية وطاقة الرياح فيها. وستعمل عجلة الاقتصاد بواسطة التعاونيات والمزارع التي تحتوي على حيوانات، والسياحة والمهن الصغيرة.

الفكرة هي في جذب الناس بعيداً عن الأحياء المزدحمة والخطرة في كاراكاس إلى منطقة على منتصف المسافة بين العاصمة والساحل الكاريبي حيث يمكنهم العيش في مكان جديد وأكثر إنسانية. وبعد أن يغادروا مزارعهم الصغيرة في كاراكاس، ستعمد الحكومة إلى هدم الأكواخ للتقليل من كثافة السكان.

كان العمال الفنزويليون والكوبيون مشغولين أصلاً في بناء المصاطب على سفح الجبل حيث تخطط الحكومة لبناء ما بين 30 و40 ألف منزل. قال تشافيز: «ستكون مدينة كاراكاس جديدة». وأضاف بأن العمل جارٍ أيضاً على بناء مدينة اشتراكية أخرى إلى الشرق من كاراكاس، على الطريق المؤدي إلى غواريناس. جرى التخطيط لبناء نحو عشرين ألف منزل في ذلك الموقع. وقال بأنه يأمل بأن تتوسع الفكرة وتطبَّق في مختلف أنحاء البلاد.

على غرار العديد من مشاريعه، اعتقدتُ بأنه إما أن يكون هذا المشروع ضرباً من ضروب العبقرية أو مولوداً وُلد ميتاً من نسيج الأحلام الخيالية.

بعد وقت قصير من وصولنا إلى كاراكاس، توجهنا نحو الشارع الرئيسي في حي كاتيا الآخذ في الامتداد ثم توجهنا إلى ميرافلوريس. اعتقدت بأن تلك كانت نهاية المقابلة، لكنّ تشافيز فاجأني مرة أخرى عندما دعاني إلى تسلّق سلّم طويل خارج

القصر يؤدي إلى منصة هبوط للطوافات وإلى حديقة صغيرة في أعلى التل. كان ذلك السلّم نفسه الذي نزله في وقت مبكر من صباح يوم 14 نيسان 2002 عندما عاد إلى القصر غداة انتهاء الانقلاب.

وفّر المكان في أعلى التل مشهداً رائعاً لحيّ الثالث والعشرين من كانون الثاني الذي تنتشر فيه المباني الشاهقة التي شيدها الديكتاتور ماركوس بيريز جيمينيز في خمسينيات القرن الماضي. كما كان في مقدورنا رؤية مئات من المزارع الصغيرة التي تغطي المشهد. ووراء تلك المزارع، وعلى سفح تل آخر ينتصب ميزيو هستوريكو ميليتار الذي خدم كقاعدة عمليات لتشافيز في انقلاب العام 1992. رأيت في وسط هذا المشهد كنيسة كاثوليكية وتمثالاً. وحرص تشافيز على إصدار أمر بإضاءة الكنيسة والمتحف ليلاً.

أشار إلى أنه يستمتع برؤية المشهد نفسه من شرفة الناس في الطابق الثاني من ميرافلوريس. قال تشافيز: «لو أنني لم أحتلّ تلك البقعة في فجر ذلك اليوم»، في إشارة إلى المتحف العسكري، «لما كنتُ وصلت إلى هنا»، يعني القصر. «من هناك في العام 1992، وبعد مرور ست سنوات على ذلك، وصلت إلى هنا. وهذا يحتل أهمية كبيرة عندي». وأضاف بأن هذا المشهد يلخّص بعض العناصر الأساسية في حياته: الجيش، والإيمان والشعب.

كان الوقت قريباً من منتصف الليل، فعدنا ونزلنا السلّم. ووعدني تشافيز بأن يلتقي بي في اليوم التالي عند منتصف الظهيرة تقريباً لإكمال المقابلة.

حان وقت الظهيرة ودخلت في اليوم التالي، لكنني لم أسمع شيئاً من ميرافلوريس. ثم رنّ هاتفي بعد أن تجاوزت الساعة الخامسة من بعد الظهر بقليل. كن في القصر عند الساعة الثامنة مساءً. سيجتمع بك الرئيس.

وصلت في الوقت المحدد، ثم انتظرت ثلاث ساعات. لم يكن تشافيز في القصر، بل كان في مسرح تيريزا كارينو بالقرب من فندق الهيلتون. كان يدلي بتصريحات مثيرة عشية يوم ذكرى العمال في الأول من أيار. شاهدته على شاشة تلفزيون أحد مساعديه.

قال تشافيز بأن الحكومة ستزيد الحدّ الأدنى للأجور إلى ما يعادل 286 دولاراً في الشهر، وبعد إضافة قسائم الغذاء المجانية، سيصبح هذا الحد الأدنى للأجور في فنزويلا الأعلى في أميركا اللاتينية. كما قال بأنه سيحق لسيّدات البيوت الحصول على معاشات تقاعدية من الحكومة بعد أن يبلغن الخامسة والستين من أعمارهنّ لأن عملهنّ في منازلهنّ لا يقل مشروعية عن عمل أي عامل آخر.

وفوق هذا كله، أعلن تشافيز بأن فنزويلا ستسحب عضويتها من صندوق النقد الدولي ومن البنك الدولي. كما أن دولاً أخرى، مثل الإكوادور، لامت هاتين المؤسستين على الأزمات الاقتصادية التي تتخبّط فيها المنطقة وهي في طور القيام

بخطـوات مشابهـة. وقـال النقـاد بأن الانسحاب ربمـا لا يكون بهذه البساطة لأنه ربما يعني من الناحية التقنية التخلف عن سدّ بعض سندات الخزينة الفنزويلية.

أدلى الرئيس بتصريح آخر يحبس الأنفاس: أراد تخفيض ساعات العمل القانونية من ثماني ساعات إلى ستّ ساعات بحلول العام 2010. وأشار إلى أن العمال الذين راحوا ضحية مجزرة في أعمال الشغب التي اندلعت في شيكاغو هايماركت في القرن التاسع عشر ناضلوا من أجل جعل مدة العمل ثماني ساعات في اليوم منذ ما يزيد على قرن مضى، وإلى أن العديد من الدول لم تفعل شيئاً أكثر من ذلك.

أنهـى تشافيـز خطابـه بعـد الساعة التاسعة مساءً بقليـل، ثم عاد إلى القصر. وتم استدعائي أخيراً إلى الطابق الثاني في ميرافلوريس، فمشيت برفقة مساعد في المكتب الرئيسـي الفسيـح ثـم وصلنـا إلـى ردهة صغيرة حيث استقللنا مصعـداً نقلنا إلى الطابق الثاني. مشينا نحو ردهة أخرى إلى أن وصلنا إلى فناء خارجي شبه مغلق حيث كان تشافيز يجلس وحيداً إلى طاولة. كان يرتدي قميصاً أخضر وسترة سفاري خضراء، وبدا في حالة استرخاء.

صُعقـت مـرة أخـرى مـن طريقة تشافيز في التصرّف. ففـي حالة مناقضة لذلك الخطيـب المنفعـل الـذي يأسـر الجماهير في التجمعـات الشعبية والذي لا يصغي لأحد، علـى حـدّ زعـم ناقديـه، كان ليّـن الحديث ويصغي إلى أسئلتي بانتباه. كان يوجد على الطاولة أمامه رزمة من التقارير.

رأيت جهاز تلفزيون مثبتاً بالسقف، وكان تشافيز يبقي عينه عليه. كان مستعداً، بعد التصريحات التي أدلى بها في وقت سابق من ذلك المساء، للحظة تاريخية أخرى: وضـع الفنزويليـون أيديهـم علـى أربعة مشاريع نفطيـة رئيسية إلى الشرق من حوض نهر أورينوكو. لم تطرد الحكومةُ الشركات الأجنبية من المنطقة، لكنها تولت السيطرة علـى غالبيـة هـذه المشاريـع أي بنسبة 60 في المئة على الأقل. وفي مقدور الشركات مواصلة أعمالها كشركاء يملكون أقلية الأسهم إن هي شاءت ذلك.

أطلقت هذه الخطوة موجة عارمة من الانتقادات، فقد اتهم النقادُ تشافيز بتحويل فنزويلا إلى دولة شيوعية حيث تعمل الحكومة على السيطرة على كافة نواحي الاقتصاد وعلى كافة نواحي الحياة بوجه عام. وأعلن السيناتور كاي بايلي هاتشيسون عن ولاية تكساس، ورئيس اللجنة السياسية الجمهوري في مجلس الشيوخ بأن هذه الاستيلاءات تمثل آخر المخططات وأشدها خطورة في مسرحيات كاسترو. وصرّح المتحدث باسم وزارة الخارجيـة الأميركيـة سيـن ماكورناك بأن المفاوضات التي تجريها فنزويلا مع شـركات النفـط بشـأن شـروط الاستيلاء «ستتواصل وفقـاً لرغباتها»، لكنه هدد تشافيز مـن مغبـة القيـام بأعمال أخـرى، مثل الانسحاب من صندوق النقد الدولي ومن البنك الدولي، قائلاً بأن تشافيز يحفر قبر فنزويلا.

قـال ماكورنـاك: «لا يمكنـك انتـزاع الرفش من يد الرجل. وهو يواصل الحفر.

لكنه الشعب الفنزويلي الذي يذهب ضحية ذلك بكل أسف».

في الحقيقة، لم تكن الخطوات التي قام بها تشافيز شديدة التطرّف. فقد تمتعت فنزويلا بسيطرة كاملة على مشاريعها النفطية منذ أن قام كارلوس أندرياس بيريز بتأميم صناعة النفط في فنزويلا في العام 1976 ولغاية مستهل التسعينيات. والانفتاح النفطي الذي قامت به الحكومة في مستهل التسعينيات سمح لبعض الشركات الأجنبية بالعودة، لكن تشافيز يشدد الآن على أن تسيطر الحكومة على حصة الغالبية في هذه المشاريع. وضاع في غمرة النقاش حقيقة أن بلداناً مثل المكسيك والمملكة العربية السعودية لا تسمح بالمشاركة الأجنبية في الملكية في أي نوع من أنواع صناعاتها النفطية، وأن 75 في المئة من احتياطيات النفط في العالم تسيطر عليها شركات تملكها الدول مثل شركة بيتروليوس دي فنزويلا التي تملكها الدولة. فهل ستسمح الولايات المتحدة مثلاً للشركات الأجنبية بامتلاك حصة الأغلبية في مواردها الطبيعية الاستراتيجية؟.

تحدث تشافيز إليّ مدافعاً عن الاستيلاء، وقال بأن فنزويلا تستعيد الآن بعضاً من السيادة التي تنازلت عنها في التسعينيات بناء على ما أشارت إليه الدراسات الحديثة بأن فنزويلا ربما كانت تملك أكبر احتياطيات من النفط في العالم؛ حتى أكبر من احتياطيات المملكة العربية السعودية. وأضاف تشافيز بأن العديد من العمال الفنزويليين الذين يعملون في هذه المشاريع يجري استغلالهم من قبل الشركات متعددة الجنسيات. وقال بأنه جرى توظيف العديد منهم بناء على عقود مدتها ثلاثة شهور لكي لا تضطرّ الشركات إلى دفع المخصصات المستحَقة بموجب القانون، لتعود إلى توظيفهم مجدداً وعلى نحو مستمرّ عندما تنتهي مدة عقودهم. قال تشافيز: «سيتغير الوضع الآن بطريقة جذرية». سيتم إدراج أسماء نحو أربعة آلاف عامل على جداول رواتب شركة بيتروليوس دي فنزويلا، وسيحصلون على رواتب ومخصصات كاملة.

اشتكت الشركات النفطية من أنها استثمرت نحو 20 مليار دولار في تطوير حزام القطران الثقيل في أورينوكو، وهو الأمر الذي يتطلب استخدام تكنولوجيات متخصصة، وهي تخسر الآن تلك الاستثمارات. لكن تشافيز قال بأن الشركات دأبت على التهرب من دفع معظم ما يتوجب عليها من ضرائب طوال سنين. وحتى بعد الترتيبات الجديدة، بقي الوضع مربحاً بما فيه الكفاية لدرجة أن أكثر تلك الشركات اختار البقاء.

كان لا يزال هناك متسع من الوقت قبل منتصف الليل، ولذلك طرحت سيلاً من الأسئلة التي لم يتسنَّ لنا الوقت لمعالجتها في الليلة السابقة. سألت تشافيز متى خطرت بباله فكرة اشتراكية القرن الحادي والعشرين؟ هل كانت هذه ورقة خبّأها طوال سنين، أم أنه كان يتحين الوقت لسحبها، كما فعل فيدل كاسترو عندما أعلن عن ثورته الاشتراكية بعد بضع سنين على وصوله إلى السلطة؟.

قال تشافيز بأن «فكرة الاشتراكية لفتت انتباهي منذ زمن طويل. ولطالما كنت

تلميذاً جيداً في التيارات المختلفة. وبقيت مؤمناً بأنها تشكل بديلاً مثالياً، حتى بعد سقوط الاتحاد السوفييتي».

لكنه أشار إلى أن حركته العسكرية لم ترفع في ثمانينيات القرن الماضي شعار الاشتراكية، وإن يكن قد التقى بثوريين مثل دوغلاس برافو وألفريدو مانييرو. كان تركيز مجموعته منصباً في ذلك الوقت على القومية وعلى البوليفارية، ولم تكن الاشتراكية نموذجاً يحظى بقبول واسع.

قال تشافيز: «في تلك الأيام، أخفى اليسار شعار الاشتراكية ولم يكن يوجد أي حركة يسارية تقريباً في الأميركيتين ترفع هذا الشعار باستثناء كوبا. فالأحزاب الكبيرة المنتمية إلى جناح اليسار نأت بنفسها عن المشروع الاشتراكي، حتى إن الكلمة نفسها اختفت من القاموس السياسي». بدأ اليساريون بالحديث عن أشياء مثل تيرسير كامينو أو الطريق الثالث، وهو اسم المجموعة الجديدة التي أسسها برافو في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي.

أنكر مقولة أنه خطط لتشكيل حكومة اشتراكية عندما انتُخب رئيساً في كانون الأول 1998. وأشار إلى أن عضواً في القطب الوطني تحدث عن هذا الاحتمال، وأنه «لم يطرح الحزب الشيوعي هنا حتى فكرة الاشتراكية... ولن تجد في أي من الخطابات التي ألقيتها في حملة العام 1998 أو في الاقتراح الدستوري» إشارات إلى الاشتراكية. وعلى الرغم من أنه يوجد في الدستور الجديد، الذي تم إقراره في العام 1999 «عناصر اشتراكية، لكنه لم يصل إلى حدّ طرح فكرة الاشتراكية بطريقة واضحة ومكشوفة».

قال تشافيز بأنه بدأ بالتدريج، بعد أن أصبح الرئيس، بتبنّي فكرة الاشتراكية نتيجة «للنضج السياسي والإيديولوجي وللتحليل العميق». لكن الأمر الذي أوصله إلى الحافة، على حد قوله، كان انقلاب نيسان 2002 عندما كاد أن يُقتل. «توصلت قبل كل شيء إلى الاستنتاج، بعد الانقلاب، بأن أي محاولة للتوصل إلى اتفاق مع قوى النظام هنا، أي النظام القديم، ستكون غير مجدية».

قال بأن الانقلاب «سرّع العديد من الأمور. ودخلتُ في عملية تأمّل عميقة. كنت ولا أزال أتحرك منذ عدة سنوات وسط مأزق... المصالحة بين القوى الرجعية وبين القوى التقدمية. كان ذلك أشبه بجسر، على الصعيدين المحلي والدولي. لكني أدركت عندئذ بأن هذا أمر مستحيل.

أضاف تشافيز بأنه في الفترة نفسها تقريباً، ووسط مؤشرات تدل على أن الولايات المتحدة أيدت وربما لعبت دوراً نشطاً في الانقلاب، قرر الإفصاح عن الطابع المعادي للإمبريالية لثورته. لطالما جادلت الولاياتُ المتحدة بأنه، كما قال تشافيز: «من خلال التجارة الحرّة، سيسمح لنا أبونا الكبير والطيب بأن نعيش حياة أفضل. لكنّ العالم توصل إلى الاستنتاج بأن الإمبريالية ستبقى الإمبريالية الدموية كما كانت دائماً، وأكثر

شراسة من أي وقت مضى».

عندما سألتُه إذا اعتقد، في العام 1998 بأنه يستطيع أن يكون راديكالياً وهو رئيس ويجذب حكومته بقوة نحو اليسار، أجابني بالقول: «لطالما كنت راديكالياً وسأبقى راديكالياً».

لكن كيف يعرّف اشتراكية القرن الحادي والعشرين بالضبط، وهو اقتراح لا يزال غامضاً في نظر العديد من الناس ويطلق صفارات الإنذار لدى معارضيه؟ عرض عليّ بعض التدابير التي أعلن عنها في وقت سابق من اليوم كأمثلة جزئية على ما كان يجول في خاطره: حدّ أدنى جديد للأجور، منح معاشات تقاعد لسيّدات البيوت، والعمل لمدة ستّ ساعات في اليوم. وأشار إلى أنه لا يزال منكباً على اقتراح ساعات العمل الستّ منذ سنتين، وإلى أن كل عضو في الحكومة يؤيده. وأضاف: «لكنني لن أنتظر إلى أن يوافق الجميع على ذلك. فالقائد هو القائد».

قال تشافيز بأن مشروعه الاشتراكي يهدف إلى الدفاع عن المساواة، وعن الحرّية، والأخوة، وإلى تلبية الحاجات الأساسية مثل الغذاء، والتعليم، والسكن، والصحة، والوظائف. وأشار إلى عبارة قالها بوليفار عندما قال بأن مشروعه يهدف إلى توفير أكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر عدد من الناس. وقال بأنه لن يلغي الملكية الخاصة، على الرغم من أنه سيسعى إلى الملكية الاشتراكية، وإلى الإنتاج الاشتراكي والتوزيع الاشتراكي.

أصرّ تشافيز على أنه يرغب فوق كل شيء بنقل السلطة إلى الناس عبر آليات مثل مجالس المناطق. قال تشافيز: «أنا لا أرى في الاشتراكية شيئاً سوى أنها نظام ديمقراطي أصيل، وإن لم يكن ديمقراطية النخب». لكنه أضاف قائلاً: «أنا أعرف بأنني سأموت ولن نبلغ هدف الاشتراكية... هل يمكن بلوغ هذا الهدف بنسبة 100 في المئة؟ لا أعتقد بأن هذا أمر ممكن».

في تلك اللحظة، كانت تفصلنا بضع دقائق عن منتصف الليل. قاطع تشافيز المحادثة لكي يشاهد التلفزيون ويتابع الأحداث التي تجري في ولاية أنزواتيغي، حيث توشك فنزويلا على وضع يدها على المنشآت النفطية. تحدث إلى رئيس شركة بيتروليوس دي فنزويلا رافائيل راميريز ليطّلع منه على سرد مباشر لما كان يجري، وأمر راميريز بمخاطبة الأمّة.

وبعد نحو من عشر دقائق، أصبح الوضع في أنزواتيغي تحت السيطرة، فأسكت تشافيز صوت التلفزيون وعاد إلى المقابلة. أردت أن أطرح المزيد من الأسئلة عن دوغلاس برافو: هل لعب زعيم العصابات الأسطوري فعلاً دوراً هاماً في تكوين تشافيز، أم أنه ورفاقه بالغوا في وصف تأثيرهم فيه؟ قال تشافيز: «سيكون من الظلم الشديد من جانبي عدم الاعتراف بأهمية تلك المجموعة من الأشخاص خلال إحدى المراحل من حياتي». وأضاف بأنه تحدث إلى برافو عبر الهاتف مؤخراً، وأمل

برؤيته، على الرغم من أنه يعرف أن زعيم العصابات السابق شديد الانتقاد للحكومة التي يصفها بأنها «ليبرالية جديدة».

قال تشافيز: «إنه كثير الانتقاد لكنني أحترمه من صميم قلبي لأنه رجل مستقيم وثوري نزيه. ساعدني دوغلاس كثيراً، وأنا تعلمت الكثير منه».

وصلنا الآن إلى موضوع المدنيين الذين ساعدوه في تدبير مؤامرته، وأدركت بأن الوقت قد حان لكي أطرح السؤال الأكثر حساسية في جعبتي: علاقته بهيرما ماركسمان. وعلى حد علمي، لم يسبق أن اعترف علناً بوجود علاقة.

قلت له بأن العديد من القادة الذين أجريتُ مقابلات معهم - فرانشيسكو أرياس كارديناس ورؤول بادويل وجيسوس أوردانيتا - أشاروا إلى ماركسمان بوصفها شخصية مدنية هامة في المؤامرة. وهم لم يقولوا ذلك بهدف إحراج الرئيس، كما يبدو، أو بتشجيع منّي، وإنما أشاروا ببساطة إلى إحدى الحقائق في كتابة تاريخ الحركة. ولم يتحدث أحد عن كونها عشيقة، بل كأستاذة جامعية محترمة تدرّس التاريخ كانت مخلصة لحركتها ولتشافيز. وبما أنني توقعت رد فعل غاضب، سألت الرئيس إن كانت لعبت دوراً هاماً فعلاً.

ردّ تشافيز بهدوء وبدا متفاجئاً من السؤال بعض الشيء. قال بنبرة هادئة: «لكل شخص أهميته، وأنا لا أريد التقليل من دور أحد. هيرما ماركسمان. إنها مقاتلة». وأضاف مستخدماً الفعل كويرير في اللغة الإسبانية والذي يمكن أن يعني يحب لكنه ليس قوياً مثل الفعل أمار الذي يعني الحب الشديد: «كنت مولعاً جداً بها».

فوجئت إلى حد ما من صراحته بما أنني كنت شبه متأكد من أنه سيعمد إلى المراوغة أو حتى إنكار وجود علاقة. لكنه لم يفعل على الرغم من أنه لم يكن متلهفاً لتعليق هذا الخبر على ألواح الإعلانات. سألته إن كان من العدل مقارنة علاقتهما بالعلاقة التي تمتع بها سيمون بوليفار بمانويلا ساينز. ضحك تشافيز ورفض الفكرة وقال: «هل أنا بوليفار؟ لا يمكن أن أقارن نفسي ببوليفار. بوليفار رجل عملاق». أضاف تشافيز: «رافقته مانويلا ساينز في الحرب، وفي المعارك، وفي الحملات. كانت وفية حتى الموت».

من الواضح أن ماركسمان لم تكن وفية لتشافيز حتى الموت. كانت تنتقد الحكومة بقسوة، وهي لعبت دوراً نشطاً في نشاطات المعارضة. وعلّق تشافيز في وقت لاحق بأنه يعتقد بأن المعارضة سممتْها. وأضاف بنبرة حزينة: «هيرما ينبغي أن تكون معنا».

باعتبار أننا كنا نتحدث عن مسائل شخصية للغاية، اعتقدت بأنه ينبغي أن أسأل الرئيس عما ورد في السيرة **Hugo Chavez Sin Uniforme** (الذي نُشر في الولايات المتحدة بعنوان هوغو تشافيز) بشأن الخصام الذي وقع بينه وبين والدته ودام سنتين؛ لدرجة أنهما كانا يتجاهلان بعضهما إذا التقيا في الشارع.

قال تشافيز بأن هذا الكلام عار عن الصحة. وأضاف بأنه يجري المبالغة في الحديث عن تأثير قضية سببت هذا الخلاف المزعوم؛ زواجه من زوجته الأولى، نانسي كولميناريس. في حين أن العلاقة بين المرأتين لم تكن جيدة في البداية، أضاف تشافيز، فقد قامتا بزيارته في النهاية معاً عندما كان في السجن حتى إنهما عملتا معاً في مؤسسة للأطفال في باريناس.

تساءلت أيضاً عن قصة وردت في الكتاب تقول بأن القائد الشيوعي القديم في باريناس، خوسيه إستيبان رويز غيفارا، لقّن تشافيز مبادئ الماركسية والشيوعية عندما كان في سنّ المراهقة. سخر تشافيز من هذا القول، وأنكر أيضاً ما قيل بأنه دخل الأكاديمية العسكرية في العام 1971 حاملاً يوميات إيرنستو تشي غيفارا وقال بأنه من السخف الاعتقاد بأنه بدأ التخطيط للانقلاب وهو طالب. «هذا أمر غير منطقي البتّة».

عدنا إلى الحديث عن بيوت المؤامرة الرئيسية، مثل البيت الذي تملكه إليزابيث سانشيز في كاراكاس. سألته إن كان مكاناً رئيسياً فعلاً لعقد اللقاءات. قال تشافيز بأنه كان أحد المنازل الرئيسية التي كانوا يجتمعون فيها، لكن لدواع أمنية لم يكن من المستحسن الاجتماع في أي من تلك الأماكن بشكل متكرر. كما كان منزل سانشيز يعاني من عيب خطير: فهو يطلّ على شارع غير نافذ. أي أنه يتعين عليك الذهاب إليه والخروج منه عبر طريق واحد، وهو لا يوفر فرصة للهرب.

أشار تشافيز إلى أنه لم يجتمع في ذلك المنزل بدوغلاس برافو وحسب، بل وبضباط عسكريين منهم لويس رييز رييز. كما أنه أشار إلى أن ماركسمان عاشت هناك، وأنه المكان الذي تعرّف عليها فيه. وبما أننا عدنا إلى موضوع ماركسمان مجدداً، قررت أن أسأل عن شيء قالته لي في مقابلة، بأنّها حملت بطفل في مرحلة معينة، لكنها أجهضته. قال تشافيز ببساطة: «تملكتها الرغبة في مرحلة معينة بإنجاب طفل. لكننا لم نتفق على ذلك أبداً».

واصل الحديث عن خمسة اجتماعات عقدتها المجموعة البوليفارية، وقال بأنها عقدت اجتماعها الأول على الشاطئ خارج كاراكاس، وأنها عقدت الاجتماعات الأخرى في ماراكاي وسان كريستوبال وغيرها. وقال بأنه إذا أراد شخص الانضمام إلى منظمة سرّية، كانت المجموعة تدرس سيرته بدقة؛ وفي حال رفض عضو واحد انتسابه، فإن المرشّح يُرفض. قال تشافيز بأنه بحلول الوقت الذي جرى فيه الانقلابان في العام 1992، كانت الحركة أكبر الحركات من نوعها في تاريخ فنزويلا، بأعضائها الذين وصل عددهم إلى بضع مئات من الضباط والجنود. وأضاف: «لست أدري لماذا لم يكتشفوا أمرنا».

تذكّر كيف أن كليبر راميريز - حليف مقرّب من دوغلاس برافو - ساعد على تحرير بعض المراسيم التي أعدّوها لانقلاب 4 شباط، وقال بأنه لا يزال يراجعها

بيـن الحيـن والآخـر. تتضمن هذه المراسيـم بعض الأفكار التي يحاول تطبيقها اليوم، بما في ذلك مجالس الأحياء وفكرة السلطة الشعبية. فكّر في راميريز والآخرين وقال: «جميعهم يسكنون في قلبي، وأنا أكنّ لهم مودّة عميقة».

كانـت الساعـة تشيـر إلـى الواحدة والنصف بعد منتصف الليـل وقال تشافيز بأنه عليـه الذهـاب. تحدثنـا علـى انفـراد ساعتين ونصف الساعة تقريبـاً، فضلاً عن الوقت الـذي أمضينـاه فـي الليلـة السابقة. كان لا يزال لـدى تشافيز عمل يتوجب عليه القيام بـه. سيسافـر إلـى شرقـيّ البلاد في وقت لاحق للإشارة إلى وضع اليد على المشاريع النفطية في خطاب ذكرى العمال. وكان عليه قبل أن ينهي يومه أن يدرس التقارير التي تبين تفاصيل تلك العملية.

مشينـا نحـو المصعـد الصغيـر. وعلّـق تشافيز بالقول بأنه يتابـع السباق الرئاسي المزمـع إجـراؤه فـي الولايـات المتحدة في العام 2008، وبأنه يأمل بأن يفوز شخص مثل باراك أوباما. وقال: «شخص يمكننا التحدث إليه على الأقل»، في إشارة واضحة إلى الانقطاع في الاتصالات مع جورج دبليو بوش وإدارته.

دخلت المصعد، ووقف القائد عند نهاية الردهة ولوّح بيديه يريد وداعي. لوّحت بيـدي أيضـاً، وعندمـا وصلـت إلى أسفل السلّم، وجـدت أن رئيس الموظفين لا يزال منكبّـاً علـى العمـل مـع لفيف من المساعدين. إن الثورة التي لا تعرف الراحة تواصل مسيرتها نحو مصير لم يتقرر بعد.